



جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الاجتياح المغولي لشرق العالم الإسلامي وأثاره

(٥٩٦-٦٣٩هـ / ١١٩٩-١٢٤١م)

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه

إعداد

نسيبه أحمد محمد

إشراف

أ.د. سهيل زكار

العام الدراسي ٢٠١٤-٢٠١٥

الإهداء

إلى

زوجي الحبيب الذي شكّل وجوده في حياتي حافزاً لإكمال عملي الذي بدأت به منذ سنوات.

أسرتي الصغيرة والتي رافقتني منذ بداية تحصيلي العلمي وكانت خير مساندٍ وداعمٍ لي لتحقيق أحلامي وطموحاتي.

الدكتور سهيل زكار وزوجته أسرتي الثانية التي لم تبخل بتقديم النصح والدعم المستمرين لي.

بطاقة شكر وتقدير

يسرني أن أقدم جزيل الشكر والتقدير

للأستاذ الدكتور سهيل زكار

الذي تكرم بالإشراف على هذا البحث، ومنحني من وقته وجهده الشيء الكثير وقدم الدعم والنصح والملاحظات القيمة التي أغنت هذا البحث وساهمت في انجازه. وأشكر كذلك الأمر أساتذتي في قسم التاريخ بجامعة دمشق، و زملاء الدراسة أنس المحمد و رجاء عباس و سومر حزنقور ومها بيطار وكلّ من قدّم المساعدة لي وكان له دور في انجاز هذا البحث.

الرموز الاصطلاحية

ت	=	توفي
ج	=	جزء
(د، ت)	=	دون تاريخ
ص	=	صفحة
ط	=	طبعة
ق	=	ورقة
م	=	ميلادي
مج	=	مجلد
هـ	=	هجري

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة :	٩
تعريف بأهم المصادر والمراجع :	١٣
الفصل الأول : الدولة الخوارزمية وعلاقتها مع الكيانات القائمة في مشرق	
العالم الإسلامي :	٢٣
أولاً : الدولة الخوارزمية النشأة والتكوين .	٢٥
ثانياً : علاقة الدولة الخوارزمية مع الكيانات المجاورة لها :	٣٣
١- مع الدولة السلجوقية في خراسان وعراق العجم	٣٣
٢- قلاع الاسماعيلية	٤١
٣- مملكة شمال الصين كاثاي (الخطا)	٤٦
٤- الخلافة العباسية في بغداد	٥٠
أ- العلاقة مع الخلافة العباسية حتى وفاة السلطان علاء الدين تكش	
سنة ٥٩٦ هـ / ١٩٩٩ م	٥٠
ب- العلاقة مع الخلافة العباسية من وفاة السلطان تكش ٥٩٦ هـ /	
١٩٩٩ م إلى انهيار بقايا الأسرة الخوارزمية في عهد السلطان جلال	
الدين منكبرتي ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م	٥٢
٥- الدولة الغورية	٥٦
الفصل الثاني : المغول وتأسيسهم لدولتهم:	٦١
أولاً : أوضاع القبائل المغولية المعاشية والاجتماعية والدينية قبل قيام	
جنكيزخان:	٦٢
١- أصول المغول والقبائل التي انتموا إليها ومناطق سكنهم	٦٢
٢- أوضاع القبائل المغولية الاجتماعية	٦٧
٣- معتقدات المغول الدينية: (الشامانية ، النسطورية ، المؤثرات البوذية)....	٧٢
ثانياً : تأسيس جنكيزخان لدولته وتنظيماته :	٨٠
١- جنكيزخان مولد ونشأته	٨٠

- ٢- سياسة جنكيزخان اتجاه من جاوره من القبائل المغولية..... ٨٤
- ٣- سياسة جنكيزخان العسكرية..... ٨٧
- ٤- الياسا (الدستور المغولي)..... ٩٠
- الفصل الثالث: اجتياح المغول للدولة الخوارزمية حتى وفاة السلطان علاء الدين محمد سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م:..... ٩٤

- أولاً: الأسباب التي دفعت المغول لاجتياح أراضي الدولة الخوارزمية..... ٩٥
- ثانياً : الاجراءات التي اتخذها كل من المغول والدولة الخوارزمية تماشياً مع حالة الحرب التي أعلنها المغول..... ١١١

ثالثاً : بدء المغول باجتياح بلاد ما وراء النهر:..... ١١٨

- ١- التوجه نحو أترار و الاستيلاء عليها..... ١١٩
- ٢- محاصرة جند والاستيلاء عليها..... ١٢١
- ٣- اسقاط كل من مدينتي بناكت و خجند..... ١٢٤
- ٤- التوجه نحو بخارى والاستيلاء عليها..... ١٢٨
- ٥- اجتياح سمرقند و تخريبها..... ١٣٧
- ٦- اسقاط مركز الدولة الخوارزمية المتمثلة بمدينة الجرجانية (خوارزم)..... ١٤٣

رابعاً: ارسال المغول فرقة لمطاردة السلطان علاء الدين محمد و وفاته سنة

٦١٧هـ/ ١٢٢٠م..... ١٥٥

الفصل الرابع: الاجتياح المغولي لخراسان واقليم الجبال وأذربيجان حتى وفاة

السلطان جلال الدين منكبرتي:..... ١٦٧

أولاً: الاجتياح المغولي لخراسان:..... ١٦٩

- ١- توجه جنكيزخان نحو بلخ وتدميرها..... ١٧٠
- ٢- حصار جنكيزخان للطالقان واجتياحه لقلعتها..... ١٧٥
- ٣- استيلاء المغول على مرو..... ١٧٨
- ٤- تدمير المغول مدينة نيسابور..... ١٨٥

- ٥- توجه المغول نحو هراة وطوس وتدميرهما..... ١٩٢
- ٦- حصار مدينة نسا..... ٢٠٠
- ثانياً: اجتياح المغول لإقليم الجبال:..... ٢٠٥
- ١- حصار مدينة همذان واجتياحها..... ٢٠٦
- ٢- توجه المغول نحو الري..... ٢١٢
- ٣- محاصرة مدينة قزوین وتدميرها..... ٢١٦
- ثالثاً: اجتياح المغول لمناطق طبرستان والغور:..... ٢١٩
- ١- التوجه نحو طبرستان أو ما عُرف باسم اقليم مازندران:..... ٢١٩
- ١- تدمير مدينة الباميان..... ٢٢٦
- ٢- اجتياح المغول لمدينة غزنة وصدامهم مع السلطان جلال الدين منكبرتي:..... ٢٢٩
- أ- حال غزنة غداة وصول السلطان جلال الدين منكبرتي إليها..... ٢٢٩
- ب- موقعة بيروان سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م..... ٢٣٣
- ج- موقعة نهر السند سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م..... ٢٤٤
- د- اجتياح المغول لمدينة غزنة..... ٢٥٠
- رابعاً: اجتياح المغول لإقليم أذربيجان:..... ٢٥٣
- ١- حصار تبريز..... ٢٥٤
- ٢- توجه المغول نحو أردبيل..... ٢٦٠
- ٣- اجتياح مدينة مراغة..... ٢٦٣
- خامساً: مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م..... ٢٦٥
- الفصل الخامس: الآثار التي ترتبت على الاجتياح المغولي لمشرق العالم الاسلامي:..... ٢٧٩

أولاً: الآثار السياسية والعسكرية.....	٢٨١
ثانياً: الآثار الدينية.....	٢٩٦
ثالثاً: الآثار الاقتصادية (الآثار على الزراعة ولا سيما على أنظمة الري).....	٣٠٢
رابعاً: الآثار الحضارية.....	٣١٥
خاتمة.....	٣٣٣
تعريف	٣٣٩
ملاحق.....	٣٦٧
جريدة المصادر و المراجع:.....	٣٧٦
أولاً: المصادر	٣٧٧
ثانياً: المراجع:	٣٨٣
١- المراجع العربية.....	٣٨٣
٢- المراجع المعربة.....	٣٨٦
٣- الأبحاث والدوريات والمقالات.....	٣٨٩
٤- المراجع الأجنبية.....	٣٨٩

مقدمة :

عانت الخلافة العباسية خلال تاريخها الطويل من نكبات كثيرة ، تمثلت بقيام فئات عدة بالثورة عليها رغبة في الاستقلال وإنشاء كيانات منفصلة أو بتسرب فئات دخيلة على نسيجها ومن أهم تلك الفئات التي بدأت بالتسرب منذ العصر العباسي الأول الأتراك والذين أحدث دخولهم خلافاً ليس فقط في التنظيم السياسي بل بالنسيج الاجتماعي للدولة العباسية ، كثر عدد هؤلاء وتمكنوا فيما بعد من إنشاء كيانات مستقلة لهم بدأت في مناطق ما وراء النهر وخراسان وتمكنت فيما بعد من دخول بغداد والسيطرة على مقاليد الحكم فيها، وقد كانت هذه الدول سريعة الزوال ، فما أن تقوم دولة تركية وتفرض نفوذها على مناطق خراسان وعراق العجم وتتسرب إلى داخل القصر العباسي ، حتى كانت تقوم دولٌ أخرى أقوى منها تقضي عليها وتشغل المكانة ذاتها التي شغلتها سابقاً وهكذا . كان حال المشرق الإسلامي والذي لم تزده تلك الدول إلا تضعفاً وضعفاً وتمزقاً . لم تكن تلك الفئات هي النكبة الوحيدة التي ابتلى بها . بل ابتلى أيضاً بموجات الغزو الصليبي والتي نجحت في السيطرة على بلاد الشام وإقامة إمارات مستقلة فيه واستمرت لمدة من الزمن حيث انشغل حكام بلاد الشام ولاسيما الأيوبيون بالصراع معهم رغبة في تحجيم كياناتهم والقضاء عليهم بشكل نهائي، ولقد استنفدت تلك الكيانات خيرات المنطقة ومواردها البشرية والاقتصادية . أما النكبة الثالثة التي ابتلى بها المشرق فهي من أصعب النكبات لكونها محت كل آثار الحضارة فيه وأحالتها إلى خرابٍ كاملٍ . وقد تمثلت بتحريك موجاتٍ ضخمةٍ من شعوب بدوية انطلقت من مناطق صحراء غوبي وسلسلة جبال ألتي ومناطق منغوليا نحوه، وقد دفعها للتحرك ضغط الشعوب التي عاشت معها ، وعناصر الحضارة والخصوبة التي تمتعت بها مناطق المشرق وحرمت منه بلادها . كانت تلك الموجات عبارة عن شعوب المغول التي اجتاحت وبشكل فجائي مناطق شاسعة امتدت من أطراف منغوليا حتى حدود بغداد وذلك بين سنتي ٥٩٦ - ٦٣٩ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤١ م حاملةً معها مظاهر الرعب والقتل والتدمير . حيث استطاعت تلك الشعوب القضاء على الدولة الخوارزمية التركية التي سيطرت على مناطق ما وراء النهر وخراسان ومساحات واسعة امتدت حتى عراق العجم ، وهددت عدداً من الكيانات الموجودة في المنطقة بشكل غير مباشر بدايةً، ولكن فيما بعد تمكنت من القضاء عليها كما قضت على سابقاتها تاركةً العديد من الآثار ليس على المستوى السياسي فحسب بل على المستوى الاقتصادي والحضاري ومن ضوء موجات تلك الشعوب المغولية وأعمالها التخريبية في المشرق تم اختيار موضوع البحث والذي حمل العنوان التالي :

الاجتياح المغولي لمشرق العالم الإسلامي وآثاره (٥٩٦ - ٦٣٩ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤١ م)

جاء اختيار هذا البحث على ضوء أن الدراسات التي تناولت موضوع المغول وموجات اجتياحهم للمشرق كثيرة ولكنها ركزت بشكل أساسي على ما يخص منطقة العراق وبلاد الشام أكثر من تركيزها على مناطق ما وراء النهر وخراسان وما تبّع لهما من أقاليم. هذا من جانب، ومن الجانب الآخر فقد وجدت دراسات عدة اهتمت بالدولة الخوارزمية ولكن ركزت على صراعاتها مع الأيوبيين وأشارت لصراعها مع المغول ولكن بوتيرة أقل . كما أن معظم الدراسات كان تقليداً لما سبقها من دراسات أولى .

لذا تم اختيار هذا البحث لتبيان مايلي: أولاً لإلقاء الضوء على تاريخ مشرق العالم الإسلامي قبل الزحف المغولي، ولتوضيح تحركات الشعوب فيه والدويلات التي كانت قائمة في تلك الحقبة وبشكل خاص الدولة الخوارزمية وعلاقتها مع من جاورها من الدول . ثانياً توضيح مقدار الخراب والدمار الذي ألحقه الغزاة الجدد بمشرق العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، وأهم شيء إزالة اللبس الذي أحاط بالمغول ومعتقداتهم الدينية وتنظيماتهم العسكرية وعلاقتهم مع الدول المحيطة بهم إضافة إلى الرغبة في تتبع حملات المغول التي سيطروا من خلالها على مناطق ما وراء النهر وخراسان وأذربيجان وما تبع لتلك المناطق من أقاليم ، وتوضيح كيفية قضائهم على الدولة الخوارزمية، وأهم ما في الأمر إظهار الآثار التي خلفها هؤلاء على مختلف جوانب الحياة هناك .

وتبرز أهمية البحث من كون معظم الدراسات التي اهتمت بالمغول اتخذت صفة الإجمال ولم توجد دراسات خاصة بمراحل معينة من حياتهم ، لذا تبرز أهميته من كونه ركز على المرحلة الأولى من حياة المغول منذ ظهور جنكيز خان حتى وفاته إضافة للحديث عن مراحل من حياة خليفته أوكتاي ت ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م وقد أمكن التعمق في ذلك البحث ولاسيما بعد ظهور عدة مصادر جديدة تمت ترجمتها إلى اللغة العربية والتي مكنت من إلقاء أضواء جديدة على أصول المغول وحياتهم ومعتقداتهم وكيفية نظرهم إلى الشعوب الأخرى التي احتكوا بها إضافة لرسم صورة واضحة ومفصلة لحملاتهم على مدن ما وراء النهر وخراسان وغيرها من المدن التي اجتاحتها في تلك الأقاليم مع الحرص على إبراز نتائج ذلك الاجتياح على الإقتصاد والنظم السياسية والقدرات العسكرية لدول المنطقة، وأهم شيء الآثار الحضارية والتعليمية التي مكنت من التعرف على حجم الكارثة التي ألمّت بالبشرية من جراء حملاتهم التي لم يكن هدفها السلب والنهب فقط بل حملت أهدافاً أوسع وأعمق على ذلك .

ركز البحث على جميع هذه الجوانب وتأثيراتها ليس المرحلية فقط بل المستقبلية. لا يخفى على أي باحث بأن دراسة تحركات الشعوب وموجات اجتياحهم لبلدان جديدة هي من الدراسات التي تحتاج إلى جهد كبير لكونها تتطلب إماماً بكافة جوانب الموضوع ضمن الزمان والمكان

المحددين كما تتطلب فكراً عميقاً يمكّن من تحليل المعلومات التاريخية وربط الأفكار ومقارنتها مع بعضها البعض لتوصل للنتائج المرجوة .

وقد قام منهج البحث على استقصاء المادة العلمية من المصادر والمراجع وعرضها ونقدتها وتحليلها والمقارنة بينها بهدف استجلاء الحقيقة التاريخية واستخلاص النتائج ، كما اعتمد على استقراء بعض الأخبار والأحداث ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه والإفادة منها قدر الإمكان في البحث ، ولقد تم تتبع موجات اجتياح المغول للمشرق ، وذلك بالحديث أولاً عن أحواله وبعدها عن ماهية المغول وأصولهم، وبعدها موجات اجتياحهم والتي قضوا خلالها على أشكال الحياة للدول التي اجتاحتها وذلك من خلال دراسة المادة العلمية التي خلفها المؤرخون الفرس والعرب وبعض الرحالة و المبشرين الكاثوليك الذين زاروا المنطقة واطّلعوا على أحوال هؤلاء .

يقع البحث في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة : وقد خصصت المقدمة لتبيان أهمية البحث وإشكاليته وأسباب اختيار الموضوع وصعوباته وخطة البحث ، والتعريف بأهم المصادر المعتمد عليها ، وتتناول الفصل الأول الدولة الخوارزمية وعلاقاتها مع الكيانات القائمة في مشرق العالم الإسلامي . حيث تم تقديم عرض موجز بعض الشيء لنشأة تلك الدولة وعلاقاتها مع كل من الدولة السلجوقية في خراسان وعراق العجم التي نجحت بالقضاء عليها ومع قلاع الإسماعيلية ومملكة الخطا ، والخلافة العباسية في بغداد والتي تذبذبت علاقتها بها وأخيراً مع الدولة الغورية .

وعالج الفصل الثاني في قسمه الأول: ماهية المغول وتأسيسهم لدولتهم وذلك بالتطرق لأصولهم وقبائلهم التي انتموا لها وأوضاع حياتهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية ، أما القسم الثاني : فقد أوقف على الحديث عن شخصيتهم شبه الأسطورية جنكيزخان أين ولد و نشأ؟ وكيفية تمكنه من توحيد القبائل تحت سلطته ، وتكوينه لدولة ناشئة ، ومن ثم الحديث عن تنظيماته العسكرية وقوانينه التي استنتها لقومه. وتتناول الفصل الثالث اجتياح المغول للدولة الخوارزمية حتى وفاة السلطان علاء الدين محمد سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م من خلال توضيح أسباب اندفاعهم نحوه ثم خط سير عملياتهم وذلك بسيطرتهم على مدن أترار "فارياب" ، جند، وبخارى، وسمرقند، وخوارزم وغيرها من مدن الدولة انتهاء بوفاة السلطان علاء الدين محمد .

وأوقف الفصل الرابع على حملاتهم على كلّ من إقليم خراسان وإقليم الجبال وأذربيجان حتى وفاة جلال الدين منكبرتي وذلك بسرد مجريات اجتياحهم لمدن خراسان المهمة ، ومدن طبرستان والغور ومناطق الباميان وغزنة إضافة إلى توضيح نتائج صدامهم مع السلطان جلال الدين وختم الفصل بتوضيح خطوات اجتياحهم إقليم أذربيجان ومقتل السلطان جلال الدين وأهم صفاته .

واهتم الفصل الخامس بایضاح الآثار التي ترتبت على الاجتياح المغولي لمشرق العالم الإسلامي من خلال عرض الآثار السياسية والعسكرية وبعدها الاهتمام بالآثار الدينية

والاجتماعية ، ومن بعدها توضيح ما خلفه هؤلاء من آثار على الاقتصاد وعلى حضارة الشعوب التي اجتاحتها بشكل عام. وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي تمّ التوصل إليها واطروحتة وجرى تدعيم البحث بقائمة تعاريف "Glossery" لأهم الأماكن والأعلام التي وردت في الحواشي لكون الحواشي خصصت للتوثيق فقط .

وأخيراً أتوجه بالشكر الكبير والامتنان العميق لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي تكرم بقبول الإشراف على البحث وقد منحني الكثير من وقته الثمين وعلمه الغزير ، مسدداً خطاي ، ومذلاً الصعوبات التي اعترضتني حتى تمكنت من إنجاز البحث .

وختاماً أمل أن يكون هذا البحث قد أسهم اسهاماً جاداً في إحياء جوانب مهمة من التاريخ ، وأن يكون قد كشف عن بعض الحقائق التي كانت غامضة فيه وجلّ أمني أن أكون قد وفقت في إنجازه وإن قصرت فإن الإنسان قاصر عن بلوغ الكمال والله وليّ التوفيق .

تعريف بأهم المصادر والمراجع :

تناول هذا البحث بالدراسة الاجتياح المغولي لمشرق العالم الإسلامي وآثاره التي خلفها على المنطقة بالتالي فقد اهتم بدراسة أوضاع المشرق الإسلامي وأوضاع المغول ، وكيفية اندفاعهم نحو المنطقة وانعكاسات ذلك الاندفاع على الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية والحضارية . لذا فإن المادة العلمية للبحث وجدت في بعض الكتب التي اهتمت بالتأريخ للمغول ، وفي بعض كتب التواريخ العامة ، وكتب التراجم والجغرافية إضافة لبعض الكتب التي خطها مؤرخون وجدوا في بلاط المغول . لذا لابد من التعرف على أهم المصادر التي قدمت مادة ثمينة وقيمة أغنت البحث في جوانب عديدة .

أهم المصادر تلك التي تناولت المغول واجتياحهم لمشرق العالم الإسلامي بين عامي ٥٩٦ هـ - ٦٣٩ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤١ م المصادر الفارسية والتي حرص على تدوينها إما باللغة العربية أو الفارسية أو بكلاهما عدد من المؤرخين الذين عاصر بعضهم تلك الحقبة وأحداثها، وبعضهم الآخر عاش في حقبة لاحقة لها. ومن أهم تلك المصادر التي جرى الاعتماد عليها بشكل أساسي في البحث كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي^(١) تأليف محمد بن أحمد بن علي بن محمد النسوي ت . بعد سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م والذي ولد ونشأ في قلعة من قلاع خراسان على مقربة من مدينة نسا ، والتحق بخدمة السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م وأضحى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م كاتبه الخاص . مما أمكنه ملازمته في أوقاته الحرجة بل إنه أرسل من قبله سفيراً للعديد من الكيانات السياسية التي وجدت في المنطقة وانتهى به المطاف في مدينة ميافارقين سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م حيث اطلع فيها على تفاصيل مصرع السلطان جلال الدين . وقد عاش حتى سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ولم يُعرف ماذا حدث له بعد ذلك ، وكان النسوي يُجيد التحدث باللغتين العربية والفارسية .

ألف كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي حيث أوقفه ليس فقط على سرد تاريخ حياة السلطان جلال الدين بل استهل كتابه بسرد حوادث المغول في وطنهم الأول ، وتتبعهم إلى أن حطوا رحالهم على حدود المشرق الإسلامي ، ثم تحدث عن الدولة الخوارزمية في عهد السلطان علاء الدين محمد وعن صراعه مع المغول حتى وفاته وسقوط دولته ، بعد ذلك بدأ بتفصيل الحديث عن الأحداث التي تعلقت بالخوارزميين في عهد آخر حاكم لهم وهو السلطان جلال الدين منكبرتي حتى وفاته ، ويعدّ كتابه غاية في الأهمية لكونه شاهد عيان على أحداث كثيرة، وقد ساعدت محتويات الكتاب في رفد المادة العلمية المتعلقة بالفصل الأول والثاني والفصلين

(١) نشره وحققه : حافظ أحمد حمدي ، مصر ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣ م.

الثالث والرابع وبشكلٍ خاصٍ ما تعلق بأحداث اجتياح بعض المدن أو ما تعلق بالسلطان جلال الدين منكبرتي وتعامله مع من جاوره من القوى السياسية ومع المغول .

أما المصدر الفارسي الثاني الذي لا يقل أهميةً عن كتاب النسوي فهو تاريخ جهانكشاي " فاتح العالم"^(١) لعلاء الدين عطا الملك بن بهاء الدين محمد الجويني (٦٢٣ - ٦٨١ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٨٢ م) .

ولد الجويني سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م وكانت جحافل المغول مازالت تعيثُ فساداً في المكان، عمل في الشؤون الديوانية في عهد منكوخان ت ٦٥٨ هـ / ١٤٥٩ م و رافق هولوكو في رحلته لاجتياح قلاع الاسماعيلية وبغداد وهو دون الثلاثين من عمره حيث كان كاتبه ومستشاره الخاص ذلك الأمر مكنّه من الإطلاع على معلوماتٍ كثيرةٍ ومن مراقبة مجرى الاحداث في تلك الحملة. تولى بعدها منصب حاكم العراق سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م ولقد استمر الجويني يمارس وظيفته تلك على الرغم من الصعوبات التي كانت تعترض طريقه بين الفينة والأخرى حتى وفاته سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م .

ألف الجويني تاريخه في سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م الذي تتبع أهمية كتابه في أنه مؤلف من ثلاثة أقسام، القسم الأول يتعلق بحياة المغول في مراحلهم الأولى ، وظهور جنكيز خان وحملاته التي قادها باتجاه ما وراء النهر وخراسان حتى زوال دولة خوارزمشاه يضاف إليها حديثه عن أولاد جنكيز خان وشخصية كلّ واحدٍ منهم. أما القسم الثاني فقد تحدث فيه عن تاريخ السلاطين الخوارزميين وعن القراخطاي وبعض حكام إيران المغول. أما القسم الثالث فقد أوقفه على تاريخ منكوخان وتفاصيل حملة هولوكو على إيران وتاريخ الإسماعيلية حتى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م. جمع الجويني معلوماته من خلال رحلاته التي قام بها لعاصمة المغول قراقورم ، ومن أفواه بعض المعمرين المغول الذين عاصروا تلك الحقبة ، ومن السجلات الرسمية ، ومن بعض الكتابات المغولية ومن مرافقته لهولوكو في حملته نحو المشرق . لذا تعدّ معلوماته غاية في الأهمية لكونها لم توجد في مصدر آخر، ولكونها تمثل وجهة نظر معينة وهي الحكومة المغولية لذا فقد أمدّ كتابه ذاك البحث بمعلومات قيمة جرى الاستفادة منها في صياغة فصول البحث.

أما المصدر الفارسي الثالث فهو التاريخ الغازاني من جامع التواريخ^(٢) لرشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة الهمذاني (٦٤٥ - ٧١٨ هـ / ١٢٤٧ - ١٣١٨ م) .

ولد سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م لأسرةٍ يهودية اختص بالطبّ والتحق بخدمة أباخان ت. ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ونال بذلك لقب رشيد الدين وبعد وفاته عمل لدى غازان خان ت. ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م في عهده أعلن عن دخوله في الإسلام ، وفي سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م اتخذ غازان

(١) ترجمه عن الفارسية وحققه: محمد ألتونجي ، دمشق ، دار الملاح ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م وهو يقع في جزئين

(٢) حرص على تحقيقه من نسخة من مخطوطة عربية . أ. د. سهيل زكار، دمشق ، الكتاب قيد النشر .

وزيراً له ، وكلفه بالتأريخ له وللمغول فشرع بكتابة كتاب كبير أطلق عليه اسم التاريخ الغازاني أو جامع التواريخ ، ووضع غازان تحت تصرف وزيره جميع الوثائق والمدونات المغولية وقد أكمل العمل بعد وفاة غازان في عهد أخيه أولجاتيو ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م وطلب منه التوسع في أخباره بالحديث عن الشعوب التي دانت بالطاعة للمغول وهكذا أضحى اسمه جامع التواريخ ولقد ساعده في عمله ذاك عددٌ كبيرٌ من الخبراء والاختصاصيين من مختلف الأمم لذا أخذ ذلك الكتاب صبغةً جماعيةً . حُقق الكتاب بجزئيه من قبل المستشرق الفرنسي كاترمير ، وبعد ذلك من قبل الدكتور يحيى الخشاب ولكن الدكتور سهيل زكار عثر على مخطوطة عربية أصيلة كتبت رديفةً للتاريخ الغازاني حرص على تحقيقها احتوت معلوماتٍ مهمةٍ عن قبائل المغول وحياتهم الأولى ، وعن أسرة جنكيزخان والدول التي عاصرتها وعن اجتياح المغول للمشرق وحال مدنه وما أصابها ، وأضاف لذلك قسم خاص أوقفه على مدة حكم أوكتاي خان ت ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م وحكايات تعلقت بسلاطين المغول وأولادهم ومن عاصرهم من الدول حتى أيام حكم كيوك خان . ولذلك يعدّ جامعاً لأخبار المغول وتتبع أهميته من كونه اطلع على مصادر لم يطلع عليها أحد قبله ، ورصدت له إمكانات كبيرة ، توفي رشيد الدين سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م حيث قتل على يد المغول لاتهامه بدس السم للخان ألاجاتيو مخلفاً تاريخاً مهماً جرى الاستفادة منه في كتابة البحث ولاسيما ما تعلق بأخبار المغول وحملاتهم نحو المشرق وما خلفوه من آثار . هذه كانت أهم المصادر الفارسية التي جرت الاستفادة منها .

أما أهم المصادر العربية التي اعتمد عليها البحث فقد تنوعت ما بين تواريخ عامة ، و تواريخ خاصة ، و سير و تراجم و ما بين كتب جغرافيا ورحلات ، لذا سيتم التطرق لأبرزها: و من بين أهم المصادر العربية والذي صنف تحت بند كتب التواريخ العامة كتاب الكامل في التاريخ لمؤلفه عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٥٩ - ١٢٣٢ م) .

ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥٩ م ثم انتقل إلى الموصل مع أبيه وأخوته ، استقر هناك ولكنه كان كثير التنقل بين مدن العراق والشام مهتماً بتحصيل علوم الدين والحديث والأدب والأنساب ، ولكنه في سنواته الأخيرة اعتزل الناس في بيته وتفرغ للعلم والتصنيف وظلّ هكذا إلى أن توفي سنة ٦٣٠ هـ / ١١٣٢ م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين ودفن بالموصل ، ألف العديد من الكتب كان من أهمها - والذي اعتمد عليه هذا البحث - كتاب الكامل في التاريخ والذي صُنف تحت إطار كتب التاريخ العامة فقد ألفه ابن الأثير متحدثاً فيه عن الأمم منذ بدء الخليقة حتى الحقبة التي عاصرها وشهد أحداثها ، تتبع أهميته من أن مؤلفه إضافةً لكونه استقى معلوماته من كتب من سبقه ولاسيما الطبري ، ولكن تميز أسلوبه بنظرة ناقدة .

حوى الكتاب معلوماتٍ مهمةً أمدت البحث وخاصة أجزاءه الثلاث الأخيرة والتي دونها المؤرخ معتمداً في قسم كبير منها على مشاهداته الخاصة أو على ما سمعه من أفواه الشخصيات التي عاصرت الأحداث ومن بعض الوثائق الرسمية التي وصلت إلى إمارة الموصل ، فيما تعلّق بالمغول فإنّه يعدّ المؤرخ العربي الذي فصل في الكتابة عنهم وعن أحوالهم وعن حملاتهم التي قادوها على دول المنطقة، وخصص قسماً كبيراً لذلك الأمر ، كما خصص قسماً لذكر الدولة الخوارزمية ومن عاصرها من الكيانات السياسية لذا يتقرّد بكونه مصدراً مهماً أغنى البحث بمعلوماته .

أما المصدر الثاني الذي جرى الاعتماد عليه كذلك لصياغة كثيرٍ من الأحداث المتعلقة بصراع الدولة الخوارزمية مع المغول وبعد ذلك صراع الدولة الخوارزمية مع الكيانات المجاورة لها وبشكلٍ خاصٍ مع الكيانات الأيوبية فهو مفرج الكروب في أخبار بني أيوب والذي أوقفه مؤلفه على تاريخ الكيانات الأيوبية التي وجدت في المنطقة لكونه قد عاصر تلك الكيانات والأسر بل كان أحد رجال الدولة المشهورين وهو ابن واصل (٦٠٤ - ٦٩٧ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٩٧ م) ولد جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل في حماة سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م كان والده قاضي حماة والمعرفة لذا لازمه وحضر معه مجالس الفقهاء والعلماء مما أكسبه الكثير من العلوم والمعارف . أقام ابن واصل علاقاتٍ واسعةً مع حكام عصره ومع الوزراء والأعيان والعلماء وزار بلدان مختلفة، و هذا الأمر جعله ملماً بالعلوم الدينية والعقلية من فقه وأصول وأدب ونحو وصرف وفلك ورياضيات ألف العديد من المؤلفات سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م من كتبه والتي اعتمد عليها مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، يقع الكتاب في خمسة أجزاء يمكن وضعه بين كتب السير الخاصة أو التواريخ الخاصة لكون مؤلفه أوقفه فقط على الأسرة الأيوبية، ولكن لكون تلك الأسرة كانت معاصرةً للدولة الخوارزمية ومعاصرةً لخروج المغول واندفاعهم نحو المنطقة ، بل إن تلك الإمارات تعرضت هي نفسها لاجتياح المغول بعد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م لذا يعدّ مصدراً مهماً ولاسيما جزئيه الرابع والخامس حيث ساعدا في إنجاز ما تعلق بالحملات المغولية وبآثار الاجتياح السياسية والعسكرية على دول المنطقة .

أما المصدر الثالث فهو كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١ م)، ولد عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في دمشق سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م وكان انتقل مع أهله إلى حماه هرباً من المغول وفيها نال ثقافةً عاليةً وتدرج في المناصب السياسية والعسكرية حتى وصل إلى منصب سلطنة حماه وذلك سنة ٧١٢ هـ / ١٣٠٢ م واستمر في منصبه ذاك حتى وفاته سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م كان أبو الفداء عالماً بالفقه والطب والفلسفة والتاريخ ألف مؤلفاتٍ عدة أهمها كتابه المختصر في أخبار البشر وهو اختصار لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وقد تحدّث

فيه عن الأسرة الأيوبية و عن الدولة الخوارزمية واندفاع المغول نحو المنطقة وما خلفوه من آثار ولقد اعتمد عليه في كتابة الفصل الأول والفصول الأخيرة وبشكل خاص ما تعلّق بالأحداث السياسية والعسكرية .

أما المصدر الرابع فهو كتاب تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس بن أهرون الطبيب المعروف بابن العبري (٦٢٣ - ٦٨٥ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٨٦ م) من أهالي ملطية ومن المسيحيين اليعاقبة درس ابن العبري اليونانية والسريانية والعربية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت وألمّ بعلم الطب وبرع فيه، تولى العديد من المناصب اللاهوتية و اهتم بعلم التاريخ وذلك لكونه عاصر مرحلة من أصعب مراحل التاريخ التي امتلأت بالأحداث والصراعات ليس على جبهة الصليبيين فقط بل على جبهة المغول الذين شرعوا في غزوهم للمنطقة على نطاق واسع. وكتابه تاريخ مختصر الدول من الكتب المهمة التي تمت الاستفادة منها أراد به اختصار سيرة الدول وتضمينها كتابه منذ بدء الخليفة حتى عصره. وقد احتوى كتابه معلومات قيمة عن تاريخ الدولة الخوارزمية ، والمغول والاسماعيلية وعدّه البعض اختصاراً لكتاب الجويني في بعض فصوله ، لذا تعد مادته مهمة فقد أضاف معلومات أغنت البحث فيما تعلق بالمغول واندفاعهم نحو المنطقة لذا يعدّ مصدراً لا غنى عنه. توفي ابن العبري في مدينة مراغة سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م بعد أن قضى حياته في التأليف وأعمال الخير .

وجرى الاعتماد كذلك الأمر على مؤلفات صُنفت تحت بند التواريخ الخاصة من أبرزها: كتاب نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية لأبي شامة (٥٩٩ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ - ١٢٢٦ م) عبد الرحمن ابن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي الأصل، ولد في دمشق سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ تلقى تعليمه على يد عددٍ من العلماء البارزين في علوم الحديث والقراءة ، والفقه والتاريخ فكان شيخ القراء صنف أبو شامة مؤلفاتٍ عدة منها المحقق في الأصول، والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، وتراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، وقد تمت الاستفادة منه ولكن بشكلٍ بسيطٍ خلال صفحات البحث. أما الكتاب الذي تمّ الاستعانة به على نطاقٍ واسعٍ فهو كتابه نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية حيث إنه إضافةً إلى اهتمام أبي شامة بجبهة الصليبيين وتتبع أخبارها ، فقد اهتم كذلك الأمر بالجبهة المغولية التي فتحت في بلاد ما وراء النهر وخراسان والتي استنفدت كثيراً من موارد المسلمين لذا انطلقاً من اهتمامه بجبهات الجهاد ضد الأعداء حرص على تلخيص كتاب النسوي السالف والذي حرص فيه كالنسوي على إعلاء شأن الأسرة الخوارزمية وإبراز دور كل من السلطانين علاء الدين محمد وولده جلال الدين في قتال المغول . لذا يعدّ من المصادر الأساسية التي زودت البحث بمعلوماتٍ عن الخوارزميين ومقاومتهم للمغول .

أما المصادر العربية التي صنفت تحت بند مصادر الجغرافية وأدب الرحلات وقدمت مادة مهمة للبحث وذلك لكون البحث اعتنى بتقديم لمحة جغرافية عن المدن المجتاحة، وأحوالها المعمارية وصفاتها وما احتوته من موارد زراعية وما جرى فيها من أنهار وقنوات وذلك لرسم صورة واضحة عن أحوال المنطقة قبل الغزو وما آل إليه حالها بعد الغزو، ومن أهم تلك المصادر كتاب البلدان لليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت. ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)، وكتاب الأعلام للفيثي لابن رسته أحمد بن عمر (ت. ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)، وكتاب المسالك والممالك للاصطخري (ت. ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، وصورة الأرض لابن حوقل محمد بن علي (ت. ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (ت. ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) يضاف إليها كتاب معجم البلدان لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (٥٧٥ هـ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٨ م) ولد ياقوت سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م في بلاد الروم وتم بيعه بعد أسرته لتاجر من أهل حماة لذا لقب بالحموي أشرف على تجارة سيده واهتم بتعلم الأدب والنحو، وفي رحلاته التجارية اطلع على أحوال الطرق والبلاد وبعد عتقه اتخذ من نسخ الكتب وسيلة لكسب عيشه وذلك سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م وفي سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م استقر في دمشق ولكن نظراً لبعض الأفكار التي آمن بها فقد اختلف مع أهلها وتركها نحو حلب والموصل وأربيل وانتهى به المطاف في مرو حيث بدأ بالتردد على مكتباتها ودور كتبها وجمع معلومات مكنته من وضع مؤلفه معجم البلدان سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م فر ياقوت على أثر اجتياح المغول للبلاد من مرو ووصل بعد عناء ومشقة للموصل ثم رحل منها إلى حلب حيث وافته المنية هناك سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م . وتتبع أهمية الكتاب بالنسبة للبحث بأنه إضافة لكونه مصدراً مهماً تمّ منه استقاء المعلومات عن مدن المنطقة والتعريف بها ، فقد ضمّنه ياقوت الكثير من أخبار المغول وأعمالهم التي مارسوها بحق مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان والأقاليم المجاورة للعراق تلك المناطق التي مرّ بها بنفسه، وشاهد حالها قبل الغزو، وبعد الغزو سمع عن أخبارها من أفواه من التقاهم فارين منها سواء أكانوا تجاراً أم علماء ، لذا يعد كتابه مصدراً مهماً ساعد في إنجاز الفصلين الثالث والرابع وكذلك الخامس . وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (زكريا بن محمد ت. ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) والذي يعد من الكتب الأساسية لمعاصرتة لمرحلة الغزو المغولي، وحديثه عن المدن المجتاحة فأشار إليها وإلى أحوالها قبل الاجتياح وبعده لذا يعدّ كتابه رافداً مهماً للبحث ، ومن الكتب كذلك تقويم البلدان لأبي الفداء المتقدم الذكر حيث تمّ الاستعانة به لتقديم صورة جغرافية عن مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان وغيرها من المدن التي تمّ اجتياحها في المنطقة وفي التعريف كذلك الأمر ببعض الأماكن المهمة التي وردت بالبحث .

ومن المصادر كذلك رحلة ابن بطوطة (لمحمد بن ابراهيم ت . ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) المعروف باسم ابن بطوطة وغيرها الكثير من المصادر الجغرافية التي كان بعضها معاصراً للغزو المغولي وبعضها آخر تضمن معلومات عن المدن وبنائها وموقعها الجغرافي .

ومن المصدر المهمة التي يفهم من عنوانها بعدها عن السياسة والتاريخ ولكن حرص مؤلفها على الحديث عن المغول في الجزء الأول من كتابه فهو شرح نهج البلاغة للمؤرخ عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني البغدادي المعروف بابن أبي الحديد (٥٨٦ - ٦٥٦ هـ / ١١٩٠ - ١٢٥٨ م) ولد في بغداد سنة ٥٧٦ هـ / ١١٩٠ م وهو من الشعراء والأدباء والمؤرخين وقد كان ميالاً للتشيع عمل هو وأخوه في الأعمال الديوانية في عهد آخر خليفتين عباسيين كان مقرباً من الوزير ابن العلقمي ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، و وقع ابن أبي الحديد هو وأخوه في أسر المغول ، ولكن أطلق سراحهما بوساطة الوزير ابن العلقمي ولقد توفيا في أوائل سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، من كتبه الهامة شرح نهج البلاغة ، وعلى الرغم من كونه لم يهتم كثيراً بالأمور التاريخية إلا أن الكتاب حوى في جزئه الأول مادة مهمة عن بداية خروج المغول وغزوهم لبلاد ما وراء النهر وخراسان والعراق والجزيرة وتبرز أهمية تلك المادة من كون مؤلفها كان معاصراً لتلك الحقبة شهد العديد من أحداثها أو سمعها على الأقل من أفواه من عاصرها ، لذا فقد تم الاستعانة به لإغناء الحديث عن حملات المغول في الفصلين الثالث والرابع .

و من المصادر التي جرى الاستفادة منها في انجاز البحث لما احتوته من معلومات تعلقت بالأحداث السياسية أو لما احتوته من تراجم لشخصيات كثيرة وجدت في البحث كتب التراجم ومن أهمها مؤلفات الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت . ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م المؤرخ والحافظ ولد وتوفي بدمشق وصنف مؤلفات عدة اهتمت بالتراجم من أهمها تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام والذي رتبته على الوفيات وحوى قرابة أربعين ألف ترجمة . وسير أعلام النبلاء الذي نظمته على أساس الطبقات فجاءت أربعين طبقة تقريباً . وكتاب العبر في خبر من غبر والذي عدّ اختصاراً لكتاب سير أعلام النبلاء ، وقد حوت المؤلفات السالفة معلومات أغنت البحث .

ومن المصادر المهمة التي غُنيت بعض الشيء بالأحداث السياسية ولكن هي في الأساس كتب تراجم، كتاب الوافي بالوفيات لمؤلفه خليل بن أيبك الصفدي ت . ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م والذي حوى بين دفتيه عدداً ضخماً من التراجم لأعلام السياسة والإدارة والفكر والأدب . يضاف إليه كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد عبد الحي بن أحمد ت . ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م والذي ضم معلومات سياسية وتراجم لبعض الشخصيات السياسية التي احتواها البحث .

يضاف إلى ما ذكر العديد من المصادر العربية والتي سيتم التطرق لذكر أسمائها فقط على الرغم من كونها قدمت معلومات غاية في الأهمية سواء عن المغول أو عن أحوال المدن

المجتاحة أم عن الدولة ومنها نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (أحمد بن عبد الوهاب ت. ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) وقد تمت الاستفادة بشكل خاص من الجزء السابع والعشرين يضاف إليه كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (أحمد بن علي ت. ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) وبشكل خاص الجزء الرابع الذي حوى معلومات مهمة عن المغول وكذلك كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري أحمد بن فضل الله (ت. ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) وتم الاستعانة بالسفر الثالث. يضاف إليها كتاب القرمانلي (أحمد بن يوسف ت. ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ وكتاب الرمزي (محمد مراد بن عبد الله ت. في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد) تليفق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قوزان وبلغار وملوك التتار . وغيرهم الكثير ولا مجال لحصر الجميع ها هنا .

أما بالانتقال لأهم المصادر غير العربية التي رفدت البحث وساهمت في إغنائه وتم الاعتماد عليها بصورة كبيرة. فهي إما عبارة عن مصادر مغولية صينية ، أو مصادر أوروبية ومن أهمها: التاريخ السري للمغول (النص الكامل وقد كتب بالصينية أيام جنكيزخان ونقله للعربية عن نسخة إنكليزية الدكتور سهيل زكار وهو الأثر الكبير الأقدم والأكثر أهمية بالنسبة لأدب الشعوب التي تحدثت بالمغولية . فهو يحتوي على الرواية الملحمية لحياة جنكيزخان وأعماله وحياة المغول وقبائلهم وأصولهم إضافة لأعمال جنكيزخان توسعته وصراعاته في المنطقة . واحتوى كذلك الأمر على العديد من الأساطير والملاحم التي إن دلت على شيء فإنها تشير إلى طبيعة حياة تلك الشعوب والأشياء التي آمنت بها .

وقد أغنى التاريخ السري البحث بمعلومات مهمة انفرد بها ولاسيما ما تعلق بالفصل الثاني وفي بعض الحملات التي قادها المغول للمنطقة .

يضاف إليه مصدر آخر وهو رحلة الراهب الطاوي شان شنغ من الصين إلى بلاط جنكيزخان، وشان شنغ ذاك هو أحد الرهبان الطاويين ولد سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وانخرط في سلك الرهبنة الطاوية . وغدا في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م تلميذاً لدى مؤسس طائفة الطهارة الكاملة ، تميز ذلك الراهب بزهد الشديد . وانتشرت سمعته في أرجاء الصين ، وذلك لكونه كان عالماً كذلك لأمر بما عرف بكيمياء الحياة " أساليب إطالة العمر " فما كان من جنكيزخان إلا أن عمد إلى دعوته لزيارة بلاطه في سمرقند لتزويده بإكسير الحياة كي يتمتع بحياة دائمة، وقد دامت الرحلة ثلاث سنوات بين عامي ٦١٨ . - ٦٢٠ هـ / ١٢٢١ م - ١٢٢٣ اطلع فيها الراهب على مناطق كثيرة . وشاهد العديد من المجتمعات ، كما لفتت أنظاره آثار الدمار لذا فرحلته سجل هام حوى معلومات سياسية واقتصادية بل حتى طبيعية تناولت المغول وشعوب بلاد ما وراء النهر خلال تلك المدة الزمنية ، لذا كانت من المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث لكون واضعها شاهد

عيان عاصر العديد من الأحداث وزار معسكرات المغول القتالية وقد توفي سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م في الصين بعد عودته من الرحلة بأربع سنوات .

ومن المصادر المهمة كذلك كتابات المؤرخ متى باريس وهو من رهبان دير القديس ألبان في انكلترا ولد في باريس لذا عرف بمتى باريس، و عرف باهتمامه بالتاريخ لذا وجه جهوده نحوه ، فصنف العديد من المؤلفات منها التاريخ الكبير . لم تعرف سنة وفاة المؤرخ ولربما كانت في عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م. وقد ترجم سهيل زكار قسماً من تاريخه ، وهذا القسم مهم لكونه تحدث عن المغول وصفاتهم وأماكن وجودهم وأطنب في الحديث عن أعمالهم الإجرامية في (المشرق وأوروبا بشكل خاص) .

يضاف لذلك كتابات الرحالة المبشرين الكاثوليك وهم كثر وقد ترجم سهيل زكار رحلات هؤلاء التي سردوا مجرياتها وسطروها بأيديهم ، أو بأيدي من رفقهم في رحلاتهم تلك إلى بلاد المغول وقد ذكرها ضمن " . كتاب العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية" . وقد زودت تلك الرحلات البحث بمادة مهمة متعلقة بالمغول وأوضاعهم المعاشية والاجتماعية والسياسية، كما رسمت صورة عن وجهة نظر أوروبا عن المغول ورغبتها في تكوين أحلافٍ معها .

يضاف إليها كذلك الأمر مصدر مهم حققه سهيل زكار وترجمه وهو " أخبار المغول لدى معاصريهم من المؤرخين العرب والصليبيين والأرمن" ، حيث ضمنه الأجزاء الخاصة بالمغول واجتياحهم للمشرق ووجهة نظر الشعوب عنهم فحتوى المصدر كتابات كل من المؤرخ أبي شامة ، وابن العميد (جرجس بن العميد ت. ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) وجوانفيل مؤرخ الحملة الصليبية السابعة ، والفارس الداوي السوري ، وسمباط الأرمني وغيغور أف أكانك ، وغيرهم الكثير من المؤرخين الذين كان لمؤلفاتهم دور هام في كتابة البحث .

ولم يعتمد البحث على المصادر فقط بل اعتمد بشكل كبير على العديد من المراجع ومنها مؤلفات المستشرق الروسي الأصل فاسيلي بارتولد والذي تخرج من جامعة سان بطرس برغ ، والذي يعدّ من أبرز المستشرقين الروس الذين درسوا تاريخ المنطقة في آسية الوسطى . من أشهر أعماله وأبرزها والتي اعتمد البحث عليه بصورة أساسية كتاب تركستان حتى الغزو المغولي . وتتبع أهميته لكونه أول دراسة تختص بتاريخ منطقة تركستان منذ عهدها المبكرة وحتى وفاة جنكيزخان ، أما الكتاب الثاني فهو تاريخ الترك في آسية الوسطى وهو عبارة عن اثنتي عشرة محاضرة عن تاريخ الترك تمثل نتاج دراسته ورحلاته للمنطقة والتي ألقاها في جامعة اسطنبول .

ومن المراجع التي لا غنى عنها كذلك الأمر كتاب المستشرق إدوارد جوانفيل براون، تاريخ الأدب في إيران فهو تاريخ شامل للأدب الفارسي . ويعدّ من المؤلفات الرائدة في مجاله لكونه ألمّ

بكامل المصادر المتعلقة بالموضوع وركز على تاريخ المغول والنتاج الأدبي المتعلق بهم ، وعلى الرغم من كونه كتاب متخصص بالأدب والحضارة في إيران فإنه تطرق في تعليقاته إلى أبرز ما رافق الغزو المغولي للمشرق الإسلامي من أحداث. ومن المراجع الأساسية كتاب جنكيزخان قاهر العالم للباحث الفرنسي رينيه غروسيه (١٨٨٥ - ١٩٥٢م) وقد كان فرنسي المولد والثقافة والحضارة اهتم غروسيه بالحضارات غير الأوروبية، وبحث فيها وعمل على تمجيدها ونشر العديد من المؤلفات عنها من بينها كتب اهتمت بالمغول ويعدّ كتابه جنكيزخان قاهر العالم من الكتب المهمة لكونه اعتمد في تأليفه بشكل واسع على التاريخ السري ولكن زاد عليه باعتماده على العديد من المصادر التي أغنت مؤلفه وتناولت الحديث عن المغول منذ مراحل حياتهم الأولى حتى وفاة جنكيزخان ، قدم ذلك المرجع معلومات هامة لم توجد في غيره من المصادر وبشكل خاص ما تعلق بعمليات الاحتياجات والآثار التي خلفتها على المشرق .

ومن المراجع المهمة التي أغنت البحث بمعلوماته المهمة كتاب من جنكيزخان إلى قبلاي خان (عاصفة من الشرق) للباحث الإنكليزي روبرت مارشال حيث يعدّ من أحدث ما كتب باللغة الإنكليزية حول المغول ، امتلك مؤلفه الحيادية العلمية إلى أبعد الحدود . وأولى الجوانب العسكرية والحضارية عناية كبيرة ، وغطى جلّ جوانب التاريخ المغولي لذا تم الاستعانة به بشكل خاص في الفصل الثاني وكذلك الثالث والرابع. وكذلك كتاب تاريخ بخارى للمستشرق المجري أرمينوس فامبري (١٨٢٢ - ١٩١٣م) الذي أتقن اللغات التركية وبعض اللغات الآسيوية وسافر إلى العديد من الدول الأوروبية والآسيوية، ويعدّ مؤلفه من الكتب التي اعتنت بتاريخ المغول وغزواتهم وبصورة خاصة لما تعرضت له مدينة بخارى وسمرقند وغيرها من مدن بلاد ما وراء النهر .

يضاف إليها كتاب المستشرق الألماني بارتولد شبولر (١٩١١ - ١٩٩٠م) أستاذ فقه اللغات السامية والدراسات الإسلامية. درّس في العديد من جامعات أوربه وأبرز أعماله العالم الإسلامي في العصر المغول والذي ترجمه سهيل زكار وحوى مادة أساسية عن المغول .

يضاف لذلك العديد من المؤلفات العربية منها كتاب السيد الباز العريني "المغول" ، وكتاب فؤاد عبد المعطي الصياد "المغول في التاريخ"، وكتاب عباس العزاوي "تاريخ العراق بين احتلالين" . وكتاب "بلدان الخلافة الشرقية" لكي لسترنج الذي اعتمد عليه بشكل كبير في إنجاز المادة الجغرافية ، وكتاب "أرباع خراسان" لقحطان عبد الستار الحديثي، ومؤلفات الباحث الإيراني عباس إقبال ، وغيرها من المراجع العربية والمترجمة التي أغنت البحث .

وكذلك جرى الإفادة من مقالات ومعاجم ودوريات عدة ذكرت في الحواشي وأثبتت في جريدة المصادر والمراجع في نهاية البحث .

الفصل الأول :

الدولة الخوارزمية وعلاقاتها مع الكيانات القائمة في مشرق العالم الإسلامي :

أولاً : الدولة الخوارزمية النشأة والتكوين.

ثانياً : علاقة الدولة الخوارزمية مع الكيانات المجاورة لها :

١- مع الدولة السلجوقية في خراسان وعراق العجم .

٢- قلاع الاسماعيلية

٣- مملكة شمال الصين كاثاي (الخطا)

٤- الخلافة العباسية في بغداد

أ- العلاقة مع الخلافة العباسية حتى وفاة السلطان علاء الدين تكش

سنة ٥٩٦ هـ / ١٩٩٩ م.

ب- العلاقة مع الخلافة العباسية من وفاة السلطان تكش ٥٩٦ هـ /

١٩٩٩ م إلى انهيار بقايا الأسرة الخوارزمية في عهد السلطان جلال الدين منكبرتي

ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م

٥- الدولة الغورية

شهدت الخلافة العباسية في حقبها المتأخرة تبدلات كثيرة أفرزتها ظروفٌ نبعت من طبيعتها ، ومن الجو السياسي الذي ساد في ذلك العصر ، ومن دخول فئاتٍ كثيرة إلى النسيج العربي ومشاركتها الخليفة العباسي في صنع القرار السياسي مما سبب في اضطراب الأحوال واستقلال أسر عن السلطة العباسية واتخاذها كياناتٍ خاصة بها إضافةً إلى تطاول هذه الأسر على شخص الخليفة وقداسته ومشاركتها إياه في صنع القرار السياسي بل حجّمت من دوره وجعلته مقتصرًا على قصره في عاصمته بغداد .

هكذا كان حال الدولة البويهية ^(١) والتي نشأت بفعل خدماتٍ قدمها أفرادها لبعض العمال في مناطق المشرق، ثم سرعان ما تعاضم أمرها وخدمت الخلافة العباسية ، فشغلت بالتالي مكانةً عاليةً ساعدتها في الوصول إلى بغداد ، ولكنها تطاولت فيما بعد على الخلافة وبدأت تطمح للحصول على السلطنة ومشاركة الخليفة في مهماته اليومية بل وممارستها عنه ، مما دفع الخلافة العباسية للاستعانة بفئاتٍ أخرى رغبةً في التخلص منها فاستعانت بالسلاجقة الذين قضاوا عليها ، ثم استعانوا فيما بعد بالخوارزميين الذين قضاوا بدورهم على السلاجقة الذين مارسوا الأفعال نفسها التي مارسها البويهيون. وهكذا كانت تبرز فئاتٌ على حساب أخرى ولكنها سرعان ما تزول كما زال غيرها . على هذا النحو كان حال الدول في المراحل الأخيرة من عمر الخلافة العباسية .

عشية اندفاع المغول نحو المشرق وعيْثهم فساداً فيه ، وجدت دويلاتٌ كثيرة أفرزتها الاضطرابات السياسية التي عاشتها بغداد أولاً ، ثم منطقة المشرق ثانياً وأفرزتها هجرات شعوب الغُر ^(٢) واندفاعهم نحو المنطقة واختلاطهم بالسكان المحليين من هذه الدويلات الدولة الخوارزمية والتي ظهرت بدايةً في واحة خوارزم ^(٣) ، ثم مدّت نفوذها فيما بعد لتسيطر على مناطق أوسع شملت بلاد ما وراء النهر ، وخراسان ، وإقليم الجبال والغور وبعضاً من مناطق أذربيجان، تلك المناطق التي تُعرف اليوم باسم تركستان الروسية وأفغانستان وإيران وأذربيجان ^(٤) . وقد ظهرت بين سنتي ٤٩٠ - ٦٢٨ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٣٠ م ، وحكمها العديد من الحكام ولكنها سرعان ما انهارت على يد مجموعة من الغزاة اندفعوا نحوها مسببين انهيارها السريع لم تعش تلك الدولة بمعزلٍ عن

(١) انظر تعاريف ص ٣٣٧

(٢) الغُر : طائفة من الترك انتقلوا من نواحي الثغر من أقصى بلاد الترك إلى بلاد ما وراء النهر في أيام الخليفة المهدي ت ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، خضعوا لأي دولة استمالتهم ، فقصدوا بلخ بعد أن طردهم العديدون وعاشوا فيها ؛ ابن الأثير (علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام التدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ٤ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م ، ج ٩ ، ص ٣٨٥ .

(٣) مارشال (روبرت) : من جنكيز خان إلى قبلاي خان (عاصفة من الشرق) ، نقله للعربية وقدم له : سهيل زكار ، دمشق ، كتاب قيد النشر ، ص ٥٠ .

(٤) غروسيه (رينيه) : جنكيز خان قاهر العالم ، نقله للعربية وقدم له : سهيل زكار ، دمشق ، كتاب قيد النشر ، ص ٢٥٦ ؛ بارانسكي ، جغرافية الاتحاد السوفيتي الاقتصادية ، ترجمة : الياس شاهين ، موسكو ، ١٩٦٠ هـ / ١٣٨٠ م ، ص ٣٢٥ ، ٣٣٠ .

الدول المجاورة لها، بل على العكس جمعتها بها علاقات تباينت ما بين ودية وعدائية ، ولكنها في الغالب كانت عدائية وذلك لا يعود إلى طبيعة الدولة الخوارزمية فحسب ، بل أيضاً إلى طبيعة الشعوب التركية التي أحاطت بها واعتادت على حياة البداوة والسطو والنهب وكانت تسعى دائماً للإغارة وامتلاك أكبر قدر ممكن من الغنائم، وبدايةً كانت لها علاقات عدائية مع الدولة السلجوقية المجاورة لها في إيران والتي نشأت من رحمها لكون مؤسسها كان من مماليك السلطان ملكشاه ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ^(١) ولكن قضت عليها سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م وضمت ممتلكاتها كافة ، و أيضاً ربطتها علاقات بدأت ودية مع الدولة الغورية في مناطق الغور، لكن سرعان ما انقلبت إلى عدائية أدت إلى سقوط دولة الغور على أيديهم وضم عاصمتهم غزنة سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، أما الإسماعيلية في قلاع منطقة قزوین فكانت كالشوكة في حلق كل حاكم دولة في المشرق لما مارسوه من أعمال قتل واغتيال خدمة لمصالحهم الخاصة .

يضاف لذلك مملكة الخطا (كاثاي) والتي استقرت على حدود ما وراء النهر واعتدت بشكل دائم على أملاك الدولة الخوارزمية، فكان لابد من القضاء عليها سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ، هذا فيما تعلق بالدويلات القريبة ، أما الخلافة العباسية فقد تباينت العلاقات بحسب قوة الخليفة أو ضعفه ولكنها بشكل عام كانت ودية باستثناء مدة حكم السلطان تكش وولده علاء الدين محمد وخليفته السلطان جلال الدين منكبرتي فقد ساءت العلاقات إلى درجة دفعت المؤرخين لعدّ الخلافة العباسية هي المسؤولة عن استقدام المغول إلى المنطقة واسقاط حكم الخوارزميين أيّاً كان فقد كان المشرق الإسلامي يضم العديد من الشعوب والتي كان لها طموحات وآمال كثيرة ، نجحت في تحقيق بعضها على حساب من جاورها وأخفقت في تحقيق جزء آخر وإخفاقها ذاك سبب سقوطها ، لذا لا بدّ قبل التعرف على المغول وكيفية اندفاعهم للمشرق واجتياح مدنه، من التعرف على الدولة الخوارزمية التي تكبدت عواقب ذاك الاندفاع والتطرق بعض الشيء لمن جاورها من الكيانات السياسية

أولاً : الدولة الخوارزمية النشأة والتكوين :

عدّت الدولة الخوارزمية إحدى الدول التي ضمها مشرق العالم الإسلامي برز نورها في إقليم خوارزم جنوبي بحر آرال ^(٢). تنسب إلى مملوكٍ تركي مسلم اشتراه أحد الأمراء السلاجقة الذين

(١) انظر تعاريف ص ٣٤٣

(٢) الاصطخري (ابراهيم بن محمد ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : المسالك وممالك ، تحقيق : محمد جابر الحيني ، الجمهورية العربية المتحدة ، دار القلم ، ١٣١٨ هـ / ١٩٦١ م ، ص ٩٩ ؛ النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مصر ، دار الكتب المصرية ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ ، ص ٢٧٧ ، ص ١٣٧ ؛ غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ٢٥٦ ؛ بارتولد (فاسيلي فلاديمير وفتش) : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، (دعت) ، ص ٣٧٣ ؛ أما بحر آرال: انظر تعاريف ص ٣٣٧

كانوا يخدمون في بلاط ملكشاه وقد أطلق على هذا الأمير أسماء عدة فمنهم من دعاه بلكباك^(١) وآخر بلكاتكين^(٢) ومهما كان اسم ذلك الأمير فقد أحضر ذلك المملوك من غرشتان^(٣)، لذا فقد أطلق عليه اسم أنوشتكين غرشه نسبة لذلك المكان الذي ولد فيه^(٤). عمل أنوشتكين في خدمة السلطان ملكشاه، وانضم لحاشيته في مرو وإقليم خوارزم، وقد برز على أقرانه بما تحلى به من كياسة وأدب وحكمة وعقل راجح، فقد تباين المؤرخون في ذكر أوصافه تلك، فهذا ابن الأثير وصفه بقوله: "فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدماً مرجوعاً إليه"^(٥)، أما الجويني فقد فسر سبب ارتقائه لمنصب الطشت دار^(٦) فقال: "تمكن شيئاً فشيئاً بما تحلى من عقلٍ وكياسة أن يرقى في سلم المراتب حتى كسب لقب "طشت دار"^(٧) بالتالي فإن أنوشتكين تحلى بالعديد من الصفات التي أهله فيما بعد إلى تولي منصبٍ مهمٍ كمنصب الطشت دار التي تبّع صاحبها إدارياً لحاكم خوارزم^(٨) وتوفي أنوشتكين ذاك سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م^(٩) مخلفاً تسعة أبناء من أبرزهم محمد^(١٠) الذي أحسن تأديبه فبرز نتيجة لذلك في بلاط السلاجقة وشغل وظيفة والده نفسها ، بل تولى فيما بعد إدارة أمور ولاية خوارزم^(١١) وذلك لكون خوارزم عانت من اضطرابات

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٠ ، ابن كثير (اسماعيل ابن كثير من ٥٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) البداية والنهاية ، تحقيق : علي شيري ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ج ١٦ ، ص ١٦٢ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٤٧٣ .

(٢) أبو الفداء (اسماعيل بن علي ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة ، (د.ت) ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٤) الجويني (عطا الملك ت. ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) : تاريخ فاتح العالم ، ترجمة : محمد ألتونجي ، دمشق ، دار الملاح ، ط ٥ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ابن العماد (عبد الحي بن أحمد ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، دار الفكر ، (د.ت) ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .

(٥) الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٠ .

(٦) المشرف على الأواني وموائد السلطان وأدوات استحمامه ومطبخه ، القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : صحيح الأعشى في صناعة الأنشا ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، (د.ت) ، ج ٤ ، ص ١٠ ، بارتولد ، تركستان ، ص ٤٧٣

(٧) تاريخ العالم ، ج ١ ، ص ٥٥

(٨) بارتولد ، تركستان ، ص ٤٧٣

(٩) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٠ ، الذهبي (محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ج ٢٢ ، ص ٣٢٧ .

ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ ، حسن (حسن إبراهيم) : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، بيروت ، دار الجيل ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ج ٤ ، ص ٩٣

(١٠) صبرة (عفاف سيد) ، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٣٥

(١١) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٢٠٩

كثيرة على أثر وفاة السلطان ملكشاه، وتولي ابنه بركياروق ت ٤٩٨هـ/ ١١٠٤ م^(١) للحكم لذا تناب على حكمها عدد من القادة العسكريين إلى أن تمكن أحد الأمراء السلاجقة^(٢) من وضع حد لتلك الأوضاع وأحمد الفتن وأدب الثائرين وبعدها عين محمد بن أنوشكين حاكماً عليها ولقبه خوارزمشاه^(٣). فكان بالتالي أول الملوك الخوارزميين فأحسن لذلك السيرة واشتهر بعدله ومحبته للعلماء^(٤) كما أنه أنجز مهامه خير إنجاز وقد أشار لذلك أبو الفداء حيث قال: "فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فعلا محله وعظم ذكره"^(٥) نتيجة لممارساته تلك فقد علا محله لدرجة دفعت السلطان سنجر (ت ٥٥٢هـ/ ١١٥٧ م)^(٦) الذي عين حاكماً على سلاجقة إيران سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م وأضحت خوارزم ضمن نطاق نفوذه إلى إبقائه في منصبه وتقريبه منه حيث قدم له خدمات كثيرة، استمر على هذه الحال إلى أن توفي سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧ م^(٧) فخلفه ابنه أئمز أو اطسز ،^(٨) وقد فسر ذلك الاسم القزويني في حواشي كتاب جهار مقالة فقال بأنه يعني من لا اسم له فهو مؤلف من مقطعين أت وتعني اسم ، وسيز أداة التجريد وقد فسر الباحث سبب استعمال الأتراك لهذا الاسم بأنه جرت العادة عند الترك بأن من يموت أولاده وهم صغار بكثرة يقدم رب الأسرة ويختار واحداً منهم ويطلق عليه اسم أئمز لكي تكتب له الحياة^(٩) لذا فقد أطلق محمد هذا الاسم على ولده ربما لذلك السبب ، أو لكونه من

(١) انظر تعاريف ص ٣٤٠.

(٢) يدعى الأمير داذ حبشي بن التونتاق عينه السلطان بركياروق لإخماد الفتن في خوارزم ؛ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر، ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٦ ، ص ١٦١
(٣) الراوندي (محمد بن علي ت ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م) : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة : إبراهيم الشواربي وآخرون ، القاهرة ، عين شمس ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ٢٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٠ ، خواندمير ، دستور الوزراء ، ترجمة: حربي أمين سليمان، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ٣٠٨ ، الصياد (فؤاد عبد المعطي) : المغول في التاريخ ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ م ، ص ٦١
(٤) ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٦ ، ص ١٦١ ؛ فاميري (أرمينوس) : تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة : أحمد الساداتي ، القاهرة ، مكتبة النهضة الشرق ، (د . ت) ، ص ١٤٧

(٥) المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٢٠٩

(٦) انظر تعاريف ص ٣٤١

(٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٦ ، ص ١٦١ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٣٧ ، العبود (نافع) : الدولة الخوارزمية ، بغداد ، مطبعة جامعة الآداب ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٤
٧أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر، ج ١، ص ٢٠٩.

(٨) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٩٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٦، ص ١٦١

(٩) النظامي العروضي السمرقندي، جهار مقالة، ترجمة : عبد الوهاب عزام، علّق عليه: محمد بن عبد الوهاب القزويني، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ١، ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩ م، ص ١٠٩.

الأسماء المنتشرة في ذلك العصر، أو تيمناً بأحد أقاربه، أو الرجال المعروفين في عصره، ويعود الفضل لأتسز في وضع اللبنة الأولى في بناء الدولة الخوارزمية، فقد سار على سنن والده فأحبه الناس، وحرص على نشر الأمن وإقامة العدل في ولايته التي خلف والده في إدارتها^(١) وقد تحدث عنه ابن الأثير فقال "ولي بعده ابنه أتسز فمد ظلال الأمن وأفاض العدل، وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وقصد بلاد الأعداء وياشر الحروب، وقربه السلطان سنجر، وعظمه واستصحبه معه في أسفاره"^(٢) بالتالي بلغ أتسز مكانة مهمة لدى السلطان سنجر حيث عدّ تابعه المخلص، كما أنه ساعده في حروبه الكثيرة ضد خصومه من أفراد البيت السلجوقي وضد من جاوزه من البداة.

لكن لم تستمر العلاقة هكذا بين الطرفين، بل سرعان ما تتكرّر التابع لسيد بعد أن اطمأن إلى قوته ولما حققه من انتصارات لسيدته ولشخصه فأعلن التمرد عليه سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م واعتدى على ممتلكاته واصطدم الاثنان مع بعضهما ثلاث مرات^(٣) وفي كل مرة كان السلطان السلجوقي يصالح تابعه. بالتالي بقيت العلاقة بين الطرفين ما بين مدّ وجزر تحكم فيها إضافة إلى أوضاع ولاية خوارزم و الدولة السلجوقية أوضاعاً أخرى تعلقت بفئات عاشت في أطراف الدولتين كالخطا الذين هزموا السلطان سنجر سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م فاستغل أتسز هزيمته ودخل مرو ونهبها في السنة نفسها^(٤)، وكذلك حركات الغزّ الذين هاجموا سنجر سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وأسروه وبقي في أسرهم حتى سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م^(٥). وفي كل مرة كان أتسز يستغل ذلك ويعلن استقلاله في ولايته خوارزم باذراً البذرة الأولى لتأسيس دولة شاهات خوارزم. لكن لم يمهل الموت أتسز طويلاً فقد فاجأه في التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م وقد بلغ من العمر إحدى وستين سنة^(٦) فخلفه ولده إيل أرسلان والذي يعد رابع شخصية من أسرة خوارزم شاه فقد خلف والده سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م ولكن بدأ حكمه بداية سيئة فقد أقدم على عمل شنيع بحق أفراد أسرته حيث

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠.

(٣) الحسيني (علي بن ناصر) في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد: أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق ونشر: محمد اقبال، لاهور، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ص ٩٥؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ٢٥٨؛ صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٤١.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٥٨، براون (ادوار جرانفيل) : تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٤م، ص ٣٨٣؛ العريني (السيد الباز) : المغول، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٣٨.

(٥) بارتولد، تركستان، ص ٤٨٣.

(٦) رشيد الدين الهمذاني (رشيد الدين فضل الله ت. ٧١٨هـ / ١٣١٨م) التاريخ الغازاني من جامع التواريخ (تاريخ المغول)، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ص ١٨٥؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٥؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٤١؛ فامبري، تاريخ بخارى، ص ٤٨٢.

قتل نفرًا من أعمامه وأبناء عمومته، كما أنه سمل عيني أخ له فتوفي بعد ثلاثة أيام^(١) فهو ربما أقدم على هذا العمل لخوفه منهم ومن أطماعهم في المستقبل أو لتصرفات بدرت منهم دفعته للشك فيهم. وبعد استلامه لحكم خوارزم تمكن من استغلال حالة الاضطراب التي أعقبت وفاة السلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فضم إلى دولته مناطق جديدة كجرجان ودهستان^(٢)، كما أنه طمع بالاستيلاء على عراق العجم ولكن أخفقت خطته ولم يحقق منها شيئاً^(٣) وبقي تابعاً ولو بالاسم للسلاجقة ، إخفاقه في تحقيق طموحاته في الاتجاه الأول، دفعه للاتجاه نحو عدو آخر أخطر وهم الخطا^(٤) لذا امتنع عن دفع الأتاوة التي حرص والده أتسز على تأديتها لهم ، ودفع امتناعه ذاك هؤلاء للتحرك ضده سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م فخرج لملاقاتهم ولكنه مرض عند مدينة أمويه^(٥) فكلف أحد قادته بهذه المهمة ولكن ذلك القائد انهزم وعاد ايل أرسلان إلى عاصمته حيث توفي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢^(٦). ترك ايل أرسلان مملكة تعاني من الفوضى نتيجة لصراع ولديه تكش الأكبر حاكم مدينة جند ، وسلطان شاه محمود الذي عهد إليه والده بالحكم من بعده وكانت تدير والدته شؤونها^(٧) [برز دور المرأة الخوارزمية في حقبة مبكرة] استلم سلطان شاه زمام الحكم ، لم يرض هذا الأمر تكش فسارع إلى طلب المساعدة من عنصر خارجي وهم الخطا ، وأدت مساعدتهم تلك لتمكنه من انتزاع السلطة وحكم البلاد وذلك في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م^(٨). استلم تكش حكم الخوارزميين وقد خاض العديد من المعارك لكي يدعم حكمه ضد أعدائه في الداخل والخارج ، وقد تميز تكش إضافة إلى كثرة المعارك التي خاضها بأن معنى اسمه في اللغة التركية القديمة هو قتال أو حصار أو موقعه وهذا ربما ما يفسر كثرة حروبه^(٩) فعلاقته لم تستقر مع أخيه فتارة قتال وتارة سلام ولم تستقر مع الخطا الذين تنكر لهم بعد أن انتهى دورهم فيما تعلّق بأخيه فقد توفي سنة

(١) العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٣٢ ، الصديقي (رزق الله) : تاريخ دول الإسلام ، مصر ، مطبعة الهلال ، ١٣٢٥ هـ /

١٩٠٧ م ، ج ٢ ، ص ٢٠٠

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٤ ؛ أما جرجان : انظر تعاريف ص ٣٤٣

(٣) الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٤٧ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٣٣

(٤) سياأتي الحديث عنهم ص ٤٦

(٥) مدينة أمويه : انظر تعاريف ص ٣٣٧

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٩ ؛ الذهبي (محمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) العبر في خبر من غبر ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، وفؤاد سيد ، الكويت ، وزارة الإعلام ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ج ٣ ، ص ٥٤ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ ؛ زامباور (ادوارد فون) : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة : زكي حسن محمود ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٣١٧ .

(٧) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٤٩٠

(٨) رشيد الدين الهمداني ، التاريخ الغازاني ، ص ١٩٢ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ الصديقي ، تاريخ

دول الإسلام ، ص ١٤٠ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٤٩٠

(٩) فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ١٥٠

٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وآلت كل ممتلكاته له ^(١). أما الخطأ فقد اصطدم معهم في موقعة سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م استطاع فيها انتزاع بخارى وضمها إلى دولته ^(٢). وكذلك تمكن من إنهاء حكم الدولة السلجوقية في إيران وذلك باستيلائه على الري سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، ثم على عراق العجم سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م وقتله السلطان طغرل بن أرسلان سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ^(٣) مقدماً بعمله ذاك خدمةً كبيرةً للخلافة العباسية التي تولى أمورها في تلك الحقبة الخليفة الناصر لدين الله ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ^(٤) ولكن القدر لم يمهله طويلاً لإكمال باقي أعماله وطموحاته فقد توفي في العشرين من رمضان سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م في مدينة شهرستان التي تقع في منتصف الطريق بين نيسابور وخوارزم ، ولكن نقل إلى خوارزم حيث دفن في تربة أعدها لنفسه في مدرسة كبيرة بناها في المدينة ^(٥) . تباين المؤرخون في ذكر صفاته فهذا ابن الأثير يصفه بقوله : " كان عادلاً ، حسن السيرة يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ، ويعرف الأصول " ^(٦) ، أما الذهبي فوصفه بقوله : " كان تكش أعور قميناً كثير اللعب والملاهي ، بعث برأس طغرل إلى بغداد ، وطلب السلطنة " ^(٧). و أياً يكن فقد كان تكش من القادة الأقوياء الذين ظهرُوا في خضم الفوضى التي انتشرت في المشرق وميزته ، تلك الفوضى التي كان أساسها الصراع بين الدول مع بعضها حول امتيازات وأملاكٍ ورغبةٍ في التوسع ، ومع الدولة العباسية حول انتزاع امتيازاتها المتبقية لها ، ولقد تمكن تكش من إثبات نفسه وحقق جزءاً من طموحاته ، وخلف تكش ولده محمد قطب الدين والذي تلقب بلقب والده بعد توليه الحكم وهو علاء الدين ^(٨) ويعدّ عصر السلطان علاء الدين محمد العصر الذهبي للدولة الخوارزمية التي بلغت أوج اتساعها في عهده ، ولقد أظنّب المؤرخون في وصفه مبرزين مدى شجاعته وقوته ^(٩). فقد خاض مجموعة من الحروب حيث استولى على مازندران سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م ^(١٠) كما أنه في سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م

(١) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ؛ رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ١٩٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٠ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، صدرت بالألمانية والانجليزية والفرنسية ترجمة : أحمد الشننتاوي ، إبراهيم خورشيد ، القاهرة ، وزارة المعارف (د .ت) ج ٥ ، ص ٤٣٧

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٤٢ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٣٤ .

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤٢ .

(٤) انظر تعاريف ص ٣٤١ ؛ الراوندي ، راحة الصور وآية السرور ، ص ٤٦٢ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٣٤ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٦ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٥٠٢

(٦) الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٦ .

(٧) سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٣٩ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٦ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١١٢

(٩) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٤٣

(١٠) العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٣٥ .

استجاب لطلب خان سمرقند وساعده ضد الخطا الذين أساءوا السيرة، ولكنه وقع في أسرهم وتمكن من الخلاص منهم بالحيلة ، وهزم الخطا بعدها بشكل نهائي في سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م بعد ذلك ^(١)، وبعد أن تخلص من الخطا يَم وجهه شطر الغور فتمكن سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م من الاستيلاء على عددٍ من مناطق الدولة الغورية ، ولم يكتف بذلك بل تمكن من إسقاط عاصمتها غزنة وذلك سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ^(٢). بعد أن قضى على أعدائه في الخارج سعى إلى أن يحقق لنفسه ما حققه غيره ، ألا وهو الحصول على اعتراف رسمي به من الخلافة العباسية ، ومطالبتها بالمزيد من الامتيازات وذلك بمنحه لقب السلطنة ولكن الخليفة الناصر رفض ذلك الأمر مما دفع السلطان علاء الدين محمد إلى إعداد جيشٍ توجه به نحو بغداد سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ولكن أخفقت الحملة لأسباب مناخية ^(٣). ولكن بعد الحملة بثلاث سنوات واجه علاء الدين محمد عدواً من نوع آخر قدم إليه من مناطق تقع إلى شرقه واندفع بقوة هائلة نحوه مسبباً دمار مملكته وزوالها إلى الأبد ، ومسبباً أيضاً في موته طريداً سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م ، وهذا ما سيكون موضوعاً للنقاش في الفصل الثالث .

قسم السلطان علاء الدين محمد مملكته الواسعة بين أولاده فعين كل واحد منهم على قسم حيث: عين على حكم خوارزم وخراسان ومارندران وليّ عهده قطب الدين أزالاغ شاه وذلك بتأثير من والدته ترکان خاتون ، وفوض ملك غزنة وما يليها من البلدان القريبة منها لأكبر أبنائه جلال الدين منكبرتي ، بينما اختار لملك كرمان ^(٤) ومكران ^(٥) ولده غياث الدين بيرشاه وسلّم ملك العراق لولده ركن الدين غورشايجي ^(٦) قسم مملكته بالتالي بين أولاده ولكنه قبل وفاته ، أقدم على عمل بالغ الأهمية بأن خلع ولي عهده قطب الدين وولى بدلاً عنه ولده جلال الدين منكبرتي ^(٧) وظهر جلال الدين بعد هزيمة والده وحكم بقايا الدول الخوارزمية ويلاحظ بأن النسوي هو من

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٢٢ ، ص ٢٢٥ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : بشار عواد معروف وآخرون ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ط٦١ ، ص ٥٦ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج١ ، ص ٣٣٢ ؛ حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص ٩٦ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٥٨ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٩٨ .

(٣) النسوي (محمد بن أحمد ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤) : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق : حافظ حمدي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣ م ، ص ٦٤ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٧ ، ص ٦٢ .

(٤) كرمان : انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٥) مكران ، انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٦) النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٧١ .

(٧) النسوي ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠

أكثر المؤرخين الذين أطلقوا عليه هذا اللقب ، بينما اكتفى كل من الجويني ورشيد الدين الهمذاني بذكر لقب السلطان من دون استعمال كلمة منكبرتي^(١).

وقد فسره فامبري بأنه منكو بردي أي مبعوث السماء ، أو أفطس الأنف وذلك لكون المقطع الأول معناه مرض يصيب الأنف، ولكن لم يرد في أوصاف السلطان ما يشير إلى إصابته بمثل هذا الأمر ، لذا ربما يكون التفسير الأول أقرب إلى الصحة^(٢) . عانى هذا السلطان الكثير فقد تولى بقايا دولة مهدمة ، فقد عاصمته خوارزم واستمر في الفرار أمام المغول فهزم أمامهم في معركة السند سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، وانهزم إلى الهند ولكنه عاد سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م حيث اتجه إلى مناطق أذربيجان فاستولى على العديد من المدن مما أدى إلى اضطراب علاقته بجيرانه فأصابه الضعف وعاد ولاحقه المغول من جديد ومات طريداً على يد أحد الأكراد سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م^(٣) ، هذه الأحداث ستكون موضوع الفصل الرابع ، وبموته زال ذكر الخوارزميين إلى الأبد، و لابد من الإشارة بأن الدولة الخوارزمية كانت دولةً سنية حنفية^(٤) ورثت ذلك المذهب عن معظم دول الأتراك التي نشأت في المنطقة فالدولة السلجوقية كانت على المذهب الحنفي^(٥) كما استخلص ذلك من بعض الإشارات التي وردت في كتب المؤرخين كأبي شامة مثلاً ، والذي ذكر في كتابه الذيل على الروضتين ضمن أحداث سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م مايلي : " بأنه وصل كتاب من جهة بلاد خراسان من بعض فقهاء الحنفية إلى دمشق يخبر فيه بخلاص خوارزم شاه محمد من الأسر "^(٦) بالتالي فإن كان فقهاء الحنفية منتشرين بكثرة هناك فهذا طبيعي يفسره كون مذهب الدولة حنفي بالطبع والدولة اعتنت بانتشاره إلى درجة أدت إلى كثرة فقهاءه ، وأشار كذلك ابن الأثير وأبو الفداء لكون السلطان تكش ملماً بالفقه على مذهب أبي حنيفة^(٧)، مما يؤكد بالتالي أن شاهات خوارزم كانوا إسلاماً سنة أحنافاً . أما إذا ما تم التطرق للأمور الإدارية قليلاً فقد كانت الدولة كغيرها من الدول التركية التي نشأت في المنطقة فقد اتبعت نظام الإقطاع العسكري الذي كان سائداً آنذاك ، كما أنها اهتمت بالمناصب الإدارية وتسلسلها بالدولة بالشكل

(١) تاريخ فاتح العالم ، ج٢ ، ص ٣٥ ؛ التاريخ الغازاني ، ص ٢٤٧ ، ٢٧٨

(٢) تاريخ بخارى ، ص ١٧٧ .

(٣) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٥ .

(٤) الصفدي (خليل بن أبيك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) : الوافي بالوفيات ، اعتناء : إحسان عباس ، بيروت ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، ١٩٧١ م ، ج١٣ ، ص ٢٦٨ ؛ أما المذهب الحنفي : فهو من المذاهب الفقهية التي تعتمد الأخذ بطريقة الرأي والقياس وتنسب إلى الأمام أبي حنيفة النعمان ت ١٥٩ هـ / ٧٦٧ م ؛ حسن ، تاريخ الإسلام ، مرجع سالف ، ج٢ ، ص ٢٧١ .

(٥) بارتولد (فلاديمير وفتش) : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة : أحمد سليمان ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٠٨ م ، ص ١٢٧ ؛ أمين (حسين) : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م ، ص ٤٦ .

(٦) أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، بيروت ، دار الجيل ، ط٢ ، ١٩٧٤ م ، ص ٨٣ .

(٧) الكامل في التاريخ ، ج١٠ ، ص ٢٦٦ ؛ المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ، ص ١١٢

الذي يخدم مصالحها ^(١). بالتالي نشأت بدايةً كأى دولة تابعة لإحدى الدول ثم تمتعت بالاستقلال الذاتي ولكنه لم يدم طويلاً؛ فقط "سبعاً وثلاثين سنة" عاشت خلالها في رخاء اقتصادي ، وأدبي وحضاري ، ولكن نتيجة لسوء تدبير حكامها ولعدم توثيق علاقاتهم بالشعوب التي حكموها والتي اختلفت عنهم ، ونتيجة لتحكم أفراد الجيش بصنع القرار السياسي ، فإذا ما جمعت كل تلك الأسباب وأضيف إليها عنصر خارجي تمثل بالمغول فقد انهارت الدولة وزالت من الوجود للأبد ، بعد هذا العرض البسيط لآبد من التطرق الآن للحديث عن علاقة الدولة الخوارزمية مع من عاصرها من الكيانات في مشرق العالم الإسلامي.

ثانياً : علاقة الدولة الخوارزمية مع الكيانات المجاورة لها .

أحاط بالدولة الخوارزمية العديد من الكيانات والدول وقد ناصب معظمها تلك الدولة العداء منها: السلاجقة ، ومملكة الخطا ، والغور والقلاع الاسماعيلية إضافةً إلى الخلافة العباسية ، لذا لابد من دراسة علاقة الخوارزميين بكل كيانٍ على حدة للتعرف على طبيعة السياسات التي كانت قائمة في ذلك الوقت في مشرق العالم الإسلامي.

١ . مع الدولة السلجوقية في خراسان وعراق العجم :

ولدت الدولة الخوارزمية من رحم الدولة السلجوقية التي كانت قائمة في المنطقة منذ النصف الأول من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد. وهم بدايةً فرع من قبائل الغُرّ ، انسابوا حوالي ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م من سهول تركستان وسكنوا أول أمرهم في بلاد ما وراء النهر ^(٢) ومدّوا يدّ العون للدولة السامانية ^(٣) فسمحت لهم بالإقامة في المناطق القريبة من نهر سيحون ، فاتخذوا نتيجة لذلك من نور بخارا ^(٤) مركزاً لهم ^(٥) سمووا بالسلاجقة نسبةً إلى جدهم الأعلى سلجوق بن دُقاق ، وقد دخل السلاجقة في صراعات مع الدولة الغزنوية حيث تمكنوا من هزيمتها نهائياً سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ودخل نيسابور والسيطرة على كافة المناطق التي كانت تابعة لها ^(٦). حصل طغرلبيك ^(٧) ت ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م حاكم السلاجقة على اعتراف رسمي من الدولة العباسية ودخل

(١) للمزيد عن الأمور الإدارية ، انظر: العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٢١٧ - ٢٤٩.

(٢) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ٤٥ .

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٧

(٤) انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٥) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، ١٤٥ - ١٤٦ ؛ حلمي (أحمد كمال الدين) : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، الكويت ، ذات السلاسل ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٦) الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٤٢ ؛ عطا (زبيدة) : الترك في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الفكر العربي (د.ت) ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٧) انظر تعاريف ص ٣٤٢

عاصمتها بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سلمياً^(١) واستمر حكم السلاجقة العظام حتى سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م لتضطرب بعدها، ولكن عادت وانتعشت شيئاً ما في عهد السلطان سنجر ت ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م والذي أسس لنفسه حكماً مستقلاً نوعاً ما في مناطق خراسان متخذاً من مرو عاصمةً له ، ولقد حاول أن يعيد المجد الغابر للدولة السلجوقية ولكنه أخفق وبعد وفاته دخلت الدولة في مرحلة من الاضطرابات تعاقب على حكمها العديد من القادة الذين اتخذوا من عراق العجم مركزاً لهم واشتهر منهم أرسلان بن طغرل والد السلطان طغرل آخر حكام السلاجقة ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ، وابنه طغرل بن أرسلان شاه ت ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م الذي انهارت الدولة بمقتله على يد السلطان تكش سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م وانهار معها حكم السلاجقة في بلاد ما وراء النهر وخراسان وعراق العجم^(٢) وبعد هذا العرض البسيط عن تاريخ الدولة السلجوقية لابد من التعرف على طبيعة العلاقة التي ربطتها بالدولة الخوارزمية ولاسيما أن مؤسس الأخيرة كان من الموظفين لدى السلاجقة ، فقد بدأت العلاقة وديةً وعبرة عن علاقة تابع بسيده طوال مدة حكم أنوشتكين وابنه محمد والسنوات الأولى من حكم أئمز^(٣) حيث قدّم أئمز خدمات لولي نعمته سنجر تمثلت بمساعدته في حملته على سمرقند لتأديب حاكمها^(٤) ولقد ساعده فعلاً وحماء من مكيدة دبّرت لاغتياله^(٥) وكان ذلك في شهر سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م^(٦) أما في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م فقد شارك أئمز سيده في المعركة التي نشبت بينه وبين ابن أخيه السلطان مسعود بن محمد ت ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م^(٧) و الخليفة المسترشد بالله ت ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م^(٨) التي جرت أحداثها بالقرب من مدينة الدينور^(٩) ولقد حقق أئمز النصر لسيده وقتل العديد من أتباع السلطان مسعود الذي عاد إلى صوابه وتصالح مع عمه سنجر الذي وبّخه على فعله ذاك وعفا عنه^(١٠) ، أما آخر مساعدة قدمها أئمز لسيده وبعدها ثار عليه، سنة ٥٢٩ هـ /

(١) البنداري (الفتح بن علي ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) : تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت، دار الآفاق الجديدة ، ط ٢ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ١٠ ؛ ابن الوردي (عمر بن مظفر ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) : تاريخ ابن الوردي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

(٢) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٥٦ - ٢٧٨ / ٤٦٢ - ٣٦٣ ؛ الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٩٢ - ١٩٨ ؛ رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ١٩٨ ؛ الأمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢٦٧ .

(٣) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٥٧ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٢٤ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٠ ، الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٢ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .

(٧) انظر تعاريف ص ٣٤٣

(٨) انظر تعاريف ص ٣٤١

(٩) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(١٠) ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي ت. ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مصطفى القادر عطا ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، (د.ت) ، ج ١٧ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٦٣ .

١١٣٤ م عندما أعلن حاكم غزنة ^(١) رفضه لطاعة سنجر لذا تحرك الأخير نحوه رغبةً في تأديبه وقد ساعده أئسز كذلك الأمر في هذه الواقعة ^(٢) بعدها غادر السلطان سنجر في سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م إلى مدينة بلخ و في هذه المدينة اكتشف أئسز أن المكانة العالية التي حازها لدى السلطان أدت إلى تدبير المكائد ضده وإثارة الأحقاد عليه من قبل حاشية سنجر ودفعتهم أيضاً إلى السعاية ضده لذا أحس أئسز بتغيّر السلطان تجاهه فما كان منه إلا أن طلب منه السماح له بالمغادرة والعودة نحو خوارزم وقد كان هذا آخر لقاء تم بينه وبين السلطان سنجر ^(٣)، أعلن أئسز الثورة على سيده ولم يكتف بذلك بل هاجم كلاً من مدينتي جند ومنقشلاغ ^(٤) وقتل العديد من المسلمين فيها عندها تأكد سنجر من الشائعات التي كانت تحكى عن أئسز فما كان منه إلا أن أعدّ عدّته وتحرك باتجاهه ^(٥). ولقد حدث الصدام الأول في محرم سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م أمام أبواب خوارزم حيث كانت الهزيمة من نصيب أئسز فقد قتل ما يقارب عشرة آلاف من جنوده كما أسر ولده ^(٦) وقتل على يد سنجر ^(٧) واستسلم جيش أئسز إلى سنجر الذي دخل خوارزم بعد فرار أئسز منها وعيّن عليها ابن أخيه ^(٨)، وبعدها غادرها إلى مرو ، ولكن بعد مغادرته كره أهالي خوارزم حكم عساكر سنجر فما كان منهم إلا أن ساعدوا أئسز على العودة واستلام مقاليد الحكم فيها من جديد ^(٩)، و هدأت الأحوال بين الطرفين لمدة من الزمن ، ولكن أئسز لم ينسَ أفعال سنجر ولاسيما أنه قتل ولده ولكن في تلك المدة كان ضعيفاً لا يقوى على المواجهة ولاسيما أن قواته قد قتل معظمها ومن لم يقتل تفرق في أنحاء البلاد ، لذا فما كان منه إلا أن طلب المساعدة من طرفٍ ثالث أدخله في حلقة الصراع، وهم الخطا، فاتصل بهم وحثهم على المسير إلى قتال سنجر وأطمعهم في البلاد، ولتدعيم علاقته بهم تزوج إحدى بناتهم ^(١٠)، و تحرك هؤلاء

(١) وهو بهرام شاه وكان السلطان سنجر قدم المساعدة له سابقاً ؛ الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٨٤ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٤) منقشلاغ : انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٥) الصدفي ، تاريخ دول الإسلام ، ص ٢٠٠ ؛ براون ، تاريخ الأدب في إيران ، ص ٣٨٤ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٤٤ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٤٧٤

(٦) يدعى أئليغ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٠٩ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٣٩ ؛ ابن سباط (حمزة بن سباط ت. ٩٢٦ هـ / ١٥٢٩ م) : تاريخ ابن سباط ؛ تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، لبنان ، (د.ت.) ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٨) وهو غياث الدين سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه والذي توفي سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٠٩ .

(٩) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٠٩ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٢ ؛ ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت. ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ هـ) : تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص ١٠٦ ؛ صبرة ، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، ص ٣٧

(١٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ١٧ ، ص ١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣١٩ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٣٧ .

واصطدموا مع سنجر في موقعة قطوان^(١) في محرم من سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م حيث انهزم فيها وتراجع باتجاه بلخ بعد أن قتل عدد كبير من جيشه وأسرت زوجته^(٢)، ولقد عاث هؤلاء فساداً في المنطقة واستغل أئسز بدوره ذلك الوضع فهاجم سرخس^(٣) سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م، ودخل مرو في السابع عشر من ربيع الأول من السنة نفسها وقتل الكثير من أهلها وعلمائها واستولى على خزائن سنجر، وبعدها عاد إلى خوارزم^(٤)، وكذلك سار إلى نيسابور وغيرها من مدن خراسان حيث عاث فساداً فيها، فهو لم ينتقم من سنجر فقط، بل مارس أبشع أنواع السلب والنهب والقتل بحق السكان الآمنين، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الطبيعة البدوية غير المنظمة التي امتاز الترك بها التي دفعت بالتالي سنجر بعد أن استعاد سلطته على خراسان للتحرك لتأديب أئسز وذلك في شهور سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م حيث وصل إلى خوارزم وضرب الحصار عليها وكالعادة لم يخرج أئسز إلى لقائه، إنما فضل المكوث خلف أسوار عاصمته وقتاله من خلفها، وقد فسر المؤرخون عدم خروجه ذاك لأنه كان يعلم مقدار وهنه وضعفه أمام قوات سيده، لذا فضل المكوث خلف أسواره^(٥) وطالت مدة الحصار واشتدت معها الضغوط على أئسز، الذي وجد نفسه في موقع لا يمكنه من الصمود طويلاً، فسارع إلى تقديم الهدايا إلى سيده وطلب منه العفو والمسامحة، فوافق سنجر على ذلك الأمر ورفع الحصار عن خوارزم وعاد سنجر إلى عاصمته وبرفقته صناديق كنوزه التي أعادها إليه أئسز بعد أن نهبها من عاصمته مرو سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م^(٦). وما إن عاد سنجر إلى عاصمته، حتى رجع أئسز إلى سيرته الأولى من تدبير المكائد ضد سيده والتوسع على حسابيه، لذا أرسل له سنجر رسلاً^(٧) يحمل رسالة عتاب في الظاهر وفي الباطن كلفه بمراقبة أئسز، ولكن أئسز اكتشف أمره وعمد إلى قتله سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م^(٨) فما كان من سنجر إلا أن تحرك مرة ثالثة باتجاه خوارزم بغية تأديب

(١) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ٢٥٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣١٩؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٣٦٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٨٦.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٤) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٩٥؛ الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٢٦٤؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣٢٣؛ الصفدي، تاريخ دول الإسلام، ص ٢٠٠.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ٢٦٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣٢٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٤٠.

(٦) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٩٥؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ٢٦٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣٢٩؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٦؛ بارتولد، تركستان، ص ٤٧٧.

(٧) هو أديب صابر شاعر سنجر الخاص، وقد قتل سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م غرقاً في نهر جيحون؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٤٢١.

(٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ٢٦٠؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٣٨٥؛ صبرة، التاريخ السياسي للدولة الحوارزمية، ص ٤١.

أتسز ، وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ووصل أولاً إلى قلعة هزاراسب^(١) التي تحصن بها أتسز واستمر في حصارها لمدة شهرين جرى خلال ذلك إضافة للصدام العسكري ، صدام من نوع آخر وذلك من خلال الشعر بين الأنثوري^(٢) شاعر سنجر والوطواط^(٣) شاعر أتسز ، وظفر سنجر بعد مشقة بقلعة هزاراسب وتراجع أتسز نحو خوارزم التي تحرك نحوها سنجر وحاصرها ، وكالعادة أحس أتسز بمقدار ضعفه لذا بدأ يرجو سيده العفو عنه ، وفعلاً رق قلب سنجر عليه ، وعفا عنه بشرط أن يأتي لمقابلته على ضفة نهر جيحون وفعلاً قبل وجاء في يوم الاثنين الثاني عشر من محرم سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وقدم له فروض الطاعة . ولكن قبل أن يلوي سنجر عنان جواده خاف أتسز لأنه ظن أن السلطان سيقبض عليه فتراجع هارباً ، على الرغم من كون هذا العمل يعد تقصيراً بحق السلطان ومقامه ، إلا أن سنجر عفا عنه وعند عودته إلى مرو أرسل الهدايا له^(٤) وانتهت الصدامات بين الطرفين وهذأت لمدة من الزمن، تلك الصدامات التي كان سببها دائماً تهور أتسز وطمعه ، ولكن كان سنجر يعفو عنه دائماً وبعدها انشغل سنجر بمشاكله حيث تعرض لغارة من قبل الغُزّ بينما عاجلت المنية أتسز في سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م، وبعدها توفي سنجر سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م^(٥) . لا بد من التنويه بأنه لم يشر أحدٌ من المؤرخين العرب إلى صدام سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م^(٦) بين أتسز وسنجر ، أشار إلى ذلك فقط الجويني ، ربما لكون ذلك الصدام لم يكن من القوة بمكان لدفع المؤرخين لذكره ، أو أنه كان عبارة عن مناوشات ، أم أن المؤرخين قد مالوا إلى الاختصار فلم يذكروا كافة الصدامات بل اقتصروا على قدرٍ معينٍ . خلف أتسز ولده ايل أرسلان الذي استمر على علاقته الطيبة مع الدولة السلجوقية ، ولم يدخل في صداماتٍ مباشرةٍ معها . لكون السلاجقة انشغلوا بصراعاتهم الداخلية وهو انشغل بتوطيد نفوذه وصراعاته مع الخطا إلى أن توفي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م وخلفه كما ذكر من قبل ولده سلطان شاه بداية ثم انتزع الحكم منه أخوه تكش، بالتالي كانت أوضاع الخوارزميين في تلك المرحلة غير مستقرة^(٧) وكذلك السلاجقة والذين انشغلوا بصراعاتهم، وقد استلم السلطنة في تلك الحقبة طغرل بن أرسلان سنة ٥٧١ هـ /

(١) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٢) انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤٤

(٤) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ؛ براون ، تاريخ الأدب في إيران ، ص ٣٨٦ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٤٧٧ ، العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٥٠ ؛ العربي ، المغول ، ص ٣٧٩

(٥) السمعاني (عبد الكريم بن محمد . ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) : الأنساب ، وضع حواشيه : محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ج ٧ ، ص ٥٩ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٢٤ ؛ ج ١٥ ، ص ٢٨٦ ؛ بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص ٣٠

(٦) بارتولد ، تركستان ، ص ٤٨٤ . ٤٨٥ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٥٨

(٧) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢١٨

١١٧٥ م ، وكان في السابعة من عمره فتولى تدبير شؤون الحكم عدد من الموظفين الذين ربطتهم علاقات سيئة بطغرل حيث مال معظمهم إلى الطمع في السلطنة ، ولتحديد السلطان طغرل ، بل أن أحدهم عمد إلى سجنه ولكن السلطان تمكن في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٢ م من الخلاص من سجنه ونقم على هؤلاء الذين برز منهم في ذلك الوقت قتلغ اينانج بن محمد بن إلكز ت ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م^(١) فخاف من انتقام طغرل الذي استولى على همذان، واشتبك معه في معركة انتهت بهزيمته وتحصنه بالري ، ودفعه لطلب المساعدة من قوة قريبة منه، فلم يكن أمامه سوى علاء الدين تكش فاستنجد به^(٢) وفعلاً ساعده ولكنه قدم إلى المنطقة واستولى على قلعة طبرك^(٣) وعلى الري فاستاء اينانج وندم على استدعائه وتكرر له^(٤). و لم يمكث علاء الدين تكش في المنطقة طويلاً بل غادرها بعد أن وصلته أنباء تقييد بأن أخاه سلطان شاه تحرك محاصراً لعاصمته خوارزم ، فما كان منه إلا أن قفل عائداً لكي يدافع عن عاصمته ولكن القدر خدمه كثيراً فقد توفي أخاه سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وفي تلك المرحلة عاد السلطان طغرل واستولى على الريّ ودعم حكمه فيها محاولاً القضاء على إينانج^(٥) الذي عاد متوسلاً طالباً المساعدة من علاء الدين تكش لتخليصه من طغرل والذي كان مصراً على القضاء عليه^(٦)، بالتالي فإن رسائل إينانج السالفة أطمعت السلطان تكش في عراق العجم كما وصلته رسائل أخرى من الخليفة الناصر لدين الله شكاً فيها من السلطان طغرل ، ومن تعدياته فقد هزم قوات الخليفة عند همذان سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م^(٧)، كما تعدى على شخص الخليفة لذا أرسل الأخير طالباً مساعدته لتخليصه منه ، كما حمل الرسول أيضاً منشوراً نصّ على إقطاعه أملاك السلطان طغرل التي يتمكن من الاستيلاء عليها. دفعه ما تقدم إلى التحرك بغية التخلص من السلطان طغرل، لذا نشبت معركة حاسمة بين الطرفين وهما: علاء الدين تكش "جيش النجدة" ومن انضم إليه من قوات قتلغ إينانج والأمراء المحليين في المنطقة الراضين لحكم السلطان طغرل، وبين السلطان طغرل وأتباعه انتهت بانتهاء الدولة السلجوقية، لذا سيتم التطرق

(١) انظر تعاريف ص ٣٤٢

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٣٢ ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١١٢ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ١١٢

ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ؛ العريني ، المغول ، ص ٨٣.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٣٢ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٦٣

(٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١١٢

(٦) الراوندي ، راجة الصدور وآية السرور ، ص ٥٠٥ ؛ رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ١٩٧.

(٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٧٨

إليها بعض الشيء. بداية اتفق معظم المؤرخين على أن المعركة حدثت بالقرب من الري^(١) ولكن منهم من حدد الموقع بدقة أكبر، فرشيد الدين الهمذاني مثلاً ذكر بأن اللقاء كان على بعد ثلاثة فراسخ^(٢) من الري^(٣)، بينما ذكر الحسيني بأنه كان على مقدار فرسخ واحد منها^(٤)، و مهما يكن فقد كان اللقاء بالقرب من المدينة التي جرى الصراع عليها ، أما تاريخ حدوثه فاتفق معظمهم على أنه حدث في مطلع شهور سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م^(٥) ولكن الراوندي حدده بصورة أدق حيث ذكر بأنه حدث في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣^(٦).

بعد هذا العرض البسيط لا بد من الحديث عن مجريات المعركة والتي تناول أحداثها أكثر من مؤرخ فالجويني أظهر مقدار استهتار السلطان طغرل الذي لم يستعد للمجابهة إلا عندما دنت منه قوات الأعداء ، وعباً جيشه وعندما دنا منه جيش السلطان تكش وبرفته اينانج سارع لارتداء كامل بذته الحربية وحمل دبوسه الثقيل الذي كان يتباهى به، ويردّ به الأعداء من حوله، ولكن ما حدث بحسب تعبير الجويني : " بأن طغرل وقع تحت رحي الفلك فدهست حبة حياته وجاءه اليأس عوضاً عن البأس"^(٧)، وبالتالي سقط السلطان عن جواده فسارع اينانج للإطاحة برأسه وقتله^(٨) أمارشيد الدين الهمذاني فإنه يورد الرواية نفسها، ولكن مع بعض الفروقات، فهو يتحدث عن أن السلطان كان سكراناً عندما استعد مع عساكره للحرب ، أما دبوسه والذي كان بيده فسقط منه بتأثير سكره وأصاب ركبة حصانه فوقع هو والحصان على الأرض، فرآه اينانج فتوجه إليه وضربه ضربةً قضت عليه^(٩). وبالتالي كلا الروايتين تظهران مقدار استهتار السلطان ولم تتحدث عن قواته، أو عن قوات السلطان علاء الدين تكش ودوره في المعركة فقط تذكر اينانج وتقدمه، وأنه هو المسؤول عن قتل السلطان .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ٢٣٢ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١١٢ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ، ج ١ ، ص ٢١١

(٢) فراسخ: جمع مفردة فرسخ وهو وحدة قياس فارسية عُربت عن كلمة فرسنگ وتساوي ثلاثة أميال ، والميل يساوي أربعة آلاف ذراع أي ما يقارب اثنا عشر ألف ذراع ؛ رمضان (حميد) : الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين ، دمشق ، دار الملاح ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٧٣

(٣) التاريخ الغازاني ، ص ١٩٨

(٤) اخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٩٢

(٥) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ؛ رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ١٩٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٣٢

(٦) راحة الصدور وآية السرور ، ص ٥١٣ .

(٧) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٠

(٩) التاريخ الغازاني ، ص ١٩٨ .

أما ما أورده الحسيني فكان مغايراً، فهو يتحدث عن أن السلطان طغرل استعد للحرب فخرج من الريّ وعسكر بالقرب منها هو وبعض جنوده ، وعندما وصل السلطان علاء الدين تكش بجيوشه تحرك حتى ابتعد عنها مقدار فرسخ والتقى مع أمراء العراق ومقدمهم اينانج ، فلما رأى السلطان طغرل اجتماع الجيوش سارع وحمل عليهم هو وجنوده الذين أحاطوا به واتخذ لنفسه موضع القلب ولكن رماه أحدهم بسهم في عينه أراده عن حصانه حيث سارع اينانج إليه، فلما تعرف السلطان طغرل عليه، قال له : " يا محمود احملني وامض بي فهو خير لك ولي " ^(١)، ولكن اينانج رفض ذلك وقتله وحمل رأسه إلى السلطان تكش الذي غضب لتصرفه ذاك وأنبّ اينانج بقوله: " لو جئتم به حياً كان أحب إليّ وأشهى لديّ، ولكن أجله حكم عليه " ^(٢) بالتالي فإن الحسيني في روايته لم يتحدث عن ضعف السلطان ، كما أنه لم يشر لسكره أو دبوسه الذي سبب وقوعه عن حصانه ، وإنما جعل سبب موته لسهم أصاب عينه ، مما دفع اينانج للإسراع بالإجهاز عليه على الرغم من كون تصرفه ذاك سبب انزعاج السلطان تكش، الذي كان يرغب في إحضاره حياً . أما آخر الروايات وهي رواية الراوندي فكانت كالتالي : بأن السلطان طغرل خرج بنفسه للقتال وأنه قسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وتولى هو بنفسه قيادة القلب ^(٣) وهنا تشارك مع رواية الحسيني وتقاطع معها ، هذا كان في الحملة الأولى أما في الثانية فإنه هجم بذاته، وألقى بنفسه وسط المعركة، ولكن ما حدث أن تراجع الجيش فجأة عن السلطان، ولم يذكر الراوندي السبب بل تحدث عن كون السلطان بقي وحيداً في الوسط ، ولكنه لم يستسلم، وكان الطرف الآخر حريصاً على قتله لأنه قد سبب لهم الكثير من الفتن وفعلاً استطاعوا قتله بسهولة، فقد رموه عن جواده واحتزوا رأسه دون مراعاة لحرمة السلطنة، وقد رثاه الراوندي بقوله: "قوا أسفاه على ذلك الملك الفاضل ويا أسفاً على ذلك السلطان العظيم الذي استمرت عين السحاب تبكي طوال الدهر على موته" ^(٤).

بالتالي فإن الراوندي تحدث عن أن الصدام حصل على دفعتين في الأولى اصطدام السلطان طغرل بأعدائه بكامل جيشه، أما في الثانية انفض عنه جيشه، وبقي وحيداً مع عدد قليل فتمكن منه أعداؤه ورموه عن فرسه دون ذكره الطريقة التي رموه فيها، لم يذكر الراوندي استخدامه لدبوسه ولكنه في موضع آخر ^(٥) تحدث عن افتخار السلطان بقوة ساعده، فقد كان يحمل دبوساً

(١) أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

(٣) راحة الصدور وآية السرور ، ص ٥١٣ .

(٤) المصدر نفسه، ٥١٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠٩ .

يبلغ وزنه ثلاثين مناً^(١) وكان يقضي به بضربة واحدة على الفارس وجواده معاً^(٢) وقد حمل رأس السلطان طغرل إلى الخليفة الناصر الذي أمر بصلب بدنه في سوق بغداد في التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م^(٣). أما المصادر العربية فلم تتحدث عن صلبه وإنما عن دفن جثته في مقبرة ببغداد في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م^(٤) بالتالي بمقتل السلطان طغرل زالت الدولة السلجوقية من الوجود، وحلت مكانها الدولة الخوارزمية التي ورثت أموالها وأراضيها فقد دخل السلطان علاء الدين تكش دار الملك بهمدان في رجب سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م^(٥) وهكذا آل حكم عراق العجم للخوارزميين مما دفعهم إلى الدخول في صراع مع الخلافة العباسية حوله^(٦).

٢. قلاع الاسماعيلية :

ارتبطت الدولة الخوارزمية بعلاقات مع الكيانات التي جاورتها ومنها الاسماعيلية ، لذا لابد من إلقاء الضوء على تلك الطائفة: بدايةً الاسماعيلية هي إحدى الفرق الإسلامية التي انبثقت عن الشيعة الإمامية بمبادئها بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ت ١٤٣ هـ / ٧٦٠ م ومن بعده ابنه محمد المكنى بـمُؤدباً بدلاً من موسى الكاظم ت ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م^(٧) والذي اختاره والده ليخلفه بعد وفاة أخيه الأكبر اسماعيل^(٨) حيث كانوا مقتنعين بأن إمامته غير صحيحة والصحيحة إمامة اسماعيل ومن بعده أبنائه لذا اتخذت مبدأ الإمامة الباطنية وتبنت نهج الدعوة السرية^(٩). أما الاسماعيلية النزارية فهي فئة انبثقت عن الاسماعيلية ونادت بإمامة نزار بن المستنصر بالله ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م^(١٠)، بدلاً من إمامة أخيه المستعلي ت ٤٩٥ هـ^(١١)، ذلك أن اختيار

(١) المن : وحدة قديمة للقياس معروفة عند قدماء اليونان ، وعند السريان والعرب قبل الإسلام قيل أنه كيل أو ميزان وهو رطلان أي ألف وثمانمائة غرام ؛ رمضان ، الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين ، ص ١٠٦

(٢) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٥٠٩

(٣) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٨٠؛ رشيد الدين الهمداني ، التاريخ الغازاني ، ص ١٩٨

(٤) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١١٢ ؛ ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ، ج ١ ، ص ٢١١ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٥) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٥١٩ .

(٦) انظر ص ٥٢ ، خواندمير ، دستور الوزراء ، ص ٣٠١

(٧) انظر تعاريف ص ٣٦٣

(٨) الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) : الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، بيروت ، دار الفكر ، (د ب) ، ص ١٩٢ ؛ رستم (سعد) : الفرق والمذاهب الإسلامية ، دمشق ، دار الأوائل ، ط ٧ ، ٢٠٠٩ ، ص ٢١٠ ؛ حسين (محمد كامل) : طائفة الاسماعيلية ، القاهرة ، دار النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٥٩ م ، ص ٥٩ - ٦٠

(٩) رستم ، الفرق والمذاهب الإسلامية ، ص ٢١٠ ، النياس (سليم) الموسوعة الكبرى للمذاهب والفرق والأديان ، بيروت ، مركز الشرق الأوسط الثقافي ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م ، ج ١ ، ص ٧ .

(١٠) انظر تعاريف ص ٣٤٣

(١١) انظر تعاريف ص ٣٤٣

المستعلي أحدث شرخاً بين أتباع الدعوة الاسماعيلية حيث رفض اسماعيلية المشرق الولاء للخليفة الجديد وأعلنوا ولاءهم لنزار وسلالته. انتشرت هذه الدعوة في مناطق عدة من المشرق وبشكل خاص في الشام و فارس^(١). أما في فارس فقد كتب لها التوسع والازدهار على يد الحسن ابن علي بن محمد بن الصباح ت ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م^(٢) والذي نقل الدعوة ونشرها في مناطق جنوبي بحر قزوين^(٣) وتمكن سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م من الاستيلاء على قلعة ألموت^(٤) ولم تكن ألموت هي القلعة الوحيدة التي سيطر عليها بل استولى على قلاع أخرى ذكرها كل من ابن الأثير وأبي الفداء في مؤلفاتهما^(٥) يضاف إليها قلعة لمسر أيضاً^(٦)، و مهما يكن فقد توفي الحسن بن الصباح بعد أن وضع حجر الأساس للإسماعيلية النزارية في المنطقة والتي تحولت إلى كيان سياسي قوي شكل خطورة على من جاورها من دول المنطقة وذلك لممارستها الاغتيال السياسي الذي برعت فيه^(٧) واستمرت على هذه الحال إلى أن قضى المغول عليها نهائياً سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م^(٨) ولكن على الرغم من ذلك استمر أتباع الدعوة منتشرين في أصقاع الأرض حتى الوقت الحاضر. لقربها من مناطق الدولة الخوارزمية فقد نشأت علاقات فيما بينهما، ولكن لم تكن هذه العلاقات جيدة، بل شابها الكثير من المشاحنات ولاسيما في عهد السلطان علاء الدين تكش وبالتحديد في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م^(٩).

هذه المشاحنات لم يعرف أسبابها ولكن ما سجلته أقلام المؤرخين هو شروع السلطان علاء الدين تكش بالإعداد لحملة كبيرة توجه بها نحو قلاع الإسماعيلية المنتشرة حول بحر قزوين، حيث اتجه بدايةً نحو قلعة أرسلان كشاه^(١٠) وتمكن بعد حصار دام لأربعة أشهر من هدم تحصيناتها والتصالح مع أميرها^(١١). وبعدها اتجه نحو قلعة ألموت والتي صالحته ثم عاد إلى عاصمته خوارزم، ولكن لم يكّد يصل إلى عاصمته حتى ردّ اسماعيلية على أعماله تلك بقتل صدر الدين

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٨٣؛ رستم، الفرق والمذاهب الاسلامية، ص ٢٨٨، ٢٩٥.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٣) خواندمير، دستور الوزراء، ص ٣٠٦، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٣٠٣؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٣٨٨.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٥) الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٨؛ المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٢١٤.

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٧) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٣٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٩٥؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ٢، ص ٤١٠؛ اليافعي (عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق : خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ج ٣، ص ١٧٣.

(٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٦٢.

(١٠) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(١١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٦٢؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص ٣٠٩.

محمد بن الوزان ت. ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م رئيس الشافعية في مدينة الري^(١). والذي شارك السلطان في حملته تلك^(٢)، ولم يكتفوا بذلك بل أقدموا سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م على اغتيال وزير السلطان نظام الملك مسعود بن علي ت. ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م^(٣)، والذي عدّ برأيهم المسؤول عن تحريض السلطان على الإعداد لتلك الحملة التي توجهت نحو قلاعهم^(٤)، وحزن السلطان تكش لوفاته وانتقاماً له أمر ولده محمد بالإعداد لحملة لتأديب تلك القلاع ، وفعلاً تمّ الإعداد لها وسارت الحملة نحو تلك القلاع وحاصرت إحداها لمدة أربعة أشهر ولكن سرعان ما صالح أهلها على جزية معينة وسارع بالعودة فقد وصلته أنباءً تقيد بأن والده على فراش الموت^(٥). بالتالي في كلتا الحملتين وجه الخوارزميون رسائل تأديب فقط للإسماعيلية ولكنهم لم يستطيعوا الحدّ من خطرهم و بعد وفاة السلطان علاء الدين تكش خلفه ولده علاء الدين محمد والذي عاصر حكم إمام الإسماعيلية جلال الدين حسن بن محمد ت. ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م وقد خالف هذا الإمام سلالته بأن أعلن التزامه بالإسلام الصحيح وانتقل من فعل المحرمات واستحلالها إلى إقامة الصلاة وأرسل رسولاً إلى خليفة بغداد الناصر لدين الله لكي يدخل في خدمته وقد تمّ ذلك في سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م^(٦) كما أنه توقف عن ممارسة أعمال الاغتيالات وركز جهوده على أعمال الخير ، وقد أيد ذلك الإمام حكومة السلطان علاء الدين محمد ولم يلجأ للصدام معها، بل على العكس خطب باسمه ودعا له ، ولكن سرعان ما انقلب عليه لأسباب غير معروفة^(٧). فقد ذكر الصفدي بأن السلطان علاء الدين محمد لما تسلّطن قصد بلاد الاسماعيلية^(٨)، كما أنه استولى على مازندران والمناطق المحيطة بقزوين، بعمله ذاك شكل خطراً عليهم وعلى خطوط إمداداتهم لذا غير إمامهم موقعه وراسل الخليفة ودخل في طاعته وساعده على إزالة كلّ شخص معارضٍ له ،

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٨

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٢ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٨٩ .

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤٣

(٤) خواندمير ، دستور الوزراء ، ص ٣٠٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٢ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٨٨ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٨٩ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٢ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٢٨٨ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٤٣ ؛ فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ١٥١ ؛ العبود ، الدولة الخوارزمية ، ص ٨٩ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٥٧ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ١٢ ، ص ١٩٤ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٤٠ .

(٧) ابن الأثير ، مصدر سالف ، ج ١٠ ، ص ٣٥٧ ؛ لويس (برنارد) : الحشيشية : الاغتيال الطقوسي عند الاسماعيلية النزارية ، ترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، دار قتيبة ، ط ٢ ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ ، ص ٢٣٣ ؛ جمال الدين (محمد السعيد) : دولة الإسماعيلية في إيران ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ص ٩٣ - ١٠٠

(٨) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ١٥ ، ص ٢٨٤ .

لذا أقدموا على اغتيال نائب الخوارزميين في عراق العجم^(١) وباغتياله انقطعت خطبة الخوارزميين بالعراق وكان هذا غاية ما يتمناه الخليفة الناصر، والذي كانت خلافاته كلها مع الخوارزميين يدور محورها حول ذلك الإقليم^(٢)، وأزعج هذا العمل السلطان ولكنه لم يتخذ أي إجراء ضدهم ، فقط اكتفى بمهاجمة بغداد سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وأخفق في حملته تلك ، كما أنه انشغل بخطر كبيرٍ قادمٍ من الشرق وهو المغول الذين سارع الإسماعيلية إلى الاعتراف بهم ومراسلتهم فنجاوا بذلك مؤقتاً من غضبهم ومن الفناء المحتّم الذي أصاب جميع دول المنطقة^(٣).

توفي السلطان علاء الدين محمد وخلفه في حكم بقايا الدولة الخوارزمية ولده جلال الدين منكبرتي ، الذي انشغل بصراعاته مع المغول ولكن بعد عودته من الهند واقتربه من حدود قلاعهم وذلك ، بنشاطه في مناطق أذربيجان، بدأ صدامه مع الإسماعيلية وذلك في سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م حيث أقدم الاسماعيلية بحسب رواية ابن الأثير على قتل أميرٍ من أمراء جلال الدين كان قد أقطعه مدينة كنجة^(٤)، ولذا وانتقاماً له عمد السلطان إلى مهاجمة قلاع الاسماعيلية وقتل أهلها ونهب أموالهم^(٥)، أما النسوي فقد أورد روايةً مغايرةً لذلك فقد تحدث عن أن عامل السلطان على كنجة، ويدعى أورخان، أساء نوابه لما يتاخم مناطقهم من بلاد الاسماعيلية فضاق الاسماعيلية ذرعاً بهؤلاء فعمدوا إلى إرسال رسولٍ شكّا إلى السلطان جلال الدين تصرفات عماله ، ولكن حدث تلاسن بالكلمات بين أورخان ورسول الاسماعيلية دفعت الأخير لنقل ذلك لإمامه الذي أرسل ثلاثة فدائية قتلوه^(٦) مسببين بقتلهم له استياء السلطان جلال الدين. وجرت كذلك حادثة أخرى أجبت الخلافات بين الطرفين فقد أقدم السلطان جلال الدين على الطلب من عامله على أذربيجان إحراق خمسة فدائية تم اكتشاف وجودهم ضمن عماله ، ودفع عمله ذاك الاسماعيلية إلى إرسال رسولٍ يعاتب السلطان على عمله ذاك ، وقد تصالح الطرفان على أن يدفع عامل السلطان جزية سنوية مقدارها ثلاثين ألف دينار ، وقد شهد تلك الحادثة المؤرخ النسوي^(٧) بالتالي فقد تغلغل الاسماعيلية في جسد الدولة الخوارزمية بسهولة كبيرة ، وكان من الصعوبة بمكان كشفهم ، وإن كان الاغتيال والقتل قائماً بين الطرفين، فإن الرسل كانت متبادلة، أي أن العلاقات السياسية لم تنقطع بين كلا الطرفين على الرغم من كلّ ما حدث .

(١) وهو أغلمش الأتابكي ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م نائب السلطان علاء الدين محمد في عراق العجم وقد اغتالوه عند خروجه لاستقبال قافلة الحجيج ، حيث قفز عليه أحدهم في زي الحجاج وأرداه قتيلاً ؛ النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٥٢؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٢٣٨ .

(٢) النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٥٢ ؛ لويس ، الحشيشية ، ص ٢٣٨

(٣) بارتولد ، تركستان ، ص ٥٣٣ .

(٤) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٥) الكامل في التاريخ ، ج ١٠، ص ٤٧٢

(٦) سيرة السلطان ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .

هدأت الأحوال بينهما لمدة من الزمن ولكنها عادت واضطربت من جديد على أثر التجاء أخ السلطان جلال الدين غياث الدين سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م إلى الإسماعيلية بحثاً عن جماعة تحميه من أخيه جلال الدين، و استقبل الإسماعيلية غياث الدين وعاملوه معاملَةً جيدة ، ورفضوا تسليمه إلى السلطان^(١) الذي أرسل رسولاً لهم مطالباً إياهم برد أخيه وتسليمه، ولكن كان جواب الإسماعيلية كالتالي: " إن أخاك قد قصدنا وهو سلطان بن سلطان ولا يجوز لنا أن نسلمه ، لكن نحن نتركه عندنا، ولا نمكنه أن يقصد شيئاً من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره في بلادك ، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار"^(٢)، و لم يعجب هذا الرد السلطان جلال الدين لكونه كان حاقداً على أخيه رغباً في قتله ، ولكن وعلى الرغم من ذلك حرص الإسماعيلية على إعادة العلاقات بين الطرفين، لذا أرسلوا له رسولاً يخبره بأن إمامهم يرغب في إرسال تسعة فدائية كهديّة له وأن السلطان له كامل الصلاحيات في إرسالهم لأية جهة كانت وفي تكليفهم بأية مهمة أراد^(٣) ولكن رفض السلطان تلك الهدية واستمرت العلاقات بين الطرفين بين أخذ ورد إلى سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م حيث أقدم السلطان جلال الدين على إرسال كاتبه النسوي سفيراً إلى علاء الدين محمد بن الحسن صاحب أُلُوت ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م معاتباً إياه وحاملاً رسالة تضمنت ثلاثة مطالب وهي غضب السلطان جلال الدين من رفض الإسماعيلية تسليمه أخاه غياث الدين ومطالبتهم بالخطبة في بلادهم^(٤)، والآخر تسليمه الرسول بدر الدين أحمد والذي أرسل من قبلهم إلى المغول لكي يستعلم منه على فحوى الرسالة التي حملها للمغول ، فكان ردّ الإسماعيلية كالتالي : " أن السلطان يعلم أن لنا بلاداً متاخمة للتاتار ولا بد لنا من مداراتهم دفعاً للأذى عنها فإن ثبت عند السلطان أن رسالته كانت في فساد يعود إلى الدولة فنحن المذنبون في ذلك لا هو، فيبين السلطان لنا ذلك ويخجلنا ، ثم يقابل ذلك بما يرى"^(٥) أما آخر مطالبه فهي مطالبتهم بما قد بقي من الإتاوة المقررة وهي ثلاثين ألف دينار وحملها إلى الخزانة^(٦) لم يجد السلطان جلال الدين في ذلك الوقت سوى الوسائل الدبلوماسية وذلك لكونه قد دخل في مجموعة من الصراعات فضّل أن لا يفتح جبهةً جديدةً عليه، لذا حاول اتباع الأسلوب الدبلوماسي مع الإسماعيلية، و استمر الإسماعيلية يظهرون المودة للسلطان ولكنهم في الوقت نفسه راسلوا المغول يخبرونهم مقدار ضعف السلطان ويحثونهم

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٧٦ ؛ النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٢٤٢ ، أبو الفداء المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٧٦ .

(٣) النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٢٤٦ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٠ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٠ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٤١ .

على القدوم إلى المنطقة للإجهاز عليه ^(١) وفعلاً اندفع المغول نحو البلاد من جديد سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م وطاردوا السلطان جلال الدين منكبرتي الذي انتهت حياته في السنة نفسها ^(٢). بالتالي فقد كانت فئة الإسماعيلية إحدى الفئات التي وجدت في شرق العالم الإسلامي والتي حرصت على استمرار وجودها والمحافظة عليه، لذا لجأت إلى العديد من الأساليب منها عمليات الاغتيال المنظمة والتي نفذتها بحق خصومها والتي جرّت عليها عداء تلك الفئات وسخطها واتهامها من قبل بعضهم بالخروج عن تعاليم الدين الاسلامي ، بل وأكثر من ذلك دفعتهم إلى تجريد الحملات والتوجه إليها. وهكذا كان حال الدولة الخوارزمية مع حكام الموت و لمسر تارة في حالة هدوء وتبادل للسفراء ، وتارة أخرى في حالة من البغضاء والتناحر والتي تتحول دائماً إلى مشاحنات ينتج عنها إراقة للدماء في صفوف الطرفين ، ولجوء الإسماعيلية إلى طرف ثالث يساعدهم ضد الخوارزمية فاتجهوا أولاً إلى الخلافة العباسية ، ومن ثم إلى المغول الفئة الأقوى في المنطقة والتي حققت هدفهم فعلاً في القضاء على آخر رمزٍ من رموز الدولة الخوارزمية .

٣. مملكة شمال الصين كاثائي (الخطا)

تم التعرف فيما سلف على علاقة الدولة الخوارزمية بطائفة الإسماعيلية ، لكن الآن سيتم الحديث عن علاقتها بفئة جديدة، وهي مملكة كاثائي أو الخطا، بدايةً الخطا كما أطلق عليهم غروسيه وغيره ^(٣)، أو الختا كما أسماهم الجويني وابن فضل الله العمري ^(٤)، أو القراخطاي كما أطلق عليهم المغول ^(٥): جنس من الترك ^(٦) سكنوا في المنطقة الواقعة شمال جبال تيان شان وأودية نهري إيلي والتاريم ^(٧). استطاعوا استغلال الفوضى الحاصلة في الصين فاندفعوا نحو الجنوب وتمكنوا من اتخاذ بكين ^(٨) عاصمةً لهم سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م وقد استوعبوا سريعاً

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٩٠ . ٤٩١ ؛ سليم (صبري عبد اللطيف) المغول وعالم الإسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٧ م ، ص ٧٨ ؛ برنارد ، الحشيشة ، ص ٢٤٤

(٢) النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥

(٣) جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٣٩٠ ؛ الصدفي ، تاريخ دول الإسلام ، ص ٢٠١ ؛ إقبال (عباس) : تاريخ المغول من حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية ، ترجمة : عبد الوهاب علوب ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٥١ .

(٤) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ؛ العمري (أحمد بن فضل الله ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : حمزة أحمد عباس ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، السفر ٣ ، ص ١١٢ .

(٥) النسوي ، سيرة السلطان ، ص ٣٦ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ؛ إقبال ، تاريخ المغول ، ص ٥١ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٤٣ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ٣١٩ ؛ حبلي (مختار) : حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها العلامة ابن أبي الحديد المدائني ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، باريس ، دار لارماتون ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ الفلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٤ ، ص ٤٨٣ .

(٧) إقبال (عباس) : تاريخ إيران بعد الاسلام ، تحقيق : محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٨٢ ؛ إقبال ، تاريخ المغول ، ص ٥١ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٤٣

(٨) انظر تعاريف ص ٣٣٨

الثقافة الصينية وحكموا المنطقة ما يقارب مئة وثمانين سنة، ولكن أهملوا شؤون القتال وانغمسوا في الملذات ما سهل الأمر على جيرانهم حيث هاجموهم سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م واستولوا على عاصمتهم بكين سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م^(١). رفض جزء من شعب الخطا الخضوع لهم فاتجهوا خارج الصين وكان على رأسهم لو . تاشه . يه والذي التجأ مع عددٍ من أتباعه إلى إقليم بيشبالينغ^(٢) وقدم له سكان المنطقة كل الدعم والمساعدة وكونوا معه فيما بعد جيشاً استطاع بواسطته القيام بعمليات استيلاء مذهشة فامتدت مملكته من صحراء زنجان^(٣) حتى تخوم الهند^(٤) واشتهر من مدنها كاشغر^(٥)، والختن^(٦) والعاصمة بلاساغون والتي دعاها المغول باسم غزباليق^(٧). استمر ذلك الأمير في حكم دولته الناشئة إلى أن توفي سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م^(٨)، واشتهر ملوك الخطا بلقب كورخان^(٩) أما الجويني فقد فسر اللقب على أنه خان الخانات^(١٠)، أما ابن الأثير فإنه أطلق عليهم لقب كوخان وهو مركب من جزأين "كوبلسان" وتعني باللغة الصينية الملوك العظام ، وخان لقب الملوك الترك بالتالي دمجت الكلمتين مع بعضهما ودمج المعنى ليتحول إلى أعظم الملوك^(١١) أما فيما تعلق بديانتهم فقد اتفق معظم المؤرخين على كونهم لم يدينوا بأي من الديانات السماوية ، لذا ألصقوا بهم صفة الكفر فكانوا يقولون "الترك الكفار"^(١٢) أما الباحثين المعاصرين فقد أشاروا لاعتناقهم الديانة البوذية^(١٣). بعد هذا العرض البسيط لا بد من التطرق للعلاقات التي جمعتهم بشاهات خوارزم ، تعاضم خطر الخطا بعد أن تمكن حاكمهم من تشكيل

(١) غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٣٦٠ ؛ العريني ، المغول ، ص ٧٩ ؛ حمدي (حافظ) : الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩ م ، ص ٤٨ ؛ الفقي (عصام الدين عبد الرؤوف) : الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ ، ص ٩٩

(٢) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٤) غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٣٦٠ ؛ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، مرجع سالف ص ٥٠

(٥) انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٦) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٧) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٤٣ ؛ أمين (محمد فتحي) : الغزو المغولي لديار الإسلام ، دمشق ، دار الأوائل ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م

(٨) ابن الاكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٢١ ؛ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٤٨

(٩) رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغزالي ، ص ١٨٤ ، النظام العروضي السمرقندي (ت حوالي ٥٥٢ هـ / ١١٥٧) : جهاز مقالة ، وعليه خلاصة حواشي العلامة : محمد بن عبد الوهاب القزويني ، ترجمة : عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ، ص ١٠٧

(١٠) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٣٢٩

(١١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٢١

(١٢) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣١٩ ؛ ابن واصل الحموي (محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : حسين محمد ربيع ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢ م ، ج ٤ ، ص ٣٧ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٤

(١٣) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٤٣ ؛ إقبال ، تاريخ المغول ، ص ٥١

جيش أغار به على مناطق تركستان الشرقية وسيطر عليها وبعدها بدأ بالإغارة على مناطق ما وراء النهر حيث اصطدموا مع السلطان سنجر في معركة قطوان سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م انتهت بهزيمة السلطان ومد نفوذ الخطا في ما وراء النهر^(١). نتيجة لذلك كان لا بد لهم من الاحتكاك مع الدولة الخوارزمية الناشئة في واحة خوارزم، لذا أرسلوا أحد قادتهم فاعتدى على مدن وقرى خوارزم وعاث فيها فساداً مما دفع أئسر إلى إعلان خضوعه لهم، وتعهّد بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار ذهبي ، كما تعهد أن يرسل لهم كل سنة أغذية ومواشي لقاء كفهم عن أعمالهم تلك^(٢). بالتالي اتقى أئسر شر هؤلاء وربطته بهم علاقة ودية^(٣)، و انتهى عهد أئسر وخلفه ولده ايل أرسلان في الحكم الذي نتيجة لانشغاله بمشاكله الداخلية استمر في دفع الجزية للخطا ، ولكن ما يلاحظ بأن معظم المؤرخين تحدثوا عن عبور الخطا نهر جيحون في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م وفي نيتهم قتال السلطان ايل أرسلان ربما لتأخره في دفع الجزية ، أو لرغبتهم في تأديب السلطان ، أو لممارسة أعمال السلب والنهب ، أو رغبتهم في الاستيلاء على مناطق جديدة ، ما يهم في الأمر أنهم اتجهوا نحو العاصمة خوارزم فخرج السلطان إلى قتالهم ولكنه مرض كما ذكر سالفاً ، لذا كلف أحد قادته بالنهوض بالمهمة ، فسار فعلاً واصطدم مع الخطا في معركة خاسرة حيث أسر ذلك القائد في المعركة، و توفي ايل أرسلان سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م^(٤) وخلفه ولده تكش الذي استعان بالخطا ضد أخيه سلطانشاه وبعد جلوسه على كرسي الحكم تودد إلى الخطا وحرص على دفع جزية سنوية لهم واستمر على هذه الحال حتى وفاته^(٥). ولكن بالعودة إلى كتب المؤرخين التي تحدثت عن الموضوع يلاحظ بأنهم لم يذكروا رواية الجويني السالفة عن مسالمة السلطان تكش للخطا، بل أشاروا إلى كون السلطان طلب منهم بداية مساعدته في طرد أخيه من العاصمة وبعد نجاحه ، سئم من دفع الجزية لهم ومن تطاول رسلهم عليه فرفض تبعيتهم وقتل رسلهم، مما دفع بهؤلاء إلى قصد عاصمته برفقة أخيه سلطانشاه ولكنهم أخفقوا^(٦). كما أنهم هاجموا بلاده سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م وذلك لكون السلطان تكش طلب مساعدتهم ضد جيوش الدولة الغورية التي رغبت في تأديبه، لكونه تعدى على حرمة الخلافة العباسية وأساء لها ، وفعلاً سارع الخطا للاستجابة لطلبه ، ولكنهم هزموا

(١) السمرقندي ، جهار مقالة ، ص ٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٨ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٤

(٢) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٣٣١

(٣) إقبال ، تاريخ المغول ، ص ٥١ ؛ الفقي ، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ، ص ٩٩

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٧ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٦٨ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٥

(٥) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٣٣١

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٩ . ٤٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

أمام الجيش الغوري والذي كبسهم ليلاً وقتل من جنودهم ما يقارب " الاثني عشر ألفاً " وهنا انزعج حاكم الخطا وطالب تكش بالتعويض ولكن السلطان تكش تتصل من مسؤوليته عن الأمر فما كان من هؤلاء إلا أن تحركوا نحو بلاده، وجد تكش نفسه في موقع ضعيف فما كان منه إلا أن سارع بطلب المساعدة من عدوته الدولة الغورية متعهداً بعدم الإساءة إلى الخلافة العباسية وتمكن بواسطة جيشهم من هزيمة الخطا ومطاردة فلولهم باتجاه مدينة بخارى بعد حصاره لها تمكن من دخولها عنوة ولكنه لم يعاقب أهلها على الرغم من الإساءة له، بل وزع عليهم الأموال عائداً لعاصمته خوارزم^(١). و لربما لم يرغب السلطان تكش بتهديم بخارى لكونه أراد أن يتخذ منها حصناً لرد غارات الخطا، أو لم يرد أن يفتح عليه جبهات جديدة ، هكذا كان حال تكش مع الخطا فتارة يستعين بهم ضد خصومه، وتارة أخرى يستعين بفئات أخرى ضدهم وذلك بحسب الظروف السياسية التي كان يتعرض لها ولكن في معظم الأحيان لم يكن الخطا يغفرون له سقطاته تلك، بل كانوا يجهزون الجيوش ويوجهونها نحوه ولكن دائماً كان مصير تلك الحملات الإخفاق. أما عن علاقة الخطا بالسلطان علاء الدين محمد فقد وصفت بكونها جيدة بدايةً ولكنها سرعان ما ساءت ورفض السلطان دفع الجزية السنوية لهم، وتحرك السلطان سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م وعبر النهر متوجهاً إلى قتالهم لكون أيامهم قد طالت ببلاد تركستان وما وراء النهر وثقلت وطأتهم على أهلها، الذين سارعوا للاستجداد بالسلطان وبشكل خاص في سمرقند وبخارى^(٢). وفعلاً استجاب السلطان لطلبهم وتقدم إلى حرب الخطا واشتبك معهم في معارك دامت لعدة أيام، ولكن كانت نتائجها سيئة فقد هزم المسلمون وأسر السلطان علاء الدين محمد، ولكنه استطاع التحرر من أسرهم بحيلة^(٣)، وعاد إلى خوارزم. ولكن تجدد النزاع من جديد بين الطرفين سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م وانتهى هذه المرة بهزيمة الخطا وقتل جنودهم وأسر الباقي وكان من ضمن الأسرى حاكم الخطا، ولكن هزيمة الخطا السالفة لم تدمر دولتهم بشكل نهائي فقد عمدت طائفة من المغول تُعرف بالنيمان^(٤) إلى مغادرة بلادها والفرار هرباً من قوات جنكيزخان والالتجاء إلى دولة الخطا بزعامه ولي عهدا الذي يدعى كوجلوك، وقد قدم له الخطا المساعدة اللازمة وذلك سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، لكنه تنكر لهم وعمل جاهداً على القضاء عليهم^(٥)، مما دفع هؤلاء للاستجداد بالسلطان علاء الدين ، كما طلب مساعدته كذلك الأمر كوجلوك مما دفع السلطان للتحايل على كلا الطرفين، هذا الأمر لم يعجب كوجلوك الذي نجح في القضاء على

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٥٢ . ٢٥٤ ؛ الصياد (فؤاد) : المغول في التاريخ ، القاهرة ، مكتبة الشريف ، ١٩٧٤ م ، ص ٦٣ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٤٨٨ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ .

(٤) سياي الحديث عنها في الفصل الثاني

(٥) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٥١ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٥٠ .

الخطا ووصف تصرفات السلطان بأنها تصرفات قاطع طريق، وليست تصرفات تليق بسلطان^(١). استمرت العلاقة بين الطرفين بين أخذٍ وردٍ إلى أن اتجه المغول نحو المنطقة حيث كلّف جنكيزخان أحد قادته بالقضاء على كوجلك، وقد نجح في مهمته وزالت بقايا دولة الخطا التي أحيّاها من جديد كوجلك، وزال معها حكم كوجلك النيماني^(٢). بالتالي أزال كوجلك والسلطان علاء الدين محمد دولة الخطا من مناطق تركستان الشرقية وقد عدّ معظم المؤرخين هذا العمل من الأخطاء الكبرى التي ارتكبتها السلطان علاء الدين محمد لكونهم كانوا سداً بين بلاد الاسلام والمغول، فلما ابادهم وأفناهم أصبح هو المتولي لأمر حرب المغول مما مكن هؤلاء من القضاء عليه سريعاً^(٣).

٤ - الخلافة العباسية في بغداد:

حكم الخلفاء العباسيون العالم الاسلامي من بغداد لمدةٍ طويلةٍ، بدأ حكمهم قوياً تمكنوا فيه من مدّ نفوذهم وإنشاء دولةٍ مترامية الأطراف، لكن سرعان ما بدأ حكمهم بالضعف فذبلت قوتهم وفترت همتهم عن الجهاد، بل إن عناصر دخیلة تحكمت فيهم، وعملت على تحجيم دورهم الحاكم وتصريف الأمور كيف تشاء، أثر كل ذلك سلباً على الخلافة العباسية وعلى مركزها كحاكمٍ للعالم الاسلامي. نشأت الدولة الخوارزمية في واحة خوارزم وعاصرت خلال مدة حكمها والتي قاربت المئة والأربعين سنة خلفاء عباسيين عدة، فبكل تأكيد ارتبطت بعلاقاتٍ معها تباينت ما بين السلبية والايجابية وهذا ماسيتم إلقاء الضوء عليه فيما يلي:

أ - العلاقة مع الخلافة العباسية حتى وفاة السلطان علاء الدين تكش سنة

٥٩٦هـ/١١٩٩م:

وصفت العلاقات بين الخلافة العباسية وسلاطين خوارزم الأوائل بكونها غير واضحة المعالم، وذلك لأن كلاً من قطب الدين محمد ومن بعده خليفته أئسز ومن بعده ايل أرسلان شغلوا بتدعيم أركان دولتهم الناشئة وتوسيع مناطق نفوذهم على حساب الدولة السلجوقية حيث دخلوا في صراعاتٍ معها تمّ التطرق إليها من قبل^(٤)، لذا لم يتطّع هؤلاء في تلك المرحلة نحو الخلافة العباسية طالبين امتيازاتٍ منها كغيرهم من الدول، وعلى الرغم من ذلك حاولت الخلافة التقرب منهم، لأنها عدّت أيّ عدوٍ للدولة السلجوقية صديقاً لها، فما كان من الخليفة المسترشد بالله ت ٥٢٩هـ/١٣٤م^(٥) إلا أن أرسل خلعاً للسلطان أئسز رغبةً في اقامة علاقاتٍ وديةٍ بين

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤٠؛ النسوي، سيرة السلطان، ص ٤٦؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، مصدر سالف، ط ٦١، ص ٥٦؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٦٣؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٦٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٨.

(٤) للمزيد انظر ص ٣٥.

(٥) انظر تعاريف ص ٣٤١.

الطرفين^(١). وفي الجانب المقابل شغل الخلفاء العباسيون بصراعاتهم مع السلاجقة لذا لم يعدوا الخوارزميين أعداء لهم، بل على العكس رحبوا بنهوضهم لعل ذلك يحجم من دور السلاجقة، ولا أدل على حجم الصراع بين الطرفين من أن اثنين من الخلفاء وهما المسترشد بالله وابنه الراشد ت ٥٣٢هـ/١٣٧١م^(٢) قتلوا في عراق العجم أثناء صراعهما مع السلاجقة، وقد نفذ عملية اغتيالهما بعض الفدائية النزارية بتحريض من السلطان سنجر السلجوقي^(٣). واستمرت بالتالي علاقات الصداقة والوئام قائمة بين الخلفاء العباسيين والخوارزميين حتى عهد السلطان تكش، وقد جرى تبادل السفراء والرسائل التي أعلن فيها الخوارزميون تبعيتهم للخلافة العباسية في حين اعترف هؤلاء بهذه التبعية وأرسلوا الخلع والتشريفات لهم، وللأسف ليس هناك من مصدر متوفرة بكثرة عن تلك العلاقات قبل مدة حكم تكش، وجد مصدر واحد وهو "مجموعة رسائل الوطواط" ليس هناك نسخة منه في حدود المعروف - سورية ومصر - بل وجدت نسخة في العراق ولكن سوء الأوضاع حال دون الوقوف عليه.

عاصر السلطان تكش الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء، ولقد بدأت العلاقات وديةً مع ذلك الخليفة المنشغل بصراعه مع السلطان طغرل بن أرسلان حيث هدم دارالسلطنة لكي يقضي على آمال السلطان طغرل وطموحاته بالوصول إلى بغداد^(٤)، وجهز حملة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م تحركت إلى عراق العجم واصطدمت بالسلاجقة ولكنها هُزمت^(٥) فما كان من الخليفة إلا أن سارع بطلب المساعدة من السلطان تكش، الذي لبى النداء كما ذكر من قبل^(٦) وقد جرى بعدها مجموعة من الأحداث دفعت العلاقة للتوتر بين الطرفين وذلك لإقدام السلطان تكش بعد قضائه على السلطنة السلجوقية سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م بالاستيلاء على مدينة همذان، وبعدها استولى في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م على الريّ الأمر الذي لم يعجب أهل العراق والخلافة العباسية التي عمدت إلى إرسال قوة مؤلفة من "خمسة آلاف جندي" تمكنت من استعادة المدينتين وارتكاب مذبحه بحق الجنود الخوارزميين^(٧). ولكن لم تطل فرحة الخلافة العباسية طويلاً وذلك لتمكن الجيش الخوارزمي من هزيمة جيش الخلافة ومن استعادة همذان من

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ٣٥.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٣) ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية، تحقيق: محمود الكتبي، مصر، مطبعة الرحمانية، (د)، ص ٣٠٢، ٣٠٨؛ السيوطي (عبد الرحمن بن الكمال ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد بن نصر أبي جبل، القاهرة، مكتبة مصر، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص ٣٩٨-٤٠٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٤٣، ١٦٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٧٠؛ العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٧٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٧٨؛ ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٢٣.

(٦) للمزيد انظر ص ٣٨

(٧) الرواندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٥٢٢-٥٢٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٣٣-٢٣٦.

جديد^(١). هنا اضطر الخليفة لاتباع إسلوب دبلوماسي وفاوض السلطان تكش مانحاً إياه حكم خوزستان^(٢). هدأت الاضطرابات بين الطرفين لمدة من الزمن^(٣)، وذلك في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م حيث أرسل الخليفة خلعة للسلطان تكش وولده وكتب له إضافةً لذلك تقليداً بالأعمال التي بيده^(٤)، مما يدل على عودة العلاقات الودية بين الطرفين ، ولكنها لم تستمر طويلاً بل عادت للتوتر من جديد^(٥). ولم يشر المؤرخون لسبب محددٍ لذلك، بل تحدثوا عن أن السلطان تكش تغيرت نيته تجاه الخليفة ورغب في امتلاك بغداد، أو ربما طالب الخليفة من جديد بالسلطنة، فما كان منه إلا أن تحرك على رأس جيشٍ بلغ عدده "خمسين ألفاً" عبر فيه نهر جيحون عازماً على قصد الخليفة وعاصمته بغداد، ولكنه مرض وتوفي في الطريق وحملت جثته ودفنت في خوارزم سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م^(٦). وهكذا توفي السلطان تكش وعلاقته لم تكن جيدة بالخلافة العباسية وذلك لكونه طمع في الأشياء ذاتها التي طمعت بها الدولة السلجوقية من قبل، وهذا الأمر كالمعتاد لم يعجب الخليفة الناصر الذي سعى لتأديبه، كما أدب السلاجقة عندما استعان به للقضاء عليهم.

ب- العلاقة مع الخلافة العباسية من وفاة السلطان تكش سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م إلى انهيار

بقايا الدولة الخوارزمية بوفاة جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م:

توفي السلطان تكش ناقماً على الخلافة العباسية ولقد نهج منهجه خليفته السلطان علاء الدين محمد فقد عادها كذلك، ولكنه بدايةً شُغل بالعديد من الأمور كالقضاء على من جاوره من الدويلات، ولكن بعد أن انتهى من كل ذلك وجّه أنظاره نحوها ، بل إنه قصدها بجيشه سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وقد تباينت أسباب قصده لبغداد بين مؤرخٍ وآخر، فالنسوي بينها على الشكل التالي حيث قال: "لما عظم شأن السلطان، وفخم أمره ، وتجلّت له الدنيا في أرفع ملابسها، وأشرق شمس دولته في أكرم مطالعها، واستملأت جريدة ديوان الجيش على ما يقارب أربعمئة ألف فارس، سمت همته إلى طلب ما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد، وترددت الرسل في ذلك مراراً، فلم يجب إلى المراد لعلمهم بما بين يديه من الشواغل بما وراء النهر وبلاد الترك، إذ كان مهتماً قلع منهم طائفة طلعت أخرى لم يسمع بها"^(٧) بالتالي الانتصارات التي

(١) الرواندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٥٢٩.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٣) الرواندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٥٣٦-٥٣٧.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١١٢، ١١٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٦٣؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٣، ص ١١٠؛ الياضي، مرآة الجنان، ج ٣؛

ص ٣٦١.

(٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤١٩؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٣، ص ١١٥؛ ابن تغري بردي (يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ/١١٩٢م، ج ٦، ص ٣١٩؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ١٣، ص ٢٦٨؛ عبد الحكيم (منصور): جنكيزخان، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط ١، ٢٠٠٨هـ/١٤٢٩هـ،

ص ١١٨-١١٩.

(٧) سيرة السلطان، ص ٤٩.

حققتها السلطان هي التي دفعته لطلب ما كان لبني سلجوق من امتيازات. وقد أيد ابن الأثير النسوي في ذلك الموضوع حيث قال: "عظم شأنه فسار إلى بلاد الجبل، وكان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الأمر بالصدّ، لأنه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولاً، وكان سبيله إذا ما ورد إلى بغداد يقدم غيره عليه، ولعل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه فكان إذا سمع بذلك يغضبه"^(١). ومنهم من حدد الأسباب بأنها رغبة السلطان علاء الدين في امتلاك بغداد والتحكم بالخليفة الناصر لدين الله^(٢). أما السبب المباشر فيعود لمقتل نائب السلطان بالعراق أغلش مما دفع السلطان إلى التحرك باتجاه العراق لإعادة أموره إلى ما كانت عليه ولاستعادته لكون بعض حكام المنطقة طمعوا فيه^(٣). ولكن قبل تحركه نحو الخلافة، وصله رسول من الخليفة الناصر وهو شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(٤) إليه وكانت الغاية من إرساله ما قاله النسوي: "رسولاً مدافعاً، وواعظاً وازعاً، عما كان يلتسمه السلطان"^(٥)، و وصل الرسول إلى السلطان علاء الدين وفي اعتقاده بأنه سيحظى بالاحترام والمعاملة الحسنة والإكرام البالغ، وذلك لعلو مكانته، لكن السلطان خيب أمله عندما تركه واقفاً في صحن الدار وأذن له بالدخول بعد مدة من الزمن، فلما دخل الشيخ استأذن السلطان بالحديث وطلب منه ابتداء الحديث بذكر حديث شريف للرسول الكريم محمد ﷺ تيمناً وتبركاً، فأذن له ، فبدأ الشيخ بالحديث فأورد حديثاً فيما معناه التحذير من أذية آل عباس^(٦)، فلما انتهى من روايته تحدث السلطان قائلاً: "أنا وإن كنت تركياً قليل المعرفة باللغة العربية، لكنني فهمت معنى ما ذكرته من الحديث، غير أنني ما آذيت أحداً من ولد عباس ولاقصدتهم بسوء، وقد بلغني أن في محبس أمير المؤمنين منهم خلقاً مخلصين، يتناسلون بها ويتوالدون، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وانفع وأجدى وأنجع"^(٧). وبناءً عليه فقد امتنع السلطان من كلمات الرسول السالفة وردّ عليه رداً قاسياً حيث دافع الرسول عن سيده وانتهت المقابلة بالإخفاق^(٨). عاد الرسول إلى الخليفة، وعمد السلطان إلى حل بعض المشاكل العالقة،

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٧١.

(٢) ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٤٧؛ الذهبي، العبر في خبر من غير ، ج ٣، ص ١٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٣؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٨.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ٥٣.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٤١

(٥) سيرة السلطان ، ٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٥٩؛ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل ت ١٢٦٥هـ/١٢٦٦م): نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلانية والجلانية، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار

التكوين، (د، ت)، ص ٩-١٢.

(٧) النسوي، سيرة السلطان، ص ٥٢.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٦٢.

وبعدها عزم على قصد بغداد، و سَيرَ عدداً من الجنود لم يتطرق النسوي لذكر عددهم فقط قال: "وسير أُمَامَه من العساكر ما غصّت به البيداء"^(١). وتحرك خلفهم إلى أن وصل إلى عقبة أسد أباد^(٢)، ولكونه كان موقناً من نجاح مهمته أقدم على تقسيم بغداد أقطاعاتٍ لأصحابه وكتب لهم كتاباً بذلك عندما كان ما يزال بهمدان، ولكن ما حدث أنه عند تلك العقبة هطلت ثلوجٌ غزيرةٌ استمرت لمدة ثلاثة ايام ألحقت أضراراً جمةً بجيش السلطان علاء الدين وقد وصف النسوي ما حدث حيث قال: "نزل عليه بالعقبة ثلجٌ طمّت به الأباطح والأعلام، وغطت الخراكي والخيام، ودام ثلاثة أيام بلياليها، فعظم إذ ذاك البلاء، وأعضل الداء، وصارت الأرض كأنها ببياضها سوداء، وشمل الهلاك كثيراً من الرجال، ولم ينبج شيء من الجمال، وتلفت أيدي رجال وأرجل آخرين، ورجع السلطان عن وجهه ذلك على خيبة مما همّ به ويأس مطلبه، وندم السلطان على ما ارتكبه من إزالة الحشمة وإضاعة الحق والحرمة الواجبة مراعاتهما على كل ذي دينٍ قويٍّ وعقلٍ سليمٍ، ومعتقدٍ بأن ربه أثبت جنةً وجحيماً، وعلم أن ذلك البيت هو الذي يؤيده الله بملائكة سمائه وله سر في إدامته وإبقائه فمن عاند خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين"^(٣). بالتالي فإن الطبيعة عملت عملها وقضت على جيش السلطان علاء الدين الذي أدرك متأخراً مغبة الاعتداء على حرمة الخلافة العباسية، ولقد تناول كثير من الباحثين في الوقت الحاضر هذا الموضوع في كتاباتهم وعلّقوا عليه تعليقاتٍ تباينت من باحثٍ إلى آخر^(٤). بالتالي فإن العلاقات كانت سيئة بين الطرفين ، وقد تحرك المغول بعدها نحو المنطقة حيث انشغل السلطان بهم وانتهت حياته سنة ٦١٧-٦١٨هـ/١٢٢٠-١٢٢١م^(٥). استلم مقاليد الحكم من بعده ولده جلال الدين منكبرتي والذي شغل كذلك بالاجتياح المغولي الذي دفعه إلى الفرار إلى الهند سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م، وبقي هناك حتى سنة ٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م^(٦). ولكن بعد عودته من هناك واستيلائه على بعض الأماكن القريبة من اقليم الجبال عادت العلاقات إلى التدهور مع الخلافة العباسية، ولكن انشغال الطرفين بالأخطار التي داهمتهم دفعتهم إلى عدم الصدام، حتى جاءت سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م حيث تحرك السلطان جلال الدين

(١) سيرة السلطان، ص ٦٤.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٣٧

(٣) سيرة السلطان، ص ٦٤.

(٤) اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٣٢؛ العزاوي (عباس): تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، مطبعة بغداد الحديثة،

١٣٥٤هـ/١٩٣٦م، ج ١، ص ١٠٥؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ٦٣-٦٤؛ حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٤، ص ٩٩-١٢٩؛

بارتولد، تركستان، ص ٥٣٤-٥٣٦.

(٥) انظر الفصل الثالث ص ١٥٥

(٦) انظر الفصل الرابع ص ٢٦٦، ٢٥٠

محاصراً أملاك الخلافة العباسية في خوزستان ونهب تلك المناطق مسبباً الأذى للسكان^(١). لم يكتفِ بذلك فحسب بل اتجه نحو بعقوبا^(٢) وحاصرها مما أدخل الهلع والخوف إلى قلب الخليفة الناصر، حيث عمد الخليفة إلى تحصين المدينة وتوزيع السلاح على السكان وأنفق في سبيل ذلك مبالغ مالية هائلة، ولكن كل ذلك الأمر لم يجد نفعاً حيث تمكن السلطان جلال الدين من السيطرة على بعقوبا ونهب البلاد المحيطة بها، ثم تابع سيره نحو دقوقا^(٣) فحاصرها وجدّ في قتال أهلها الذين أساءوا إليه من خلف الأسوار فتمكن من اقتحامها عنوةً ونهب عساكره المدينة وقتلوا سكانها، ولم يكتفِ بذلك فحسب بل عزم على قصد بغداد ولتحقيق هدفه اتصل بالسلطان المعظم عيسى بن العادل ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م^(٤) طالباً مساعدته على قتال الخليفة ولكن الأخير رفض وذلك لمكانة الخليفة في نفوس المسلمين^(٥). توفي الخليفة الناصر سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وخلفه ولده الظاهر بأمر الله ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م^(٦) الذي أصابه الهلع من فكرة قدوم السلطان إلى بغداد لذا راسل المعظم عيسى طالباً منه الدعم والمساعدة، وفعلاً استجاب المعظم عيسى لرسائله واعدأ آيائه بعدم مساعدة السلطان جلال الدين وارتكاب أيّ أعمالٍ تضر بالخلافة العباسية^(٧). انشغل السلطان بعدها بصراعاته مع حكام المنطقة لذا لم يصطدم مع الخلافة العباسية وبعدها فاجأه المغول سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، لذا فكر باللجوء للخليفة المستنصر بالله ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م^(٨) وطلب المساعدة منه، لذا ترك مناطق سكناه وتحرك نحو ديار بكر^(٩)، ولكن فاجأه الموت هناك على يد الأكراد في السنة نفسها وبموته انتهى آخر رمزٍ من رموز الأسرة الخوارزمية^(١٠)، التي سببت المتاعب الكثيرة للخلافة العباسية ولاسيما في عهد آخر ثلاثة حكامٍ منها، حيث حاول هؤلاء دخول بغداد أكثر من مرة ولكن كانت الظروف تحول دون ذلك. انتهت الدولة الخوارزمية وظنّ الخلفاء العباسيون بأن جميع الأخطار قد زالت من أمامهم، ولكن لم تطل أيامهم كثيراً فالدولة التي أنهت حكم الخوارزميين، أزلت الخلافة العباسية من الوجود فيما بعد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٤٣؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٦٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٣٢.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٣٧

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(٤) انظر تعاريف ص ٣٤٣

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٣٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٦١

(٦) انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٤٨.

(٨) انظر تعاريف ص ٣٤١

(٩) انظر تعاريف ص ٣٣٨

(١٠) للمزيد انظر الفصل الرابع ص ٢٦٥ وماتلاها.

٥ - الدولة الغورية:

ارتبطت الدولة الخوارزمية كذلك الأمر بعلاقات مع الدولة الغورية، ولكن قبل التطرق لسياسة الدولة الخوارزمية مع تلك الدولة، لا بد من ذكر نبذة مختصرة عن تاريخها.

ابن سباطيعود الغور بأصولهم إلى الترك^(١)، وهم كغيرهم من الدول ولدوا من رحم الدولة الغزنوية^(٢) حيث استغلوا ضعفها وتمكنوا من القضاء عليها، ونشأت دولتهم في بلاد الغور التي غلب عليها الطابع الجبلي وامتدت بلادهم بين مدينتي هُراة وغزنة، كما ظهرُوا في مناطق الباميان. واتخذوا من فيروزكوه عاصمةً لهم^(٣). تمكن الغوريون من توطيد نفوذهم على حساب الدول التي نشأت في خراسان حيث دخل أحد سلاطنتهم طرفاً في النزاع وقد تمكنوا فعلاً من توطيد حكمهم في بلاد الغور وقاموا بالعديد من الحملات على الهند^(٤)، ليس ذلك فحسب بل توسعوا في خراسان حيث سيطروا على مدينة هُراة سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م^(٥) وبالتالي شكلوا منافساً للخوارزميين، بل هددوهم تهديداً مباشراً مما أدى إلى اضطراب العلاقات فيما بينهما^(٦). حكم خلال تاريخ الدولة الغورية ثمانية سلاطين اشتهر منهم كلاً من الأخوين السلطان شهاب الدين محمد بن سام ت ٦٠٢هـ/١٢٠٥م^(٧)، و السلطان غياث الدين محمد بن سام ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م^(٨). أما آخر حكامهم فهو السلطان غياث الدين محمود بن محمد بن سام ت ٦٠٥هـ/١٢٠٨م^(٩). كتب لهذه الدولة الاستمرار زهاء تسعاً وتسعين سنة من ٥٤٣-٦١٢هـ/١١٤٨-١٢١٥م^(١٠) وقد بدأت بدايةً ضعيفةً حيث ظهرت ضمن حيزٍ ضيقٍ ولكنها فيما بعد استغلت الظروف السياسية وتمكنت من التوسع على حساب من جاورها، مصطدمةً بعددٍ من الدول خلال وجودها، ولكنها انهارت على يد الأقوى بين تلك الدول وهي الدولة الخوارزمية التي استطاعت احتواء جميع الكيانات الصغيرة القائمة في المنطقة، وضمت أملاكها إليها. وهكذا زالت كما زال غيرها إلا من صفحات التاريخ.

-
- (١) القرماني (أحمد بن يوسف ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م): أخبار الدول وآثار الاول في التاريخ، تحقيق: أحمد حطيط، فهمي سعد، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٣، ص٤٨٥.
- (٢) ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج١، ص٩٧؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام، ج٢، ص٢١٥؛ حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج٤، ص١٥٥؛ بدر (فاروق): تاريخ أفغانستان، مصر، المطبعة النموذجية، (د، ت)، ص٢٨.
- (٣) السمرقندي، جهار مقالة، ص٩٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٩٧؛ ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج١، ص٣٨١؛ براون، تاريخ الأدب في ايران، ص٣٨١.
- (٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٨٩؛ بدر، تاريخ افغانستان، مرجع سالف، ص٣١.
- (٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٥؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٦.
- (٦) فاميري، تاريخ بخارى، ص١٥١؛ حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج٤، ص١٦١.
- (٧) انظر تعاريف ص٣٤١.
- (٨) انظر تعاريف ص٣٤٢.
- (٩) انظر تعاريف ص٣٤٣، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٢٢، ٥٠٦؛ الصفيدي، الوافي بالوفيات، ج٢٥، ص١٠٧.
- (١٠) السمرقندي، جهار مقالة، ص٩٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٣؛ بارتولد، تركستان، ص٤٩٠.

بدأت العلاقات بين الطرفين سنة ٥٨٦هـ/١١٧٣م وهي السنة التي توفي فيها ايل أرسلان، حيث نشأ خلافٌ بين ولديه سلطانشاه وتكش حيث انتصر تكش على أخيه، الأخ المهزوم حاول التوسع على حساب ممتلكات الغور في خراسان فاصطدم بالسلطان غياث الدين الغوري^(١) والذي رغب في تأديبه ووضع حدٍ لطموحاته فتحرك باتجاهه مما دفع سلطانشاه إلى الخوف من مغبة ذلك الصدام ففضل الانسحاب. ولكن عادت وتوترت العلاقات من جديد نتيجةً لأطماع سلطانشاه مما دفع الغور هذه المرة للتحرك والصدام معه في معركة حامية الوطيس عند مرو انتهت بهزيمته وفراره إلى مدينة مرو وخسارته لمعظم أفراد جيشه حيث وقع أكثرهم في الأسرى وكان ذلك في سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م^(٢). ولكن تبدل الظروف السياسية دفع سلطانشاه للتحالف مع الغور حيث التجأ إليهم هرباً من أخيه تكش الذي استلم مقاليد الحكم، ولقد أحسن السلطان غياث الدين استقباله لكونه رغب في استغلال الخلاف بين أفراد البيت الخوارزمي لصالحه رغبة في التوسع في مناطق خراسان، مما أغضب السلطان تكش وهدد السلطان غياث الدين الغوري^(٣) الذي غضب لتهديده السالف، وسير جيشاً إلى خوارزم سنة ٥٨٨هـ/١١٩١م بقيادة أخيه سلطانشاه، حيث استغل هؤلاء فرصة غياب السلطان تكش عن عاصمته، ولكن سكان خوارزم تمكنوا من ردّ الحملة على أعقابها. واستمرت العلاقات متوترة بين الطرفين وزاد من توترها اقدام السلطان تكش على ضم ممتلكات أخيه سلطانشاه سنة ٥٨٩هـ/١١٩٢م في خراسان بعد وفاته في السنة ذاتها مما أغضب الغور^(٤)، ولكن لم يحدث صدام بين الطرفين لانشغال السلطان تكش بصراعه مع السلاجقة، لذا فضل مسالمتهم مدةً من الزمن، ولكن سرعان ما ساءت العلاقات بين الطرفين وذلك لدخول طرف ثالث في المعادلة وهو الدولة العباسية التي سارع خليفتها الناصر لدين الله لطلب مساعدة السلطان غياث الدين الغوري سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م ضد السلطان تكش^(٥)، وفعلاً استجاب السلطان لطلبه ذاك وأرسل جيشاً لقتالهم فسارع هؤلاء إلى الاستعانة بطرفٍ رابع وهم الخطا وحدثت مجموعة من الأحداث والمعارك كان الخاسر الوحيد فيها الخطا وأحياناً السلطان تكش الذي سارع لمسالمة الغور والاستجابة لجميع طلباتهم وقد سلف الحديث عن ذلك فلا داعي لذكره^(٦). بعد وفاة السلطان تكش خلفه ولده السلطان علاء الدين محمد الذي عاصر حكم آخر ثلاثة سلاطين في الدولة الغورية، و في بداية عهد السلطان علاء الدين حقق الغور انتصاراتٍ

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٩٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢١١.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٤٢.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٩٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٤١-٢٤٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن، ج ٥، ص ٢٠٤؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام،

ج ٢، ص ٢١٩.

(٦) انظر ص ٤٨، ٤٩.

كثيرة وتمكنوا من التفوق على الخوارزميين مستغلين انشغالهم بصراعاتهم الداخلية، فتوسعوا على حساب ممتلكاتهم في خراسان فتمكنوا سنة ٥٩٧هـ/١٢٢٠م من الاستيلاء على مدينة مرو، وسرخس، وهراة، ونيسابور وغيرها من مدن خراسان وعمد السلطان غياث الدين الغوري لتعيين ابن عمه حاكماً عليها^(١)، لكن لم تمكث تلك الممتلكات طويلاً بيد الغور حيث تمكن السلطان علاء الدين محمد من استرجاع بعضها سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م^(٢). بعد تلك الأحداث رغب السلطان غياث الدين في مصالحة السلطان علاء الدين محمد فأرسل رسولاً له ، ولكن السلطان رفض المصالحة وقبض على الرسول وجهز جيشاً تحرك به إلى مدينة هراة سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م، لما علم الغور باعتداء السلطان الخوارزمي على ممتلكاتهم غضبوا لذلك الأمر واستدعى السلطان غياث الدين أخاه شهاب الدين من الهند وتحرك الاثنان للقائه وهزماء عند مدينة مرو، واستغلا انتصارهما بالتوسع في خراسان فسيطرا على المناطق الممتدة حتى مدينة طوس وجرت تلك الأحداث في سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م^(٣). توفي السلطان غياث الدين الغوري سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م واضطربت الأحوال بعدها في غزنة واستغل الخوارزميون ذلك الأمر وتمكنوا من استعادة بعض أملاكهم في خراسان^(٤). هدأت الأحوال بعدها حيث تمكن السلطان شهاب الدين من تدعيم أركان البيت الغوري، وبعد عودته من حملات مظفّر في الهند عزم على التحرك إلى غزو السلطان علاء الدين محمد ولقد اختار وقتاً مناسباً لذلك في رمضان من سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م حيث كان السلطان علاء الدين غائباً عن عاصمته في خراسان، توجه الغوريون بجيشهم نحو خوارزم وحدثت هناك معارك عنيفة كاد النصر أن يكون حليف الغور لولا استعانة السلطان الخوارزمي بالخطا الذين سارعوا لمهاجمة ممتلكات الغور، مما دفع السلطان شهاب الدين إلى التراجع وفي طريق العودة اصطدم بالخطا الذين هزموه هزيمة منكرة وفقد غالبية جيشه وكان ذلك في صفر من سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م^(٥) اضطربت أحوال غزنة بعد هذه الهزيمة كما اضطربت أكثر بوفاة السلطان شهاب الدين سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م وقد تمكن من اعتلاء السلطنة ابن أخيه غياث الدين محمود والذي شهد عهده مجموعة من الاضطرابات نتيجةً لتحكم ممالك عمه في أمور السلطنة وإدارة أمور البلاد^(٦). هذا من جانب ومن الجانب الآخر فقد قوي نفوذ السلطان علاء الدين محمد واستطاع الاستيلاء على ممتلكات الغور في خراسان ، ودفعه استيلائه عليها إلى مصالحة السلطان غياث الدين محمود والذي أضحى في وضعٍ لا يحسد عليه لتطاول ممالك عمه عليه

(١) يدعى ضياء الدين محمد بن علي الغوري وقد زوجه ابنته؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٥٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٥٤؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٢٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٨١.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٨٢؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٢٥، ص ١٠٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٨٦.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٥٠٦؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٦٩.

فوجد في عدّوه الدولة الخوارزمية منقذاً له، وفعلاً تحالف الاثنان مع بعضهما ولكن لم ينتج عن تحالفهما فوائد تذكر على الغور ، بل كان المستفيد الوحيد الخوارزميين^(١). حيث هدأت الأحوال بين الطرفين لمدةٍ من الزمن وانشغل كلّ طرفٍ بمشاكله الداخلية، فالسلطان علاء الدين انشغل بصراعه مع الخطا، والسلطان غياث الدين محمود اهتم بصراعه مع القادة الموالين لعمه وغيرهم من الفئات الطامعة بالحكم، مما أدى لاضطراب أمور خراسان حيث تمكن بسهولة السلطان علاء الدين محمد من التدخل في شؤونها وإعادة ضبط أمورها، هذا وإن دل على شيء فإنه يشير إلى مقدار ضعف الدولة الغورية التي تهاوت سريعاً، وذلك بعد مقتل حاكمها سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م^(٢) على يد حاكم هُراة الذي أرسل من قبل السلطان علاء الدين محمد لتأديب بعض الفئات المناوئة في خراسان والتي التجأ بعضٌ منها إلى السلطان الغوري على الرغم من الاتفاقيات الموقعة بين الطرفين والتي تنص على عدم مساعدة أعداء الطرف الآخر، دفعه هذا الأمر لتجريد حملةٍ تولى قيادتها حاكم هُراة قضت على خصومه وقتلت السلطان الغوري وسيطرت على كامل مناطق خراسان^(٣). بالتالي انهارت الدولة الغورية ولكن بشكلٍ جزئي وأكمل السلطان علاء الدين محمد مهمته في القضاء عليها بشكلٍ نهائي عندما استولى على بقايا ممتلكاتها وذلك سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م دخل غزنة مقر الحكم واستولى عليها مستغلاً غياب حاكمها عنها^(٤)، ولم يكتفِ بذلك بل لاحق فلول الجيش الغوري وقضى عليه وعلى حاكمه بشكلٍ نهائي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م وأزال بالتالي كلّ أثرٍ يمت إلى الدولة الغورية بصلّةٍ في مناطق الغور وخراسان^(٥).

و بانتهاء الحديث عن الدولة الغورية ينتهي البحث في العلاقات التي نشأت بين الدولة الخوارزمية و غيرها من دول المنطقة، تلك العلاقات التي كانت في المجمل سلبية ، استهلكت الكثير من طاقات الدولة الخوارزمية، و لم تكن عامل مساعدٍ و داعمٍ لها ، بل على العكس عامل هدم ساهم في ضعفها و انهيارها السريع على يد جماعاتٍ داهمت أراضيها مستغلةً ضعفها و تفرق عمالها ، فقضت عليها سريعاً وأحالتها إلى أرض بورٍ بعد أن كانت أرض خيرٍ وعطاء.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٠٦؛ براون، تاريخ الأدب، ص ٦٤.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٣٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٥٠٦؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام، ص ٢٢٠؛ حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٤، ص ١٦٧.

(٤) ويدعى تاج الدين النذر مملوك السلطان شهاب الدين تمكن من الاستيلاء على السلطة وانفرد بالحكم بعد وفاة السلطان غياث الدين محمود ولكن قتل سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٠٤؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ١٤٠.

(٥) الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٥٨؛ بدر، تاريخ افغانستان، ص ٢٨.

الفصل الثاني : المغول وتأسيسهم لدولتهم:

أولاً : أوضاع القبائل المغولية المعاشية والاجتماعية والدينية قبل قيام جنكيزخان:

- ١- أصول المغول والقبائل التي انتموا إليها ومناطق سكنهم
- ٢- أوضاع القبائل المغولية الاجتماعية
- ٣- معتقدات المغول الدينية (الشامانية ، النسطورية ، المؤثرات البوذية)

ثانياً : تأسيس جنكيزخان لدولته وتنظيماته :

- ١- جنكيزخان مولده ونشأته .
- ٢- سياسة جنكيزخان تجاه من جاوره من القبائل المغولية .
- ٣- سياسة جنكيزخان العسكرية.
- ٤- الياسا (الدستور المغولي)

شكل ظهور المغول أحجيةً لحكام العالم الإسلامي و أوربة الذين أدهشهم ظهور هؤلاء واندفاعهم نحو أراضيهم مدمرين ومخربين ، فوقفوا مذهولين لبرهة من الزمن . وبعد ذلك شرعوا بتفسير أسباب ظهورهم وتحليلها ، والبحث عن أصولهم ومحاولة اكتشاف مناطق سكنهم وقبائلهم ، إضافة إلى معرفة طرق معاشهم وأساليبهم القتالية التي مكنتهم من الانتصار وتأسيس دولة من العدم .وقد داخل المعلومات عنهم الكثير من الخيال ، وصاغها البعض بصورة أسطورية لكونهم عجزوا عن إيجاد تفسير لقوة ذلك الشعب الذي كاد أن يدمر الإنسانية جمعاء . لذا لا بد من إلقاء الضوء على هؤلاء المغول وطبيعة حياتهم ، والتعرف على شخصية جنكيزخان الذي نجح نتيجةً لمجموعةٍ من العوامل في تأسيس دولة تحولت إلى امبراطورية فيما بعد

أولاً : أوضاع القبائل المغولية المعاشية والاجتماعية والدينية قبل قيام جنكيزخان:

تعيش الشعوب في بيئات معينة تفرض عليها أساليب حياة خاصة تتواءم مع تلك البيئة وإمكاناتها هكذا كان المغول فقد عاشوا في أقاصي الشرق في بيئةٍ منعزلةٍ فرضت عليهم أساليب معاشية وطقوسٍ دينيةٍ خاصة سيتناول البحث هؤلاء المغول ، وأصولهم ، وقبائلهم التي تكونوا منها ، ومناطق سكنهم ، وبعضاً من ممارساتهم الدينية ، وأساليب حياتهم اليومية بشكل مختصر .

١. أصول المغول والقبائل التي انتموا إليها ومناطق سكنهم :

المغول اسم أطلق على مجموعة من القبائل التركية التي سكنت صحراء غوبي وجبال ألتاي على حدود الصين ^(١) ، فسر القرماني معنى أمة الترك بقوله : " اتفق أهل التاريخ أن الترك أجناس العالم ، وهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم . ولم يزلوا ببلاد الشرق من أول الخليفة لا يعلم أحد مبتدأها" ^(٢) كانت كلمات القرماني تلامس الواقع بعض الشيء ولقد أيده في ذلك ابن عرب شاه ^(٣) ، أما الرمزي فإنه أرجع أصلهم لولادة توأمين أحدهما تثار والأخر مغل ومن نسلهما جاءت هذه الأقوام ^(٤) . أما في التاريخ السري فإنهم جاؤوا نتيجة تزاوج بين ذئبٍ وظيفية ومنهما جاءت سلالة المغول كلل ^(٥) .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ، رشيد الدين الهمداني ، التاريخ الغازاني ، ص ٢١ ، أبو شامة ، نزهة المقلتين ، ص ١٧ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٦

(٢) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٧٨

(٣) ابن عرب شاه (أحمد بن محمد) : فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، دمشق ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ م ، ص ١٨١

(٤) الرمزي (محمد مراد بن عبد الله ت في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد) : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، أورنبورغ ، مطابع الكريمة والحسينية ، ط ٢ ، (د.ت) ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٥) مؤلف مجهول ، التاريخ السري ، ترجمة وتعليق : سهيل زكار ، كتاب قيد النشر ، ص ١٢٥

أطلق على هذه المجموعات البدوية اسم المغول^(١). وقد حاول بعضهم تفسير الاسم فجاء تفسيرهم بصيغة أسطورية فأشار البعض بأنه مشتق من موغو غولي أي أبناء ماغوغ الأسطوري^(٢) بينما فسره آخر تفسيراً واقعياً عندما أشار إلى أنه يعني ربما اسم البلاد التي انطلق منها ذلك الشعب وهي منغوليا^(٣)، بينما أشار باحث آخر بأن الاسم مشتق من كلمة Mong الصينية والتي تعني الباسل والشجاع^(٤) وأطلق عليهم كذلك اسم المغل^(٥) ووجد اسم ثالث لهم وهو التتار أو التاتار^(٦) وقد فسره المؤرخ متى بارييس بأنه مشتق من نهر تار الذي يجري في بلادهم ويعيشون على ضفافه لذا فقد أطلق عليهم ذلك الاسم انطلاقاً من سكانهم على ضفاف ذلك النهر^(٧). وأطلق عليهم كذلك اسم رابع وهو شعب الرماة^(٨)، وقبل الانتهاء من الحديث عن معنى اسم المغول ، لابد من توضيح نقطة مهمة بأنهم لم يُعرفوا في المصادر الإسلامية والصينية إلا باسم التتار ، ولم يعرف سبب ذلك ، ربما نتيجة لقوة التتار الحقيقيين الذين سكنوا في منغوليا^(٩) ، أو ربما احتكت بعض الشعوب بعناصر من قبيلة التتار لذا اعتقدوا بأن جميع الشعوب التي تشبه هؤلاء والتي تقطن مناطق قريبة منها تحمل الاسم ذاته ، أو أن ذلك الاسم كان المشهور والمتعارف عليه بين جماعات التجار التي زارت المكان . ولقد أشار لذلك الموضوع رشيد الدين الهمذاني حيث قال : " صار لفظ المغول اسم جنس لهم على الحقيقة ، هؤلاء المغول كانوا قوماً واحداً من بين أقوام الأتراك، سمي أكثر الأتراك مغولاً، قوم تاتار كانوا يسمون جملتهم تاتار وإلى الآن اسم التاتار مشتهر في أكثر بلاد العرب والهند والختاي"^(١٠).

يفهم مما سلف بأن المغول كانوا فئة من الترك وكذلك التتار ، ولكن لسبب ما لم يفسره المؤرخ أطلق عليهم من قبل الشعوب اسم التتر ، وبقي الاسم منتشراً لمدة من الزمن واشتهروا به ، ولكن عاد اسم المغول إلى الظهور من جديد على شكل المغل ، وما يزال ذلك الاسم مستعملاً حتى

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٦ ، ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٧ ، ص ١٩٩ ، غروسيه (رينيه) : جنكيز خان قاهر العالم ، ص ١٩-٢٠.

(٢) مارشال (روبرت) : من جنكيز إلى قبلوي (عاصفة من الشرق) ، مرجع سالف ، ص ٧ .

(٣) زكار (سهيل) : أخبار المغول لدى مجموعة من المؤرخين ، كتاب قيد النشر ، ص ٢٩٥

(٤) شبارو (عصام محمد) : السلاطين في المشرق العربي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٤ م ، ص ٣٥ .

(٥) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ط ٦٢ ، ص ٢٢.

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٦٠ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣١ .

(٧) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٥ .

(٨) زكار ، أخبار المغول لدى مجموعة من المؤرخين ، ص ٣٢١ .

(٩) بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، مرجع سالف، ص ١٧ ، أرنولد (سير توماس ، و) : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ م ، ص ٢٤٨ .

(١٠) التاريخ الغازاني ، ص ٣٦ .

الآن في أنحاء مختلفة من منغوليا ^(١). مهما كان الاسم الذي أطلق عليهم ، فهم كانوا مجموعة من القبائل المتناحرة التي عاشت على هوامش المدن المتحضرة . وكان من أبرز هذه القبائل التتار الذين أطلق اسمهم على المغول ككل ^(٢) . والكيريت الذين سكنوا الواحات الشرقية ضمن صحراء غوبي وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم اعتنقوا المسيحية النسطورية واشتهر من حكامهم توأوريل أو الأونغ خان ^(٣) .

واشتهر من القبائل كذلك المركيت ولقد سكنوا شمال مناطق سكنى الكيريت وبالتحديد على امتداد نهر سلنغا وجنوبي بحيرة بايكال ولقد ارتبط هؤلاء بعلاقات عدائية مع جنكيز خان ^(٤) أما النيمان فقد كانوا القبيلة الرابعة التي وجدت في منطقة سكنى المغول ولقد سكنوا في مناطق منغوليا الغربية ^(٥) . وورد ذكرهم في التاريخ السري ولدى رشيد الدين الهمذاني كإحدى القبائل الأساسية في المنطقة التي عرفت الحضارة قبل غيرها، وآمنوا بالمسيحية النسطورية ولكن ربطتهم علاقات عدائية بجنكيز خان ^(٦) . أما القيات القبيلة الأمّ التي انتمى إليها جنكيزخان وأسرته فقد سكنت على ضفاف نهر أونان وجبل دولون بولداق ^(٧) ، و وصفت تلك القبيلة بشجاعتها وبقلة عدد أفرادها، واعتنق أفرادها الديانة الشامانية ، ولقد مارست تلك القبيلة دوراً لا بأس به في الصراع الذي نشب بين القبائل المغولية ، وتمكنت من استغلاله خير استغلال ، وتوحيد القبائل تحت لوائها وقد تمّ ذلك على يد أحد أبنائها وهو جنكيزخان ^(٨) . ومن الفئات الأخرى التي تألف منها الشعب المغولي قبيلة أويرات والتي سكنت غربي بحيرة بايكال على مقربة من منابع نهر ينسي،

(١) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٤٩ .

(٢) التتار : انظر تعاريف ص ٣٤٤ ؛ غنيمات (قاسم محمد مزعل) : الجيش المغولي في الفترة ما بين ٦١٥ - ٧٣٦ هـ /

١٢١٨ م - ١٣٣٥ م ، الأردن ، دار اليازوري ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٥ ، إقبال ، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ٣٤٦ ،

فهيم (عبد السلام عبد العزيز) : تاريخ الدولة المنغولية في إيران ، مصر (د . ت) ، ص ١٦

حطيط (أحمد) : حروب المغول ، بيروت ، دار الفكر اللبناني ، ط١ ، ١٩٩٤ م ، ص ١٥

(٣) رنسيما (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، بيروت ، دار الثقافة ، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ج٣ ،

ص ٤٠١ ؛ العريني ، المغول ، ص ٣٤ . ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٦ ؛ التاريخ السري ، ص ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ ؛ الرمزي : تليفق الأخبار . ج١ ، ص ٣٤٥ ؛ عاشور (فايد حماد) : الجهاد

الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي ، ط١ ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٧ ؛ فهيم ، تاريخ الدولة المنغولية في إيران ،

ص ١٥

(٥) غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ١٢٤ ؛ إقبال ، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ٣٤٧ ؛ حطيط ، حروب المغول ، ص

١٤ .

(٦) التاريخ السري ، ص ٢٧٢ ؛ الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ٣٢

(٧) جبل دولون بولداق : انظر تعاريف ص ٣٤٥

(٨) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج١ ، ص ٦٩ ؛ التاريخ السري ، ص ١٣٩ ؛ رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ٨٨

؛ غنيمات ، الجيش المغولي ، ص ٢٧ .

ولقد عارض هؤلاء جنكيز خان ولكنهم قدموا له فروض الطاعة فيما بعد^(١) ومن القبائل كذلك التايجيوت والذين سكنوا على ضفاف نهر أونان وفي الغابات المحيطة به^(٢) وقد ربطتهم صلة قرابة بجنكيز خان فقد وصفوا في التاريخ السري بلفظة " الأخوة التايجيوت " ^(٣) ولكن كانت علاقتهم سيئة بقبيلة قيات حيث تمكن فيما بعد جنكيز خان من تأديبهم^(٤) .

ومن القبائل التي أثرت بشكل كبير على المغول ، حيث تبنا خطها في الكتابة واستعانوا بأبنائها لتثقيف أولادهم الأويغور وهم شعب شبه بدوي سكن بداية وادي أورخون والذي يعرف اليوم بإقليم هنتي في منغوليا ، ثم استقروا فيما بعد على امتداد نهر التاريم^(٥) وعُرفت تلك الطائفة بالتسامح الديني فقد اعتنق أفرادها البوذية ، ووجد بينهم من اعتنق النسطورية، وانتشر هؤلاء بكثرة داخل المجتمع المغولي، فقد وصفهم الرحالة وتحدثوا عن لون لباس كهنتهم وأشكال القبعات التي وضعوها على رؤوسهم^(٦) .

ولقد تولى هؤلاء مناصب عديدة في بلاد جنكيز خان وخلفائه من بعده . كما نهضوا بمهمة تدريس أولاد المغول فسيغي قوتوقو^(٧) تبنى تدريسه أحد الأويغور فنبغ واضحى المسؤول عن الأمور الخاصة بالتشريع وكل ما يخص الياسا، بل إن هناك شكوكاً حول كونه المسؤول عن تدوين التاريخ السري للمغول^(٨) لم يعاد الأويغور جنكيزخان بل انضوت القبيلة تحت لوائه وساعدته في إدارة شؤون إمبراطوريته الواسعة^(٩) .

ولقد وجدت إضافة لذلك قبائل كثيرة لا سبيل للحديث عنها هنا ، ولكن سيتم تعداد بعضها كقبيلة الأولقونوأوت^(١٠) . والأونغيرات^(١١) وسولدوس^(١٢) . الساجيأوت و الدوربين^(١٣)

(١) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٦٩ ؛ حطيط ، حروب المغول ، ص ١٤ ؛ فاميري ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور ص ١٦٢ .

(٢) رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ١١٥ ؛ التاريخ السري ، ص ١٥١

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(٥) رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤١١ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ١٥ ؛ أمين ، الغزو المغولي لديار الإسلام ، ص ١٠

(٦) غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ٣٨٠ ؛ شويلر (بارتولد) : العالم الإسلامي في العصر المغولي ، والأحلاف الصليبية المغولية ، ترجمة وقدم له : سهيل زكار ، كتاب قيد النشر ، ص ٣١٨ .

(٧) سيغي قوتوقو : انظر تعاريف ص ٣٥٧

(٨) التاريخ السري ، ص ٢٠٥ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٥٥٨ - ٥٥٩ .

(٩) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩ ؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٨ .

(١٠) قبيلة الأولقونوأوت: انظر تعاريف ص ٣٤٤

(١١) قبيلة الأونغيرات: انظر تعاريف ص ٣٤٤

(١٢) رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني ، ص ١٠٦ .

(١٣) انظر تعاريف ص ٣٤٤

والجلائر^(١) وغيرهم الكثير هذا فيما تعلق بنسب المغول والقبائل التي تألفوا منها ، تلك القبائل التي لم يحرص المؤرخون على الحديث عنها بقدر حرصهم على ذكر نسب المغول ومناطق سكنهم تلك المناطق التي اختلف وصفها من مؤرخ إلى آخر لذا سيتم التطرق للحديث عنها لكونها توضح وجهة نظر كل مؤرخ والصورة التي رسمها بخياله ربما ، أو استناداً إلى وقائع معينة تتحدث عن مناطق سكنهم السالفة .

عدّ بعض المؤرخين مناطق سكنى المغول عبارة عن صحارى متاخمة لبلاد الصين^(٢) ، أما الجويني فأشار إلى أنهم سكنوا في المناطق الجافة ولكنه توسع في حديثه عن حدودها حيث قال: " يعيشون في وادي غير ذي زرع ، مسافة هذا الوادي أكثر من سبعة أشهر طويلاً وعرضاً يحدهم شرقاً ولاية الختا ، وغرباً ولاية الأويغور ، وشمالاً القرقيز ، وجنوباً قبائل التبت" ^(٣) . أما رشيد الدين الهمذاني فجعل سكنهم في الجبال والوهاد والآجام^(٤) . وفيما يخص ما تحدث عنه أبو شامة فقد أشار لسكنهم في براري تسمى أرغون ولكنه لم يحدد مناطق وجودها ، أو ما جاورها من المناطق فقط اكتفى بعد المغول من سكان تلك البراري^(٥) . إذا ما تركت الروايات السالفة جانباً ، وتمّ التطرق لما ذكره المؤرخون الأوربيون والرحالة عن مناطق سكنى المغول فيلاحظ بأن هذه الروايات اتصفت باتخاذها طابع الأسطورة والخيال ولكنها تلامس الواقع في بعض الأحيان ، فالمؤرخ متى باريس^(٦) تحدث عن مناطق سكنهم في أكثر من موضع ، ففي رواية أولى له تحدث عن اندفاعهم من المناطق الجبلية الشمالية^(٧) ، وفي ثانية أشار لظهورهم من مناطق الجنوب^(٨) أما في الثالثة فقد توسع في الرواية حيث ذكر بعض الأماكن التي سكنوها فقال : " يسكن هؤلاء في المناطق الشمالية إما في جبال بحر قزوين أو المواضع المجاورة"^(٩) . يبدو أن الأمر اختلط على المؤرخ متى باريس وذلك لكون مناطق سكنى المغول بعيدة عن جبال بحر قزوين، و ربما أشار لمناطق سكنهم الجديدة بعد اجتياحهم لمناطق بحر

(١) انظر تعاريف ص ٣٤٤

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٦ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٠ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٩٩ ؛ زكار ، أخبار المغول لدى مجموعة من المؤرخين ، الجزء المتعلق بالمؤرخ ابن العميد ، ص ١٢٢ .

(٣) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٦٠

(٤) التاريخ الغازاني ، ص ٢١ .

(٥) أبو شامة، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ص ١٧.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٧) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٥٦

(٨) المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ .

(٩) المرجع نفسه ، ص ٢٦٢ ؛ أما بحر قزوين : انظر تعاريف ص ٣٤٤.

قزوين، أما الفارس السوري^(١) فكان أقرب المؤرخين الأوروبيين إلى الحقيقة ، عندما تحدث عن أن المغول قَدَمُوا من بلادهم التي تدعى منغوليا وهي موجودة قرب البحر المحيط ، ومحاطة بجبالٍ عالية كثيرة ، وقيل أن الاسكندر هو الذي أغلق الممر الضيق لذا لم يعد بإمكانهم الخروج من بلادهم^(٢) بالتالي بدأ روايته بقول الحقيقة ، ولكنه فيما بعد أدخل الأساطير عليها بحديثه عن السد وغيره من الأمور. أما المؤرخ جوفيل^(٣) فيلاحظ بأنه تحدث عن اندفاعهم من سهلٍ رملي واسع ، لا ينبت فيه شيء ، يقع في طرف العالم باتجاه الشرق^(٤) يلاحظ مما سلف بأن معظم المؤرخين ، أجمعوا على أن المغول سكنوا في مناطق صحراوية ، وقد تبين فيما بعد صحة هذه المعلومات من خلال ما كتبه الباحثون المعاصرون فقد أشاروا بأنهم سكنوا في سهلٍ مرتفعٍ شغل قلب آسيا الوسطى ، أحاط به من الغرب سلاسل جبال ألتاي ، والتين شان ، وإلى الشمال كانت هناك الغابات المتجمدة الواسعة لسيبيريا ، في حين تقع صحراء غوبي في الجنوب ، وجبال خينغان في الشرق^(٥).

بالتالي هضبة منغوليا التي سكنها المغول محاطة بالعديد من الحواجز الطبيعية التي حالت دون وصول المؤثرات المناخية البحرية إلى المنطقة ، لذا وصف مناخها بالقسوة فهي باردة في الشتاء، وحارة في الصيف ، كما أنها قليلة الأمطار مما جعل المنطقة غير مؤهلة للزراعة ، وفرض على سكانها نمطاً معيناً من الحياة أساسه الرعي والتنقل ، فقد احتلت المراعي لديهم مكانةً عالية لذا فقد كان الحصول على مراعي أفضل والمحافظة عليها مصدراً أساسياً للصراعات التي كانت تستعر بينهم من حينٍ لآخر^(٦).

٢ . أوضاع القبائل المغولية الاجتماعية :

صفات البشر الجسدية ، من طولٍ وتقاسيم للجسد تختلف من شعبٍ إلى آخر ، كما تتباين معها طرق اختيار الملابس، وأنواع الطعام والشراب ، إضافةً لطريقة السكنى، وممارسة بعض الطقوس الاحتفالية أو الرسوم العزاء ، بكل تأكيد كان للمغول صفاتٌ خاصةً بهم ميزتهم عن غيرهم وهذا الأمر سيتم تناوله خلال هذه الفقرات.

(١) الفارس السوري: انظر تعاريف ص ٣٤٥

(٢) زكار ، أخبار المغول ، ص ٢٩٥

(٣) جوفيل: انظر تعاريف ص ٣٤٥

(٤) زكار ، أخبار المغول، ص ٢٢٢

(٥) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٩ ؛ غروسية ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ١٧ ؛ إقبال ، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص

٣٤٥ ؛ فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١١ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٦ .

(٦) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٩ .

بدايةً تطرق كثير من المؤرخين والرحالة لوصف المغول وسحناتهم وجاء وصفهم واقعياً في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى شابه الكثير من الخيال ، بداية تطرق الراهب كارييني^(١) إلى الحديث عن المغول وصفاتهم في مذكراته فقال : " وجوه المغول عريضة جداً بين العينين ، وعظام الوجنتين ، وأنوفهم صغيرة ومفلطحة وعيونهم صغيرة ، وجفونهم موروبة ، وهم يحلقون أعلى وسط رؤوسهم ويسرحون شعورهم إلى الخلف كجديلتين ، يربطون كل واحدة منها خلف أذن وأقدامهم صغيرة " ^(٢).

أما السيوطي فتحدث عن صفاتهم حيث قال : " عراض الوجوه واسعوا الصدور ، خفاف الأعجاز ، صغار الأطراف ، سمر الألوان سريعو الحركة في الجسم والرأي " ^(٣) ، بالتالي أشار كلا المؤرخين لتقلطح وجوه المغول ، وقصر أقدامهم ولكن زاد كارييني عندما تحدث عن صغر أنوفهم ، وعيونهم ، وعن طريقة تسريحهم لشعرهم ولكن أدق وصف للمغول سجل في كتب التاريخ كان الوصف الذي أورده ماركوبولو^(٤) لقبلاي خان^(٥) حيث قال : " له بنية جيدة ، ولم يكن طويلاً ولا قصيراً بل قليل الطول ، وكانت أطرافه مليئة ومعمولة بتوزيع موائم ، وكانت بشرته شقراء مشربة بالحمرة ، مثل وردة ، أما عيناه سوداوتان وجميلتان وكان أنفه حاداً وموضوع بشكل موائم في مكانه " ^(٦) .

بالنظر للوصف السالف فقد كان واقعياً ، ولكن لسبب ما أساسه الخوف والهلع من المغول وصفهم بعضهم وصفاً خيالياً وذلك لعدم قدرتهم على تخيل أن تلك الأعمال الوحشية ارتكبت من قبل البشر لذا صورهم على هيئة مخلوقات خيالية ، أو كنوع من أنواع التتينات لهم رؤوس مثل رؤوس الخيول تلتهم ضحاياها^(٧) ، بينما وصفهم آخر بكون وجوههم كوجوه الكلاب^(٨) بينما وجد في مؤلف ثالث ماكان فحواه : " لهم رؤوس كبيرة مثل رؤوس الثيران ، وعيون ضيقة مثل عيون الطيور الصغيرة وأنوف فطساء مثل أنوف السنانير ، وخراطيم ناتئة مثل الكلاب ، وحقوين ضيقين مثل نملة ، وأرجل قصيرة مثل أرجل الخنازير ، وبشكل طبيعي من دون لحى مطلقاً ، ولهم قوة أسود ، ويملكون أصواتاً يزعقون بها بقوة أكثر من النسور " ^(٩) ، و مهما كان وصف

(١) جون دي بلانوكارييني : انظر تعاريف ص ٣٥٣

(٢) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٢٦٩

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٠

(٤) ماركو بولو : انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٥) قبلاي خان : انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٦) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٤٠٠

(٧) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٦ .

(٨) المرجع نفسه ، ص ٧ .

(٩) زكار ، أخبار المغول لدى معاصريهم ، ص ٣٥٧ .

المغول فقد امتلك رجالهم بنية قوية وأرجل قصيرة متقوسة نتيجةً لمكوثرهم الطويل على ظهور الخيل . بعد الانتهاء من الحديث عن سحنة المغول ، سيتم التطرق للأشياء الخاصة المرتبطة بحياة المغول اليومية .

وفيما تعلق بملابس المغول فقد ارتدى هؤلاء بدايةً جلود الثيران والكلاب^(١) وكان هذا طبيعياً ارتدائه من قبل المغول في بداية حياتهم فهم كانوا مجموعة من القبائل المتناحرة والمتفرقة في الصحارى والغابات ، تحيا حياةً بدائية قائمة على الصيد والقنص ، لذا ارتدوا ثياباً تتناسب والمصادر المتوفرة لديهم.

ولكن بعد أن توحدوا على يد جنكيز خان واجتاحوا الصين وبعدها الغرب اختلفت ملابسهم وتباينت بين الفقراء والأغنياء ، وذلك لكونهم اطلعوا على ثروات الشرق وكثرت غنائمهم وتعرفوا على المنتجات الحريرية والصوفية وعلى أنواع الأقمشة الفاخرة . ارتدى الفقراء جلود الكلاب والماعز ، وأحياناً ثياباً محاكة من القطن والصوف ، أما الأغنياء فقد ارتدوا في الصيف أفضل أنواع الحرير ، وفي الشتاء أفخر الجلود والفراء الثمين والمخمل الناعم^(٢) ، أما ملابس الرجال والنساء فقد تباينت بكل تأكيد فملابس الرجال كانت عبارة عن معطف وغطاء للساقين ، وحذاء من جلود الشياه ، وغطاء من الجلد للرأس تتناسب مع مهامه القائمة على الصيد والدفاع عن القبيلة^(٣) ، أما ملابس النساء فكانت في بعض الأحيان تشبه ما ارتداه الرجال إلا أنها أطول ، فهي عبارة عن رداء فضفاض ومئزر وغطاء للرأس مزين وفوقه قلنسوة اختلف شكلها وطبيعة المواد المصنوعة منها بحسب غنى المرأة التي ارتدتها^(٤) . أما ملابس الخانات فقد ورد وصف له لدى أحد الرحالة فقال : "ارتدى ثوباً أحمر ، فيه بقع من الفراء تلمع وكأنها من جلود الفقمة"^(٥) . هكذا كانت ملابس المغول أما حياتهم الأسرية ، فقد ابتعد المغول عن الزنى^(٦) ولكنهم في المقابل أكثروا من الزوجات واحترموهن وبشكل خاص زوجاتهم الأوائل ، ولم يكن لديهم محرمات في الزواج باستثناء زواجهم من أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ، ولقد كانت لديهم عادة سيئة وهي إجبار الابن على الزواج من زوجات والده بعد وفاته باستثناء أمه^(٧) . أما الواجبات الأسرية فقد توزعت بين الرجال والنساء ، فكانت وظيفة الرجل صناعة القسي والنشاب والسروج وبناء البيوت

(١) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٦٣ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٣٣٢ ؛ بدر (مصطفى طه) : محنة الإسلام الكبرى ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م ، ص ٧٦ .

(٢) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٣٢٧

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٨١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٢٨

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٦) المرجع نفسه ، ص ٣٧٦ .

(٧) المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ ، ٣٧٦ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٨٨ ؛ بدر ، محنة الإسلام الكبرى ، ص ٧٨ .

وصنع العربات ، والعناية بالخيول ^(١) ، أما النساء فقد أشار معظم المؤرخين إلى قوتهن وشجاعتهم وكونهن يقاتلن إلى جانب الرجال في المعارك . ويستخدمن القوس والنشاب ببراعة ، ويركبون الخيول أيضاً برشاقة على الرغم من بدانتهم الظاهرة ^(٢) ، أما مهامهن الأخرى فكانت قيادة العربات ونصب الخيام ، وحلب الأبقار ، وصنع الزبدة والدهن ، و صناعة الجلود وخياطتها ، إضافةً إلى صنع الملابس والأحذية واللباد ^(٣) . أما النظافة العامة لدى المغول فقد كانت معدومة فإنهم لم يغسلوا ملابسهم البتة ، بل كانوا يرتدونهم حتى تبلى ، ولا يميزون بين طاهرٍ ونجسٍ ^(٤) . كما أهملوا نظافتهم الجسدية فلم يستحموا إلا نادراً ، وأهملوا نظافة أطباقهم التي أعدوا الطعام بها ^(٥) . ويعود ذلك الأمر في معظمه لأعرافٍ ومعتقداتٍ آمنوا بها .

أكثر المغول من المناسبات والأعياد التي احتفلوا بها وفق مراسم معينة ، وكانت تعجّ بموائد الشراب والطعام ^(٦) ، لذا سيتم التوسع في وصف الموائد لتعرف على طعام المغول وأنواعه ، فيما يخص طعام المغول فقد أشار معظم المؤرخين على أن طعام المغول الأساسي كان اللحم، سواء أكانت لحوم خيل ، أم أغنام ، أم بتعبير آخر كلّ حيوان تمسه النار ، حتى وإن كان من المحرمات " أي ما كان محرماً لدى المسلمين " ^(٧) ، كما تناولوا كذلك لحوم الأرانب ، و السنانير ، و الدببة ، والغزلان والأسماك لا بل حتى الجرذان ^(٨) ، وتناولوا لحم حيوان شبيه بالكبش لكنه امتلك قروناً ملتوية كبيرة استخدموها في صنع كؤوس شرابهم ^(٩) ، وفي الشتاء كانت تقل اللحوم فإنهم تناولوا اللحوم التي جففوها من قبل وحفظوها في أماكن خاصة وذلك لتناولها في فصول الشتاء الطويلة، وقد تناولوها بعد وضعها في ماء مغلي حصلوا عليه من تذويب قطعٍ من الثلج ، ثم عمدوا لترك الشرائح المجمدة والمجففة تغلي مع هذا الماء وقليلٍ من الملح ، فيتشكل

(١) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٣٣٤ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٠ ؛ شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٢٨ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٨٨ .

(٣) شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٣٤ .

(٤) القلقشندي ، الصبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٤ ، ص ٣١٢ ؛ شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٣٤ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ بدر ، محنة الإسلام الكبرى ، ص ٧٩ .

(٥) شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٦) المرجع نفسه ، ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ ؛ الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٠ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛ النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٧ ، ص ٣٠٣ .

مقديش (محمود) : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق : علي الزواري ، محمد محفوظ ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٨٨ م ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٨) التاريخ السري ، ص ١٤٧ - ١٤٩ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٩٥ .

(٩) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٣٣٠ .

بالتالي مرقّ كثيفٌ تناولوه بكثرة^(١). وتناولوا كذلك الزبدة ، وحليب مجفف أُطلق عليه اسم بغري – أوت^(٢) . إضافة إلى اللحوم والألبان اضطروا في بعض الأحيان لتناول نباتات الغابة من التوت الأسود والتفاح البري ، الثوم البري ، البصل والكرات وغيرهم^(٣). أو تغذوا على دماء خيولهم ، وذلك بفتح شقٍ في أحد شرابين الحصان ، يمتصون الدم منها وبعد أخذ كفايتهم يعمدون إلى إغلاقه فلا يتسبب بالتالي بموت الحيوان لكون تدفق دم الشريان يختلف عند تدفق دم الوريد والذي يؤدي فتحه للموت^(٤) ، هذا فيما تعلق بالطعام أما الشراب فالحق يقال أن المغول كانوا مغرمين بحفلات شرابهم ، ولقد تنوعت مشروباتهم ما بين شرابٍ دعي أيراغ^(٥) ، وما بين شراب الأرز الممزوج بالتوابل ومشروبات أخرى دعت بالبال ، التاراسينا ، إضافة للنبيد المستورد من البلدان المجاورة^(٦). أما أهم مشروبين اعتمد عليهما المغول فهما القمز وهو عبارة عن حليب الخيول المخفوق بعناية والذي يتحول بعد خضه لمشروب حامضٍ ذو مذاقٍ حادٍ^(٧). والقراقمز أو القمز القوي وهو مشروب السادة وعلية القوم لديهم^(٨) . هذا فيما تعلق بالحياة اليومية التي كان يحياها المغول ، أما مناطق سكناهم فيما أنهم شعب بدوي ارتبطت حياتهم بالرعي والصيد لذا فقد كانت حياتهم عبارة عن دورة مستمرة من الهجرات الموسمية من مراعي السهوب في الصيف ، إلى وديان الأنهار المحمية في الشتاء^(٩) ، انطلاقاً من ذلك فلم يسكنوا في بيوت ثابتة ، بل عمدوا للسكنى في معسكراتٍ متحركةٍ ليتمكنوا في أي وقتٍ وبمنتهى السرعة والمرونة من إزالتها وإعادة نصبها في أماكن أخرى دون بذل جهدٍ يذكر^(١٠)، وهذا ينطبق مع ما وصفهم ابن واصل به حيث قال : " أهل خيامٍ وعمدٍ"^(١١). أما أدق وصف لهذه المساكن فقد كان لدى مارشال حيث قال : " الخيمة المغولية تصنع من قطعٍ طويلة من اللباد الصوفي السميك التي تمتد حول إطار مستدير منخفض مصنّع من الدعائم الخشبية الرفيعة ، وكانت الأرضية تجري تغطيتها بألواحٍ بسيطة لفرشٍ مؤقتةٍ ، وكانت الخزائن والصناديق الحاوية للأمتعة يجري ترتيبها

(١) شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٣١ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ١٠

(٢) شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٣٢ .

(٣) التاريخ السري ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٦٣ .

(٥) نوع من المشروبات الكحولية الخفيفة التي يميل طعمها للمرورة ، وتصنع من حليب المهاري ؛ المرجع نفسه ، ص ١٠ .

(٦) شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٢٩٨ ، ٤٣٧ ، ٣١٣ .

(٧) اقبال ، تاريخ المغول ، ص ١٢١ ؛ الصياد المغول في التاريخ ، ص ٣٣١ ، فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ٢١ ؛ شبولر ، العالم الاسلامي ، ص ٣٣١ .

(٨) المرجع نفسه ، ص ٣٣١ .

(٩) المرجع نفسه ، ص ٢٦٢ ، ٣٧٥ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ١٠ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ١١ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٣٧١ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٣٣٢ ، بدر ، محنة الاسلام الكبرى ، ص ٧٩ .

(١١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

على شكل دائرة أمام الجدران ، ويقف إلى جانب العمود المركزي موقد له متنفس روزنة خلال فتحة في السقف^(١) بالتالي فإن اللباد المنسوج من وبر الحيوانات وصوفه إضافة إلى الأغصان هو المادة الأساسية المستعملة في صنع تلك الخيام التي كانت كل محتوياتها تشير إلى تأهب أهلها واستعدادهم الدائم في أي وقت للرحيل وحزم الأمتعة ، ولكن ما ميز تلك الخيمة فتحة المدخنة الموجودة في سقفها والتي تسمى الروزنة والتي ارتبطت بأساطيرهم^(٢). تطور فيما بعد هذا المجتمع نتيجة للاحتكاك بالصين وبطرق وأساليب الحياة المستقرة، لذا ظهرت المدن المستقرة والتي تغنن المغول في بنائها وتزيينها وأطنب الرحالة في وصفها^(٣). وخلاصة القول بدأت حياة المغول بدايةً بسيطةً أساسها الاعتماد على الطبيعة وعلى النفس في كل شيء ، ولكنها تطورت فيما بعد نتيجة للانفتاح على الأمم الأخرى ، وكثرة الثروات، فتحوّلت إلى حياة مليئة بالرفاهية والعيش الرغد كل ذلك من دون أن يتخلّى المغول عن عاداتهم وتقاليدهم وطرق طعامهم وشرابهم ، ولولائم لخانهم وواجباتهم التي نهضوا بها خير نهوض

٣. معتقدات المغول الدينية : (الشامانية ، النسطورية - المؤثرات البوذية) :

الدين عنصر أساسي في حياة الشعوب ، فمن غير الممكن أن يحيا الإنسان من دون وجود ما يعبده ويطلب منه العون والمساعدة ، وإيمان الشخص بدين ما قد ينبع في بعض الأحيان من البيئة التي ولد فيها ، ومن الأشخاص الذين احتك بهم ، فهم الذين يفرضون عليه نوعاً خاصاً من العبادات ، ولقد كان المجتمع الإنساني يعج بمعتقداتٍ وديانات عديدة ساهم الأنبياء والرسل في إزالة بعضها وإرساء قواعد الأديان السماوية مكانها ، وفي الجانب الآخر لم ينجحوا نجاحاً كاملاً نتيجةً لظروفٍ معينةٍ ساهمت في إرساء قواعد ذلك المعتقد إرساءً كبيراً. و فيما يخص المغول سكن هؤلاء في بيئة منعزلة كما ذكر من قبل ، تلك البيئة منعت عنهم أية مؤثرات دينية وحضارية كبرى، بل فرضت عليهم إلى حدٍ كبيرٍ عزلةً شبه كاملة وأثرت على طريقة تفكيرهم ومعتقداتهم الدينية التي ارتبطت بشكل وثيقٍ بالطبيعة، و وجدت لدى المغول معتقدات دينية كثيرة بعضها نبع من البيئة، وأخرى اكتسبوها فيما بعد عندما انفتحوا على من جاورهم ، لذا لا بد من التطرق لها ، لفهم طبيعة المغول ، وطبيعة تصرفاتهم التي وصفت بالوحشية والقسوة .

أ- الشامانية :

(١) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ١١ .

(٢) التاريخ السري ، ص ١٢٨ .

(٣) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٢٢٦ ، ٣١٢ - ٣١٨ ، الخالدي (اسماعيل) : العالم الإسلامي والغزو المغولي ، الكويت ، مكتبة الفلاح ، (د.ت) ، ص ٣١ .

شغلت الشامانية بدايةً المكانة الأولى بين الديانات لدى المغول ، وهي إحدى الديانات القديمة التي وجدت في السهوب منذ القرن الرابع ق.م^(١)، تقوم هذه الديانة في أساسها على الاعتراف بوجود إله سامٍ في السماء يدعى تيب تتجري^(٢) إله السماء والخلق لم يقدر لوحده بل قدسوا إلى جانبه آلهة أخرى أقل منه مرتبة ولكنها تعدّ الواسطة بينهم وبين ذلك الإله^(٣)، تباين نوع هذه الآلهة ما بين آلهة شريرة كانت تحاول إيذاءهم لذا اتقاءً لشرها حرصوا على تقديم القرابين والضحايا لها ، وآلهة خيرة تقربوا منها لكي تمنحهم السعادة وطول العمر والخير الدائم^(٤). وتحدث مؤرخون كثر عن عبادة المغول تلك، وعند قراءة ما دونوه، يلاحظ التباين في الروايات فمثلاً القزويني أشار لديانتهم حيث قال : " أما الديانات فليسوا منها في شيء وليس عندهم حلٌ ولا حرمةٌ يأكلون كلّ شيء وجدوه ويسجدون للشمس ويسمونها إلهاً"^(٥)، و أشار إلى كونهم لم يكن لهم ديانة واضحة ، ولكن من خلال تأديتهم طقوس معينة للشمس عدّهم من عبدة الشمس والأجرام السماوية، أما ابن واصل فقد تحدث عن دينهم فقال : " لا يدينون بدين، غير أنهم يعترفون بالصانع سبحانه وتعالى ويعظمونه"^(٦).

نقل ابن واصل عن غيره من المؤرخين بكل تأكيد كونه لم يعاصر جنكيزخان وقومه في بداية عصرهم، ويعتقد أن كلماته مشكوك فيها . فكيف يعظمون الله ، فلو عظموه لكانوا من أتباع إحدى الديانات السماوية ، فهم آمنوا بوجود إله السماء تب تتجري ولكنهم عبدوا آلهة أخرى كثيرة ليس فقط الصانع والخالق . أما الرمزي فقد تحدث عن ديانتهم بوضوح أكثر حيث قال: " نسبهم البعض إلى الوثنية، وآخر الوثنية الشامانية، وبعضهم إلى عبادة الشمس والكواكب ، وسائر الأجرام العلوية وبعضهم إلى عدم الديانة مطلقاً"^(٧). أما غريغور أوف أكانك^(٨) فإنه عدّهم من عبدة الأوثان المصنوعة بطريقة معينة من اللباد حيث قال : " لم يكن لديهم أي نوع من الدين باستثناء وبعض الأوثان من اللباد احتاجوها من أجل السحر ، ولذلك حملوها دوماً معهم لكنهم

(١) حسن (محمد خليفة) : المعتقدات الدينية عند المغول في عصر جنكيز خان ، مجلة رسالة المشرق ، القاهرة ، مركز الدراسات الشرقية ، المجلد الخامس ، ١٩٩٦ م ، ص ٤١١ .

(٢) التاريخ السري ، مصدر سالف ، ص ٣٥١ ، ٣٤٧ ، دائرة المعارف ، مرجع سالف ، ج ٦ ، ص ١٧٥ . فولسكي (دورويتاكر) : العرب وإيران دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيدلوجي ، بيروت ، دار المنتخب العربي ، ط ٢ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) حسن ، المعتقدات الدينية عند المغول في عصر جنكيز خان ، ص ٤١١ ؛ الخالدي ، العالم الإسلامي والغزو المغولي ، ص ٣٣ .

(٤) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥١ ، يوسف (جوزيف نسيم) : العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، الاسكندرية ، دار الكتب العلمية ، ط ٣ ، ١٩٧١ م ، ص ٢٨١ .

(٥) القزويني (زكريا بن محمد ت. ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ج ٢ ، ص ٥٨١ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٧) الرمزي ، تلفيق الأخبار ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٨) انظر تعاريف ص ٣٤٥ .

قدموا التبجيل للشمس كممثل للقدرة الإلهية^(١)، بالتالي فإن الأوثان لم تستخدم للعبادة فحسب بل استعملوها لإكمال طقوسهم السحرية من أجل طرد الأرواح الشريرة . لذا رافقتهم دوماً ، ولكنهم كذلك قدموا التبجيل للشمس التي تعد عندهم رمزاً لقدرة الإله وجبروته وهذا طبيعي لكون هؤلاء من سكان الغابات والبداءة التي ارتبطت حياتهم بالشمس .

لكي يوافق ويوائم المغول بين آلهة السماء وقواها الخارقة وبين العالم السفلي الوضيع الذي حوى آلهة متعددة وأناس خائفين طالبيين للرحمة والخير كانوا يلجؤون لرجال الدين الذين عرفوا باسم شامان^(٢)، كما أطلق عليهم لفظة قامان^(٣)، وبيكي^(٤) وتفيد هذه الكلمات بأن حاملها إضافة لكونه كاهناً أعلى فهو طبيب ومشعوذ وساحر ، وله قدرة خاصة من بينها شفاء المرضى أو على الأقل معرفة سبب المرض^(٥) ومن مهامه الأخرى ما أشار إليه جنكيزخان عندما عين شامان جديد^(٦) حيث تحدث بما يلي فقال: " أنه طبقاً لتقاليدنا يتقدم البيكي على جميع الوجهاء والأعيان ، ولهذا فإن أوسون الشيخ سيصبح هو البيكي وسوف يلبس الملابس البيضاء ، وسوف يجلس في مقام الشرف ، وسوف يحاط باحترام الجميع وتعظيمهم، وسوف يختار لنا أفضل الأوقات والسنوات ومواقع القمر عند القيام بحملاتنا^(٧)، بالتالي فإن الشامان يعد في مكانة أعلى من سواه ويتمتع بحقوق كثيرة فرضها له منصبه ، ومن مهامه اختيار أفضل الأوقات والسنوات للقيام بالحملات ، أما طريقة اختياره فقد اختلفت وتتنوع فلربما يصبح المرء شاماناً عن طريق الإلهام العفوي ، أي بدعوة من الآلهة أو أن يرث هذا المنصب^(٨)، أو أن يعين بقرار من أصحاب السلطة والنفوذ أو بإرادة القبيلة كما حدث مع أوسون^(٩)، تبعاً لذلك لا بد للشامان من إتقان أمور كثيرة كتفسير الرؤى والأحلام ، وإلمامه بعلم الأنساب ووظائف الأرواح ، ومعرفته بلغة سرية يخاطب بها الشياطين ، إضافة لسلوك خاص به قائم على أساس العزلة والتجول في الغابات والحديث أثناء النوم، واستخدامه للأصبغة والحيوانات المختلفة ولا يمكن اكتساب هذه الأشياء إلا بعد تلقيه لتعليم خاص به^(١٠).

-
- (١) زكار، أخبار المغول لدى معاصريهم من المؤرخين ، ص ٣٥٣.
- (٢) أيبو جمال (ناديا) الناجون من الغزو المغولي نزارى قوستانى واستمرارية التقليد الإسماعيلي في إيران ، ترجمة : سيف الدين القصير ، بيروت ، دار السامي ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م ، ص ١٣٧ .
- (٣) الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٨٣
- (٤) غروسية ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٢٣ ، بارتولد ، تركستان ، ص ٥٦٠ ، غنيمات ، الجيش المغولي ، ص ٣٠
- (٥) التاريخ السري ، ص ٣٧٨
- (٦) وهو أوسون من قبيلة بأرين ؛ المصدر نفسه ، ص ٣٥١
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٥٢-٣٥١ ، غروسية ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٢٣ ، بارتولد ، تركستان ، ص ٥٦٠
- (٨) حسن ، المعتقدات الدينية عند المغول ، ص ٤١٣ ، التاريخ السري ، ص ٣٥١ ، غروسية ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٢٠
- (٩) التاريخ السري ، ص ٣٥١ ، بارتولد ، تركستان ، ص ٥٦٠
- (١٠) حسن ، المعتقدات الدينية عند المغول، ص ٤١٣ ، كدرو (نرجس أسعد) : موقف المغول الايلخانيين من العقائد والمذاهب الدينية من وفاة هولاكو إلى نهاية حكم أبي سعيد بهادرخان بحث لنيل درجة الماجستير غير منشور ، إشراف : فتحي أبو سيف ، أحمد أحمد ، القاهرة ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٩ م ، ص ٤٧.

بعد الحديث عن الشامانية والشامان لا بد من الإشارة لأشياء ارتبطت بالشامانية وشكلت جوهرًا أساسيًا لها، فالديانة الشامانية في أساسها قائمة على تقديس مظاهر الطبيعة وعلى وجود إله سامي في السماء، ولكن إلى جانبه وجدت آلهة كثيرة لا بد من توضيحها وهذه الآلهة في معظمها أرضية ولم يذكروا أسماءها باستثناء إله واحد تم التطرق لذكر اسمه وهو ناتيجاي إله مصنوع من اللباد، وله زوجة وهما رباً الأرض^(١) وجد إلى جانبه إله للجبال، وإله للقطيع، وآخر للنار، ورابع للأنهار^(٢)، إضافة للعديد من الآلهة الأخرى التي لم يحدد المغول مهامها بالضبط ولا أشكالها، إنما صنعوها على شكل نصب من اللباد ملؤوا بها منازلهم^(٣) إضافة لتلك الآلهة الأرضية السالفة الذكر فإنهم عدوا خاناتهم آلهة على الأرض، لذا أحاطوهم بالكثير من القداسة حيث قالوا في رسائلهم التي أرسلوها لخصومهم: "هناك إله سرمدي واحد في السماء، فليكن على الأرض سيد حاكم هو جنكيزخان" ^(٤) أو كما أشار إلى ذلك متى باريس فقد عدّه إلهاً حيث قال: "يعتقدون بأن هناك حاكم واحد للعالم، الرب وابنه في السماء، وجنكيز خان في الأرض" ^(٥)، بالتالي فإن جنكيز خان كان لديهم بمثابة إله ابن للرب، لذا عدّوه شخصاً مقدساً، ولا أدل على قدسيته تلك من مراسيم الدفن التي أقيمت له فقد أحيطت بسريرة تامة وتمّ وضع جثمانه في عربة تجرّها الخيول وتوجهت إلى جبل بورقان قالدون^(٦). وقتلوا في أثناء رحلة سير العربة جميع الأشخاص الذين صادفهم في الطريق رغبةً في إبقاء الأمر سراً، ولكي يخدموا الخان في دار الآخرة، وبعدها دفنوه في المكان وأخفوا مكانه بأن جعلوا الخيول تدوس مكان القبر لكي لا يتعرف أحد على الموقع^(٧)، إضافة إلى تقديسهم جنكيز خان فقد قدسوا أشياء أخرى منها جبل بورقان قالدون ذلك الجبل الذي حمى جنكيز خان، ويسكنه إله السماء الزرقاء حيث يستقر بين ينابيعه، وله أدى الخان صلوات خاصة^(٨) إضافة لذلك فقد قدسوا أشياء أخرى مثلاً الرقم تسعة ذلك الرقم الذي أدخلوه في حياتهم فقد كانوا يركعون للآلهة تسع مرات، كما أنهم كانوا يحتفلون في اليوم التاسع من كلّ شهر وعدّوه عيداً لآلهتهم، كما أنهم عدّوا السماء مؤلفة من تسع طبقات^(٩)، أما الألوان فقدسوا لونين وهما اللون الذهبي ذلك

(١) شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٤٦١.

(٢) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٣٥، فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ٢٤، باعامر (محمد سالم بكر): الصراع بين الإسلام والوثنية في إيلخانية مغول إيران على عهدي تكودار خان وأرغون خان، مقال منشور في مجلة جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية، جدة، جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية، جدة، جامعة الملك عبد العزيز، مجلد ١٥، ٢٠٠٧ م، ١٤٢٨ هـ، ص ٦٦.

(٣) شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٣٣٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٤٠.

(٥) مارشال، عاصفة من الشرق، ص ٢٨٨.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٤٥.

(٧) غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٥٢ - ٣٥٥.

(٨) التاريخ السري، ص ١٧١؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٥٥.

(٩) التاريخ السري، ص ١٧١؛ شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٣٣٧؛ حسن، المعتقدات الدينية عند المغول، ص ٤٥٦؛ كدرو، موقف المغول الإلخانيين، ص ٤٩.

اللون الذي تراءى لآن قوا عندما دخل الشعاع من الروزنة وسبب حملها بأبنائها الثلاثة الذين عدوا أبناءاً للآلهة التي تمثلت على شكل شعاع ذهبي^(١)، وقدسوا كذلك اللون الأبيض الذي ارتدوه في احتفالاتهم كما ارتداه كهنتهم^(٢). وفي نهاية الحديث عن الديانة الشامانية والآلهة المرتبطة بها ، لابد من الإشارة إلى أن المغول اهتموا بتقديم القرابين للآلهة والتي تنوعت ما بين الشراب " القمز " وما بين أنواع معينة من دهن الحيوانات ، أو الأطعمة التي تناولوها في حياتهم اليومية^(٣) إضافة إلى ذلك فقد عُرف المغول بالتسامح الديني مع باقي الطوائف الأخرى فجنكيز خان لم يتعد على دين أي من رعاياه، ولم يجبر أحداً على اعتناق الدين الشاماني، بل على العكس سمح للبوذيين و النساطرة بممارسة طقوسهم الدينية، و هذه الصفة ميزت المغول عن غيرهم من الأمم^(٤) .

ب - النسطورية :

ظهرت النسطورية بشكل واضح بعد مجمع إفسوس سنة ٤٣١ م والذي أدى إلى انقسام المسيحية ، وتقوم أفكار هذه الكنيسة في أساسها على الاعتراض على وصف العذراء مريم بأنها والدة الإله ، و على الإيمان بوجود طبيعتين للمسيح الأولى بشرية كاملة فيما خلا الخطيئة، والثانية لاهوتية أي كلمة الله وهكذا ظهرت فكرة الطبيعتين المنفصلتين للمسيح، لذا آمن اتباع النسطورية بها ورفضوا فكرة الطبيعة الواحدة واتحاد الإله والابن في جسد واحد^(٥) .

أما نسطوريوس الذي نسبت النسطورية إليه لكونه تبني هذه الأفكار، وعمل على توسيعها ونشرها بشكل واسع^(٦) فقد ولد في ضواحي مرعش^(٧) ، في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي ، و درس اليونانية ومبادئ العلوم في مرعش ثم انتقل إلى أنطاكية^(٨) ورسم كاهناً فيها

(١) التاريخ السري، ص ١٢٨ ؛ حسن ، المعتقدات الدينية عند المغول، ص ٤٣٤ .

(٢) التاريخ السري، ص ١٥٥ ، ٣٥٢ ؛ حسن ، المعتقدات الدينية عند المغول ، ص ٤٣٤ ؛ غروسه ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٤٣٤ ، مارشال ، عاصفة من الشرق ، ص ٢٢٣ .

(٣) شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٢٨٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٠ ، الخالدي ، العالم الاسلامي والغزو المغولي ، ص ١٣ ؛ باركر (ارست) الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ط ٢ ، (د.ت) ، ص ١٢٤ ؛ القلقشندي ، الصبح الأعشى في صناعة الأنشأ ، ج ٤ ، ص ٣١١ ؛ شيرين (بياتي) دين ودولت در ايران عهد مغول ، أن تشكيل حكومت منطقي أي مغولان ت . تشكيل حكومت إيلخان ، جابه دوم ، تهران ، ١٣٧٠ هـ . ش ، مجلد أول ، ص ٢٢ .

(٥) إلياس (سليم) : الموسوعة الكبرى للمذاهب والفرق والأديان ، بيروت ، مركز الشرق الأوسط الثقافي ، ح ٢ ، ص ١٧٠ ؛ رستم (سعد) : الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، دمشق ، دار الأوائل ، ط ٢ ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٧ ؛ سوريا ل (عزيز) تاريخ المسيحية الشرقية ، ترجمة : اسحاق عبيد ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٣٠٤ .

(٦) الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) : الملل والنحل ، تحقيق : أمير منا ، بيروت ، دار المعرفة، (د.ت): ص ٢٢٥ .

(٧) مرعش : انظر تعاريف ص ٣٣٩

(٨) أنطاكية: انظر تعاريف ص ٣٤٤

ونظراً لتدينه فقد وقع الاختيار عليه ليكون بطريكاً في القسطنطينية سنة ٤٢٨ م^(١). و نادى نسطوريوس بطبيعتين للسيد المسيح طبيعة إلهية وأخرى بشرية^(٢)، وعليه فقد عارض باقي أتباع الديانة المسيحية الذين آمنوا بطبيعة واحدة للسيد المسيح ومن أجل إيجاد حلٍ للمشكلة عقد مجمع ديني سنة ٤٣١ م ، وانتهى ذلك المجمع إلى رفض أفكار نسطوريوس وإدانتته وخلعه عن كرسي البطريركية^(٣)، ونفي إلى مكان منعزلٍ وبقي هناك حتى وفاته التي كانت بعد عدة سنوات من عقد المجمع الديني^(٤)، و انتشر المذهب في الشرق بشكلٍ خاصٍ في سورية الطبيعية والعراق ، ومن هناك تسربت أفكاره نحو مناطق خراسان وما وراء النهر ، ولقد ساهم المبشرون الذين وصلوا إلى المناطق البعيدة في انتشارها الواسع ، ولقد انتشرت كذلك عن طريق القوافل التجارية ، واحتكاك سكان تلك المناطق ببعض التجار ، وببعض الرهبان النساطرة الذين وجدوا بيئة مناسبة لهم في الشرق الأقصى^(٥)، وصلت النسطورية إلى ضفاف بحيرة بايكال مكان سكنى المغول . وانتشرت بشكل خاص بين أفراد قبائل الكيريت حيث اعتنق زعيم القبيلة وأتباعه النسطورية في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد^(٦) كما اعتنق عدد من أفراد قبيلة الأويغور هذه العقيدة^(٧)، كما اعتنق العديد من أفراد قبيلة جنكيزخان النسطورية ، ومما ساعد على ذلك كون الديانة الشامانية التي آمن المغول بها عرفت بالتسامح الديني، ولم تفرض آراءها على أي كان^(٨)، لذا فإن جنكيزخان لم يعارض أتباع هذه العقيدة ، بل أنه كذلك تزوج من نسطورية وهي ابنة الأخ الأصغر للأونغ خان زعيم الكيريت، وتدعى جاقا غامبو^(٩) بالتالي انتشرت هذه العقيدة ، وسمح لأتباعها ببناء كنائس بسيطة وممارسة طقوسهم بحرية تامة ، ولكن بعد وفاة جنكيزخان انتشرت أفكار فحواها رغبة المغول في اعتناق الدين المسيحي ، والاتصال بأوروبا المسيحية لتكوين حلف ضد المسلمين ، ولقد صدّق الأوربيون هذه الأمور ، وأرسلوا العديد من المبشرين في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، ولكن تبين بطلان هذا الادعاء . بل إن المغول نظروا بازدراء إلى هذا الأمر ولم يقبلوا اعتناق الكاثوليكية وتمسكوا

(١) الياس ، الموسوعة الكبرى، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(٢) الشهرستاني ، الملل والنحل، ص ٢٢٦

(٣) سوريال ، تاريخ المسيحية الشرقية، ص ٣٠٥ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٠٦ ؛ إلياس الموسوعة الكبرى للمذاهب، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

(٥) سوريال ، تاريخ المسيحية الشرقية، ص ٣١٩

(٦) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٦ ؛ رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤١١ ؛ عمران (محمود سعيد):

المغول وأوربا ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، (د.ت) ، ص ٣١.

(٧) الرمزي ، تلفيق الأخبار ، ج ٢ ، ص ٣٩ ؛ غروسية ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٤٨

(٨) أنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٢٤ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٢٤ ؛ كاهن (كلود) : الشرق والغرب زمن الحروب

الصليبية ، ترجمة : أحمد الشيخ ، مصر ، سيناء للنشر ، ط ١ ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٥٣

(٩) التاريخ السري ، ص ٢٦٩

بمعتقداتهم . والفائدة الوحيدة التي جناها هؤلاء هي اتصالهم بالمغول وإطلاعهم على مجتمعاتهم^(١) واتصالهم بعدد من النساطرة الذين وصفهم أحد الرحالة حيث قال : " إلى الشرق من البلاط وجد بيت وضع عليه صليب صغير كانت بيعة وهناك وجدوا راهباً يرتدي ثياباً من الشعر واسمه سرجيوس وكان على المذبح تماثيل مزينة بالذهب و اللألى "^(٢) إضافة لذلك الوصف السالف تطرّق الرحالة للحديث عن طريقة احتفال المغول النساطرة بالعيد حيث قال : " في العيد قدم المغول إلى البيعة ، سجدوا على المقاعد وفق الطرائق النسطورية ، ثم لمسوا جميع النصب بيدهم اليمنى التي قبلوها بعد ذلك ثم تصدقوا على جميع الذين أحاطوا بهم ، بعدها غنى الراهب وأعطى السيدة بعض البخور الذي وضعته على النار ثم بخروها " ^(٣). إن تلك الممارسات الدينية التي حرص المسيحيون في منغوليا على تأديتها، هي نفسها المتبعة لدى المسيحيين في أوربه، ولكن ما يلاحظ بأن معظم المبشرين الذين زاروا المغول وصفوا النساطرة بالهراطقة وتصرفاتهم بالبدع^(٤)، ربما كانوا متأثرين بفكرة المجتمع المسيحي لديهم ، أو لكونهم في مكان بعيد ومنعزل ، لذا لم تصلهم الطقوس بشكل صحيح أو لكون البعد والانعزال أدى إلى نسيان بعض التعاليم ، واتباع تعاليم قريبة من الممارسات الدينية لطوائف كانت بقربهم ما يهم في الأمر أن العقيدة النسطورية كانت ديانة متعارف عليها في المجتمع المغولي .

ج . البوذية:

إحدى الديانات التي احتضنها المجتمع المغولي ، وهي من الديانات الكبرى في العالم من ناحية عدد أتباعها وتوزعهم الجغرافي ، نشأت في الشرق الأقصى وتنسب إلى سيد هارتاجوا تاما الذي أسسها في الهند منذ القرن السادس ق م^(٥) . قامت هذه الديانة بفعل الرفض الصارخ للممارسات الدينية التي وجدت في المجتمع الهندي ، فهي حركة إصلاح اجتماعي حاولت القضاء على الطبقية وآمنت بالبساطة والتشف ، كما اعتقدت بالتناسخ^(٦) أطلق عليها اسم البوذية نسبة إلى بوذا وهو اسم هندي معناه عالم أو حاكم أو عاقل، وليس بوذا كائناً بل هو كامل بالذات، وأقدس المعبودات ، لذا اعتقد أتباع هذه الديانة بأن هناك عدداً كبيراً من الآلهة

(١) هلال (عادل) : العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي ، مصر ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ص ٣١ ، الغتيت (محمد علي) : الغرب والشرق زمن الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، مصر ، مطابع الدار القومية ، (د ، ت) ، ص ٦٦ .

(٢) شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٢٩٩

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٠٤

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٩٦

(٥) الأعظمي (محمد ضياء الرحمن) : فصول في أديان الهند ، المدينة المنورة ، دار البخاري ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ص ١٢٩

(٦) إلياس ، الموسوعة الكبرى للمذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، باعامر ، الصراع بين الإسلام والوثنية في إيلخانية مغول إيران ، ص ٦٦ ، شلبي (أحمد) : أديان الهند الكبرى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٤ ، ص ١٥١

الذين أرسلوا لتخليص العالم، ولكن في العصر الحالي يوجد بوذا واحد يعرف بسقياموني" أي القديس والناسك والتقي" ^(١). مؤسسها السالف الذكر توفيت والدته وهو صغير ، لذا عاش في كنف والده والذي كان غنياً وقد تزوج وأنجب طفلاً ، ولكنه نفر من نظام والده، فما كان منه إلا أن هام في البراري ، ومال إلى التقشف وتمكن من الوصول إلى غاية المعرفة لذا فقد ألّه وأصبح هو الرسالة لديهم ، كتبت تعاليم بوذا سنة ٢٤٢ ق م. ^(٢) تلك التعاليم التي قامت في أساسها على التقشف والزهد والمسالمة ، وعدم الاعتداء على الطبيعة ، والتعايش مع باقي الديانات الأخرى، وهذا ما ساهم فيما بعد بانتشارها الواسع نتيجة لرغبة الناس في الحصول على السلام ورفض الظلم، ونبذ الحروب ^(٣)، و انتشرت البوذية بشكل كبير لدى المغول في أواخر القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد ، وفي القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد وذلك بفضل جهود الرهبان الذين كانوا موجودين في التبت ^(٤) والذين نشروا تلك الديانة في الجزء الشرقي من آسيا ^(٥). ولقد اعتنقها بكثرة أفراد قبيلة الأويغور، وأشار عباس إقبال بأن كلمة " بخشي " التي انتشرت بين المغول تعني الكاهن البوذي ^(٦). لم يحارب المغول أتباع الديانة البوذية، ولم يعتدوا على أماكنهم الدينية ، ولم يحدوا من ممارساتهم الدينية بل منحوهم الحرية الكاملة في ممارسة طقوسهم الدينية ، ليس ذلك فحسب بل استعانوا بهم كمدرسين ^(٧) ، وفي إدارة المدن التي اجتاحتها في الغرب والدليل على ذلك النقاء الراهب الطاوي بالعديد منهم في أثناء رحلته للقاء الخان في بلاد ما وراء النهر ^(٨) ليس ذلك فحسب بل انتشروا داخل المجتمع المغولي ، حيث التقى الرحالة والمبشرون الكاثوليك بالعديد منهم ، وشاهدوا معابدهم الضخمة ، وآلهتهم التي أكثروا من وضعها في معابدهم ، كما وصفوا رهبانهم ، وملابسهم الخاصة التي ارتدوها وطريقة تناولهم لطعامهم ، وتآديتهم لطقوسهم الدينية ^(٩) ولا أدل على الأهمية الكبيرة التي بلغت تلك الديانة من أن قبلاي خان اعتنقها، وتبنى أفكارها وساهم بشكل كبير في انتشارها بالصين

-
- (١) هارفي (بطرس) : البوذية التعليم والتاريخ والممارسات ، ترجمة وتعليق : سهيل زكار ، دمشق ، كتاب قيد النشر ، ص ٤-١٥
- (٢) إلياس ، الموسوعة الكبرى للمذاهب ، ج ٢ ، ص ١٤٢؛ الأعظمي، فصول في أديان الهند ، ص ١٣٠
- (٣) إلياس ، الموسوعة الكبرى للمذاهب، ج ٢ ، ص ١٤٣-١٤٦؛ الصياد ، المغول في التاريخ، ص ٣٣٥ . ٣٣٦؛ هارفي ، البوذية التعليم ولتاريخ والممارسات ، ص ١٤ . ١٦
- (٤) التبت : انظر تعاريف ص ٣٤٢
- (٥) أرنولد ، الدعة إلى الاسلام ، ص ٢٥٢؛ الصياد المغول في التاريخ، ص ٣٣٥ ؛ باعامر ، الصراع بين الاسلام والوثنية في إيلخانية مغول إيران، ص ٢٦٦
- (٦) إقبال ، تاريخ المغول ، ص ١٢٠
- (٧) بارتولد ، تركستان ، ص ٥٥٩
- (٨) غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٨٠ ، ٣٨٢
- (٩) شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٢٩٣ ، ٣٩٠ ، ٤٤١ .

والمناطق الأخرى^(١). و وجدت البوذية بين المغول ولكن وجودها بداية كان من القلة بـمكان ، وذلك لكون المغول في معظمهم من الشامانيين ، ولكن نتيجة لضعف الديانة الشامانية ، ولعدم وجود آلهة رسمية لها بدأت البوذية بالانتشار كما انتشرت النسطورية . ولكن كان انتشار البوذية أوسع وأصبح لها مدارس خاصة بها في منغوليا، و الصين ، ودول أخرى^(٢). وساعد على انتشارها أيضاً تسامح المغول الديني ، وانفتاحهم على الأمم التي جاورتهم فيما بعد ، ولكن سرعان ما اضمحلت البوذية لصالح الإسلام وبدأ الإسلام بالتسرب رويداً رويداً إلى مجتمعات المغول ،الذين اعتنقوه بكثرة فيما بعد . مما سلف يستنتج بأن المغول عرفوا العديد من المعتقدات والأديان ولكن معرفتهم بكل ذلك لم تؤثر كثيراً على حياتهم وممارساتهم التي وصفت بالوحشية تلك الوحشية التي مورست تجاه الأمم التي اجتاحتها .

ثانياً : تأسيس جنكيزخان لدولته وتنظيماته:

مثلت شخصية جنكيزخان علامة فارقة في تاريخ البشرية، وذلك لكونه استطاع بواسطة جهود فردية أن يحول مجتمعات بدائية غير متحضرة إلى دولة متماسكة ، عمل على تنظيمها بشكل مكنه من اجتياح المعمورة، ولقد وصفه فامبري بكلمات قليلة ولكنها أشارت لجهوده التي بذلها في سبيل تحقيق أهدافه حيث قال : " أنجب هذا الجنس بطلاً يدعى تيموجين برهن أنه صاحب أطماع ، وإرادة حديدية وعزم مكنه تمام التمكين من أن يطوع بني جلدته البدائية الخشنة إلى أداة صالحة أمدته بتلك القوة التي اجتاحت بها العالم إلى ما وراء حدود مراعيه بكثير "^(٣) فمن هو جنكيزخان يا ترى، معجزة المغول؟! هذا ما سيتم مناقشته فيما يلي :

١. جنكيزخان مولده ونشأته :

أصدق مصدر يروي حياة جنكيزخان الأولى هو كتاب التاريخ السري لكونه السجل الرسمي لتاريخ المغول سطره بأيديهم وحفظوه في خزائنهم ، لذا سيتم الاعتماد عليه أكثر من سواه في رواية تلك الملحمة البطولية .

انتسب والد تيموجين ببسوغاي بأثور إلى فرع من المغول دعي باسم نيرون^(٤) ويعود سبب دعوتهم بهذا الاسم لادعاء جدتهم آلان قوا^(٥) أو آلان بوقا^(٦) بزواجها بعد وفاة زوجها من شعاع

(١) سليم (صبري عبد اللطيف) : الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران ، القاهرة ، كلية دار العلوم ، ١٩٩٦ م ، ص ٤٩؛ باعمر ، الصراع بين الإسلام والوثنية في إيلخانية مغول إيران، ص ٦٦.

(٢) هارفي ، البوذية التعليم والتاريخ والممارسات ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٥١٦.

(٣) تاريخ نجارى ، ص ١٦٢

(٤) رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغازاني، ١٧٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٦-١٣٧ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج ٤ ، ص ٣١٠ ؛ العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث ، ص ١٠٠

(٦) التاريخ السري ، ص ١٢٨

النور ومن ذلك الزواج رزقت بثلاثة أولاد شكلوا قبائل المغول فيما بعد^(١). لمع بيسوغاي بأثور بين أفراد قبيلته القيات ، تزوج من أولون والتي خطفها من زوجها عند نهر الأونون وقد عرفت بحكمتها وقوتها ولقد أنجبت تيموجين سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م على ضفاف نهر الأونون وعند سفوح جبل ديليؤون بولداق^(٢) . وقد تباين المؤرخون في الاسم الذي أطلق عليه ومعناه فمنهم من أطلق عليه اسم ترمجين من غير تفسير لمعناه^(٣) ، بينما انفرد النويري وحده باختصار كلمة ترمجين إلى الترمجي ووضح بأن الاسم يعني الحداد ، أو أنه نسبة لقبيلة تُعرف بالترمجي كانت تسكن البراري في بلاد الصين^(٤). بينما أطلق عليه آخرون اسم تيموجين ويعني برأيهم الصلب والمتمين^(٥)، أما في التاريخ السري فقد ورد اسمه تيموجين، وحلل المؤلف سبب تسميته بذلك الاسم لكونه قد ولد في اليوم الذي قبض والده فيه على قائد التتار تيموجين يوج وأسرته ، وكان من عادة المغول إطلاق أسماء على أولادهم تتعلق بحوادث معينة جرت لهم^(٦)، و كان لديه أربعة أخوة: قاسار الأكبر ، وقاجيون ، وتيموجي وفتاة دعيت تيمولون^(٧)، وكان لديه أخوان من امرأة أخرى تزوجها والده دعيت سوجيفيل: وهما بيكتر وبيلغوتي^(٨). وفي التاسعة من عمر تيموجين قرر والده تزويجه لذا خطب له فتاة من قبيلة الأونغيرات، تدعى بورتته. وفي طريق العودة مرض الوالد وتوفي سريعاً بعد أن أوصى خادمة مونفليك بحماية أسرته، وكانت وفاته في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م^(٩). بعد وفاة الوالد طردت الأسرة الصغيرة من رحاب القبيلة ، وتُركت في البراري ، فاعتاشت بما جمعته من نباتات الغابة ومن اصطيد الأطفال للأسماك ، والفئران والأرانب وعاشت مدةً من الزمن على هذه الحالة^(١٠). لم تقض الغابة وحيواناتها المفترسة على تيموجين الطفل الذي بدأ يكبر ويبرز بين أفراد أسرته ، التي تعرضت لمجموعة من النكبات

(١) رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغزائي، ص ١٣٦ ؛ الرمزي ، تلفيق الأخبار، ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ التاريخ السري ، ص ١٢٨ ؛ العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث ، ص ١٠٠

(٢) التاريخ السري ، ص ١٣٩ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢٧ ، ص ١٢٦ ؛ العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ، ص ٧٣.

(٣) الجويني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٩ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٩٩ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٢٤٣ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ، ص ٥٨٣ .

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٦ ، ص ٣٠٠ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ ؛ رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغزائي، ص ١٨٨ ؛ القرمانلي ، تلفيق الأخبار، ج ٣ ، ص ٤٨٨ ؛ بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ، ص ١٩٩ ؛ الفقي (عصام) ؛ الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، ص ١٦٨ ؛ السيد ، التتار والمغول، ص ٦٠ ؛ عمران ، المغول وأوربة، ص ٣١ .

(٦) التاريخ السري، ص ١٣٩ .

(٧) رشيد الدين الهمذاني ، التاريخ الغزائي، ص ١٦٣ .

(٨) المصدر نفسه، ص ١٦٣ - ١٧٦ ؛ التاريخ السري، ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ فلاديمير ستوف (ب.يا) : حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية ، ترجمة : سعد بن محمد الغامدي ، الرياض ، جامعة الملك سعود ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٢٦ .

(٩) التاريخ السري، ص ١٤٢ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٦٠ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٢٢.

(١٠) التاريخ السري، ص ١٤٣ - ١٤٧ .

استطاعت تجاوزها كحادثة أسر تيموجين ، ومن بعد ذلك سرقة خيولها ^(١). وعندما بلغ تيموجين السادسة عشر من عمره توجه إلى إحضاره زوجه بورته من مضارب أسرتها ، وفعلاً جاءت العروس الجديدة لتتضم إلى الأسرة الصغيرة محضرةً معها كهدية معطفاً أسود من فراء السمور ، سيستغله الزوج لإنشاء أول تحالف له مع توأوريل صديق والده القديم وحاكم الكيريت ^(٢)، لذا بدأ تيموجين بالبروز رويداً، ولكن لم تدم سعادة الزوجين إلى الأبد ، فقد هاجم المركيت مضارب الأسرة على حين غرة وتمكنوا من أسر بورته زوجة تيموجين ، وأم بيلغوتي ، وخادمة الأسرة وذلك بسبب عداوة قديم بين والد تيموجين وقبائل المركيت ^(٣)، وتمكن تيموجين من النجاة طالباً المساعدة من حاكم الكيريت ومن جاموقا ^(٤). وفعلاً ساعده وتمكنوا من تشكيل تحالف بلغ عدد أفرادهم أربعين ألفاً، انتصروا فيه على المركيت وقتلوهم وأسروا الباقي وأنقذوا الزوجة ، وكان هذا أول نصر يحرزه تيموجين على أعدائه وكانت له قيمة مادية ومعنوية كبيرة ^(٥). استمرت الصداقة والتحالف بين تيموجين وجاموقا لسنة ونصف السنة فقط ، إذ سرعان ما زالت الصداقة بينهما لأسباب تبدو واهية ولكنها تشير للصراع الطبقي الدائم في مجتمع المغول ^(٦). بعد انفصال تيموجين عن جاموقا وانضمام الكثير من أفراد القبائل إليه اجتمع ثلاثة أشخاص برزوا بين القبائل دُعي أحدهم ألتان والثاني قوجار ^(٧) والثالث ساجابيككي ^(٨) على ضفاف نهر الكيرولين واتفقوا على تنصيب تيموجين خاناً حيث قالوا: " نحن سوف نجعلك خاناً " ^(٩)، وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان حيث تحدث عن ذلك مؤلف التاريخ السري فقال: "عملوا تيموجين خاناً ، وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان " ^(١٠). وفي أثناء تنصيبه خاناً وعدوه بملاحقة أعدائه ، وإحضار الفتيات الجميلات له ، وجميع الخيول الرائعة، والخروج للصيد لجمع أكبر قدر من الغنائم له ^(١١). لم التاريخ السري زمن هذه الواقعة ، ولكنه قرننها في أواخر السنة الثانية التي أعقبت انتصارهم على المركيت . هكذا كانت رواية التاريخ السري المتعلقة بتنصيب تيموجين خاناً، وإطلاق اسم جنكيز خان عليه، ولكن لم تفصل الرواية في سبب تغيير اسمه الأصلي، أو هل كان للاسم دلالات دينية

(١) التاريخ السري، ص ١٥٠ - ١٥٦ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٧١ - ٧٥ .

(٢) التاريخ السري، ص ١٥٧ - ١٥٩ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٨٤ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٢٧ .

(٣) التاريخ السري ، ص ١٦٠ - ١٧٠ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) جاموقا: انظر تعاريف ص ٣٤٥

(٥) التاريخ السري، ص ١٧٥ - ١٨٤ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٩٠ - ١٠٠ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٢٤

(٦) التاريخ السري ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٧) انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٨) انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٩) التاريخ السري، ص ١٩٣ .

(١٠) المصدر نفسه ص ١٩٤ .

(١١) المصدر نفسه، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

عسكرية. أم سياسة ؟ ولم يحدد الزمن كذلك ، إذا ما وضعت الرواية السالفة جانباً ، وتمت مطالعة الروايات الأخرى فإن بعضها تحدث عن أن تيموجين لُقّب بهذا اللقب بعد انتصاره على الكيريت سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أو بعد أن انتصره على النيمان سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م^(١). ومنهم من أشار لكونه نصب خاناً على فئة من المغامرين^(٢)، ومهما يكن الأمر فإن التاريخ السري هو الرواية شبه الرسمية عن تاريخ المغول في مراحل حياتهم المبكرة لذا لا بد من الأخذ بها وترجيحها على باقي الروايات الأخرى . جنكيز خان^(٣)، أم جنكز خان^(٤)، أم تنكز^(٥) لفظة اختلف المؤرخون في تحليل معناها فابن خلدون فسر الكلمة حيث قال : " جنكيز خان بمعنى الملك عندهم "^(٦). أما غيره فإنه فسر الكلمة على أنها لفظة أويغورية مؤلفة من مقطعين المقطع الأول خيك بمعنى المستقيم أو ثابت القوي ، وكيز بمعنى جبار فيحمل كلّ معنى الشديد القوي أو الجبار^(٧)، كما أن المفردة فُسرت على أنها تحريف لكلمة صينية وهي تان تزه ومعناها ابن السماء ، أو من كلمة أخرى وهي شنج سز ومعناها الجندي الكامل ، أو هي صيغة الجمع من الصفة جنك ومعناها القوي^(٨). بالتالي فإن الكلمة تحمل مدلولات تشير إلى القوة والبأس وغيرها من الصفات المرتبطة بالشؤون العسكرية ، كما تحمل دلائل دينية،و تلك الدلائل التي تحدث عنها الجويني فأشار إلى أن شامانياً يدعى تب تنكري أطلق على تيموجين لقبه ذاك وتنّبأ له بمستقبل باهر^(٩) وقد نقل الرواية ذاتها ابن العبري وضمنها كتابه^(١٠). ما يهم في الأمر أن جنكيز خان بعد تنصيبه خاناً شرع في تنظيم شؤون مملكته فعين أشخاصاً لرعاية الخيول ، وآخرين للاهتمام بالأغنام وثالث مسؤول عن جعبة السهام ورابع مسؤول عن خزانة المؤن ، وخامس يهتم بمطبخ جنكيز خان^(١١). بالتالي بذر البذرة الأولى لكيانه السياسي الجديد ، ذلك الكيان الذي كان أول المعترفين به هو تو أوريل خان الكيريت^(١٢).

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مرجع سالف ، ج ٧ ، ص ١٣٠ ؛ الصياد ، مرجع سالف ، ص ٤٨ ، ٤٩ ؛ شبارو ، السلاطين في المشرق العربي ، ص ٣٦ ؛ غنيمات ، الجيش المغولي، ص ٣٥ ،

(٢) الفقي ، الدول المستقلة في المشرق منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، ص ٨١ .

(٣) التاريخ السري، ص ١٩٤ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ ؛ النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٦ ، ص ٣٠٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ، ص ٥٨٣ .

(٥) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار التراث، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٦) تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ، ص ٥٨٣ .

(٧) فاميري ، تاريخ بخارى، ص ١٦٢

(٨) غروسية ، مرجع سالف ، ص ١٠٧ ؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج ٧ ، ص ١٣٠ .

(٩) تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٧١ .

(١٠) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٦ .

(١١) التاريخ السري، ص ١٩٤ - ١٩٧ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .

٢ . سياسة جنكيزخان نحو من جاوره من القبائل المغولية :

نصّب جنكيز خان خاناً وعليه؛ كان لابد له من تنظيم شؤونه الداخلية ، تلك الشؤون التي كانت تحول دون توجيه نظره إلى خارج إطار منطقته ، لذا أراد البدء بالقبائل المغولية والعمل على تسوية وضعها ، وتميزت سياسة جنكيز خان على العموم بالعدائية ، ولقد استطاع القضاء على معظم القبائل ، وطريقة قضائه عليها هو ما سيتم استعراضه فيما يلي :

وجه جنكيز خان جهوده بدايةً باتجاه أعدائه القدامى الذين سببوا موت والده وهم التتار لذا فإنه حاربهم مرتين في الأولى بتحريض من حاكم الصين ، وقد تمكن بمساعدة توأوريل من الانتصار عليهم ولكن لم يكن ذلك النصر حاسماً بل إن هؤلاء استعادوا شيئاً من قوتهم ، وأعادوا تنظيم صفوفهم ، مما دفع جنكيز خان للاصطدام بهم من جديد وذلك سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م في دالان نيمورغيس، ولقد تمكن من الانتصار عليهم وأرغمهم على الالتحاق بقبيلته وبدد شملهم وقتل قسماً كبيراً منهم^(١)، واتخذ لنفسه زوجةً منهم وهي ييسوي ابنة ييكي جيرين^(٢) بعد ذلك اتجه لتأديب الجوركين الذين أساءوا له في أكثر من حادثة ولكنه كان يصفح عنهم باستمرار، ولكن الآن حان وقت تأديبهم، فاتجه إلى ضفاف نهر كيرولين حيث التقى بهم وتمكن من هزيمتهم وقتل قادتهم وتخريب معسكرهم^(٣)، كما قضى كذلك الأمر على التايجيوت أعدائه وأقربائه القدامى الذين أسروهم في مرحلة من مراحل حياته، وعاملوه بإذلال واحتقار ، لذا سعى لتأديبهم، وتمكن من ذلك فعلاً على وادي نهر أونون، حيث اشتبك معهم في معركة قوية ، انتهت بانتصاره وكان من نتيجة هزيمته للتايجيوت أن انضم لخدمته جبه خادم تودوغي مقدم التايجيوت ، جبه ذلك الذي أعجب جنكيز خان به لشجاعته وصراحته لذا أطلق عليه اسم جبه والذي يعني السهم لمهارته في إطلاق السهام بدلاً من اسمه الأصلي جيرقو أدائي^(٤)، وسيكون له دورٌ كبير في المستقبل فهو يعدّ من قادة الجيوش البارزين أيام جنكيزخان، والذين نهضوا بمهمة اجتياح مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان ، أما العدو الأهم الذي شرع الخان في القضاء عليه فهم النيمان الذين أساءوا معاملته حليفه أونغ خان بل أقدموا على قتله فيما بعد^(٥). كما أنّهم عدّوا أنفسهم في منزلة أعلى من المغول بل سخروا منهم ، ومن أشكالهم وعدّوهم بمثابة خدم لهم، لذا كان لابد من تأديبهم^(٦) وتحرك جنكيزخان باتجاههم في سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وتمكن من الاشتباك مع طلائعهم بدايةً ولكن باستخدامه الخداع وذلك بإيهام عدوه بزيادة عدد جيشه ، أدخل

(١) التاريخ السري، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ١١٨ - ٢٠٠ .

(٢) التاريخ السري، ص ٢٣١ ؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ١٤٠ .

(٣) التاريخ السري، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) التاريخ السري، ص ٢١٧ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ١٣٧ .

(٥) التاريخ السري، ص ٢٧٢ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ ، ص ٤١٦ .

(٦) التاريخ السري ، ص ٢٧٣ .

الربح في نفوسهم وتمكن من محاصرتهم في السفوح الجنوبية لجبال ألتاي ، وقضى عليهم حيث سقط معظم النيمان قتلى ، وأسرى وقتل في المعركة حاكمهم تايانغ خان أما ولده كوجلك فتمكن من الفرار^(١) وهكذا قضى جنكيز خان على القبائل التي أساءت معاملة المغول كالنيمان والمركيت، كذلك الذين أبادهم بشكل كامل سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م و وزع أفراد شعبهم على قبيلته^(٢) وغيرهم الكثير الذين لم يظهروا الولد للمغول بل سعوا بشتى الطرق للقضاء عليهم . هذا فيما تعلّق بالقبائل التي أظهرت العداء للمغول منذ البداية ، ولكن هناك مجموعة من القبائل كانت مؤيدة للخان وداعمة له ولكن لسبب ما انقلبت عليه ، بل ونازعته أملاكه ودخلت في حروبٍ معه ، لذا لم يرحمها بل تمكن من القضاء عليها كما فعل مع مثيلاتها من القبائل ، هكذا كان حال الكيريت وحاكمهم أونغ خان الذي عدّ بمثابة أب لجنكيز خان فقد استمرت أوامر الصداقة قائمة بين الطرفين إلى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ولكن سرعان ما بدأت السماء الصافية بالتلبد وساءت العلاقات بين الطرفين^(٣) فاصطدم الخان بهم أكثر من مرة ؛ الأولى كانت عند دالان نيمورغس حيث تمكن جنكيز خان من سحق جيشهم ولكنه لم يحقق نصراً حاسماً عليهم^(٤) عادت العلاقات من جديد بين الطرفين حيث اعتذر أونغ خان من جنكيز خان على أعماله السالفة وأرسل له بضع قطراتٍ من دمه كدليلٍ على اعتذاره واستمرار ميثاقه على حالته السالفة^(٥)، ولكن سرعان ما ساءت العلاقات من جديد وتحرك جنكيز خان نحو مضارب الكيريت حيث اصطدم معهم في معركةٍ استمرت لثلاث ليالٍ انتهت بهزيمتهم وفرار أونغ خان وولده الذي هام في السهوب وقتل في النهاية على يد النيمان^(٦)، انتهت حياة أونغ خان تلك النهاية المأساوية على يد النيمان بعد أن بدد جنكيز خان شعبه ذلك الشعب الذي ساعد جنكيز خان في كثير من المعارك، ومد له يد العون ولكن نتيجةً لمجموعةٍ من الأسباب مردّ بعضها للطمع أو الغيرة وبعضها الآخر لتدخل جماعات مناوئة هدفها تأليب أونغ خان ضد جنكيز خان ، وبعضها الآخر للخوف من ازدياد نفوذ الخان وبلوغه مكانةً أعلى منه ، فكان عليه التخلص منه ولكن ما حدث أن انقلبت المعايير وذلك لعدم اخلاص بعض الفئات للأونغ خان ، ولقوة جنكيز خان وامتلاكه جيشاً قوياً استطاع بواسطته انزال هزيمة ساحقة بجيشٍ لا يستهان به .

(١) التاريخ السري، ص ٢٨١ - ٢٨٧ .

(٢) غروسية ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ١٨١ - ١٩٢ ؛ عمران ، المغول وأوربه ، ص ٣٣ .

(٣) التاريخ السري، ص ٢٣٦ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٢٧ - ٢٨ . غنيمة ، الجيش المغولي، ص ٣٤ ؛ عمران ، المغول وأوربه ، ص ٣٢ .

(٤) التاريخ السري، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ٢٦٦ - ٢٧٢ ؛ رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣ ، ص ٤١٥ .

لابد من الإشارة بأن مؤرخين كثر تناولوا قضية الصراع بين أونغ خان وجنكيز خان في رواياتهم ولكن بشكلٍ مغايرٍ لما ورد في التاريخ السري فهم أطلقوا عليه اسم أونك خان وعدوه ملكاً على الترك، توسم النجابة بجنكيز خان فقربه إليه ولكن حسد الحساد أدى إلى أن تسوء العلاقات بينهما فحاول تدبير مؤامرة لقتله ولكنه نجا ، فما كان منه إلا أن حشد جيشاً كبيراً تمكن بواسطته من الانتصار عليه وقتله^(١). وهذا يتعارض مع رواية التاريخ السري والتي تشير إلى أن وفاته كانت على يد رجلٍ نيماني وليس في ساحة الوغى^(٢).

وهكذا تخلص جنكيز خان من شخصية قيادية كما تمكن من التخلص كذلك من عدوه الثاني جاموقا وذلك سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م^(٣).

لابد من الإشارة إلى أن الحروب التي خاضها جنكيز خان ضد من جاوره من القبائل تمثلت فوائدها في توحيد القبائل جميعها تحت رايته، وذلك بعقدتها اجتماعاً سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م نادت به حاكماً أعلى عليها^(٤)، ومن فوائدها كذلك ازدياد تجربة المغول وخبرتهم القتالية وتمرسهم على القتال في شتى الظروف، كذلك وفرت الأسلحة اللازمة لجنكيز خان لتشكيل جيشٍ قادر على التحرك نحو الخارج ، كذلك أدت لظهور قياداتٍ جديدة سواء أكانت تلك القيادات قياداتٍ سياسية ببروز قادة قبائل لم يكن لهم دور وأهمية من قبل ، أو قياداتٍ عسكرية كان لها دورٌ كبيرٌ في إحراز جنكيز خان لانتصاراته في الخارج واجتياحه لمناطق الشرق الإسلامي، موضوع النقاش في الفصول الثلاثة التالية من الأطروحة .

٣ . سياسة جنكيز خان العسكرية :

امتازت سياسة جنكيزخان العسكرية بحرصه على تقوية جيشه الذي عدّ عماد دولته الناشئة ذلك الجيش الذي مكّنه من التصدي للأخطار التي أحذقت به ومن الظهور كشخصية ذات هيبة وقوة بين المغول . كما مكّنه من الانتصار على قبائل التتار والنيمان والكيريت والتربع على عرش المغول ، كان ذلك الجيش ضرورياً فهو استطاع بواسطته التوسع نحو الخارج ومدّ نفوذه باتجاه الشرق والغرب ، وتمكن أيضاً من إنشاء امبراطورية واسعة، وقد ساعده فعلاً فقد استطاع اكتساح الصين والاندفاع نحو مناطق بلاد ما وراء النهر واجتياحها والوصول إلى أطراف العراق. وتميز ذلك الجيش بمميزات كثيرة ، وكانت له قوانين خاصة ، كما اتصف الجندي المغولي بصفات عديدة واستخدم أسلحة متنوعة وكلّ هذه الاشياء سيجري تبيانها فيما يلي :

(١) الجويني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٩ ؛ القلقشندي ؛ الصبح الأعشى في صناعة الأنشاء، ج ٤ ، ص ١٠٢ ، العمري ، مسالك الأبصار، السفر الثالث ، ص ١٠٢ .

(٢) التاريخ السري ، ص ٢٧٠-٢٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٩-٣٠٠ ؛ فلاديمير ستوف ، حياة جنكيز خان، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٤) التاريخ السري، ص ٣٠١ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٢٧ - ٢٩ .

بدايةً كان المغول مقاتلين بالفطرة فهم منذ نعومة أظفارهم اعتادوا على التدريب على القتال، وركوب الخيل ومواجهة الصعاب ، فاستطاع الخان استغلال تلك الأمور وجمع حوله عدداً كبيراً من المقاتلين حقق بهم انتصارات على أعدائه ^(١)، و تناول عدد من الباحثين والمؤرخين ذلك الجيش في كتاباتهم وهنا تطالع القارئ كلمات الجويني واصفاً ذلك الجيش حيث قال : " لم يعهد لجيشٍ ما منذ عهد آدم حتى الآن أن احتل ما احتله جيش جنكيز خان ، كما لم يذكر في كتاب أن تمكن ملك من السيطرة على جيشه كما هو حاصل مع جيش التتار ، فهو على الشدة صابر وللرفاهية شاعر ، يطيع أميره في السراء والضراء ، وهذا العمري أفضل القواعد في ميدان إعداد الجيوش " ^(٢)، بالتالي فإن الجويني أصابته الدهشة من ذلك الجيش الذي لم يشبه غيره من الجيوش والتي وجدت منذ الخليقة حتى زمنه ، فهو مطيع طاعة عمياء لسيده ، تلك الطاعة التي تحدث عنها كذلك في موضع آخر من مؤلفه ^(٣)، وأشار إليها مؤلف التاريخ السري ^(٤).

تكون ذلك الجيش من الحرس الشخصي أو الخاص أو ما دعي باسم الكيشيغ ^(٥)، بلغ عددهم قبل سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م " مئة وخمسين مقاتلاً " سبعين مقاتل للحرس النهاري، وثمانين للحرس الليلي ^(٦). ولكن فيما بعد ازداد ذلك العدد حتى أضحى " عشرة آلاف مقاتل " ^(٧)، وقسم ذلك العدد إلى عشر وحدات كل وحدة مؤلفة من ألف مقاتل وعين قواداً على كل وحدة ، وكانت مهامهم الأساسية حراسة خيمة جنكيزخان حسب جدول خدمة معين فكل مجموعة تبقى في الخدمة لمدة ثلاثة أيام بلياليها ، وبعد ذلك ترتاح لتحل مكانها أخرى وهكذا ، وكل مخالف كان يعاقب عقوبة تزداد شدتها بارتكابه للمخالفة أكثر من مرة ^(٨). وكانت لهم مهام إدارية أخرى كالإشراف على خادמות قصر الخان ، والاهتمام بالعربات وشؤون المطبخ ، وتأمين الأسلحة للجنود وغيرها من الأشياء ^(٩). ولقد عدّ الحرس الخاص أعلى مكانة من قواد الجيش الآخرين ^(١٠). ولقد تكون الجيش أيضاً من الفرسان الأقوياء الذين قضوا معظم حياتهم على ظهور خيولهم ، وارتدى هؤلاء قميصاً داخلياً من الحرير ، وهذا الأمر جرى تعلمه من الصينيين ،

(١) غنيمات ، الجيش المغولي، ص ٣٨ .

(٢) تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٦ .

(٤) التاريخ السري، ص ٣٢٧ .

(٥) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٢ ؛ Reynold (wayne): Mongol warrior , osprey publishing , Great Britain , ٢٠٠٨ , P, ٢٨

(٦) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٢ .

(٧) التاريخ السري، ص ٣٢٥

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٢٩ ؛ بارتولد ، تركستان، ص ٥٥٠ .

(٩) التاريخ السري، ص ٣٣٦ - ٣٣٨ .

(١٠) بارتولد ، تركستان، ص ٥٥٠ .

يضاف إليه سترة من جلد الثيران ، وواقيتي ساقين مصنوعتين من الجلد المغطى بصفائح حديدية^(١) ، أما سلاحه فقد كان عبارة عن ترس مجدول من الأغصان^(٢) أو مؤلف من ألواح مربوطة بالجلد^(٣)، إضافة إلى الخوذة من الجلد ، ويتسلح بقوسين مركبتين من قطع من العظام، وجعبة كبيرة تحتوي على ستين سهماً، إضافة إلى سيف صغير وعدد من الحراب ، وسيف طويل^(٤). وحمل على ظهر حصانه إضافة لذلك قدرًا صغيراً ولحماً مجففاً ، وقارورة ماء ومبرد لشحذ سهامه ، وكل هذه الأشياء احتوتها حقيبة سرجه والتي صنعت من معدة الأبقار فهي عازلة للماء وقابلة للنفخ تساعد على العوم أثناء عبور الأنهار^(٥)، و حملت كل هذه الأشياء في أثناء الحملات الضخمة التي قاموا بها ضد الغرب والتي استغرقت منهم أشهراً، فكان كل جندي يحمل معه ما يكفي من المؤن ، وعندما تنفذ ذخيرته كان يلجأ لشرب حليب خيوله ، وتناول لحوم الوحوش، أو العيش على دم شريان حصانه حيث يبقى حياً لبعض الوقت إلى أن يتمكن من العثور على شيء يقتات به^(٦). و تألف الجيش كذلك من فرق المشاة ومن النشابين الذين امتهنوا إطلاق السهام ببراعة^(٧)، يضاف إليهم الكشافة والذين أطلق عليهم لفظة "يام" والتي تعني الاحتياطي^(٨)، و تألفت من مجموعة من عناصر مهمتهم الأساسية إيصال الأخبار إلى الجيش . وتزويده بأوامر الخان وكان لها مكانة مهمة^(٩). وتألف الجيش كذلك من فرق أخرى ألحقت به فيما بعد ولا سيما بعد اجتياح مناطق الصين وما وراء النهر، ومنها فرقة رماة المنجنيق^(١٠) اهتموا بآلات القذف والتي تعرف عليها المغول من الصينيين وطوروها بعد اجتياحهم لديار الإسلام كالمنجنيق والعرادة^(١١) وغيرهما من آلات القذف والتي كان هدفها قصف الأعداء داخل مدنهم أو رميهم بالمنجنيق من داخل المدن إلى الخارج ولقد ساعدتهم تلك الأسلحة في اجتياح

(١) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٧ ؛ شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٢٧٥ ، ٣٧٧ ؛ Reynold MongolWarrior .D٢٥

(٢) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٨

(٣) التاريخ السري ، ص ١٧٧

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٨ ؛ شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٣٧٧

(٥) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٨

(٦) شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٣٧٧

(٧) غنميات ، الجيش المغولي، ص ٥٥ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٩٩

(٨) الجويني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٧

(٩) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٧ - ٦٨

(١٠) المنجنيق : آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الجمر ، ويجذب حتى ترفع أسفله على العالية ، ثم يرسل فيرتقع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج منه الحجر حتى يحقق الهدف المطلوب ، الطرسوسي (رضي بن علي ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) : موسوعة الأسلحة القديمة ، تحقيق : كارين صادر ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٩٨ ، ص ١٩٣

(١١) العرادة : عبارة عن آلة تصغر عن المنجنيق قليلاً وترمى بها الحجارة لمسافات بعيدة ، زكي (عبد الرحمن) : السلاح في مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٤ م ، ص ٤٠ .

المدن الكبرى ^(١) . وغيرها من الفرق التي تكون منها الجيش المغولي، والذي حرص جنكيزخان على تنظيمه بدقة وتأسيسه على نظام عشري، فقد كان كل "عشرة جنود" يؤلفون وحدة يطلق عليها "أربان" ، وكل "مائة رجل" يؤلفون فرقة تسمى "جاغون" ، وكل "ألف رجل" يشكلون "تومان" ، وكل عشرة تومانات يؤلفون فرقة مستقلة بذاتها ^(٢) .

بالتالي تكوّن من قواد عشرات ومئات وألوف وهؤلاء جميعهم وجب عليهم الطاعة العمياء لجنكيزخان ^(٣) ، و تباين عدد ذلك الجيش والذي بلغ عند رشيد الدين الهمذاني " مئة وتسع وعشرون ألف مقاتل " ^(٤) ، وفي التاريخ السري تحدث المؤلف عن وجود " خمسة وتسعين قائداً للألوف " أي بلغ عدد الجيش " خمسة وتسعين ألفاً " ^(٥) تضاعف فيما بعد ولا سيما بعد اجتياح الصين وبلاد ما وراء النهر .

في الختام كان الجيش المغولي يحيا حياة قتالية بشكل دائم ، فهو إن لم يشارك في معارك قضى أوقاته بالتدرب على القتال والقنص بشكل دائم، ولكن ليس على البشر وإنما على الحيوانات ، حيث كان يدخل ضمن معسكرات مغلقة تستمر لمدة ثلاثة أشهر ^(٦) ، ولقد أوضح العديد من المؤرخين الهدف الأساسي من الصيد فقال ابن الطقطقي عن ذلك الأمر: " غرض الصيد تمرين العساكر على الركض والكر والعطف، وتعويدهم الفروسية وإدماهم للرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسفك وتقلل المبالاة بإراقة الدماء وغصب النفوس ، واختبار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض ، وحركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم، وتحفظ صحة المزاج " ^(٧) بالتالي تعدّ حلقات الصيد ميداناً للتدرب على القتال ، كما أنها مصدر أساسي لتموين الجيش بما يحتاجه من المؤن اللازمة لحملاته الطويلة ^(٨) . هكذا كانت سياسة جنكيزخان العسكرية قائمة في أساسها على الجيش والذي كان عبارة عن فرق من المقاتلين غير منظمين بشكل فعلي ولكن بعد سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م عمد جنكيزخان إلى تنظيمه وتطويره وتأسيس قواعد وقوانين خاصة به ميزته عن باقي الجيوش الأخرى التي وجدت

(١) مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٩٩ ؛ غنيما ، الجيش المغولي، ص ٦١

(٢) الجوني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٦ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٧

(٣) فلاديمير ستوف ، حياة جنكيزخان ، ص ٩٣ ؛ بارتولد ، تركستان ، ص ٥٤٨ ؛ A.Rusanovsky (Valentin) :Fundamental

Principles of Mongol law ,Indiana, Indiana University.publication. ١٩٦٥. P٣٤

(٤) التاريخ الغازاني، ص ٢٩٦

(٥) التاريخ السري ، ص ٣٠٢

(٦) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٥٤ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٨

(٧) الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٥٤

(٨) التاريخ السري ، ص ٣٣٧ ؛ الجوني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٣ ؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٤٠٢ ؛

مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٨-٣٩

في المنطقة ليس فقط بطاعته العمياء ، وإنما بكثرة أعداده التي لا حصر لها ، وبنظامه وشجاعة جنوده الذين كانوا يقاتلون حتى الموت أو النصر ، وهذا ما مكن جنكيزخان بالتالي من اجتياح مشرق العالم الإسلامي، وإبادة سكانه، الذين كان يصيبهم الهلع لمجرد ذكر أخبار تقيد باقتراب الجيش المغولي منهم ، مما يشير للهالة العظمية التي أحاطت بذلك الجيش ومكن من تحقيق انتصارات باهرة ليس في المشرق فقط بل في أربه وذلك في عهد أولاده وأحفاده من بعده وذلك سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

٤. الياسا (الدستور المغولي)

الشرعية والدستور والأنظمة أشياء أساسية في حياة الشعوب منذ بدء الخليقة لجأ الإنسان لوضع أسس وأعراف نظمت حياته وحددت واجباته وحقوقه . ووضعت قواعد الجزاء والعقاب بدأت بشكل بسيط بداية، ومع مرور الزمن تطورت وأخذت أشكالاً وصيغاً كثيرة . والمغول شعب من الشعوب التي عاشت على الأرض ، فلا بد لهم من قواعد ناظمة لحياتهم البدائية التي حكمتها بدايةً أعراف وتقاليد ميزت مجتمع السهوب عن غيره من المجتمعات . ولكن بعد أن استلم جنكيزخان القبائل المغولية سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ارتأى بثاقب بصره ضرورة وضع مبادئ يقوم عليها كيانه السياسي الناشئ، وينظم حياته الاجتماعية والعسكرية والسياسية، ويضع جزاء لكل مخالف لقوانين الدولة لذا وضع ما سمي بالياسا^(١). وهي لفظة تعني القانون أو المذهب أو الرسم^(٢)، ولقد أطلق على تلك القوانين والنظم مسميات كثيرة تباينت من مؤلف لآخر، فمن المؤرخين من أطلق عليها لفظة "يسا أو "يسق" وعدّها نظاماً وضعه جنكيزخان من قبله لضبط الأمور^(٣)، وآخر عدّها شريعة وأسمّاها الأسا^(٤)، وثالث أطلق عليها اسم اليساق^(٥)، أما ابن واصل فاسماها الأسه^(٦)، بينما اتفق كل من القلقشندي والذهبي على إطلاق لفظة ياسه عليها^(٧)، أما ابن تغري بردي فوردت لديه على صورة اليسق، وفسر معناها على أنها الترتيب وأصلها سي يسا، وهو لفظ تركي مركب من أعجمي وتركي معناه الترتيب الثلاث، لأن "سي" بالعجمية العدد ثلاثة ، أما "يسا" بالتركية الترتيب^(٨)، أما في التاريخ السري فذكر

(١) العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث ، ص ١٠٦ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٥ ؛ فاميري ، تاريخ بخارى ، ص ٦٣ ؛ سليم (صبري عبد اللطيف) : المغول وعالم الإسلام، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٢٠٧ م ، ص ٢٣ ؛

حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج٤، ص ١٣٠

(٢) شبارو ، السلاطين في المشرق العربي ، ص ٣٧ ؛ غنيمات ، الجيش المغولي، ص ٧٣ .

(٣) الرمزي ، تلفيق الأخبار ، ج٢، ص ٣٥٧

(٤) زكار ، أخبار المغول ، القسم الخاص بابن العميد ، ص ٢٢ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٣١

(٦) مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب، ج ٤، ص ٣٧ .

(٧) سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٢٢٨ ؛ صبح الأعشى في صناعة الأنشأ، ج ٤، ص ٣١٤ .

(٨) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٨ .

على أنها السجل الأزرق^(١). ومهما كان الاسم الذي أطلق على تلك القوانين فإنها نسبت إلى جنكيزخان والذي أجمع المؤرخون على عده واضع الياسا ، وضعها بنفسه ولم يستعن بأية قوانين أخرى ، وقد تحدث المؤرخون عن كيفية وضعها فأشاروا إلى كونه لم يستعن بسير الملوك، ولم يطالع كتاباً لكونه أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإنما استن تلك القواعد من ذهنه^(٢)، وأضاف إليها بعض الأعراف والتي توافق عقله، ورأها حسنة مناسبة لكيانه السياسي^(٣). دونت تلك القوانين بالخط الأويغوري وحفظت في خزانة الخان كي يستعان بها في أوقات الحاجة^(٤) ، و لا بد من إشارة بأن تلك القوانين عدت مقدسة لأنها تمثل كامل وحي الرب المتضمن تعاليمه للبشر ، لكون خادمهم مقدس، فهو ابن الرب، بل الرب على الأرض ، والخان وحده هو المسؤول عن تسجيلها وتغيير الأشياء فيها إذا اقتضت الحاجة^(٥).

بعد تلك المقدمة التي تضمنت تفسيراً لمعنى الياسا والألفاظ التي أطلقت عليها من قبل المؤرخين الفرس والعرب ، لا بد من التطرق بعض الشيء لما احتوته من قوانين فقد قسمها أحد الباحثين المعاصرين لخمس أقسام^(٦): القسم الأول : خاص بالقوانين التنظيمية الاجتماعية والحضارية ، بينما الثاني : اهتم بتنظيم الشؤون العسكرية ، والثالث : عبارة عن قانون جنائي، أما الرابع : فهو قانون خاص وسري ، والخامس : قوانين تتناسب وأعراف سكان السهوب^(٧). تتناول قوانين الياسا بالذكر الجويني فتحدث عنها وتطرق بشكل خاص للقوانين الخاصة بالجيش وقواعد تنظيمية أكثر من باقي الأمور الأخرى، لذا لن يتم التطرق لذكرها وتعدادها حرصاً على عدم الإطالة^(٨)، حتى أن الجويني لم يذكر القوانين ككل بل ختم حديثه عنها بقوله : " وأمثال هذه القوانين كثير ويتطلب اثباتها كلها حيزاً كبيراً فاقصرت على ما ذكرت"^(٩). ولقد تطرق المؤرخون العرب كذلك للحديث عن قوانين الياسا، وأورد كل من العمري والقلقشندي في كتابهما بنوداً كثيرة منها ، كانت أوسع وأضخم مما أورده الجويني ، وتعلق قسم كبير منها بالأعراف

(١) التاريخ السري ، ص ٣٠٢

(٢) العمري ، مسالك الأبصار، السفر الثالث ، ص ٣٠٦ ؛ القرمانلي ، تلغيق الأخبار، ج ٢، ص ٤٨٩ . ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ، ص ٥٨٣ .

(٣) القلقشندي ، الصبح الأعشى في صناعة الأنشأ، ج ٤ ، ص ٣١٤ ؛ فامبري ، تاريخ بحارى، ص ٦٣ ؛ الأمين ، اسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٧٧ .

(٤) الجويني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦١ .

(٥) فولسكي ، العرب وإيران دراسات في التاريخ والأدب ، ص ١٨٧ .

(٦) A. Rusanovsky , Mongol Law , P٣٤ .

(٧) A. Rusanovsky , Mongol Law , P٣٤- ٣٥

(٨) تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٣ - ٧٠ ؛ حسن (نزار) : مدى تطبيق القوانين المغولية في السلطنة المملوكية ، مقال منشور في مجلة دراسات تاريخية العددان ٩٣- ٩٤ ، ٢٠٠٦ م ، ص ٨٦ .

(٩) تاريخ فاتح العالم، ج ١ ، ص ٦٨ .

والقواعد النازمة للحياة الزوجية والشؤون السياسية والدينية ، وأموراً تتعلق بالصيد والطاعة لأوامر الخان ، وكيفية التعامل في الحروب ومع الأُسرى ، وضرورة التشارك في الطعام، يضاف إليها بعض الأشياء التي تتعلق بأسلوب الحياة اليومية وطريقة ذبح الحيوانات ولا مجال لتعدادها هنا حرصاً على عدم الإطالة ^(١) .

ولكن سيتم الإشارة لبندٍ واحدٍ لتعلقه بحادثة معينة وهو : " من بال في الماء قتل ، ولا يجوز غسل الثياب البتة، بل تلبس حتى تبلى " ^(٢) هذا القانون يشبه ما نصح به الراهب الطاوي جنكيز جنكيز خان فقد أشار على الخان بعدم الاستحمام في الماء الجاري، وتبديل الملابس حيث قال " لقد سمعت إنه من أجل تجنب غضب السماء ، عليك أن تمنع أهل بلادك من الاستحمام في أثناء الصيف ، وألا يغسلوا ملابسهم ، ولا يصنعوا لبداً جديدة ، ولا يجمعوا الفطور من الحقول ، فهذه الأعمال ليست السبيل لخدمة السماء " ^(٣). ومرد ذلك التحريم لتجنب إغضاب أرواح الماء، وذلك لكون الصيف هو موسم الصواعق فيلاحظ التشابه بين ما تحدث عنه الراهب وبين ما شرّعه الخان في الياسا مما يدفع إلى الافتراض بأن جنكيزخان قد تأثر بكلمات الراهب وتعاليمه وأدخلها في الياسا الخاصة بتنظيم شؤون دولته .

أعطى جنكيز خان سيغي قوتوقو حق الاشراف على قوانين الياسا وعهد إليه بالسلطة القضائية عندما طلب منه كبح اللصوصية ، وعدم تشجيع الزيف ، وإعدام الذين يستحقون الموت وغيرها من الشؤون القضائية ^(٤)، و فعلاً حرص المغول على تطبيق هذه القوانين بحرفية تامة ولم يشذوا عنها بل استمرت متوارثة جيلاً بعد جيل ، وناظمة لشؤون حياتهم المختلفة ، تلك الحياة التي اعتمدت بشكل أساسي على الغزو والقتال والرغبة في التوسع وضم الثروات.

و في الختام كان المغول أمة من الأمم التي سكنت مناطق معينة أثرت عليها في أشكالها وأفكارها وطعامها ودينها وطريقة تعاملها مع الآخرين ، وكانت لهم صفات خاصة ميزتهم عن غيرهم من الأمم ولم يهتموا بأخذ ما هو جديد بل حافظوا على تقاليدهم وأعرافهم ، وسطع منهم جنكيز خان ، والذي نجح في القضاء على خصومه ولمع في سماء المغول فساعدته هؤلاء ، وتمكن بواسطتهم من القضاء على كافة خصومه ، وحكم منغوليا وقبائلها المتناحرة التي انضوت تحت لوائه، وأنشأ جيشاً استطاع بواسطته اجتياح الشرق والغرب وبث الرعب والدمار في كلِّ

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الأنشاء، ج٤، ص ٣١٤ - ٣١٦ ؛ العمري ، مسالك الأبصار، السفر الثالث ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، السفر الثالث ، ص ١٠٦

(٣) غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٤٠٠

(٤) التاريخ السري، ص ٣٠٢ ؛ مارشال ، عاصفة من الشرق، ص ٣٥ .

مكان ، ووضع قواعد ناظمة لجيشه ودولته وحرّم عليهم تجاوزها ، وهكذا استطاع في أقلّ من ربع قرن من السيطرة على العالم وتأسيس امبراطورية كُتب لها أن تغير تاريخ البشرية .

الفصل الثالث:

اجتياح المغول للدولة الخوارزمية حتى وفاة السلطان علاء الدين محمد سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م:

أولاً: الأسباب التي دفعت المغول لاجتياح أراضي الدولة الخوارزمية.

ثانياً: الاجراءات التي اتخذها كل من المغول والدولة الخوارزمية تماشياً مع حالة الحرب التي أعلنها المغول.

ثالثاً: بدء المغول باجتياح منطقة بلاد ما وراء النهر:

- ١- التوجه نحو أترار و الاستيلاء عليها.
 - ٢- محاصرة جند والاستيلاء عليها .
 - ٣- اسقاط كل من مدينتي بناكت و خجند.
 - ٤- التوجه نحو بخارى والاستيلاء عليها.
 - ٥- اجتياح سمرقند و تخريبها.
 - ٦- اسقاط مركز الدولة الخوارزمية المتمثلة بمدينة الجرجانية (خوارزم).
- رابعاً: ارسال المغول فرقة لمطاردة السلطان علاء الدين محمد ووفاته سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

حقق الخوارزميون نجاحات باهرة في بلاد ما وراء النهر وخراسان، فقد تمكنوا من القضاء على بعض الكيانات المستقلة التي كانت قائمة هناك، ودخلوا كذلك الأمر في صراعاتٍ مع دولة الخطا انتهت بانتصارهم والقضاء عليها ، ولكن للأسف لم تشفع تلك النجاحات للخوارزميين، فسرعان ما تساقطت أركان دولتهم أمام ضربات الموجعة التي وجهها المغول لهم، فقد اجتاح هؤلاء أراضيهم على مرحلتين مسببين الخراب والدمار ، وموجهين ضرباتٍ قاسية وموجعة اتصفت بالوحشية والدموية إلى درجةٍ دفعت المؤرخين لوصفها بأقسى العبارات، فهذا إدوارد براون وصفها بقوله: " هذه الغارة شبيهة بثورةٍ جامحة من ثورات الطبيعة الشاردة، ولكنها لا تشبه في شيء ما نعرفه من أحداث التاريخ الإنساني، لأنها امتازت بالمفاجأة ، والتخريب الشامل، والقسوة النابية، والغلظة الجافية والشدة التي لا تقاوم، والتحطيم الذي لا رحمة فيه، والدمار الذي لا مقصد من ورائه"^(١)، شبه الباحث غزوات المغول بالإعصار الذي يدمر كل شيء في طريقه ولا يبقى بعد زواله أي أثرٍ ينبض بالحياة. ولكن لماذا اندفع المغول إلى المنطقة؟ وما المسبب لذلك الاندفاع والغزو الذي كلّف الإسلام دماءً كثيرة؟ أهو سياسي؟ أم اقتصادي؟ أم عسكري؟ أم ماذا يا ترى ؟ وهل تحركوا بجيوشهم بشكلٍ فجائي غير مدروس؟ أم وضعت خططاً خاصة؟ وهل واجه الخوارزميون ذلك الغزو يا ترى ؟ أم وقفوا حائرين ؟ وما هي المدن التي تلقت الضربات الأولى ؟ وهل وقع اختيارهم عليها لأسبابٍ اقتصادية أم جغرافية أم سياسية؟ وما هو مصير عاصمة السلطان علاء الدين محمد ؟ هذا وأكثر ستتم مناقشته فيما يلي:

أولاً : الاسباب التي دفعت المغول لاجتياح أراضي الدولة الخوارزمية:

تباينت الأسباب التي دفعت المغول إلى التوجه نحو المشرق، فمن المؤرخين من ردّها لأسباب دينية متعلّقة بممارسات الشعوب الدينية التي تعرضت للغزو، فربما هؤلاء ارتكبوا المعاصي أو أهملوا دينهم وشذّوا عنه، أو ظلموا أنفسهم فاستحقوا بالتالي غضب الله وعذابه بأن سلط المغول عليهم^(٢). ومنهم من عدّها قضاءً من الله قدره على هؤلاء القوم^(٣)، وآخرون فسروا هذا الغزو بأنه نتيجة طبيعية لاستجابة الله لدعاء الشيخ نجم الدين الكبري ت ٦١٨ هـ

(١) براون، تاريخ الأدب في إيران ، ص ٥٤٦.

(٢) الرمزي، تليق الأخبار ، ج ١، ص ٣٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٧.

١٢٢١م^(١) على حاكم خوارزم علاء الدين محمد لقتله أحد تلامذته المفضلين لديه مجد الدين البغدادي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م^(٢). ولقد اختلف في سبب قتله، فمنهم من رأى بأن السلطان قد قتله لانتشار اشاعات مفادها وجود علاقة غير شرعية بين ذلك التلميذ وبين والده السلطان تُركان خاتون التي عُرفت بمحابتها للبغدادي وحضورها لمجالس وعظه مما دفع السلطان إلى أمر جنوده بإغراقه في نهر جيحون^(٣). وآخرون حللوا سبب قتله لتصرفات بدرت من البغدادي نحو شيخه وأستاذه الكبرا ، فما كان من الأخير إلا أن دعا عليه بالموت غرقاً ، ولقد حاول البغدادي الاعتذار من شيخه وحمله على مسامحته، ولكن لم يجد ذلك نفعاً فقد توفي غرقاً في نهر جيحون فيما بعد بأمرٍ من السلطان حيث اتخذ قراره هذا تحت تأثير الشراب^(٤)، وعلى الرغم من دعاء الشيخ على تلميذه بالموت إلا أنه حزن حزناً شديداً لموته، فدعا على السلطان لفعلة تلك، ولقد حاول السلطان بشتى الوسائل ثني الشيخ عن دعائه ولكن دون فائدة، حيث أخبره بأن أمر موته وخراب مملكته شيء محتم وقال عبارته المشهورة: "إن هذا القدر مكتوب في كتابٍ معلوم، وسيثأر الله له بزوال مملكتك برمتها، فتموت أنت ويموت كثيرون من رجالك وسأكون أنا أيضاً في عدادهم"^(٥). بالتالي فإن أصحاب الجانب الغيبي يجعلون سبب توجه المغول نحو أراضي الدولة الخوارزمية نتيجةً لغضبٍ من الله أنزله على هؤلاء القوم نتيجةً لدعاء الشيخ الكبرا الذي كانت له كراماتٌ كثيرة.

إنما لا يمكن عدّ الأسباب الغيبية دوافع رئيسية لذلك الاجتياح، ولكن عندما يعجز المرء عن تفسير شيء ما، أو عندما يرغب في تسوية كارثة أو ظلمٍ تعرّض له، يلجأ للدين فيلقي بتبعية هذه الأمور على تقصيرٍ بدر منه أو قضاءٍ أبرمه الله عليه، أو نتيجةً لتصرفٍ بدر من رجل دينٍ يتمتع بشعبيةٍ بين قومه.

إذا كان السبب الأول قد تمحور حول الجانب الغيبي، فإن السبب الثاني تبلور حول شخصية الخليفة العباسي الناصر لدين الله ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، فقد لوحظ بأن بعض المؤرخين

(١) سيأتي الحديث عنه بشكلٍ مفصل ص ١٥٣

(٢) مجد الدين البغدادي: انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٣) الرمزي، تلفيق الأخبار ، ج ١، ص ٣٤٧.

(٤) براون، تاريخ الأدب في إيران ، ص ٦٢٩-٦٣٠؛ فاميري، تاريخ بخارى ص ١٥٦-١٥٧.

(٥) براون، تاريخ الادب في إيران ، ص ٦٣٠؛ بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص ٥٣٧.

عدّوا الناصر المسؤول عن الغزو المغولي لديار الإسلام ولقد استندوا في ادعائهم هذا على ما ذكره ابن الأثير في مؤلفه الكامل في التاريخ، حيث أشار إلى ذلك الأمر في موضعين أحدهما ضمن أحداث سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م حيث قال: " وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر

فكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر " (١).

أما الآخر فقد ذكره ضمن أحداث سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م عندما تحدث عن وفاة الخليفة الناصر حيث قال: " وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك ، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كلّ ذنبٍ عظيمٍ " (٢). يلاحظ بأن ابن الأثير بدايةً لم يصرح بنسبة هذا الأمر للخليفة الناصر ، وإنما أشار لوجود أسبابٍ ليس بإمكانه هو وغيره من الكتّاب التصريح عنها ضمن مؤلفاتهم ، ربما لخوفه لكونه كان معاصراً للناصر وخلفائه، ولكنه مرةً أخرى عاد وذكر في أثناء حديثه عن الخليفة الناصر بأن ما يدعيه الأعاجم من غير المسلمين صحيح، فالخليفة بنظره هو الذي راسل المغول ودعاهم لبلاده. ولكن هل كان لجنكيزخان معرفة مسبقة بدولة الخلافة والكيانات السياسية القائمة في المنطقة، ربما لكون العلاقات التجارية كانت قائمة بين الطرفين فإنه وجد عدد كبير من التجار المسلمين في بلاط الخان الذين زودوه بمعلوماتٍ عن تلك المناطق وعن أهميتها الجغرافية وطبيعة تضاريسها، وبالعودة إلى رواية ابن الأثير لماذا لم يصرح بتهمة السالفة بدايةً، وإنما ترك للقارئ حرية التفكير، وعاد وصرّح في موضعٍ آخر من دون ذكره لبراهين وحججٍ واضحة تدعم أقواله. فهو أشار إلى الأعاجم ولكن لم يفسر من هؤلاء أهم خراسانيين، أم مغول، أم بعض الدويلات التي كانت قائمة في منطقة بلاد ما وراء النهر.

هذا من جانب أما من جانبٍ آخر فهو لم يذكر كيفية الاتصال بين الخليفة الناصر والمغول أكان بشكلٍ مباشر، أم من خلال وسطاء؟ ولماذا دعاهم إلى بلاده؟ فقط ليساعدوه في الخلاص من السلطان علاء الدين محمد الذي قطع الخطبة له وولى بدلاً عنه خليفةً شيعي (٣) خطب له على

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٠٠-٤٠١.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم ، ج ٢، ص ٧-٨.

منابر دولته على الرغم من كون السلطان سني المذهب حنفي الطريقة، ولكنه اختاره شيعياً لعلاقة لذلك الأمر بأحقية آل البيت في الحكم ذلك الأمر الذي يمس مشاعر المسلمين، ويتأثر به الكثير من سكان ما وراء النهر وخراسان، ولا بد من الإشارة بأن عادة اتهام المؤرخين للحكام والموظفين بكونهم شيعة أو انحازوا إلى أحد من الشيعة ليس بالجديد بل هو قديم جديد، وهو الشيء نفسه الذي اتهم به الوزير العلقمي ت. ٦٥٦هـ/١٢٥٨م^(١) فهو لكونه شيعياً اتهم بنصرته لبني جلده لذا والى المغول، وسهل دخولهم إلى بغداد مسقطين حكم الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م^(٢)، في النهاية هل من الممكن أن يستعين خليفة المسلمين بأشخاص وتثين ومجهولين بالنسبة إليه، فالمعلومات عن قوتهم وبيئتهم قليلة ليساعده فقط في الخلاص من كيان مسلم كن له العداء؟

شكلت كلمات ابن الأثير السالفة أساساً لبعض المؤرخين المسلمين في ادعائهم على الخليفة الناصر فهذا ابن كثير^(٣)، وابن سباط^(٤)، والذهبي^(٥) يذكرون الرواية ذاتها من دون زيادة أو نقصان. أما ابن واصل فقد زاد على الرواية السالفة حيث قال: "وقد بلغني أن الخليفة كتب إلى خوارزم شاه كتاباً وضمنه بيتاً يتهده به وهو:

ستعلم إن حانت من الدهر لفتة
عمود دواتي أم سنانك أقوم
وإنما لم يصرح بذلك ابن الأثير خوفاً من الخليفة والله أعلم! " ^(٦). ولقد انفرد ابن واصل بذكر هذه الرواية وصرح بأن خوف ابن الأثير من الخليفة الذي كان معاصراً له هو الذي منعه من الإفصاح صراحةً عن معلوماته، وربما وجدت أسباب أخرى لا يعلمها أحد غير المؤرخ. في النهاية فقد استقى ابن الأثير معلوماته من مصادر غير رسمية، وذلك من أفواه بعض الشخصيات الذين صادفهم لذا لا بد من إخضاع رواياته للنقد، للتأكد من مدى صحتها.

(١) العلقمي: انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٢) الخليفة المستعصم: انظر تعاريف ص ٣٥١

(٣) البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٣٥.

(٤) تاريخ ابن سباط، ج ١، ص ٢٨٦.

(٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط ٦٢، ص ٨٥.

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٤، ص ٣٨.

وإذا ما ترك هؤلاء المؤرخين جانباً وتمّ الانتقال للرمزي وكتابه فيلاحظ بأنه أشار إلى كون الخليفة الناصر قد اتصل بالمغول ودعاهم لبلاده ولكنه أُرِدِف كلماته السالفة بعبارة مفادها أن جنكيزخان لم يستجب لدعوة الخليفة لكونه قد ارتبط بمعاهدة تجارية مع السلطان علاء الدين محمد، ومن غير عادته نقض المعاهدات دون وجود أسباب قوية^(١).

وبعد العرض السالف يلاحظ بأن المؤرخين سارعوا لتصديق رواية ابن الأثير وتضمينها في مؤلفاتهم، هل السبب يعود لشخصية الناصر الذي عُرف عنه إهماله لجوانب كثيرة وقسوته في معاملة عماله ورعاياه؟ أم أن أوضاع الخلافة العباسية المتردية دفعتهم لذكر تلك الرواية؟ أم أن الانسان عندما يعجز عن تفسير شيء ما يلقي بتبعية الأمر على شخص معين أو حادثة معينة؟ وما يلاحظ أيضاً أن المؤرخين الفرس الذين أُرخوا للمغول وعملوا في بلاطهم لم يتطرقوا لهذه الرواية إن وجدت فعلاً ، وكانت موثقة في دواوين الدولة لكانوا سارعوا لذكرها رغبة في اعلاء شأن مغول والاساءة للدول التي عارضتهم. وفي الوقت الحاضر هناك بعض الباحثين الذين صدقوا الرواية وتناولوها^(٢) باعتمادهم على برهان جديد وهو دينار جنكيزخان الذي تم العثور عليه وعليه ما يثبت صحة ذلك الادعاء من خلال كتابة اسم الخليفة الناصر عليه، ومنهم من رفضها وعدّها مجرد اتهامٍ وجّه لخليفة المسلمين وإشاعة غامضة بحكم بعد المسافات بين الطرفين وجهل الخليفة لمقدار قوة المغول الذين كانوا بالكاد قد وضعوا أسس دولتهم وأنهوا عملياتهم العسكرية في الصين، وتلك المناطق لم يسمع عنها المسلمون سوى رواياتٍ قليلة نقلت إليهم على لسان التجار الذين نشطوا في المنطقة^(٣)، ومن الدوافع الأخرى التي كانت سبباً في غزو المغول لديار الإسلام صفات جنكيزخان، فقد عُرف عنه طموحه لإنشاء امبراطورية واسعة فهو بعد أن أخضع المغول وأسس دولته على أشلاء بني جلدته وأعدائه أراد أن يشغل المغول عن الوضع الداخلي بتوجيه أنظارهم نحو الخارج وما احتواه من ثروات ونساء وأراضي شاسعة مناسبة لرعاية قطعان الخيول لذا توجه بداية نحو الصين وبعد أن تذوق المغول طعم النصر والغنائم وجه أنظارهم نحو الغرب وثرواته التي حملها التجار لبلاده فرغب في انشاء

(١) تليق الأخبار ، ج١، ص ٣٦٠.

(٢) الأمين ، جنكيزخان وهولاكو والغز المغولي للبلاد الإسلامية من بغداد إلى عين جالوت ، ص ٤٢-٤٣؛ طقوش (محمد سهيل): تاريخ المغول العظام و الإيلخانيين، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٥٤.

(٣) بارتولد، تركستان ، ص ٥٧٠؛ العريني، المغول ، ص ٧٩.

امبراطورية واسعة وقد نجح في ذلك^(١). فقد تمكن بداية من القضاء على كوجلك النيماني الذي فرّ من بلاده واتجه نحو أراضي دولة الخطا، حيث تمكن من الاستيلاء عليها وطرد حاكمها وحكم المنطقة حكماً اتصف بالقسوة والظلم للرعايا المسلمين الذين كانوا منتشرين بين كاشغر و بلاساغون ، والذين وجدوا في تحرك المغول نحوهم انقذاً لهم من ظلم ذلك الطاغية، وفعلاً قضى جبهه على كوجلك وسيطر على كامل ممتلكاته^(٢). بالتالي فإن سيطرة المغول على جزء من تركستان دفعهم إلى الاحتكاك مع الخوارزميين لا محال فتلك المنطقة بواحاتها الخصبة الغنية بالمنتجات الزراعية كانت المحطة الأساسية للقوافل العابرة لطريق الحرير والواصلة بين الصين وما وراء النهر، ومناطق سكنى المغول^(٣)، بل إن أترار (فارياب) التي شهدت أولى موجات العنف المغولي كانت أول نقطة متاخمة للمناطق التي سيطر عليها المغول، وهي بموقعها وراء نهر سيحون كانت بوابة الشرق نحو الغرب، فمن خلالها عبرت القوافل القادمة من الصين ومنغوليا إلى ما وراء النهر وخراسان وبالعكس^(٤)، لذا تمتعت تلك المدينة بمكانة تجارية وأمنية كبيرة ما دفع الخوارزميين للاهتمام بها وتحصينها فمنها انطلقت الحملات التي ربما توجهت نحو كاشغر وبلاساغون ومنها كانت توزع البضائع في أنحاء الدولة المختلفة فهي كانت محط القوافل الأساسية ربما لهذا السبب رغب المغول بالسيطرة عليها بداية لكونها تعد مفتاح الدخول إلى المنطقة. لا بد من الإشارة بأن معظم المؤرخين أجمعوا على أن حادثة أترار كانت المحرض الرئيسي لهذا الغزو الذي كلف البشرية خسائر فادحة، فما هي قصة هذه الحادثة؟ وما هي الأحداث التي مهدت لها؟ ومن المسبب لها؟ وماهي نتائجها؟.

للبحث في الحادثة لابد من تناول الموضوع بحيثياته كلها، فقد كان للعامل الاقتصادي المتمثل بالتجارة دور رئيسي في الحادثة والعداء الذي نشب بين المغول والخوارزميين كما ذكر من قبل. بدايةً بدأت العلاقات التجارية والرغبة في جمع المعلومات واستقصائها لدى كلٍ من الطرفين منذ سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م عندما اجتاح المغول الصين متمكنين من احتلال بكين التي كانت تعدّ من المدن التجارية المهمة^(٥)، عندها رغب السلطان علاء الدين محمد من التثبت من

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم ، ج ١، ص ٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٦؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني ، ص ٢٢١؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٥٣.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٤٧.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٥) اقبال، تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية، ص ٦٢.

صحة الأنباء التي أشارت إلى سيطرة جنكيزخان على تلك المناطق التي كان هو نفسه يطمح في السيطرة عليها لغناها الاقتصادي، ولكن كان الخان المغولي سباقاً إلى هذا العمل، لذا أقدم على إرسال بهاء الدين الرازي^(١) بسفارة من قبله إلى جنكيزخان رغب من خلالها بجمع معلومات عن المغول ومقدار قوتهم العسكرية وما حققوه من انجازات. التقت السفارة بالخان وهو مازال موجوداً في الصين حيث رحّب بهم واعترف بسلطانهم سيداً للغرب، وأثناء وجودهم في تلك المناطق شاهدوا بأمّ العين بقايا المذابح التي ارتكبتها المغول وصدّموا أمام أعداد الهياكل العظمية التي تجمعت عند أبواب بكين، كما دهشوا من تحول لون التربة إلى اللون الأحمر لكثرة ما سفك فوقها من دماء، كما تأثروا بعفونة الهواء التي سببتها كثرة الجثث المهترئة للسكان الذين أبادهم المغول^(٢).

اقتصرت المعلومات عن السفارة على ما كتبه المؤرخ الجوزجاني^(٣) والذي اعتمد عليه بارتولد، لذا فقد كانت المعلومات قليلة عنها ، ولكنها بكل تأكيد نقلت صورة واضحة للسلطان عن مقدار وحشية المغول وتعطشهم إلى سفك الدماء، وعدم احترامهم للحضارة الإنسانية، وحملها جنكيزخان رسالةً ودية للسلطان والتي يعترف فيها به سيداً على المناطق التي يحكمها.

عند مطالعة ما كتبه المؤرخون عن حادثة أترار يلاحظ الآتي : بأن بعضهم تطرق للحديث عن التجار الثلاثة الذين زاروا جنكيزخان، فمن هم هؤلاء؟ وهل كان لزيارتهم دورٌ في تعزيز العلاقات التجارية بين المغول و الخوارزميين؟ أم قدموا لأسبابٍ أخرى؟.

تطرق إلى ذكر هؤلاء التجار كلٌّ من ابن العبري ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م^(٤) والجويني ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م. عند قراءة ما كتبه ابن العبري عن هؤلاء التجار فيلاحظ بدايةً بأنه حدد تاريخ زيارتهم لجنكيزخان في سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م حيث قال: "في سنة ٦٠٩هـ قصد ثلاثة نفر تجار من البخاريين ديار التتار ومعهم بضائع من الثياب المذهبة والكرباس^(٥) وغيرهما مما يليق بالمغول،

(١) بهاء الدين الرازي: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٢) بارتولد، تاريخ تركستان ، مرجع سالف، ص ٥٦٣.

(٣) الجوزجاني: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٤) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩.

(٥) لفظة فارسية تعني الثوب المصنوع من القطن؛ ابن منظور (محمد بن مكرم ت. ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، بيروت، دار الفكر، (د، ت) ، ص ٣٨٤٧.

ولما وصلوا إلى نواحيهم وافاهم المتحفون ووقفوا على ما معهم من السلع فأروا قماش واحد منهم واسمه أحمد لائقاً للخان فسيروه إليه مع صاحبيه^(١). عند قراءة ما كتبه ابن العبري يلاحظ بأنه لم يتطرق إلى ذكر جميع أسماء التجار فقد اكتفى بالقول بأنهم من مدينة بخارى التي كانت في ذلك الوقت من المراكز التجارية المهمة فقد حوت داراً للصناعة تقع بين السور والمدينة نسجت فيها البسط والسجاد والوسائد وسجاجيد الصلاة، إضافة لذلك فنتيجة لموقعها المهم في قلب إقليم الصغد فقد عدت مركزاً تجارياً مهماً، وقاعدة من قواعد طريق الحرير لذا أممها التجار من مختلف المناطق وحوت أسواقاً كثيرة متخصصة ببيع سلع خاصة^(٢). وقد تطرق ابن العبري إلى ذكر اسم واحد منهم عندما قال: " اسمه أحمد"^(٣)، ولكنه لم يتطرق لذكر أسرته أو أية معلومات إضافية عنه. كما أن هؤلاء التجار أحضروا معهم الكثير من الثياب المذهبة والمزركشة التي تليق بأمراء وخانات المغول، ولكن أحمد السالف الذكر غالى في سعر بضائعه وطلب سعراً يفوق ثمنها الطبيعي لظنه بأن المغول لم يروا هكذا بضاعة من قبل، وغير مدركين لثمنها الحقيقي. ولكن غضب جنكيزخان لتصرف التاجر وطلب من خازنه أن يريه أمواله وكنوزه المكسدة في خزائنه والتي تفوق جمال بضاعته ، وبعدها أمر بنهب بضائعه ومعاقبته، ولكنه تراجع عن قراره عندما التقى رفيقي التاجر الذين لم يثمنوا بضائعهما وإنما قدماها هديةً إلى جنكيزخان عندها منحهما ثمناً لها يفوق ثمنها الأصلي وعفا عن التاجر أحمد ومنحه ما منح زميليه كرمًا منه^(٤). هذا كان كل ما ذكره ابن العبري عن زيارة التجار الثلاثة لجنكيزخان، فهو لم يحدد بالضبط مكان اللقاء به وإنما اكتفى بذكر " ديار التتار"^(٥)، كما لم يتوسع بذكر أسمائهم ومقدار ما حملوه من بضائع، فقط اكتفى بذكر الرواية التي تحدثت عن لقاءهم بالخان، وإذا ما تم الانتقال إلى رواية الجويني عن زيارة هؤلاء التجار فإنه يلاحظ الآتي: لم يذكر الجويني تاريخ الزيارة وإنما اكتفى بالقول:

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩.

(٢) النرشخي (محمد بن جعفر ت. ٣٤٨هـ / ٩٥٩م): تاريخ بخارى، ترجمة: أمين بدوي ، نصر الله الطرازي، القاهرة، دار المعارف، (د)، ت) ، ص ٣٩ - ٧٧.

(٣) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

"وفي نهاية عهد جنكيزخان عمّ الأمن وهدأت البلاد، كما أمنت الطرق وخدمت الفتن، وعاد التجار يجوبون المناطق"^(١)، لم يحدد تاريخ الزيارة ولكن يعتقد أنها كانت في السنوات العشر الأخيرة من حكم جنكيزخان. كما أنه لم يذكر مكان اللقاء وإنما قال: "ولما لم يكن للمغول مستقر واحد ولا مدينة يسكنون إليها، ولهذا اتفق ثلاثة.....على السير شرقاً"^(٢). ولم يشر كذلك لجنسية الزائرين ومن أي المدن قدموا وإنما اكتفى بذكر أسمائهم وهم أحمد الخجندي^(٣)، ابن الأمير حسن، أحمد بالخي^(٤)، ولم يفصل في الحديث عن بضائعهم وإنما اكتفى بذكر كونها أقمشة متنوعة ذهبية وقطنية تليق بالأمراء والحكام^(٥)، وسرد القصة نفسها فيما تعلق بجشع التاجر أحمد بالخي ومعاقبة جنكيزخان له ثم صفحه عنه ومنحه ما منح رفيقيه فيما بعد^(٦). ولقد أجمع كل من المؤرخين الجويني وابن العبري على أن القافلة السالفة التي زارت جنكيزخان كانت الدافع وراء ارسال جنكيزخان للقافلة التي تعرضت للإبادة في أترار والتي سيشار إليها فيما بعد^(٧). أما غروسيه وبارتولد فإنهما يعدّان هؤلاء التجار جزءاً من سفارة بهاء الدين الرازي السالفة الذكر، ويعدّان بالتالي السفارة التي أرسلها جنكيزخان إلى السلطان علاء الدين محمد والتي التقت به في بخارى من نتائج زيارة هؤلاء التجار^(٨). لذا لابد من التعرف أيضاً على السفارة الثالثة التي زارت بلاط السلطان علاء الدين محمد في ما وراء النهر، وتبيان عدد أعضائها، والمهام التي كُلفوا بها، وكيفية تعامل السلطان معهم.

عند مطالعة ما أورده الكتب بين أسطرها عن السفارة يلاحظ ما يلي: بأن النسوي مثلاً لم يحدد تاريخها وإنما قال: "لما ألقى السلطان عصا القرار بما وراء النهر، بعد منصرفه عن العراق، لاقتة رسل جنكيزخان"^(٩). ومن المعروف أن السلطان علاء الدين محمد قاد حملته إلى العراق سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وقد أخفقت الحملة في تحقيق أهدافها، لذا من الممكن أن يكون قد عاد إلى ما

(١) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٧.

(٣) أحمد الخجندي: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٤) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ٩٧.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٨-٩٩.

(٧) سيرد الحديث عنها ص ١٠٦ وما يليها.

(٨) جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٥٧؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٦٦.

(٩) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٣.

وراء النهر إما في أواخر سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، أو عند بداية سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م. أما الرمزي فإنه حدد تاريخها في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م عندما أشار لاستقبال السلطان لسفارة من قبل الخان^(١) وهناك من حدد تاريخها بسنة ٦١٥هـ/١٢١٨م^(٢)، أو تحدث عنها ضمن أحداث سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م^(٣). بالتالي فإن التاريخ الأقرب بحسب تسلسل الحوادث وتواليها هو سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، ومن غير الممكن أن يكون سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م لكونه التاريخ الذي أرسل فيه علاء الدين محمد سفارة لجنكيزخان، لذا فليس منطقياً بحسب بعد المسافة أن تكون السفارة عادت إلى السلطان وأرسل جنكيزخان رداً عليها في السنة نفسها. أما سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ففي أواخرها اجتاحت المغول المنطقة، لذا فالتاريخيين مستبعدين.

أما السفارة فإنها تألفت من ثلاثة أشخاص وهم محمود الخوارزمي^(٤)، علي خواجه البخاري، ويوسف كنكا الأتتاري^(٥)، ويلاحظ من الأسماء السالفة بأنهم مسلمون من سكان بلاد ما وراء النهر، ربما كانوا تجاراً التحقوا بخدمة المغول، أو ربطتهم علاقات تجارية معهم، أو من الشخصيات التي هاجرت هرباً من الفتن، أو رغبة في جمع الثروات، لذا استقروا في بلدان جديدة لديها مقومات عديدة لكونها انتشرت بقوة وسيطرت على محطات التجارة، وما يلفت الانتباه بأن هؤلاء التجار كانوا مسلمين ولم يكونوا مغول وذلك لكون جنكيزخان عُرف بعدم محاباته لديانة معينة، وإنما كان يحابي الأفضل والذي يقدم له خدمات أكثر بغض النظر عن دينه، وحمل هؤلاء هدايا كثيرة إلى السلطان علاء الدين محمد تحدث عنها النسوي حيث قال: "مصحوبين بمجلوبات الترك من نقر المعادن ونصب الختو ونوافج المسك، وأحجار اليشب، والثياب التي تسمى "طرقوا" وأنها تؤخذ من صوف الجمل الأبيض يباع الثوب منها بخمسين ديناراً أو أكثر"^(٦). أما بارتولد فقد أضاف إلى تلك الهدايا قطعة من الذهب الصامت من جبال الصين بحجم سنام الجمل حيث وضعت في عربة خُصصت لها^(٧). وتشير تلك الهدايا إلى رغبة جنكيزخان في إرضاء السلطان وعقد اتفاقية معه، أما الغرض من تلك السفارة فقد أوضح النسوي

(١) تليفق الأخبار ، ج١، ص٣٥١.

(٢) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم ، ص٢٥٧.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ط٢٢، ص١٦٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٧، ص٧٩.

(٤) سيأتي الحديث عنه بشكل مفصل ص٢٨٨.

(٥) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص٨٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٣.

(٧) تركستان ، ص٥٦٧.

بأن أعضاءها حملوا رسالة تضمنت طلباً للمسالمة والموادعة وسلوك مسلك المجاملة حيث قال: "إن الخان الكبير يسلم عليك ويقول: ليس يخفى عليّ عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي"^(١)، وغير خافٍ عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادني ماثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمّت المنافع وشملت الفوائد"^(٢). يفهم مما سلف بأن جنكيزخان في رسالته السالفة أراد إيصال رسالة للسلطان بأنه مدرك لمقدار المكانة التي بلغها ولاتساع مملكته وكثرة ثرواته، ولكنه في الجانب الآخر سيطر على مساحة أوسع من مملكته فقد امتلك الصين ومعظم بلاد الترك وهي بلاد كثيرة العساكر والثروات، لذا فإنه يرغب في مسالمة وعقد اتفاقية معه لتلاقي مصالحهما التجارية مع بعضها بعضاً فيعمّ النفع على الجانبين. وحتوت الرسالة السالفة أسلوب ترغيب وترهيب، ترغيب عندما مدح مقدار اتساع الدولة الخوارزمية، وما بلغته من مكانة عالية بين دول المشرق الإسلامي في ذلك الوقت، وترهيب حيث خاطبه بتعبير "ولد" وهو مصطلح دلّ على التبعية للأب الأعلى، كما أشار لإخضاعه لمعظم الترك وليس خافياً على أحد بأن الخوارزميين كانوا من الأتراك.

غضب السلطان من تلك الرسالة مما دفعه للمسارعة باستدعاء محمود الخوارزمي ليلاً ليستفسر منه عن بعض التساؤلات التي جالت بخلده، وسببت له نوعاً من القلق والخوف، وقدم له هدية عبارة عن جوهرة نفيسة كعربونٍ للوفاء، ووعده بهدايا كثيرة إن قبل أن يصبح من أتباعه وينقل أخبار المغول له^(٣). ولقد تمحورت الأسئلة حول موضوعين أحدهما تعلق بالصين وهل فعلاً امتلكها جنكيزخان؟ فجاء رد الخوارزمي مؤكداً لصحة هذا الخبر. أما الأمر الثاني فتعلق بالأمور العسكرية وبشكلٍ خاص بجيش المغول ومقدار ما بلغه من قوة وما احتواه من جنود، هنا خاف الخوارزمي بعض الشيء من السلطان لما ارتسم على وجهه من علامات الغضب والحنق،

(١) أولادي مفرد ولد وهو الصبي حين يولد وكذلك الأنثى، وتفسر كذلك الامر برهط الرجل وأتباعه؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سالف، ص ٤٩١؛ وعنى جنكيزخان بذلك الأمر أن السلطان هو أحد أتباعه لكون العلاقة التي تربط بين الوالد وولده علاقة التبعية واحترام لكون والد أعلى مكانة من ولده ومن واجبات الولد احترامه وعدم عصيان أوامره.

(٢) سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٣-٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٤.

فلم يصدق القول بل كان جوابه على الشكل الآتي: "ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارسٍ في خيل، أو دخانٍ في جنح ليل" ^(١). أعجب ذلك الجواب السلطان علاء الدين محمد واطمأن بعض الشيء وسارع لعقد معاهدة تجارية مع المغول لتسهيل التبادل التجاري فقد كان هؤلاء بحاجة لمنتجات الشرق لعدم قدرتهم على الانتاج فهم لم يعرفوا سوى الصناعات التي ارتبطت بالرعي والحروب. مهدت تلك المعاهدة لتشكيل قافلة تجارية كانت أساس حادثة أترار ^(٢). تلك الحادثة التي سبب حدوثها عناصر كثيرة، وكان لها نتائج خطيرة سيتم التعرف عليها في هذه السطور.

بدايةً لابد من تحديد تاريخ الواقعة فقد أجمع معظم المؤرخين على أنها حدثت سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ولقد أشار بعضهم إلى ذلك إشارة مباشرة ^(٣)، والبعض الآخر قرنها بحادثة وقعت سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ولم يشر إليها بشكل مباشر ^(٤)، أما الباقي فقد تحدثوا عنها ضمن أحداث سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ^(٥). ولكن لابد من الإشارة بأن كلاً من الجويني وابن العبري لم يحددا تاريخاً لها، وإنما قرناها بحادثة زيارة التجار الثلاثة لجنكيزخان والتي سبق الحديث عنها ^(٦). هذا فيما تعلق بتاريخ الواقعة أما أحداثها فكانت على الشكل الآتي:

لقد كان أساس حادثة أترار عبارة عن قافلة تجارية تم ارسالها من قبل المغول إلى أراضي بلاد ماوراء النهر بغرض شراء الكسوة اللازمة من الثياب والمصنوعات التي يستعملها المغول في حياتهم اليومية لكون بلادهم خالية من تلك الصناعات ومن المواد الأولية اللازمة لها، لكونهم شعباً شبه بدوي اعتاش على الرعي والصيد وما حصل عليه من عمليات السلب والنهب، أما منطقة بلاد ماوراء النهر فقد كانت مشهورة منذ أقدم العصور بكثرة خيراتها وثرواتها ويكون معظم سكانها من التجار الذين جابوا البلدان، حاملين صناعاتهم التي اشتهرت بها مدنهم بل أطلق

(١) سيرة السلطان ، ص ٨٥. وقد قصد القائل من ذلك التعبير اظهار مقدار قلة عساكر المغول بالنسبة لعساكر السلطان فهي كالفارس ضمن مجموعة خيول كبيرة من غير الممكن التعرف عليه، أو كدخان أبيض يتصاعد في ليل حالك أسود فالدخان الجيش المغولي، أما الليل الحالك فجيش السلطان ومن غير الممكن التعرف على الدخان ضمن سواد الليل الحالك.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٣) الرمزي، تلقيق الأخبار ، ج ١، ص ٣٥١؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٥٧.

(٤) النسوي، سيرة السلطان ، ص ٨٥؛ أبو شامة، نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلانية والجلانية، ص ٢١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج ١٧، ص ٧٩.

(٦) تاريخ فاتح العالم ، ج ١، ص ٩٧؛ تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٩.

عليها أسماء مدنها التي صنّعتها، وأكثر من ذلك فالأهمية المنطقة منذ القديم كمحطة أساسية من محطات طريق الحرير تسرب إليها الإسلام عن طريق هؤلاء التجار الذين اتصلوا بديار الإسلام وشجعوا المسلمين في القرن الأول للهجرة /السابع للميلاد للانطلاق في حملات منظمة باتجاه تلك المناطق رغبة في فتحها ونشر الإسلام فيها، وأكثر من ذلك الاستفادة من ثرواتها ومن تجارتها التي سببت غنى تلك المناطق، وكانت من أهم الأسباب التي جلبت إليها غزوات البداة على مر العصور^(١).

وبالعودة إلى القافلة فقد اختلف المؤرخون في عدد أفرادها، فالنسوي لم يحدد عددها، وإنما اكتفى بذكر أربعة أسماء لتجار كانوا فيها: وهم عمر خواجه الأتتاري، الحمال المراغي، فخر الدين الدنكي البخاري، أمين الدين الهروي^(٢). أما ابن العبري فحدد عددها بمئة وخمسين تاجراً مسلماً ونصرانياً وتركياً^(٣)، بينما جعل الجويني العدد أربعمائة وخمسين تاجراً مسلماً^(٤)، أما الجوزجاني والذي نقل عنه بارتولد فحدد العدد بخمس مائة بغير^(٥)، أما باقي المؤرخين فلم يحددوا عدداً لهذه القافلة وإنما اكتفوا بذكر وصول قافلة ضخمة إلى ديار السلطان علاء الدين محمد^(٦)، وما يلاحظ من الكتابات السالفة بأن معظم أعضاء القافلة كانوا مسلمين وينتمون لمدن ما وراء النهر مما يؤكد ما أشير إليه سالفاً من كون التجار المسلمين مارسوا دوراً كبيراً فيما تعلق بالتجارة ، بل إن التجارة في تلك المنطقة كانت حكراً عليهم، وهؤلاء لم يهتموا بالسياسة بل بما يخدم مصالحهم وهذا ما دفعهم للتعاون مع جنكيزخان، واحتوت القافلة كذلك على ممثلٍ من قبل الخان المغولي دُعي أوقونا، ولقد حمل رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد زوده بها جنكيزخان، ربما احتوت الرغبة من قبل جنكيزخان بأن تُقدّم تسهيلات لقافلته السالفة الذكر^(٧)، وجاءت هذه القافلة إلى المنطقة ودخلت مدينة أترار مفتاح المنطقة، ومحطة القوافل الرئيسية على نهر سيحون، ونظراً لأهميتها الجغرافية والعسكرية فقد كان فيها حامية عسكرية مؤلفة من عشرين ألف فارس بقيادة

(١) النرشخي ، تاريخ بخارى ، ص ٢٣ ، ٦٤ ، ٨٤ ، ٧٣.

(٢) سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٨٥.

(٣) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠.

(٤) تاريخ فاتح العالم ، ج ١ ، ص ٩٧.

(٥) بارتولد، مرجع سالف، ص ٥٦٦.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٥؛ الرمزي، تليق الأخبار، ج ١، ص ٣٥١.

(٧) التاريخ السري ، ص ٣٦٠.

ينال خان^(١) الذي دُعي قبل توليه حكم أترار ينال جق، إضافةً لذلك فقد كان له لقب آخر أطلقته عليه ترکان خاتون أم السلطان علاء الدين وهو "غاير خان"^(٢) لمحبتها له، ولكونه قريبها، فقد كان من أولاد أخيها، لذا أعلنت من شأنه بمنحه العديد من الألقاب وبمنحه حكم أترار^(٣)، وامتلكت القافلة مبالغ مالية ضخمة ، ورغبت في شراء البضائع من المنطقة والعودة إلى بلادها. والتقى الحاكم بالقافلة وشاهد ما معها من أموالٍ وثرواتٍ فشرهت نفسه وطَمَع فيها، لذا رغب في الاستيلاء عليها، ولكن كان لابد له من سببٍ لذلك فما كان منه إلا أن ادّعى أن أحد أفرادها ناداه باسمه القديم من غير لقبٍ ، فعَدَّ هذا الأمر بمثابة إهانة له ، لذا سارع إلى مراسلة السلطان مخبراً إياه بأمر القافلة، ولكنه لم يصدق القول عندما ادعى بأن هؤلاء ليسوا تجاراً وإنما جواسيس في زي تجار جاؤوا لغرض جمع المعلومات واستقصائها، وإنهم عندما كانوا يلتقون بالعامّة كانوا يختلقون الأخبار الكاذبة عن الدولة الخوارزمية ويحرضونهم ضدهم، لذا طلب منه أن يخبره برأيه بالموضوع وبما عليه أن يتصرف^(٤)، وهنا اختلف المؤرخون وتباينت آراؤهم فقسم روى بأن السلطان أرسل رسالةً لينال خان يأمره بحبسهم حتى ينظر في أمرهم، ولكن ينال خان فقد صوابه وتصرف دون استئذان السلطان فقبض عليهم وقتلهم وصادر ممتلكاتهم^(٥). أما القسم الآخر فإنه استند في قراره على المعلومات التي أرسلها له ينال خان^(٦). وقد عم القتل معظم القافلة ومن تمكن من الفرار نقل أخبار ما حدث لجنكيزخان مخبراً إياه عن مقتل ممثلي أسرته وأمرائه إضافةً لممثله الخاص. وبالتالي هكذا كانت أحداث واقعة أترار التي كلفت المسلمين دماء كثيرة ، ولقد عبّر الجويني عن حجم الكارثة التي حلت بالمسلمين جراء ذلك فقال: " ولم يعلم أن دماءهم ستحول الدنيا إلى خراب، وتدع الناس بلا مأوى وأن الثأر من كلّ شعرة من رؤوسهم تعادل مئات

(١) ينال لقب تركي يعني ولي العهد ولم يكن يستخدم من غير كلمة كوجك أي كان اللقب على الشكل التالي "كوجك ينال" والذي عنى الصغير أو ولي العهد؛ الخوارزمي (محمد بن أحمد ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) : مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٨٩م، ص ١٤١؛ ابن فضلان (أحمد بن فضلان ت القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد) : رسالة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان، بيروت، دار صادر، (د، ت)، ص ٩٧.

(٢) أي الرئيس؛ الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٤١.

(٣) النسوي، سيرة السلطان ، ص ٨٦؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ٩٧؛ الرمزي، تلفيق الأخبار ، ج ١، ص ٣٥١.

(٤) النسوي، سيرة السلطان ، ص ٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٦؛ أبو شامة، نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العاتية والجلانية ، ص ٢٨.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٦؛ السبكي (عبد الوهاب بن علي ت. ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) : طبقات الشافعية الكبرى: تحقيق: انطوان صالحاني اليسوعي ، بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٩٨١م، ج ١، ص ٣٣٠.

الآلاف من الرؤوس، وعضاً عن كل دينار أخذوه سيخسرون القناطر" ^(١). ويلاحظ مما سلف بأن معظم الباحثين والمؤرخين أجمعوا على أن حاكم أترار والسلطان هما المسؤولان الوحيدان عن اندفاع المغول نحو أراضيهم، فهما بعملها هذا سببا تأجيج نار الفتنة بين المغول والخوارزميين، لكونهما لم يحترما المواثيق ، ولم يرعيا التجار الذين شكلوا عمارة البلاد في ذلك الوقت. وإنما أقدموا على قتل التجار لظنهم بأنهم جواسيس لجنكيزخان. ولربما بالفعل كانوا جواسيساً فالمغول بعد سيطرتهم على الصين رغبوا في مد نفوذهم خارج تلك الأراضي والاتجاه نحو الغرب، لذا فإنهم شرعوا في جمع معلومات عنها ولقد ساعدتهم في ذلك التجار لتنقلهم المستمر بين البلاد، هذا من جانب ومن الجانب الآخر فإن السلطان لم يأمن جانب أي شخص قدم من بلاد المغول لظنه بكونه جاسوساً لهم يساعدهم في جمع معلومات جغرافية وسياسية عن الدولة الخوارزمية المجاورة لكيانهم السياسي الذي ثبتوا دعائمه في منغوليا، ومدوه إلى الصين. تفكيره السالف مرده لكونه كان يقوم بإرسال جواسيس من قبله لتقصي المعلومات عن المغول وتحركاتهم، و لقد أخطأ السلطان في تصرفه تجاه الحادثة المذكورة كان بإمكانه الإقدام على طرد القافلة ، أو معاقبة الشخص الذي أساء للوالي، أو ارسال رسالة إلى الخان يشرح فيها خطأ عامله، ولكنه اندفع وراء تهور وعدم حكمة عامله على أترار متسبباً في انزال سخط المغول واندفاعهم نحو أراضيهم وقد عبّر ارينوس فامبري عن ذلك بقوله: " بسلوكه هذا هو المسؤول الأول عن تلك المصائب وذلك الدمار الذي يستحيل اصلاحه والذي أنزله الغزو المغولي ببلاد ما وراء النهر والعالم الإسلامي الشرقي كله " ^(٢). أما الباحث براون فعبر عن تلك الحادثة بقوله : "أما خيانة السلطان فظاهرة لأنه أقدم على قتل رسل المغول وتجارهم فأعطى بذلك الخان الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه ولإثبات أوجه الضعف والخذلان التي تسود الحالة في إيران " ^(٣). ومهما كانت آراء المؤرخين قديماً وحديثاً، فقد حدث ما حدث، عندها غضب جنكيزخان لهذا التصرف وصعد إلى جبل بورقان قالدون، حيث كان يخلو هناك مع إلهه تب تتكري حاسر الرأس ، وبقي في خلوته هذه ثلاثة أيام ^(٤) ، إلى أن سمع هاتفاً من السماء يعلمه بأنه يجب عليه معاقبة السلطان علاء

(١) تاريخ فاتح العالم، ج١، ص ٩٩.

(٢) تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ص ١٥٩.

(٣) تاريخ الأدب في إيران ، ص ٥٥٦.

(٤) الرمزي، تليفق الأخبار ، ج ١، ص ٣٥١.

الدين محمد، وأن الربّ سمح له بذلك^(١). وفعلاً عزم على إعلان الحرب على السلطان، لكنه قبل اعلانها بشكلٍ نهائي، رغب في اعطاء السلطان فرصةً أخيرة، فما كان منه إلا أن أرسل سفارةً جديدة له مؤلفة من ابن كفرج بغرا^(٢)، وأصحابه برجلين من المغول، قابلت السفارة السلطان وسلمته رسالةً من جنكيزخان مفادها: " قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، وأن لا تتعرض إلى أحدٍ منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمرٍ صدر منك، فسلم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدهماء، وإلا فأذن بحربٍ ترخص فيها غوالي الأرواح، وتتقصّف معها عوامل الرياح" ^(٣).

عند قراءة الرسالة السالفة يفهم مقدار غضب الخان بعد سماعه لأخبار القافلة ، لذا أنب السلطان مخبراً إياه بأن الغدر ليس من صفات المسلمين، ولكنه صدر عنه فهو بالتالي من الأعمال القبيحة التي توجب العقوبة، ولكنه لن يعاقبه مباشرة بل يخيره ما بين تسليم الوالي المسؤول عن المذبحة، أو سيعلن الحرب عليه مدمراً بالتالي دولته . ما يلاحظ بأن العناصر المسلمة كانت منتشرة بشكلٍ كبير ضمن حاشية الخان ومارست مهاماً كثيرة طلبت منها فنالت الحظوة لديه. تسرب الرعب والخوف إلى قلب السلطان ، ولم يتفكر في الأمر ولم يفكر في تسليم ينال خان لعدة أسباب من أهمها صلة القرابة التي تجمع به ، ومحاباة ترکان خاتون له والتي سيطرت بشكلٍ تام على مقاليد الحكم في البلاد، يضاف إلى ذلك صلة القرابى بوالدته، لذا كان في وضعٍ حرجٍ وبين نارين: المغول من جهة وحاشيته من جهةٍ أخرى . وأفقده هذه الحيرة صوابه فما كان منه إلا أن قتل الرسول وحلق لحي الرجلين الآخرين، وأرسلهما لجنكيزخان ، ولقد تحدث عن هذا العمل النسوي حيث قال: " فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام وأجرت بكلّ نقطة سيلاً من الدم الحرام، فاستوفى عن الغيظ فيضاً وأخلى بكلّ شخصٍ أرضاً" ^(٤). ولكن ابن الأثير أضاف على الرواية السالفة بأن تحدث عن أن السلطان عندما قتل الرسول أرسل مع الرجلين الآخرين رسالةً قال فيها: " إن خوارزم شاه يقول لك أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا، حتى

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠

(٢) ابن كفرج بغرا: انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٣) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٨٧.

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٨.

أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك" ^(١). وقطع السلطان كلّ الخيوط التي تربطه بالخان المغولي، ودفعه إلى إعلان الحرب والشرع بالاستعداد لها، ولقد كان المغول محقين بعض الشيء بإعلانهم ذاك بحسب قول غروسيه حيث عبّر عن ذلك بقوله: "ومهما ارتكب المغول من أعمال وحشية وفظاعات بعد ما حدث، علينا ألا ننسى أن جنكيزخان كان محقاً في غضبه وثورة نفسه بعد الفتك بقاتلته، وقتل سفيره دونما أي سبب أو أية إثارة" ^(٢). هكذا كانت الأسباب التي دفعت المغول لإعلان الحرب، أما الاستعداد للحرب فهذا موضوع الفقرة التالية.

ثانياً: الإجراءات التي اتخذها كلّ من المغول والدولة الخوارزمية تماشياً مع حالة الحرب التي أعلنها المغول:

أعلن جنكيزخان الحرب على السلطان علاء الدين محمد بعد أن استنفد فرص التفاوض معه، ورغب بالبداية بحملة ضخمة نحو الغرب يؤدّب فيها ذلك الحاكم الذي ضرب بعرض الحائط قدسية الرسل، وحرمة المواثيق، وأقدم على القتل ونقض المواثيق. لكن بدايةً كان هناك مجموعة من المسائل الداخلية العالقة التي لا بد من تسويتها قبل الشروع بالحملة، ومن أهم هذه الأمور مسألة نبهته لها إحدى زوجاته التي تدعى ييسوي قاتون ^(٣) وهي مسألة وراثة العرش من بعده، فجنكيزخان تقدم به العمر، وهو مقدّم على حملة ضخمة نحو الغرب، فلا بد له من حسم موضوع أقلق الجميع ولم يجرؤ أحدٌ غيرها على طرحه نظراً لمكانتها لدى الخان ولقد تحدثت قائلة: "إن الكائنات الحية الذين ولدوا في هذا العالم هم ليسوا مخلصين

فعندما يصبح جسدك مثل شجرة عظيمة عجوز، سوف تسقط

فإلى من سوف تورث شعبك

الذي هو مثل كتلة متشابكة من خيوط القنب

عندما جسدك مثل قاعدة حجرية لعمود

سوف تسقط

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٧.

(٢) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٦٠.

(٣) ييسوي قاتون : انظر تعاريف ص ٣٥٣

فإلى من سوف تورث شعبك

الذي هو مثل سربٍ من الطيور

ومن بين أولادك الأربعة الأبطال الذين أنجبتهم أي واحدٍ فيهم سوف تعينه كخليفةٍ لك؟ وأنا أعطيتك هذه النصيحة ، حول ما نفكر به حول ذلك ^(١). كانت بيسوي صريحة في نصحتها للخان الذي لم يتجرأ أحدٌ من قادته أو أصدقائه على تنبيهه لهذه المسألة من قبل ولكن ما حدث أن الخان استجاب لنصحتها، وكان على جنكيزخان أن يختار واحداً من أولاده من زوجته الرئيسة بورتة، ولقد كان أكبرهم جوجي اتصف بكونه عسكرياً ناجحاً إلا أنه كان هناك شكٌ حول نسبه لكون والدته أنجبتة بعد تخليصها من الأسر ^(٢). أما جغتاي فقد كان ادارياً ناجحاً متمتعاً بمؤهلاتٍ سياسية وعسكرية كثيرة، ولكن الخان لم يكن يفضلُه ليكون خليفة له، أما تولوي فقد كان الأصغر لكنه كان سريع الغضب وكثير الشرب، بالتالي رجحت الكفة لصالح أوكتاي لكونه الأكثر ذكاءً وثقافةً بين اخوته، كما أنه تمتع بصفاتٍ عديدة منها القدرة على ضبط النفس، لذا فقد وقع اختيار الخان عليه كخليفة له على دولته الناشئة التي بذل جهوداً كبيرة لتدعيم أركانها ^(٣)، فهو كان بدايةً عبارة عن زعيمٍ لعدد قليل من المغول، ولكن بعد جهود مضيئة تحول إلى سيدٍ على قبائل عديدة، وبعدها اتفق المغول على تنصيبه زعيماً لهم مؤسساً بالتالي أسرة ملكية ، ولم يكتفِ بذلك فحسب بل نظم كيانه الجديد باتخاذ عاصمة وقاعدة لحكمه، كما تبنى لغة وكتابةً خاصة كتب بها قوانينه التي نظم بها حياة دولته وهي الياسا. بالتالي فبتنظيماته تلك وباختياره وريثاً له لم يعد يخشى على مستقبل دولته في حال تعرضه لحادثٍ معين.

وحلّت بعض المشاكل التي اعترضت طريق الخان ولكن كان لابد من حلّ مشاكل أخرى قبل الاعداد للحملة حيث توجب عليه القضاء على تمرد بعض قبائل المراكيت التي عاودت الثورة من جديد ونجحت فيها، عندها أرسل لهم الخان سوبوداي بهادر على رأس حملةٍ تمكن من القضاء عليهم ^(٤). كما نجح في إزالة خطر كوجلك النيماني المسيطر على أجزاء من تركستان

(١) التاريخ السري ، ص ٣٦١.

(٢) غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٦١.

(٣) التاريخ السري ، ص ٣٦٩؛ غروسيه ، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٦٢؛ مارشال، عاصفة من الشرق ، ص ٥٥.

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣.

التي كانت تعدّ بوابة بلاد ما وراء النهر^(١). بالتالي فقد حُلّت معظم المشاكل، ولا بد الآن من الإعداد للحملة وانطلاق بسرعة نحو الغرب. ومكنت قوة جنكيزخان وحكمه المركزي القوي الذي فرضه على دولته من الاستعداد للحملة وتنظيم قواته بشكل أفضل من السلطان علاء الدين محمد الذي كانت تعوزة المركزية، فهو سيطر على دولة واسعة الأرجاء ولكنها مفككة ، ومحكومة بشكل غير مباشر من قبل موظفين عيّنوا إما من قبل السلطان أو من قبل والدته التي تبع لها عدد كبير من الموظفين الذين اجتهدوا في طاعتها وخدمتها ولم يهتموا بأوامر السلطان أبداً ، يضاف إلى ذلك فإن اقدام السلطان على ازالة الكيانات السياسية التي وجدت في المنطقة والتي تلقت ضربات الغزاة عن بلاد ما وراء النهر وحمّتها، سبب في زيادة الأعباء على السلطان وساهم في ضعف قدراته، لذا فمن المؤكد كانت استعداداته أضعف وأقل تنظيماً وقدرة على المواجهة من استعدادات جنكيزخان وهذا ما سيتم مناقشته فيما يلي:

بداية سيتم الحديث عن استعدادات جنكيزخان فقد أرسل الخان إلى حلفائه طالباً منهم المدد ، وإرسال قوات داعمة له، ولقد عبّر عن ذلك الجويني حيث قال : "بدأت الاستعدادات للحرب على قدمٍ وساقٍ، أرسل الخان رسله إلى الأطراف يستحثهم على رد الوصمة والعار بقتل التجار"^(٢).

ومن الذين أرسل رسولاً لهم بغرض ارسال بعض الجنود شعب التانغأوت^(٣) بحكم الميثاق الذي جمعهم، فقد استقبل مقدمهم بورقان رسولاً من قبل الخان حمل إليه الرسالة التالية: "أنت كنت قد قلت سوف تكون جناحي الأيمن، وحيث أن شعب السارتأول قد قطعوا ميثاق الوحدة الذي يربط بين الخان والحكام الآخرين الذين يدينون بالطاعة، أنا أقلعت وانطلقت لأدعوهم لتقديم حسابٍ عن عملهم، وعليك أنت أن تتطلق نحو الامام ، بحكم أنك الجناح الأيمن لجيشي"^(٤).

مما سلف يفهم الآتي بأن الخان رغب في دعم قواته من قبل التانغأوت لكونه بحاجة لهذا الدعم ضد الخوارزميين الذين عُرفوا باسم السارتأول بين شعب المغول، ولكن رفض التانغأوت طلب الخان ورد حاكمهم رداً قاسياً كان فحواه: " بما أن قوات الخان هي غير قادرة على إخضاع

(١) انظر ص ٥٠.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم ، ج ١، ص ١٠٠.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤٦.

(٤) التاريخ السري ، ص ٣٧١.

الآخرين بمفردها من دون مساعدة أحد، لماذا هو مضى بعيداً إلى حدٍّ أنه أصبح خاناً؟^(١)، وفي المقابل كان هناك بعض القادة الذين التحقوا بخدمة جنكيزخان من هؤلاء سقناق تكين من المaling^(٢)، وايدي قوت بارشوق من الإيغور^(٣)، وانضم إليه أرسلان خان من القارلوق مع عشرة آلاف جندي^(٤)، يضاف إلى قوات المساعدة تلك القوات المغولية الأساسية التي اختلف المؤرخون في تقدير أعدادها، ولكنهم سرعان ما اتفقوا على رأيٍ مؤداه بأنها كانت تتراوح ما بين مئة وخمسين إلى مئتي ألف مقاتل^(٥). تولى قيادتها جنكيزخان بنفسه، ورافقه أولاده الأربعة، إضافة للقائد جبه الذي تولى قيادة المقدمة، ودعمه بكل من القادة سوبوداي، وتوقوجار، وسيغي قوتوقو، بينما بقي أوتجيغين نويان ليشرف على المعسكر المغولي خلال مدة غياب جنكيزخان عنه^(٦)، ولم ينسَ جنكيزخان اصطحاب إحدى زوجاته معه حيث وقع اختياره على قولان قاتون الجميلة^(٧)، وتألّف الجيش المغولي من الفرسان والمشاة ولقد اصطحبوا معهم آلات الحصار والمنجنيق، والدبابات، والعربات، إضافة إلى أسلحة الجنود التقليدية من السيف والترس وغيرهما، وانضم إلى الجيش كذلك الأمر قطعٌ كبير من الماشية لتأمين الإمدادات والطعام، إضافةً لعددٍ من التجار المسلمين الذين كان لهم دورٌ مهمٌ في تعريف المغول بمسالك المنطقة وتضاريسها، ومارسوا دور الوسيط بين السكان المسلمين والمغول^(٨). أعطى الخان أمر التحرك في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م^(٩). هذا فيما تعلق باستعدادات المغول للحرب، أما استعدادات الخوارزميين ، وكيفية تلقي السلطان لنبا الزحف المغولي ، ورد فعله ، إضافةً لرد فعل قادته وأمرائه دولته، فهذا الأمر بحاجة للتوضيح.

قتل السلطان علاء الدين محمد الرسل، ورفض تسليم حاكم أترار الذي نفذ المذبحة بحق رعايا جنكيزخان بالتالي فهو أعطى الخان ذريعة للاندفاع نحو أراضيه، وسبب اندفاع المغول

(١) التاريخ السري ، ص ٣٧١.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠؛ أما المaling : انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالمج ١، ص ١٠٠؛ أما ايد قوت : انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠؛ أما أرسلان : انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٥) بارتولد، تركستان ، ص ٥٧٦.

(٦) الأخ الأصغر للخان؛ التاريخ السري ، ص ٣٧١.

(٧) المصدر نفسه ، ص ٧١-٣٧٢؛ أما قولان قاتون : انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٨) بارتولد، تركستان، ص ٥٨١؛ مارشال، عاصفة من الشرق، ص ٥٥.

(٩) التاريخ السري ، ص ٣٧١.

نحو أراضي السلطان له حالة من التوتر والخوف عبر الجويني عنها بقوله: " كان السلطان حائراً في أوضاعه متردداً، مشتت الخاطر بين داخله وما يحيط به، وكان يستشير كل فرد من أركان دولته، ويسألهم علاجاً لحل هذه المعضلة ^(١)، ودفعته حالة التوتر السالفة إلى إرسال جواسيس كثر كلّفهم برصد تحركات المغول، فعادوا إليه وفي جعبتهم العديد من الأخبار عن كثرة جنود المغول ومعداتهم الحربية وعن اقترابهم من أراضي دولته لذا ندم على ما ارتكبه من حماقات بحقهم ^(٢). ولجأ لطلب النصيح من أتباعه ورجال دولته علّهم يمدونه بنصائح تمكنه من مواجهة المغول، فاستدعى لأجل ذلك شهاب الدين الخيوقي ^(٣) واستشاره في مشكلته قبل غيره من افراد حاشيته على الرغم من كون الخيوقي رجل علم وسياسة، وليس رجل حرب، إلا أن الخيوقي لم يخيّب آمال السلطان ، بل حاول رفع معنوياته، وأشار لكثرة عساكره، ونبهه لضرورة جمع العساكر المتفرقين في حاميات عديدة، ومكاتبة أمراء الدولة، والطلب منهم إرسال ما لديهم من قوات، وإذا ما اكتمل الجيش فعليه السير به إلى أطراف نهر سيحون، وانتظار قدوم المغول الذين سيصلون منهكي القوى لقطعهم مسافة طويلة فيلقاهم بالتالي وهم ضعفاء هم وجنودهم فيتمكن بالتالي من التغلب سريعاً عليهم ^(٤). وقد كان محقاً في نصحه ذاك، فمن الأفضل مواجهة المغول قبل أن يستردوا أنفاسهم ويتسربوا داخل أراضي السلطان فتصبح مواجهتهم شيئاً أصعب. لم يأخذ السلطان بالنصيحة، بل بقي في حالة من التردد والحيرة، ورغب في سماع آراء أخرى من أفواه أتباعه، فاستدعى رجال دولته، وعدد من الشخصيات التي يثق بآرائها وعرض المسألة عليهم، فأشار عليه هؤلاء بآراء مختلفة اختلفت باختلاف طبيعة كل شخص منهم، ومقدار قوته أو ضعفه، ومدى ادراكه لفداحة الواقعة، فمنهم من أشار عليه بترك المغول يتوغلون في المنطقة ويعبرون سيحون، فهم غير عارفين بمسالك البلاد وممراتها فيتيهون وتنهك قواهم فيصبح من السهل القضاء عليهم ^(٥)، ولكنهم كانوا مخطئين في ذلك فمن غير الممكن أن يتقدم الخان نحو منطقة من دون وضع خطة محكمة لاجتياحها ومعرفة مسالكها وممراتها، كيف لا وقد حوى

(١) تاريخ فاتح العالم ، ج ٢، ص ١٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج ١٠، ص ٣٣٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، ج ٤، ص ٤١؛ الدواداري (عبد الله بن أبيك ت ٧١٣هـ / ١٣١٣م) : كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٣١٩هـ / ١٩٧٢م، ج ٧، ص ٢٣٨.

(٣) شهاب الدين الخيوقي: انظر تعاريف ص ٣٥٧

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج ١٠، ص ٣٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، ج ٤، ص ٤٠؛ اقبال، تاريخ المغول من حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية ، ص ٦٦.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٧؛ بارتولد، تركستان ، ص ٥٧٣.

بلاطه العديد من التجار المسلمين من سكان المنطقة الذين بكل تأكيد زودوه بمعلوماتٍ وافية عنها، أما الرأي الآخر فكان أن ينسحب السلطان بقواته من بلاد ما وراء النهر، ويتوجه إلى أطراف جيحون حيث يركز دفاعه عند تلك المنطقة^(١). أما الآراء الأخرى فرأت بأنه من الأفضل عدم الصدام مع المغول والانسحاب نحو مدينة غزنة^(٢) لتجميع الجيوش فيها وملاقاة المغول عندها، وإذا ما انهزم السلطان فبإمكانه الانسحاب نحو أراضي الهند بأقل الخسائر^(٣). صرح الأمراء بآرائهم للسلطان والتي تفاوت ما بين اتخاذ موقف متخاذلٍ وذلك بالتخلي عن ما وراء النهر ستكون مساعدة لهم على النجاة، أو باتخاذ موقف متخاذلٍ وذلك بالتخلي عن ما وراء النهر تاركين إياها للأقدار والاتجاه إلى ما بعد شواطئ جيحون، أو الرحيل نحو الهند والنجاة من الموت المحتم.

آراءً كثيرة طرحت في مجلس السلطان الذي أَمِن تفكيره بها، وانتهى إلى رأيٍ مؤداه بأن يقاتل المغول ضمن مناطق ما وراء النهر، مستغلاً طبيعة المنطقة ومسالكتها، وأن يلجأ إلى تحصين مدنه وزيادة استحكاماتها^(٤)، لذا فقد عزم على بناء سور حول مدينة سمرقند وربضها^(٥) التي تمتد على مسافة تقدر باثني عشر فرسخاً ولبنائه كان بحاجة ماسةً للأموال، لذا فإنه أصدر أمراً بجباية خراج سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م مرتين بدلاً من مرة واحدة، و بعد ذلك أمر بالبدء بالبناء الذي لم يكتمل ولم تكف الأموال التي جمعت له، فأصدر أمراً آخر بجباية الخراج للمرة الثالثة في العام نفسه^(٦)، مما أزهق السكان وزاد من أعبائهم الاقتصادية والمعاشية،و يعتقد بأن تلك الأموال لم تصرف على بناء السور، ولم يشر المؤرخون إلى مصيرها، ربما انفقت أو استولى عليها بعض المتنفذين. ولم يكتفِ السلطان بالتفكير ببناء السور، وإنما لجأ إلى دعوة الناس للاستعداد لمواجهة المغول في حال حصارهم لمدنهم وأوصاهم بجمع الذخيرة وتخزينها^(٧)، كما أنه أرسل إلى أمرائه في البلاد يأمرهم بمدّه بالجنود بقدر الخراج الذي يُجبي من مناطقهم^(٨)، وطالبهم بأن

(١) بارتولا، تركستان، ص ٥٧٧؛ اقبال، تاريخ المغول ، ص ٦٦.

(٢) سيأتي الحديث عنها في الفصل الرابع ص ٢٥٠.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم ، ج ٢، ص ١٦؛ اقبال، تاريخ المغول ، ص ٦٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٩١.

(٥) أرياض مفردا ربض وهو الفضاء حول المدينة؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سالف، ص ١٥٥٩.

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ٨٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ٨٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، ج ٤، ص ٤١.

(٨) أي بقدر غنى المناطق التي يحكمونها.

يكون الجنود على أهبة الاستعداد بكامل سلاحهم وعتادهم، و اجتمعت القوات وتحركت باتجاه وجود السلطان الذي أصيب بالرعب من جراء حراكهم ذلك، فما كان منه إلا أن ترك مناطقه وتحرك مبتعداً إلى مناطق تحميه من هجوم المغول^(١). وبعد أن استقر وهدت نفسه عمد إلى توزيع جنوده على مدن وقلاع بلاد ما وراء النهر للدفاع عنها، فوضع عشرين ألف فارس في أترار، وعشرة آلاف فارس في شهركنت^(٢)، وثلاثين ألف فارس في بخارى، وأربعين ألف فارس في سمرقند، وغيرهم من الجنود الذين وزعوا على شكل مجموعات صغيرة في مدن ترمذ^(٣)، و خش^(٤)، وبلخ^(٥)، وجيلان^(٦) وغيرهم ولقد تمت مراعاة أهمية المدينة السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية وموقعها الجغرافي في توزيع الجنود، فقد نالت مدن حصصاً أعلى من الجنود لكون الضغط سيكون عليها أقوى وأشد، و بالتالي فإنه فرّق جنوده على القلاع الرئيسية المنتشرة على الحدود الشمالية لبلادهم، وعلى مدن ما وراء النهر وخراسان و بعمله ذلك ارتكب خطأ فادحاً سيندم عليه فيما بعد، فهو لو ابقى قواته مجمعة من غير توزيعها لتمكن من الانتصار على المغول فقواته فاقت في عددها القوات المغولية^(٧). لا يعرف السبب الذي دفع السلطان لمثل ذلك التصرف، ربما ظن أن المغول سيملون من حصارهم للمدن وسينسحبون بسرعة تاركين البلاد، أو ربما سيكتفون بأعمال النهب والسلب وتأديب بعض الفئات وبعدها سيغادرون، أو ربما - وهو الأهم - أنه لم يكن يثق بقواته وقادته الذين كانوا في معظمهم من التيار الموالي لوالدته و المعادي لحكمه، الذي سبب له مشاكل كثيرة وكاد أن يغتاله في أكثر من مناسبة، لذا فقد خشي من تجمع عدد كبير منهم في مكان معين تحت قيادة قائد واحد، لكونه كان يخشى من تمردهم في حال انتصارهم، لذا ربما عمد إلى مثل ذلك الإجراء^(٨). بعد أن اتخذ هذه الإجراءات أخبر السلطان الشعب بما يلي: " احفظوا البلاد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر واستجد بالمسلمين وأعود إليكم "^(٩)، وغادر مناطق ما وراء النهر وانتهى به المطاف في بلخ

(١) النسوي، سيرة السلطان، ص ٨٩.

(٢) شهركنت: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٣) ترمذ: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٤) و خش: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٥) سيأتي الحديث عنها بشكل موسع في الفصل الرابع ١٧٠.

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٠-٩١؛ أما جيلان: انظر تعاريف ص ٣٤٨.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٨٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤١-٤٢.

(٨) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩١؛ مارشال، عاصفة من الشرق، ص ٥٠.

(٩) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، ص ٢٤٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤١.

ذات الموقع المتوسط من مناطق ما وراء النهر وخراسان ولموقعها على نهر جيحون ولوجود حاميات عسكرية فيها لذا اختارها منطقةً لمعسكره^(١)، ولكن عند قراءة رواية الجويني عن حال السلطان بعد توزيعه للحاميات يلاحظ بأنه تحدث عن كون نخشب^(٢) هي المكان الذي وقع اختيار السلطان عليه عوضاً عن بلخ^(٣)، مهما كان المكان الذي اختاره السلطان فهو فضل الانسحاب تاركاً مواقعه الأساسية ومتجنباً الصدام وجهاً لوجه مع المغول، الذين بدؤوا بتحركاتهم نحو بلاد ما وراء النهر مجتاحين لها، ومسببين الخراب والدمار، وفق المسار التالي للأحداث:

ثالثاً : بدء المغول باجتياح بلاد ما وراء النهر:

بدأت العاصفة بحسب قول براون^(٤)، وعقوبة الربّ كما أسماها مارشال^(٥) سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م حيث اندفعت القوات المغولية إلى ما وراء النهر سالكةً طريق وادي إيلي^(٦)، وما أن اقتربت من مدينة أترار حتى قسم جنكيزخان قواته إلى أربعة أقسام وكلّف كل قسم بمهمة اجتياح منطقة محددة وجدها ضروريةً لإسقاط دولة السلطان، حيث كلّف ولديه جغتاي وأوكتاي بحصار مدينة أترار والاستيلاء عليها تاركاً معهم عدداً من التومانات، بينما كلّف جوجي بالتوجه إلى المدن التي تحاذي المجرى الأسفل لنهر سيحون وبشكل خاص مدينة جند^(٧)، وكلّف فرقة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل بالسير نحو مدن بناكت وخجند، أما القسم الأكبر من قواته فقد كان تحت قيادته ورافقه ابنه تولوي حيث توجهوا نحو بخارى^(٨). بعد أن وزعت القوات واستلمت كل فرقة المهام الموكلة لها، وجرى الشروع بالعمليات العسكرية التي كان أولها:

١ - التوجه نحو أترار والاستيلاء عليها:

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤١.

(٢) نخشب: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٥.

(٤) تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٥٧.

(٥) عاصفة من الشرق، ص ٥٠.

(٦) يقع شمال فرغانة؛ المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٧) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٠؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٥.

يبدأ النسوي حديثه عن أترار بقوله: "لما شارف الخان تخوم البلاد السلطانية تباشر صوب أترار" (١)، بالتالي فإن تلك المدينة التي سببت دمار الدولة الخوارزمية تقع في أقصى الحدود الشرقية وبالتحديد على الضفة الشرقية لنهر سيحون أسفل انصباب نهر جمكنت (٢)، عُرفت لدى الجغرافيين باسم باراب أو فاراب (٣)، وفي العصور المتأخرة باسم أترار (٤).

كعادة المدن في تلك الأزمنة فقد تكونت المدينة من جامع في الوسط، وعددٍ من الأسواق التي زاد من أهميتها موقع المدينة التجاري المهم، إضافةً إلى حصنٍ استعمله السكان في حالات الخطر، وأحاط بكلّ هذه الأجزاء عددٌ من الأرباض الواسعة التي أمدّت المدينة باحتياجاتها اليومية (٥). واهتم السلطان بمدينة أترار لمميزاتها التي ذكرت من قبل لذا ولّى عليها قريبه، كما زودها عندما اقترب الخطر المغولي بعدد من الجنود تباين عددهم بين مؤرخٍ وآخر فالنسوي حدد عددهم "بعشرين ألف جندي" (٦)، بينما أشار الجويني بأن العدد بلغ "خمسين ألف" وأمه بعد مدةٍ وجيزة "بعشرة آلاف فارس" (٧)، ولكن بلغ عدد الجنود لدى ابن العبري "خمسة آلاف فارس"، أمدهم السلطان بعد ذلك "بعشرة آلاف آخرين" (٨). عند دراسة روايات المؤرخين حول عدد الحامية يلاحظ الآتي بأن الأقرب إلى الصحة هو رواية النسوي، وذلك لكون رواية الجويني مبالغ فيها قليلاً، بينما العدد الذي حدده ابن العبري صغير جداً وغير كافٍ للدفاع عن مدينة كانت السبب الرئيسي لغضب المغول واندفاعهم نحو المكان.

تقدمت الجيوش للمدينة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ولقد أشرف على حصارها كلّ من جغتاي وأوكتاي حيث أمرا الجيش بالالتفاف حول أسوار المدينة، وشددا الحصار عليه والذي استمر لمدة خمسة أشهر (٩)، وأعدّ ينال خان نفسه للحصار حيث شحن المدينة وزودها بالإمدادات ، ولكن

(١) سيرة السلطان، ص ٩١.

(٢) نهر جمكنت: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٣) المقدسي (محمد بن أبو بكر النبات ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الأردن، دار الفارس للنشر، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٦٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٤) الحديثي (قطان عبد الستار): أرباع خراسان، البصرة، جامعة البصرة، (د، ت)، ص ٤٤٢.

(٥) لسترنج (كي): بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤م، ص ٥٢٨.

(٦) سيرة السلطان، ص ٩١.

(٧) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠١.

(٨) تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣١.

(٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠١؛ اقبال، تاريخ المغول، مرجع سالف، ص ٧٢.

طال أمد الحصار وزادت معه الصعوبات والضغط على سكان المدينة الذين تباينت مواقفهم ما بين مؤيد للاستسلام ورافضٍ له^(١)، وتباينت بالتالي مواقف القادة المدافعين عن المدينة، فینال خان كان مصرّاً على الدفاع عن المدينة رافضاً لفكرة الاستسلام لعدم رغبته في خيانة السلطان ، ولكونه هو الذي نفذ المذبحة بحق تجار الخان فهو ميتٌ لا محال، لذا فخيرٌ له أن يموت في أرض المعركة مقاتلاً على أن يموت بعد أن يستسلم للخان^(٢). أما الحاجب قراجة فلم يكن يرغب في متابعة القتال وضاق ذرعاً بالحصار، ومن تشدد ینال خان، فما كان منه إلا أن جمع عساكره وانتظر الفرصة المناسبة وخرج من المدينة ، غير أن المغول كمنوا له واقتادوه في الصباح إلى ولدي الخان الذين لم يقبلوا استسلامه وتوجهه نحوهما، بل عدّاه خائناً لسيده وخاطباه بقولهما: "إذا كنت ما أبقيت على مخدمك وولي نعمتك فلا تبقي علينا"^(٣)، وعمداً بعد ذلك إلى قتله وقتل جنوده وهاجما المدينة التي ضعفت دفاعاتها فدخلوها بعد أن انسحب ینال خان وجنوده وعدد من السكان إلى القلعة وتحصنوا هناك. قام المغول بعدها باستباحة المدينة وتخريبها وقتل سكانها وتهجير الباقين منها، حيث اقتادوهم أسرى معهم ليساهموا في حصار مدنٍ أخرى^(٤)، وسقطت المدينة بعد حصارٍ استمر خمسة أشهر، وشدّد الحصار على ینال خان في القلعة الذي ضاق ذرعاً بالحصار، ولكنّه لم ييأس بل استمر بالقتال هو وجنوده متبعين أسلوب الهجمات على شكل مجموعاتٍ تألفت كلّ مجموعةٍ من خمسين مقاتلٍ كانوا يخرجون من القلعة يقاتلون المغول، فيقتلون أعداداً منهم، ويُقتلون واستمر الحال على هذا النحو لمدة شهرٍ كاملٍ^(٥). حيث تمكن المغول بعدها من اختراق أسوارها وقتلوا معظم حاميتها ولم يبقَ مع الوالي ینال خان سوى جنديين انسحب معهما إلى شرفات المنازل حيث استمر في المقاومة ولكن بقي بمفرده فقد قتل الجنديين، ولم يُقدم المغول على قتله تطبيقاً لأوامر الخان الذي أصرّ على ابقائه على قيد الحياة ليعاقبه بنفسه، وعندما نفذ ما معه من سلاح استمر في محاربة المغول بقطع الآجر التي زودته بها الجوّاري، ولكن في النهاية وقع الوالي في قبضة المغول، واقتيد إلى مصيره المحتّم، حيث تمّ إرساله إلى جنكيزخان الذي كان في ذلك الوقت قد استقر في سمرقند بعد استيلائه عليها وعلى

(١) فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٥.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠١؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٦٨.

(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣١؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٤) أمين، الغزو المغولي لدير الاسلام، ص ٦٨؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٦٨.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠١؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣١.

بخارى كما سيرد فيما بعد^(١)، وقرع الخان ينال خان لأفعاله التي ارتكبها بحق رعاياه، ثم أمر بقتله ولكن بطريقة غريبة حيث أمر أن تصب الفضة الذائبة في عينيه وأذنيه، لتذكره بجشعه وطمعه الذين دفعاه إلى قتل القافلة التجارية واستيلائه على ما حملته من ذهب وفضة، تلك الفضة التي صهرت فيما بعد وكوي بها^(٢)، ودمرت أترار وقتل سكانها وأسر الباقي وألحق بجيش جنكيزخان، وألحقت المدينة بمملكة المغول الذين أمروها فيما بعد بمساعدة سكانها الذين نفضوا عنهم غبار الدمار والموت وجهدوا في إعادة الحياة لمدينتهم التي ستشغل دوراً في السنوات القادمة^(٣). هكذا كان حال أترار وبكل تأكيد لن يكون حال المدن الباقية بأحسن منها هذا هذا ما سيتم توضيحه فيما يلي:

٢ - محاصرة جند والاستيلاء عليها:

بدايةً تعدّ جند من مدن الاسلام الكبرى في تركستان، تقع وراء نهر سيحون قرب مصبه في بحر خوارزم، وتقترب أكثر من حدود بلاد الترك، وتبعد عن خوارزم مسيرة عشرة أيام^(٤)، بالتالي فإن جند كانت إحدى مدن حوض نهر سيحون والتي اندفع إليها المغول رغبةً في السيطرة عليها لإحكام سيطرتهم على ذلك الحوض المهم الذي يعدّ بوابة المنطقة الرئيسية.

ونهض بهذه المهمة الابن الأكبر للخان جوجي، مع قائد آخر هو ألوش إيدي، ووضع القائدان نصب أعينهما الاستيلاء على مدينة جند وما أحاط بها من رساتيق^(٥)، وسار جوجي مع قواته نحو المنطقة فصادف بدايةً مدينة سقناق التي أهمل الجغرافيون الإشارة إليها واكتفى الجويني ورشيد الدين الهمذاني بعدها من مدن نهر جيحون^(٦)، وهذا ليس بصحيح فإن المدينة بحسب موقع اطلالها ومجريات الاجتياح تقع على بعد أربعة وعشرين فرسخاً شمال أترار على نهر

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠١؛ كدرو، موقف المغول الإيلخانيين من العقائد والمذاهب الدينية من وفاة هولاكو إلى نهاية حكم أبي سعيد بهادر خان، ص ١٥؛ الفقي، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، ص ١٧٣.

(٢) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩١؛ النويري، نهاية الارب في فنون الأدب، ج ٢٧، ص ٢١١.

(٣) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٨.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٨.

(٥) رساتيق: لفظ فارسي يعني الموضع المشتمل على مزارع وقرى كثيرة، الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص ٢١٠.

(٦) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٣؛ التاريخ الغازاني، ص ٢٢٩.

سيحون في موقع يُعرف حالياً باسم سناق قرغان^(١)، ولم تشر المصادر إلى طبيعة المدينة وتحصيناتها، وإلى أعداد القوات السلطانية التي وجدت فيها، فقط تذكر معظمها بأن المغول توجهوا إليها ولم تكن في نيتهم تدميرها بدايةً، وإنما أرسلوا إلى أهلها رسلاً يدعوهم إلى التسليم مقابل المحافظة على أرواحهم، ولقد كان ذلك الرسول هو حسن حاجي^(٢)، ولكن أقدم الأهالي على عملٍ كلّفهم الكثير، عندما قتلوا الرسول المغولي، وكانت نتيجة عملهم بحسب تعبير الجويني أن فصد وريد سكان البلدة^(٣) فقد غضب جوجي عند سماعه خبر قتل الرسول، وأمر بمداومة حصار المدينة ليلاً نهاراً، وتناوب الجنود المغول على القتال إلى أن تمكنوا بعد سبعة أيام من اجتياحها قسراً وقتلوا جميع سكانها ونهبوها.

وبعد أن انتقموا من المدينة عينوا عليها ابن الرسول المقتول ليتولى مهمة الإشراف على شؤونها^(٤). استغرق حصار سقناق سبعة أيام، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يشير إلى مدى الحصانة التي تمتعت بها المدينة والتي دفعت المغول إلى استخدام آلات الحصار المختلفة لاخترق أسوارها. وسقطت سقناق والتي تعدّ أول مدينة تابعة لجند، ليكمل المغول بعدها السير باتجاه جند ولكنهم استولوا في الطريق إليها على كلّ من أوزكند^(٥) التي سالمتهم ولم تبدِ أيّة مقاومة، وبعدها اتجهوا نحو أشناس^(٦) التي قاومتهم بعض الشيء لكون معظم عساكرها من "الأوباش" الذين بالغوا في القتال على حدّ قول رشيد الدين^(٧)، وحين الآن موعد اجتياح جند، ولقد اقتربت الجيوش منها ووصلت إليها أنباء ما حلّ بجاراتها من خرابٍ ودمارٍ مما دفع قائد الحامية الخوارزمية الموجودة فيها إلى الفرار منها نحو الجرجانية تحت جنح الظلام سالكاً طريق الصحراء وتاركاً المدينة للأقدار^(٨)، وكعادة المغول قبل الشروع بأي عملٍ أرسلوا رسلاً من قبلهم يطلب من أهلها التسليم حقناً للدماء، وقد وقع اختيار جوجي و ألوش إيدي على جينتمور^(٩)

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٩؛ بارتولد، تركستان، ص ٢٩٥.

(٢) حسن حاجي: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٤؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٢٩؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٦.

(٥) أوزكند: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٦) أشناس: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٧) التاريخ الغازاني، ص ٢٢٩.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٩؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ٦٦؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ١١٤.

(٩) جينتمور: انظر تعاريف ص ٣٥٠

لينهض بهذه المهمة، وفعلاً توجه الرسول نحو المدينة وقابل سكانها الذين عزموا على قتله لولا أنه نبههم إلى مصير سكان سقناق، ووعدهم أن يمنع المغول من دخول مدينتهم والمكوث فيها لمدة طويلة^(١)، وقبل الأهالي وتمكن جينتمور بذكائه ودهائه من العودة سالماً إلى قائده جوجي ولقد ساعده في العودة سالماً كذلك الأمر انقسام الأهالي وتباين مواقفهم ما بين مؤيدٍ للتسليم ومعارضٍ له في ظل غياب قائدٍ للمدينة، نقل الرسول صورة كاملة عن حال المدينة لسيد جوجي والذي سارع بأمر الجيش بالتحرك نحوها وفرض الحصار عليها، والمباشرة بردم الخندق ونصب المجانيق والعرادات والصلالم الخشبية حول أسوارها. بينما لم يبدِ أهالي المدينة أية مقاومة تذكر، فقط اكتفوا بإغلاق أبوابها ومراقبة المغول وهم يحاولون تسلق أسوارها^(٢). وفعلاً نجحوا في ذلك دون مقاومة تذكر وفتحت أبواب المدينة وتم اقتحامها من دون أن يتعرضوا للسكان بأذى، بل طلبوا منهم إخلاء المدينة والتوجه نحو الصحراء حيث تركوا هناك لتسعة أيام، وخلال ذلك الوقت تمكن المغول من نهب محتويات المدينة وقتل بعض سكانها ممن عارض جينتمور، بعد ذلك غادر جوجي المدينة بعد أن عين حاكماً عليها وهو علي خواجه البخاري^(٣) الذي حاول النهوض بها بعد ما أصابها من كبواتٍ، وبقي فيها إلى أن توفي^(٤). لا بد من الإشارة بأن كلاً من الجويني ورشيد الدين الهمذاني يحددان تاريخ اجتياح جند في الرابع من صفر سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م^(٥)، بينما يرى بارتولد بأن هذا التاريخ مشكوك فيه والأصوب هو في سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م^(٦). و رأي بارتولد فيه شيء من الصواب فالمغول تحركوا نحو العالم الإسلامي في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وبحسب موقع المدن ومسير الجيوش فمن غير الممكن أن يكونوا وصلوا إلى جند واجتاحوها في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، بل في سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، والله أعلم! .

٣- اسقاط كل من مدينتي بناكت وخجندة:

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٠٤؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٠؛
(٢) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٠؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٦٩؛ الفقي، دول المستقلة في المشرق الإسلامي، ص ١٧٤.

(٣) علي خواجه البخاري: انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٥؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٠؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٤٠.

(٥) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٥؛ التاريخ الغازاني، ص ٢٣٠.

(٦) بارتولد، تركستان، ص ٥٩٠.

ذُكر من قبل بأن الخان عندما وصل إلى حدود أترار وضع خطة للاجتياح أساسها تقسيم جيشه إلى مجموعاتٍ كلّت كل مجموعة بالسيطرة على منطقة معينة من بلاد السلطان علاء الدين محمد، مجموعة كلّت باجتياح أترار، وأخرى مدينة جند، وثالثة الحوض الأعلى لنهر سيحون، ورابعة مدن بخارى وسمرقند، بالتالي كان أساس الخطة السيطرة على المناطق الحدودية وبعدها التوغل نحو الداخل، وتم هاهنا تناول المدن بحسب قربها من المناطق الحدودية المغولية وتسلسلها من أعلى نهر سيحون إلى الاسفل، لذا سيتم الحديث عن مدينتي بناكت، وخجندة.

ضمّ الحوض الأعلى لنهر سيحون أقاليم كثيرة من أهمها اقليم الشاش والذي يقع غرب اقليم فرغانة على الضفة الشمالية الشرقية لنهر سيحون^(١)، تتخلله العديد من الأنهار من أهمها نهر ايلاق والذي يعرف حالياً بنهر انكرن وعند التقاء ذلك النهر بنهر سيحون تقع مدينة بناكت^(٢) أو فناكت كما أطلق عليها المؤرخون الفرس^(٣). أما الجغرافيون العرب فعدوها قسبة اقليم الشاش^(٤) وكانت كغيرها من المدن في ذلك الزمان تتألف من مدينة تحتوي جامع وسوق، وتحيط بها البساتين، كما أنه أحاط بها سورٌ ضخّم منحها شيئاً من المنعة والحماية^(٥). بالتالي فقد كانت من المدن المهمة لذا اندفع المغول نحوها على رأس "خمسة آلاف جندي" بقيادة كلٍّ من آلاق نويان^(٦) وسكتو جربي^(٧)، ووصلت تلك القوات إلى المدينة وفرضت الحصار عليها وعلى الفرقة الخوارزمية الموجودة بداخلها والتي قاومت الحصار لمدة ثلاثة أيام^(٨)، ولكنها في اليوم الرابع استسلمت للمغول ربما نتيجةً لشدة الحصار الذي فرض عليها، أو ليأسها من الانتصار، أو لنفاد ذخيرتها، أو أنهم ظنوا باستسلامهم للمغول سيحفظون أرواحهم وينقذوا حياتهم، وكان هذا فعلاً ما

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٣.

(٢) أبو الفداء (إسماعيل بن علي ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م): تقويم البلدان، تحقيق: رينورد والبارون جاك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م، ص ٤٩٤.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٠.

(٤) البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م): مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٤م/١٣٧٤هـ، ص ٢٢٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٩٤؛ أما اقليم الشاش: انظر تعاريف ص ٣٤٦.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩٦.

(٦) آلاق نويان: انظر تعاريف ص ٣٥٠.

(٧) سكتو جربي: انظر تعاريف ص ٣٥١.

(٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٠؛ عكاشة (ثروت): اعصار من الشرق، مصر، دار الشروق، ط ٥، ١٩٩٢م، ص ١٨٢.

وعدهم المغول به، ولكنهم سرعان ما غيروا آراءهم ووزعوا السكان على مجموعاتٍ، تألفت الأولى من الجنود، والثانية من الحرفيين والصناع، والثالثة من الشبان، كان مصير الأولى القتل أما رشحاً بالسهم، أو طعنًا بالسيف، أما مصير الثانية فقد نجت من الموت وأُرسلت إلى عاصمة المغول قراقورم، أما الثالثة فأخذوا أسرى وتمت إضافتهم للجيش ليساهموا في اجتياح المدن الأخرى^(١). ربما لجأ المغول لهذا التصرف لخوفهم من السكان المحليين ومن ثورتهم على المغول بعد مغادرتهم لمدينتهم لذا فلم يرحمهم. بعد ذلك دُمرت المدينة بشكلٍ كاملٍ وبقيت خراباً لمدة طويلة^(٢).

لم يتطرق المؤرخون في مصنفاتهم لذكر أيّ نشاطٍ آخر للمغول ضمن إقليم الشاش، فقط أشاروا إلى مدينة بناكت، لينتقلوا بعدها مباشرةً للحديث عن أعمال المغول وطريقة اجتياحهم لإقليم فرغانة ذلك الإقليم التي يمتد نحواً من منتهي ميل إلى الشمال والجنوب من المجرى الأعلى لنهر سيحون^(٣). وقد تألف من مدنٍ عدة وكورٍ كثيرة، ولكن لم يحفظ المؤرخون في مصنفاتهم سوى معلوماتٍ قليلةٍ عن اجتياح المغول له، وجلّ تلك المعلومات تعلقت بمدينة خجندة أول مدن فرغانة من الغرب وأهمّها^(٤). تبعد عن سمرقند عشرة أيام وتألفت من قلعة حصينة بنيت بعيداً عن القلعة، وجد فيها سجنٌ ومقرٌ للحكم، أما المدينة فإنها حوت أسواقاً عديدة وجامعاً كبيراً وتخللها نهرٌ جرى في وسطها، كما أنّه أحاطت بها بساتين عديدة. ولكن على الرغم من كثرة بساتينها فإن غلاتها لم تكف سكانها لكثرتهم لذا فإنه كانت ترد إليها الغلات من نواحي إقليم فرغانة المختلفة^(٥).

عندما فرغ المغول من اجتياح بناكت توجهوا إليها ، ولكن لم يتطرق المؤرخون في أثناء حديثهم عن اجتياحها لذكر أسماء القادة المغول الذين توجهوا إليها، وإنما اكتفوا بذكر العبارة الآتية: " بعد أن فرغوا من فناكت توجهوا إلى خجندة تيمور ملك "^(٦)، ويفهم من العبارة السالفة

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧؛ غروسبه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٦٩؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٧.

(٢) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٥؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٢.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في المعرفة الاقاليم، ص ٢٦٢.

(٤) بارتولد، تركستان، ص ٥٢٢.

(٥) البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ص ٤٥٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٢؛ بارتولد، تركستان، ص ٢٧٧.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣١.

بأن القوات نفسها التي ساهمت في اجتاحت بناكت توجهت نحو مدينة خجندة، و ربما ألحقت بها قواتٌ إضافية عقب سقوط سمرقند الدليل على ذلك قول ابن الأثير: " أما الخان بعد أن سير طائفة في طلب خوارزم شاه وبلغه انهزامه من خراسان، قسّم أصحابه عدة أقسام فسير قسماً منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها ^(١) . بالتالي فإن القوات التي ساهمت في حصارها تألفت من خليطٍ متعدّدٍ من قواتٍ شاركت في معارك عديدة، ولكن سقوطها جاء متأخراً وذلك بعد سقوط معظم مدن ما وراء النهر وبشكلٍ خاص أترار وسمرقند وبخارى، ربما لحصانتها، أو لقوة دفاعاتها وإصرار الحامية الموجودة فيها على القتال، والدليل على تأخر اجتياحها قول الجويني: " فساقوا الفتيان الأسرى من أترار و بخارى وسمرقند والقرى الأخرى مدداً ^(٢) . بدأت العمليات العسكرية فيها سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، تولى الإشراف على المدينة القائد الشجاع تيمور ملك والذي تغنى الجويني بقوته لدرجة جعلته يصرّح بأن رستم ^(٣) كان ليغار من مقدار شجاعته وبسالته ^(٤)، و ساعده مجموعة من الجنود الخوارزميين الأقوياء، و وصلت جحافل المغول إلى المدينة، فانسحب تيمور ملك مع ألفٍ من فرسانه خارج المدينة وتحصنوا بالقلعة التي أقيمت في وسط نهر سيحون على جزيرةٍ صغيرةٍ مقابل مدينة خجندة ^(٥)، وكانت تلك القلعة من المناعة بمكانٍ لم تصل إليها حجارة المنجنيق أو رشقات السهام، و هنا اضطرب المغول وطلبوا المدد من الخان الذي أرسل لهم خمسين ألفاً من الأسرى الذين جمعهم من المدن المجتاحة وأضاف إليهم عشرين ألفاً من الفرسان المغول ^(٦) . و وصلت الإمدادات حيث عمد القادة المغول إلى تقسيم الأسرى إلى مجموعاتٍ عيّنوا على كلّ عشرة أفرادٍ منهم جندي مغولي، وكلّف هؤلاء بإحضار الحجارة من جبلٍ يبعد ثلاثة فراسخ عن مدينة خجندة وذلك لاستخدامها في بناء سدٍ لرفع منسوب نهر سيحون مما يمكن من إغراق القلعة التي تحصّن بها تيمور ملك ^(٧)، وفي المقابل لم يركن تيمور ملك بل جهز اثنا عشر زورقاً وغطى سقوفها باللباد السميك وطلّى ذلك اللباد بالطين المعجون بالخل ليحميها من نيران الأعداء وجعل فيها فتحاتٍ صغيرة لرمي النشاب، وعمد إلى إطلاق تلك

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٧.

(٢) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧.

(٣) رستم: انظر تعاريف ص ٣٥١

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧.

(٥) بارتولد، تركستان، ص ٥٩٢.

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣١؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٧.

(٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٨؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في ايران، ص ٦٠.

الزوارق في الصباح الباكر، أو في ساعات الليل المتأخرة لتتمكن من تدمير السد الذي بناه المغول، وتقتل أكبر عددٍ منهم، وفعلاً فإن هذه الزوارق سببت خسائر فادحة للمغول^(١). ولكن بدأت ذخيرة تيمور ملك من السلاح والغذاء بالنفاد، كما أن المغول فاقوه عدداً، وفعلاً فإن السد أدى مهمته مما سبب ارتفاع منسوب الماء. كل هذه الأسباب مجتمعة دفعت تيمور ملك إلى مغادرة القلعة على متن سبعين قارباً جهزهم لهذا اليوم، وزودهم بما بقي من الذخيرة والمتاع والقوات، وأبحر ليلاً مستعملاً أضواء المشاعل منحدرًا إلى أسفل مجرى النهر، واكتشف المغول تحركاته فما كان منهم إلا أن سارعوا لرشقه بالسهم كما أنهم وضعوا سلسلة حديدية في مجرى النهر عند مدينة بناكت لتعيق تقدمه، ولكنه تمكن من تحطيمها^(٢)، وتابع القائد الخوارزمي سيره إلى أن وصل إلى حدود مدينة جند عندها أمر جوجي^(٣)، أو ألوش أيدي كما ورد لدى الجويني^(٤) بحشد القوات على ضفتي النهر، وبناء جسرٍ من القوارب ونصب المنجنيق والعرادات^(٥)، كل ذلك لمنع تقدم تيمور ملك، وفعلاً سنحت الفرصة له ونزل إلى البر، ولكن المغول لم يمهلوه كثيراً بل استمروا في ملاحقته لعدة أيام، وبعد أن تمكنوا من قتل معظم مرافقيه، ولم يتبق معه سوى ثلاثة سهامٍ أحدها مكسور لحق به ثلاثة من جنود المغول فرمى أحدهم بسهمه المكسور فأصاب إحدى عينيه وقال للآخرين: "بقي لديّ سهمان بعددكما، وأرى أن تحافظا على روحكما ولا تقتريا"^(٦)، وفعلاً ابتعد عنه الجنديان وتركاه فما كان منه إلا أن عبر الصحراء متوجهاً إلى مدينة الجرجانية حيث التحق بالسلطان وبقي معه مدةً من الزمن، ولكن سرعان ما انفصل عنه واعتزل الحرب والسياسة واتجه نحو الدين وعاش عيشة المتصوفين، حيث سافر إلى بلاد الشام متنقلاً من مدينةٍ إلى أخرى، ولكن الحنين يدفع الإنسان دائماً للعودة والإقامة في بلده الأصيل فما كان منه إلا أن عاد إلى إقليم فرغانة وبدأ عملية البحث عن أسرته، وعند زيارته لمدينة خجندة التقى بولده هناك، ولكنه لم يتعرف عليه لكونه كان رضيعاً عندما تركه. ولكن أحد خدمه القدامى والذي استمر في خدمة ولده تعرف عليه، بينما أنكره آخرون خوفاً من أن يطالبهم بالودائع والكنوز التي خلفها وراءه واستولى عليها هؤلاء، وعندما لم يجد أملاً

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٨؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣١؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٧

(٢) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٨.

(٥) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣١؛ عكاشة، اعصار من الشرق، ص ١٨٣.

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٩.

يرجى توجه نحو مقر الحاكم المغولي لذلك الإقليم والذي قرعه وذكره بأعماله السالفة، وانزعج من تكبره وعدم احترامه له فما كان منه إلا أن أمر بقتله^(١)، وهكذا انتهت حياة قائدٍ شجاع أُرهِق المغول وكبدهم خسائر فادحة، ولكن انتهت حياته كما انتهت حياة قادةٍ كثيرٍ لإهمال قائدهم الأعلى، أو لعدم تقديم المدد اللازم لهم عندما تسوء أوضاعهم، أو لظروفٍ خارجة عن السيطرة، أو لأخطاء بدرت منهم.. ربما!.

وسقطت بناكت وخجندة ودمرتا وذبح سكانهما، ودمرت معهما الأقاليم العليا لنهر سيحون ، لكن المغول لم يقفوا عند هذا الحد بل تابعوا الزحف واجتياح باقي مدن ما وراء النهر.

٤ - التوجه نحو بخارى والاستيلاء عليها:

وزع الخان المغولي قواته عند أترار كما ذكر من قبل وتوجه بنفسه نحو بخارى، ولكن لابد من البحث عن كيفية توجهه نحوها، ومن ساعده من القادة في ذلك، هل وجدت مدن وقفت عثرة في طريقه قبل وصوله إليها؟ أم تابع زحفه نحوها بشكلٍ مباشر؟ أما بخارى فكيف كان حالها؟ وهل قاومت بشدة أم استسلمت للمغول دون قتال؟ وما هو مصير سكانها والحامية الخوارزمية الموجودة فيها؟ كلها أسئلة تطرح لابد من إيجاد أجوبة مقنعة لها.

و تحرك جنكيزخان نحو بخارى في شهر ذي الحجة من سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، يرافقه في حملته تلك ولده تولوي، بالإضافة إلى عددٍ من القادة الآخرين ذكر المؤرخون منهم كلاً من طابر بهادر، وسوبوداي مع القسم الأعظم من القوات المغولية والتي لم يذكر المؤرخون عددها بل اكتفوا بالإشارة لضخامتها في أثناء حديثهم عن حصار المدينة^(٢). قاد جنكيزخان الجيوش نحو بخارى، ولكن لم يرد ذكر للمسالك التي اتبعها في مسيره ذاك، هل اتبع الطرق المعروفة والتي كانت تصل أطراف الدولة الخوارزمية بعضها ببعض، وخاصةً أن بخارى تقع ضمن إقليم الصغد الممتد ما بين نهري سيحون وجيحون، وتبعد مسافةً لا بأس بها عن أترار^(٣). أم اتّبع طرقاً أخرى غير مطروقة أرشده إليها أدلاءً من سكان البلاد، ربما ما يهم في الأمر أن الخان ظهر أمام بلدة

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٨؛ الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣١؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٧.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٣.

زرنوق والتي يّعدها ياقوت الحموي إحدى البلدات المشهورة بما وراء النهر^(١)، بينما لم يرد لها ذكر لدى الجويني، أما رشيد الدين الهمذاني فقد أشار إليها بتعبير "قصبه"^(٢)، بينما وصفها بارتولد بقوله: "آخر منزلة قبل بلوغ شاطئ سيرداريا"^(٣)، و وصلت قوات المغول إلى المدينة على حين غفلة من سكانها الذين أذهلهم رؤية الجيش المغولي محيطاً بمدينتهم، وفارضاً الحصار عليها^(٤). وكعادة المغول بدايةً فإنهم أرسلوا رسولاً إلى أهل المدينة يخبرهم بعدم رغبة جنكيزخان في التعرض هو وجيوشه لمدينتهم في حال استسلامهم له حيث قال الرسول ما يلي: "إن الخان قد جاءكم في عسكرٍ كثيرٍ العدد والعُد لا ينقطع عنهم المدد، وقد وصل فإن أضمرتم خلافه في الخواطر يجري في الصحارى من الدماء أنهاراً، ويجعل أعلى الحصن أسفلاً ولا يخلّف منكم دياراً، وإن تقبلتم نصائحي ودخلتم تحت طاعته، سلّمت لكم النفوس والأموال والنساء والأطفال"^(٥)، ويفهم مما سلف أن الرسول عرض على سكان المدينة الاستسلام حقناً للدماء ، وإلا سيتعرضون للفناء المحتم، و عليه إن أهل المدينة انقسموا على أنفسهم ما بين مؤيدٍ ومعارضٍ للفكرة ولكنهم في النهاية وافقوا على الاستسلام فنجوا بأرواحهم^(٦)، وبعدها حان وقت التفاوض فطلب جنكيزخان خروج وفدٍ من وجهاء المدينة للتفاوض معه، وتأخر الوفد قليلاً في الخروج ربما لخوفهم من المغول، ولكن أخيراً خرجوا وقابلوا الخان في معسكره والذي حكم على سكان المدينة بخروجهم جميعهم إلى الصحراء^(٧)، وبعدها تمّ احصاء شبانها وفرض على قسمٍ منهم مرافقة الجيش للمشاركة في حصار بخارى، وسُمح للباقي بالبقاء في المدينة بعد هدم جميع تحصيناتها وأسوارها وأطلق عليها اسم "قتلغ باليغ" والتي تعني المدينة المباركة أو السعيدة^(٨)، ويبدو أن مدينة زرنوق كانت تتمتع بأهمية جغرافية و سياسية و اقتصادية لكونها كانت محاطة بالتحصينات، كما أن جنكيزخان أصّر على السيطرة عليها، ولكن من الملاحظ بأنه لم يكن فيها حامية خوارزمية لتتولى الدفاع عنها على الرغم من أهميتها، فإنه لو وجدت حامية ما لكان

(١) معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٩.

(٢) التاريخ الغازاني، ص ٢٣٤.

(٣) بارتولد، تركستان، ص ٥٨١؛ أما سيرداريا فهو اللفظ الفارسي الذي يطلق على نهر سيحون.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٢.

(٥) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٤.

(٦) فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٨.

(٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٤-١١٥.

(٨) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٤؛ بارتولد، تركستان ، ص ٥٨١.

المؤرخون قد ذكروها، ما يهم في الأمر أن الخان غادر المدينة متبعاً طريقاً جديدة أرشده إليها أحد الأدلاء التركمان من مدينة زرنوق، والذي ساعده في عبور الصحراء، ولقد أُطلق على ذلك الطريق فيما بعد اسم "راه خاني" والتي تعني طريق الخان^(١)، وقد أوصله لمدينة نور الواقعة إلى الشمال الشرقي من بخارى والتي تحدّها العديد من التلال ، تحتوي مسجداً جامعاً، والعديد من المزارات التي كان يرتادها الناس^(٢)، وشغلت المدينة مكانة مهمة لموقعها بين الصحراء والأراضي الزراعية لذا كثرت بساكنها واشتهرت بمزروعاتها^(٣)، و وصلت طليعة الجيش المغولي بقيادة طاهر بهادر، وأمضت الليل في البساتين المحيطة بالمدينة حيث انشغل المغول بصنع السلام من الأخشاب الموجودة فيها لكي يتمكنوا من إرتقاء الأسوار بسهولة ويسر، وفي صباح اليوم التالي تفاجأ السكان بالمغول، فقد عدّوهم بدايةً قافلةً تجاريةً مرّت بقرب مدينتهم، ولكن للأسف اكتشفوا فيما بعد بأنهم عبارةً عن قواتٍ غازية رغبة في السيطرة على مدينتهم^(٤).

وكعادة المغول أرسلوا رسولاً إلى المدينة يطلب من أهلها الاستسلام أو الفناء ، واختلف الأهالي فيما بينهم، ولكنهم أخيراً اتفقوا على الاستسلام شريطة أن يأتي القائد سوبوداي بنفسه ليتسلم المدينة، - ولربما كان سوبوداي أعلى مكانة من طاهر بهادر في الجيش المغولي - ففعلاً جاء سوبوداي وتسلم المدينة من سكانها، ولكنه سرعان ما أمرهم بإخلائها حاملين معهم فقط أدواتهم الزراعية ومواشيهم^(٥)، وفعلاً أخلى السكان المدينة واتجهوا خارجها ، وتعرضت بعدها المدينة للنهب والسلب من قبل المغول، وبعد أن انهوا عملية نهبهم اختاروا وفداً تألف من ستين رجلاً ترأسهم ابن حاكم نور: ايل خواجه وتمّ ارسالهم للالتحاق بقوات الخان المغولي المتوجهة نحو بخارى، وقد التقى الخان بالوفد وسألهم عن مقدار الأموال التي كانوا يؤدونها إلى السلطان الخوارزمي وطالبهم بالمبلغ نفسه والذي بلغ ما يقارب ألف وخمسمائة دينار، حيث أخذها من السكان، وأمر المغول بمغادرة المدينة وسمحوا لأهلها بالعودة إليها^(٦)، وبالتالي نجت المدينة من التدمير والقتل، كما نجت جارتها زرنوق، ولكن ما يلاحظ بأنه لم يشر إلى هدم أسوار المدينة،

(١) بارتولد، تركستان، ص ٥٨١.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى ، ص ٢٧.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٥، ص ٣١٠.

(٤) بارتولد، تركستان، ص ٥٨٢.

(٥) رشيد الدين الهمداني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٥؛ طقوش، تاريخ المغول العظام والایلخانيين، ص ٦١

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٥؛ رشيد الدين الهمداني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٥؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٦٨؛

بارتولد، تركستان، ص ٥٨٢.

أو التعرض لسكانها بأذى، وإنما اكتفوا بقبول الطاعة من أهلها وأخذ الأموال منهم، كما أنه يلاحظ بأنه لم يرد أي ذكر لوجود حامية خوارزمية فيها، ومن خلال قراءة مجريات الأحداث فيها فإن جلّ سكانها كانوا من المزارعين، والدليل على ذلك كثرة البساتين المحيطة بها، إضافةً لحرص السكان على اصطحاب أدواتهم الزراعية وماشييتهم عندما طلب المغول منهم مغادرة المدينة، ولقد سمحوا لهم بذلك على الرغم من احتقارهم للمزارعين وإفناء أعداد كبيرة منهم في الصين، إلا أنهم هاهنا لم يتعرضوا لهم بأذى، إما لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم، أو يرغبون في الحصول على أكبر عددٍ من المدد والحشر والذي سيساعدهم في اجتياح بخارى.

وتوجه الخان نحو بخارى مجتازاً إقليم الصغد، ليصل إلى المدينة التي عدّها بعض المؤرخين من كور خراسان^(١)، بينما ألحقها آخرون بمنطقة بلاد ما وراء النهر^(٢)، ومهما يكن الأمر فإن تلك المدينة تقع في مستوى من الأرض على نهر زرفشان^(٣)، و تبعد عن الجبال وتحيط بها البساتين والمدن والقرى وما يميز بخارى عن غيرها بأنها على الرغم من تدميرها أكثر من مرة على يد الغزاة إلا أنها بقيت تشغل الموضع نفسه الذي بنيت فيه لأول مرة^(٤)، وتألّفت المدينة من القلعة والتي تقع في الجزء الشمالي الغربي من المدينة وهي منفصلة عنها، ولقد شغلت مكانةً مهمةً واعتُني بها فقد كانت تحوي قصر الإمارة ودار الخزانة، إضافةً للحبس والمسجد الجامع إلا أنها تعرضت للتدمير أكثر من مرة وجرى ترميمها من قبل السلطان علاء الدين محمد سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م^(٥). ولقد تألفت المدينة كذلك الأمر من الشهرستان^(٦) المحاط بسور له سبعة أبواب، وكان الشهرستان هذا مبني في جهة مرتفعةٍ لذا كان إلزاماً على سكان المنطقة تأمين مياه الشرب له، ولهذا كثرت قنوات الري والتي تفرعت عن قناة رئيسية أطلق عليها اسم رود زر " أي نهر الذهب"^(٧). وتألّفت مدينة بخارى كذلك من الأرباض وهي عبارة عن مجموعة من الضواحي

(١) الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ت. في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، ١٩٨٠م، ص ٨٢؛ ابن رسته (أحمد بن عمر ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م): الأعلاق النفيسة، ليدن، المكتبة الجغرافية، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ص ١٠٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤١٩.

(٣) نهر زرفشان: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٤) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٠٩؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٣.

(٥) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٤٤-٤٥.

(٦) شهر بلغة الفرس مدينة واستان الناحية، والتي تعني مدينة الناحية أو قلب المدينة؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٨٢.

(٧) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٤٠؛ بارتولد، تركستان، ص ١٩٤.

أقيمت بين الشهرستان والسور والذي أحاط بالمدينة والربض وامتد على مسافة اثنا عشر فرسخاً واحتوى على أحد عشر باباً أطلق عليها تسميات مختلفة. ولابد من الإشارة بأن هذا السور بني سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩ م لأسبابٍ دفاعيةٍ وقد اهتم السكان به ورمموه أكثر من مرة^(١)، واشتهرت المدينة كذلك الأمر بكثرة قراها التي بلغت اثنتين وعشرين قرية، وازدحام سكانها وتشابك دورها التي كان معظمها مبني من الخشب باستثناء بعض الأبنية المهمة التي استعمل الآجر في بنائها^(٢)، وبعد هذا العرض البسيط لمخطط بخارى لابد من توضيح الأسباب التي دفعت الخان المغولي إلى التوجه إليها ربما لرغبته في تقطيع أوصال الدولة الخوارزمية لكونها تقع في قلب الدولة، وبسيطرتها عليها يقطع طريق الامدادات والاتصال بينها وبين المدن المحيطة بها^(٣). أو لمكانتها المهمة فهي وصفت على مرّ العصور بكونها قبلة الاسلام وقاعدة ملوك ما وراء النهر، كما أنها كانت مجمعاً للعلماء والأدباء ومركزاً تجارياً مهماً^(٤). أهم ما في الأمر أن الخان المغولي رغب في استعادة النقرة^(٥) التي استولى عليها السلطان علاء الدين محمد من القافلة التجارية وأقدم على بيعها إلى تجار بخارى، لذا فإن الرغبة في الانتقام هي التي دفعته نحوها^(٦)، ومهما كانت الأسباب فقد توجه المغول إليها إما في شهر ذي الحجة من سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م كما ذكر ابن الأثير^(٧)، أو في شهر محرم من سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م كما ذكر كلٌّ من الجويني ورشيد الدين الهمذاني^(٨)، وليس هناك من فرقٍ كبير بين التاريخين، ولربما وصل الخان إلى مشارف المدينة في أواخر سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ولم يفرض حصاره عليها إلا عند بداية سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م عندما اكتملت التجهيزات لذلك. ونظراً لمكانة بخارى وأهميتها فهي تعدّ من المدن الرئيسية في ما وراء النهر، فقد وضع السلطان فيها حامية عسكرية ضخمة، اختلف المؤرخون في تحديد عددها، فالنسوي حددها بثلاثين ألف مقاتل بقيادة اختيار الدين كشلي أمير آخور، وأغل حاجب الملقب باينانج خان^(٩)، أما الجويني ورشيد الدين الهمذاني فحددا عددها

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٤٠، ٥٩؛ بارتولد، تركستان، ص ١٩٦-١٩٨.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٤٠، ٥٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤١٩؛ بارتولد، تركستان، ص ٢٠١.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠٠-١٠١.

(٤) القرماني، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، ص ٢٨٥؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الامصار، ج ٢٧، ص ١٥٧.

(٥) القطعة المذابة من الذهب والفضة؛ الأمين، الغزو المغولي للبلاد الاسلامية، ص ٤٨.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩.

(٧) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٩.

(٨) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٥؛ التاريخ الغازاني، ص ٢٢٣.

(٩) سيرة السلطان، ص ٩٠؛ انظر تعاريف ص

بعشرين ألف مقاتل^(١)، ووصل جنكيزخان إلى المدينة فارضاً حصاراً محكماً عليها وعلى قلعتها، ومستخدمًا وسائل الحصار المعتادة، واستمر ذلك الحصار لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الثالث نشب خلافٌ بين قادة بخارى، فمنهم من رغب في الخروج لمواجهة المغول^(٢)، وآخرون ارتأوا البقاء داخل المدينة، وفريقٌ ثالثٌ وجد بأن الفرار أفضل الحلول المتاحة للمحافظة على أرواحهم^(٣). كما تباينت مواقف السكان، تباينت معها آراء المؤرخين حول مصير الحامية الخوارزمية التي كانت موجودة في القلعة، والتي حاصرها الخان بشدة، وفريقٌ رأى بأنها غادرت المدينة واتجهت نحو خراسان^(٤)، ومنهم من جعل الموت مصيراً لها، وذلك عندما خرج اينانج خان برفقة حميد بور مع مجموعة كبيرة من القوات ليلاً واخترقوا صفوف المغول الذين أفسحوا الطريق لهم مكرًا وخديعةً، ولكنهم سرعان ما لحقوا بهم عند نهر جيحون وأفنؤهم ولم ينجُ منهم سوى شرذمة قليلة بقيادة اينانج خان^(٥). ومنهم من عدّ الموت مصير القادة والجند جميعهم^(٦)، ويستخلص مما سلف بأن الموت والفناء كان مصير القسم الأعظم من الحامية الخوارزمية، أما الباقي فإنه إما فرّ، أو تحصن بقيادة كوك خان في القلعة، ولقد بلغ عددهم أربعمئة مقاتل^(٧)، أو اختبأ ضمن دور المدينة^(٨). وأضحت المدينة من دون حاميةٍ ترد عنها ويلاّت المغول لذا تباحث سكانها فيما بينهم وارتأوا الاستسلام إلى القوات المغولية فما كان منهم إلا أن أرسلوا وفدًا من وجهاء وأئمة المدينة التقوا بالخان معلنين استسلامهم له، ودخل بعدها الخان معهم المدينة بعد أن غادرها معظم سكانها^(٩)، وتباينت آراء المؤرخين حول دخول المغول إلى المدينة ومصيرها بعد ذلك، فابن الأثير مثلاً أشار إلى أن أبواب المدينة فُتحت ودخلها الخان من غير التعرض لسكانها بأذى، بل طالبهم بالأموال السلطانية وبمساعده على حصار القلعة^(١٠)، وبينما كانت حادثة الدخول لدى

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٦؛ رشيد الدين الهذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٥.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٦.

(٣) رشيد الدين الهذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٥؛ فلاديمير ستوف، حياة جنكيزخان الادارية والسياسية والعسكرية، ص ١٧٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، الطبعة ٦٢، ص ٤٠.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠١؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٣؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨١.

(٦) رشيد الدين الهذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٥.

(٧) الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٤٠؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٤.

(٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٧.

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩؛ فامبري، تاريخ بخارى، ص ١٧٠؛ طقوش، تاريخ المغول العظام والایلخانين، ص ٦١.

(١٠) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩.

كلّ من الجويني ورشيد الدين الهمذاني مغايرةً لما كتبه ابن الأثير، فقد تحدثا عن دخول الخان إلى المدينة وتوجهه نحو المسجد الجامع ظناً منه أنه قصر السلطان، ولكن لما علّم بأنه بيت الله اقترب من المنبر الذي ارتقاه ولده وطلب من سكان المدينة اطعام خيوله وجنوده، فلم يجد هؤلاء غير صناديق المصاحف ليضعوا فيها طعام خيولهم، وبعدها بدأت عملية نهب المدينة وتحول الجامع إلى مكانٍ للهو والرقص وتناول المسكرات، كما أنهم سخرّوا من العلماء واستخدموهم كسائسين للخيول مما سبب استنكار البعض ولكنهم لم يستطيعوا الاعتراض لخوفهم من عقوبة المغول^(١)، وأمضى الخان بضع ساعاتٍ في جامع بخارى بحسب الرواية السالفة ليغادره بعد ذلك ويتجه نحو مكانٍ مخصصٍ لصلاة العيدين، حيث اجتمع هناك بالناس ووجهاء المدينة الذين بلغ عددهم مئتين وثمانين شخصاً مئة وتسعين من سكان المدينة، وتسعين تاجراً كانوا في بخارى لغرض التجارة. خطب الخان بهم مقررماً بداية السلطان ومشيراً إلى غدره، ومخبراً إياهم بأنهم أذنبوا لذلك أرسله الله ليعاقبهم على ذنوبهم^(٢) حيث قال: " اعلّموا إني عذاب الله ولو لم تكونوا قد ارتكبتم الكبائر من الذنوب لما كان الله قد سلّط عذاباً مثلي عليكم "^(٣)، وهكذا دوّن كلّ من الجويني ورشيد الدين الهمذاني طريقة دخول المغول لمدينة بخارى، ربما فيها شيء من المبالغة، فمن المستبعد أن يخطب الخان بالناس لاختلاف اللغة أولاً، ولكونه شاماني لا يؤمن بالتعاليم والديانات الموجودة وبفكرة العذاب والذنوب التي ينزلها الربّ على عباده، وربما قرّع السكان قليلاً، والأكد أنه طالبهم بالأموال وأساء التصرف في المساجد والجوامع وما وجد فيها من كتبٍ مقدسة عن جهلٍ وليس عن قصدٍ. سيطر الخان على الشهرستان، وحان الآن وقت السيطرة على القلعة والتي كانت تقع في الطرف الشمالي الغربي منها والتي يحيط بها خندق وأسوار عالية^(٤)، وفرض الحصار عليها مستعملاً المنجنيق والأقواس وقاذفات اللهب، واستعان بسكان المدينة لردم خندقها مجبراً إياهم على ذلك العمل^(٥).

و استمر المغول في حصارهم للقلعة التي تحصن بها كوك خان مع أربع مئة فارس حيث ناوشوا المغول بين الفينة والأخرى، ولكن اشتدت وطأة الحصار وتمكن المغول من احداث ثغرة في

(١) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٦؛ التاريخ الغازاني، ص ٢٣٦.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٦.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٦.

(٤) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٤٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٧١؛ يارتولد، تركستان، ص ٥٨٣.

أسوارها، واحرقوا بابها مما مكّتهم من اقتحامها وأسر وقتل كلّ من وجدوه فيها^(١)، وبعد أن سويت أسوار القلعة بالأرض وسيطر عليها المغول، رجع هؤلاء واتجهوا نحو المدينة من جديد حيث عاود الخان مطالبة الأغنياء من أهلها والذين كان عددهم حوالي مئتين وثمانين فرداً بأن يخرجوا دفائن أموالهم وأوكل أمرهم إلى معتمدين تولوا عملية جمع الأموال، وبعدها عمد إلى قتل ثلاثين ألفاً من سكانها ربما هؤلاء كانوا من بقايا الجنود الأتراك، أو من السكان الذين لم يخضعوا للمغول،^(٢) ولم يقدروا على تحمل ما ارتكبه هؤلاء بحق المقدسات والنساء والأطفال فقاتلوا حتى قتلوا وقد كان منهم الفقيه ركن الدين إمام زاده وولده، والقاضي صدر الدين خان^(٣)، أو ربما كانوا ضحايا بريئين قتلوا ظلماً بسهام المغول وسيوفهم عندما اجتاحت المدينة^(٤). وبعد أن انتهى الخان من أمر المدينة نشبت النار فيها ، واحترق معظم دورها وتحولت إلى رمادٍ لكون معظمها قد بني من الخشب باستثناء مسجدتها الجامع وبعض القصور والتي كانت مبنية من الآجر، ولقد اختلف المؤرخون في تعليل السبب الذي أدى لاحتراقها، فقسم عدّ حرقها بأمر من الخان المغولي^(٥)، ومنهم من تحدث عن كونها عقوبةً نفذها الخان بحق السكان الذين قدموا الحماية للجنود الخوارزميين وسمحوا لهم بالمكوث في منازلهم، وساعدوهم في هجماتهم التي نفذوها ضد المغول، لذا عقاباً لهم أمر الخان بإحراق منازلهم^(٦)، وفئة أرجعت سبب احتراقها للعمليات التي تخللت نهب المدينة ، فلربما سببت احتراقها من دون قصدٍ، ولكن كان لازدحام منازلها وتشابكها برأيهم دورٌ في سرعة احتراقها والعجز عن السيطرة على ذلك الحريق الذي أتى على المدينة كلها^(٧)، ومهما كان السبب فقد تحولت المدينة إلى " أطلالٍ ملتهبة " كما عبّر عن ذلك غروسية^(٨)، أما من بقي من سكانها فقد سيّق أسيراً ليساهم في اجتياح مدينة سمرقند^(٩). وتحولت المدينة إلى قاعٍ صافٍ، كأنها لم تغنِ بالأمس، ولم تكن تنبض بحياة، وغادرها الخان بعد أن عيّن عليها شحنةً

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج ١٧، ص ٨٠؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٦٧.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٨؛ الذهبي، تاريخ الاسلام ، ط ٦٢، ص ٤٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٨٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٩؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٧؛ الحميري ، الروض المعطار، ص ٨٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٨٠.

(٦) الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٤٠؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٧؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام، ج ٢، ص ١٧١.

(٧) بارتولد، تركستان، ص ٥٨٣؛ فلاديمير ستوف، حياة جنكيزخان الادارية والعسكرية والسياسية، ص ١٧٩.

(٨) جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٥.

(٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٨.

حاول إعادة بنائها من جديد^(١)، وعندما توفي الخان وخلفه ولده أوكتاي اهتم بمدينة بخارى حيث عيّن شحنة عليها صاحب يَلّواج^(٢)، و الذي شجع الناس بداية على العودة إلى المدينة، التي تحسنت أحوالها وعادت لها نبضات الحياة من جديد^(٣). ولكن بقيت آثار الدمار والخراب ماثلةً للعيان فيها، واستمرت على هذه الحال إلى أواخر القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد حيث استعادت بعضاً من رونقها السابق^(٤)، وقد كان لسقوط بخارى وقعٌ هائل على السلطان علاء الدين محمد حيث فقد بسقوطها الأمل وغادر بلاد ما وراء النهر إذ عبر جيحون إلى خراسان، كما أنه كان لهذه الهزيمة وقعها الثقيل على بعض القواد من أقربائه والذين فارقوه برفقة سبعة آلاف مقاتل من الخطأ، مما يشير إلى مدى تدهور العلاقة بين السلطان وأقربائه مما ساهم في زيادة ارتباكهم وخوفهم وبدا هائماً على وجهه لا يدري ما يخفيه القدر له^(٥)، و لم يركن الخان إلى الهدوء بعد سقوط بخارى، وإنما تابع مسيره نحو بقية من مدن ما وراء النهر و كان الأقرب إلى بخارى مدينة سمرقند والتي سيأتي الدور عليها الآن.

٥ - اجتياح سمرقند وتخريبها:

" كأنها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للإطباق"^(٦). هكذا وصفت سمرقند فهي مدينة رائعة الجمال يعود جمالها الأخاذ إلى خضرتها وتنظيم بنائها واتساع حدائقها، وتقع تلك المدينة على بعد مئة وخمسين ميل شرقي بخارى، و جنوبي نهر الصغد " زرفشان "^(٧) الذي وهب الحياة لها إلى درجة دفعت الرحالة إلى وصفها بقولهم: "مدينة أقنية"^(٨)، مما يبرهن على مدى عناية أهلها بقنوات الري التي تفرعت عن النهر وامتدت إلى كافة أجزاء المدينة^(٩)، تلك المدينة التي تألفت من قلعة وشهرستان حوى العديد

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٩.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥١

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٠.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٦.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠١؛ أبو شامة، نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلانية والجلانية، ص ٢٩.

(٦) النسفي (عمر بن محمد ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م): القند في ذكر علماء سمرقند، تحقيق: يوسف الهادي، تهران، ١٩٩٩، ج ١، ص ١٢.

(٧) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٦.

(٨) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٨٧.

(٩) نومكين (فيتالي): سمرقند، ترجمة: صلاح صلاح، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٧.

من الأسواق والحمامات والمساجد، وحوى كذلك الأمر أرياضاً واسعة انتشرت على طول النهر، وتتنوع فيها المزروعات من أشجارٍ مثمرة إلى خضراوات ورياحين وورود، منحت الحياة إلى سكانها وحولت المكان إلى روضةٍ غناء^(١)، وأحاط بالمدينة سورٌ حوى أربعة أبواب وأحاط به خندق ساهم في حماية المدينة من هجمات الأعداء^(٢)، نالت سمرقند شهرةً كبيرة لموقعها الجغرافي الفريد عند ملتقى طرق التجارة العالمية القادمة من الشرق والغرب مما جعلها مركزاً تجارياً مهماً وساهم في تطوير صناعاتها التي اشتهر منها صناعة المنسوجات^(٣).

فلقد كانت سمرقند مدينة في أوج ازدهارها ونشاطها التجاري والصناعي حلت بها كارثة على يد فرقة من المغول، وهذا ما سوف يوضح فيما يلي:

بدايةً تمتعت سمرقند بمكانةٍ مهمةٍ فهي كانت مركزاً لأسرة حكمتها ودخلت في علاقاتٍ ودية مع السلطان علاء الدين محمد والذي زوج إحدى بناته من حاكمها^(٤)، الذي أساء بدوره السيرة فعاقبه السلطان بأن حكم عليه بالموت وضمّ سمرقند إلى دولته^(٥)، واهتم السلطان بسمرقند عند اقتراب الخطر المغولي فحصنها وقد تمّ التطرق للحديث عن ذلك^(٦)، و رغب جنكيزخان بالسيطرة على المدينة ولقد وجدت الرغبة لديه منذ وصوله لأتزار وتوزيعه الجنود وإرسالهم إلى أطراف الدولة الخوارزمية، ولكن ما سمعه عن سمرقند ومقدار حصانتها منعه من الاسراع بإرسال الجيوش إليها، بل استولى بدايةً على بخارى، ونظّم قواته وتمكن من السيطرة على ما جاورها من مناطق وبعدها اتجه نحو سمرقند^(٧)، وفي طريقه إليها لم يتعرض للمدن والبلدات على طول الطريق بأذى، بل اكتفى بأخذ الأمان من بعضها، ترك بعض قواته أمام أسواره لمعاقبة من ناصبه العداء كما حدث مع مدينتي سربل^(٨) و الدبوسية^(٩)، و بعد أن قطع مسافةً لا بأس بها

(١) الحديثي، أرباع خراسان، ص ٤٩٩.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ١٧٠.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٩؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٣٥.

(٤) انظر الفصل الأول

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٧؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٢٣

(٦) انظر ص ١١٦، ١١٧.

(٧) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٧-٢٣٨؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٥؛ صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ١٧٩.

(٨) هكذا وردت لدى الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٥؛ انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٩) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٨؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٥؛ أما الدبوسية: انظر تعاريف

ص ٣٤٨

على ضفتي نهر زرفشان توقف الخان عند سمرقند التي وصل إليها في شهر ربيع الأول من سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م متخذاً من قصرها الذي دُعي "كوك سراي" والذي وقع خارجها مركزاً لإدارة عملياته العسكرية^(١)، و بدايةً لم تذكر المصادر عدد القوات المغولية التي شاركت في أعمال سمرقند ومن تولى قيادتها الفعلية في المعركة، وإنما اكتفت بذكر أن القوات كانت بقيادة جنكيزخان وأنها تألفت من الخيالة التي وصلت في اليوم الأول من أيام الحصار، تلتها الرّجاله والتي ضمت أعداداً كبيرة من الحشر^(٢) وكان معهم آلات الحصار المعتادة ، وبعدها قدمت القوات التي شاركت في الاستيلاء على أترار وكان يقودها كلٌّ من جغتاي و أوكتاي، ولحق بهما كلٌّ من جبه وسوبوداي حيث أمرهم جنكيزخان بالعسكرة خلفه^(٣). بالتالي لم يتطرق المؤرخون لذكر أعداد القوات بل وصفها معظمهم بأنها قواتٌ لا حصر لها، كما أن المصادر العربية كذلك الأمر أهملت الحديث بشكلٍ كامل عن أعداد القوات وقوادها. هذا فيما تعلق بالقوات المغولية، أما القوات التي وجدت داخل سمرقند فقد تباينت أعدادها لدى كلٍّ من المؤرخين العرب والفرس، فابن الأثير مثلاً جعل عدد القوات خمسين ألفاً من الخوارزمية وأضاف بأنه وجد عدد لا يحصى من العامة^(٤)، ولقد نقل عنه معظم المؤرخين العرب الذين تحدثوا عن حصار سمرقند^(٥). أما فيما تعلق بالمؤرخين الفرس بدايةً كان النسوي أول من أشار لأعداد قوات سمرقند فقد حدد عددها بأربعين ألف بقيادة خال السلطان^(٦) يرافقه العديد من أمراء الغور^(٧)، والنسوي الذي كان من

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٦؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٤؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٦.

(٢) الحشر أو الحشرية الأسرى من الشبان من سكان المدن المجتاحة والذين كان يرى المغول فيهم القدرة على استعمالهم في الحروب، فكانوا يساقون من مدنها ويقفون في مقدمة الجيوش لتلقي الضربات الأولى لتخفيف الضغط عن الجيش المغولي؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٩؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٨؛ بارتولد، تاريخ تركستان، ص ٥٨٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤٣؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٤١؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧؛ ص ٢١٣.

(٦) وهو طغان خان؛ النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٠.

كتاب الانشاء^(١) في الدولة الخوارزمية، لذا فإنه كان على اطلاع بقرارات الدولة والاجراءات التي تتخذها. لكن يلاحظ بأنه لم ينقل أحد من المؤرخين الذين تحدثوا عن حصار سمرقند عن النسوي، بل اعتمد معظمهم بدرجة كبيرة على رواية ابن الأثير لكون كتابه كان واسع الانتشار بشكلٍ مكن جمهور المؤرخين من الاعتماد عليه، و وجدت كذلك رواية ثالثة عن عدد الحامية الخوارزمية ذكرها كل من الجويني ورشيد الدين الهمذاني ومفادها أن الحامية تألفت من مئة وعشر آلاف جندي، يضاف إليهم ستون ألفاً من أتراك، وخمسون ألفاً آخرين مع عشرين فيلاً تمت الاستعانة بهم^(٢). ولكن لم يشر المؤرخون إلى المصدر الذي اعتمدا عليه في روايتهما السالفة، ولربما العدد مبالغ فيه، أو أنهما استقيا معلوماتهما من مصادر مغولية ضخمت أعداد الحامية، لتضفي هالة كبيرة على انتصار المغول هناك، ومهما كانت الأعداد تلك فقد كان الجنود متفرقي الأهواء والنفوس، وتعوزهم القيادة الصارمة والجريئة التي لربما كانت مكنتهم من الانتصار أو على أقل تقدير من المحافظة على أرواحهم. و وصلت القوات المغولية وحطت رجالها عند المدينة، بعدها شرع الخان المغولي بالطواف حول أسوارها التي أدرك مدى مناعتها ، وكثرة الأبراج الدفاعية فيها، اضافةً إلى وجود خندقٍ مملوءٍ بالماء أحاط بها^(٣)، وبعد أن عاين الخان الموقع تمت عملية تنظيم القوات وتقسيم القوات الحشوية إلى مجموعاتٍ كل مجموعة تألفت من عشرة أشخاص حملوا علماً معيناً، وتم وضع هؤلاء في المقدمة، وتلاههم قوات الخيالة ، وبدأت بعدها عملية تراشق السهام^(٤)، وتشجع أهل البلد أكثر من الحامية وخرج قسمٌ منهم واصطدم مع المغول وقتل من الطرفين عددٌ لا بأس به بحسب المرويات الفارسية التي تطرقت للحديث عن الموضوع^(٥)، ولكن عند ابن الأثير اندفع سكان المدينة خارجاً واشتبكوا مع المغول الذين انسحبوا إلى الخلف ونصبوا كميناً لهم وقتلوا منهم أعداداً كبيرة بلغت حوالي السبعين ألفاً، ومهما يكن عدد الذين قتلوا فإنه يدل على مقدار ضخامة ذلك الصدام، ويدل أيضاً على موت أعدادٍ لا بأس بها من المغول، ويشير إلى أن الحامية لم تشترك بعمليات القتال بل وقفت بدايةً

(١) وهو الذي تولى الاشراف على ديوان الانشاء وهو من أجل الكتاب وارفعهم درجة لكونه ينشاء من نفسه، ويتولى كتابة مراسلات الملوك؛ القلقشندي، الصبح الأعشى ، ج ١، ص ١٣٠.

(٢) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٩؛ التاريخ الغازاني، ص ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٦؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٥.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٧؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٨؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٦٠.

موقف الحياد ربما لسبب معين أو لخوفٍ انتاب أفرادها^(١). و بعد يوم الصدام ذاك أحكم المغول حصار المدينة و داوموا رشقها بالسهام والحجارة، ولم تنفع مع السكان محاولاتهم لمهاجمة القوات المغولية سواء بطلعاتٍ قام بها بعض الشجعان، أو باستعمال بعض القيلة التي وجدت داخل المدينة، مما ادخل اليأس إلى قلوب السكان الذين انقسموا مابين راغبٍ في القتال، وآخر مؤيدٍ لفكرة الاستسلام، وثالثٍ منحازٍ إلى لقوات المغولية، مما دفعهم إلى ذلك الموقف أيضاً على حدّ قول ابن الأثير استسلام حامية المدينة للمغول لظنهم أنهم أترك أقباء في الدم، لذا سيعفون عنهم ، وفعلاً طلب المغول منهم تسليم أسلحتهم ولكنهم سرعان ما تنكروا لوعودهم وأعملوا السيف في رقابهم وقتلوهم جميعاً^(٢)، لذا أرسل السكان القاضي وشيخ الاسلام^(٣) إلى مقابلة الخان الذي قابلهم وأعطاهما الأمان لهما ولكل فردٍ التجأ إليهما، وفي المقابل وعده بفتح أبواب المدينة في وقت الصلاة ليدخل المغول إليها من بوابة نمازگاه^(٤)، وفعلاً تمّ هذا الأمر مما يشير إلى الدور الذي شغله رجال الدين في التخفيف نوعاً ما عن أهل المدن التي اجتاحتها المغول^(٥)، ودخل المغول قلب المدينة وباشروا فوراً بهدم الأسوار والتحصينات الدفاعية وتسويتها بالأرض، وبعدها أقدموا على تخريب الشهرستان وتدميره، كما أحرقوا قسماً منه، وعمدوا إلى إخراج السكان على شكل مجموعاتٍ إلى الصحراء بينما احتّمى بالقاضي وشيخ الاسلام ما يقرب من خمسين ألف نسمة لم يتعرض لهم المغول^(٦)، وبعدها في اليوم الثاني نادى منادي في أرجاء المدينة بأنه من اختفى وتوارى قتل، وفعلاً كلّ من عُثِر عليه مختبئاً تمّ قتله^(٧)، واستسلمت سمرقند إلى مصيرها وقد وصف ابن الأثير ما فعله المغول بها حيث قال: "فعلوا مع سمرقند مثل فعلهم ببخارى من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤٠.

(٣) شيخ الاسلام من ألقاب التشريف المركبة ومعناه شيخ علماء الاسلام ولقد استعمل في العصور الاسلامية المتأخرة، وهو من أعلى المناصب في الدولة، ولقد أطلق على فقيه معين أو عالم نال ثقة السلطان؛ الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص ٣٨٣.

(٤) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٩؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٦؛ أما بوابة نمازگاه: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٥) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٩؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٧.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٤؛ فهمي، تاريخ المغول في ايران، ص ٦٢؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤٣.

البلد على حاله وافتضوا الأبيكار، وعذبوا الناس في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي^(١). هكذا كان حال الشهرستان ولكن سمرقند تألفت إضافةً لذلك من أرباضٍ وقلعة حصينة احتوت على مقارٍ للأسرة الحاكمة، فدون أدنى شك قد دُمرت تلك القلعة وسويت بالأرض، لكون بعض القوات الخوارزمية التي رفضت الاستسلام بقيادة ألب خان التجأت إليها^(٢). و بدايةً أحكم المغول حصارها ونصبوا المجانيق حولها وشرعوا برشقها بالسهم والحجارة، ولقد تمكّن قائد الحامية مع ألف من جنوده من الاندفاع بسرعةٍ إلى خارج القلعة واختراق قوات المغول وتمكّن من الفرار والتحق فيما بعد بقوات السلطان^(٣). أما باقي الجنود الذين لم يتمكنوا من الفرار، فقد واصلوا القتال ببسالة، لذا اعتصموا بجامع القلعة واستمروا يحاربون المغول الذين رموهم بالنفط الحارق، كما أنهم منعوا عنهم الماء وذلك بتخريبهم للقناة الرصاصية^(٤) التي زودت المدينة والقلعة بالماء، ومن بعدها عمدوا إلى تدمير سكر الماء، مما سبب غمر مساحاتٍ شاسعة من الأراضي، ولم يصمد هؤلاء لمدة طويلة فسرعان ما تمكّن المغول من قتلهم وتدمير المسجد الجامع والقلعة^(٥). وهكذا سقطت سمرقند بشكلٍ كاملٍ واستسلمت للدمار والتخريب حيث تحول الناس على حدّ قول الجويني بين "حريقٍ وغريقٍ وميتٍ تحت الأنقاض"^(٦). والسؤال الآن ما هو مصير السكان يا ترى؟ طبعاً تعرض معظمهم إلى الفناء، فثلاثون ألفاً منهم تم قتلهم وقد كانوا في معظمهم من الجنود، ولقد قتل من قادتهم على حدّ قول الجويني ورشيد الدين الهمذاني اللذين انفردا بهذه الرواية كلّ من ترسماس خان، وتغاي خان، وسرسيغ خان، وأولاغ خان إضافةً لعشرين آخرين من الأمراء^(٧) وثلاثين ألفاً من أهل الصنائع والحرف تم توزيعهم على أفراد الأسرة المغولية وارسالهم إلى قراقورم، وثلاثين ألفاً من الشباب تمّ ضمهم لقوات الحشيرة ليساهموا في أعمال اجتياح خوارزم وخراسان، أما من بقي من السكان ويدخل ضمنهم الخمسون ألفاً الذين احتموا

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤١.

(٢) الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٨؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٧.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٩؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٧.

(٤) سيرد الحديث عنها بشكلٍ مفصل في الفصل الخامس

(٥) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٣٩؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٣٣٥؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام،

ص ٣٥٥؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٧٤.

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٠.

(٧) التاريخ الغازاني، ص ٢٤٠؛ تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٠.

بشيخ الاسلام والقاضي فقد أجبروا على دفع جزية مقدارها مئتي ألف دينار^(١)، و حدث اجتياح سمرقند في أواخر سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، وبداية سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م^(٢)، ولقد ظنّ جنكيزخان بأن احتلال سمرقند سيستغرق وقتاً طويلاً، ولكن سرعان ما دمرت المدينة ولم يبقَ من سكانها الذين بلغ عددهم مئة ألف أسرة سوى ربع ذلك العدد^(٣)، مما يشير بالتالي إلى ضخامة الخسائر التي منيت بها المدينة، فقد فقدت أكثر من نصف سكانها، ولم يبقَ من هؤلاء إلاّ أعداد قليلة أضيف إليهم عدد من العمال الصينيين الذين استعان بهم سكان سمرقند والمغول في انجاز أعمالهم الزراعية^(٤). ولقد زار الرحالة فيما بعد سمرقند، وما يدفع للدهشة بأن معظمهم لم يشر لدمارها، باستثناء ابن بطوطة والذي زار سمرقند في القرن التالي لاجتياحها، حيث شاهد مقدار الخراب الذي حلّ بها، والذي كان من الضخامة حيث لم يتمكن أهلها من إعادة ترميمها واعمارها من جديد^(٥).

٦ - اسقاط مركز الدولة الخوارزمية المتمثلة بمدينة خوارزم (الجرجانية):

تمكن المغول من اجتياح مناطق عدّة من أملاك الدولة الخوارزمية ضمن منطقة ما وراء النهر، ولإكمال عملية الاجتياح هذه ولتوجيه ضرباتٍ قاضية إلى تلك الدولة كان لابد لهم من السيطرة على مركزها الرئيسي اقليم خوارزم وعاصمته الجرجانية كما أسماها العرب^(٦)، أو كركانج كما أطلق عليها سكانها المحليون^(٧)، لكن لماذا تأخر المغول حتى توجهوا إليها؟ وكيف كان مسيرهم نحوها؟ هل تكبدوا خسائر فادحة في استيلائهم عليها؟ وما هو مصيرها؟ للإجابة ع لالى هذه التساؤلات لابد من مطالعة الكتب العديدة التي تناولت تلك الحادثة في كتاباتها.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٠؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢١٣؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٨.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٠؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٤١؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٥٥.

(٣) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٨٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٨٧.

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٣٥.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٧) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٩١.

بدايةً كان اقليم خوارزم من الكور الجلييلة حيث وصفه المقدسي بقوله: " كورة جلييلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة "(١). يقع الاقليم عند دلتا نهر جيحون تحيط به المفاوز من كل جانب ويحدّه من الغرب والشمال بلاد الترك، ومن الجنوب اقليم خراسان، ومن الشرق اقليم ما وراء النهر (٢). واشتهر ذلك الاقليم باتساعه وكثرة مدنه وعمارته، ولقد مرّ به ياقوت الحموي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م فوصفه بقوله: " وما أظنّ أنه كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في كثرة الخير وكبر وسعة الأهل والقرب من الخير ولقد جئتها سنة ٦١٦هـ فما رأيت ولاية قط أعمر منها، كثيرة الشجر والغالب عليها شجر التوت "(٣). من مدنه المشهورة مدينة كاث التي كانت عاصمة الاقليم في القرون الأولى ، ولكن سرعان ما فقدت أهميتها لصالح مدينة الجرجانية التي بنيت على غرب مجرى ماءٍ واسعٍ أخذ من نهر جيحون، وأقيمت قريبا السدود لتحميها من فيضان النهر الذي كان مدمراً في بعض السنوات (٤). وصفها القزويني بقوله: " مدينة عظيمة مشهورة على شاطئ جيحون من أمهات المدن جامعة لأشتات الخيرات وأنواع المسرات "(٥)، وتألفت تلك المدينة من شهرستان وقلعة صغيرة كانت مقراً للأسرة الخوارزمية، ووجدت فيها أسواقٌ عدة، ومساجد جامعة، وحماماتٍ ومدارس عديدة، أحاط بها سورٌ احتوى على أربعة أبوابٍ، كما انتشرت حولها بساتين التوت الكثيفة التي أكثر السكان من زراعتها لارتباطها بتربية دودة القز أساس الصناعات الحريرية التي اشتهرت بها المدينة وصدرتها إلى أرجاء العالم المعروف آنذاك كما غدّت المدينة قنواتٌ عدة ساهمت في تأمين مياه الشرب والري لها (٦). وبلغت الجرجانية مكانةً عاليةً وعُرفت فيما بعد باسم الاقليم ذاته خوارزم ومما زاد من مكانتها هذه أن السلطان علاء الدين محمد وأسرتّه اتخذوها عاصمةً لهم ومقراً لسلطتهم، مما دفع الأنظار كلها لتوجه نحوها فغدّت من أكثر المدن عمراناً واكتظاظاً بالسكان وتحولت إلى مركزٍ علميٍّ مهمٍّ وتجاريٍّ أهمٍّ، حيث حُمِلت إليها ثروات الشرق وعُقدت فيها حلقات العلم المختلفة حتى غدت كما وصفها الجويني: " مقر سلاطين العالم، ومستقر مشاهير بني آدم، ضمت في زمانها وتحت أكنافها

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الاقليم، ص ٢٢٧.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٧٦.

(٣) معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٩١.

(٥) آثار البلاد واخبار العباد، ص ٥٢٥.

(٦) بارتولد، تركستان، ص ٢٥٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٩١.

أشراف الدهر، ووفدت عليها طرائف العالم امتازت بالمعاني الرائعة وبرزت فيها أنوار المعاني المغدقة»^(١).

و حكمت خوارزم في المدة الأخيرة من حكم الدولة الخوارزمية من قبل ترکان خاتون، تلك الشخصية التي جذبت اهتمام المؤرخين فكتبوا عنها الكثير مشيرين إلى الدور الذي شغلته في ذلك الوقت ولملمحين بشكلٍ غير مباشر إلى المكانة التي تمتعت بها المرأة في المجتمع التركي، فقد سيطرت على مقاليد الحكم، وذكر اسمها بكثرة في كتب المؤرخين. بدايةً ترکان خاتون^(٢) أم السلطان علاء الدين محمد من اسمها يفهم مقدار المكانة التي نالتها تلك المرأة، فهي تنتسب إلى قبيلة بياووت^(٣) وكانت ابنةً لملكٍ تركي يدعى خان جنكشي، والذي زوجها من تكش بن ايل أرسلان، فأنجبت منه علاء الدين محمد^(٤) الذي أصبح سلطاناً للدولة الخوارزمية، و تمتعت ترکان خاتون بشخصيةٍ قويةٍ حيث كانت ذات مهابةٍ ورأي، لذا لُقبت بخداوند^(٥) جهان^(٦)، ومما ساهم في قوة شخصيتها وبلوغها مكانةً عاليةً كبر قبيلتها وشجاعتهم تلك الشجاعة التي دفعت السلطان للاستعانة بهم في الملمات التي أصابته حتى غدا معظم الجيش وقواده منهم، وكان لذلك الأمر إيجابياته وسلبياته، فقد بلغت الدولة مكانةً عاليةً، واستطاعت الانتصار على جميع القوى المناوئة لها، أما سلبياتها فتلخصت بتحكم تلك الفئة بالدولة واستغلال مكانتها في تقاسم السلطة مع السلطان علاء الدين محمد في معظم الولايات، بل وفي تولي العديد من المناصب الرسمية، ومما ساعدهم على ذلك مكانة ترکان خاتون ومساعدتها لهم، وأكثر من ذلك مزاحمتها لابنها في سلطته إلى درجةٍ دفعتها لمخالفتها لقراراته وتوليها لشخصياتٍ في الدولة كان قد عزلها السلطان كما جرى في حادثة الوزير نظام الملك^(٧). كما أنها أرغمته على اختيار وليٍّ إلى عرشه يتناسب مع طموح قبيلتها فختار أوزلاغ شاه لأن والدته إحدى قريبات ترکان خاتون مما سبب انزعاج

(١) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣١.

(٢) خاتون: لفظ فارسي تركي معناه سيدة عريقة الأصل، جمعه خواتين دخل اللغة العربية في العصر الاسلامي عن طريق المغول الذين كانوا يطلقونه على سيدات مجتمعه من الطبقة الأولى كالأميرات وزوجات السلاطين؛ الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص ١٥٠.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٩.

(٥) لفظ متداول في العصور التركية من ألقاب الملوك والسلاطين، و يعني السيدة؛ الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص ١٧١.

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٩؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٧.

(٧) نظام الملك : انظر تعاريف ص ٣٤٣

السلطان ودفعه إلى مغادرة خوارزم، وتركها لوالدته وأتباعها الذين عاثوا فساداً فيها، ولم يستشعروا خطر الاندفاع المغولي إلا بشكل متأخر، لذا لم يتخذوا أية وسائل دفاعية على الرغم من امتلاكهم كافة المقومات التي تمكنهم من دحر الأعداء^(١). وعندما اقتربت القوات المغولية من خوارزم كانت تركان خاتون قد طعنت في السن، فلم تمتلك الجرأة نفسها التي امتلكتها في صباها، ولكونها حكمت ولاية واسعة ذات امكانيات ضخمة فقد أراد الخان المغولي استكشاف شخصيتها أكثر، ورغب في تأزيم العلاقة بينها وبين ولدها رغبة منه في عدم السماح لولدها بالاستفادة من قوتها وحكمتها وحلفائها، كما أنه رغب بحسب قول النسوي أن يعقد صفقة معها فأرسل لها رسولاً حيث حمل لها الرسالة التالية: " قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق وهأنذا قد قصدته بمواطأة من أمرائه، ولست بمعترضٍ إلى ما تحت يدك من البلاد، فإن أردت ذلك بعثت إليك من يستوثق لك مني، فتسلم لك خوارزم وخراسان وما تتاخمهما من قاطع جيحون"^(٢). ويفهم من الرسالة السالفة بأن الخان لمح إلى عقوق السلطان لوالدته وتأزم العلاقة فيما بينهما، وأن الخان المغولي لم يرغب في التعرض لتركان خاتون وإنما سيترك لها بلادها مقابل دخولها في طاعته.

ولكن هل يعقل أن يكون الخان المغولي والذي تميز بحبه للقتل والتدمير والنهب قد أرسل هكذا رسالة إلى تركان خاتون التي مهما بلغت من القوة فهي لن توازي قوة المغول، كما أنها كانت هزمة، ولم تتمتع بالمكانة نفسها التي كانت تتمتع بها من قبل، أو أنه هدف من خلال ما سلف إلى زيادة الشقاق بين الأم وابنها، أو أنها رسالة مفتعلة من قبل النسوي الذي ربما كان حانقاً عليها للعلاقة السيئة التي جمعتها بالسلطان جلال الدين فأراد الاساءة إليها، مهما يكن فإن النسوي أردف الرسالة السالفة بأن الخاتون قد رفضت طلبه وآثرت الرحيل عن خوارزم خاصة بعد ورود أنباء تفيد أن ابنها ترك مواقعها وعبر نهر جيحون^(٣)، وغادرت السلطنة خوارزم ولم يفهم سبب مغادرتها لها، ولربما رغبت في تجنب الخطر المغولي من خلال التجائها إلى إحدى المناطق الحصينة وعند زوال ذلك الخطر تعود إلى عاصمتها، أو أنها خافت من المغول ولم تجد في نفسها القدرة على مقاومتهم فأثرت الرحيل. كلها أسباب تطرح، والمهم في الأمر أنها قبل

(١) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٤.

مغادرتها أقدمت على فعلةٍ شنعاء كما عبّر عن ذلك النسوي فقتلت كلّ الرهائن الذين وجدوا في سجونها من أبناء ملوك وسلاطين ما وراء النهر وخراسان وكانوا زهاء اثنا عشر حاكماً^(١)، ومن المعتقد بأنها أقدمت على هذا العمل خوفاً من أن يستفيد هؤلاء الرهائن من حالة الفوضى والفراغ في السلطة التي ستلي مغادرتها لخورزم، فيستولون إما على السلطة فيها، أو يتمكنون من الفرار والعودة إلى مدنهم ويشكلون بالتالي خطراً على الدولة الخوارزمية في حال تجاوزها لهذه الأزمة، وأخيراً لا بد من الإشارة بأنه تباينت آراء المؤرخين حول طريقة قتل هؤلاء، فمنهم من أشار إلى كونها أغرقتهم في مياه جيحون^(٢)، ومنهم من تحدث بقتلهم بالسيف^(٣).

وغادرت تركان خاتون المدينة وصحبها عدد من أتباعها، كما انضمت إليها بنات السلطان وحريمه وأولاده، وأخذوا معهم كلّ ما قدروا على حمله من ثروات الدولة الخوارزمية ، كما انضم إلى القافلة خادمها المطيع الوزير نظام الملك، وكان لا بد من وجود مرشدٍ لهم خلال الصحراء فاختارت لذلك عمر خان^(٤) وفعلاً عبرت المسالك بيسرٍ وسهولةٍ ووصلت إلى إقليم مازندران^(٥)، وانتهى بها المطاف في قلعة ايلال^(٦). وبعد أن رفضت تركان خاتون طلب المغول، انزعج جنكيزخان من تصرفها ذاك، وأعطى أوامره بملاحقتها والقبض عليها، وفعلاً تحركت فرقة من المغول أطلق عليها المؤرخون العرب اسم التتار المغربية^(٧) نحو تلك القلاع المشهورة بمناعتها، وعندما وصلت إلى قلعة ايلال فرضت حصاراً عليها بأن بنت سوراً حولها، ونصبت حولها آلات الحصار، قاطعةً عنها كافة وسائل الاتصال، وصمدت السلطانة مع من معها لمدة أربعة أشهر وكان بإمكانها أن تصمد لمدة أطول ولكن نفذ مخزون المياه الموجود في القلعة ، وكاد أن يتلف المحاصرون من العطش في منطقةٍ مشهورة بكثرة أمطارها، ولكن انحسرت الأمطار طوال مدة إقامة السلطانة في القلعة، فما كان منها إلا أن استسلمت للمغول^(٨). ولقد تعجب النسوي من تلك

(١) سيرة السلطان، ص ٩٤.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٦٠٧.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٤؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٢٥.

(٤) عمر خان : انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٥) سيأتي الحديث عنه في الفصل الرابع

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٥؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٧، ص ٢٤٥؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٨ ؛ أما قلعة

ايلال : انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٧) وذلك لكونها اتجهت نحو الغرب؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٤.

(٨) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢٤٥؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ١، ص ٣٣٥؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٧٩.

الحادثة حيث قال: " ومن العجيب النادر أن قلعةً من قلاع ما زندران وهي دائمة الانواء، كثيرة الأنداء، والسماء بها قل ما تقشع تؤخذ بالعطش ^(١). وأسرت ترکان خاتون وسيقت إلى جنكيزخان الذي أمر بقتل جميع أولاد السلطان باستثناء أصغرهم، ويدعى كماخي شاه الذي بقي مع جدته، فانتقل معها إلى قراقورم حيث خنق بعد مدةٍ بأمرٍ من جنكيزخان، أما جدته فقد استمرت تخدم المغول وتعد أسمطتهم ^(٢) إلى أن توفيت سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ^(٣)، أما بنات السلطان فقد تم توزيعهم على المردة ^(٤)، ما عدا خان سلطان ^(٥) التي استخلصها جوجي لنفسه، ومنحت أختها الأخرى ترکان سلطان ^(٦) إلى رسول الخان دانشمند الحاجب ^(٧). وهكذا أصاب الفناء الأسرة الخوارزمية التي لم يبقَ منها سوى السلطان الذي سرعان ما توفي فيما بعد ^(٨)، إضافةً إلى ثلاثة من أولاده وهم: جلال الدين، وأوزلاغ شاه، وآق شاه، ولا بد من الإشارة عند نهاية الحديث عن ترکان خاتون ومصيرها بأن جلّ المعلومات التي تمّ الاستعانة بها مأخوذة من كتاب المؤرخ النسوي والذي خدم السلطان جلال الدين والذي كانت ترکان خاتون تكّن العداء له لكرهيتها لوالدته أي جيباك ^(٩) لدرجة أنها أجبرت ابنها على منح ولاية العرش لولده الأصغر بدلاً عنه ، ومن كتاب أبي شامة نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية والذي لخصّ فيه كتاب النسوي، ومن خلال ما سلف يلاحظ بأن السلطان جلال الدين لم يكن يحابي جدته ، لذا فمن الممكن أن المؤرخ كان منحازاً له، مما دفعه لعدم ايفاء السلطنة حقها، ربما أم قد يكون بالغ في وصف بعض صفاته ، أو الصق بها صفاتٍ لم تكن موجودة فيها. هذا من جانبٍ ومن الجانب الآخر فإن النسوي دون سيرته بعد وفاة السلطان وزوال أيّ ذكرٍ للأسرة الخوارزمية، فمن الممكن أن تكون بعض المعلومات قد داخلها الكثير من الغلط، لكونه سمع بعضها من أفواه أشخاصٍ

(١) سيرة السلطان، ص ٩٥.

(٢) مفردة سباط ، وهو كل ما يمدّ تحت أواني الطعام في المآذب؛ الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص ٢٥٧.

(٣) أبو شامة، نزهة المقلتين وسيرة الدولتين العلائية والجلالية، ص ٢٦؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٨٣.

(٤) المردة: وهم فئة من المسلمين دخلوا في طاعة الخان المغولي، وعملوا على خدمته؛ النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص ٩٧؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٨.

(٥) خان سلطان: انظر تعاريف ص ٣٥١

(٦) ترکان خاتون: انظر تعاريف ص ٣٥١

(٧) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٧؛ أبو شامة، نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية، ص ٢٧؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٣٣٠؛ أما دانشمند الحاجب : انظر تعاريف ص ٣٥١

(٨) سيتم الحديث عن وفاة السلطان ص ١٥٥.

(٩) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٦؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٢٦.

كانوا مقربين من السلطان، و مهما يكن فقد كانت ترکان خاتون شخصيةً جذبت أنظار المؤرخين لكونها تمتعت بمكانةٍ منحها إياها الوسط المحيط بها والذي رفع من مكانة المرأة ومنحها صلاحياتٍ واسعة، تلك الصلاحيات التي زادت من قوة شخصيتها ومن شدتها، ومكنتها من التحكم بمصير أسرة ودولةٍ بأسرها، فحكمت عليها بالفناء، بأن اختارت الفرار، ولو اختارت البقاء في عاصمتها لكان أجدى وأنفع وقد جرت تلك الأحداث جميعها سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م^(١)، وتركت ترکان خاتون خوارزم مضطربة الحال من دون رئيسٍ أو إدارةٍ تنظم شؤونها، فما كان من أحدهم ويدعى علي كوه دروغان^(٢) أن نصب نفسه حاكماً عليها، وكان سيء التدبير، عديم الخبرة بالسياسة، لذا نهب الأموال السلطانية، لذا وصلت الحال في خوارزم إلى درجةٍ عارمةٍ من الفوضى^(٣)، استمر الوضع في خوارزم على ما هو عليه إلى أن جاءها في شتاء سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م بعض نواب الديوان السلطاني الذين كانوا قد غادروها في مرحلةٍ سابقةٍ ومعهم قائدین من قواد السلطان علاء الدين محمد^(٤)، وقد أخبرا الناس بأن السلطان مازال على قيد الحياة، ونهضا بالأعمال الديوانية وعزلا على كوه دروغان، واستلما زمام السلطة بدلاً عنه لمدة مؤقتة^(٥). إذ سرعان ما توفي السلطان علاء الدين محمد سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م فعبّر البحر أولاده الثلاثة وهم جلال الدين و أوزلاغ شاه و آق شاه وقدموا خوارزم فاستبشر الناس بقدمهم، ولقد كان برفقتهم سبعين فارساً^(٦)، لكن سرعان ما زال السرور وحلّت الخصومة مكانها وذلك لكون السلطان علاء الدين قبل وفاته أقدم على عزل أوزلاغ شاه، وولى بدلاً عنه ولده جلال الدين منبكرتي، والذي نهض بأمور خوارزم، لكن ذلك العمل لم يعجب أنصار ترکان خاتون وأفراد قبيلتها والذين كانوا من الكثرة بمكانٍ دفعهم للتجمع حول توخي بهلوان^(٧) وقد بلغ عددهم سبعة آلاف جندي رفضوا حكم جلال الدين، وناصروا أخاه عازمين على تدبير مؤامرةٍ لقتله^(٨). ولكن

(١) بارتولد، تركستان، ص ٦٠٨.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٣.

(٤) وهما المشرف عماد الدين، والوكيل شرف الدين؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٢؛ أقبال، تاريخ المغول، ص ٧٨؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٢٢؛ أبو شامة، نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية، ص ٤٠.

(٧) توخي بهلوان : انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٨) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٨.

اينانج خان^(١) عرف بتلك المؤامرة فأخبر جلال الدين بها، الذي سرعان ما رحل من خوارزم برفقة ثلاثمائة فارس واتجه إلى خراسان يرافقه كذلك الأمر تيمور ملك حاكم مدينة جند السالف، والذي تمكن من النجاة من المغول^(٢). لم يبقَ في خوارزم بالتالي سوى أخوي السلطان جلال الدين وهما: أوزلاغ شاه، وآق شاه اللذين غادراها بعد ثلاثة أيام من مغادرة أخاهم لها، وذلك لسماعهم بقرب قدوم المغول وحصارهم لخوارزم، ولكن هذين الأخوين أبتليا بالحظ العاثر فقد لاحقهم المغول وقتلوهما عند مدينة استوا^(٣) في خبوشان^(٤) وذلك سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٥). استمرت أحوال خوارزم مضطربة فلم يكن هناك من قائدٍ يحكمها ويتولى شؤونها، مما دفع خمارتكين^(٦) لتتصيب نفسه حاكماً عليها، وساعده في إدارة أمورها عددٌ من أعيان المدينة عُرف منهم مغول حاجب، ولوقا بهلوان، وعلي المرغيني^(٧). هكذا كان حال خوارزم عشية قدوم المغول لاجتياحها، مدينة تعاني الفوضى وسوء التدبير، وتحكمها الانتماءات القبلية، وتعاني أيضاً من صراعٍ سياسي بين رجال السلطة من جهة، وقادة الجيش من جهةٍ أخرى مما سارع في فنائها. تلك العملية التي احتاج المغول إلى إتمامها إلى عدد كبيرٍ من الجنود، كما أنهم تكبدوا خسائر لا بأس بها، وأنزلوا بالمدينة خسائر كبيرة وحولوها لبقايا تشير أنه في يومٍ من الأيام وجدت هاهنا مدينة كانت تنبض بالحياة. فكيف جرى كل ذلك ؟ هذا ما سستم مناقشته فيما يلي:

أمر الخان المغولي في شهر ذي القعدة من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م قواته بالمسير نحو خوارزم لاستخلاصها^(٨)، فتقدم من الجنوب الشرقي كلٌّ من جغتاي وأوكتاي يصحبهما الجناح الأيمن من الجيش، وتقدم من الشمال الشرقي جوجي تصحبه قوات الحشوية التي جمعها بعد اجتياحه لمدينة جند^(٩)، وكان أول الواصلين للمدينة القائد المغولي باجي ملك مع قواتٍ كثيرة، وتلاه أوكتاي

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٢) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٢٦؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٣) استوا: انظر تعاريف ص ٣٤٦

(٤) خبوشان: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٣٠؛ أبو شامة نزهة المقلتين، ص ٤٠؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٦) خمار تكين: انظر تعاريف ص ٣٥١

(٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٢؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٨؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٨) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٧٠؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٥٣.

(٩) بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

وبعده جغتاي يرافقه: طولن نوين، استون نوين، وقاضان نوين، وكان آخر الواصلين للمدينة جوجي مع قواته^(١)، وتباين المؤرخون في تقدير أعداد ذلك الجيش فمنهم من حدد عدده بخمسين ألف جندي^(٢)، ومنهم من لم يحدد عدده بل اكتفى بقوله إما " سرية كبيرة "^(٣)، أو "عسكر عددهم عدد الرمال "^(٤)، وتكاملت الجيوش بالتدريج وبدأت بأعمالها، بدايةً تقدم بعض المغول نحو سور المدينة فقاموا بسرقة بعض دواب سكانها، فخرج من المدينة بعض الفرسان وقاموا بملاحقتهم ، فلم يدركوا بأن المغول كانوا قد كمنوا لهم على مسافة فرسخ من المدينة فأحاطوا بهم ، وبدأ القتال بين الطرفين وقتل على أثره ما يقرب من ألفٍ من الخوارزميين واندفع المغول بعدها إلى ملاحقة فلولهم التي أسرعوا إلى دخول المدينة ليكتفي المغول بهذا القدر وينسحبوا مع غروب الشمس^(٥)، وفي اليوم التالي جدد المغول هجومهم على المدينة فتصدى لهذا الهجوم قائد خوارزمي مع خمسمائة رجل ومنعهم من دخول المدينة^(٦). في اليوم الثالث كانت قد وصلت قوات جغتاي وأوكتاي ، وكان قد سلف الحديث عن أن القوات المغولية وصلت بالتدريج إلى المدينة ولم تصل دفعةً واحدةً وكانت كلما وصلت بعض القوات باشرت بإنجاز أعمالٍ معينةٍ في الحصار، وعندما تكاملت قوات الأخوين فرضت الحصار على المدينة وتم ترتيب آلات الحصار ومراسلة السكان بغية الاستسلام^(٧). ولكن لم يجد المغول حجارةً ليستخدموها في مجانيقهم لذلك أسوار المدينة لكون خوارزم تقع في منطقةٍ سهلةٍ تندر فيها الحجارة، مما دفعهم إلى قطع بساتين التوت والتي كانت تغطي المنطقة، وعمدوا إلى قطع جذوعها بشكلٍ مستديرٍ ونقعها بالماء، وبعد ذلك استخدموها في دكّ الأسوار بدلاً من الحجارة^(٨).و وصلت قوات جوجي فأحكم الحصار حول المدينة وتمّ طمّ الخندق حيث لم تستغرق العملية أكثر من يومين، واستمر المغول يرشقون المدينة بالنبال واشتد الحصار إلى درجةٍ دفعت اليأس إلى التغلغل إلى قلب خمارتكين حاكم المدينة فما

(١) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٧٠؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧، ص ٢٢٦.

(٢) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٩.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٧٠؛ الذهبي، تاريخ الاسلام ، ط ٦٢، ص ٤٥

(٤) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٨.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٢؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٢.

(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٢؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٨) أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٥٣؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٤٥؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٩.

كان منه إلا أن تركها لقدرها وسلم نفسه إلى المغول^(١)، و رفع المغول راياتهم على أسوار المدينة وبدأ القتال حيث هجم المغول على السكان الذين دافعوا عن أنفسهم وقاتلوا في الأحياء وتنقلوا من حيٍّ لآخر يقاتلون المغول بكل استماتة، ولقد شارك في القتال كل من الرجال والنساء والشبان على حدٍ سواء، ولكن هنا بدأ المغول إضافةً إلى قتال السكان برميهم بقوارير النفط فاحترق معظم المدينة، ولما وجد المغول بأن قسماً كبيراً من ثروات المدينة دمرته الحرائق توقفوا عن رميها بالقوارير، واستكانوا لمدة بعد أن حصروا السكان في ثلاثة أحياء^(٢)، ولقد كان هناك جسرٌ يقسم المدينة إلى قسمين فحاول ثلاثة آلاف مغولي عبوره في محاولةٍ منهم للعبور، ومن بعد ذلك هدمه فتصدى لهم أهل المدينة مع من تبقى من القوات الخوارزمية، وتمكنوا من إفنائهم^(٣)، وهنا عادت وارتفعت معنويات السكان ومما ساهم في زيادة ارتفاعها الخلاف الذي نشب بين الأخوين المغوليين: جغتاي، وجوجي، واللذين توليا إدارة القسم الأكبر من العمليات العسكرية في المدينة، ذلك الخلاف الذي أدى برأي رشيد الدين الهمذاني إلى توتر أمور العسكر وإلى مقتل عددٍ من القوات المغولية^(٤)، و يعود سبب ذلك الخلاف إلى رغبة جوجي في عدم تهديم المدينة وتعريضها للتخريب والدمار، حيث كان حريصاً على بقاء عمارتها وخير دليلٍ على ذلك منعه الجنود من نهب رسائيقها، ومراسلته لسكانها أكثر من مرة يحضهم على الاستسلام ويعددهم بعدم مساس مدينتهم والتعرض لهم لكون والده قد جعل تلك المدينة من أملاكه، لكن جغتاي كان يعارضه ولم يرضَ بسياسته تلك، وإنما رغب في تدميرها لتأديب سكانها، ولقد وصل الخلاف حداً دفع جنكيزخان إلى الغضب من ولديه وتكليف ابنه أوكتاي بمهمة تولي شؤون الجيش المغولي في خوارزم، وحسم أمر المدينة لما كان يتمتع به من كمال العقل والكفاية^(٥). وهنا عاد المغول إلى التضييق على المدينة من جديد حيث حشر سكانها في ثلاثة أحياء، فما كان منهم إلا أن أرسلوا عالي الدين الخياطي^(٦) ليطلب الرحمة لسكانها من جوجي حيث قال له: "إننا قد شاهدنا من

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٤؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦١؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥١.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٤.

(٤) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥١.

(٥) التاريخ السري، ص ٣٧٣؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥٠؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٧٩.

(٦) عالي الدين الخياطي: انظر تعاريف ص ٣٥٣

هيبة الخان، وقد آن أن نشاهد من مرحمته ^(١)، وهنا استشاط جوجي غضباً وحنقاً لكثرة ما ألم بالمغول من خسائر وقال له: " ماذا رأوه من هيبتي، وقد أفنوا الرجال، وطاولوا القتال، فأنا الذي شاهدت هيبتهم، وها أنا الآن أريهم هيبتي". ودخل المغول الأحياء المتبقية من المدينة وتمّ اقتياد السكان نحو الصحراء حيث تمّ فصل أصحاب الحرف وأرباب الصنائع، وكانوا حوالي مئة ألف وأرسلوا بعد ذلك إلى قراقورم، أما النساء والصبيان فقد أسروا، ومن تبقى من الرجال فقد وُزِعَ على العسكر لقتلهم، ولقد كان نصيب كلّ جندي مغولي قتل أربعة وعشرين رجلاً من أهل خوارزم ^(٢)، وبعدها تمّ تدمير سكر الماء الذي كان يحمي المدينة من فيضان نهر جيحون، فما كان من المياه إلا أن تدفقت على المدينة غامرةً إيّاها ومتسببةً بموت من كان ربما قد اختفى داخل سراديب المدينة ^(٣). وهكذا دمر المغول المدينة بعد حصارٍ دام عدة أشهر تباين المؤرخون في تقدير عددها فمنهم من جعلها خمسة أشهر ^(٤)، وآخر ثلاثة أشهر ^(٥)، وثالث سبعة أشهر ^(٦)، ورابع أربعة أشهر ^(٧)، ومهما كانت المدة سواء أكانت طويلة أو قصيرة فإن مصير المدينة كان كما وصفه ابن الأثير حيث قال: " غرق البلد جميعه، وتهدّمت الأبنية، وبقي موضعه ماء، ولم يسلم من أهله أحدُ البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، منهم من يختفي، ومنهم من يهرب، ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأمّا أهل خوارزم فمن اختفى من التتر أغرقه الماء، أو قتله الهدم، فأصبحت خراباً" ^(٨). وزاد على ذلك الوصف الجويني حيث قال: " غدت خوارزم مأوى ابن آوى وعش البوم والغراب حُرمت من السعادة، وذبل جنان أهلها حتى لتظن الآية: (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) ^(٩) قد نزلت بشأنهم" ^(١٠). إضافةً إلى تدمير

(١) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٧١؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٠؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٢.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٤؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥١؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦١؛ شيخ الربوة (محمد بن أبو طالب ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٢٢٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦١؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٦٢.

(٥) الذهبي، تاريخ الاسلام، ط ٦٢، ص ٤٥.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٨.

(٧) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٧٠.

(٨) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦١.

(٩) القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية رقم ١٥.

(١٠) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٤.

المدينة فقد كانت أعداد القتلى من الضخامة بمكانٍ أعرض المؤرخون عن التطرق لذكره^(١)، وفي نهاية الحديث عن اجتياح خوارزم، لا بد من الإشارة مرة جديدة إلى شخصية صوفية^(٢) ارتبط الحديث عنها بالحديث عن خوارزم لكونه استشهد في أثناء قتاله ضد المغول، تلك الشخصية هي الشيخ نجم الدين أبو الجناح أحمد بن عمر بن محمد الخيوي المعروف بنجم الدين الكبرا^(٣). ولد الشيخ في إحدى قرى خوارزم ونشأ فيها، رحل إلى مدنٍ عدة طلباً لعلم الحديث والسنة. عُرف بزهده و ورعه وعلو شأنه لدرجةٍ دفعت أصدقاءه لتلقيبه بلقب الكبرا وهو اختصار لعبارة " الطامة الكبرى" ، ولقد لقبوه بذلك لقدرته العالية على المناقشة ومهارته الكبيرة في المجادلة^(٤). ولقد تتلمذ على يديه كثير من رجال العالم في ما وراء النهر وخراسان منهم مجد الدين البغدادي وغيره الكثير^(٥). وذاع صيته في أرجاء المنطقة إلى درجةٍ دفعت جنكيزخان كما ورد لدى رشيد الدين الهمذاني والذي انفرد بهذه الرواية إلى الاتصال به واخباره عن نيته في نهب خوارزم وقتل سكانها ودعوته للخروج منها والاتصال به، ولكن الشيخ رفض ذلك العرض لكونه قد سكن في خوارزم لسبعين سنة، وعاش مع سكانها جميع لحظاتهم السعيدة والحزينة، لذا فمن غير الممكن أن يتخلّى عنهم ويترك المدينة تواجه قدرها المحتم^(٦). ولهذا قاتل مع سكانها ودافع عنهم وكان في النهاية من بين الشهداء الذين سقطوا على أرضيها^(٧)، و دفن الشيخ بعد استشهاده خارج خوارزم في زاويةٍ بنيت لأجله ، ولقد مرّ بها الرحالة ابن بطوطة في أثناء زيارته للمنطقة فوصفها ،

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) لفظة تطلق على الزاهد والذي تطور الزهد لديه من طريقٍ للعبادة إلى طريقٍ للمعرفة، أما لقب المتصوفة فهو اسمٌ ليس له قياسٌ أو اشتقاق ، بل لقبٌ جاء من لبس المتصوفة للصوف أو أنه مشتق من الصفاء أو الصف بمعنى أنهم في الصف الأول بقلوبهم، وكان الصوفي يرفض الدنيا ومتاعها، ويزهد فيها وبأنشطتها الدنيوية وإغراءات الحياة وينقطع إما في المساجد أو المغاور أو الأماكن الخالية من السكان، أو الزوايا التي أقيمت خصيصاً لهم، ولقد كان بعض المتصوفة يعدون حضور مجالسهم والتزام بطريقهم التي تباينت من صوفي لأخر ومن منطقةٍ لأخرى فريضةً على أتباعهم، لذا كثر أتباعهم ومارسوا دوراً في المجتمع الذي انقاد كثيرٌ من أفرادهم؛ القشيري (عبد الكريم بن هوازن القشيري ت ٤٦٥هـ/١٠٧٣م): الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: معروف مصطفى زريق، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٢٧٩؛ تمتز (ادم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٢٢.

(٣) الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ٣، ص ١٧٧.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٧، ص ١٤١.

(٥) براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٦٢٥.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥١.

(٧) اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٤٠.

وتحدث عن الخدمات التي كانت تقدم للزوار فيها، كما أشار إلى الشيخ الذي نهض بمهمة التدريس فيها^(١).

ومما سلف يمكن استخلاص مقدار المكانة التي بلغها ذلك الصوفي إلى درجة دفعت أهل خوارزم على الرغم من فداحة مصابهم وقلة من نجا منهم إلى دفن شيخهم، والاهتمام ببناء زاوية في المنطقة التي ضمت قبره فيما بعد، شاهدها ابن بطوطة وأشاد بنظامها عندما مرّ بالمنطقة في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، و مما يلاحظ عند قراءة الكتب المعاصرة للغزو المغولي كابن الأثير، والنسوي، وياقوت الحموي بأنها لا تتضمن معلومات عن الشيخ الكبرا، فهؤلاء لم يتطرقوا لذكر اسمه عند حديثهم عن خوارزم وما تعرضت له، كما لم يذكروا اسمه ضمن وفيات سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م. كما لم يذكره الجويني كذلك الأمر، فقط ذكره رشيد الدين الهمذاني وذكرته مؤلفات التراجم المتأخرة كالذهبي، وابن العماد، والياضي، وربما هؤلاء ارتأوا بأنه من الأولى لهم الحديث عن المدينة وما تعرضت له على يد المغول، وفداحة ذلك وربما لكثرة القتلى أعرضوا عن ذكر أسماء مهمما كانت مكانتها في المجتمع، أو ربما لم يكن الشيخ ذائع الصيت بقدر كبير لدفع هؤلاء للحديث عنه .

وأنهى المغول بسقوط خوارزم عملياتهم في منطقة بلاد ما وراء النهر، تلك العمليات التي زلزلت كيان الدولة الخوارزمية، ودفعتها إلى التهاوي سريعاً فأملاكها قد نهبت، وسلطانها غادر البلاد لخوفه الشديد من المغول، ولخلافاته مع أفراد حاشيته وأقربائه، ولاخفاق كلّ استعداداته التي اتخذها لمقاومة الزحف المغولي، ولعدم صواب آرائه، لذا ما كان منه إلا أن ترك البلاد لأقدارها وفرّ من المنطقة، ولكن لم ينسأه المغول بل جاهدوا في ملاحقته وتتبع خطواته لحرصهم على القبض عليه، وهذا ما سيكون موضوع النقاش التالي:

رابعاً : ارسال المغول فرقة لمطاردة السلطان علاء الدين محمد ووفاته سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م:

تبنى السلطان الخوارزمي موقفاً متخاذلاً، فقد عمّد للفرار من مدينة إلى أخرى متحاشياً الصدام مع المغول، بعد سقوط بخارى وسمرقند اجتمع جنكيزخان مع قواته وأعطى أوامره لكل فرقة بالتوجه إلى منطقة معينة. فقد كلّف فرقة بالتوجه نحو خوارزم كما ذكر من قبل، وأخرى

(١) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ١٠.

نحو ترمذ، وثالثة نحو الطالقان، وكلّف مجموعةً من الجند بملاحقة السلطان علاء الدين محمد، ملاحقته، نعم والقضاء عليه. فقد كان لابد للمغول لإحكام سيطرتهم على الدولة الخوارزمية من القضاء على حاكمها الشرعي، والذي كان وجوده على قيد الحياة يبعث الأمل في نفوس الرعية، لذا لابد من البحث في تفاصيل الحملة ، وفي تبیان خط سيرها، وعدد جنودها، وقوادها، وهل وفقت في مهمتها ؟ أم أصابها الاخفاق؟ هذا ما سستم مناقشته فيما يلي:

كلّف جنكيزخان ثلاثة من قادته بمهمة ملاحقة السلطان وهم جبه، وسوبوداي بهادر، وتوقوجار بهادر، وزودهم بعددٍ من الجنود تباين المؤرخون في تقدير ما هيّتهم، فمنهم من تحدث بأنهم كانوا عشرين ألف فارس^(١)، وآخر ثلاثين ألف فارس مقسمين إلى ثلاثة تومانات كلّ تومان مؤلف من عشرة آلاف فارس^(٢)، ومهما كان عدد الجنود فقد بدأت عملية المطاردة والتحريك من سمرقند باتجاه الغرب ، لذا فقد أطلق على تلك الفرقة - كما تقدم القول - اسم التتار المغربة^(٣). ولكن هؤلاء المغول لم يتحركوا باتجاه السلطان إلاّ بعد أن وصلتهم معلوماتٌ تفيد بأن السلطان قد خيم عند مياه ترمذ وأنه بلغ أقصى درجات الضعف، فقد تهاوت أركان دولته، وألمت به نكباتٌ كثيرة، كما أنه فقد الثقةً بأتباعه الذين انفضوا من حوله وتركوه وحيداً فقد غادر سبعة آلافٍ من الجنود الخطأ وانضموا إلى المغول، كما أن صاحب قندز^(٤) انفض عنه وتركه ليواجه مصيره، ليس ذلك فحسب بل إن من بقي معه من جنوده من اقرباء والدته حاولوا اغتياله، ولكنّه حُذر في الوقت المناسب، فنجّا من الموت المحتمّ^(٥). كلّ ذلك دفعه إلى مغادرة ترمذ، والعبور إلى ضفة جيحون الأخرى، ولكنه قبل عبوره ترك فرقة صغيرة عند معبر بنج آب^(٦)، وكلّفها بمراقبة المغول واستقصاء المعلومات عنهم، واتجه نحو بلخ ولما وصل إلى المدينة كانت الأخبار ترد بسقوط مدن ما وراء النهر، فزاده ذلك الامر خوفاً ووجلاً واحترار في أمره، ولكن لم تطل حيرته فقد التقى بأحد أفراد حاشيه والذي أشار عليه بالتوجه إلى عراق العجم^(٧) حيث بإمكانهم هناك جمع الرجال والمال اللازم لمقاومة المغول وفعلاً استجاب لنصحه وبدأ بالتحرك باتجاه خراسان ليصل

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤١؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٣.

(٢) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠٤؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٥؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤١.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٢

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٧؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤١؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٦.

(٦) معبر بنج آب: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٧) عراق العجم: انظر تعاريف ص ٣٤٨

نيسابور في شهر صفر من سنة ٦١٧هـ/١٢٢١م^(١). وتملك الخوف قلبه لذا فإنه لم يبقَ فيها سوى ساعة واحدة كما صرّح بذلك النسوي^(٢)، ولكن إذا ما تم الانتقال لما كتبه الجويني فيما تعلق بمدينة نيسابور يلاحظ بأنه تحدث عن مكوث السلطان فيها من شهر صفر إلى ربيع الأول من السنة نفسها، وأشار بأنه خلال تلك المدة انغمس في الملذات وأهمل شؤون الرعية^(٣). وعند التدقيق في الرواية السالفة يلاحظ بأنها ليست حيادية، لكون الجويني كان من المؤرخين الذين خدموا المغول، لذا فمن الطبيعي أن ينحاز إليهم مظهراً مدى ضعف خصومهم واستهتارهم، كذلك فقد كان السلطان خائفاً موزع التفكير ابتلي بفناء مملكته التي رآها تتساقط أمام عينيهِ، كما أنه تعرض للخيانة من أقرب الناس إليه، لذا من غير الممكن أن ينغمس في الملذات والشهوات وهو من الضعف والمذلة بمكان يدفعه إلى فقد الأمل من الحياة وليس التمتع بملذاتها، وربما قد يبعث اليأس على الاستهتار. بعد نيسابور اتجه السلطان نحو بسطام^(٤) واستدعى حاكمها^(٥) وأعطاه عشرة صناديق مملوءة بالجواهر والحلي النادرة وكلفه بنقلها لقلعة أردهن^(٦) وحمايتها من الوقوع بأيدي المغول، ولكن وقعت تلك الصناديق بيد المغول وذلك عندما حاصروا القلعة، وفكوا الحصار عنها بعد أن سلمهم حاكمها الصناديق العشرة^(٧). لم يطل السلطان المكوث في بسطام بل تابع المسير نحو عراق العجم حيث مرّ بأسفرايين^(٨)، ولكن وصلته أخبار بقرب المغول منه فما كان منه إلا أن عدل عن الاتجاه نحو العراق وتحرك صوب قلعة فرزين^(٩) حيث التقى هناك بحريمه وابنه ركن الدين الذي كان بانتظاره هناك^(١٠).

(١) النسوي ، سيرة السلطان، ص ١٠٤.

(٢) سيرة السلطان، ص ١٠٤.

(٣) تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٧.

(٤) بسطام: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٥) وهو تاج الدين عمر البسطامي؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٣١.

(٦) قلعة أردهن: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٧) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠٤؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٣١.

(٨) أسفرايين: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٩) قلعة فرزين: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(١٠) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٢؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٧.

فما كان منه إلا أن أرسل حريمه إلى قلعة قارون^(١) وحار في أمره لذا فقد أرسل طالباً المشورة من حكام المناطق فأشاروا عليه بالتوجه إلى جبل شيران كوه الحصين^(٢) وفعلاً ذهب إلى استطلاع المكان ولكنه وجده ليس من الحصانة بمكانٍ يمكنه من الالتجاء إليه، لذا عدل عن الفكرة واستدعى حاكم اللور^(٣) طالباً المشورة منه، فأشار عليه بالتوجه إلى منطقة جبلية بين اللور وفارس كثيرة الخيل والرجال وبالإمكان هناك جمع جيشٍ ضخم يتمكن بواسطته من رد المغول وهزيمتهم ولكنه رفض الفكرة لخوفه من أن يكون ذلك الحاكم قد استقدمه لخدمة مصالحه الشخصية^(٤). ويستخلص مما سلف بأن السلطان لم يكن يثق بأحد وعدم ثقته تلك سببت له الكثير من المتاعب، ولعله لو أصغى في بعض الأحيان لاقتراحات أتباعه لكان نجا ولكنه كان رافضاً لأي فكرة تطرح عليه. بعد ذلك وصلت أخبار دفعت حاكم اللور إلى العودة إلى بلاده، والسلطان علاء الدين إلى التوجه لقلعة قارون، وفحوى تلك الأخبار أن المغول صالحوا أهل نيسابور، و وصلوا إلى حدود الري، لذا أضحى موقعه من الخطورة بحيث دفعه إلى المسير نحو القلعة، ولكن قبل وصوله إليها أشارت بعض الروايات إلى صدامه مع فرقة مغولية، حيث اشتبك معها وجرى تراشقٌ للسهم أصيب خلاله السلطان بجرحٍ بسيط، كما أصيب فرسه ولكنه نجا وتوجه إلى قلعة قارون، ولكن جرى ذلك الصدام دون أن تدرك الفرقة المغولية أنها قد اصطدمت بحامية السلطان، لأنها -كما يرجح- لو أدركت ذلك لكانت أصرت على القبض عليه أو قتله^(٥).

وكان هذا هو الصدام الوحيد الذي وقع بين المغول والسلطان، ولكن في الوقت الذي يحدد فيه كلٌّ من الجويني والهمذاني مكان الصدام بالقرب من قلعة قارون، فإن النسوي يتحدث بأنه جرى بالقرب من همذان^(٦)، وبالتحديد في منطقة دولت آباد^(٧) حيث اصطدم المغول به كذلك من غير إدراكهم لحقيقة هويته، ولقد قتل في ذلك الصدام عدد من أتباعه ونجا هو في نفرٍ يسيرٍ ليكمل المسير إلى قلعة الاستداد^(٨) في مازندران^(٩) ومنها إلى حافة البحر حيث أقام في فرضة^(١٠) هناك

(١) قلعة قارون: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٢) جبل شيران كوه: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(٣) اللور : انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٤) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغزاني، ص ٢٤٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٤؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٧.

(٦) همذان: انظر تعاريف ص ٣٥٠

(٧) دولت آباد: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٨) قلعة الاستداد: انظر تعاريف ص ٣٤٩

لمدة من الزمن إلى أن كبسه المغول فأثر الرحيل إلى جزيرة في عرض البحر^(٣). هكذا كانت رواية النسوي عن الصدام ، وعن حال السلطان الذي بدا مشتتاً في عراق العجم، ومتنقلاً من منطقة إلى أخرى ، والمغول في أثره يتابعون تحركاته ويجمعون المعلومات عنه وهمهم الوحيد هو القضاء عليه، وإذا ما تمّ العودة لباقي الروايات التي تتحدث عن خط السير الذي سلكه السلطان في فراره من أمام المغول، يلاحظ بأنه اتجه بعدها نحو قلعة قارون حيث مكث فيها يوماً، ورغب بعدها بالتوجه نحو بغداد^(٤) لكن هل يعقل أن يتجه السلطان فعلاً نحو بغداد على الرغم من العلاقات السيئة التي ربطته بالخلافة العباسية، فقد حاول غزوها وإزاحة الخليفة عن كرسيه، ولم يبدِ للخليفة سوى مشاعر الكراهية لكونه قد ألّب أعداءه ضده، فهل فعلاً نسي كلاهما الخلافات القائمة بينهما ورغبا بالتعاون، أو أن السلطان تخلى عن كبريائه وأثر طلب العون والمساعد من الخلافة العباسية، أم أن كلا المؤرخين قصدا بأنه تابع مسيره على الطريق المؤدي إلى بغداد ، ذلك الطريق الذي كان يبدأ من بغداد وينتهي بأقصى الشرق مخترقاً خراسان وبلاد ما وراء النهر^(٥). ما يهم في الأمر أن السلطان عدل عن المسير في محاولة منه لتضليل المغول واتجه نحو قلعة سرجاهان^(٦) التي مكث فيها سبعة أيام^(٧)، ومنها توجه نحو جيلان التي لم يطل المكوث فيها فقط كذلك الأمر سبعة أيام، ليغادرها نحو ما زندران حيث وصل مدينة آمل^(٨) وفي تلك المنطقة أحسن حكامها معاملته وزودوه بكل احتياجاته من الملابس والمؤون^(٩)، ولكن فشا خبر اقامته هناك، فما كان منه إلا أن تحرك نحو جزيرة آبسكون استجابةً لمشورة أمراء مازندران، حيث كانت تلك الجزيرة تقع قريباً من فرضة آبسكون في بحر طبرستان^(١٠)، ويفصلها عن

(١) مازندران: اسم محدث أطلق على ولاية طبرستان؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤١.

(٢) فرضة: من النهر مشرب الماء منه ومن البحر محط السفن؛ المعجم الوسيط، أشرف على تأليفه وإخراجه: مجمع اللغة العربية ، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٦٨٣.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠٥؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٣١.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٧؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٥.

(٥) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٦٢.

(٦) قلعة سرجاهان: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٧) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٦؛ اقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، ص ٣٥٦؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٨.

(٨) آمل: انظر تعاريف ص ٣٤٠

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٢؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١٧؛ طقوش، تاريخ المغول العظام والایلخانين ، ص ٦٤.

(١٠) بحر طبرستان: انظر تعاريف ص ٣٤٧

ثلاث مراحل، بالتالي فقد كانت تقع عند مصب نهر جرجان^(١)، ولعلها جزيرة أشوراده بحسب قول بارتولد^(٢). وفي تلك الجزيرة انتهت حياة السلطان بطريقة مأساوية فقد فقد معظم جنوده في أثناء ملاحقة المغول له، وتنقل من منطقة لأخرى من مناطق مازندران، وما أن اقترب المغول من منطقته حتى سارع إلى ركوب البحر في سفينة صغيرة، ولقد وصف النسوي حاله فقال: " حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، وقالوا كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب^(٣) ما آيسه من الحياة وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول: لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الألباب^(٤)". مكث السلطان بعض الوقت في تلك الجزيرة، وقد أعياه المرض و التشرذ وأصابه اليأس من كثرة المصائب التي ألمت به وبدولته، ولم يتحمل فكرة فقدانه لحريمه وأولاده الذين سيرهم إلى قلعة قارون، فقد حاصرها المغول بعد تحركه منها وتوجهه إلى قلعة سرجاهان وتمكنوا من اختراقها وقتل من كان فيها، لذا لم يتحمل السلطان فكرة فقدته لأسرته فما كان منه إلا أن يأس من الحياة واشتد المرض عليه وفارق الدنيا في تلك الجزيرة النائية حيث كفن بقميص أحد خدمه^(٥)، ولكن السيوطي ذكر رواية أخرى مفادها بأنه كفن بشاش فراشه^(٦)، وبالتالي فارق السلطان الحياة تاركاً لولده جلال الدين من بعده بقايا دولة متناثرة انهكتها الحرائق والدماء. هكذا كان حال السلطان مع من بقي له من جنوده، وتلك كانت المدن التي طرق أبوابها في أثناء فراره مدن توزعت بين اقليم خراسان وعراق العجم ومازندران.

ولكن إذا ما تم الالتفات إلى الطرف الآخر في عملية المطاردة، ويقصد بذلك الفئة المطاردة وهي المغول، فإن هؤلاء قد اتبعوا خط سير معين ساروا فيه على خطا السلطان فقد حرصوا على ارسال الأدلاء بشكل كامل بغية جمع المعلومات عن تحركات السلطان، للتمكن من اللحاق به والقبض عليه. فكيف تمت تلك المطاردة يا ترى؟ وما هي المدن التي قصدوها في أثناء سيرهم؟

(١) نهر جرجان: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٦٠٣.

(٣) علة ذات الجنب: التهاب يصيب الجنب، أو البلورا وهي غشاء مزدوج الطبقة يحيط بالرتتين ويفصلهما عن جدار الصدر؛ المعجم الوسيط، ص ١٣٨

(٤) سيرة السلطان، ص ١٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٨؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٣٢.

(٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٣٢.

وكيف كان مصيرها؟ ولكن في أثناء الحديث عن تلك المطاردة سوف لن يتم التوسع بالحديث عن حال المدن المجتاحة في اقليم خراسان والجبل ، لأن ذلك سيكون موضوع الفصل الرابع.

في سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م أعطى الخان الأوامر للجنود بالتحرك في أثر السلطان ، وكان الأمر كالتالي: " اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماة حتى تدركوه وتأخذوه " ^(١)، و بالتالي كان جنكيزخان مصراً على القبض على السلطان علاء الدين محمد والقضاء عليه، كما أنه زود جنوده بمعلوماتٍ تتعلق بطبيعة العملية التي كلفهم بها، فقد طلب منهم قتال السلطان في أي مكانٍ وجده فيه، وإن كانوا غير قادرين على مواجهته لكثرة جنوده فليمكثوا في أماكنهم وليطلبوا المدد منه، أما إن كان ضعيف الحال فليقاتلوه. وإن اختفى عنهم في البلاد فليبحثوا عنه ومن أطاعهم من سكان البلاد فليعينوا لهم شحنة ومن أظهر العناد والجدل فليحاربوه ويهزموه، و ليتحاشوا الصدام مع المدن المحصنة الضخمة، وليستولوا على ما يجدونه أمامهم من دوابٍ وخيولٍ تساعد في اتمام مهمتهم ^(٢)، عبر المغول مياه جيحون عند معبر بنج آب ^(٣)، أو كما أطلق عليه أبو الفداء بنج أو ^(٤)، ولقد عبروا بطريقة غريبة وصفها ابن الأثير بشكلٍ مفصلٍ حيث قال: " عملوا من خشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلد البقر لئلا يدخلها الماء، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم، والقوا الخيل في الماء، وأمسكوا أذنابها، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعةً واحدة فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرضٍ واحدة " ^(٥). ولكن هل كان لدى المغول متسع من الوقت حتى تمكنوا من صنع عشرين ألف حوضٍ أو أكثر من الخشب و ألبسوها جلود البقر، فالذي عُرف عن المغول عدم اهتمامهم بالصناعات فهم ابقوا على حياة الحرفيين لكي يرسلوهم إلى بلادهم ، يمكن أنه كان برفقتهم عدد من حرفي المدن المجتاحة ساعدوهم في اتمام أعمالهم السالفة،و يعتقد بأن تلك القوارب عبارة عن قريهم الجلدية التي كانوا يستخدمونها لوضع حاجياتهم فيها أثناء أسفارهم، وساعدتهم قوة خيولهم وتمرسها على اجتياز الأنهار. عبر المغول نهر جيحون وأول مكانٍ وصلوا إليه هو مدينة بلخ، التي سالمتهم وقدمت

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤١.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤١-٢٤٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٣؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٢؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٦.

(٤) المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٥٩.

(٥) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٢.

لهم المؤن لذا عينوا فيها شحنةً وتابعوا سيرهم نحو نيسابور التي توجه السلطان إليها وفي طريقهم مروا بمدينة زاوة^(١) التي وصل إليها بدايةً قائد مقدمة المغول طاييسي بهادر يرافقه الأدلاء، وفي تلك المدينة طلب المغول العلوفة من سكانها فرفضوا منحهم إيّاها، فأثروا عدم الصدام بهم لأنهم كانوا في عجلةٍ من أمرهم، ولكن سكان المدينة بدرت منهم بعض التصرفات استثارت المغول فما كان منهم إلا أن فرضوا الحصار عليها وفي اليوم الثالث تمكنوا من تسلق أسوارها واقتحامها وقتل سكانها وإبادتهم^(٢)، و بعد زاوة اتجه المغول مسرعين نحو نيسابور، فقد وردت أنباء تقيد بوجود السلطان فيها، ووصلوا للمدينة في أوائل شهر ربيع الآخر من سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م^(٣)، حيث طلب جبه من أهلها المسالمة وعدم المقاومة والاعتاظ بما جرى في زاوة، وفعلاً سالم سكانها المغول الذين أعطوهم ختماً ملكياً بالخط الأويغوري على سبيل طمأننتهم^(٤)، عند مدينة نيسابور انقسم المغول إلى قسمين قسمٌ كان بقيادة جبه، وقد توجه عبر طريق جوين^(٥)، حيث وصل إلى مناطق مازندران الجبلية وفيها انشغل المغول بتدمير مدينة آمل، وبمحاصرة القلاع التي احتمت بها حريم السلطان^(٦).

أما القسم الثاني وكان بقيادة سوبوداي فقد تحرك عبر طريق جام^(٧) إلى مدينة طوس أي اتجه نحو الشمال الشرقي، وبدأ المغول أعمالهم الحربية في المناطق القريبة من طوس حيث أطاعته مدينة نوقان^(٨) في الشرق، ولكن مدينة طوس لم تهادهنه، مما دفعه إلى تدميرها وتنفيذ مذبحه بسكانها^(٩). وبعد طوس اتجه المغول إلى مدينة برادكان^(١٠) التي أعجبتهم لخضرتها وكثرة فما كان من سوبوداي إلا أن قبل الطاعة التي أظهرها أهلها له وعين عليها شحنةً وتوجه منها إلى خبوشان التي أمر بذبح سكانها ، ثم تابع المسير نحو أسفرايين وأدكان^(١١)، ووصل إلى

(١) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٣؛ اقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، ص ٣٥٦؛ أما مدينة زاوة: انظر تعاريف ص ٣٤٥

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٥؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٣.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٦؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٤.

(٥) جوين: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٧؛ اقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، ص ٣٥٦.

(٧) جام: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٨) نوقان: انظر تعاريف ص ٣٤٩

(٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٧؛ فهمي، تاريخ المغول في إيران، ص ٧١؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٧٧.

(١٠) برادكان: انظر تعاريف ص ٣٤٧

(١١) أدكان: انظر تعاريف ص ٣٤٠

دامغان^(١) ومن بعدها سمنان^(٢) وعمدوا إلى ذبح كلّ من قاومهم وقبلوا الطاعة والأمان من المدن المدن التي سالمتهم^(٣). إلى أن حطوا الرحال في مدينة الري والتي أعلن قاضيها تبعيه لهم كما ورد لدى الجويني، وفيها تمكنوا من الحصول على معلومات مفادها أن السلطان اتجه نحو همذان، فما كان من جبهه إلا أن سارع الخطا خلفه، ووصل همذان ولكنه لم يعثر عليه، أما المدينة فقد سالمته وزودته بالثياب والمؤن فترك فيها شحنة ومضى^(٤). أما سوبوداي فقد اتجه نحو قزوین، ولقد عاث القائدان فساداً في اقليم عراق العجم كل ذلك بهدف العثور على السلطان علاء الدين محمد، الذي كان متجهاً نحو بغداد، لكنه عدل عن خط سيره وتوجه إلى قلعة سرجاهان، وبعد أن ضلل المغول لمدة من الزمن عاد إلى ما زندران وتقل بين مدنها ليركها أخيراً بعد أن سمع باقتراب قوات مغولية أرسلها جبهه من مكان اقامته، فما كان منه إلا أن توجه كما ذكر من قبل إلى جزيرة أبسكون حيث عاش لمدة من الزمن فيها وقد خدمه عدد من سكان مازندران، حيث زودوه بما يحتاجه كما رافقه عدد من أتباعه، إلا أن حياته انتهت فيها وذلك في شهر شوال من سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م^(٥).

من خلال ما سلف حرص المغول بكل قوتهم على القبض على السلطان علاء الدين محمد الذي أصابه الذعر من هول الأعمال الوحشية التي نفذها المغول بحق رعاياه، ولم يفكر أبداً في مقاومتهم على الرغم من أن الفرصة واثته أكثر من مرة، أولها عندما عرض عليه حاكم اللور الالتجاء إلى المنطقة بين اللور وفارس حيث كان بإمكانه جمع مئة ألف فارس ومقاومة المغول بهم، ولكنه رفض، كما أن ولده جلال الدين طلب منه أكثر من مرة الثبات في موقعه وجمع الجنود والمقاومة. كما أنه عندما التقى بولده ركن الدين كان برفقته أكثر من ثلاثين ألف فارس يمكن بواسطتهم اعاقا تقدم المغول والقضاء على الفرقة المطاردة له ولكنه أعرض عن ذلك، ولا يعرف سبب رفضه، ربما خوفه ووجهه، أو عدم ثقته بأتباعه، أو تقدمه في العمر فقد أنفق السلطان جلّ عمره وهو يحارب ممالك في بلاد ماوراء النهر وخراسان، وربما خارت قواه فأراد الالتجاء إلى منطقة آمنة يقضي بها بقية حياته، أو أنه سلّم الراية لولده جلال الدين من بعده، أو

(١) دامغان: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٢) سمنان: انظر تعاريف ص ٣٤٨

(٣) بارتولد، تركستان، ص ٦٠١؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٣.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٨.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤٥؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٣؛ اقبال، تاريخ ايران، ص ٣٥٦.

أن تهاوي دولته السريع دفعه إلى اليأس لربما كل هذا، وهناك ما يدعو للتساؤل كذلك الأمر لماذا غادر السلطان بلاد ما وراء النهر واتجه نحو خراسان التي لم يمكث فيها سوى مدة قصيرة، ليغادرها كذلك الأمر باتجاه اقليمي الجبل ومازندران، ويفكر بعدها بالتوجه نحو بغداد؟ ألم تكن غزاة أفضل لو اتجه إليها بحكم بعدها؟ أم أن اقليم فارس وكرمان ربما يكونان أنسب إلى اقامته؟ ولماذا وقع اختياره على اقليم مازندران لطبيعته الجبلية الصعبة، وصعوبة مسالكه، أم لكون حكامه من خدمه المخلصين، أم لقربه من بحر طبرستان، واقليم العراق، أم أن المرض تملك جسده ولم يعد قادراً على متابعة السفر والفرار، وكان اقليم مازندران أقرب مكان وجدده صالحاً لإقامته، لذا اتجه نحوه . وكما يلاحظ بأن أبناءه كانوا برفقته في الجزيرة حيث واروه الثرى ، متى قدم هؤلاء يا ترى ؟ هل كانوا برفقته منذ البداية، أم التحقوا به فيما بعد؟ لماذا لم يقاوم هؤلاء الأبناء المغول؟ يمكن أن يكون خوف والدهم قد انتقل إليهم، أو أنهم لم يتلقوا الدعم الكافي للمقاومة، ربما لكون المغول عندما كانوا يطاردون السلطان كانوا في الوقت نفسه يحاصرون خوارزم، أو أن الخلافات العائلية حالت دون توحيد جهودهم ضد المغول؟.

ويلاحظ كذلك أن المغول اجتاحت مدناً عدة لم يدخلها السلطان كهذهان مثلاً، التي يشير النسوي بأن السلطان مرّ قريبها واصطدم بالمغول عند موقع دولت آباد^(١)، لكن ابن الأثير انفرد برواية مفادها أن السلطان دخل همدان واستند في روايته تلك على شهادة تجار قادمين من همدان التقى بهم وأخبروه بأنهم شاهدوا السلطان في المدينة^(٢). كما أنهم دمروا مدناً مثل سمنان، ودامغان وغيرهما وكلها مدن لم يمر بقربها السلطان، ولكن كان لزاماً على المغول المرور بها لكونها مراكز أساسية على الطريق المعروفة التي كان يسلكها المسافرون في ذلك الزمان. لكن مع كل الأدلاء الذين كانوا مع المغول والأمراء المحليين الذين أظهروا الطاعة لهم، هل يعقل أن يفقدوا أثر السلطان والذي اختفى إلى الأبد؟، و بالتالي فما هي المميزات التي امتازت بها تلك الجزيرة عن غيرها من الجزر، سوى أنها تقع في بحر طبرستان، وعند مصب نهر جرجان، وتحتوي قلعة صغيرة، هل كانت بعيدة عن مرمى سهام المغول، أم أنها كانت تقع في موقع معزول من الصعب التعرف عليه، أم أنها كانت خاضعة لأمر مازندران المحليين والذين خدموا السلطان بإخلاص، و لم يشر المؤرخون كذلك الأمر للمدة التي مكث فيها السلطان بالجزيرة ربما لم تزد

(١) سيرة السلطان، ص ١٠٥.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٢.

عن شهرين أو ثلاثة. وفي نهاية الأمر فقد توفي السلطان وتابع المغول طريقهم باتجاه اقليم أذربيجان في محاولة منهم لاجتياحه وقد نجحوا في ذلك فعلاً^(١).

أما فيما تعلق بالسلطان فهو - مجدداً - علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن ايل أرسلان تولى الحكم بعد وفاة والده سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، تلقب بعلاء الدين ، وكان قبل وفاة والده يلقب بقطب الدين^(٢)، عُرف بفضل وكرمه وإحسانه، وتقضيله للعلماء، واكثاره من مجالستهم، واهتمامه بعلوم الدين^(٣)، ولقد اتسعت املاكه حتى ملك من حدّ العراق إلى تركستان، وملك غزنة، وبعض الهند وسجستان وكرمان، وطبرستان، وكذلك: جرجان، وبلاد الجبل، وخراسان، وفارس، ودامت سلطته احدى وعشرين سنة وشهوراً^(٤)، ولكن كلّ تلك الممالك أصابها الدمار على يد المغول ، وانقلبت أحوالها من عزة إلى ذلة، وعند مطالعة ما كتبه المؤرخون عن وفاة السلطان يلاحظ الآتي: بأنهم اختلفوا في السبب الذي أدى إلى موته، فمنهم من عدّ علة ذات الجنب هي السبب في موته^(٥)، وآخر عدّ مرض الاسهال هو العلة التي أودت بحياته^(٦)، وثالث لم يحدد سبب مرضه ، ولكنه أشار إلى كون السلطان وقع في المرض ولم يجد الأطباء دواءً لمرضه ذاك^(٧)، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر فقد اختلف المؤرخون أيضاً في مكان وفاته فمنهم من تحدث عن أن السلطان توفي في قلعة في جزيرة في بحر طبرستان^(٨)، وآخرون أصابتهم الحيرة فعجز عن تحديد المكان الذي التجأ إليه السلطان في أثناء فراره فذكر العبارة التالية: "من أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه قد عدم لا يعرف حقيقة خبره، فتارةً يقال مات عند همذان وأخفي موته، وتارةً دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك، وأخفي موته لئلا يقصدها التتر في أثره، وتارةً يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر وتوفي في جزيرة هناك"^(٩). وما يلاحظ بأن ابن الأثير يشير إلى مختلف الروايات التي تناقلتها الألسن حول مكان وفاة السلطان، ولكنه عاد

(١) سيأتي الحديث عن ذلك الأمر في الفصل الرابع.

(٢) الصدفي، تاريخ دول الاسلام ، ج ٢، ص ٢٠٥؛ فهمي، تاريخ المغول في ايران ، ص ٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٣؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٢٩.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٧، ص ١٣٦؛ الصدفي، تاريخ دول الاسلام، ج ٢، ص ٢١١.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢٥١؛ العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ص ١٢١.

(٦) الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ٣، ص ١٧٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٧، ص ١٣٦.

(٧) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٣٣٦.

(٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٦؛ براون، تاريخ الأدب في ايران، ص ٥٥٩.

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٧.

ليؤكد ما اجتمع عليه معظمهم من كونه قد توفي بجزيرة في بحر طبرستان حيث قال: "ثم صحَّ موته ببحر طبرستان" ^(١). توفي السلطان بعد أن استخلف ابنه جلال الدين في الحكم من بعده ولكن على ماذا استخلف يا ترى؟ استخلفه على بقايا دولة أضناها الدمار وسفك الدماء، لذا حاول جاهداً المحافظة عليها ولكنه أخفق في ذلك. وإذا ما تمت المقارنة ولو بشكلٍ تقريبي بين شخصية جنكيزخان وعلاء الدين محمد فهناك فروقٌ كثيرة، فجنكيزخان تمتع بشخصية قوية منذ صغره فقد تربى يتيماً ، وتعرض لأهوالٍ كثيرة حتى تمكن من الانتصار على أعدائه وتوحيد شعبه وتأسيس دولةٍ قادها بنفسه، وحكمها بشكلٍ مباشر وربطها بشخصه، ولم يسمح لبعض الفئات مهما كانت مكانتها الدينية أو الأسروية من التدخل في حكمه، بل كان يلجأ إلى قتل كل شخصٍ يشك في نواياه، هذا من جانب ومن الجانب الآخر فإن الخان لم يكن متردداً بل كان واثق الخطأ، على دراية واسعة بجميع الأعمال التي يمارسها جنوده وموظفيه فقد كان هؤلاء يطيعونه طاعةً عمياء، وقد سمح لنسائه بإبداء آرائهن ومشاركته بعض احتفالاته ومرافقته في حملاته، ولكن لم يسمح لهن بالتمادي وإدارة أمور البلاد لصالحه وتهميشه، أحب رعيته واعد نفسه فرداً منها، لذا شاركهم في كل شيء، فأحبوه وأطاعوه طاعةً عمياء.

كان السلطان الخوارزمي على نقيض ذلك، ضعيف الشخصية متردداً في قراراته التي كان يتخذها، وهو الذي قضى على الممالك الموجودة في المنطقة، والتي سبب زوالها زوال دولته، لم يعامل شعبه بلطفٍ بل أنه لجأ إلى تخريب المناطق الحدودية من دولته خوفاً من وقوعها بيد أعدائه مسبباً الأذى لرعيته الذين أضحوا بلا مسكنٍ وأويهم، هذا من جانب ومن جانبٍ آخر لم يكن مطاع الجانب، بل عارضه عدد من أتباعه، كما أنه لم يكن يملك سلطةً على حاشيته وعلى جيشه الذي كان موزع الأهواء، نالت المرأة في عهده مكانة كبيرة، ولكنه سمح لها بالتمادي عندما أشركت نفسها بالحكم وتحكمت بمقاليد الدولة وشؤونها بل بتعيين الموظفين، وخلفاء السلطان، ليس ذلك فحسب بل كانت أسرته مفككة وجيشه كذلك، ولم يستغل الفرص التي أتاحت له، بل أساء التصرف، وأساء التخطيط، ولربما كان ذلك لبطانة السوء التي أحاطت به، أو لخوفه، أو لكبر سنه، وما يهم في الأمر هو أنه لم يحسن التصرف مع رعيته التي لم تحبه في بعض أجزاء الدولة، ولم يحسن حماية مملكته فتركها تتهاوى أمام ضربات المغول.

(١) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤٧.

الفصل الرابع:

الاجتياح المغولي لخراسان وإقليم الجبال وأذربيجان حتى وفاة السلطان جلال الدين منكبرتي:

أولاً: الاجتياح المغولي لخراسان:

- ١- توجه جنكيزخان نحو بلخ وتدميرها.
- ٢- حصار جنكيزخان للطالقان واجتياحه لقلعتها.
- ٣- استيلاء المغول على مرو.
- ٤- تدمير المغول مدينة نيسابور.
- ٥- توجه المغول نحو هراة وطوس وتدميرهما.
- ٦- حصار مدينة نسا.

ثانياً: اجتياح المغول لإقليم الجبال:

- ١- حصار مدينة همذان واجتياحها.
- ٢- توجه المغول نحو الري.
- ٣- حصار مدينة قزوین وتدميرها.

ثالثاً: اجتياح المغول لمناطق طبرستان والغور:

- ١- تدمير مدينة الباميان.
- ٢- اجتياح المغول لمدينة غزنة وصدامهم مع السلطان جلال الدين منكبرتي:

أ- حال غزنة غداة وصول السلطان جلال الدين منكبرتي إليها.

ب- موقعة بيروان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م.

ج- موقعة نهر السند سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م.

د- اجتياح المغول لمدينة غزنة.

رابعاً: اجتياح المغول لإقليم أذربيجان:

١- حصار تبريز.

٢- توجه المغول نحو أربيل.

٣- اجتياح مدينة مراغة.

خامساً: مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م.

اندفع المغول نحو أراضي الدولة الخوارزمية مدمرين ومخربين لأركانها، ولقد تمكنوا بدايةً من تدمير مناطق ما وراء النهر وخوارزم كما تقدم الذكر من قبل، وطاردوا السلطان علاء الدين محمد وضيقوا الخناق عليه إلى أن انتهى به المطاف ليموت طريداً في جزيرة نائية، ولم يكتفِ المغول بما حققوه من نجاحات بل رغبوا في استكمال عملهم، لذا كان لابد لهم من السيطرة على خراسان وإقليم الجبال وأذربيجان، وكانوا بحاجة أيضاً للتعامل مع السلطان جلال الدين منكبرتي تلك الشخصية التي برزت بعد وفاة السلطان علاء الدين محمد، لذا سيلقي هذا الفصل الضوء على:

أولاً: الاجتياح المغولي لخراسان:

"رياح الغضب تهبّ على خراسان"^(١)، هكذا عنون غروسيه الفصل الذي تحدث فيه عن اجتياح المغول لخراسان مشبهاً إياهم بالرياح العاصفة التي تقلع كلّ شيء تصادفه في طريقها، وتحلّ الخراب والدمار في كلّ مكانٍ توجد فيه، لتغادر سريعاً كما جاءت سريعاً وبعد مغادرتها يتكشف للعيان مقدار الخراب والدمار الذي ألحقته بالمكان، هكذا كان قدوم المغول إلى مناطق خراسان قدوماً سريعاً ومدمراً في الوقت نفسه، ولكن يقف المرء لبرهة متفكراً في مجرى الأحداث وطارحاً على نفسه السؤال التالي: لماذا قدم هؤلاء لمناطق خراسان؟ ألم يدمروا مناطق بلاد ما وراء النهر ودمروا معها أركان الدولة الخوارزمية؟ أم أنه وجد لها قواعد في خراسان كان لابد من تدميرها؟ أم أن أراضي خراسان ومدنها لفتت أنظارهم نظراً لغناها التجاري فرغبوا في الاندفاع نحوها لجمع أكبر قدرٍ ممكنٍ من الثروات؟ أم رغبوا في السيطرة على قواعد طريق الحرير حيث عدّت خراسان من أهم قواعده؟ أم أن رغبتهم في تأديب حكام بعض المدن والذين كانوا تابعين للدولة الخوارزمية وقدموا خدماتٍ جليّةً للسلطان علاء الدين محمد في أثناء فراره من أمام جحافلهم دفعهم لذلك الأمر؟ أم أن موجة التدمير بدأت لديهم ولم يستطيعوا وضع حدٍ لها لذا استكملوا مسيرهم نحو خراسان، وذلك لكون خراسان تكمل مناطق ما وراء النهر ، لذا فإن أي غازٍ للمنطقة عندما كان يسيطر على إحدى المنطقتين كان لابد له من السيطرة على المنطقة الأخرى. أسباب كثيرة دفعت المغول نحو المنطقة، ولمعرفتها ولمعرفة معلوماتٍ أكثر عن طبيعة اندفاعهم وزمانه، وعدد الجنود والقادة الذين شاركوا فيه ، ولجمع معلومات أكثر عن طبيعة المدن

(١) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٩.

المجتاحة وموقفها من المغول، ومقاومتها لهجومهم ، لابد من دراسة كل منطقة من مناطق خراسان لرسم صورة متكاملة عن تلك الموجة التي قضت على أوجه الحياة فيها.

١- توجه جنكيزخان نحو بلخ وتدميرها:

ساهم جنكيزخان في تدمير بخارى كما ذكر من قبل، وأرسل جيوشه في اتجاهات مختلفة لاجتياح مناطق ما وراء النهر، وبعد أن استكملت العمليات ككل أرسل فرقة في أثر السلطان علاء الدين محمد تمكنت من أن تهنيء أسباب موته طريداً شريداً في جزيرة آبسكون، واستراح جنكيزخان لبرهة، وبعدها عاود نشاطه التخريبي والذي بدأه منذ سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م وذلك في ربيع سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م حيث انطلق باتجاه نهر جيحون ليوافقه بداية مدينة بلخ ذات الحظ العاثر والتي كُتب لها الفناء والدمار كباقي مدن خراسان، وبداية تقع بلخ وسط خراسان وتبعد عن نهر جيحون اثني عشر فرسخاً، وعن مدينة مرو مئة وست وعشرين فرسخاً^(١)، وصفها الجغرافيون العرب بصفات كثيرة فمنهم من أطلق عليها لفظة " بلخ البهية"^(٢)، وآخر عدّها من مدن خراسان العظمى^(٣) بينما بدأ ياقوت الحموي حديثه عنها بقوله " من أجلّ مدن خراسان"^(٤). تقع في مستوٍ من الأرض تبلغ مساحتها نحواً من نصف فرسخ ويخترقها نهر يسمى دهاس يسقي ريفها وبساتينها^(٥)، و تألفت بلخ من الشهرستان والذي غلب على بنائه الطين وحفّ به سورٌ وخنق عميق وكثرت فيه المساجد والمدارس والأسواق وصفها ابن بطوطة عندما زارها في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد حيث قال: " كانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن"^(٦). أحاط بالشهرستان الریض والذي عُرف بسعته وكثرة مزروعاته وغلاته^(٧). كانت بلخ من المدن المهمة إلى درجة دفعت المؤرخين للتغني بها وبحسنها وثرائها، فهذا المقدسي وصفها بقوله: " انظر إلى بهاء بلخ وحسن موقعها وسعة طرقها وبهجة شوارعها وكثرة أنهارها والتفاف شجرها وصفاء مائها واشراق قصورها وسور مدينتها ومسجد جامعها وأحكام صنعته،

(١) بدر، تاريخ أفغانستان، ص ١١؛ الحديثي، أرياع خراسان، ص ٣٨٨.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣٨.

(٣) اليعقوبي (أحمد بن أبو يعقوب ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م): البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٨٧.

(٤) معجم البلدان، ج ١، ص ٧١٣.

(٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٦١.

(٦) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٤٠-٤١.

(٧) ابن حوقل (محمد بن علي ت ٣٧٦هـ/ ٩٧٧م): صورة الأرض، ليدن، مطبعة بريل، ط ٢، ١٩٣٨م، ص ٣٧٣.

وجلالة موضعه، ليس بأقاليم العجم مثله حسناً ويساراً^(١). وتحدث الجويني عنها بقوله: " كانت بلخ من أكثر البلاد غلاتاً وأعلاها ارتفاعاً ومساحتها أكبر وكانت في القرون الخالية في البلاد الشرقية بمثابة مكة في البلاد العربية "^(٢). نعم كما وصفها الجويني فهي كانت من المراكز الدينية المهمة عند سكان خراسان لكونها حوت معابد للآلهة^(٣)، ربما زالت بعدما فتحها العرب، ولكن كل ذلك الحسن والجمال سرعان ما تحول إلى خرابٍ ودمارٍ، أو كما قال ابن عرب شاه عند حديثه عن أحوال مدن خراسان وما أصابها على يد المغول فأشار إلى بلخ فقال: " وبلخ قد كُسيّت من البوار ثوب سلخ "^(٤). أما فيما تعلق باجتياحها على يد المغول فهو من المواضيع المهمة، ولكن على أهميته فإن قلة من المصادر قد تحدثت عنه، لا بل حتى إن وجد من تحدثت عن الأمر فإنه لم يتوسع كثيراً في التفاصيل بل اكتفى بذكر بعض الأشياء وبشكلٍ خاص ما تعلق بالمغول وطريقة تدميرهم للمكان مغفلاً الحديث عن حال سكان المدن، ومقاومتهم للغزاة إن وجدت، وعن الحاميات الخوارزمية وطريقة تعاملها مع الموضوع، وفيما تعلق بمدينة بلخ فإن الجيوش المغولية توجهت ضد المدينة ثلاث مرات، الأولى كانت سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م وذلك عندما كان القائدان جبه وسوبوداي يلاحقان السلطان علاء الدين محمد في خراسان، فمرا بأسوار بلخ، فارسل لهما رؤساء البلدة الهدايا مرحبين بقدميهما، فما كان منهما إلا أن عينا شحنةً مغولية على المدينة وقبلوا الهدايا وغادرا المدينة على عجلةٍ من أمرهما دون أن يتعرضا لأحدٍ بأذى^(٥)، ويعود ذلك لكون القائدين كانا في عجلةٍ من أمرهما، إضافةً لكون جنكيزخان قد زودهما بتعليمات مفادها قبول الأمان من المدن التي تستسلم لهما، وتجنب الصدام مع المدن الكبرى التي يحتاج تأديبها في حال معارضتها لهما ورفضها الأمان إلى وقتٍ طويلٍ، وقواتٍ كثيرةٍ وذلك لكون هدفهما الأساسي يتمحور حول القبض على السلطان علاء الدين محمد والقضاء عليه. ولقد تصرف سكان بلخ بعقلانية مع الفرقة المغولية لكون هؤلاء قد وصلتهم أخبار المذابح والدمار الهائل الذي حلّ بمدن بلاد ما وراء النهر فأرادوا تجنب مدينتهم المصير ذاته، فما كان منهم إلا أن سارعوا إلى طلب الأمان وتسليم الهدايا وقبول الشحنة المغولية فنجوا بتصرفهم هذا من

(١) أحسن التقاسيم، ص ٢٣٨.

(٢) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٧.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٣؛ بارتولد، تركستان، ص ١٦٢.

(٤) ابن عرب شاه، فاكهة الخلفاء، ص ٥٠٨.

(٥) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٢.

الفناء، و سلمت بلخ من الموجة الأولى ولكنها لم تسلم من الثانية، فقد قاد هذه الموجة جنكيزخان بنفسه وذلك سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م^(١)، فبعد أن فرغ من تدمير مدن ما وراء النهر تقدم نحو نهر جيحون وعبر من معبر ترمذ، ليصل إلى ظاهر مدينة بلخ، ولقد سبقه في مسيره ذاك طليعة جيشه التي عرضت على السكان الطاعة مقابل الحياة و كما جرى من قبل، قبل السكان وسارعوا لتقديم الهدايا وأنواعاً من الترخو^(٢)، كما عبر عن ذلك ابن العبري^(٣)، بينما صرح رشيد الدين الهمذاني بأنهم حملوا أنواع الإقامة والمدود^(٤)، قبل جنكيزخان هذه الهدايا ولكنه سرعان ما بدل رأيه وحكم على المدينة بالفناء، وذلك بأن أمر بإخراج السكان إلى الصحراء بغرض الإحصاء، ثم قسمهم إلى مجموعات وأمر بعدها عساكره بإفنائهم^(٥)، وحكم الخان على المدينة بالموت على الرغم من مسارعة أهلها لتلبية كافة طلباته، هذا أمر يدفع للتساؤل والاستغراب وهو الذي أصر على عدم التعرض للمدن التي تسرع للمسالمة، ربما يتلخص السبب بتصرفات بدرت من السكان ولم يشر لها المؤرخون، أم لخوف جنكيزخان من السلطان جلال الدين منكبرتي الذي ورث بقايا دولة والده ونشط في محيط مدينة نيسابور القريبة، أم رغب الخان باستمرار بسياسة القتل والتدمير التي بدأها من قبل لذا دمر بلخ كما دمر غيرها من قبل، ربما، و لم يشر المؤرخون لسبب التغير المفاجئ فقط تطرق للإشارة إليه إشارات عابرة كل من الجويني وابن عرب شاه، فقد أرجع الجويني سبب تدمير المدينة للسلطان جلال الدين منكبرتي حيث عدّه المسؤول عن تلك الحادثة فقال: " ولما كان السلطان جلال الدين متمتعاً بحريته، يثير الفتن ويعدّ الجنود للحرب فإن الخان لا يمكنه أن يطمئن إلى الناس ولا سيما أهالي خراسان، وهكذا حكم على سكان بلخ بأن يفيض عليهم موج الفناء "^(٦). بالتالي خوف الخان من تحول المدينة لمعقل للسلطان جلال الدين وأتباعه وذلك لمكانتها الاقتصادية ولموقعها الجغرافي والعسكري المهم لكونها معبر أساسي على نهر جيحون وبوابة خراسان هو الذي دفعه لذلك. وبالعودة للأسباب فقد أشار ابن عرب شاه

(١) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥٣؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.

(٢) الترغو: لفظة تُطلق على نوع معين من المأكّل والمشرب؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(٤) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٣؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٨؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٩؛ بارتولد،

تركستان، ص ٦١٧؛ عبد الحكيم، جنكيزخان، ص ٢٠٤.

(٦) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٨.

للسبب نفسه الذي ذكره الجويني من دون التوسع في توضيحه فقال: " خرج إليها جماعة من التتار سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م فخرج إليهم الأعيان وطلبوا منهم الأمان فأجاب سؤالهم بما يصلح حالهم، ثم اختشى من السلطان جلال الدين فلم يركن إليهم ولا عول عليهم، فأمر بإراقة الدماء وهدم البناء واحاطتهم بدائرة الفناء فأفنواهم عن آخرهم وساواوا بالحضيض بقاع عمائرهم ^(١). لذا فالخشية من السلطان جلال الدين وخوفه منه دفعه للحكم على بلخ بالفناء، لم يفن السكان فقط بل أفنى المدينة ككل بأن هدم أسوارها، وأضرمت النيران في بيوتها ومحلاتها وأحالتها إلى خرابٍ كاملٍ ^(٢)، حتى أضحت مأوىً للكلاب فقط كما أخبر عن ذلك الراهب الطاوي الذي مرّ بها سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م في أثناء رحلته إلى المعسكر المغولي في الهندو كوش فهو لم يصادف أية حياة في المدينة، لأنه لو صادف لكان أشار لذلك فقط سمع عواء الكلاب التي انتشرت في أرجاء المكان دالةً على مقدار الخراب الذي ألمّ بها ^(٣)، أما فيما تعلق بالموجة الثالثة فالمعلومات عنها قليلة فقد أشار إليها الجويني من دون تحديدٍ لتاريخها، بل تحدث عنها عقب حديثه عن الموجة الثانية واصفاً مقدار الخراب الذي حلّ بالمدينة من جديد فقال: " ولما بلغ الخان حدود بشاور ^(٤) عاد فجأة إلى بلخ وأمر أن يقتل كل من خرج من مخبئه في الخزائن والمجاري فأعملوا بهم القتل وكأن الآية (سنعذبهم مرتين) نزلت بحقهم، وعادوا إلى المدينة ولم يتركوا جداراً إلاّ هدموه وعادت قاعاً صافصفاً ^(٥). يفهم مما سلف بأن جنكيزخان تابع سيره نحو مدينة بشاور، ولكنه عاد فجأة لسبب ما نحو بلخ، و لم يذكر الجويني السبب، ربما لورود أنباء تفيد بتجمع بعض الفئات فيها، أو أنه كان يقضي على تمردٍ ما في منطقة قريبة من بلخ فمرّ بها وقام بقتل كل من صادفه من السكان والذين كتبت لهم النجاة من المذبحة الأولى، ولكن عند مطالعة ما كتبه غروسيه عن نتائج موقعة بيروان سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م ^(٦) تحدث عن فرقة مغولية بقيادة دروبي، والتي أرسلت لتأديب كل من هراة ومرو لتمردهما بعد انتصار السلطان في الموقعة، فيشير في معرض حديثه عن انعطاف تلك الفرقة باتجاه بلخ حيث زارتها للمرة الثانية محدثةً الدمار نفسه وموقعةً مذبحةً

(١) ابن عرب شاه، فاكهة الخلفاء، ص ٥٠٨.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغزالي، ص ٢٥٣.

(٣) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٩٦.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٥) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٨؛ أما الآية فهي من سورة التوبة ، آية رقم ١٠١.

(٦) سيجري الحديث عنها ص ٢٣٣.

بالأهالي^(١)، و بالتالي فهو حدد زمان تلك الموجة وقرنه بالمرحلة التي أعقبت موقعة بيروان، كما أنه ذكر اسم قائد القوات المغولية وهو دروبي، وحدد عدد قواته بخمسة آلاف جندي، ولم يتحدث عن الخان المغولي وتحركه نحو بلخ كما جاء لدى الجويني، الذي قرن زمن التحرك بالمدة التي سبقت تقدم جنكيزخان نحو الطالقان وحصاره لها، وارساله لابنه تولوي نحو خراسان، فأى الروايتين ياترى صحيحة؟ رواية الجويني المعاصرة للمغول، أم ما توصل إليه غروسية الذي اعتمد في كتابه على التاريخ السري وغيره من المصادر، و ما يؤخذ على الجويني عند التدقيق في روايته عدم ذكره للأسباب، أو التوسع في شرح حال القوات المغولية، وما أحرزته في تقدمها، وتحركها المفاجئ مرة ثانية باتجاه بلخ، ولم يشر إلى أعداد القتلى من السكان . وبالانتقال لغروسية فهو لم يتحدث عن ثورة أهالي بلخ أو تمردهم على الحكم المغولي بل قرن حديثه عنهم بالإشارة لثورة أهل هرة ومرو^(٢)، لذا جاء تأديبها بعد الفراغ من تأديب المدن السالفة، وهو كذلك لم يوضح السبب أكان تمرد الأهالي، أم رغبة في عدم تحول المدينة لمعقل تتجمع فيه العناصر الثائرة أو التي نجت من المدن المجاورة، أم دُمرت لكونها تقع على خط سير ذلك القائد. سواء أكان تدمير بلخ الثالث قد تم قبل نصر بيروان أم بعده، فقد دُمرت تلك المدينة وتحولت إلى أطلال تدل على أنه كان في يومٍ من الأيام مدينة تنبض بالحياة. ولقد ذكر حالها تلك ابن بطوطة محلاً سبب تدمير جنكيزخان لمسجدٍ فيها وذلك لسماعه بوجود كنزٍ تحت أعمدته حيث قال: " بلخ خاوية على عروشها غير عامرة، خرب هذه المدينة تنكز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنزٍ ذكر له أنه تحت سارية من سواريه وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها"^(٣). بالتالي فقد بقيت بلخ مدمرة إلى النصف الأول من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد وذلك حين زارها ابن بطوطة وشاهد خرابها ولكنها استعادت فيما بعد بعضاً من نشاطها^(٤).

ولا بد من الإشارة في نهاية البحث عن بلخ، بأن الجويني عندما سرد أخبارها فإنه لم يشر إليها ضمن حديثه عن اجتياح خراسان، بل أشار إليها في فقرة منفصلة، أما ابن الأثير فإنه لم يشر أبداً لتدميرها أو اقتراب المغول منها، بل بيّن عن طلب أهلها الأمان وموافقة المغول على طلبهم

(١) غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠٢.

(٢) سيجري الحديث عنهما ص ١٧٨، ١٩٢.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٤١.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٤.

السالف وتعيين شحنة مغولية للمنطقة دون التعرض بأذى إلى أحد من السكان^(١). وقد نقل عنه كل من ابن أبي الحديد المدائني، وابن واصل، وابن كثير وغيرهم من المؤرخين^(٢). ربما قصد ابن الأثير في حديثه ذلك الموجة الأولى فقط، لكون ربما معلومات الموجتين التاليتين لم تصل إليه، أو ربما رغب في الاختصار وعدم التفصيل، لذا لم يتطرق لها.

٢- حصار جنكيزخان للطالقان واجتياحه لقلعتها:

انتهى جنكيزخان من مدينة بلخ فتابع سيره نحو مدن خراسان، وبما أنه سلك الطريق التجاري المعروف الذي كان يجتاز خراسان واصلًا بينها وبين ما وراء النهر وبغداد لذا فإنه صادف بداية مدينة الطالقان والتي تقع على الطريق الواصل بين مروالروذ^(٣) وبلخ^(٤) وبالتحديد على بعد ثلاث مراحل إلى الشرق من مروالروذ في منطقة جبلية متصلة بجبال الجوزجان^(٥)، عدها ابن رسته وقدامة من كور خراسان^(٦)، بينما عدها الاصطخري مدينة تابعة لمروالروذ^(٧). تألفت من الشهرستان والذي كان يوازي مدينة مرو الروذ في الكبر ويشقه نهران من تفرعات نهر جيحون، وفيه سوق ومسجد جامع وقد بني الشهرستان من الطين^(٨)، وإضافة لذلك فقد حوت الرساتيق العديدة التي امتدت في الجبال^(٩)، كما تألفت من الربض والذي عُرف باسم نصرت كوه^(١٠)، أو منصور كوه^(١١)، واشتهرت بارتفاعها وحصانتها واتقان بنائها^(١٢)، ولكن لم يحدد المؤرخون والجغرافيون موقعها من مدينة الطالقان، ولم يتحدثوا أيضاً عن أوصافها فقط اكتفوا بوصف مدى ارتفاعها واستحكام بنائها، ويشير لسترنج في نهاية حديثه عن مدينة الطالقان بأنه لم يبق لهذه المدينة ذكر على الخارطة غير أن بقايا الأجر مازال باقية بالقرب من مدينة جاجكتو تشير إلى

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، مصدر سالف، ج ١، ص ٥٠؛ مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٧؛ البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٩٦.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤٩.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٩١؛ لسترنج، بلدان الحلافة الشرقية، ص ٤٦٥؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٩٣.

(٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٧٠.

(٦) الأعلام النفيسة، ص ١٠٥؛ قدامة (قدامة بن جعفر ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م): الخراج وصناعة الكتابة، دي غويه، بريل، ١٨٨٩م، ص ٢٤٣.

(٧) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٧٠.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٣؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٢٨٧.

(٩) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٥٨.

(١٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٩؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥٣.

(١١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٧.

(١٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٧.

أنه كان هناك مدينة بهذا الاسم في يومٍ من الأيام^(١)، وحكم جنكيزخان على المدينة بالفناء وهذا ما سيتم مناقشته فيما يلي:

تقدم جنكيزخان نحو الطالقان في شهور سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٢)، لكنه عندما وصل إليها لم يهتم لأمر مدينتها، فقط اتجه نحو القلعة، كما يلاحظ بأن المؤرخين العرب والفرس في حديثهم عن حصار الخان لمدينة الطالقان وتدميرها لم يشيروا إلا للقلعة مهملين الحديث عن المدينة، ربما لكون معظم السكان عند اقتراب الخطر المغولي من المنطقة تركوا المدينة واتجهوا نحو القلعة لمناعتها، أو ربما لكون القلعة دفاعياً وعسكرياً كانت أهم من المدينة لذا كان لابد له بدايةً من مواجهتها، أو من المعتقد بأن سكان المدينة تعاونوا مع الخان ولم يتعرضوا لقواته بأذى لذا فإنه اتجه مباشرةً نحو القلعة ولاسيما أن المؤرخين الفرس يتحدثون عن أن الخان قد أرسل الرسل إلى أهل قلعة نصرت كوه أكثر من مرة ودعاهم إلى طاعته فلم يجيبوه لذا فإنه أعلن الحرب عليهم وفرض الحصار على القلعة^(٣)، ذلك الحصار الذي اختلفت مدته ومن أشرف عليه من المغول بين مؤرخ وآخر. فالجويني ورشيد الدين الهمذاني مثلاً ذكرا جنكيزخان هو القائد الذي تولى حصار قلعة نصرت كوه، وتحدثا عن أن الحصار استمر "سبعة أشهر" حيث كان القتال محتدماً، فقد نصب المغول المنجنوقات حول القلعة وباشروا بالقذف من غير توقف، ووقع الكثير من القتلى بين كلا الطرفين، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن أنهى تولوي اجتياح خراسان، وفي الوقت الذي وصل فيه إلى معسكر والده أمام القلعة كان الخان قد حسم الحصار لصالحه وكان ذلك قبل قدوم فصل الصيف. حيث خضعت له الطالقان قسراً فلم يترك فيها أي شيء قائم بل دمر القلعة وأحالها إلى خرابٍ^(٤)، ولكن بمطالعة ما كتبه المؤرخون العرب عن الواقعة فإنه يلاحظ الآتي: بأنهم تحدثوا عن أن الحصار تمّ بدايةً من قبل قوات جنكيزخان، ولكن لم يفصل المؤرخون الحديث عن عدد القوات، ومن تولى قيادتها، فقط ذكروا بأن هناك قواتٍ مغوليةٍ توجهت نحو المنطقة التي وجدت فيها القلعة، وكانت المنطقة لا ترام علواً وارتفاعاً، وكانت

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٥.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٩؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥٣؛ العريني، المغول، ص ١٣٢.

(٣) الجويني، مصدر سالف، ج ١، ص ١٣٩؛ رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٣.

(٤) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٩؛ التاريخ الغازاني، ص ٢٥٣.

كذلك مشحونة بالرجال الشجعان^(١)، و فُرض الحصار على القلعة بدايةً " ستة أشهر " حيث احتدم القتال لإخراج من فيها ليلاً ونهاراً، ولما تيقنت الفرقة بأنها غير قادرة على تحقيق نصر حاسم أرسلت إلى طلب المساعدة من الخان معللين طلبهم ذاك بكثرة من فيها من المقاتلين ولحصانتها^(٢)، استجاب الخان إلى طلبهم فسار بنفسه إليها ومعه جموعٌ كثيرةٌ من المقاتلين يضاف إليهم عددٌ كبيرٌ من الأسرى المسلمين والذين جمعوا من المدن التي اجتاحتها المغول في بلاد ما وراء النهر، وأمر الخان الأسرى بمباشرة القتال بعد أن وضعهم في الصفوف الأمامية لكي يتلقوا ضربات الموجعة وبالتالي يخففوا الأذى عن قواته، ولكن الحصار استمر لمدة أربعة أشهر وقتل من المغول خلق كثير، لذا احتار جنكيزخان في أمره فما كان منه إلا أن طلب من الجيش أن يجمع الحطب والأخشاب وأمر ببناء تلٍ عالٍ، أو شيءٍ ما شبيهه بالقلعة على حد تعبير ابن أبي الحديد^(٣) يكون موازياً في ارتفاعه قلعة نصرت كوه وبعد أن انتهى من بنائه صعد الجنود فوقه ونصبوا المنجنيق عليه فاستطاعوا بعملهم ذاك إيصال الرمايات إلى وسط القلعة^(٤). وهنا اشتد الضغط على سكان القلعة ومقاتليها فقد أضحت ضربات المغول أكثر إيلاًماً، وطال الحصار عليهم، فما كان من القوات إلا أن فتحت باب القلعة في محاولة أخيرة للنجاة، وحملت حملةً واحدةً على المغول خارجها واشتبكت معهم فتمكنوا من النجاة وتفرقت في طرقات الجبال وشعابه ولكن مصير الرّجال كان الموت. اندفعت القوات المغولية داخل القلعة وبدأت بممارسة عملها المعتاد القائم على تدمير المكان وقتل السكان وسبيهم^(٥)، وقد تحدث عن مصيرها ابن عرب شاه حيث قال: " أهلك أهلها بسيف الطغيان، ولم يدع فيها من يتنفس وهدم إلى الأرض بنيانها المؤسس "^(٦)، هكذا كانت الروايات التي تحدثت عن حصار قلعة نصرت كوه كوه ومنطقة الطالقان رواياتٌ اقتصرت على الحديث عن حصار القلعة فقط مهملةً الكثير من التفاصيل والأشياء، فهي اكتفت بالحديث عن مدة الحصار التي اختلفت ما بين " سبعة إلى عشرة أشهر " سواء أكان الرقم الأول هو الصحيح أم الثاني، فإنها كانت مدةً طويلةً إذا ما قورنت

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٥١.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٣٣٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٥١.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٧.

(٦) ابن عرب شاه، فاكهة الخلفاء، ص ٥١١.

بحصار غيرها من المدن والتي لم يطل حصارها لأكثر من خمسة أشهر على الرغم من كونها تمتعت بأهمية استراتيجية واقتصادية أكثر منها، ولكن بما أن القلعة قاومتها لذا كان لابد من تأديبها فشرع في بناء تل عالٍ من الطين والأخشاب لكي يتمكن من ارتقاء الأسوار التي لحصانتها ووعورة مسالكها عجز جنوده عن ارتقائها، كما أنه كان بحاجة ماسة إلى الجنود لذا جمع قواته المتفرقة في أنحاء المكان، وهناك مأخذ آخر على الروايات أنها أهملت الحديث عن القوات التي كانت داخل القلعة، وعن أعدادها، وطبيعتها أي قوات محلية من السكان المحليين، أم من الحاميات الخوارزمية ومن تولى قيادتها، فقط اكتفت بالحديث عن كثرتها وشجاعتها، وإذا ما تمت المقارنة بين الروايات الفارسية والعربية يلاحظ الآتي: بأن الروايات الفارسية أهملت الحديث عن الخطة التي اتبعتها الخان في قتال القلعة، بينما تناولت الروايات العربية ذلك، ربما وجدت مصادر أقوى استقى منها ابن الأثير معلوماته، أو أن الحديث عن المنطقة لم يكن بالأهمية بمكان لذا لم تفصل المصادر الفارسية الحديث عنه واهتمت بذكر مواقع أخرى. ومهما يكن فقد دمرت القلعة وأضحت أثراً بعد عين ولم تحفظ إلا في كتب المؤرخين الذين تحدثوا عنها وعن فظائع المغول فيها.

٣- استيلاء المغول على مرو:

سيطر المغول على بوابة خراسان بلخ، وبعد تدميرهم لها، اندفعوا مجتاحين أنحاء الإقليم ومسيطرين على قواعده، فدمروا الطالقان بعد حصارٍ دام عدة أشهر، وكان جنكيزخان قبلها قد أرسل جيوشه نحو مرو، والتي دفعهم نحوها ربما موقعها المهم، فهي تعدّ مركزاً أساسياً على طريق الحرير، أو غناها الاقتصادي وكثرة أسواقها وتجارها، أو لكونها تحولت إلى مركز عسكري مهم التجأ إليها سكان خراسان الفارين من الزحف المغولي، أو لمكانتها المتميزة فهي كانت عاصمة سلاجقة إيران احتوت قبر السلطان سنجر ت ٥٥٢هـ/١١٥٧م ذلك القبر الذي وصفه ياقوت الحموي بقوله: "قبة عظيمة لها شبك إلى الجامع، وقبتها زرقاء يظهر من مسيرة يوم، بلغني أن بعض خدمه بناها له بعد موته ووقف عليها وقفاً لمن يقرأ القرآن ويكسو الموضع" (١)، كما أنها احتوت جوامع ومدارس ودور علمٍ أخرى أطنب ياقوت الحموي في وصفها (٢)، ووصف ما قدمته من علماء ومؤلفاتٍ لذا فهي تعدّ من مراكز الإشعاع الحضاري، ذلك الإشعاع

(١) معجم البلدان، ج٥، ص١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤٤.

الذي رافقه غنى اقتصادي، وقوة عسكرية، ورخاء كامل، كل ذلك شد أنظار المغول فأرادوا الاستيلاء على ثرواته واخمدوا نور أخواتها في بخارى وسمرقند من قبل في بلاد ما وراء النهر، بدايةً تقع مرو على نهر المرغاب والذي أخذ اسمه منها بحسب قول أبو الفداء والذي فسر اسم النهر على أنه "مرو آب" أي "ماء مرو"^(١)، وعدّها كل من اليعقوبي والاصطخري من كور خراسان^(٢). بالتالي فهي كورة قديمة قيل بأن الاسكندر المقدوني كان أول من بنى الشهرستان فيها^(٣)، أما قهندزها فقد بناه أحد ملوك الفرس بالتالي لمكانتها تلك فقد أطلق عليها اسم مرو الشاهجان والمفسر عندهم بروح الملك لأن الشاه تعني ملك وجان الروح^(٤). استمرت مكانتها تلك في العصر الإسلامي فقد كانت مركزاً لولاية خراسان، وقاعدة انتشر منها الدين الإسلامي في أنحاء المنطقة^(٥). ومما ساعد على ذلك كونها تقع في أرضٍ مستوية بعيدة عن الجبال، لذا فقد اخترقتها طرق التجارة، وهي تألفت من الشهرستان الذي أحاط به سور عُرف بالراي ولقد قسمتها الأنهار والقنوات إلى أربعة أرباع عُرف كل ربع منها باسم النهر الذي اخترقه، وهي ربع هرمز فره عُرف بكثرة الأبنية فيه، وربع الماجان وفيه دار الإمارة والمسجد الجامع والحبس، وربع رزيق وقد احتوى المسجد العتيق، وربع اسعدي وقد كان يروي عدة محال من المدينة^(٦). كما أنها ضمت قهندز وهو مرتفع وقد أحاط به الشهرستان من جميع جوانبه، واحتوى مسجداً جامعاً أطلق عليه اسم مسجد بني ماهان^(٧). وضمت أخيراً أرباضاً واسعة امتدت على ضفاف الأنهار أنتجت العديد من المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها مدن خراسان وبشكل خاص البطيخ والخضراوات^(٨). بلغت المدينة مكانة مرموقة في عصر السلاجقة فقد بنى سورها السلطان ملكشاه، كما أن السلطان سنجر اتخذها عاصمةً له، ولكن خمدت مكانتها لبرهة

(١) تقويم البلدان، ص ٤٤٦.

(٢) البلدان، ص ٢٧٨؛ المسالك والممالك، ص ١٠٣.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٤.

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١٠٤؛ القلقشندي، الصبح الأعشى في صناعة الأنشا، ج ٤، ص ٣٩٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٤.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٤.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٧؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٥٨؛ الحديثي، أرباع خراسان، ص ٣٣٢.

(٧) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٠.

(٨) الثعالبي (عبد الملك بن محمد ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٤٣٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٥٧؛ لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٤٠.

فقد تعرضت للدمار على يد الغُزّ سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م^(١). وعادت واستردت عافيتها ليس لمدة طويلة من الزمن حيث دمرت على يد المغول سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م. وهذا ما سيتم التوسع فيه فيما يلي:

كانت مرو تابعة إلى حكومة السلطان علاء الدين محمد، وعندما ضعف السلطان وبدأ بالفرار أمام المغول، بدأ الحكام فيها بالاستقلال وتشكيل نوعٍ من الحكم الذاتي فيها، حكمها بدايةً ابن نجيب الدين والذي عينه السلطان علاء الدين محمد ولقبه بهاء الملك^(٢)، ولكن تمكن أحد أهل القصر ويدعى كشتكين بهلوان من تشكيل جيشٍ صغيرٍ من المرتزقة استولى به على الحكم فيها، ولكنه كان متردداً، ضعيف القلب وكان يدفع دائماً المغول عنه بمنحهم الهدايا مما جعله في موقعٍ ضعيفٍ في مرو. ولكن تمكن بهاء الملك من استعادة منصبه كحاكم على مرو، واتخذ من قلعتها مقراً لإقامته، وعندما قدم جبه وسوبوداي إلى خراسان في أثناء مطاردتهما للسلطان اقتربا من مرو وأرسلا الرسل إليها لغرض الطاعة، ولكن ما حدث هو أن قام أحد أتباع السلطان ويدعى بوقا وكان مقيماً في طرف المدينة أن هاجم المغول مع جماعةٍ من التركمان كانوا موجودين فيها، فتمكن من إلحاق الأذى بهم، وبعدها عاد إلى مرو حيث كثر أتباعه واستولى على الحكم فيها^(٣)، وفي تلك المدة برزت شخصية مجير الملك شرف الدين^(٤) و الذي انتقل من بلاد ما وراء النهر، وتحرك باتجاه خراسان حيث أقام بدايةً في إحدى الجزر القريبة من أبسكون، ثم توجه بعدها نحو قلعة صعلوك^(٥)، ولكنه سمع عن أحوال مرو وجذبتة حالة التخبط التي كانت تعيشها، فما كان منه إلا أن تحرك نحوها ونزل عند بوابة المدينة حيث لقي ترحيباً من بعض جند بوقا فتمكن من التسلل لمرو والدخول إليها وسرعان ما طلب بوقا العفو منه وانضم جنوده إليه، وبالتالي أضحى حاكماً لمرو، لكن بعد أن استولى على الحكم فيها كان لابد له من أن يوطد أركان حكمه فاصطدم بدايةً مع شيخ الإسلام الذي كان موالياً للمغول، فقد قبل طاعتهم وأرسل هدايا قيمة إليهم وقد سلك قاضي سرخس مسلكه وتبادلا الرسائل بهذا الخصوص، احداها وقعت بيد مجير الملك الذي سرعان ما أثار الناس ضده فقتلوه، فتمكن بذلك

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٠؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٣٦٧.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٠-١٦١.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٩

(٥) قلعة صعلوك: انظر تعاريف ص ٣٥٦

العمل من التخلص من خصم قوي^(١)، و يستخلص مما سلف بأنه عندما قدم المغول وهاجموا مرو كان يتولى شؤونها مجير الملك، فيما يتعلق باجتياح المدينة فقد كلف جنكيزخان تولوي بمهمة الاستيلاء عليها، وزوده بعشر جيشه إضافةً إلى عدد كبير من الحشر لم يحدد المؤرخون أعدادهم فقط اكتفوا بالقول بأنهم جمعوا أهل البلد الذين أعطوهم الأمان وسيروهم مع تولوي إلى مدينة مرو^(٢). فبلغ عدد جيشه ما يقارب "سبعين ألف جندي"^(٣)، لم يحدد المؤرخون أنواع الأسلحة التي زدوا بها، أو أسماء القادة الذين رافقوا الجيش، فقط ذكروا اسم تولوي وحددوا عدده ، ولكن يفهم مما سلف بأن معظم الجيش كان من الحشرية وهي - كما سلف القول - فئة كانت تُجمع من سكان المناطق المجتاحة، ليس لديهم خبرة كبيرة في القتال ولكنهم كانوا يستخدمون كدروع بشرية تحمي جيوشهم، هذا فيما تعلق بالجيش المغولي، أما فيما تعلق بالقوات التي كانت موجودة في مرو فقد اختلف المؤرخون في تحديد أعدادها واكتفوا فقط بالإشارة للقوات التي كانت في ظاهر المدينة، وليس داخلها تلك القوات التي ضمت عناصر من أعراب وأتراك وممن نجا من المدن المجاورة التي دخلها المغول، وبدايةً حدد عددها ابن الأثير وابن خلدون "بمئتي ألف رجل"^(٤)، بينما حدد الجويني عددها "بسبعين ألف"^(٥) عندما ذكر أعداد من قتلوا منهم على يد المغول، ولكن لم يشر المؤرخون إلى قادة هؤلاء الجنود، ولما كانوا موجودين في ظاهر المدينة وليس داخلها؟. حيث اصطدم بهم المغول بدايةً، ولم يذكروا أكانوا جنوداً نظاميين، أم أنهم عبارة عن مجموعة من الرجال تجمعوا في ظاهر المدينة، ما تؤكد الروايات التي تناولت مصير سكان مرو بأنه كان يوجد فيها فرق من الجنود، لم تحدد عددها، عُرف عنهم فقط أنهم كانوا تحت قيادة بوقا ثم مجير الملك من بعده^(٦)، و ما يدفع للاستغراب لماذا لم يسمح حاكم مرو للقوات التي جمعت خارجها بالدخول إليها ومساعدته، ألم يكن أولى به أن يستفيد منها وينظمها للدفاع عن مرو، بدلاً من أن يتركها تتخبط بالخارج من دون قيادة منظمة، بالتالي انتهى مصيرها بالفناء على يد المغول الذين كانوا لا يعرفون الهزيمة، فقد اصطدم المغول بدايةً بهم عندما وصلوا إلى المدينة وقد جرى قتال بين الطرفين، فقد كان هؤلاء عازمين على لقاء

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦١؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٣٦٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٦.

(٣) بارتولد، تركستان، ص ٦٢٧؛ عكاشة، اعصار من الشرق، ص ٢١٤؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٣٦.

(٥) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٧.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٩-٦٠.

المغول ويحدثون أنفسهم بالنصر وصبروا في القتال الذي استمر ليومٍ كاملٍ، ولكنهم هُزموا وولوا خاسرين عندما لمسوا إقدام المغول وإصرارهم على تحقيق النصر، واستماتتهم في القتال فأنتهى مصيرهم بالقتل والأسر كما غرقت أعدادٌ كبيرةٌ منهم وظفر المغول " بستين ألف رأس غنمٍ " كانت بحوزتهم^(١). هكذا استطاع المغول إزالة أول عقبة واجهتهم أمام أسوار مرو، وبعدها توجهوا نحو المدينة حيث نزل تولوي يرافقه " خمسمائة جندي " عند بوابة فيروزي، وطاف حول المدينة واستمر في مراقبتها لمدة ستة أيام، وفي اليوم السابع باشر أعمال القتال حيث اصطدم بمجموعةٍ من الرجال خرجت إليه من إحدى بوابات المدينة فتمكن من هزيمتها واستمر على هذه الحال إلى أن اكتملت القوات المغولية وتكامل معها حصار المدينة^(٢)، ذلك الحصار الذي استمر لمدة أربعة أيام وفي اليوم الخامس أرسل تولوي إلى مجير الملك الرسالة التالية: " لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا " ^(٣) ولشدة الحصار لم يجد مجير الملك غير الطاعة والانقياد فخرج إليه فأمنه وخلع عليه حيث قال له ما كان فحواه: " أريد أن تعرض عليّ أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه إقطاعاً ويكون معنا " ^(٤). وفعلاً حضر لتولوي أصحاب مجير الملك فما كان من القائد المغولي إلا أن قبض عليهم وأمرهم بكتابة أسماء تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال في جريدة، وأرباب الصناعات والحرف في جريدة أخرى، ثم أمر بعدها بخروج أهل البلد جميعهم حيث استمر خروجهم أربعة أيام وبعدها جلس تولوي على كرسي من ذهب في ظاهر مدينة مرو وأمر بإحضار الناس جميعهم فقتل بدايةً الجنود، ثم أمر بتعذيب أرباب الأموال فتم ضربهم وتعذيبهم بأنواعٍ مختلفةٍ من العقوبات من أجل الحصول على ثرواتهم وقد مات بعضهم تحت التعذيب، أما أرباب الصناعات والحرف فقد تم إرسالهم إلى منغوليا وقد بلغ عددهم ما يقارب الأربعمئة حرفي^(٥). بعد ذلك عمد إلى إضرام النار في المدينة وأحرق المغول تربة السلطان سنجر بعد أن نبشوا القبر طلباً للأموال^(٦)، واستمر المغول ينهبون المدينة ويحرقونها لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع قسموا سكان البلد إلى مجموعاتٍ الرجال والنساء والأطفال كل

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٧؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٣٦.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٧؛ العربي، المغول، ص ١٣٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٩؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥٩-٦٠؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٢٧.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠.

على حده فأخذوا من صلح للأسر وبعدها أمروا بقتل أهل البلد عامة فكان يوماً مشهوداً من كثرة البكاء والعيول^(١). بلغ عدد قتلى مدينة مرو حداً عجز فيه المؤرخون عن تقديره، فمنه من حدد عددهم " بألف ألف وثلاثمائة ألف قتيل "^(٢)، ومنهم من جعلها " سبعمئة ألف قتيل "^(٣).

ومهما كانت أعداد القتلى فقد كانت من الضخامة بمكان إلى درجة أذهلت المؤرخين ودفعتهم إلى الوقوف حيارى أمام تلك الأرقام، وأمام المذابح التي أقدم عليها المغول بحق سكان مرو، ولابد من الإشارة إلى أن المغول لم يكتفوا بقتل السكان فقط، بل قتلوا كل ما يمت إلى الحضارة الإنسانية بصله، فقد أحرقوا خزائن مرو وما فيها من نفائس الكتب والمؤلفات^(٤)، كما أقدموا على هدم أسوار المدينة التي بنيت منذ زمن السلاجقة ولم يكتفوا بذلك بل ساووا أيضاً قلاع المدينة وأبراجها بالأرض^(٥). وإضافة إلى ذلك فقد أقدموا على عملٍ تخريبي بأن هدموا السد المبني على نهر المرغاب والذي يبعد فرسخاً عن جنوب المدينة وكان يؤمن مياه الشرب والري لها، فتحولت تلك الواحة الغناء إلى صحراءٍ مجدبة^(٦)، ترك المغول المدينة بعد أن عينوا عليها أحد الأمراء المحليين، وهو ضياء الدين علي، وعينوا برفقته قائداً مغولياً كشحنة لها، ولكن كان حظ هؤلاء من السوء بمكان، فقد عاد الجيش مرة ثانية إلى المدينة وطلب من حاكمها أن يقتل كل من خرج من مخبئه، واستجاب الحاكم إلى طلب الجيش فقام بإرسال السكان للسهول بحجة جمع الغلال ومن ثم أخبر المغول بمكانهم، الذين سارعوا نحوهم وأقدموا على قتلهم وقد بلغ عددهم ما يقارب الخمسة آلاف وغادروا المدينة متوجهين نحو نيسابور^(٧)، ربما عاد الجيش إلى المدينة مرة ثانية إما لغرض الاستراحة، أو رغبةً منه في القضاء على بقايا السكان الذين نجوا من المذبحة الأولى والذين ربما شكلوا خطراً على الشحنة المغولية، أو بدرت تصرفات منهم أزعجت المغول فكان لابد من تأديبهم والتخلص منهم بشكلٍ نهائي. هدأت الأمور في مرو بعد المذبحة الثانية، وعاشت مرحلة من الهدوء إلى أن انتصر السلطان جلال الدين في موقعة بيروان ، بعد انتصاره

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ٣٥٩؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٧؛ ابن عرب شاه، مفاكهة الخلفاء، ص ٥٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥٢؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٣٣٩.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢، ص ٢٤؛ برون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٥٩.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٤.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٧.

(٦) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٤.

(٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٩؛ بارتولد، تركستان ، ص ٦٢٧.

ذاك اجتمع السكان حول أحد القادة المحليين وأعلنوا العصيان مستبشرين خيراً بنصر السلطان الذي ربما يساعدهم في الخلاص من المغول، ولكن لم يمهلهم جنكيزخان طويلاً بل أرسل إليهم قوة مغولية بقيادة قراجة نويان أفنى جميع سكان مرو وعمد إلى تخريب بقايا المدينة وبعد ذلك طلب من مؤذني أن ينادي للصلاة مما دفع الناس للخروج من مخابئهم ظناً منهم أن المغول قد رحلوا، فاقدموا على قتل هؤلاء ومكثوا في المدينة مدة من الوقت، وبعد ذلك غادروها بعد أن دمروا كل ما أصلحه السكان فيها^(١)، و عادت مرو من جديد ونفضت عنها ما ألحقه المغول بها من دمارٍ وخرابٍ وفناءٍ وتمكن أحد الأمراء ويدعى زاده أرسلان باز من أن يوطد سلطته بين بقايا سكانها ولم يكتف بذلك فحسب بل جمع حوله عدداً من الجنود الذين كانوا مبعثرين في المناطق القريبة منها ، فاجتمع حوله ما يقرب من "عشرة آلاف جندي"، ومكث ذلك الأمير في مرو محاولاً ترميم ما أمكنه من مبانيها وبعد مرور ستة أشهر أخذ يهاجم معسكرات المغول في مرو الروذ والطارقان ويسرق عتادهم وخيولهم، عندما سمع المغول بذلك قرروا افناء المدينة، فما كان من قراجة نويان إلا أن خرج من الطالقان متوجهاً نحو مرو وتبعه القائد قوتوقو نويان يرافقه " مئة ألف جندي" حكموا هذه المرة على مرو بالفناء الأبدي فقد أهلك المغول ساكني مرو مستخدمين وسائل التعذيب التي لم تخطر على بال بشرٍ، وحرموا مرو من المؤن فلم يسمحوا بوصول المؤن إليها إلا ما يكفي لعددٍ قليلٍ من السكان، لذا لم يبق على قيد الحياة فيها سوى " مئة شخص" وأضحت مرو صحراء مجدبة^(٢)، و بقيت مرو على حالها تلك حتى المئة الثامنة للهجرة/ الرابعة عشرة للميلاد حيث اجتاز بها ابن بطوطة وتحدث عنها فقال: " مدن خراسان العظمى أربع اثنتان عامرتان وهما: هراة، ونيسابور، وثلثان خربتان وهما: بلخ ، و مرو"^(٣)، واستعادت مرو شيئاً من بهائها فيما بعد في عصر الدولة التيمورية حيث جدد قسم من مبانيها وعادت الحياة لها من جديد وذلك بعد أن افناها المغول على أربع مراحل وحولوها إلى صحراءٍ مقفرة بعد أن كانت واحةً خصبةً تنبض بالحياة^(٤). في نهاية سرد أحداث مدينة مرو يلاحظ أن المغول طرّقوا أبوابها أكثر من مرة بالطبع وجدت أسباب كثيرة دفعتهم لذلك منها ربما موقعها التجاري المهم على الطريق التجاري الذي استخدمه التجار والمسافرون في تحركهم من بلاد ما

(١) غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠٢؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٣٦٧.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠٢؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٣٦٨.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٤٤.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٣؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٣٦٨.

وراء النهر إلى خراسان وبعدها اقليم الجبال والعراق وقد استخدمه المغول فيما بعد في اجتياح المنطقة، أو ربما لاعتقادهم أن المدينة تشكل خطراً عليهم لكونها احتوت أعداداً كبيرة من الجنود، وتجمع فيها باستمرار بقايا الجنود الناجين من المذابح. هذا من جانب ومن الجانب الآخر بأن مرو كما ذكر من قبل احتوت أعداداً من الجنود، ولكن لم يلجأ السلطان جلال الدين لاستغلالهم وتنظيمهم لمواجهة بهم المغول، بل تركهم دون قيادة، وشغل حاكم مرو بالصراعات الداخلية على الحكم، لذا وجد نفسه غير قادرٍ على مقاومة المغول فاستسلم لهم بدايةً، ولكن سرعان ما تنكر أهل مرو لذلك وبدأت مرحلة صراعهم مع المغول، تلك المرحلة التي كانت خاسرة بكل معاييرها فقد أهلك السكان ودُمرت المدينة لينتقل المغول بعدها إلى مدينة أخرى.

٤- تدمير مدينة نيسابور:

ذكر الجويني المؤرخ المعاصر للمغول مدينة نيسابور في كتابه حيث قال: " إذا عدّت الأرض من الفلك، فإن بلادها بمثابة النجوم، ونيسابور من بين هذه الكواكب زهرة زهراء السماء، وإذا أردنا تمثيل ذلك بالنفس البشرية كانت نيسابور عين الإنسان التي هي أنفُس أعضائه جسمه وأعزّها" ^(١)، عدّ الجويني نيسابور من أفضل المدن وأحسنها، لذا وصفها بأجود الأوصاف فشبهها بكوكب الزهرة والذي يعدّ زهرة الأجرام السماوية، كما أنه نظراً لأهميتها شَبَّهها بالعين البشرية التي تعدّ من أنفُس الأعضاء لدى البشر وأهمها.

بدايةً تقع نيسابور في الإقليم الرابع ^(٢)، وفي الربع الأول من أرباع خراسان ^(٣)، تبعد عن مرو مسيرة اثني عشر يوماً ^(٤) اختلف العلماء في تقدير قيمتها وأهميتها فمنهم من عدّها عين خراسان ^(٥)، وآخر عدّها من أحسن المدن وأجمعها للخيرات ^(٦)، بينما بدأ ثالث الحديث عنها بقوله: "مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء" ^(٧)، إضافةً إلى اختلافهم في تقدير قيمتها فقد اختلفوا في معنى اسمها، ولقد أطلقوا عليها مسمياتٍ كثيرةٍ فمنهم

(١) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) السمعاني (عبد الكريم بن محمد ت. ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م): الأنساب، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج ١٢، ص ١٨٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٣١.

(٤) الاضطخري، المسالك والممالك، ص ١٠٢.

(٥) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٤.

(٦) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٦٩١.

(٧) السمعاني، الأنساب، ج ١٢، ص ١٨٤.

من أسماها بايرشهر والتي تعني مدينة الغيم^(١)، ومنهم من أطلق عليها لفظة ايرانشهر والتي تعني مدينة ايران^(٢)، بينما عُرفت المدينة في العربية باسم نيسابور والذي يعتقد بأنه مشتق إما من لفظة نيوشاه بور ومعناها شيء أو عمل^(٣)، أو من شاه بور وتعني الملك^(٤)، أو من سابور حيث يقال بأن ذلك الملك الفارسي قد مرّ بها وفيها قصبٌ كثيرٌ فقال يصلح هذا المكان أن يكون مدينة فقيل لها نيشابور^(٥). بينما أطلق عليها ياقوت الحموي اسم نساوور حيث ذكر بأن هذا الاسم هو ما درج العامة على إطلاقه على مدينة نيسابور^(٦). أما لدى الجويني وفي الفارسية الحديثة فقد عُرفت باسم نيشابور^(٧). عدّها كلّ من الاصطخري وابن رسته كورة^(٨)، بينما عدّها اليعقوبي والسمعاني مدينة^(٩)، وهي بالتالي تقع في أرضٍ سهلةٍ يقع بقربها جبل شاهق الارتفاع وقُدّرت مساحتها بنحو فرسخ في مثله^(١٠). وجد فيها العديد من الأقنية والتي بلغ عددها اثنتا عشرة قناة وقد توزعت في أرجاء المدينة وزودتها بالماء اللازم للري والشرب من نهر سانغاور^(١١)، وتألّفت نيسابور كغيرها من مدن خراسان من شهرستان وقهندز وربض عامر، كما أنه تبع لها العديد من الرساتيق وضمت مدينتها مسجداً جامعاً وأسواقاً عامرة بالتجارة^(١٢)، وقد وصف المقدسي المدينة وخصالها بقوله: "بلد جليل، ومصر نبيل، من خصالها سعة الرقعة ووسع البقعة وصحة الماء وقوة الهواء وكثرة العلماء"^(١٣)، و تعرضت المدينة للعديد من الكوارث

(١) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٥، ص ٣٣١.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦١؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١٠٤.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٧.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٢٤.

(٥) الجوالقي (موهوب بن أحمدت ٥٥٠هـ/١١٤٤م): المعرب على الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت،

دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٣٩٦.

(٦) معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣١.

(٧) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٤؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٢٤.

(٨) المسالك والممالك، ص ١٠٣؛ الأعلام النفيسة، ص ١٠٥؛ أما الكورة: فهي البقعة التي تجتمع فيها قرى ومحال؛ المعجم الوسيط،

ص ٨٠٤.

(٩) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٧٨؛ السمعاني، الأنساب، ج ١٢، ص ١٨٤.

(١٠) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ١٧٢؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٤٣.

(١١) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ١٧٢؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٢.

(١٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦١.

(١٣) أحسن التقاسيم، ص ٢٤٦.

فقد خربها الغُرّ سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م وأحرقوها حيث تُركت أطلالاً خاوية^(١)، فانتقل من بقي من سكانها إلى محلة الشاذياخ التي كانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر^(٢) عندما نزل نيسابور واتخذها داراً لإمارته فاعتنى بذلك البستان وبنى قصره فيه، لذا فإن السكان عندما انتقلوا للشاذياخ عمروها من جديد بعد دمار نيسابور فأضحى موقعه هو الموقع الجديد لمدينة نيسابور في عصر ياقوت الحموي وما بعده^(٣)، و طرق المغول أبواب نيسابور أكثر من مرة، كانت أول مرة اقتربت أقدامهم منها في التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م حيث وصلت إليها طلائع جيش جبه وسوبوداي في أثناء مطاردتهم للسلطان علال الدين محمد كما تقدم الحديث من قبل، ولقد أقدمت تلك القوات على قتل بعض الجنود وطالبت بالعلوفة لدوابها وجمعت معلومات عن تحركات السلطان من حاكم نيسابور الذي تعاون معها، و بقيت تلك الطلائع في نيسابور حتى غرة شهر ربيع الآخر حيث وصل جبه إلى المدينة فأمر بإحضار شيخ الاسلام والقاضي وحاكم نيسابور فوبخهم، وطالبهم بالعلوفة لدوابه وأن يقبلوا الشحنة المغولية، ويهدموا أسوار المدينة، فوافقوا على جميع تلك الطلبات، فما كان من جبه إلا أن منحهم توصية كتبت بالخط الأويغوري وغادر المدينة ملاحقاً السلطان علال الدين محمد^(٤)، بالتالي بداية لم يتعرض المغول لمدينة نيسابور بأية أذى، بل فقط طلبوا من أهلها عدة طلبات، ثم سارعوا خلف السلطان بعد أن تعاون أهلها معهم ولكونهم في عجلة من أمرهم، لذا نجت نيسابور من التدمير سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م بفضل مواءمة الظروف لذلك، وبفضل حكمة حكامها وشعورهم بالخوف من المغول، ولكنها لم تنج بعد ذلك فقد جاءتها جحافل المغول مرة ثانية وذلك في أواسط رمضان من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٥)، أما الأسباب التي دفعت المغول إلى طرق أبواب نيسابور هو أن سكانها ثاروا على الحكم المغولي وقتلوا الشحنة المغولية فيها ومما شجعهم على ذلك استلام السلطان جلال الدين منكبرتي حكم بقايا الدولة الخوارزمية بعد وفاة والده ونشاطه في مناطق خراسان

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣٤٧.

(٢) انظر تعاريف ص٣٥٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣٤٧.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج١، ص١٦٧؛ اقبال، تاريخ المغول، ص٣٦٧؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص٢٩٢؛ العريني، المغول، ص١٣٠.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص١١٧؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج١، ص١٦٩.

حيث توجه إلى نيسابور وبقي فيها مدة من الزمن ولكنه غادرها مسرعاً نحو غزنة^(١). بالتالي فإن أولئك السكان أعلنوا العصيان على المغول، لذا أرسل المغول فرقة لتأديبهم، اختار تولوي الذي كان منشغلاً بتأديب مرو، صهره تقاجار نويان وعينه قائداً لفرقة كلفها بالتوجه نحو نيسابور^(٢)، ولقد زوده "بعشرة آلاف جندي" مع عددٍ من الأمراء الشجعان، وصلت الفرقة المغولية إلى المدينة وفرضت الحصار عليها وبدأت المناوشات بين كلا الطرفين بين فرقة تقاجار والعساكر الذين اجتمعوا داخل المدينة^(٣)، وبعد ثلاثة أيام من الحصار أصاب سهمٌ صدر تقاجار نويان فأرداه قتيلاً^(٤)، وهزمت القوات المغولية هذا كان ما ذكرته المصادر، بينما انفرد الجويني برواية مفادها أن تقاجار نويان وصل إلى أبواب المدينة في أواسط شهر رمضان من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م واستمر يحارب ويناوش سكانها من وراء الأسوار قرابة الشهر وفي اليوم الثلاثين من الحصار اشتدت الحرب عند برج قراقورش، وجرى تقاذف النبال فكان من سوء طالع السكان أن سقط سهمٌ في قلب تقاجار نويان فقتله، فانسحب الجيش المغولي وعمت البهجة أرجاء نيسابور^(٥)، بالتالي وجدت روايتين عن حصار المدينة فأيهما الصحيحة ياترى؟ من المعتقد أن الحصار استمر لمدة كافيةٍ مكنت المغول من ادراك مدى متانة أسوار المدينة واصرار سكانها على الدفاع عنها واستماتتهم في القتال إلى درجةٍ مكنتهم من قتل القائد المغولي، وقد أشار ياقوت الحموي إلى أن المدينة احتوت أعداداً من القوات أشار إليها: "اجتمع أكثر أهل خراسان والغرباء بنيسابور، حصنوها بجهدهم، فنزل عليها التتر، امتنعت عليهم ثم خرج مقدم الكفار ودنا من السور، ورشقه رجلٌ بسهمٍ قتله فجر الأتراك خيولهم وانصرفوا إلى ملكهم"^(٦). انسحب نائب تقاجار نويان برجاله لعدم قدرته على الاستمرار في الحرب وقسم قواته الباقية إلى قسمين: قسم سار به إلى مدينة سبزوار^(٧) حيث حاصر المغول المدينة، وبعد ثلاثة أيام أعملوا القتل العام بالسكان حتى بلغ عدد القتلى "سبعين ألفاً"^(٨)، وياترى هل الرقم مبالغ فيه ؟ أم أن هذه المدينة فعلاً مهمة إلى درجةٍ أن

(١) الجويني تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨؛ بارتولد، تركستان، ٦٢٧؛ العريني، المغول، ص ١٣٠.

(٢) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٧؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٢٧؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٢.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠.

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٧؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٢؛ العريني، المغول، ص ١٣٠.

(٥) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨.

(٦) معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣٢.

(٧) انظر تعاريف ص ٣٥٥.

(٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨؛ العريني، المغول، ص ١٣٠.

عدد سكانها قد بلغ أكثر من "سبعين ألف نسمة"، وعدد القتلى بلغ "سبعين ألفاً" فقارب عدد قتلى مدينة مرو؟ ولكن لم يذكرها المؤرخون من قبل ولم يتوسعوا حتى في المعلومات عنها فقط أشاروا لمدة حصارها وأعداد قتلاها. أما القسم الآخر من الجيش فقد أرسل مدداً لقشتمور الذي كان محاصراً لمدينة طوس بغية مساعدته^(١). ورجع الباقي إلى تولوي الذي غضب غضباً كبيراً لمقتل صهره فقد عدّ هذا التصرف بمثابة تعدي على شخصية المغول وعلى أسرته الحاكمة، لذا لابد لهم من انتقام، كما وصلت الأخبار إلى جنكيزخان الذي انزعج لمقتل صهره، وأمر تولوي بالانتقام لذلك "الفعل الشنيع" الذي بدر من أهالي نيسابور. لابد من الإشارة بأن هناك اختلاف في الروايات التي تتحدث عن القوات المغولية التي تحركت نحو نيسابور بعد خمسة أشهر من مقتل تقاجار نويان وذلك في شهر صفر من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، فمن المؤرخين من جعل جنكيزخان قد تحرك بنفسه نحوها ونازلها وجدّ في قتال من بها^(٢). ومنهم من تحدث عن مدد أرسل إلى القوات السابقة من قبل جنكيزخان بقيادة كل من بيقو نويان وقديبقا نويان، وطولن حربي وعدة أمراء في زهاء "خمسين ألفاً"، اقتربوا منها ونزلوا شرقها في قرية نوشجان^(٣) ونصبوا حولها "مئتي منجنيق"^(٤)، ومنهم من جعل تولوي هو المسؤول عن الانتقام لمقتل صهره، وقد توجه بنفسه نحو مدينة نيسابور فحاصرها بعد أن استقدم معه عدداً من أسلحة الحصار بلغ عددها "ثلاثة آلاف آلة لرمي الحراب، وثلاثمئة منجنيق، وخمسمائة آلة لرمي النقوط، وأربعة آلاف سلم، وألفين وخمسمئة حمل من الأحجار والقذائف"^(٥) ومنهم من تحدث عن قدوم المغول ومحاصرتهم إلى المدينة من دون ذكر لأسماء القادة الذين نهضوا بهذه المهمة^(٦)، ويعتقد بأن تولوي هو الذي نهض بهذه المهمة، وذلك لكونها قريبة من مدينة مرو التي كان يحاصرها، كما أن مدينة نيسابور قد هزمت صهره فهي من القوة بمكان تدفع المغول إلى إرسال قائد ذا خبرة وقوة لكي يتمكن من إحكام سيطرته عليها وتأديبها، ومن الممكن أنهم أرسلوا معه عدداً من القادة

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٢؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٥١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣٢.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٧.

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٧.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٩؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٣٦؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٤.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠؛ ابن أبيك الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر، ص ٢٦٩.

لكي يساعده في هذه المهمة. هذا فيما يتعلق بالمغول واستعداداتهم، أما استعدادات سكان نيسابور كانت بكل تأكيد قوية لكون هؤلاء كانوا مدركين بأن المغول سوف لن يرحمهم، وسيجدون في حصارهم حتى يذيقوهم كأس الشقاء والفناء. لذا لم يستسلم سكان نيسابور بل عمدوا إلى احضار الحجارة وادخالها بكميات كبيرة إلى داخل المدينة، كما أنهم ملؤوا مخازن مدينتهم بالحبوب، وقاموا بنصب " ثلاثة آلاف " آلة قاذفة للحجارة على سور المدينة، وضعوا " ثلاثمئة منجنيق " وعرادة وأعدوا النفوط وأعدوا الأسلحة الأخرى^(١)، منتظرين قدوم المغول وقد جاء هؤلاء إلى المدينة وفرضوا الحصار عليها، ذلك الحصار الذي استمر عند بعض المؤرخين لمدة خمسة أيام وانتهى بأن اقتحم المغول المدينة عنوة^(٢)، و تحدث المؤرخون عن الحصار وعن مدته وقد تباينت من مؤرخ إلى آخر ولكنهم أجمعوا في النهاية على أن أهل نيسابور ضعفوا، ولكنهم لم يذكروا أسباب ذلك الضعف، ربما لكونهم شاهدوا مدى ضخامة القوات المغولية واصرارها على القتال، أو ربما انقسموا فيما بينهم قسم فضل الاستسلام حقناً للدماء، وآخر كان مصراً على القتال، أو ربما لشدة الحصار حُرموا من كثير من الإمدادات، أو حصلت خيانة ضمن صفوف المقاتلين كما أشار إلى ذلك الأمر ياقوت الحموي، فقد ذكر رواية مفادها أن أحد الشيعة أقدم على الاتفاق مع المغول مقابل المحافظة على روحه بأن يفتح لهم أحد أبواب المدينة ليتسربوا من خلاله لداخلها، وفعلاً وافقوا وفتح لهم البوابة ولكنه كان أول من قُتل على يديهم^(٣)، فيما يخص هذه الرواية هل يعقل أن يُقدم شخص ما على تسليم بلاده إلى الأعداء لمجرد اختلافه العقائدي مع سكان مدينته، أو بسبب معاملتهم السيئة له، ومن الممكن أن يكون ياقوت الحموي قد حاك هذه الرسالة بسبب كرهه للشيعة لكونه قد اختلف معهم في مسألة فقهية فغادر بلاد الشام خوفاً منهم، وإذا رغب السكان فعلاً بالاستسلام لما كانوا حشدوا كل ذلك المدد والأسلحة وحصنوا الأسوار، ما يهم في الأمر أنه تم ارسال قاضي نيسابور ركن الدين علي بن ابراهيم من قبل السكان إلى تولوي حيث عرض عليه مطالبه، كما أنه لم يسمح له بالمغادرة^(٤)، بعد ذلك اشتعلت نار الحرب بين الطرفين في يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر سنة

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٩؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٣٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣٢.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٩؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٤؛ العريني، المغول، ص ١٣٠.

٦١٨هـ/ ١٢٢١م واستمرت حتى يوم الجمعة حيث اشتدت وطأتها على أسوار المدينة وخندقها وبشكلٍ خاصٍ على بوابة الجمالين وبرج قراقوش، ولقد تمكن المغول من إحداث " سبعين ثغرة" في السور، وأقدم " عشرة آلاف" مقاتل على تسلق الأسوار، بينما اندفع باقي المغول وتمكنوا من دخول المدينة من بوابة الجمالين، ولم يأت يوم السبت حتى كان المغول قد دخلوا نيسابور وانتشروا داخلها^(١). بالتالي دخل المغول المدينة عنوةً وقاتلوا أهلها ومن بقي من السكان عمدوا إلى اخراجهم إلى ظاهر المدينة فقتلوا الرجال والأطفال والنساء وعاقبوا من كان يملك الأموال حتى يخبرهم بأماكن أمواله^(٢)، وبعدها أمر تولوي ثاراً لصهره بهدم المدينة بشكلٍ يمكن فيه زراعة أرضها، وأمر بالانتقام من كل ما هو حي حتى الكلاب والقطط، ولقد كانت برفقته ابنة جنكيزخان زوجة تقاجار نويان، فقد دخلت المدينة بنفسها، وأمرت بقتل كل من صادفته على قيد الحياة وحتى لا ينجو أحدٌ من سكانها أمروا بفصل رؤوس القتلى عن أجسادهم لكون بعض السكان في المدن السابقة كانوا يختفون بين جثث القتلى حتى ينجو بأرواحهم، فما كان منهم إلا أن عمدوا إلى فصل رؤوس الرجال والنساء والأطفال وصنعوا منها أهراماتٍ كبيرةً، ولم ينجوا من تلك المذبحة سوى " أربعمئة حرفي" تم ارسالهم إلى منغوليا^(٣)، واستمرت أعمال المغول التخريبية في المدينة لمدة أسبوعين حتى أن حالها أضحى كما أخبر عنه الجويني بقوله: "تساوت المساكن والأماكن مع التراب، وذلت الجدران الشاهقة كبرياء، حتى بلغت نجم زحل، وغدت تراباً حقيراً، وقصرت القصور في تبيان مقامها فتهاوت، وغدت رياض الأزهار ناراً مستعرةً، وتحولت مدرجات البقاع إلى قاعٍ صفصِفٍ"^(٤). أو كما قال النسوي: "وقد سال بها السيل، وطاف بها الويل، وناح عليها النهار والليل، ثم أمروا الأسارى فبسطوها بالمجازيف حتى صارت أرضاً ملساء لا مدرة بها ولا صخرة، ومات أكثر أهلها تحت الأرض إذ كانوا قد اتخذوا بها سراديب ونقوباً ظناً أنها ما نعتهم"^(٥). ولابد من الإشارة بأن عدد قتلى مدينة نيسابور بلغ من الضخامة بمكانٍ عجز فيه

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٩؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٢؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٥١؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، مرجع سالف، ص ٣٦٨.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٧٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٦٨.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٧٠؛ غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٤؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٦٨.

(٤) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٧١.

(٥) سيرة السلطان، ص ١١٧.

المؤرخون عن تقديره، بل اكتفوا بوصف اهرامات الجماجم^(١)، كما أن بعضهم ذكر عدد القتلى بأنه أزيد من " خمسمئة ألف قتيل "^(٢)، ومهما يكن العدد فهو كان من الضخامة بمكان لكون المدينة لم يقتل سكانها وتحرق فحسب بل دُكت منازلها وأسوارها وسويت بالأرض، لذا فإن أعداداً كبيرة من الجثث لم يتم احصاؤها، لكونها قد طُمرت تحت الأنقاض وضاع أثرها، وما يهم في الأمر أن تولوي قد أتم مهمته وغادر المدينة متوجهاً نحو هراة بعد أن ترك في نيسابور " أربعمئة جندي " حيث كلفهم بمهمة القضاء على أية إشارة تدل على وجود حياة في المدينة^(٣). وهكذا زالت نيسابور عن وجه المعمورة فقط لكون سكانها قد اقترفوا جرماً خطيراً وهو قتل صهر جنكيزخان.

٥- توجه المغول نحو هراة وطوس وتدميرهما:

كُلف تولوي بمهمة فكان لابد من اتمامها، وكانت مهمته تنص على اجتياح مناطق خراسان وتدميرها، وفعلاً نهض بالمهمة على أكمل وجه وبقي لديه عدة بقاع لإتمامها في مقدمتها مدينة هُراة ، لذا لابد من التعرف على موقعها الجغرافي وبعض الصفات الخاصة بها. تقع تلك " القصبة الجبلية " كما أطلق عليها المقدسي^(٤)، أو " المدينة العظيمة " كما وردت لدى ابن رسته^(٥)، في البلاد المعروفة اليوم باسم أفغانستان^(٦) على يمين الطريق الأعظم الآتي من نيسابور إلى بحر الهند، في شمالها تتكون سلسلة الجبال الممتدة من بوشنج^(٧)، إلى أن تقترب منها على بعد نصف فرسخ وهذه الجبال تعدّ الحد الفاصل بينها وبين باذغيس^(٨)، وهي بالتالي تبعد مسيرة خمسة أيام إلى الجنوب الشرقي من نيسابور. اشتهرت هُراة بنهرها الذي أُطلق عليه اسم هري رود والذي تنقرع منه تسعة أنهار تسقي المدينة وسهولها^(٩)، وقد تألفت كأى مدينة في خراسان من الشهرستان الذي أحاط به سورٌ احتوى أربعة أبواب عُرفت بباب سراي الذي كان يفضي إلى بلخ، وباب زياد الذي كان يؤدي إلى نيسابور، وباب فيروزاباد إلى سجستان^(١٠)، وباب خشك إلى

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٧٠؛ براون، تاريخ الأدب، ص ٥٦٠؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٦٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٢٧٩.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٧١.

(٤) أحسن التقاسيم، ص ٢٣٦.

(٥) الأعلام النفيسة، ص ١٧٣.

(٦) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٩.

(٧) انظر تعاريف ص ٣٥٤.

(٨) الاضطخري، المسالك والممالك، ص ٢٦٥؛ أما باذغيس انظر تعاريف ص ٣٥٤.

(٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٦.

(١٠) انظر تعاريف ص ٣٥٥.

جبال الغور^(١)، واحتوت المدينة كذلك مسجداً جامعاً شغل وسط المدينة وقامت حوله الأسواق، أما القلعة أو القهندر فكانت داخل الشهرستان، وأما رباطها فقد أحاط به حصنٌ وله أربعة ابواب تقابل أبواب المدينة وتوافقها في الأسماء^(٢)، وتميزت أيضاً بدار إمارة كان قد بني خارج الحصن بمكانٍ عُرف بخراسان اباد وهو يبعد عن المدينة مسافة ثلث فرسخ على الطريق الذهاب إلى بوشنج غربي هرة^(٣). لذا فقد عُدت هرة واحدة خصباً وسط السهوب والصحارى، أُنطب الجغرافيون العرب في وصفها، فهذا المقدسي وصفها بقوله: "قصة جليلة، وهي بستان هذا الجانب معدن الأعناب الجيدة، والفواكه النفيسة، أهلة عامرة، حسنة السواد مشتبكة العمارة، جليلة القرى، وأهلها أهل أدب وبلاغة وظرفٍ ودراية"^(٤). وقد زارها ياقوت الحموي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م فقال عنها: "مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان لم أر عند كوني بها سنة ٦٠٧هـ مدينةً أجَلّ ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها، فيها بساتين كثيرة وحياة غزيرة محشورة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل"^(٥). ولكن اجتاحت المدينة على يد المغول ، كيف تم ذلك هذا ما سيتم مناقشته فيما يلي:

حكم هرة بدايةً أمين ملك ابن خال السلطان علاء الدين محمد الذي استمر في حكمه لها مدة من الزمن ولكنه عندما سمع باقتراب الخطر المغولي من أبواب خراسان سارع إلى تركها خوفاً من المغول واتجه صوب سيستان^(٦)، فبقيت هرة من دون حاكمٍ لمدة من الزمن تنتظر مصيرها المشؤوم ، و لا بد من الإشارة بأن المعلومات التي تتعلق باجتياح المغول لمدينة هرة قليلة، وهي على قلتها مقسومة إلى قسمين، أولها: المعلومات التي احتوتها كتب المؤرخين العرب والتي اعتمدت في أساسها على رواية ابن الأثير الذي كان معاصراً لأحداث الغزو المغولي: وسياق الحديث عنه، فقد ذكر روايةً مفادها بأن المغول ساروا إليها وقد كانت من أحصن البلاد، فضربوا حصاراً عليها استمر لمدة " عشرة أيام" وبعدها امتلكوا المدينة بالأمان، وليس بالقتال، ولكنهم على الرغم من ذلك، قتلوا بعض السكان، وأعطوا الأمان إلى آخرين ووضعوا شحنةً فيها، ثم

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٦؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٦.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٦؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٩.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٦؛ الاضطري، المسالك والممالك، ص ٢٦٤.

(٤) أحسن التقاسيم، ص ٢٣٦.

(٥) معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٦.

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٣٢؛ أما سيستان: انظر تعاريف ص ٣٥٥

غادروها إلى غزنة^(١). ما يلاحظ في هذه الرواية بأنها لم تذكر اسم القائد الذي توجه نحو هرة وهو تولوي طبعاً، وقد تمّ التعرف على ذلك من الرواية التي أوردها ابن عرب شاه^(٢)، ومما أورده الروايات الفارسية التي ذكرت فقط اسم هرة مقرونة مع المدن الأخرى التي اجتاحتها تولوي^(٣). بالتالي لم يصطدم تولوي مع المدينة، فقط حاصرها لمدة معينة وبعدها قبل الأمان من أهلها، وهذه السياسية بعيدة عن شخصية تولوي الدموية الذي على الرغم من منحه الأمان لأهل مرو أقدم على إبادتهم جميعاً ولم يرحم أهل نيسابور كذلك الأمر، ولكنه رحم أهل هرة واكتفى فقط تولوي بقتل بعض السكان ومن المعتقد بأنهم كانوا من الحامية الخوارزمية التي كانت موجودة فيها، فمدينة كهرة تتمتع بموقع جغرافي مهم ويحكمها ابن خال السلطان، لا بد أن تكون فيها حامية كبيرة، ولكن جميع الروايات لم تتطرق إلى ذكر عدد جنود تلك الحامية، أو قائدها، أو موقف الأهالي منها فقط ذكرت بأن المغول قتلوا بعض السكان، ووضعوا شحنة في المدينة وفيما يخص تلك الشحنة لم يتوسع المؤرخون في الحديث عنها حتى أنهم لم يذكروا عددها ولا اسم قائدها، ربما لكون هرة لم تشغل تلك الأهمية التي شغلها كل من مرو ونيسابور لذا لم يتم التوسع في الحديث عنها، هكذا كانت الروايات العربية التي ذكرت نجات هرة من الدمار وقد أشار لذلك ابن عرب شاه فقال: "تولي قصد هرة فأخذها بالأمان ولم ينج من ذلك الطوفان سوى تلك الكورة واستمرت تحت أوامرهم مقهورة"^(٤)، و أما القسم الثاني من المعلومات فقد كان مصدره باحثين اثنين هما عباس إقبال الباحث الإيراني المهتم بتاريخ المغول، وغروسيه الباحث الفرنسي الذي اشتهر بكتبه التي تبنت البحث عن المغول كمادة أساسية لها، عند مطالعة ما كتبه كل من الباحثين يلاحظ الآتي: بأنهما حددا اسم القائد المغولي الذي توجه إلى هرة بعد مدينة نيسابور وهو تولوي، ولكنه في هذه المرة أراد اتباع الأسلوب السياسي مع سكانها، فما كان منه إلا أن أوفد أحد أقاربه رسوياً إلى المدينة يدعو أهلها إلى الدخول في طاعة المغول، وطلب من أعيان المدينة وقاضيه وحاكمها شمس الدين الجوزجاني الذي استلم الحكم فيها بعد فرار أمين ملك استقباله، ولكن الوالي شمس الدين عدّ الإذعان للمغول عاراً كبيراً فما كان منه إلا أن

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٥٢؛ ابن أبيك الدوادري، كنز الدرر، ص ٢٦٩.

(٢) مفاكهة الخلفاء، ص ٥١٥.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥١؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٥٤.

(٤) مفاكهة الخلفاء، ص ٥١٥.

أقدم على قتل الرسول، و هنا وصلت الأخبار لتولوي الذي غضب غضباً كبيراً لذلك الأمر، وتوجه نحو المدينة فارضاً الحصار عليها، ذلك الحصار الذي استمر لمدة لسبعة أيام وقتل فيه عددٌ من المغول، ولكن في اليوم الثامن أصاب سهمٌ حاكم المدينة فتوفي على إثر ذلك، فأدت وفاته إلى انقسام السكان إلى فريقين فريق رغب في تسليم المدينة إلى المغول، وآخر رفض التسليم وضمّ ذلك الفريق كلاً من أتباع الوالي والسلطان جلال الدين منكبرتي ، وفي النهاية حسم أعيان المدينة وعلمائها الأمر وسلّموا المدينة لتولوي الذي رحم أهلها فلم يقتل منهم سوى " اثني عشر ألفاً" من أتباع السلطان والوالي ويعتقد أنهم الحامية الخوارزمية التي كانت موجودة فيها، ولقد اختار المغول حاكماً جديداً للمدينة، وقائداً عسكرياً لحاميتها، ثم غادرها تولوي متوجهاً إلى والده الذي كان مازال مشغولاً بحصار قلعة نصرت كوه، ولقد كانت تلك الأحداث جميعها في سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م^(١)، و ما يلاحظ بأن هذه الرواية أوسع من الرواية الأولى، اشتركت معها في أن القوات المغولية حاصرت المدينة، ولكن عادت واختلفت معها في تقدير مدة الحصار، ولكن تقاطعت معها في أن المدينة أخذت بالأمان، وأن مصير السكان انتهى بقتل بعضهم، والإبقاء على حياة البعض الآخر، وتم تعيين شحنة للمدينة، و معاملة تولوي الرحيمة لتلك المدينة ربما مرده أنه كان في عجلةٍ من أمره فكان لزاماً عليه اللحاق بوالده قبل هجوم فصل الصيف لذا رضي بالأمان .

وعاش أهل هرة مدةً من الزمن تحت حكم الشحنة المغولية، ولكن بعد سماع هؤلاء بأنباء انتصار السلطان جلال الدين على المغول في موقعة بيروان عمدوا إلى الثورة على الشحنة المغولية وقتلوها، وأعلنوا تبعيتهم للسلطان منكبرتي^(٢)، ولكن المغول لم يمهلوهم مدةً طويلةً من الزمن فعندما سمع جنكيزخان بهذه الأنباء أنب ابنه تولوي حيث قال له: " لو قتلت جميع أهل هرة لما برزت هذه الفتنة "^(٣)، وعمد إلى إرسال قواتٍ مغوليةٍ إلى المدينة بقيادة ايل جيغداي نويان يرافقه عدد من القوات قدرها غروسيه " بخمسين ألفاً "^(٤)، بينما قدرها عباس إقبال " بثمانين ألفاً "^(٥)، ولقد أمرهم بعدم ترك أحدٍ من سكانها على قيد الحياة، وأصدر أوامره أيضاً إلى بعض جنوده في

(١) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩٥؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٩٢؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٦٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠.

(٣) اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٧٥.

(٤) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠١.

(٥) تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٧٥.

خراسان بمساعدتهم، و وصل المغول إلى المدينة وقاموا بمهاجمتها ولكن أهلها أظهروا منتهى الشجاعة وتمكنوا من هزيمة المهاجمين بدايةً، وإنما سرعان ما دبّ الخلاف بينهم، ذلك الخلاف الذي مكن ايل جبيغداي من استغلاله فاستولى على المدينة في جمادى الآخرة سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م^(١)، ولقد انتقم المغول من سكان هراة فلم يرحمهم هذه المرة بل دخلوا البلد قهراً وعنوةً، وقتلوا السكان وسبوا النساء ونهبوا أموالهم، وبعد ذلك عمدوا إلى تخريب المدينة جميعها ثم أقدموا على حرقها^(٢) واستمرت هذه الأعمال التخريبية لمدة أسبوع، وبعدها عمدوا إلى تسوية معظم المدينة بالأرض^(٣). وبعد مغادرة المغول للمدينة عاد من اختبأ من سكانها بالشعاب الجبلية القريبة من المنطقة ليشاهد مقدار الدمار الذي لحق بمدينة^(٤). ولكن هؤلاء لم تطل مدة حياتهم بل سرعان ما أرسل المغول فرقةً ثالثةً للقضاء عليهم فتحوّلت المدينة إلى قاعٍ صفصيفٍ^(٥)، و ثم بدأت بالانتعاش في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، ولقد زارها ابن بطوطة في تلك الحقبة فتحدث عن ذلك قائلاً: " هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولأهلها صلاح وعفاف وديانة، وهم على مذهب الإمام أبي حنيفة وبلدهم طاهر من الفساد "^(٦). ولكن عادت ودمرت المدينة من جديد في عهد الدولة التيمورية^(٧). لتبقى هراة مدينةً مطروقةً على الدوام من قبل الغزاة.

ومما سلف يلاحظ بأن كلا الباحثين بالغاً في ذكر أعداد القوات المغولية التي تم إرساله إلى المدينة، تلك القوات التي لم تتمكن من تحقيق النصر فيها إلا بعد أن دبّ الخلاف في صفوف المدافعين عنها، مما يشير إلى مدى متانة أسوارها، وشجاعة المدافعين عنها، ولكن معظم المصادر والمراجع تبالغ في الحديث عن القوات المغولية، ولكنها لا تشير أبداً إلى القوات الخوارزمية، أو القوات المحلية التي تولت الدفاع عن المدينة. مهما يكن فقد حسم مصير مدينة هراة ليتم الانتقال لمصير مدينة أخرى تقع في خراسان وهي مدينة طوس.

(١) غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠١.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٦٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠؛ بدر، تاريخ أفغانستان، ص ٣٣.

(٣) مارشال، عاصفة من الشرق، ص ٥٩.

(٤) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٤٩.

(٥) غروسية، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠١.

(٦) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٤٤.

(٧) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥١.

تعدّ طوس من مدن خراسان وتبعد عن نيسابور عشرة فراسخ، وقد الحقها بعض الجغرافيون العرب بمدينة نيسابور^(١)، في حين عدّها آخر احدى خزائن مدينة نيسابور^(٢)، بينما جعلها جغرافي آخر كورة منفردة تقع في الربع الأول من أرباع خراسان وتضم أربع مدن وتتبع لها ألف قرية^(٣)، يرتبط ذكر عن طوس بذكر المدينتين الشهيرتين اللتين تألفت منهما طوس وهما الطابران، والنوقان، واللّتين اختلف الجغرافيون أيضاً في تحديد طبيعتهما فمنهم من عدّهما مدينتين^(٤)، وآخرين عدّوهما محلتين^(٥). ما يهم في الأمر أن الطابران كانت من أكبر مدائن طوس أحاط بها حصنٌ وتألفت من سوقٍ ضم العديد من الحوانيت ، واحتوت أيضاً على مسجدٍ جامعٍ^(٦). أضحت المدينة منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد قسبةً لطوس واستمرت مكانتها تلك حتى عصر ياقوت الحموي^(٧)، ولقد وصفها المقدسي بقوله: " بها سوق ومشايخ وكبار وفوائد وتجار، الجامع في الأسواق لهم قني قريبة وآبار كثيرة الخير، رعية الأسعار، واسعة الخصب، كثيرة الثمار، إلّا أنها بليدة خربة الأطراف باردة ردية الحمامات "^(٨). أما إذا ما تم الانتقال للمدينة الأخرى وهي النوقان فقد كانت أكبر نصفي طوس، إلّا أن مكانتها تراجعت لصالح مدينة الطابران وقد تحدث كذلك المقدسي عنها فقال: " دون الطابران قد التقت الأسواق بجامعها، حدّاق في نحت البرام ونظائرها وهم قومٌ جياذ إلّا أن ماءهم قليل "^(٩)، و لا بدّ من الإشارة بأنّه على بعد مرحلتين من طوس تقع قرية سناباذ التي تعرف حالياً بمدينة مشهد وكانت تلك القرية عبارة عن بستان ضخمٍ احتوى قبر الخليفة هارون الرشيد الذي توفي في المنطقة فدفن هناك، كما احتوت قبر الإمام الثامن علي الرضا بن موسى الكاظم ت ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م وأطلق على القرية اسم برذعة وأحياناً اسم المثقب^(١٠) ، وتمتعت المنطقة بمكانةٍ دينيةٍ كبيرة لدى الشيعة فقد احتوت ضريح أحد أئمتهم لذا فإنهم بالغوا في العناية بها وبعمارتها حتى إن ابن بطوطة زار المكان

(١) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٥٨.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٤.

(٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٥١.

(٤) السمعاني، الأنساب، ج ١٢، ص ٢٦٣.

(٥) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج ٢، ص ٤١١.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠.

(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٨٦.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٦٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٣٠.

وتحدث عنها بقوله: " مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والأرجاء الطاحنة، والمشهد عليه قبة عظيمة في داخل الزاوية وتجاورها مدرسة ومسجد، وجميعها مليح البناء " (١). إضافة إلى مكانة طوس الدينية فقد تمتعت بمكانة تجارية فقد مرّ بها الطريق التجاري الهام الذي كان يخترق خراسان، فقد تشعب ذلك الطريق عند نيسابور إلى فرعين أحدهما اتجه نحو الجنوب الشرقي لينزل إلى هراة والآخر انعطف إلى اليسار ثم إلى الشمال الشرقي ليلقي مدينة طوس لذا فإن أسواقها حوت بضائع الهند والصين كما احتوت الحبوب التي اشتهرت بها مدينة طوس (٢).

تعرض طوس كما مثيلاتها من مدن خراسان لغزو المغول وهذا الأمر سيناقش فيما يلي:

فيما يخص مدينة طوس فالمعلومات المتعلقة بالغزو المغولي لها قليلة، وهي على قلتها قد تباينت واختلفت ، فالمصادر الفارسية قد جعلت اجتياح طوس على مرحلتين الأولى عندما كان جبهه وسوبوداي يلاحقان السلطان علاء الدين محمد سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م حيث اقتريا من المدينة، وقد أطاع أهل نوقان فغادراها، بينما أظهر أهل طوس عدم الطاعة، فما كان من القائدين إلا أن نهبا تلك المدينة وقتلا كل سكانها وغادراها إلى المراعي المجاورة لها (٣). وبالتالي فقد دمر هذان القائدان ربما قسم الطابران فقط وذلك لأن نوقان قد أطاعتهم وقدمت لهم العلوقة طبعاً، ولكنهم على الرغم من كونهم كانوا في عجلة من أمرهم فقد عاقبوا من أظهر العصيان لهم، فما كان منهم إلا أن نهبوا طوس وقتلوا سكانها وغادروها مسرعين، دون وجود معلومات تشير إلى تركهم شحنة فيها. ولكن عادت بعد ذلك قوات المغول وطرقت أبواب طوس مرة ثانيةً وذلك سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م عندما كان تولوي يجتاح مدن خراسان، ولم يعرف السبب الذي دفعهم لذلك ربما لثورة أهلها على الشحنة المغولية التي قد وجدت فيها، أو لإكمال سيطرتهم على مدن المنطقة، أو لموقعها التجاري، أو لاحتوائها على كنوز وثروات كثيرة، ولقد أشار رشيد الدين الهمذاني بأن الذي نهض بهذه المهمة هو تولوي (٤)، بينما تحدث الجويني عن اجتياحها حيث قال: " استخلص طوس " (٥) ولقد قصد بذلك تولوي طبعاً لكونه كان يعدد المدن التي اجتاحتها في خراسان وطوس من ضمنها طبعاً، ولكنه ناقض نفسه في موضع آخر عندما تحدث عن اجتياح نيسابور وعن

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٣، ص ٥٢، ٥٥.

(٢) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٧٣.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٥) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٥٠.

مقتل تقاجار نويان ومصير القوات المغولية المحاصرة للمدينة حيث ذكر أن قسماً منها تم إرساله إلى طوس لمساعدة قشتمور ، الذي كان محاصراً لها، وقد نجحت هذه القوات فيما عجز عنه قشتمور^(١). بالتالي فإنه يجعل القائد قشتمور هو المسؤول عن أعمال القتال في طوس، هذا فيما جاء في الروايات الفارسية ، أما الروايات التي وردت في كتب المؤرخين العرب فإنها اقتصرَت على رواية واحدة أوردها ابن الأثير في كتابه، وتناقلتها أقلام المؤرخين فيما بعد وقد كان فحواها أنه لما فرغ المغول من مدينة نيسابور سيّروا طائفةً من العساكر إلى مدينة طوس ففعل هؤلاء بها ما فعلوه بغيرها من تدميرٍ وتخريبٍ وقتلٍ وسبيٍّ، وأقدموا على تخريب مدينة مشهد وضريح علي بن موسى، وكذلك ضريح هارون الرشيد حتى تحولت المنطقة إلى خرابٍ كاملٍ^(٢). بالتالي فإن ابن الأثير لم يحدد تاريخ الاجتياح بل قرنه بالانتهاء من السيطرة على مدينة نيسابور أي في سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، ولم يحدد اسم القائد، وبكل تأكيد سيكون إما تولوي أو أحد قادته حيث نهض تولوي وقواده بمهمة اجتياح خراسان، ولكن يفهم مما سلف بأن أهلها لم يستسلموا للمغول، لكون هؤلاء قد اجتاحتوها وحولوها إلى منطقةٍ منكوبة، ولكن لابد من الإشارة بأن ابن عرب شاه أضاف على العبارة السالفة بأن أشار إلى أن المغول بعد فراغهم من طوس توجهوا إلى مدينة نوقان، فهل هي مدينة نوقان ذاتها التي تعد جزء من طوس، أم أنها مدينة أخرى حملت الاسم نفسه؟ حيث قال: " ثم توجهوا إلى طوس فازهقوا ما بها من نفوس، ثم إلى نوقان ولم يبقوا بها أحداً كائناً من كان، وعم القتل المبير كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ "^(٣).

هذا فيما تعلق باجتياح المغول لمدينة طوس ولكن ما يلاحظ بأن المصادر جميعها أهملت الإشارة للخوارزميين واستعداداتهم داخل المدينة، كالم تشر لمصير المدينة وحالها. هذا ولم تقوم للمدينة قائمة بعد تدمير المغول لها وحلّت مكانها مدينة مشهد، فقد قام بعض الأثرياء الشيعة بإعادة البهاء إلى المنطقة التي وجد فيها الضريحين، وقد أضحت المدينة في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد مدينة بهية تعجّ بالسكان والزوار الذين وفدوا إليها^(٤).

٦- حصار مدينة نسا:

(١) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٥١.

(٣) ابن عرب شاه، مفاكهة الخلفاء، ص ٥١٣.

(٤) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٣١.

على الرغم من كون نسا أول مدينة استولى عليها المغول في خراسان بحسب قول النسوي^(١)، إلا أنه لم يتم الإشارة إليها بدايةً، بل أُجِّل ذكرها، وذلك لكون مدن بلخ، ومرو، ونيسابور، قد تمتعت بمكانة أكثر منها جذبت انتباه المؤرخين الذين أسرفوا في سرد أخبارها، ولكون تلك المدن أيضاً أقرب جغرافياً لنهر جيحون، وذلك لأنه تم استعراض مدن خراسان وذكرها بحسب قربها من نهر جيحون الذي اجتازه المغول وانتشروا انطلاقاً منه في خراسان ومدنها. ترتبط مفردة نسا بالمؤرخ النسوي، والذي ولد وترعرع وواجه المغول فيها، كما أنه ألف كتابه الذي احتوى قسم منه معلومات عن المدينة وعن سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي^(٢). بدايةً تقع المدينة عند النهاية الشمالية لسلسلة جبال كوت داغ حيث تصب هناك عدة جداول وأنهار^(٣)، تعد نسا من كور خراسان، ولكن بعض الجغرافيين العرب حددوا موقعها بدقة أكبر فعدّوها من الكور التابعة لنيسابور^(٤)، باستثناء المقدسي والذي لم يعدّها من الكور، بل من خزائن نيسابور^(٥)، و مهما يكن فهي تقع كطوس في ربع نيسابور، كما اختلف المؤرخون في تحديد موقعها، كذلك اختلفوا في تحديد اسمها ومعناه، فمنهم من أطلق عليها لفظة نسا البيضاء^(٦)، وآخر أطلق عليها اسم فيروز معللاً سبب تسميتها بذلك الاسم نسبةً إلى فيروز بن يزدجرد أحد الأكاسرة الفرس الذين بنوا المدينة^(٧)، أما ياقوت الحموي فقد عدّ اسمها من الأسماء الأعجمية^(٨)، وهناك مؤرخ آخر لم يطلق عليها اسم نسا بل أبيورد^(٩). أما فيما تعلق باسم نسا فقد فسر الجغرافيون العرب معناه بقولهم أن العرب لما أرادوا فتح المدينة هرب رجالها منها ولم يتخلف فيها سوى النساء، وبما أن العرب لم يكن من شيمهم محاربة النساء لذا كفوا عن حربها فنسأ أمرها إلى أن يعود رجالها لذا أطلق عليها اسم نسا^(١٠)، و كانت نسا مدينة خصبة كثيرة المياه والبساتين^(١١)، وصفها المقدسي

(١) سيرة السلطان، ص ١١٥.

(٢) انظر كتاب النسوي سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ومقدمة التحقيق التي كتبها الباحث حافظ أحمد حمدي.

(٣) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩١.

(٤) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ٢٧٦؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١١٠؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٣٥.

(٥) أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٧) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج ٢، ص ١٦٢.

(٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٨١.

(٩) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج ٢، ص ٣١٠؛ الحديثي، أرباع خراسان، ص ٣٧٧.

(١٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠؛ السمعاني، الأنساب، ج ١٢، ص ٨٢.

(١١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٥١.

يقوله: "بلد رحب نزيه طيب، غزير المياه، كثير الخيرات، مشتبك الأشجار، حسن الثمار، جامع ظريف، وخبرٌ نظيف، وسوقٌ رصيف، أقل داراً إلا وبها بستان وماء جارٍ وقرى كبار، لها عشرة دروب وقد غابت في الأشجار"^(١). يفهم مما سلف مقدار خصب نسا ووفرة غلاتها، ومقدار اتقان عمارتها فقد احتوت مسجداً جامعاً وأسواقاً حسنة، كما اخترقتها القنوات والسواقي التي أمنت المياه لكل منزل فيها، مما ساهم في كثرة بساتينها ومزروعاتها، واشتهرت نسا إضافةً إلى ذلك بقلعتها والتي كانت من أملاك محمد بن عمر بن حمزة النسوي^(٢)، وكانت شاهقة الارتفاع، مبنيةً على تلٍ عالٍ، وكانت من الضخامة بمكانٍ مكن من أن تتحول إلى ملجأٍ لخلقٍ كثيرٍ من السكان، احتوت القلعة كذلك على قلعةٍ أخرى بنيت في وسطها، وكانت بمثابة دارٍ للسلطنة اتصفت بكونها أعلى من القلعة السالفة، لذا فإن المياه كانت تجري منها إلى القلعة الأخرى، ولكن لما امتلك السلطان علاء الدين محمد نسا عمداً إلى تخريب قلعتها وهدم أسسها^(٣) فكان ذلك العمل من الأخطاء الشائعة التي ارتكبها السلطان بحق مدن مملكته، ولابد من الإشارة إلى أنه عندما اقترب الخطر المغولي من المنطقة وفرَّ السلطان هارباً من مدن ماوراء النهر باتجاه خراسان، صادف أحد أمراء نسا ويدعى بهاء الدين محمد بن سهل، وطلب منه إخبار أهل نسا العبارة التالية: "إن هذا العدو ليس كسائر العساكر، والرأي تخلية البلاد والتسحب إلى البراري والجبال ريثما يجمعون من الغارات ما تملأ به أعينهم وأيديهم، فيرجعون، ويسلم الناس من فاجئ ركضتهم، ثم لو قدر أهل نسا على عمارة قلعتهم، فقد أذنا لهم في عمارتها والتحصن بها"^(٤). يفهم مما سلف بأن قلب السلطان امتلاً خوفاً ورعباً من المغول لذا فإنه أشار على السكان إما بالاتجاه نحو الشعاب الجبلية، ريثما تنتهي أعمال المغول، وإما بالتحصن في القلعة تلك القلعة التي أذن لهم بعمارتها، ولم يشر عليهم بالمقاومة لعلمه أن ذلك الجيش لا يقهر. وفعلاً شرع أهل نسا في عمارة القلعة باستخدام السخرة، وقد تمكنوا من بناء بعض أسوارها وإعادة ترميم مبانيها، وقد نهض بهذه المهمة الوزير ظهير الدين مسعود^(٥). بالتالي فإن نسا ضمت قلعة حصينة باستطاعتها أن تحمي أبناءها من الغزو المغولي، ولكن بكل تأكيد لم تشكل هذه الجدران عائقاً

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠.

(٢) القزويني، آثار البلاد، ج ٢، ص ١٦٢؛ بعد العودة لكتب التراجم الخاصة بالحقبة لم يعثر على ترجمة للشخصية.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٣.

أمام المغول ، بل اجتاحتها بكل تأكيد، بدايةً أقدم القائد تولوي الذي كلف بمهمة اجتياح خراسان على إرسال فرقة صغيرة بقيادة بيل كوش إلى نسا لاستطلاع أحوالها وبعد ذلك اجتياحها، ولكن ما حدث أنه لم يستسلم سكانها إلى تلك الفرقة بل شرعوا برمي المغول بالسهم من خلف الأسوار فما كان من سهمٍ إلا أن أصاب صدر بيل كوش فأرداه قتيلاً فتراجع المغول نتيجةً لذلك ونقموا على أهل مدينة نسا^(١). وبعد تلك الحادثة عمد تولوي إلى إرسال فرقة كبيرة مؤلفة من " عشرة آلاف فارس" بقيادة صهره تقاجار نويان الذي أشرف على العمليات الحربية أمام أسوار نسا قبل توجهه إلى نيشابور حيث لقي مصرعه هناك كما سلف ذكر ذلك^(٢)، وقد رافقه بركا نوين^(٣)، و حطت القوات المغولية رحالها أمام أبواب المدينة، واستطلعت الموقع واكتشفت مدى حصانة الأسوار فما كان منها بعد ذلك إلا أن ضربت الحصار عليها، واستعلمت لأجل ذلك عشرين منجنيقاً نصبته حول المدينة، إضافةً إلى عددٍ من العرادات^(٤) التي استعملها المغول في دك أسوار المدينة، ولابد من التنويه بأنه قد استعمل عليها الأسرى الذين تم جمعهم من المدن التي اجتاحتها المغول من قبل^(٥). ولقد استطاع المغول بفضل تلك المعدات وبعد جهدٍ مضنٍ استمر لمدة " خمسة عشر يوماً" فتح ثغرة في السور، وزحفوا من خلالها حيث تمكنوا من ارتقاء أسوار المدينة، ولما حلّ الصباح كان المغول قد اجتازوا الأسوار وانتشروا داخل المدينة^(٦). وسريعاً أمروا السكان الذين أغلقوا ابواب منازلهم عليهم خوفاً من المغول بإخلاء المدينة والاتجاه إلى منطقة تقع وراء البساتين يطلق عليها اسم " عديان"، وبعدها أمرهم أن يكتف بعضهم بعضاً وشرعوا بعد ذلك بقتلهم^(٧). وقد تحدث النسوي عن تلك الواقعة فقال: " حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسع بالصغار والنساء والضجيج يشق جلباب السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا الناس أن يكتف بعضهم بعضاً، ففعلوا ذلك خذلاناً وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب لنجا أكثرهم، فحين كُتقوا جاؤوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدا وأطعموهم

(١) النسوي ، سيرة السلطان، ص ١١٣؛ السيد، التتار والمغول ، ص ٩٢.

(٢) انظر اجتياح نيسابور ص ١٨٥.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٣؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩١؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٠؛ أما بركانوين: انظر

تعاريف ص ٣٥٧

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٣.

(٥) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم ، ص ٢٩١؛ حطيط، حروب المغول ، ص ٣٧.

(٦) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٣؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٩١؛ عكاشة، إعصار من الشرق، ص ٢١١.

(٧) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٣.

سباع الأرض وطيور الهواء، فمن دماء مسفوكة وستور مهتوكة، وصغار على ثدي أمهاتها المقتولة متروكة^(١). و عبّر النسوي عن حالة الوجع التي تملكّت السكان فقد علا صراخهم وساروا خارج المدينة لمواجهة مصيرهم المحتّم ألا وهو الموت وفعلاً قد قتلوا جميعاً وقد تعجب المؤرخ نفسه من مدى استسلام السكان واطاعتهم للمغول ورضاهم بالموت، ألم يكن حرّاً بهؤلاء بعد كلّ ما أبدوه من شجاعة أن يقاوموا المغول أو على أقل تقدير أن لا يرضخوا لهم ويحاولوا الفرار للشعاب الجبلية المجاورة لهم؟ وجدت قوات خوارزمية بكل تأكيد في المدينة أو قوات محلية تولّت بدايةً ترميم القلعة ومن بعد ذلك مقاومة المغول، ولكن أهمل المؤرخون الحديث عنها وعن قوادها ومصيرها، وقد أبدى المغول وحشية كبيرة تجاه المدينة أكانت تلك الوحشية نابعة من شخصية تقاجار نويان، أو لكون أحد قادة المغول قتل أمام أسوارها فكان لابد من تأديبها، أم أنهم أرادوا إعطاء سكان خراسان درساً قاسياً لذا أبدوا تلك الوحشية نحو المدينة لكي تصل أخبار تلك المذبحة وتنتشر في أصقاع خراسان فيلجأ سكان المدن الأخرى إلى الاستسلام أو تنتشر بينهم حالة من الرعب والهلع من الجيوش المغولية. ما يهم في النهاية فقد دُمّرت مدينة نسا ونُهبت على يد المغول، ولقد أحصى النسوي عدد من قتل فيها فكانوا قرابة "سبعين ألف نسمة"^(٢)، وليس هذا العدد مبالغ فيه على حد قول النسوي فقد احتوت نسا إضافةً لسكانها أعداداً كبيرة من الغرباء الذين احتموا بها كان من بينهم مستشار السلطان علاء الدين محمد شهاب الدين الخيوقي^(٣)، وقد وصل إليها راحلاً من خوارزم مع خلقٍ كثيرٍ من سكان خوارزم وجدوا في نسا ملجأً لهم من القوات المغولية، ولكن لقي حتفه مع باقي السكان في المدينة^(٤). ولابد من التنويه بأن المغول لم يكتفوا بتدمير نسا بل عمدوا إلى تمشيط المناطق المجاورة لها، وحصارها لجمع أكبر قدرٍ ممكنٍ من المدد اللازم لهم والتي كانوا بحاجةٍ له في عملياتهم وحصارهم للمدن الأخرى، لذا فإنهم اتجهوا نحو قلعة خرنذر التي كانت تعدّ من أمهات قلاع خراسان وتقع بقرب مدينة نسا، وكانت ملكاً لأسرة المؤرخ النسوي منذ دخول الاسلام إلى مناطق خراسان وقد توارثتها الأسرة جيلاً بعد جيل^(٥). لذا فقد أطنب النسوي في وصفها حيث قال: " بقيت إذ ذاك والدنيا

(١) سيرة السلطان، ص ١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٣) جرى الحديث عنه ص ١١٢.

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ١١٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٦-١١٧.

تموج بالفتن مهرباً للأسرى وملجأً للخائفين، إذ هي واسطة البلاد وحدقة العمران^(١)، إضافةً لحصانتها وارتفاعها الشاهق فقد تمتعت القلعة باستقرارٍ اقتصادي لغنى الأسرة التي سيطرت عليها، والتي قدمت الخدمات فيما بعد لكلِّ فارٍ من أمام المغول، و بعد أن انتهى المغول من أمر مدينة نسا أرسلوا فرقةً بقيادة ناجن نوين^(٢) إلى القلعة المذكورة، وصلت إليها بعد ثلاثة أيام من تدمير نسا واقتربت من الجهة الشرقية منها، وبدأ القائد المغولي كالعادة بالاستطلاع فرأى أنها كما عبر عن ذلك النسوي: "كعقاب الجو، لا وصول ولا حصول"^(٣)، فما كان منه إلا أن ارتأى ارسال رسولٍ إلى أهلها يطلب منهم العلوفة ومقدارها عشرة آلاف ذراعٍ من الخام، إضافةً لعدة طلباتٍ أخرى فوافق السكان على طلبه خوفاً منهم لكونهم قد شاهدوا ما أصاب سكان نسا، وعمدوا إلى تسليم المغول العلوفة والذين سارعوا إلى مغادرة القلعة بعد أن جمعوا كذلك الأمر أعداداً كبيرة من المواشي المنتشرة في المراعي المجاورة وتوجهوا بعدها لاجتياح منطقة جديدة^(٤)، و تابع النسوي روايته بحديثه بأنه على الرغم من نجاة القلعة من المغول، ولكن الموت حلَّ بها فقد أصابها الوباء وقد اشار لذلك بقوله: "ومن العجائب أن خراسان لما شملها القتل، وخصت القلعة المذكورة دون سائر الأماكن بالسلامة من صدمتهم، والخلاص من نقمتهم، وقع فيها الوباء، وعمَّ أهلها الفناء، فكانت تخرج في كلِّ يومٍ منها عدة جنائز حتى لحقت بالآخرين وكفاهم ملك الموت كلفة الحصار، فسبحان من حكم على الخلق بالفناء"^(٥). و لم يشر النسوي في أثناء حديثه عن قلعته إلى وجود قواتٍ عسكريةٍ فيها، وإنما أشار فقط لحصانتها ومنعتها، ولم يشر إلى رغبة أهلها في المقاومة، فقط ذكر قوات المغول ومطالبها، مما يبرهن على رغبة الأهالي بالنجاة بأرواحهم بأي ثمن، أي أن مذبحة نسا أعطت نتائجها. وبنهاية البحث عن نسا تختم الفقرات المتعلقة بالاجتياح المغولي لمناطق خراسان، وقد كانت من الفداحة بمكانٍ فقد فقدت خراسان ما يزيد على " مليون وأربعمئة واثنين وثمانين ألف نسمة " و تم التوصل لذلك العدد من خلال جمع أعداد القتلى الذين ذكرهم المؤرخون، كما أن مناطقها تحولت إلى أراضي خربة ولم يبق لها قائمة بعد، ولا بد من التنويه بأن مناطق خراسان قاومت المغول بإمكاناتها فقط

(١) سيرة السلطان، ص ١١٧.

(٢) ناجن نوين: انظر تعاريف ص ٣٥٩

(٣) سيرة السلطان، ص ١٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

حيث لم تتوفر فيها قيادات جماعية نظراً لطبيعة الحكم الذي كان قائماً فيها، فقد كان قطاعي عسكري، وكانت الخلافات قائمة بين حكام المدن من جهة وبين السلطة العليا في خوارزم التي اهتمت فقط بمناطق بلاد ما وراء النهر وبالأموال التي كانت تجمعها فقط.

ثانياً: اجتياح المغول لإقليم الجبال:

انطلق المغول في حملتهم نحو الغرب لإسقاط حكم الدولة الخوارزمية ومعاقبة حكامها، لكن هذه الدولة كانت متسعة الأرجاء، ضمت بين جنباتها مناطق كثيرة اجتاحتها المغول بالتدريج، وتمكنوا من السيطرة عليها، ولقد ضمت تلك الدولة إضافةً إلى مناطق ما وراء النهر وخراسان مناطق من إقليم الجبال، وكذلك طبرستان والغور، إضافةً إلى مناطق من أذربيجان، وقد حلم المغول بالسيطرة عليها، وتحقق حلمهم، ولكن جرى اجتياح بعضٍ من هذه المناطق قبل مناطق معينة من خراسان، أو بعدها بمدةٍ معينة، ولكن ذكرت هاهنا لأنه تم اتباع منهج قائم على ذكر المناطق وفقاً لموقعها الجغرافي وقربها أو بعدها من بلاد ما وراء النهر مركز الدولة الخوارزمية لذا سيجري الحديث عنها قبل غيرها من المناطق. و لابدّ بدايةً قبل البحث في الاجتياح المغولي لإقليم الجبال من التعرف على موقعه ومعنى اسمه، والمدن التي تألف منها. حيث يقع ذلك الإقليم في منطقة حيويةٍ ومهمةٍ بالنسبة للمواصلات مع خراسان والعراق^(١)، يحده من الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن الغرب أذربيجان، ومن الشمال بلاد الديلم^(٢)، ومن الجنوب العراق وخوزستان^(٣). أُطلق عليه اسم إقليم الجبال على الجمع لكون الجبال شغلت معظم مساحته^(٤). ولكن مع مرور الزمن بطل استعمال ذلك الاسم وأُطلق عليه اسم عراق العجم وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه التسمية فمنهم من عدّها لفظاً استحدثته العامة وأطلقوه على بلادهم^(٥)، ومنهم من عدّه اصطلاحاً محدثاً وجد تبعاً للظروف السياسية القائمة في تلك المرحلة^(٦)، ومنهم من عدّ حكام السلاجقة الذين حكموا المنطقة واتخذوا من همذان مقراً لهم هم

(١) الزهاوي(عباس): السياسة الداخلية والخارجية للدولة الايلخانية، بغداد، (د،ت) ، ص ٧٩.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٣) القزويني، آثار البلاد، ج ٢، ص ٤٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦٦.

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٠٩؛ شيخ الربيوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص ١٨٣؛ المقدسي، أحسن التقاسيم ص ٢٩٥.

(٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٠٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦٦.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٢١.

المسؤولون عن ايجاد هذا المصطلح وقد أطلقوه عليه تمييزاً له عن العراق مقر حكم الخلفاء العباسيين^(١). وأظن المؤرخون في وصفه حيث وصفه القزويني بقوله: "أطيب النواحي هواءً وماءً وتربةً وأهلها أصح الناس مزاجاً وأحسنهم صورة"^(٢). وبالتالي فقد اشتهر الإقليم بطيب هوائه وكثرة مياهه وخيراته حيث عدّ مصيفاً لحكام السلاجقة من أهم مدنه : الري، وهمدان، وقزوین، وأصفهان^(٣)، وغيرها من المدن التي أصابتها نوائب الزمان أكثر من مرة وتركت فيها آثاراً موجعة، ولكن أكبر النوائب كانت على يد المغول الذين اجتاحتهم مدنه وتركوا فيه آثار الدمار والموت.

١ - حصار مدينة همدان واجتياحها:

توجه المغول نحو إقليم الجبال وطرقوا أبوابه مرتين الأولى كانت سريعة عند ملاحقتهم للسلطان علاء الدين محمد، والثانية بعد غزوهم خراسان مسببين دماره بكل تأكيد ، وقد واجهت همدان ذلك الأمر وتعرضت للكثير من الصعاب سيجري مناقشتها :

تقع همدان في الإقليم الرابع على طريق القوافل والحجيج^(٤)، في موقعٍ وسطٍ من إقليم الجبال وتبعد عن مدينة حلوان "سبعاً وستين فرسخاً"^(٥). تألفت همدان من الشهرستان (قلب المدينة) والذي بني في وسط المدينة، تألف من ثلاثة أسواق تطلها المسجد الجامع، وأحاط به سور بلغ محيطه ألف خطوة واحتوى أربعة أبواب صنعت من الحديد^(٦)، أما القهندر فكان عبارة عن قلعة عتيقة بنيت وسط المدينة، وفيما يتعلق بالأرباض فقد أحاطت بالمدينة والتي بلغت مساحتها فرسخ في مثله^(٧). تغنى المؤرخون بهمدان، وبكثرة مياهها وبساتينها، وبسعة عمارتها فهذا ابن حوقل وصفها بقوله: "مدينة كبيرة حسنة، جليلة المقدار لها أنهار وأشجار، وعمل واسع وغلات من سائر الغلات، وبها أهل أدبٍ وفضلٍ ومروءةٍ، وهي على مر الأوقات والأيام رخيصة الأسعار كثيرة الأغنام والألبان والأجبان، وضروب التجارة من الزعفران"^(٨). ولقد تعرضت

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٢٠.

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد، ج ٢، ص ٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢.

(٤) السمعاني، الأنساب، ج ١٢، ص ٣٤٣؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤١٠.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٣٧٠.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٠؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٣٠.

(٧) القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج ٣، ص ٥٠٤؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٩٦؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٠٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

همذان لأذى المغول حيث طرّقوا أبوابها مرتين، فيما تعلق بالموجة الأولى، فقد كانت سريعة فعندما كان جبهه وسوبوداي يطاردان السلطان علاء الدين محمد مرّا بها، واقتربا من أراضيها عندها سارع رئيسها الذي أطلق عليه رشيد الدين الهمذاني اسم السيد علاء الدولة^(١) بالخروج إليهم ومنحهم الخيل والأموال والدواب والثياب اللازمة لهم وطلب الأمان له ولأهل البلد، ولما كان المغول في عجلةٍ من أمرهم ، سارعوا إلى منحه الأمان وتركوا شحنةً في البلد وسارعوا خلف السلطان علاء الدين محمد^(٢)، وكان هذا ما ذكره ابن الأثير ونقل عنه ابن واصل الحموي، فهما أظهرًا سكان همذان وقد أصابهم الفزع لكثرة ما سمعوا عن أعمال المغول، لذا بادروا إلى طلب الأمان ومنح المغول كلّ ما يحتاجونه من امداداتٍ، ومما يلاحظ بأن ابن الأثير أهمل ذكر رئيس البلد بينما ذكره رشيد الدين الهمذاني، ربما لم يصل إليه الاسم، أو لم يرد الإسراف في التفاصيل، كما أنهما كذلك الأمر لم يذكر اسمي القائدين اللذين اقتربا منها بل اكتفيا بعبارة "قصدوا همذان"^(٣)، واللذين فصلا في أسماء القائدين هما رشيد الدين الهمذاني والجويني فقط اللذين ذكرا همذان ضمن الرواية التي تحدثنا فيها عن مسيرة جبهه وسوبوداي^(٤)، و إذا ما تمت متابعة قراءة بقية الروايات العربية التي تتحدث عن همذان فإنه يلاحظ بأن من المؤرخين من ذكروا اسم همذان ضمن ذكرهم لبقية المدن التي قصدها المغول سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، حيث قال معظمهم " ساروا نحو همذان"^(٥)، وهناك مؤرخ واحد فقط تحدث عن أن المغول قد أبادوها في أول مرة مروا بها، وهو اليافعي حيث قال: " اتجهوا نحو همذان وأبادوا من بها "^(٦)، ولكنه لم يذكر في أية سنة ومن هم القادة الذين توجهوا إليها ، ربما قد اختلط الأمر على اليافعي، فلم يميز بين المرحلتين واختصر حديثه هنا وتحدث عن إبادتها، وهذا ليس غريباً عن اليافعي فعبارته مختصرة لكونه مؤرخ مهتم بالتراجم أكثر من اهتمامه بتاريخ الأحداث. ولكن يرجح بأن المغول قد مروا بها وقبلوا الأمان من أهلها، ولكنهم عادوا إليها مرةً ثانية بعد اجتياحهم لخراسان وهذا ما سيتم تناوله فيما يلي:

(١) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٦٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤٦.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٥؛ الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٦٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٢٧.

(٦) مرآة الجنان، ج ٤، ص ٤٨.

تقدم المغول نحو همذان وهذه المرة كان تقدمهم تقدماً كبيراً وحاسماً فنيت بسببه مدينة همذان، ولقد اختلف في السبب الذي دفعهم للتقدم مرةً ثانيةً إليها على الرغم من أنهم أعطوا الأمان لأهلها وتركوا شحنةً فيها، فرشيد الدين الهمذاني جعل قدوم المغول إليها بسبب فتنةٍ افتعلها مملوك السلطان علاء الدين محمد جمال الدين آييه^(١) وساعده فيها بعض العساكر الخوارزمية، فما كان منهم إلا أن دخلوا همذان وقتلوا الشحنة المغولية الموجودة هناك وألقوا القبض على حاكمها السيد علاء الدولة وحبسوه في قلعة كرنب^(٢)، فما كان من المغول لما اقتربوا منها إلا أن فرضوا الحصار عليها عندها ندم جمال الدين لفعله ذاك وجهد في استمالة المغول ومصالحتهم لكنهم لم يصدقوا كلامه واستمروا محاصرين للمدينة، وبعدها دخلوها عنوةً وقتلوا جما الدين آييه وقتلوا كذلك أهل البلد وأحرقوها وكان ذلك في شهر رجب من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٣). هذا ما ورد لدى رشيد الدين الهمذاني حيث جعل تقدم المغول نحوها لفتنةٍ افتعلها أحد عناصر الدولة الخوارزمية وإقدامه على فعلٍ شنيعٍ بقتله الحامية المغولية التي تمثل السلطة المغولية في مدينة همذان، وقبضه على حاكمها وإرساله إلى السجن، كل ذلك استوجب العقاب الذي نزل به ولم ينفعه تضرعه للمصالحة وطلبه العفو، ولكن لماذا ثار على الحكم المغولي ثم جهد إلى طلب العفو منهم؟ ألم يسمع عن بطشهم ومقدار قسوتهم ، ويدرك فداحة فعلته ونتائجها، هذا ما ذكره رشيد الدين الهمذاني ولكن إذا ماتم الانتقال إلى الجانب الآخر ويقصد بذلك الروايات العربية فإنه يلاحظ الآتي: بأن ابن الأثير فصل في الحديث عن تلك الواقعة مرجعاً سببها إلى أن المغول عندما كانوا يجتاحون المناطق القريبة من همذان استنفدوا كل أموالهم ومؤونهم ، لذا فما كان منهم إلا أن عادوا إلى همذان طلباً للعلوفة، فأرسلوا إلى شحنتها طالبين المؤن من أهلها، ولكن أهلها لم يجدوا شيئاً يمنحونهم إياه، فقد تعذرت الأقوات فيها، وذلك لخراب معظم المدن المحيطة فيها ومقتل جزء كبيرٍ من سكانها، وجلاء من سلم منهم، وبالتالي فقد انعدمت الأقوات^(٤)، ولم يجد السكان من حلٍ سوى التوجه إلى حاكم المدينة وكان في مجلسه وبرفته رجلٌ فقيهٌ لم يذكر اسمه ابن الأثير كما لم يتطرق إلى ذكر اسم الحاكم

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٩.

(٢) قلعة كرنب: انظر تعاريف ص ٣٥٦.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٦٧.

(٤) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٠.

بل اكتفى بذكر العبارة التالية: " بأنه رئيس شريف علوي من بيت رياسة قديمة بهمدان"^(١)، وطلبوا منه أن يعفيهم مما فرضه عليهم ويجد حلاً مرضياً لهم حيث قالوا: " هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان، فقال لهم الرئيس: إننا نعجز عنهم فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال، فقالوا له: أنت اشد علينا من الكفار وأغلظوا له في القول، فقال: أنا واحدٌ منكم افعلوا ما شئتم"^(٢). بالتالي فقد استسلم رئيس المدينة للرعية ووافقهم في أفعالهم التي اختاروا القيام بها، وهي قتل الشحنة والامتناع في البلد وتحصينه، ومحاربة المغول، وفعلاً حدث ذلك الأمر وتوجه المغول نحو همدان لما علموا بثورة أهلها وقتل الشحنة فيها، وفرضوا الحصار عليها، ذلك الحصار الذي تعاون أهل البلد مع الرئيس والفقهاء في مقاومته وتأمين الطعام اللازم للسكان على قلته في البلد، فتأثر السكان لذلك، ولكن لم يتأثر المغول كثيراً لقدرتهم على الصمود والمقاومة، وكان القتال ينشب بين الطرفين بين حينٍ وآخر، وفي اليوم الأول قُتل من المغول خلقٌ كثيرٌ، وجرح الفقهاء عدة جروح، أما في اليوم الثاني فقد تجدد القتال بين الطرفين، ووقعت خسائر كبيرة في كلا الجانبين وأصيب الفقهاء أيضاً بعدة جراح وصبر على جراحه تلك، أما في اليوم الثالث فقد حدث ما لم يتوقعه السكان فلم يطق الفقهاء الركوب لكثرة ما به من جراح، كما أن رئيس المدينة فرّ منها من خلال سردابٍ حفره لذلك الغرض والتجأ هو وأسرته لقلعة حصينة على جبلٍ عالٍ، وهنا وقع الناس في حيرةٍ من أمرهم، ولكنهم اجتمعوا في النهاية على القتال والشهادة في سبيل الدفاع عن مدينتهم، ولقد كاد المغول يفكون الحصار عن المدينة لكثرة قتلاهم، ولكنهم لما شاهدوا ضعف حال السكان وترددهم طمعوا فيهم، فما كان منهم إلا عادوا وقصدوا المدينة ودخلوها عنوةً وقتلوا سكانها الذين انتشروا في الدروب، وعدلوا عن القتال بالسيوف، وقاتلوا المغول بالسكاكين، فقتل من الفريقين خلقٌ كثيرٌ، وانتصر المغول على سكان المدينة وأفنواهم، واستمروا يمارسون أعمال القتل والتخريب لعدة أيام، ثم ألغوا النار في المدينة فاحترقت ولم يبق على قيد الحياة من سكانها إلا من حفر نفقاً لنفسه واختفى فيه^(٣)، وكان هذا ما ذكره ابن الأثير عن حادثة همدان تلك الحادثة التي رواها العديد من المؤرخين الذين نقلوا كلمات ابن الأثير ذاتها، ولكن هناك مؤرخ

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٠.

واحد عدل فيها وهو ابن واصل الحموي، الذي تقاطع مع ابن الأثير في العديد من التفاصيل ولكنه خالفه في أن الفقيه قد قتل متأثراً بجراحه التي أصيب بها ، بينما ابن الأثير أشار إلى كونه أصيب فقط ولم يمت. هذا من جانب ومن الجانب الآخر فإنه أشار لكون رئيس المدينة فر إلى القلعة وبقي فيها مدة قصيرة وبعدها توفي^(١)، بينما ابن الأثير أشار لهربه فقط ولم يشر لموته. إذا ماتم الانتقال إلى رواية أخرى عن مصير رئيس المدينة فهناك رواية الحميري والتي تشير لكونه تمكن من الخروج من المدينة وعبر العديد من الوديان والشعاب الجبلية، وبعدها التجأ إلى قلعة كانت له على جبل عالٍ وقد شحنها بالذخائر، ولما فرغ المغول من تدمير مدينة همذان اتجهوا نحوه وحاصروا القلعة ولكن لما شاهدوا مقدار مناعتها راسلوه فاتفقوا معه على أن يعيد تعمير المدينة وعينوه والياً عليها، بشرط أن يحمل لهم الأموال التي فرضوها على المدينة، وقد وافق الرئيس على ذلك الأمر فتراجع المغول عن القلعة ورحلوا عن منطقة همذان^(٢). أما باقي الروايات الأخرى التي تحدثت عن اجتياح المغول للمدينة فقد كانت معتمدة في معظمها على ابن الأثير، ومالت إلى الاختصار^(٣)، ولا بد من الإشارة إلى أن ابن الأثير في ختام ما كتبه عن همذان ذكر سبباً آخر لاجتياح المغول لها حيث يقول: " هناك سبب آخر لقتال التتر لهم^(٤)، بالتالي فهو قد سمع من أفواه المعاصرين للأحداث سبباً آخر غير السبب الذي تحدث عنه بدايةً فما كان منه إلا أن سارع إلى الحديث عنه وترك الخيار في النهاية للقارئ حتى يقرر أي السببين هما الأصح. وفحوى الرواية الأخرى بأن أهل همذان ضاقوا ذرعاً من سوء معاملة المغول لهم، فما كان منهم إلا أن تشاوروا مع حاكم المدينة فأشار عليهم بمكاتبة خليفة بغداد علّه يرسل إليهم ألف فارسٍ لكي يساعدهم في القتال، وينقذهم من المغول، ولكن ما حدث أن سمع بعض العامة بهذا الأمر، فأطلعوا المغول عليه الذين تمكنوا من القبض على الرسول، وواجهوا الحاكم بفعلته تلك ، فلما أنكر ذلك أظهروا له الرسالة التي عثروا عليها مع الرسول فما كان منهم إلا أن قتلوه، وتقدم المغول نحو المدينة وحاصروها وبعدها أقدموا على اجتياحها^(٥). إن الرواية السالفة بحاجة إلى بعض التحليل فهي تشير إلى طلب أهل همذان المساعدة من خليفة

(١) ابن واصل ، مفرج الكرب، ج٤، ص ٥٠.

(٢) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٥٩٦.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٧٩.

(٤) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥١.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥١.

بغداد وقد كانت للمدينة أهمية كبيرة منذ زمن السلاجقة حيث تنازع على امتلاكها كل من السلطان تكش وال خليفة العباسي، فربما سنحت الفرصة الآن لخليفة بغداد لكي يستولي عليها، ولكن مجرى الأحداث لا يدل على ذلك، فلو رغب الخليفة بمساعد أهل همذان فعلاً لكان ساعد أهل أربيل والموصل، وحماهم من غزوات المغول التي طالت أراضيهم وسببت حالة من الفوضى هناك، أو على أقل تقدير ألم يكن حرياً بسكان همذان طلب النجدة من السلطان جلال الدين منكبرتي الذي كان يمثل السلطة الخوارزمية ولا سيما أنه كان في المنطقة، لربما لم تكن علاقتهم جيدة به ، أو تبعوا اسماً له، حتى إن المصادر لم تتطرق إلى ذكر وجود حامية خوارزمية فيها، وإنما ذكرت بأن العامة أي القوات المحلية هي التي نهضت بمهمة القتال فيها، ولم تشر إلى كون حاكمها من الخوارزميين بل أشارت إلى أصله العلوي الشريف، ربما لبعد المنطقة وقربها من حدود العراق هيأ لها ظروفًا معينة لم تتوفر في غيرها من المدن، كما أن المصادر أهملت الإشارة عن القوات المحلية واستعداداتها كذلك الأمر أهملت الحديث عن أعداد القوات المغولية: قادتها، تجهيزاتها، أكان تولوي هو الذي قاتل فيها، أو أحد القادة الذين توزعوا في المكان واتخذوا من مدينة الطالقان مركزاً لهم^(١) ، ولم تشر إلى طريقة دخولهم المدينة هل فتحوا ثغرة في الأسوار ؟ أم دخلوها عنوة؟ أم بمساعدة أحد سكان المدينة؟ يعتقد بأنهم دخلوها عنوة لكون المؤرخ قد أشار إلى ذلك الأمر^(٢)، و لم تتحدث عن الأسلحة التي قاتلوا بها فقط أشارت إلى استخدامهم السكاكين التي ربما استعملوها لضيق دروب المدينة، أو لكون السكان قاتلوا بها فأرادوا مجاراتهم، أو لكون المنطقة كانت متمرسَةً على القتال بالسكاكين لقربها من مناطق الإسماعيلية الذين برعوا بهذا الأمر، و لم يرد في المصادر كذلك أرقام تشير إلى أعداد القتلى من السكان بل تم ذكر اشاراتٍ فقط كما ورد في العبارتين التاليتين: " قتل من الفريقين ما لا يحصه إلا الله "^(٣)، " فأفنؤهم "^(٤). وما يهم في الأمر أن المدينة قد تعرضت إلى الدمار، ولكنها عادت لتنفض عنها غبار الموت والخراب ولتستعيد نشاطها من جديد والدليل على ذلك وصف المستوفي لها فقد مرَّ

(١) غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٩٦.

(٢) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٥٠.

(٣) ابن الأثير، مصدر سالف ج ١٠، ص ٣٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٠.

بها بعد قرنٍ من الزمن فتحدث عن أسواقها ولاسيما سوق الصاغة، كما أنه وصف قلعتها العتيقة واتساع مساحتها التي بلغت حوالي فرسخين في مثله^(١)، هكذا كان وضع همدان.

٢- توجه المغول نحو الري:

توجه المغول عند وصولهم إلى إقليم الجبال إلى الطرف الشمالي الشرقي منه حيث تقع مدينة الري^(٢)، وهي أيضاً تقع على طريق القوافل الموصل إلى خراسان، و تبعد عن نيسابور " مئة وستين فرسخاً"^(٣)، يحدها جبل طبرك المرتفع^(٤)، عدّت الريّ قصبة إقليم الجبال في تلك الحقبة^(٥). تألفت المدينة من حصنٍ حسنٍ البناء، احتوى على خمسة أبواب وهي باب الطاق المفضي إلى بغداد، وباب بليسان المفضي إلى قزوین، وباب كوجك الذي يؤدي إلى طبرستان، وباب هشام إلى خراسان، وباب سين إلى قم^(٦). ووجدت بالقرب من تلك الأبواب أسواق المدينة^(٧)، ولابد من الإشارة بأن مدينة الريّ عُرفت بدايةً باسم المعجدة، ولكن تعرضت للخراب في المئة الرابعة للهجرة/العاشرة للميلاد وذلك لكثرة الغارات التي أصابتها من شعوب الديلم، فتحوّلت تجارتها إلى أرياض المدينة المحيطة بها، فنشأت بالتالي مدينة أخرى احتوت على المسجد الجامع ودار الإمارة وأحاط بها خندق^(٨). كما كان بقربها قلعة عُرفت باسم الفرخان^(٩)، لكن عادت المدينة ودمرت من جديد بسبب العصبية التي كانت موجودةً بين الشافعية والحنفية من جهة، والشيعة من جهةٍ أخرى، وبين السنة مع بعضهم بعضاً حتى أحوالوا المدينة إلى خرابٍ شاملٍ وقد مرّ بها ياقوت سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م عندما كان فاراً من المغول فتحدث عنها حيث قال: " كانت مدينة عظيمة خرب أكثرها، اتفق أنني اجتزت في خرابها سنة ٦١٧هـ وأنا منهزم من التتر فرأيت حيطان خرابها قائمة، ومنابرها باقية وتزويق الحيطان بحالها لقرب عهدها بالخراب، إلا أنها خاوية على عروشها وخراب معظمها بسبب الصراع بين الشافعية والحنفية من جهة والشيعة من

(١) لسترنج، مرجع سالف، ص ٢٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٩.

(٣) اليعقوبي، مصدر سالف، ص ٢٧٥؛ ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٣، ص ١٣٢.

(٤) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٦٠؛ أما جبل طبرك: انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٥) الحميري، مصدر سالف، ص ٦٥١.

(٦) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣٢١.

(٧) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(٨) المقدسي، مصدر سالف، ص ٣٠٠؛ القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٦٠.

(٩) لسترنج، مرجع سالف، ص ٢٥١.

جهةٍ أخرى^(١). إذا لم تدمر المدن من قبل الغزاة فقد دمرتها الصراعات الطائفية التي كانت تستعر بين اصحاب المذاهب، وأحياناً بين أصحاب الطوائف إما لاختلافهم حول قضية ما، أو حول فقيه معين، أو مكانٍ معين. وقد أدّت تلك الخلافات إلى تدمير مدينة الري التي استخلص من كلمات ياقوت مقدار جمالها حتى أن تزاويق حيطانها ظلت قائمةً على حالها على الرغم من تدمير المدينة، وانتقال السكان منها إلى رستاق رامين الذي حلّ محلّ الري لمدة من الزمن وتسمى باسمها، وعُرفت مدينة الري باسم رام مبرور^(٢)، كما أنها عُرفت باسم مدينة المحمية نسبةً إلى الخليفة محمد المهدي ت ١٦٩هـ/٧٨٥م^(٣) الذي جاء إليها، وبنى المدينة التي تطورت فيما بعد إلى مدينةٍ كبيرةٍ بلغت مساحتها فرسخ في مثله وذلك سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م^(٤). عُرفت الري بكثرة خيراتها ووفرة الغلال فيها حتى أن المقدسي وصفها بقوله: " بلدٌ جليل بهي نبيل، كثير المفاخر والفواكه، فسيح الأسواق، حسن الخانات، طيب الحمامات كثير الأدامات، قليل المؤذيات، غزير المياه، مفيد التجارات "^(٥). لكن تلك المدينة أصابها الخراب أكثر من مرة على يد الغزاة والفتن، وقد كانت تعود في كلّ مرة إلى سابق عهدها، ولكن دُمرت بشكلٍ كبير على يد المغول، ولم يعرف أنهضت من جديد أم بقيت مدمرة؟. عند مطالعة ما كتبه المؤرخون عن حال مدينة الري يلاحظ الآتي: بأن الروايات قليلة وقصيرة وهي على قلّتها وقصرها، فقد تباينت من مؤرخٍ لآخر. فإذا ما تمت مطالعة ما كتبه المؤرخون الفرس فإنه يلاحظ مايلي:

تناول الجويني مدينة الري في أثناء حديثه عن ملاحقة كلّ من جبه وسوبوداي للسلطان الخوارزمي، إذ حصل أثناء المطاردة أن مرّ القائدان بالمدينة، ولكن بحسب رواية الجويني أظهر أهلها التبعية لهما، و حصلاً على معلوماتٍ من سكانها مفادها أن السلطان علاء الدين محمد قد اتجه نحو همذان، فسارعا الخطا خلفه^(٦). بالتالي فقد اكتفى القائدان باستسلام سكانها وغادراها، ولم تتحدث الرواية عن ترك المغول شحنةً فيها، أو تزويد الأهالي لهم بالعلوفة اللازمة فقط اكتفى المؤرخ بذلك القدر من المعلومات. أما إذا ما تم الانتقال إلى رواية رشيد الدين

(١) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٣، ص ١٣٢.

(٢) شيخ الربوة، مصدر سالف، ص ١٨٤.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٨.

(٤) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٦٠؛ القلقشندي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٣٧٢.

(٥) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٩٩.

(٦) الجويني، مصدر سالف، ج ١، ص ١٤٥.

الهمذاني فإنه يلاحظ بأنه ربط معلوماته عن الري بمدينة سمنان التي سار إليها المغول بعد فراغهم من مدينة الري وطبعاً عندما كان القائدان يمارسان مهامهما في المنطقة، فقد تقدموا نحو الري ونهبوا الأموال فيها وقتلوا رجالها جميعهم، وسبوا الحريم وبعدها اتجهوا نحو همذان^(١)، والرواية السالفة مقتضبة فهي لم تتطرق إلى ذكر الأسباب التي دفعت المغول إلى تلك الأعمال، ربما لثورة الأهالي، أو لرفضهم تقديم العلوقة اللازمة، أو ربما فعلوا بها كما فعلوا بغيرها، كما أنها لم تصف حال السكان، وحال القوى الخوارزمية إن وجدت فيها ولقد أيد الباحث عباس إقبال رشيد الدين الهمذاني في روايته المذكورة^(٢). فيما يتعلق بالروايات الأخرى فغروسيه مثلاً تحدث عن اجتماع القائدين في المدينة و أنهما لم يُقدما على نهبها وإنما نهباً بعضاً من المناطق المحيطة بها، وبعدها غادراها في أثر السلطان^(٣)، فهو بالتالي اقترب أكثر من رواية الجويني. أما ابن الأثير: فقد ذكر المدينة في ثلاثة مواضع من كتابه، الأول: عندما كان يتحدث عن المغول بشكل عام وعن أفعالهم التي ارتكبوها بحق العالم الإسلامي، لذا فقد ذكر الري مع غيرها من المدن الأخرى التي جرى نهبها، حيث قال: "ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل، وما فيها من البلاد إلى حدّ العراق ويخربونها"^(٤). وهنا لم يتوسع في الرواية فقد كان غرضه اختصار أخبار المغول في رواية واحدة دلّت على تخريب تلك المناطق، أما الموضع الثاني فكان في أثناء ذكره معلومات عن نهب بلاد مازندران وما تعرضت له في سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م حيث قال: "لما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري، فرأوا في الطريق والدّة خوارزم شاه ونساءه وأموالهم، وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة..... فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها إلى الري"^(٥). بالتالي فإن المغول عندما كانوا متجهين نحو الري في أثناء ملاحقتهم للسلطان صادفوا والدته التي كانت غادرت خوارزم كما ذكر من قبل، فألقوا القبض عليها في طريقهم نحو الري وبعدها اتجهوا نحو المدينة، فهنا لم يتحدث عن الري فقط أشار إلى توجه المغول إليها، أما الموضع الثالث فقد أشار ابن الأثير فيه عن أخبار اجتياح الري فقد وصلها المغول أخيراً عند مطاردتهم للسلطان، وجدّوا في المسير نحوها لأنه بلغهم أنه

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٥.

(٢) إقبال، تاريخ المغول، مرجع سالف، ص ١٧٧.

(٣) غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٨٣.

(٤) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٣٤.

(٥) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٤٤.

مضى منهزماً إليها، لذا سارعوا الخطا خلفه وانضم إليهم عدد كبير من عسكر المسلمين ومن الحشرية، وقد وصلوا الريّ فعلاً على حين غرّة من أهلها، فلم يشعر هؤلاء إلاّ والمغول محيطين بهم، فما كان منهم إلاّ أن ملكوها بسرعة وأذاقوها صنوف العذاب فنهبوا أموالها وسبوا حريمها، واسترقوا أطفالها، وارتكبوا ما لم يسمع بمثله وبعدها غادروها مسرعين في طلب السلطان علاء الدين محمد^(١). ومر المغول بالمدينة بالتالي عندما كانوا يطاردون السلطان ولكن لم يشعر السكان باقترابهم، وربما لم يسمعوهم بالمجازر التي ارتكبها المغول في المنطقة، أو ربما قد ألهمتهم الحياة لذا فلم يدركوا فداحة ما اقترب منهم ، لذا دمر هؤلاء المدينة وقتلوا كل سكانها، ولكن لم يتطرق المؤرخون لذكر أعداد القتلى، أو فيما اذا ترك هؤلاء شحنة فيها أم لا، وقد نقل روايته تلك كل من ابن واصل والسبكي وابن كثير^(٢). ونقل عنه من الكتاب المعاصرين كل من حسن ابراهيم حسن، وعبد السلام فهمي^(٣). ولقد طرق المغول أبواب الريّ مرة ثانيةً وذلك في سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م حيث وصلت إليها طائفة من المغول كان جنكيزخان قد أرسلها إلى تلك المناطق، وكانت الريّ قد استعادت بعضاً من عافيتها بعد أن مرّ بها المغول سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، فقد عاد من سلم من أهلها إليها، واعدوا تعمير ما استطاعوا اعمارهم، ولكن لم يمهلم المغول فسرعان ما وصلوا إلى المدينة ولم يواجهوا الكثير من المقاومة، فما كان منهم إلاّ أن وضعوا السيف في أهلها وقتلوهم، ثم نهبوا البلد وأحرقوه ودمروه وبعدها ساروا منها إلى مدينة ساوة^(٤)، هذا ما ذكره ابن الاثير في أحداث سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م^(٥). بالتالي لم يذكر ابن الاثير السبب الذي دفع المغول لزيارة الريّ مرة ثانيةً ربما مروا بها، وفتشوا المدينة في أثناء قيامهم بمهمة كلفهم بها جنكيزخان في تلك البلاد فوجدوا من الأفضل تدمير الريّ بشكل كامل حتى لا تبقى معقلاً يلجأ إليه سكان البلاد المجاورة ولاسيما أنه عاد وذكر في موضع آخر من الصفحة نفسها بأنهم عندما وصلوا إلى الريّ شاهدوا عسكراً كثيراً من الخوارزمية فما كان منهم إلاّ أن هاجموهم فقتلوا بعضهم، أما الباقي فقد فرّ إلى أذربيجان^(٦)، ربما كان هؤلاء من العساكر الذين

(١) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤٤.

(٢) ابن واصل، مصدر سالف، ج ٤، ص ٤٦؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، مصدر سالف، ج ١، ص ٣٣٨؛ ابن كثير، مصدر سالف، ج ١٧، ص ٩٢.

(٣) حسن، تاريخ الاسلام، مرجع سالف، ج ٤، ص ١٣٨؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في ايران، مرجع سالف، ص ٧٢.

(٤) انظر تعارف ص ٣٥٥

(٥) ابن الاثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٨٣.

(٦) ابن الاثير، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٨٣.

كان جلال الدين منكبرتي قد جمعهم بعد عودته من الهند، وبعد خسارته في معركة السند، ولكن هناك ما يدفع للتساؤل لماذا اجتمع هؤلاء في ذلك المكان ولم يرافقوا السلطان الذي كان في غزنة، ألم يكن للسلطان خطة معينة لمقاومة المغول في المنطقة، أم أنه استسلم لقدره واتجه نحو جمع شتات جنوده وحلّ بعض المشاكل العالقة مع جيرانه وحكام المدن المجاورة له، وفي نهاية الحديث عن مدينة الريّ لابد من التنويه بأن المؤرخ كذلك لم يذكر اسم قائد القوات التي أبادها المغول خارج مدينة الريّ، فقط اكتفى بذكر أنها من العساكر الخوارزمية، وأنها كانت بقرب الريّ، ما يهم في الأمر أنه قد دُمرت مدينة الريّ، وسار المغول منها إلى ساوة^(١) وغيرها من مدن اقليم الجبال.

٣ - محاصرة مدينة قزوين وتدميرها:

تعد قزوين من مدن اقليم الجبال، فلا بد أنها تأثرت بالغزو المغولي كما تأثرت ريفاتها، وهذا ما سيتم تبينه فيما يلي: "منهل الديلم" كما ذكر ابن حوقل^(٢)، و "ثغر الكورة" كما أطلق عليها المقدسي^(٣)، تقع قزوين بالتالي في منطقة حدودية فوق على كاهل أهلها بالتالي عبء الدفاع عن اقليم الجبال^(٤). وهي في منطقة جبلية تبعد عن مدينة الري "سبعة وعشرين فرسخاً" وعن مدينة أبهر^(٥) "اثنا عشر فرسخاً"^(٦). تألفت من مدينتين إحداهما في وسط الأخرى، الصغرى أطلق عليها اسم الشهرستان، ولها سور وأبواب، أما الكبرى فأحاطت بالصغرى ولها كذلك سور احتوى على العديد من الأبواب، ولقد أشرف على إنشائه الخليفة الرشيد عندما مرّ بالمنطقة قاصداً إقليم خراسان، فاعترض أهلها على كثرة ما أصابهم من غزوات شعوب الديلم وطلبوا منه أن يبني لهم سوراً وفعلاً بنى السور، ولقد احتوت المدينة كذلك على مسجد جامع وأسواق عدة^(٧)، عدة^(٨)، ولابد من الإشارة بأن طريقة بناء مدن خراسان واقليم الجبال كانت متأثرة بطريقة بناء المدن الفارسية، والتي تألفت من أقسام ثلاث حرص السكان على توفرهم في مدينتهم وهم:

(١) اليافعي، مرآة الجنان، مصدر سالف، ج ٤، ص ٤٨؛ ابن كثير، مصدر سالف، ج ١٧، ص ٩٢.

(٢) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣١٤.

(٣) المقدسي، مصدر سالف، ص ٣٠٠.

(٤) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٣١.

(٥) انظر تعاريف ص ٣٥٣

(٦) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٣٤٢.

(٧) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣٢٣؛ القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٣١؛ القرماني، مصدر سالف، ج ٣، ص ٤٣٩.

الشهرستان، والقهندز، والربض، كما أنها بنيت بشكلٍ يوفر الحماية لأهلها من الغارات المتكررة التي كانت تتعرض لها، فقد بنيت بالوسط الشهرستان حيث سكن معظم السكان، أحاطت بها الرساتيق والأرباض والتي أمنت إمداد المدينة بالغذاء، أما فيما تعلق بالقهندز أو القلعة فقد بنيت في أحسن موقع من المدينة لكي يلجأ إليها السكان في أوقات الأزمات، وحرصوا بشكلٍ أساسي على بناء الأسوار والتي كانت خط الدفاع الأول للمدينة وعلى هذا النسق بنيت معظم مدن مشرق العالم الإسلامي فقد كان طراز بنائها متعلق بأسبابٍ عسكرية، واقتصادية محضة، وبالعودة إلى قزوين فقد كان أهلها أخلط من العرب والعجم، واحتوت أثاراً كثيرة للعجم وبيوتاً للنار^(١)، و اتصفت بقلّة مياه الشرب وكان شرب أهلها في معظمه من الأمطار، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مدينةً خصبةً وصفها القزويني بقوله: " مدينة كبيرة مشهورة عامرة في فضاءٍ من الأرض، طيبة التربة واسعة الرقعة كثيرة البساتين والأشجار، نزهة النواحي والأقطار، بنيت على وضعٍ حسنٍ لم يبنَ شيءٌ من المدن مثلاً..... ولها واديان وادي اترك ووادي درج"^(٢). هذا ما ذكره القزويني عنها مبيناً مقدار جمالها وخصبها وكثرة أشجارها وإتقان بنائها، ولكن زال كل ذلك على يد المغول، حيث طرق المغول أبوابها عندما كان كل من جبه وسوبوداي يطاردان السلطان علاء الدين محمد، فبعد أن فقدوا أثره، قررا السير باتجاه اقليم الجبال واختراقه ومتابعة السير بعدها نحو اقليم أذربيجان رغبةً منهما في استكشاف المنطقة، وجمع أكبر قدرٍ ممكن من الغنائم والتأكد من وفاة السلطان، وهنا طرقا مدينة قزوين، وقد وردت في خصوص ذلك روايات فارسية وعربية، وهي كذلك الأمر اتصفت بالاختصار وبكونها قليلة، ولكن على الرغم من ذلك أمكن استخلاص منها بعض المعلومات المهمة عن المدينة التي اشتهرت بصناعة السجاد وعدت مستودعاً لتجارة حرير جيلان^(٣).

اتجه القائدان بدايةً إلى قزوين بعد فراغهم من مدينة زنجان، فقد وصلا إلى النواحي المحيطة بالمدينة، ولكن بما أنها كانت منذ القديم ثغراً تصدّ من خلالها هجمات شعوب الديلم لذا فإن

(١) ابن رسته، مصدر سالف، ص ٢٧١.

(٢) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٣١.

(٣) غروسيه، مرجع سالف، ص ٣٢٤؛ أما جيلان: انظر تعاريف ص ٣٤٨

أهلها كانوا متمرسين على القتال ولديهم إمكانيات تمكنهم من الصمود أمام أي حصار^(١)، لذا فإنهم لم يرضخوا للمغول، بل اختاروا القتال واعتصموا بمدينةتهم، عندها حاصر المغول المدينة وجدّوا في حصارها وقتال أهلها من خلف الأسوار ولكنهم لم يستمروا في القتال طويلاً، بل سرعان ما دخلوا المدينة عنوةً، وانتقل القتال إلى داخلها واستبسل أهلها في القتال ضمن أحيائهم التي اجتاحتها المغول وتوزعوا فيها حيث استخدموا السكاكين في القتال، ولقد قتل من الطرفين ما لا يحصى، ولكن لم يدخل المغول في معركةٍ إلاّ وخرجوا منتصرين منها في معظم الأحيان، فما كان منهم إلاّ أن حققوا النصر، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها بلغ عددهم "أربعين ألفاً" وفق معطيات كلّ من ابن الأثير، وابن واصل، والسبكي^(٢)، بينما قدر رشيد الدين الهمذاني العدد "بخمسين ألف رجل"^(٣)، وبعد أن حققوا ما رغبوا فيه دائماً من قتلٍ وسلْبٍ وتدميرٍ، غادروا المدينة متجهين نحو اقليم أذربيجان^(٤)، و مما سلف فإن معظم المؤرخين قد تطابقت رواياتهم فيما يخص مدينة قزوین، فقد أجمعوا على أن المغول قد استباحوها لرفض أهلها الاستسلام، وأن أهلها قاوموهم حتى هلك منهم ما يقارب الأربعين ألفاً، لكن لم تتم الإشارة لمن تولى الدفاع عن المدينة، أسكان المدينة، أم جنود خوارزميين؟، ولماذا كان القتال بالسكاكين فيها وقد حدث قبلاً في همدان؟ ربما طبيعة المنطقة فرضت مثل ذلك النوع من القتال نظراً لضيق دروبها، أم كان السكان متمرسين على القتال بالسكاكين لكون الفئات التي غزتهم من قبل كانت متمرسّةً على مثل هذا النوع من القتال، وفيما يخص هذا الموضوع فقد تحدث ابن أبي الحديد المدائني عن أن أهل قزوین اعتادوا القتال بالسكاكين لكونهم كانوا يحاربون الاسماعيلية باستمرار والذين عُرفوا ببراعتهم في ذلك^(٥)، ومما يلاحظ من الروايات السابقة أيضاً إهمالها الحديث عن كيفية دخول المغول إلى المدينة، أكان ذلك بفعل فتح ثغرة في الأسوار؟، أم اخترقوا أبوابها؟ فقط ذكرت العبارة التالية: "دخلوها عنوةً بالسيف"^(٦)، ربما قد تمكنوا من اعتلاء أسوارها بما ملكوه من سلالم، أو ربما ساهمت آلات

(١) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٤٥؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٣٢٤؛ حسن، تاريخ الاسلام، مرجع سالف، ج ٤، ص ١٣٨.

(٢) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٤٥؛ ابن واصل، مصدر سالف، ج ٤، ص ٤٧؛ السبكي، مصدر سالف، ج ١، ص ٣٣٨.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٦.

(٤) ابن كثير، مصدر سالف، ج ١٧، ص ٩٢؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٣٢٤.

(٥) ابن أبي الحديد، مصدر سالف، ج ١، ص ٤٢.

(٦) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٤٥؛ ابن خلدون، مصدر سالف، ج ٥، ص ٥٧٠.

حصارهم في فتح ثغرة في الأسوار، ولكن من المحال أن يكونوا قد دخلوها بمساعدة أحد من سكانها، وذلك لكونهم استبسلوا في القتال، لذا فمن غير الممكن أن يكون أحدهم قد تعاون مع المغول لفتح الأبواب، حتى وإن حصل ذلك لكان المؤرخون بكل تأكيد سارعوا للإشارة عنه، ولم يشر المؤرخون كذلك الأمر إلى ترك المغول حامية في المدينة، ولكن من خلال معرفة طرقهم في اجتياح المدن فهم بكل تأكيد قد تركوا حامية فيها، وفي نهاية البحث عن مدينة قزوين لم توجد روايات في كتب التاريخ تشير إلى اقتراب المغول منها ثانية، ربما ما حدث فيها أعطى ما بقي من أهلها درساً قاسياً لذا لم يعاودوا الثورة من جديد، أو أن المغول انشغلوا بمدن أكثر أهمية منها قد أنهكت قواهم. ما يهم في الأمر أن المدينة عادت ونشطت من جديد وقد أفاض المستوفي في الحديث عنها^(١)، كما أن القزويني وصفها في كتابه وتحدث عن عمارتها^(٢). وهكذا اجتاح المغول إقليم الجبال مخلفين آثار الدمار والخراب فيه، ولكن بصورة أقل من مدن خراسان، وقد طرقت أبوابه أكثر من مرة وعلى مدى متباعدة ولكن جرى إجمالها فيما سلف لكي تتكامل الصورة ويتكامل معها تواريخ وسير تلك المدن.

ثالثاً: اجتياح المغول لمناطق طبرستان والغور:

اندفع المغول نحو الغرب لتحقيق حلمهم، ولإكمال عملهم الذي شرعوا به، لذا كان لابد لهم من السيطرة على إقليمي طبرستان والغور، وهنا لابد من دراسة الموضوع لمعرفة طريقة اندفاعهم نحوه، أكان اندفاعهم دفعة واحدة، أم على مراحل؟ وكيف واجههم السكان.

١ - التوجه نحو طبرستان أو ما عُرف باسم إقليم مازندران:

بدايةً لابد من التعرف على منطقة طبرستان جغرافياً، ولما أطلق عليها هذه التسمية؟ ثم لماذا عُرفت فيما بعد باسم مازندران؟ وماهي المناطق التي اجتاحتها المغول فيها؟ تقع المنطقة جنوبي بحر قزوين وتمتد بين الريّ وقومس^(٣) وبحر قزوين^(٤)، وتتألف في معظمها

(١) لسترنج، مرجع سالف، ص ٢٥٤.

(٢) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٣١.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٤) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٠١؛ الزهاوي، مرجع سالف، ص ٥٥.

من جبالٍ عاليةٍ تعرف اليوم باسم جبال ألبرز^(١)، و تباين المؤرخون في الحكم عليها فمنهم من عدّها كورة كالمقدسي حيث وصفها بقوله: " كورة سهلية بحرية "^(٢)، ومنهم من عدّها ناحية^(٣)، أما ياقوت الحموي فقال عنها " بلدانٌ واسعةٌ كثيرةٌ يشملها هذا الاسم "^(٤)، و بالتالي على الرغم من تباينهم حول ماهيتها، إلّا أنهم اتفقوا على كبرها وضخامتها، وعلى قربها من ساحل بحر قزوين، واحتوائها على مناطق جبلية، وعلى سهولٍ أيضاً، و لم تكن تلك النقطة هي الشيء الوحيد الذي اختلف حوله المؤرخون، بل أنه أيضاً اختلفت رواياتهم حول تفسير معنى طبرستان، ولما أُطلق عليها فيما بعد لفظة مازندران؟

بدايةً أطلق عليها الجغرافيون العرب تسمية طبرستان، والسبب يعود برأيهم لكثرة أشجارها وتشابكها مع بعضها مما أعجز الجيوش عن اختراقها، لذا طلبوا فؤوساً لقطع الأشجار " ومعنى الفأس باللغة الفارسية التبر " لذا كثرت فيها الفؤوس ف قيل لها تبراستان " أي ناحية الفأس " وعُربت فيما بعد إلى طبرستان " أي مدينة الفؤوس "^(٥). ولكن لسترنج فسّر في العصر الحديث معنى اسم طبرستان تفسيراً مغايراً لما أورده الجغرافيون والمؤرخون في كتبهم حيث قال " بأن الطبر في لغة سكان طبرستان تعني الجبل " لذا قيل طبرستان " أي بلاد الجبل "^(٦)، و ربما كان تفسر لسترنج هذا انطلاقاً من الطبيعة الجغرافية للمنطقة لكون الجبال تشكل الجزء الأعظم فيها، و مهما يكن فإنه مع مرور الوقت بطل اسم طبرستان واختفى نهائياً من مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد وحلّ محله اسم مازندران، والسبب في بطلان التسمية حله المؤرخون كلٌّ بحسب رأيه، فقد أورد القزويني في كتابه العبارة التالية: " العجم يقولون مازندران "^(٧)، يفهم من العبارة السالفة بأن الفرس وغيرهم من سكان الغور والديلم يعرفون المنطقة باسم مازندران، بينما استمر العرب بتسميتها طبرستان أي برأيه أن هذه التسمية قد جاءت من

(١) لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٠٩؛ أما جبال ألبرز: انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٢) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٧٤.

(٣) السمعاني، مصدر سالف، ج ٨، ص ٢٠٤.

(٤) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٢٤.

(٥) السمعاني، مصدر سالف، ج ٨، ص ٢٠٤؛ ابن اسفنديار (محمد بن حسن ت بعد سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م): تاريخ طبرستان، ترجمة:

أحمد محمد نادي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٨٩؛ القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٠١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٣.

(٦) لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٠٦.

(٧) القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٠١.

الأعاجم، بينما إذا ما تم الانتقال لابن اسفنديار فقد قال في ذلك: "مازندران اسم محدث بحكم أن مازندران هي حدودها الغربية"^(١)، فبرأيه أن هذا الاسم قد تم استحداثه في المدة التي كان يعيش فيها المؤرخ أي في القرن السادس - السابع للهجرة/ الثاني عشر - الثالث عشر للميلاد، ولكنه لم يشر إلى الفئة التي استحدثته، ويفهم من كلماته بأن هذه التسمية كانت موجودة، وتطلق على الجزء الغربي من طبرستان، والتي كانت عبارة عن مناطق منخفضة أخفض من الجبال التي تشكلت منها طبرستان، أما ياقوت الحموي فإنه في معجمه قد فسر معنى مازندران بقوله: "اسم لولاية طبرستان"^(٢)، وقد أشار إلى كونه لا يدري متى استحدثت هذه التسمية كما أنه لم يعثر عليها في الكتب السالفة، ولكنه لسبب ما شاعت في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد وبشكل خاص في الوقت الذي اندفع فيه المغول نحو تلك البلاد، وربما انتشر على يد المغول الذين استفسروا عن اسمها عندما اقتربوا من البلاد فأخبرهم أحدهم باسم المناطق الخفيضة أي مازندران، ولم يخبرهم باسم طبرستان، فما كان من هؤلاء إلا أن حفظوا الاسم واستعملوه في حملاتهم وبعد سيطرتهم على المنطقة، لذا زال ذلك الاسم تدريجياً وحل مكانه اسم مازندران. وهناك تفسير آخر ربما يكون اسم مازندران هو الاسم الذي تناقلته ألسن العامة، أما طبرستان فكان الاسم الرسمي للمنطقة، لذا فإن الاسم الذي تناقلته ألسن العامة يبقى ويستمر، أما الآخر فإنه يزول أو يستخدم فقط في المراسلات الرسمية. واتصفت تلك البلاد بحصانيتها ومناعتها لكثرة جبالها، وكذلك بغزارة الأمطار، وكثرة الأشجار، لذا فإن أبنيتها في معظمها بنيت من الخشب والقصب لكثرتيه فيها^(٣)، كما أنها تميزت بكثرة قلاعها وحصونها التي اشتهر منها قلعة استاباد^(٤)، واشتهرت بمدينتها أمل التي عدت قصبة الاقليم ومستقر ولاية المنطقة^(٥)، و تقع بالقرب من بحر قزوين حيث تبعد عن البحر مسيرة أقل من يومٍ واحدٍ وقد اتصفت بكبرها واشتباك عمارتها^(٦)، وجد فيها جامعان أحدهما بني بجانب السوق في منطقةٍ مشتبكة الأشجار، وبني الآخر بالقرب من سور المدينة^(٧). وازدهرت التجارة فيها بفضل موقعها

(١) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، مصدر سالف، ص ٧٣.

(٢) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٥، ص ٤١.

(٣) السمعاني، مصدر سالف، ج ٨، ص ٢٠٤؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٣.

(٤) ابن اسفنديار، مصدر سالف، ص ٧٨؛ لسترنج، مرجع سالف، ص ٤١٢.

(٥) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٧٨ ح ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣٢٣.

(٦) القلقشندي، مصدر سالف، ج ٥، ص ٣٨٤.

(٧) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٧٥؛ لسترنج، مرجع سالف، ص ٤١٠.

المهم فهي تمثل صلة الوصل ما بين مناطق الجبال وساحل البحر، وقد تبع للمدينة العديد من القلاع التي خرب المغول معظمها وزالت من الوجود حتى لم يبق لها اسمٌ وموقعٌ على الخارطة الجغرافية^(١)، ومن مدنها "آمل" التي كانت من الجمال بمكانٍ دفع المقدسي للتغني بها حيث قال: "قصبه طبرستان بلدة لها ذكرٌ وشان، بها ثيابٌ عجيبةٌ حسان، ومرافق وخصائص وبیمارستان، ولهم مع ذلك جامعان.....، حسنةٌ وجوههم وضیةٌ رشاق، متجرٌ مفیدٌ وحاکةٌ حُذاق، كثيرةٌ ذكره وهم تجارٌ فالثوم طيبها، والأرز دقها، وجلا العيون أنهار، بها علمٌ كثيرٌ لا تخلو من إمامٍ ونظار"^(٢). ولكن بكل تأكيد زال كل ذلك على يد المغول وهذا موضوع الفقرة التي سيتم التطرق إليها، وفيما تعلق بالمعلومات الخاصة باجتياح المنطقة فإنها قليلة وعلى الرغم من قلتها فقد تباينت بين مؤرخٍ وآخر، ومع ذلك تم جمع بعض الروايات ومقارنتها مع بعضها بعضاً لكي يتم في نهاية الأمر رسم صورة واضحة عن ذلك الاجتياح، وبدايةً لابد من قراءة ما كتبه ابن الأثير عن تلك الواقعة حيث قال: "لما أيس التتر من ادراك خوارزم عادوا، فقصدوا مازندران فملكوها في أسرع وقتٍ، مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها، وامتناع قلاعها، فإنها لم تزل ممتعةً قديم الزمان وحديثه، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً لأمرٍ يريده الله ولما ملكوها قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد"^(٣)، وفي حديثه السالف كان ابن الأثير يشير إلى فرقة المغول التي تألفت من كل من القائدين: جبه وسوبوداي والتي كلفت بطبيعة الحال بملاحقة السلطان كما ذكر من قبل. ولكن يذكر المؤرخ كون المغول يؤسوا من القبض على السلطان وذلك بعد أن اختفى في قرى مازندران، واتجه بعدها نحو آبسكون، لذا فإنهم غادروا المنطقة واتجهوا نحو اقليم مازندران فتمكنوا بحسب روايته من السيطرة عليه في مدةٍ قصيرةٍ لم يحددها المؤرخ، ولكنه تفاجأ من تلك السرعة، وذلك لكون المنطقة تمتعت بحصانةٍ ومناعةٍ عاليتين لكثرة قلاعها وصعوبة مسالكها تلك المسالك التي استعصت على الفاتحين العرب فلم يتمكنوا من فتحها وتأخر فتحها إلى زمن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ت ٩٠هـ/٧٠٨م^(٤)، وختم روايته بنعت المغول بالملاعين، وأنهم ملكوا البلد قسراً، بينما هو فسر ملكهم لها لأمرٍ أراده الله، وبعد ملكهم لها أمعنوا فيها قتلاً وسبياً ونهباً كما أنهم أحرقوا البلد، ولم يذكر المؤرخ أية معلوماتٍ إضافية، فهو أطلق على الاقليم

(١) المرجع نفسه، ص ٤١٠.

(٢) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٧٥.

(٣) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٤٤.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٧.

اسم مازندران وليس طبرستان، كما أنه لم يفصل في عملية اجتياح المغول للإقليم بل تحدث عنه بشكل عام ومختصر، ولم يشر إلى مقاومة السكان لهم الذين عُرِفوا بمدى شجاعتهم وقوتهم وتمرسهم على القتال. هذا ما أورده ابن الأثير ونقل عنه فيما بعد كل من ابن واصل، وابن أبي الحديد، والدوادري^(١) دون زيادة أو نقصان، وإذا ما تركت الرواية السالفة، وتمت قراءة ما كتبه ابن عرب شاه عن الحادثة فيلاحظ بأنه ذكر اسم مازندران في موضع واحد وهو عندما تحدث عن المدن التي استخلصها كل من جبهه وسوبوداي في أثناء ملاحقتهم للسلطان، وذكر إلى جانبها اسم آمل أيضاً حيث قال: "استخلص جوين وطوس، وأعدما مابهما من نفائس ونفوس، وحام وخبوشان واسفيرايين ومازندران وآمل وقومس، وتلك البلاد فمحو من كتب كتائبها أسطارها وأطفئوا منارها وظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها، وأجروا من الفتن كالدماء بحارها واضرموا من الشرور نارها كل ذلك قتلاً ونهباً وسبياً وسلباً، وهدماً وإحراقاً وصدماً، وإزهاقاً وردماً واغراقاً"^(٢)، وبالتالي تقاطع المؤرخ مع ابن الأثير في كثير من النقاط أهمها: بأن الاجتياح تم من قبل الفرقة المكلفة بملاحقة السلطان، وأن مصير المنطقة كان النهب والحرق وقتل السكان، ولكنه زاد على ذلك بذكر اسم آمل، ذلك الاسم الذي عاد وتطرق له في رواية أخرى وذلك عندما تحدث عن مصير حريم السلطان علاء الدين محمد والذين قصدوا بحسب روايته قلاع آمل ومكثوا فيها آمينين لمدة من الزمن، ولكن سرعان ما قصد المغول المنطقة وحاصروا القلاع واستولوا عليها حيث اعتقلوا من بها، وقتلوا قسماً من سكانها، واستولوا على ما احتوته من أموال ولقد تم ذلك بحسب روايته سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٣). لم يحدد ابن عرب شاه اسم القلاع، فقط اكتفى بالقول أنها قلاع آمل، كما أنه لم يحدد من كان فيها من الحريم، فقط أشار إلى كونهم من حريم السلطان، ولم يحدد زمن مدهمتها أكان حين داهما منطقة مازندران، أو بعد فراغهم من ذلك؟، الأقرب للصحة بحسب الروايات أن القوات المغولية كانت تقوم بعملية تمشييط للمنطقة، وعندما دمرت بعض مناطقها المشهورة ولاسيما مدينة آمل وردتها أنباء بأن حريم السلطان في إحدى قلاع المنطقة التي كثرت في المكان، لذا سرعان ما اتجهوا نحوها واستولوا عليها وبعدها غادروا المنطقة ليقوموا بمهام أخرى، وإذا ما تركت الروايات العربية وتم الانتقال لما أورده المؤرخون

(١) ابن واصل، مصدر سالف، ج٤، ص٤٥؛ ابن أبي الحديد، مصدر سالف، ج١، ص٤٠؛ الدوادري، مصدر سالف، ص٢٥٠.

(٢) ابن عرب شاه، مصدر سالف، ص٥٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٠٩.

الفرس فإنه يلاحظ الآتي: بأن رشيد الدين الهمذاني تحدث عن مازندران في أثناء حديثه عن مسيرة جبهه ، فقد اتجه ذلك القائد نحو مازندران عن طريق جوين، وتمكن من الوصول إلى المنطقة حيث قتل خلقاً كثيراً من سكانها ولاسيما في دار الملك آمل كما أطلق عليها، وفي بلدة استراباد^(١)، وبعدها تحرك نحو سمنان^(٢)، بالتالي فإن رواية رشيد الدين الهمذاني تميزت باختصارها وقلة معلوماتها تلك المعلومات التي تحدثت عن اجتياح المنطقة من قبل القائد جبهه ذلك القائد الذي أقدم على قتل سكان مازندران وبشكلٍ خاصٍ في مدينتها آمل، واستراباد، بالتالي أضاف رشيد الدين الهمذاني إلى الروايات السابقة بأن فصل في أسماء مدن مازندران، ولكنه لم يفصل في مصيرها، فقط تحدث عن قتل سكانها ومغادرتها سريعاً نحو مدينة أخرى. ولم يذكر السبب الذي دفع المغول إلى التحرك نحوها وتهديمها، ربما قد أخافتهم حصانتها فرغبوا في تدميرها لكي لا تتحول لمعقلٍ للثوار، أو لتأديب سكانها الذين ساعدوا السلطان الخوارزمي. هذا كان ما ذكره رشيد الدين الهمذاني أما الجويني فقد اقترب من الرواية السابقة وزاد عليها بعض الشيء بأن جبهه عندما وصل إلى مازندران عمد إلى تدميرها وقتل سكانها وبشكلٍ خاصٍ في آمل حيث أعطى أوامره لجنوده هناك بقتل جميع سكانها، وبعدها أمر بمحاصرة القلاع التي احتمت بها حريم السلطان حيث تمكن فيما بعد من الاستيلاء عليها^(٣). ولكنه في مكانٍ آخر يناقض نفسه حيث عدّ القائد سوبوداي هو المسؤول عن محاصرة القلاع التي تحصنت فيها حريم السلطان، وقد تمكن من الاستيلاء عليها بعد خمسة عشر يوماً بسبب انعدام المياه فيها^(٤)، ولكن لابد من الإشارة بأن رواية الجويني الثانية مشكوكٌ فيها، وذلك لكون معظم الروايات قد تحدثت عن كون جبهه هو الذي اتجه نحو تلك المناطق وحاصر قلاعها وليس سوبوداي، وفي النهاية فقد أخضع كلٌّ من غروسيه وبارتولد^(٥) هذه الحوادث إلى كثير من المناقشة وتوصلا في نهاية الأمر إلى أن تلك المناطق قد دُمرت فقط في أثناء مرور الفرق التي كُلفت بملاحقة السلطان، وأن القائد الذي كُلف بذلك هو جبهه وأنه اتجه نحو المنطقة في صيف ٦١٨هـ/ ١٢٢١م وذلك لكون قلاع المنطقة قد سقطت لخلوها من المياه، بعد أن فقد السكان الأمل في سقوط الأمطار،

(١) انظر تعاريف ص ٣٦٢

(٢) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٤٥.

(٣) الجويني، مصدر سالف، ج ١، ص ١٤٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٠.

(٥) غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٨٥؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٠١-٦٠٨.

ولاسيما أن تلك المناطق الجبلية مشهورة بغزارة أمطارها شتاءً ، لا بل حتى في بعض أوقات الصيف، ولكن لم يتطرق أي من الباحثين إلى أن جنكيزخان قد طَرَق تلك المناطق بنفسه، أو أنه أرسل أحد أولاده نحوها، ولكن ما يهم في الأمر أنها لم تطرق مرةً ثانيةً من قبل المغول^(١). ذلك كان كل ما ذكره المؤرخون عن مازندران وآمل رواياتٍ قليلةٍ، لكنها تحدثت عن مصير الاقليم وحاله التي آل إليها، تلك الحال التي شابته حال مدنٍ عدةٍ قد طرقتها جحافل المغول وحولتها إلى خرابٍ كاملٍ لأسبابٍ وجدها هؤلاء برأيهم الحافز لهم لتدمير تلك المناطق.

٢- اجتياح المغول لمناطق الغور:

سيطرت الدولة الخوارزمية على مناطق الغور، وقضت نهائياً على الدولة الغورية كما ذكر من قبل، لذا فإن تلك المناطق عدّت من ممتلكاتها فحتماً لا بد للمغول من الاندفاع نحوها، واجتياحها، وذلك بهدف الاستيلاء على بقية ممتلكات الدولة الخوارزمية، وبهدف تأديب السلطان جلال الدين منكبرتي الذي اتجه نحوها، وأعاد ترتيب قواته من جديد، لذا لا بد من التعرف على موقعها، وكيفية اجتياح المغول لها، و يقع اقليم الغور بالقرب من ولاية خراسان^(٢)، وهو عبارة عن المناطق الجبلية الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من هراة^(٣)، وتباين المؤرخون في تحديد ماهيته فمنهم من عدّه ولاية^(٤)، ومنهم من أطلق عليه لفظة بلاد^(٥)، وثالث عدّه بمثابة وديان تتبع للمناطق الجبلية التي تعرف الآن بكوه بابا وسفيدكوه "الجبل الأبيض" والتي تتصل عن طريقها جبال خراسان

بسلسلة جبال هندوكوش^(٦)، وآخر أطلق عليه اسم مملكة^(٧)، و مهما كان الأمر فهو يعدّ من المناطق الجبلية العامرة التي اشتهرت بكثرة عيونها وأنهارها، وببرودة طقسها، ومناعة موقعها وحصانته، إضافةً إلى كونها كانت مركزاً للدولة الغورية التي حكمت لمدّة من الزمن واشتهرت من

(١) لسترنج، مرجع سالف، ص ٤١٢؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٨٥؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٠١-٦٠٨.

(٢) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣٧١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٥.

(٣) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٤٨٨.

(٤) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٤١٨؛ القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٢٧.

(٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٥.

(٦) اقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، مرجع سالف، ص ٢٠٩.

(٧) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣٧١.

مدنها كل من: الباميان، وغزنة، وفيروزكوه^(١). بعد ذلك العرض الجغرافي لمنطقة الغور، لا بد من التعرف على المدن التي سيطر عليها المغول في ذلك الاقليم:

١ - تدمير مدينة الباميان:

اتجه المغول نحو مدينة الباميان ودمروها، والتي عُرفت فيما بعد باسم مدينة "ماوبالغ" أي "مدينة البؤس" فلماذا أطلق عليها هذه التسمية؟ هذا ماسيتم توضيحه فيما يلي: بدايةً تقع مدينة الباميان بين مدينتي بلخ وغزنة، حيث تبعد عن الأولى مسافة عشرة مراحل^(٢)، وعن الثانية ما يقارب خمسة وثلاثين فرسخاً^(٣)، في موقعٍ عدّ صلة الوصل بين جبال هندوكوش وسلسلة كوه بابا^(٤)، و اختلف المؤرخون في تحديد نسبة المدينة إلى أي اقليم فمنهم من عدّها مدينة تابعة لطخارستان^(٥)، وآخر جعلها من مدن خراسان والحقها بمرور الشاهجان^(٦)، ولكن اتفق معظمهم على إلحاقها بمنطقة الغور حيث عدّوها كورة تؤلف القسم الشرقي من بلاد الغور^(٧). و وصفت في معظم كتب الجغرافيين بكونها قلعة حصينة، احتوت على بيت عبادة قديم ضمّ صنمين دُعي أحدهما بسرخ بت، والآخر بختك بت^(٨). إذ يعتقد أنها كانت منذ القديم مركزاً دينياً التجأ إليها السكان لمناعتها فأقاموا معبدهم فيها وتقرّبوا إلى آلهتهم هناك، لم يوجد في المدينة -وذلك لطبيعتها الجبلية وبرودتها- بساتين كثيرة، فقد كانت الفواكه تُجلب إليها^(٩). و لقد وصفها المقدسي بقوله: " احدى فرض خراسان وخزائن السند، البرد فيها شديد، والثلوج كثيرة، في المدينة جامع وأسواق عامرة في أرباضها ولها أربعة أبواب تقضي إلى خارج المدينة"^(١٠)، و يفهم من وصفه السابق على أنها كانت تتبع إلى كل من اقليمي خراسان والغور وذلك لكون منطقة السند قريبة من غزنة القريبة منها، وقد وصفها بكثرة البرودة والثلوج وذلك لكونها مرتفعة، كما أنها

(١) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٢٠٨؛ القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٢٧؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٤٨٨. أما فيروزكوه: انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٧.

(٣) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٤٣٧؛ لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٦٠.

(٤) غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٩٦.

(٥) ابن رسته، مصدر سالف، ص ٢٨٩.

(٦) الحميري، مصدر سالف، ص ٧٤.

(٧) السمعاني، مصدر سالف، ج ١، ص ٦١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٧؛ لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٦٠.

(٨) السمعاني، مصدر سالف، ج ١، ص ٦١؛ ياقوت الحموي، مرجع سالف، ج ١، ص ٣٩٣.

(٩) ابن حوقل، مصدر سالف، ص ١٧٥؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٧.

(١٠) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٣٩.

كباقي مدن المنطقة حوّت على جامع، وأسواق عامرة وذلك بسبب موقعها الذي عدّ صلة الوصل بين خراسان وبلاد الهند، كما أنها احتوت الكثير من الأرباض، ووجد فيها أيضاً مدرستان أسستا في مرحلة لاحقة للمقدسي وذلك من قبل أتباع الوزير نظام الملك السلجوقي^(١)، و مهما يكن فقد زال كلّ ذلك على يد المغول. ففي نهاية شهر سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، وبداية سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م فرغ جنكيزخان من قلعة الطالقان كما سبق استعراض ذلك، فغادرها مع قواته حيث كان برفقته بعض أولاده الذين فرغوا من الأعمال التي كلّفهم بها، و في أثناء مغادرتهم وردته أنباء مفادها أن السلطان جلال الدين وصل غزنة ودخلها، وبدأ يعدّ بعض القوات للصدام مع المغول وتأديبهم، لذا فما كان منه إلا أن عقدّ العزم على التوجه نحوه، فأعطى الأوامر لقواته بالتحرك والسير نحو غزنة، ولابد لهم في أثناء المسير من المرور بمنطقة الباميان وذلك لكونها تقع شمال مدينة غزنة، وتبعد عنها عدّة فراسخ، و اقتربت القوات المغولية من المدينة وكعادة المغول أرسلوا الرسل لدعوة أهلها للاستسلام وقبول الطاعة ولكنهم رفضوا وعصوا مما دفع جنكيزخان لفرض حصارٍ حولها، ولكن لم يتطرق المؤرخون في حديثهم عن المدينة للإشارة للأسباب التي دفعت سكانها لعدم التسليم ربما اغترّ هؤلاء بحصانة قلاعهم، أو لشجاعتهم وكثرة معداتهم لذا رفضوا التسليم^(٢)، أو أنهم اعتقدوا أنه لصعوبة تضاريس المنطقة لربما سيحاصروهم المغول لمدة، وبعدها سيغادرون، نظراً لبرودة المنطقة وصعوبة الحصول على إمدادات، أو أنهم اعتقدوا أن السلطان جلال الدين سوف يساعدهم وذلك لقربه منهم، ولكن شاءت الأقدار أن تصيب إحدى السهام التي أطلقها الجنود من داخل القلعة صدر موتوجن بن جغتاي حفيد جنكيزخان وترديه قتيلاً^(٣). وكان موتوجن من أحبّ الأحفاد لقلب جنكيزخان، وكما حدث من قبل في أثناء محاصرة مدينة نيشابور أُعيدت الكرة فقد أصرّ الخان على الاستيلاء على المدينة ومحوها من الوجود اكراماً لحفيده، ولكون هذا الفعل عدّ بالنسبة إليه من الأفعال التي ليس بإمكان المغول تحملها، وفعلاً جدّوا في حصارها الذي استمر لمدة شهرٍ واندفع حنكيزخان بنفسه نحو

(١) معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي، مرجع سالف، ص ١٣٥.

(٢) ابن العبري، مصدر سالف، ص ٢٣٥؛ اقبال، تاريخ المغول، مرجع سالف، ص ٩٣؛ رنسيما، مرجع سالف، ج ٢، ص ٤٢٣؛ فاروق، تاريخ أفغانستان، مرجع سالف، ص ٣٢.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٤٥؛ ابن العبري، مصدر سالف، ص ٢٣٥؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٩٦؛ طقوش، مرجع سالف، ص ٦٨.

أسوارها مما أشعل الحماس في صدور عساكره فتسلقوا أسوارها واستولوا عليها^(١). وبعد أن سيطروا عليها كان مصيرها كما تحدث عنه الهمذاني حيث قال: " ولما فتحها رمى الياسه وقال: اقتلوا جميع مافيه من أنواع الحيوان من أصناف الحيوان والآدمي وأنواع البهائم والوحوش والطيور ولا تأخذوا منهم أسيراً واجعلوها برية ولا تعمروها من بعد ولا يسكنها أحدٌ من الآدميين ففعلوا وسموها مأووفرقان وإلى هذه الغاية لم يسكنها أحدٌ وهي على حالها بائدة عاطلة"^(٢). يفهم مما سبق مقدار حزن الخان على حفيده لدرجة دفعته لعدم تطبيق أحكام الياسه فيما يخص الغنائم، بل إنه نفذ بالمدينة أحكام الإبادة الجماعية بأن أمر بإبادة كل سكانها فلم يأسروا أحداً منهم كعادة المغول، ولم يقوموا بإرسال الصناع إلى منغوليا بل قتل الجميع وساوى المدينة بالأرض وأعطى أوامره بأن لا يسكنها فيما بعد بشريّ البتة، لذا أطلق عليها اسم مأووفرقان^(٣)، أو ماوبالغ والتي تعني مدينة الشر^(٤)، أو مدينة البؤس^(٥). وبعدها غادر المكان متوجهاً إلى غزنة ، وارتبطت بتلك الحادثة قصة يرويها الهمذاني عن الطريقة التي أخبر بها جنكيزخان ولده عن مقتل ابنه، وخلاصة القصة: أن جنكيزخان كان يتناول الطعام بعد الواقعة مع أولاده: أوكتاي، تولوي، وجغتاي فأخذ الخان يتمتم بكلمات مفادها أن اولاده لا يستجيبون لطلباته، واتهمهم بالعقوق، وكان يرمق جغتاي بنظراته في أثناء الحديث فأصاب الهلع قلب الابن وظن أن كلمات والده موجهة نحوه فاتجه نحو والده وأظهر له الطاعة، واستعداده التام لقبول كل الأحكام التي تصدر بحقه، لذا عندما اطمأن جنكيزخان إلى طاعة ولده له، أخبره بعد ذلك بأن ولده قد قُتل وأنه يمنعه من إظهار أية إشارة حزنٍ أو غضبٍ، عندها صُنع جغتاي للخبر وتمالك نفسه، ولم يبدِ أية ردة فعلٍ ولكن بعد انتهائه من طعامه غادر المجلس واتجه نحو الصحراء مستسلماً لأحزانه^(٦). هناك قصص كثيرة خُيكت عن الأسرة المغولية وهي على الرغم من كونها روايات شعبية إلا أنه يمكن أن يستخلص منها أشياء كثيرة، فالقصة السالفة تدل على مقدار الحزن الذي انتاب جنكيزخان وولده لفقداهما موتوجين أكبر أحفاد الخان، و وريث جغتاي، وقد كان من القادة الشجعان الذين تقانوا في القتال، لذا خسر المغول بوفاته قائداً كان يعتمد عليه بكثرة. وفي نهاية الحديث عن مدينة الباميان فقد

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٤٥؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٩٦؛ عبد الحكيم، مرجع سالف، ص ٢٠٦.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٤؛ ابن العبري، مصدر سالف، ص ٢٣٥؛ العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، مرجع سالف، ص ١٢٦.

(٤) اقبال، تاريخ المغول، مرجع سالف، ص ٩٣؛ العريني، المغول، مرجع سالف، ص ١٣٣.

(٥) الجويني، مصدر سالف، ج ١، ص ١٣٩.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٤-٢٥٥.

أُهمَل كالعادة الإشارة إلى القوات التي تولت الدفاع عنها ومن نهض بهذه المهمة، ربما كان فيها حامية خوارزمية، أو قواتٍ محلية، ولكن بما أن المدينة كانت تابعة للدولة الغورية ولم تكن بيد الدولة الخوارزمية منذ وقتٍ طويلٍ، لذا يُعتقد بأنها تبعت تبعيةً اسميةً للخوارزميين الذين ربما عينوا فيها أحد الحكام المحليين وفرضوا عليه ضرائب معينة، كذلك الأمر لم تتطرق المصادر لذكر أعداد القوات المغولية المحاصرة للمدينة، وكم كانت خسائرها، فقط تمت الإشارة إلى موت ذلك القائد، ولكن يعتقد أنهم خسروا عدداً لا يستهان به، وذلك لشدة انتقامهم من المدينة، ذلك الانتقام الذي أحالها إلى خرابٍ لأكثر من قرنٍ من الزمن^(١).

٢- اجتياح المغول لمدينة غزنة وصدامهم مع السلطان جلال الدين منكبرتي:

تعدّ غزنة من المدن التي كلّفت المغول غالياً، وذلك لكونهم أُصيبوا بالقرب منها بأول خسارةٍ لهم أمام السلطان جلال الدين منكبرتي، ولكنهم سرعان ما تداركوا أغلاطهم وانتصروا عليه على ضفة نهر السند وأنزلوا به خسارةً كبيرةً، لذا سيتم في هذه الفقرة التطرق للحديث عن مدينة غزنة وحالها، وعن استعدادات السلطان فيها، وعن معركة بيروان، ونتائجها، وموقعة السند، ونتائجها أيضاً بشيءٍ من التفصيل.

أ- حال غزنة غداة وصول السلطان جلال الدين منكبرتي إليها:

تقع غزنة على الطريق الواصل بين بلخ والباميان وبلاد الهند^(٢)، في جنوبي شرقي الباميان حيث تبعد عنها كما ذكر أبو الفداء من قبل مسافة "خمسة وثلاثين فرسخاً"، أو "ثمان مراحل كما ذكر في موضعٍ آخر"^(٣)، ولقد تباين المؤرخون في نسبتها إلى أية إقليم فمنهم من عدّها من أعمال الباميان^(٤)، وآخر عدّها من المدن التي تقع في طرف خراسان وتقتل بين خراسان والهند^(٥)، ومنهم من جعلها من بلاد السند^(٦)، وآخر وصفها بقوله: "إحدى فرض خراسان وخزائن

(١) براون، مرجع سالف، ص ٥٦٠.

(٢) لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٧٢.

(٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سالف، ص ٤٣٧، ٤٣٥.

(٤) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٤٣٥؛ ابن حوقل، مصدر سالف، ص ٣٧٥.

(٥) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٣، ص ٧٩٨؛ القزويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٢٦.

(٦) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، مصدر سالف، السفر الثالث، ص ١٦٩.

السند" ^(١). أي جمع بين الاقليميين، ويفهم مما سلف أن غزنة شغلت موقعاً استراتيجياً مهماً وذلك لكونها تقع في نهاية اقليم خراسان وتعد صلة الوصل بين ذلك الاقليم وبلاد الهند ولاسيما أنها قريبة من نهر السند والذي يُعدّ شريان الحياة لتلك المنطقة التي اشتهرت بتجارتها وكثرة الثروات فيها ^(٢)، و تألفت غزنة كعادة مدن المنطقة من قلعة بُنيت وسط المدينة وكانت مقراً لحكامها، ومن الشهرستان والذي تألف بدوره من مسجد جامع، وأسواقٍ عدة، أحاط به رِبضٌ وجِدّت فيه باقي أسواق المدينة ومساكن السكان، وأحاط بكلّ ذلك سورٌ ضمّ أربعة أبوابٍ وهي: باب الباميان، وباب سيسان، وباب كردن، وباب السير ^(٣). ولقد أُطلق على المدينة اسمان أحدهما أطلقه عليها العامة وهو غزنة ^(٤)، أو غزنين، كما أسماها المؤرخون وهي كانت مدينة جليلة اتصفت بصفاتٍ كثيرة فرضتها عليها طبيعة المنطقة التي بُنيت فيها، ولقد أجمل صفاتها تلك ابن فضل الله العمري حيث قال: "لم أرَ بلدة في الصيف أطيب وفي الربيع أشبه، وفي الخيرات أنظف من غزنة، وهي قليلة الأشجار ولهذا صح هواؤها" ^(٥). عُرِفَت غزنة بكونها عاصمة الدولة الغزنوية التي اهتمت بها وحرصت على تحويلها إلى مركزٍ تجاريٍّ مهمٍّ، ولكن أصابها الخراب والدمار على يد الدولة الغورية في سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م، و صُمّت إلى أملاك تلك الدولة، وعادت فيما بعد وازدهرت من جديد، واستعادت شيئاً من نشاطها ورمم سكانها بعضاً من أبنيتها، ولكنها تعرضت إلى دمارٍ كاملٍ على يد المغول، أما حالها قبل قدوم المغول إليها فكان كالتالي: عدّت غزنة من أملاك السلطان جلال الدين منكبرتي فقد منحه إياها والده بعد أن تمّ القضاء على الدولة الغورية، ولكن بعد أن توفي السلطان علاء الدين محمد، غادر جلال الدين باتجاهها وذلك في الخامس عشر من شهر ذي الحجة من سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ^(٦)، وفي طريقه نحوها مرّ بمدينة زوزن ^(٧)، ولكن لم يستقبله سكانها لخوفهم من تبعية عملهم ذاك والذي سيؤدي لا محال إلى اقتراب المغول من مدينتهم، وطرقهم أبوابها، ولن يستقر لهم بالٌ إلا بتدمير المدينة وتحويلها إلى خرابٍ، فما كان منه إلا أن تابع المسير باتجاه غزنة والتي كانت تعاني من

(١) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٣٩.

(٢) لسترنج، مرجع سالف، ص ٣٨٧.

(٣) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٣٩.

(٤) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٢٠١؛ الحديثي، أرباع خراسان، مرجع سالف، ص ٤١٨.

(٥) ابن فضل الله العمري، مصدر سالف، السفر الثالث، ص ١٦٩.

(٦) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤١.

(٧) انظر تعاريف ص ٣٥٥.

فوضى عارمة، وذلك لكونها كانت تحكم من قبل "كبر ملك" والذي كان نائباً للسلطان فيها، ولكنه في سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م ترك غزنة وتحرك نحو اقليم سيستان^(١) تلبيةً لطلب أمين ملك حاكم هُراة والذي طلب مساعدته في الاستيلاء على الاقليم السالف^(٢)، وفي تلك الأثناء اغتتم حاكم مدينة بيشاور^(٣) اختيار الدين محمد بن علي خربوست، وكان من قدماء الغور فرصة خلو المدينة من حاكمٍ يدير شؤونها، فما كان منه إلا أن قدم غزنة على رأس جيشٍ مؤلفٍ من "عشرين ألف مقاتل"، وتمكن من دخولها على الرغم من معارضة كلٍّ من صلاح الدين محمد النسائي "حاكم قلعة غزنة"، وشمس الملك شهاب الدين ألب سرخسي "رئيس الإدارة المدنية" لهذا الأمر، لكنهما رضا في نهاية الأمر إلى حين ظهور فرصة مناسبة يتمكنان فيها من التخلص منه^(٤)، وفعلاً هُيأت الظروف في مأدبةٍ أقيمت في المدينة حيث تمكن صلاح الدين من قتل محمد بن علي خربوست بخنجره كما ذكر الجويني^(٥)، بينما أورد النسوي روايةً مغايرةً لذلك حيث جعل من ميدان المدينة مسرحاً لتلك الحادثة، فقد استغل صلاح الدين النسائي اجتماع الناس والقادة في الميدان وعمد إلى خنجره فغرزه في صدر خربوست وأرداه قتيلاً، وطلب من أعوانه أن يحاصروا منازل أتباع خربوست، وأمرهم أيضاً بالقبض على ابن أخت خربوست "تاج الدين" حيث أمر بصلبه^(٦)، ووضع يده على المدينة قبل أن يتمكن الغور من ادراك فداحة ما أصابهم وطلب المساعدة من بعض القوات التي كانت تعسكر على بعد نصف فرسخ من المدينة^(٧)، وسواء أكانت رواية الجويني هي الصحيحة، أم رواية النسوي فقد كان خربوست شخصية غير مرحبٍ بها، ربما لانتمائه القبلي فقد كان من الغور، وكان سكان غزنة وقادتها من الأتراك، أو ربما لكونه قد استولى على السلطة، أو لسوء تصرفاته ولاسيما أنه رفض السماح لأمين ملك بدخول غزنة ومشاطرته حكمها. ولكن من مجرى الأحداث يستخلص بأنه كان شخصيةً غير محبوبة، فلو أحبه جنده لكانوا على الأقل سارعوا إلى دخول المدينة والانتقام لمقتله، ولكن لم يجرؤ أحدٌ من الجنود على الاقتراب على الرغم من ضخامة عددهم والذي بلغ "العشرين ألفاً"، أو أن هناك

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٢) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦١٨.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٤١

(٤) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤١.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢.

(٦) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٢.

(٧) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦١٨-٦١٩.

أسباباً أخرى منعتهم لربما لخوفهم من قادة غزنة، أو لعدم رغبتهم في اقحام أنفسهم في معركة خاسرة، أو لكونهم مرتزقة لا يهتمهم من يتولى قيادتهم، بل الأهم الحصول على الأموال، وبحسب رواية الجويني فقد قدم أمين ملك إلى غزنة بعد يومين من الحادثة حيث تسلم مقاليد السلطة فيها، وترك لصالح الدين النسائي حرية إدارة شؤونها، وأقدم على سجن الوزير شمس الملك ألب سرخسي لأسباب غير معروفة وغادر المدينة^(١)، حيث تمكن من إلحاق الهزيمة ببعض الفرق المغولية الصغيرة والتي كانت منتشرة في أنحاء المنطقة وذلك في أثناء انشغال جنكيزخان بحصار قلعة نصرت كوه^(٢)، و بالعودة إلى وضع غزنة فقد ورد لدى الجويني بأنه بعد أن غادرها أمين ملك وترك فيها صلاح الدين النسائي، عمّد الغور إلى الثورة وقتلوا حاكم المدينة وعينوا بدلاً عنه كلاً من عمدة ملك ورضي ملك" وأصلهما من مدينة ترمذ"^(٣). ولكن عند مقارنتها برواية النسوي يلاحظ وجود اختلاف واضح فيها، فهو لم يتحدث عن ثورة الغور، بل يتحدث عن شخصية رضي ملك والذي كان بحسب روايته يشغل وظيفة المشرف على الديوان في غزنة، ورأى صلاح الدين النسائي بأنه من الصلاح وخوفاً من استقلاله أن يسلمه أمور الديوان كلّها وفعلاً هذا ما حصل، ولكن رضي ملك تاه واستغل صلاحياته لخدمة أهوائه الشخصية، وجمع مبالغ كبيرة من الأموال، ولخوفه من صلاح الدين الذي تنبّه لتصرفاته، فقد أقدم على إغراء بعض الفئات على قتله وفعلاً قتلوه، واستقل بعدها بحكم غزنة وبقي على هذا الوضع إلى أن وصل إلى المدينة السلطان جلال الدين حيث تغاضى عن تصرفاته لمدة من الزمن ، ولكنه بعد النصر في موقعة بيروان أمر بالقبض عليه وطالبه بأموال الديوان التي اختلسها وقتله بعد ذلك^(٤). بالتالي فإن النسوي جعل من رضي ملك حاكماً على غزنة عند قدوم السلطان لها، ولكن بالعودة إلى رواية الجويني فقد زاد على رواية النسوي روايات أخرى مفادها أن رضي ملك عُيّن حاكماً على غزنة ، وقد صادف تعيينه خروج قبائل التركمان من منطقة ماوراء النهر واجتماعها في بشاور تحت قيادة سيف الدين اغراق، فما كان من رضي ملك إلا أن طمع في محاربتهم رغبةً منه في الاستيلاء على مناطقهم، ومدّ نفوذه إلى الهند، وبالفعل اتجه نحوهم واصطدم معهم في معركة هلك فيها معظم جيشه وهزم في المعركة، في تلك الأثناء كان عمدة الملك قد تولى

(١) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٩٢.

(٢) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦١٩.

(٣) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٩٢.

(٤) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٢.

حكم غزنة لحين عودة أخيه، ولكن لم تفارق المشاكل المدينة فقد تقدم نحوها كل من أعظم ملك في القلعة التي تحصن بها وسط غزنة، وتمكنا من الاستيلاء عليها بعد حصارٍ دام أربعين يوماً، ولكن لم يُعرف مصير عمدة الملك هل قتل أم أُسر، أم استسلم بعد ذلك لتلك القوات؟ ، ما عُرِف هو أن الوزير شمس الملك الذي تخلص من الحبس على يد السلطان عند قدومه إلى المدينة وصل إلى غزنة في تلك الأثناء ليبشر بقدوم السلطان جلال الدين منكبرتي وفعلاً بعد أسبوع قدم السلطان للمدينة^(١). وقد وصل إليها سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وقد استبشر الناس بقدومه، وعبر عن ذلك النسوي حيث قال: "تباشر الناس بوصوله تباشير الصوام بهلال الفطر، وذوي المحول والإعدام بانهلال القطر"^(٢). بالتالي فقد كان بغزنة عندما وصل السلطان إليها كل من أعظم ملك ، والوزير شمس الدين، بينما عتّمت معظم الروايات حول مصير كل من رضي ملك وعمدة الملك.

ب- موقعة بيروان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م:

استقر السلطان جلال الدين منكبرتي في غزنة، وبدأ فيها بإعادة جمع قواته وتجهيزها لكي يتمكن بواسطتها من مواجهة جيوش المغول التي وصلتها أنباء مفادها أن السلطان يعدّ الجيوش في غزنة لمواجهتهم، فما كان منهم إلا أن تركوا الطالقان كما ذكر من قبل، واتجهوا نحو غزنة وفي الطريق دخلوا مدينة الباميان، وقاموا ببعض الأعمال في المناطق المحيطة بغزنة -سيجري الحديث عنها فيما بعد- ولكن بدايةً لابد من الحديث عن وضع السلطان جلال الدين داخل غزنة، والشخصيات التي اتصلت بخدمته، واستعداداته للمعركة، وأحداثها، والنتائج التي نتجت عنها.

تباينت الروايات حول أعداد الجنود الذين بايعوا السلطان جلال الدين على قتال المغول واجتمعوا في غزنة، فالنسوي حدد عددهم "بستين ألفاً" حيث قال: "اتصل بخدمته سيف الدين بغراق الخليجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الايغانية، والحسن قزلق في زهاء ثلاثين ألفاً، ومعه عسكره وعسكر أمين ملك مثلها"^(٣)، و من رواية النسوي السالفة أمكن التعرف

(١) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٢، ٤١، ص ٩٢.

(٢) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٤.

(٣) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٤.

على قائدين ذكرا من قبل في الروايات وهما: سيف الدين بغراق، وأعظم ملك، ولكنه يذكر إضافة لهما اسمي مظفر ملك، والحسن قزلق لأول مرة، ربما كان هؤلاء من القادة الذين خدموا سيف الدين بغراق والذي تألفت قواته من اتحاد قبائل التركمان وغيرها من القبائل المقيمة في بيشاور، ولقد بلغت أعدادهم "ثلاثين ألفاً"، أُضيف إليها قوات السلطان مع قوات أمين ملك حاكم هُراة والذي انضم إليه في أثناء وصوله إلى غزنة، وقد بلغ عددهم "ثلاثين ألفاً" كذلك. إذا ما تركت رواية النسوي السالفة وتمت مطالعة ماكتبه ابن الأثير فيلاحظ الآتي: بأنه تشارك مع النسوي في أن قوات السلطان بلغت "ستين ألفاً"، حيث قال: "اجتمع إليه من سَلِم من عسكر أبيه، قيل كانوا ستين ألفاً"^(١)، وقد نقل عنه فيما بعد كلٌّ من أبي الفداء، وابن واصل الحموي^(٢). يفهم مما سلف بأن الجنود الذين بلغ عددهم "ستين ألفاً" كانوا في معظمهم من العساكر التابعة لوالده والذين كانوا موجودين في حاميات متفرقة في مدن المنطقة عادت وتجمعت تحت لواء السلطان جلال الدين من جديد، ولكنه لم يذكر أسماء قادة هؤلاء العساكر فقط تحدث عن عددهم، إذا ما تم الانتقال للروايات الفارسية فيلاحظ الآتي: بأن الجويني حدد أعداد القوات "بتسعين ألفاً" مقسمين على مجموعتين المجموعة الأولى تألفت من "خمسين ألفاً" تحت قيادة أمين ملك وكانت تعسكر في غزنة، والمجموعة الثانية بلغت "أربعين ألفاً" قُدمت إليه مع سيف الدين إغراق وإضافة إلى ذلك فقد اتصل به بعض الأمراء الغور ولكنه لم يذكر أسماءهم^(٣)، هذا فيما تعلق برواية الجويني، أما رواية رشيد الدين الهمذاني، فقد كانت كالتالي فقد اتصل بالسلطان جلال الدين خان ملك والي مرو في "أربعين ألفاً" وكان السلطان جلال الدين قد تزوج ابنته، واتصل به أيضاً سيف الدين اغراق وكان من الأمراء التركمان في "أربعين ألف فارس" إضافة لبعض الأمراء الغور^(٤)، ومن خلال رواية رشيد الدين الهمذاني يستخلص بأن أعداد القوات بلغت "ثمانين ألفاً"، ولم يذكر اسم أمين ملك، بل أطلق عليه اسم خان ملك، وعدّه والياً على مرو، مع أن الأخير عُرف بكونه والياً على هُراة وليس على مرو، هذا من جانب ومن الجانب الآخر بالعودة لرواية الجويني ومقارنتها مع رواية رشيد الدين الهمذاني فقد أجمعتا على أن السلطان جلال الدين لم تكن لديه أية قوات، بل إن تلك القوات انضمت إليه فيما بعد، وما يهم في الأمر أن السلطان

(١) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٥٩؛ ابن واصل الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٦٢.

(٣) الجويني، ج ١، ص ٤١.

(٤) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٥.

كان تحت قيادته قواتٌ تباينت أعدادها ما بين "ستين ألفاً" إلى "تسعين ألفاً" وإنه شكل خطورة بهذه القوات مما دفع جنكيزخان إلى التحرك بغية القضاء عليه.

والآن لابد من التطرق لذكر مقدمات معركة بيروان، ولاسيما ما يخص موقع المعركة، وسبب اختياريه ومميزاته. في البداية تحدث الجويني عن الموضوع قائلاً: "حلّ الربيع قصدَ السلطان بيروان"^(١)، ولكنه لم يتحدث عن الأسباب التي دفعته إلى ذلك ، ولكنه أتبع الرواية بأن السلطان جلال الدين وصلته أخبارٌ مفادها أن المغول كانوا مشغولين بحصار قلعة واليان^(٢)، وكادوا أن يستخلصونها، لذا فما كان من السلطان جلال الدين إلا أن ترك أثقاله في قلعة بيروان، واتجه بعسكره إلى هناك حيث تمكن من قتل ألفٍ من جنود المغول، واستمر تراشق السهام ما بين الطرفين إلى المساء حيث غادر المغول المكان في منتصف الليل، وعادوا إلى أماكن وجود جنكيزخان، بينما عاد السلطان جلال الدين إلى قلعة بيروان محملاً بالغنائم^(٣)، هكذا كانت رواية الجويني فيما تعلق بمقدمات موقعة بيروان، فقد اصطدم السلطان بالقرب منها بقوة مغولية لم يذكر الجويني عددها، أو أسماء قادتها ، ولكن من روايته أمكن الاستخلاص بأنها فرقة لا بأس بها لدرجة أن السلطان جلال الدين قتل ألفاً من جنودها وحصل على غنائم كثيرة واستطاع أن يفك الحصار عن القلعة، وإجبار المغول على التراجع طلباً للمساعدة. ولكن إذا ما تم الانتقال إلى رواية رشيد الدين الهمذاني فإنه يلاحظ الآتي: بأنه جعل توجه السلطان جلال الدين نحو بيروان استجابةً لطلب خان ملك "أمين ملك"، والذي أشار عليه بالانتقال إلى تلك المنطقة حتى يتمكن من الاتصال بخدمته هو والقادة الآخرين الموجودين في المنطقة، وفعلاً لبى السلطان جلال الدين طلبه وتحرك نحو بيروان، ولكن تصادف مع تحركه نحوها أن كان كلٌّ من القائدين المغوليين تكاجك وأمير مولغار^(٤) محاصرين لقلعة واليان وكادا أن يستوليا عليها فما كان من السلطان جلال الدين إلا أن ترك أثقاله في بيروان وتحرك مع سريةٍ من عساكره إليها، حيث تمكن من أن يقتل منهم ما قارب الألف رجلٍ من طليعتهم، مما دفع من تبقى من المغول للإسراع بعبور النهر المجاور للمنطقة والنزول على الشط الثاني والتراشق بالسهام مع جنود السلطان

(١) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٤.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٣) الجويني، ج ٢، ص ٤٢.

(٤) لم يتم العثور على ترجمةٍ لهما

الذين تبعوهم حتى منتصف الليل، وبعدها انسحبوا باتجاه قائدهم شيكي قوتوقو وأخبروه بما حلّ بهم^(١). بالتالي فإن رشيد الدين الهمذاني عدّ خان ملك هو المسؤول عن تحرك السلطان نحو منطقة بيروان وبتحركه نحوها، فقد اقترب من مكان تجمع المغول الذين كُلفوا ببعض الأعمال في المنطقة فتمكن من تحقيق النصر على بعض فرقهم، أما إذا ماتم مطالعة رواية النسوي والتي قال فيها: " وحين بلغ جنكيزخان ما حلّ بعسكره من النعمة بقندهار، جرد إليه ابنه تولي خان في عسكرٍ كثيفٍ من نخب الرجال أحلاس الظهور، وأبناء الصوارم الذكور، واستقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية، وحمية في الإسلام أبية، وواقفه ببيروان في الخيول بل السيول"^(٢). بالتالي فقد تحرك السلطان جلال الدين نحو بيروان، أما إذا ما انتقل الباحث إلى باقي الروايات العربية التي تحدثت عن الموضوع فإنه يلاحظ مايلي:

بأنه يقف على رأس تلك الروايات رواية ابن الأثير حيث كان مضمونها أن السلطان جلال الدين بعد أن استقر في غزنة، سیر جنكيزخان نحوه مايقارب من " اثني عشر ألف جندي " ، فلما وصلوا إلى المناطق المحيطة بغزنة خرج السلطان مع جيشه للقائهم في مكانٍ يدعى بَلْقُ^(٣)، فحدث اللقاء واقتتل الطرفان قتالاً شديداً واستمر لمدة ثلاثة أيام حيث انتصر المسلمون وقتلوا عدداً من المغول ومن سلم رجع إلى الخان الذي كان بالطالقان^(٤) وقد نقل عنه كلٌّ من أبي الفداء وابن واصل الحموي^(٥). لم يشر ابن الأثير إلى ماهية القوات المغولية ومن تولى قيادتها، وهل اصطدم السلطان بكامل الجيش، أم بفرقةٍ منه؟ ما يهمّ في الأمر من خلال تلك الروايات أن السلطان جلال الدين قصد بيروان ، وأنه خلال قصده لها اصطدم بطلائع الجيش المغولي وتمكن من تحقيق النصر عليها، حيث كان ذلك النصر بمثابة مقدمةٍ لانتصاره على قواتٍ أكبر من المغول قرب بيروان.

ولكن لا بد قبل الخوض في غمار البحث عنها من التعرف على موقع تلك المدينة، وطبيعة القوات المغولية وأعدادها التي اصطدم بها السلطان جلال الدين. بدايةً لا بد من تحديد موقع

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) النسوي، ص ١٥٤.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٤) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، مصدر سالف، ج ٢، ص ١٥٩، وابن واصل، مصدر سالف، ج ٤، ص ٦١.

بيروان فقد تباينت آراء الباحثين قديماً وحديثاً حولها، فالمقدسي عدّها قصبه الديلم، ووصفها بالصغر والبساطة^(١)، أما السمعاني فإنه أطلق عليها لفظة فروان وعدّها من المدن التابعة لغزنة، حيث كان نصفها بيد المسلمين والنصف الآخر بيد الهنود مما يشير إلى قرب المدينة من الهند^(٢). أما فيما يخص الباحثين المحدثين فقد عدّها بارتولد من المدن التابعة لوادي نهر "بنجهير" المشهور بمعادن الفضة^(٣)، ولكنه في موضع آخر حدد مكان الصدام بالقرب من بيروان التي حدد موقعها بمكان ليس ببعيد عن منابع نهر الكر أحد روافد نهر كابل^(٤). أما غروسيه فإنه حدد مكان الواقعة كذلك الأمر قرب بيروان حيث قال: "وهي موقع قديم يحمل الاسم نفسه عند منابع نهر لوغار جنوب العاصمة الأفغانية كابل"^(٥). أما عباس إقبال فقد حدد المكان حيث قال: "جرت المعركة على فرسخ من بيروان، وهي من المدن بين غزنة وباميان وأقرب إلى الأولى وإلى منابع نهر الكر"^(٦). وإذا ما تمت قراءة باقي المؤلفات التي تناولت موقعة بيروان فيلاحظ بأن معظم الباحثين حددوا موقعها بالسهول المحيطة بمدينة بيروان في الشمال الشرقي من غزنة^(٧). وفي نهاية البحث عن موقع بيروان وعند قراءة ما كتبه ابن الأثير عنها فإنه حدد مكان الموقعة بمدينة كابل^(٨) حيث قال: "فوصل إلى كابل فتوجه العسكر الاسلامي إليهم وتضافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم"^(٩). ولم يتطرق ابن الأثير لذكر مدينة بيروان، ربما لم تكن معروفة لديه، أو كانت مدينة كابل المجاورة لها مشهورة أكثر منها لذا قرن موقع المعركة بها، وقد نقل عنه فيما بعد كالعادة كلاً من أبي الفداء وابن واصل، بينما تطرق القسم الآخر من المؤرخين وخاصة الفرس إلى ذكر الموقع كالنسوي والجويني، ورشيد الدين الهمذاني، ربما لكون ابن الأثير لم يشهد المعركة كما شهدا النسوي، أو لم ينقل عن روايات مغولية كما فعل كلاً من رشيد الدين الهمذاني والجويني، و فقط اكتفى بما سمعه طبعاً من أفواه التجار، أو الجنود الفارين، أو العلماء الذين كانت كابل مشهورة لديهم أكثر من مدينة بيروان، بعد أن تمّ التعرف على موقع

(١) المقدسي، مصدر سالف، ص ٢٧٥.

(٢) السمعاني، مصدر سالف، ج ٩، ص ١٢٥.

(٣) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ١٤٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٦٢١.

(٥) غروسيه، ص ٢٩٨.

(٦) إقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، مرجع سالف، ص ٣٧١.

(٧) صبرة، مرجع سالف، ص ٢٠٩؛ العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، مرجع سالف، ج ١، ص ١٢٢.

(٨) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٩) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢.

المعركة لابد من الانتقال إلى الحديث عن أعداد كلا الفريقين وطريقة تنظيمهما، بالإضافة إلى الحديث عن مجريات المعركة. تألفت قوات السلطان جلال الدين كما ذكر من قبل من قوات أمين ملك، وقوات سيف الدين اغراق، إضافةً إلى بعض القوات التي كانت معه والتي انضمت إليه من عناصر الغور، ولكن أعداد الجيش المغولي ومن تولى قيادته تباينت من مؤرخٍ لآخر، فإذا ماتمت مطالعة ما كتبه المؤرخون الفرس فإن أعداد الجيش المغولي قد بلغت لديهم " ثلاثين ألف جندي"، وأما من تولى قيادتها فقد اتفق كلٌّ من الجويني ورشيد الدين الهمذاني على عدّ شيكي قوتوقو أخي جنكيزخان بالتبني هو قائد تلك القوات^(١). ولقد زاد عليه رشيد الدين الهمذاني أسماء أمراء آخرين مثل تكاجك، صولغار، أوكازقلجا، قوتوزقلجا^(٢). بينما اختلف الوضع لدى المؤرخين العرب فابن الأثير مثلاً لم يحدد العدد، بل اكتفى بالحديث عن كثافة العسكر وأنه سيّرهم إليه مع بعض أولاده^(٣)، وأما النسوي فإنه أيضاً لم يحدد عدد العساكر بل أخبر عن كثافتها فقط، وإنها كانت بقيادة تولوي بن جنكيزخان^(٤). بالتالي فإن كلاً من ابن الأثير والنسوي عدّا أولاد جنكيزخان المسؤولين عن قيادة ذلك الجيش. ولكن ربما من الممكن أن تكون معلومات ابن الأثير مشكوكٌ فيها لكونه نقل عن غيره، أما النسوي فقد كان مرافقاً للسلطان وبعده مؤرخه، ولكن هناك ما يدفع للتساؤل، عن ماهية المصادر التي اعتمد عليها كل من رشيد الدين الهمذاني والجويني في تحديد اسم شيكي قوتوقو وذلك لكون الأخير لم يرد اسمه في الحملات الكبيرة التي توجهت للمنطقة، ربما قد رافق أحد أولاد الخان في إحدى الحملات، أي كان كقائد رديف وليس قائداً أساسياً في عمليات اجتياح خراسان، ما يلاحظ عدم تطرقهما للافصاح عن مصادرها فقط تحدثا عن المعركة. وقد أيد كلاً من بارتولد وغروسيه المؤرخين الفارسيين في عدّ شيكي قوتوقو هو المسؤول عن قيادة الجيش دون تحديد مصادرها كذلك^(٥). وحدث اللقاء على بعد فرسخ من مدينة بيروان، ولكن كيفية وقوع الصدام قد تباينت أيضاً لدى المؤرخين، فالجويني يذكر أن الصدام حدث بشكلٍ مفاجئٍ للسلطان جلال الدين على الرغم من وصوله لبيروان

(١) الجويني، ج ٢، ص ٤٢؛ رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٥٦.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٥٦.

(٣) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٥) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٢٢؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٩٨.

وقضائه أسبوعاً فيها^(١)، أمارشيد الدين الهمذاني فإنه تحدث عن مسير شيكي قوتوقو نحو السلطان الذي رجع إلى عسكره في بيروان وأعاد تنظيم قواته^(٢). أما ابن الأثير فقد تحدث بشكلٍ مغايرٍ حيث ذكر أن السلطان جلال الدين بعد هزيمته للمغول، أرسل رسولاً إلى جنكيزخان يخبره أنه على استعداد لملاقاته في أي موضعٍ يرغب فيه جنكيزخان، فما كان من الأخير إلا أن أرسل جنوداً كثيراً حطوا رحالهم عند كابل حيث توجه إليهم الجيش السلطاني وجرى الصدام في ذلك الموقع حيث نتج عنه انهزام المغول وانتصار المسلمين^(٣). أما النسوي فقد تحدث عن توجه ابن جنكيزخان نحو السلطان جلال الدين والذي استقبله بنية الجهاد في بيروان^(٤)، وعند مقارنة الروايات يستنتج ما يلي: بالنسبة لرواية الجويني فأمرها مشكوكٌ فيه وذلك لكون قوات جلال الدين قد تقاجأت من هجوم الجيش المغولي وهي كانت في بيروان مستعدة لمواجهةٍ وبشكلٍ خاصٍ بعد أن هزمت فرقةٌ منهم كما ذكر ، أما رواية رشيد الدين الهمذاني والنسوي ففيها شيءٌ من الواقع، أما فيما يتعلق برواية ابن الأثير فهل يعقل أن يرسل السلطان جلال الدين رسولاً إلى الخان يطلب منه فيه تحديد موقع الصدام، بل إن القائد الناجح هو الذي يختار مكاناً يتناسب مع امكاناته وقدراته الحربية، كي يتمكن في النهاية من تحقيق النصر على أعدائه بأقل الخسائر، فعلاً حدث الصدام وعين السلطان جلال الدين أمين ملك على ميمنة جيشه، وسيف الدين اغراق على ميسرته، بينما اختار لنفسه موضع القلب، ولكنه أمر جنوده بترك ظهور خيولهم والترجل عنها، امثل الجنود لأوامر السلطان جلال الدين وحصل الصدام بين الطرفين، واستمر القتال لمدة يومٍ واحدٍ وقتل في المعركة عددٌ كبيرٌ من الجنود، وأحس المغول بهشاشة وضعهم في المعركة فما كان من شيكي قوتوقو إلا أن أمر جنوده بصنع تماثيل بسيطة من اللباد على هيئة جنود ووضعها على ظهور خيولهم لإيهام قوات السلطان بوصول مددٍ لهم مما يؤدي لإضعاف الروح المعنوية للجنود الخوارزميين. وفعلاً استمر صنع تلك الدمي طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي تقاجأ السلطان جلال الدين وقواته بوجود صفوفٍ جديدةٍ ظهرت ضمن قوات المغول، وقد انطلت الخدعة عليهم لبرهة، وتشاوروا فيما بينهم فاقترح بعضهم الفرار، وقسم آخر الثبات والقتال

(١) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٣.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٩.

(٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٤) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٤.

لآخر نفس^(١)، أما السلطان جلال الدين فلم تتطل الخدعة عليه، بل صاح بالجنود قائلاً: "لاتخافوا فإن عسكرينا أكثر من عسكريهم"^(٢). وفعلاً نجح السلطان في استثارة جنوده، وبدأت المعركة حيث هاجمت قوات المغول جيش السلطان ووجهت ضربتها على الميسرة وأغرقتها بوابل من السهام، وكادوا أن يقضوا عليها، لولا أن السلطان اكتشف الخطة فما كان منه إلا أن أمر جنوده باعتلاء صهوات خيولهم وأن يحملوا حملة واحدة على المغول، فترجع الجيش المغولي نحو الخلف نتيجة لضربة الجيش الخوارزمي الأولى، ثم وجهوا ضربة ثانية عليهم ونجحوا في قتل "خمس مئة فارس" منهم، واستمروا في التصيّد عليهم حتى أجبروهم على رمي سنجق^(٣) شيكي قوتوقو وولوا منهزمين^(٤). وقد وصف النسوي طريقة قتال سيده حيث قال: "ركب جلال الدين أكتاف المغل يخطف بالقواطع علاوات الأخادع، ويفصل بالأسياف مجامع الأكتاف، وكيف لا وقد فجعه بإخوته وأبيه ومملكته وذويه، وفصيلته التي تؤويه، فترك لا ولد ولا مولود"^(٥). بالتالي حقق السلطان جلال الدين نصره على المغول وقد تطرق النسوي إلى وصف ذلك النصر أيضاً قائلاً: "فقتل تولي خان في وهج القتال وكثر الأسر حتى كان الفراشون يحضرون الأسارى الذين يأسرونهم إلى بين يديه فيدقون الأوتاد في آذانهم تشغيلاً منهم"^(٦). من خلال كلمات النسوي السالفة يلاحظ بأنه المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى مقتل قائد المغول في المعركة، بينما لم يشر غيره إلى ذلك. ربما رغب في تضخيم نصر سيده، واطهار مقدار شجاعته وقوته وبراعته في القتال، أو ربما قتل في المعركة أحد قادة المغول فاختلف الأمر على النسوي، ويستخلص أيضاً مقدار كره السلطان للمغول وتشفيه منهم لدرجة دفعته هو وجنوده لدق الأوتاد في آذانهم لتعذيبهم وهم أحياء، أما أسباب هزيمة المغول في المعركة فلم يتناولها أي من المؤرخين باستثناء رشيد الدين الهمذاني حيث قال: "كان سبب الانهزام أن الأرض التي كانوا يحاربون فيها كانت أرضاً كثيرة الثقوب والأوهاد فكانت خيولهم ضعافاً تعثر في تلك الثقوب

(١) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٢.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٥٨.

(٣) لفظ تركي فارسية تعني علم أو راية؛ الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص ٢٥٩.

(٤) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٥٨؛ الجويني، ج ٢، ص ٤٣؛ النسوي، ص ١٥٤. فلاديمير، حياة جنكيزخان الادارية والسياسية والعسكرية، ص ٢٩٨.

(٥) النسوي، ص ١٥٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

ويسقط الفارس فيدركه عسكر السلطان بجودة خيولهم ويقتله"^(١). بالتالي فإن سبب الهزيمة برأي رشيد الدين الهمذاني ليس قوة جنود السلطان وإنما طبيعة الأرض التي كانت كثيرة الثقوب والتي ربما كانت موجودة فيها، أو لجأ جنود السلطان لصنعها في الأرض لإعاقة خيول المغول، بالتالي تعثرت الخيل وبتعثرها سقط الفرسان عن ظهور خيولهم، التي ربما أصابها الضعف إما لطول المسافة التي قطعتها، أو لصغر حجمها وعدم موائمة أرض المعركة لها، على عكس خيول الخوارزميين المتمرسية على القتال في تلك الطبيعة الجغرافية. من خلال الروايات السالفة يمكن الاستنتاج بأن جنود السلطان جلال الدين كانوا متفوقين على جيوش المغول في العدد، أما العدة فلربما كانوا متماثلين فيها، وذلك لكون الطرفين كانوا يستخدمون في القتال السيوف والخناجر والسهام وغيرها من وسائل القتال، ولكن عندما بدأ القتال طلب السلطان جلال الدين من جنوده الترحل والقتال على الأرض، وهذا الأمر يحتاج لتفسير كذلك الأمر ربما طلب منهم ذلك ليجبرهم على القتال بقوة، أو لكون خيول المغول قصيرة وخيولهم أعلى، أما طلب شيكي قوتوقو من جنوده صنع تماثيل ودمى فهذا أمر يدفع إلى الاستغراب، فهل استطاع المغول في ليلة واحدة صنع عدد كبير من الدمى، وخاصة أن الجنود كانوا يقاتلون طوال النهار، أو أن دمي اللباد كانت معهم مسبقاً في عرباتهم وخاصة أنه عُرف عن المغول بأن أسرهم وبعضاً من أفراد قبيلتهم كانوا يرافقونهم في حملاتهم العسكرية فتولى هؤلاء صنع الدمى، أو أن هذه الدمى كانت عبارة عن ألتهم التي حملوها معهم حيث ذكر أن المغول كانت لديهم آلهة من اللباد على هيئة دمي . ولكن ألم يكن حرياً بذلك القائد انتظار قدوم المدد من الخان، أم أن ظروف المعركة فرضت عليهم مثل هذا التصرف؟ مهما كان الأمر فإن الحيلة لم تنطل على قوات السلطان جلال الدين التي حققت نصراً كبيراً دفع المغول إلى الانسحاب إلى مقر إقامة جنكيزخان الذي انزعج بدوره من تلك الأنباء ودار نقاش بينه وبين قائده العسكري كان فحواه: "إنه من عادتك أنك لا تذهب إلى فتح جهة من الجهات إلا وتعود منها مظفراً منصوراً غالباً كأنك ما قاسيت شدايد الحروب ومكائد الدهر، ففي هذه النوبة حيث كابدت مضض القتال ينبغي أن تحصل لك التجربة بأمر الحرب وتنبه لها وتطلع على تلك الأحوال"^(٢). بالتالي فإن جنكيزخان لم يُقدم على معاقبة قائده، وإنما أنبه على إهماله الذي بدر منه، وذكره بأنه أحرز النصر في معارك أضخم من هذه

(١) رشيد الدين الهمذاني ، ص ٢٥٨.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٥٩.

وفي ظروفٍ أصعبٍ منها، لذا فهو يستغرب انهزامه فيها، فعليه بالتالي أخذ العظة منها، ولقد تأكد جنكيزخان من مجريات المعركة وخاصةً بعد أن قدم إلى غزنة وخفّ الخطا خلف السلطان جلال الدين إلى ضفاف السند حيث مرّ بأرض المعركة، وبعد أن تفحصها أقدم على توبيخ قائده لكونه قد اختار المكان غير المناسب للقاء، وأنه لو تفكر قليلاً واستعان بخبرته لكان بإمكانه احراز النصر على أعدائه^(١). ما يهم في نهاية الأمر أن السلطان قد حقق النصر على المغول في تلك المعركة التي وصفها بارتولد بأنها أكبر انتكاسة أصيبت بها القوات المغولية^(٢)، وحصل السلطان نتيجتها على غنائم كثيرة كانت قسمتها وبالأعلى عليه حيث انقسمت بسببها قواته على نفسها وتركه عددٌ من قادة جيشه وتبعهم قسمٌ كبيرٌ من جنوده مما أدى إلى تضعُّع مكانته وضعف قواته وعدم تمكنه فيما بعد من استغلال نصره بالهجوم على مواقع المغول، أو بتدمير فلول قواتهم، ولابد من التطرق للبحث في هذه الفتنة والتي سببتها غنائم المعركة، فقد غنم السلطان من المغول غنائم كثيرة عبّر عن كثرتها كلّ مؤرخٍ بلغته الخاصة، فالجويني مثلاً لم يتحدث عن كثرتها فقط قال ماييلي: "شغل السلطان بجمع الغنائم فتنازع"^(٣)، بينما رشيد الدين الهمذاني كانت روايته على الشكل التالي: "حصل السلطان من العسكر على غنيمة كبيرة فاقتسموها"^(٤)، أما ابن الأثير فأشار إلى الحادثة حيث قال: "جرت فتنة لأجل غنيمة"^(٥). بالتالي قد اتفق جميع المؤرخين على أن خلافاً قد حدث لحظة توزيع الغنائم بين الطرفين، الطرف الأول أمين ملك وكانت تربطه كما ذكر من قبل نسبٌ مع السلطان، وبين سيف الدين اغراق والذي تباين المؤرخون في وصفه فالنسوي عدّه من العسكر الخلجية^(٦)، ووافقه الرأي ابن الأثير وزاد على ذلك بذكر بعضٍ من صفاته حيث قال: "أصله من الأتراك الخلع، كان شجاعاً ومقداماً، ذا رأيٍ في الحرب ومكيدة، اصطلى الحرب مع التتار بنفسه، وقال للسلطان تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعباً، وهو الذي كسر التتار على الحقيقة"^(٧)، بالتالي فإن ابن الأثير عدّه هو المسؤول عن النصر الذي حققه السلطان ربما تكون الرواية فيها شيء من الصحة، وذلك لكون الأتراك الخلع

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٩؛ فلاديمير، ص ١٨٧.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٦٢٢.

(٣) الجويني، ج ٢، ص ٤٥.

(٤) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٩.

(٥) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٦) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٥.

(٧) ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢.

قد اشتهروا بالشجاعة والإقدام والصبر على القتال، وكانوا متمرسين على القتال، ومهما يكن فقد حدث الخلاف حول فرسٍ غنمه الجيش وصفه الهمذاني بكونه فرساً عربياً^(١). اصطدم القائدان فكلاهما أراداً ذلك الفرس لذا فما كان من أمين ملك إلا أن سارع بضرب سيف الدين اغراق على رأسه بسوطٍ كان بيده في حضرة السلطان^(٢)، بينما تحدث النسوي عن روايةٍ مغايرةٍ تشير إلى كونه قد ضربه بمقرعة^(٣) كانت بيده مما أدى لاشتمزاز النفوس ونفورها^(٤). أما إذا ماتم الانتقال لما ذكره ابن الأثير فيلاحظ بأنه أرجع سبب الخلاف لكون الطرفين قد تنازعا فقتل أخ لاغراق فما كان منه إلا أن غضب وقال: "أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر"^(٥).

بدايةً لم يتدخل السلطان في النزاع وذلك لكونه لم يكن واثقاً من جماعة اغراق فهم لم يكونوا من أتباعه المخلصين، أو ربما وجد بأن هذه القضية بسيطة ولا تحتاج إلى تدخله فهي تدور حول جواد^(٦)، ولكنه عندما شعر بأن الأمور بدأت تخرج عن نطاق سيطرته، وأن أتباعه استمروا يعاملون الطرف الآخر معاملةً سيئةً، هنا حاول التدخل وبدأ باستعطاف سيف الدين اغراق الذي بدرت منه تصرفاتٌ تشير إلى رغبته في ترك المعسكر، ولكن فات الأوان فقد غادر المعسكر فعلاً وتبعه كلٌّ من أعظم ملك، ومظفر ملك وتبعهم أتباعهم من الجنود الذين انطوا تحت رايتهم وتوجهوا نحو جبال كرمان^(٧). بالتالي فقد كانت الصراعات القبلية، والخلافات حول الغنائم، وتنافس القادة فيما بينهم، وضعف شخصية السلطان جلال الدين منكبرتي ومحاباته لأتباعه، وأهل بيته، وعدم تقييمه الأشخاص تبعاً لقوتهم ولما يقدمونه من خدماتٍ له، وقصر نظره في تقدير حجم الخلافات، وإيجاد حلولٍ مناسبةٍ لها، كلٌّ هذه الأشياء مجتمعةً سببت انهيار قوة السلطان جلال الدين حيث فقد قواته، تلك القوات التي تمكن بواسطتها من تحقيق النصر على المغول، وتمكن من التشفي منهم، لذا أصابته الحيرة وأدرك فداحة مصابه ولكن بشكلٍ متأخر ولاسيما بعد أن وصلته أنباءٌ تفيد بأن جنكيزخان قد تحرك بقواته نحوه، فما كان منه إلا أن بدأ

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٩؛ الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥.

(٣) خشبة تُضرب بها البغال والبعير، وليست كالسوط مصنوعة من الجلد؛ ابن منظور، لسان العرب، ص ٣٥٩٥.

(٤) النسوي، ص ١٥٥.

(٥) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(٦) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥؛ رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٩.

(٧) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٢٢.

بالانسحاب نحو مدينة غزنة، ولم يطلّ مكوثه فيها، بل فارقها وفي نيته الوصول إلى ضفاف ماء السند وهناك يستأنف مراسلة قادته المنفصلين وبعدها يعبر ضفاف السند باتجاه الهند^(١).

و كان للمعركة نتائج كثيرة أهمها ارتفاع معنويات سكان خراسان مما دفع بعضهم لقتل الحاميات المغولية الموجودة في مناطقهم والثورة على الحكم المغولي كما حدث في مدينة هُراة مثلاً^(٢)، كما أنه ساهم في فكّ الحصار عن قلعة ولج^(٣) والتي ضربت الحصار عليها فرقة من الجيش المغولي ، وضيق عليها الخناق ولكن عندما وصلت إليهم أنباء هزيمة بني جلدتهم فكوا الحصار عنها وتراجعوا لأجل اللحاق بجنكيزخان^(٤). ولقد وصف النسوي تلك الحادثة بقوله: " وقد كانت شرذمة من التاتار حاصرت قلعة ولج، وضايقتها مطاولاً، فلما بلغهم ماصب الله على أولئك من سوط العذاب ،أخرجوا عنها خائبين خائفين ومنّ الله بالخلاص على المسلمين"^(٥). ويفهم مما سلف بأن السلطان جلال الدين لم يرسل أيّ فرقة نحو القلعة، وإنما فكّ الحصار عنها بعد ان سمع المغول بالهزيمة التي حلت بهم، وعليه نجت القلعة من الدمار المحتّم الذي كان ينتظرها، لكن لم يستغل السلطان حالة الفوضى والخوف التي أصابت المغول، بل شُغل بالخلافات التي نشبت بين جنوده، والتي أفضت بالتالي إلى تراجعهم إلى حدود نهر السند وهزيمته هناك، وهذا ماسيتم مناقشته فيما يلي:

ج- موقعة نهر السند سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م:

انتصر السلطان جلال الدين في موقعة بيروان، وتالت بعدها مجموعة من الأحداث تمّ التطرق إليها فيما سلف، ولكن هنا سيتم البحث عن الواقعة التي تلت بيروان والتي قامت بين القوات التي قادها جنكيزخان بنفسه، وبين السلطان جلال الدين عند حافة السند، حدثت المعركة في شهور سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، ولكن تباين المؤرخون في تحديد الشهر الذي وقعت فيه، فالنسوي حددها بيوم الأربعاء الثامن من شوال سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م^(٦)، بينما حدد الجويني شهر

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٥٩؛ النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٦؛ ابن الأثير، مصدر سالف، ج ١٠، ص ٣٦٢؛ ابن واصل، مصدر سالف، ج ٤، ص ٦١؛ غروسيه، مرجع سالف، ص ٣٠٠.

(٢) انظر ص ١٩٢.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٦.

(٤) النسوي، ص ١٥٥؛ يارتولد، تركستان، ص ٦٢٢؛ اقبال، تاريخ ايران، ص ٣٧١.

(٥) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

وقوعها بشهر رجب من السنة نفسها^(١)، ولكن ما يلاحظ في رواية رشيد الدين الهمذاني بأنه حدد تاريخها بسنة الفرس وهي من السنوات المغولية، ولم يذكر تاريخها بحسب التقويم الهجري^(٢)، أما فيما يخص المؤرخين المعاصرين فقد حدد بارتولد تاريخها في الرابع والعشرين من نوفمبر من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٣)، وعباس إقبال حددها بالتاريخ ذاته^(٤)، وتشارك معه غروسيه^(٥)، بينما لم يحدد فلاديمير ستوف الشهر، بل ذكر أنها كانت في خريف سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٦). بالتالي حدثت المعركة في الشهور الأخيرة من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م أي في المدة التي انتهى جنكيزخان فيها من جميع أعماله في المنطقة، هذا فيما تعلق بزمان المعركة، أما مكانها فلم يحدد المؤرخون مكان وقوعها بالضبط، بل اكتفى معظمهم بالقول بأنها حدثت على ضفاف نهر السند، ولكن في أي منطقة، أو بالقرب من أية مدينة لم يذكروا بالتفصيل^(٧). وإنما ناقش الباحث بارتولد مكان الواقعة ومن خلال مقارنتها مع أحداث سالفه توصل إلى القول بأنها كانت في منطقة عُرفت باسم غراتراب "أي قفزة الفرس" والتي تقع على ضفاف نهر السند^(٨)، وقد أيده في ذلك عباس إقبال^(٩)، هذا فيما تعلق بموقع المعركة، أما الآن لابد من الإشارة للقوات التي شاركت فيها، ومعرفة أعدادها وتركيبها، فيما تعلق بالقوات المغولية فقد كانت من الكثرة بمكان، وذلك لكون جنكيزخان قد سار على رأس جيشه الذي اجتمع لديه بعد محاصرته للطالقان وتدميره لها، حيث التحق به أولاده: جغتاي، وأوكتاي من خوارزم، وتولوي من خراسان^(١٠)، ولقد أسهب المؤرخون كثيراً في وصف تلك القوات فهذا الجويني تحدث عنها حيث قال: "سار بعد أن فرغ من الطالقان بجيشٍ عدده أكثر من عدد قطرات المطر"^(١١)، أما النسوي فقد كان وصفه التالي: "قام جنكيزخان إليه بنفسه في عساكره التي يضيق عن ضمها الفضاء"^(١٢)، وبلغ عدد جيش جنكيزخان حداً دفع

(١) الجويني، مصدر سالف، ج ١، ص ١٤٠.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠.

(٣) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٢٥.

(٤) إقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، مرجع سالف، ص ٣٧٢.

(٥) غروسيه، ص ٣٠٠.

(٦) فلاديمير ستوف، ص ١٨٩.

(٧) الجويني، ج ٢، ص ٤٥؛ رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠.

(٨) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٢٦-٦٢٧.

(٩) إقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، مرجع سالف، ص ٣٧٢.

(١٠) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠.

(١١) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥.

(١٢) النسوي، ص ١٥٥.

السلطان جلال الدين والذي لم يكن يملك في ذلك الوقت سوى نصف عدد قواته، إلى المسارعة بمغادرة غزنة والتأخر نحو ضفاف السند حيث استأنف هناك مراسلة جنوده ليعودوا إليه، وذلك لأنه بعودتهم يتمكن من مباغته القوات المغولية، وإلا سيهزم أمامها ويسارع إلى عبور ماء السند^(١). ولكن لم يمهل جنكيزخان، بل سارع بالقدوم ووصل غزنة بعد "خمسة عشر يوماً" من مغادرة السلطان لها، حيث كان السلطان على ضفاف نهر السند، وقد أخفق في اقناع جنوده بالعودة فما كان منه إلا أن جهز القوارب للعبور، ولكن قبل الصدام على ضفاف السند حدث صدام آخر وإنما كان صغيراً، وقد تباين المؤرخون في الحديث عنه، فالنسوي عدّه حدث عَقِبَ خروج السلطان من غزنة وقبل وصوله ضفاف السند حيث وردته أخبارٌ مفادها بأن مقدمة جيش جنكيزخان قد وصلت لمنطقة جردين^(٢)، فسار طوال الليل وتمكن من كبسها صباحاً، وأنزل بها هزيمةً كبيرةً دفعت الخان إلى الإسراع في القدوم رغبةً في تأديبه^(٣). أما الجويني ورشيد الدين الهمذاني فحددا زمن الصدام بالمدة التي أعقبت وصول السلطان إلى ضفاف السند، وذكر اسم القائد الذي اصطدم المغول به، وهو أورخان^(٤)، حيث كان قائداً لطليعة جيش السلطان، وقد اصطدم معهم وتمكن من الثبات وهزيمتهم^(٥). ولكن تحتاج الرواية السالفة إلى المناقشة، فمن الرواية يستخلص مقدار ضعف طليعة المغول، وقوة طليعة السلطان جلال الدين على الرغم من مفارقة معظم قواته له، وهنا لابد من طرح السؤال التالي لماذا لم يستغل السلطان نصره إذا كان فعلاً قد اصطدم بطليعة المغول؟ ولماذا فضل الانسحاب إلى ضفاف السند وانتظار قدوم السفن والتي لم يجهز منها سوى سفينة واحدة أراد استخدامها لعبور والدته وحريمه، ولكنها انكسرت وأصبح من المحال العبور؟ ربما أذهلته كثرة القوات المغولية التي وصلت فيما بعد وجعلته عاجزاً عن التفكير، أو فارقته قسمٌ آخر من جنوده ولم يبقَ معه سوى القليل، وفي النهاية نصب السلطان جلال الدين معسكره على ضفاف السند، منتظراً قدوم جنكيزخان الذي سارع الخطأ بعد أن وصلته أنباء تشير إلى مقدار ضعف القوات الخوارزمية، ووصلت القوات المغولية صباحاً

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٦؛ رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠؛ العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، مرجع سالف، ج ١، ص ١٢٢.

(٢) النسوي، ص ١٥٧، أما جردين: انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٦) النسوي، ص ١٥٧.

(٤) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥؛ رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠ أما أورخان: انظر تعاريف ص ٣٥١

(٥) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠؛ الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٢٥؛ صبرة، مرجع سالف، ص ٢١٢.

وانتشرت حول أماكن وجود القوات السلطانية، وتمكنت من ضرب حلقة على شكل نصف دائرة حول الجنود حيث شكل نهر السند الخط المنّصف للدائرة، وجنود المغول خط الدائرة، بالتالي أضحي السلطان بين نارين إما القوات المغولية، وإما ماء السند^(١)، و أعطى الخان أوامره بالبدء بالقتال ولكن دون المساس بشخص السلطان جلال الدين، بل رغب في القبض عليه حياً، وبدأ الهجوم حيث تحرك قائدان من قادة المغول وحملوا حملة واحدة على ميمنة السلطان، التي كان يقودها أمين ملك فتمكنوا من قتل أكثرها، مما دفع أمين ملك إلى التراجع إلى حدود بيشاور، ولكن كمن له جنود المغول وتمكنوا من قتله، وقتل معظم جنوده. وبعد أن دُمرت الميمنة اتجهوا نحو الميسرة وتمكنوا من قتل عددٍ من الجنود، وهنا ثبت السلطان جلال الدين في القلب وبرفقته "سبع مئة" جندي واستمر يقاتل المغول الذين ضيقوا الخناق عليه بغية أسره، فما كان منه إلا أن ترجل عن فرسه وركب فرساً آخر وألقى بترسه خلفه وأخذ لواءه ورمى بنفسه في نهر السند بعد أن فقد الأمل في النصر على المغول الذين اندهشوا من تصرفه ذاك وهمّ بعضهم باللاحاق به، ولكن جنكيزخان منعهم من ذلك^(٢). وقد عبّر رشيد الدين الهمذاني عن تلك الحادثة بقوله: "لما رأى ذلك وضع يده على فيّته وطلب أولاده وأراهم السلطان وهو نازل، ويقول مثل هذا الولد ينبغي أن يخلف الأب حيث خلص نفسه من مثل هذه المحاربة والماء المغرق، سوف يصدر منه فتن كثيرة وشؤون لا تحصى"^(٣)، تمكن المغول من الانتصار على السلطان جلال الدين ولكنهم لم يُقدموا على قتله على الرغم من تفوقهم عليه، فقد رغبوا في القبض عليه حياً، ولربما أخافتهم شدة التيارات المائية في نهر السند فلم يلحقوا به، أو ظنوا أنه غرق، أو على الرغم من نجاته إلى الضفة الأخرى ظنوا أنه سيكون خائر القوى ولن يشكل خطراً عليهم، هذا ما ورد في المصادر الفارسية عن المعركة، أما رواية النسوي عنها فكانت التالي: رسم النسوي صورةً للسلطان جلال الدين أظهره فيها بطلاً مقداماً على الرغم من قلة عدد جنوده، وقد حمل على قلب جيش جنكيزخان وفرقه وكاد أن يهزمه، وتراجعت قوات جنكيزخان إلى الخلف، لولا أن كميناً مؤلفاً من " عشرة آلاف فارسٍ مغولي " هاجمت ميمنة السلطان جلال الدين والذي تولى قيادتها أمين ملك

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠؛ دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سالف، ج ٧، ص ٦٤.

(٢) الجويني، مصدر سالف، ج ٢، ص ٤٥ ح غروسية، مرجع سالف، ص ٣٠٠؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٢٥؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، مرجع سالف، ص ٧٥.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سالف، ص ٢٦٠.

وكسرها وطرحها على القلب فبدد نظام الجيش السلطاني وتفرق الجنود^(١)، وانتهت المعركة بهزيمة السلطان وعبوره ماء السند على ظهر فرسه حيث عبّر عن ذلك النسوي بقوله: "لما وصل السلطان إلى حافة ماء السند، قد سدّت دونه المهارب وأحاطت به المعاطب، رأى أمامه النهر، رفس فرسه في الماء لابساً عدته، فعبر به الفرس ذلك النهر العظيم صنعاً من الله تعالى فيمن يتولى حفظه"^(٢)، و رواية النسوي السالفة قريبة من الروايات الفارسية إلا أنها قد جعلت النصر حليف السلطان بدايةً، لولا الكمين الذي أعدّه المغول له والذي سبب هزيمته فيما بعد. وإنما لابد من التذكير بأن النسوي كان الكاتب الخاص للسلطان جلال الدين ، لذا فمن غير الممكن أن يورد أيّة معلوماتٍ تظهر مقدار ضعف السلطان أو إخفاقه، بل سيذكر الروايات التي تتحدث عن مقدار شجاعته وقوته حتى بعد أن انهزم ورمى بنفسه في ماء السند، وبعد أن أقدم على فعلية شنعاء تمثّلت بإغراق حريمه في ماء السند حتى لا يقعن في أسر المغول، وقد تحدث عن ذلك فقال: " عاد السلطان إلى حافة ماء السند كسيراً، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى صوتهن: بالله عليك اقتلنا، وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب"^(٣). لم يذم النسوي السلطان على تصرفه ذاك، بل تفاجأ منه فقط، ولم يكن اغراق الحريم في النهر النتيجة الوحيدة للمعركة، بل نتجت عنها نتائج أخرى منها أسر ابن السلطان ذي سبع أو ثمان سنوات وقتله فيما بعد على يد جنكيزخان^(٤)، وقتل أولاد آخرين للسلطان جلال الدين، وأسر باقي حريمه وبناته الصغار^(٥). أما ثروات السلطان جلال الدين والتي أمر بإغراقها في نهر السند فقد حاول المغول العثور عليها وذلك بأمرهم الغطاسين بالنزول واستنقاذها فتمكنوا من العثور على جزءٍ منها وضاع الباقي في قاع النهر^(٦). هذا فيما تعلق بمصير أسرة السلطان جلال الدين وممتلكاته، أما إذا ما وجه الاهتمام إلى مصير جيشه فلم يكن أحسن حالاً وقد وصف النسوي حالته حيث قال: "وانجلت المعركة عن قتلى مخرجين بالدماء غاطسين في الماء، فكان الرجل منهم يأتي النهر فيهوي بنفسه في تياره، وهو يعلم أنه لابد

(١) النسوي، مصدر سالف، ص ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٣) النسوي، ص ١٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٥) الجويني، ج ١، ص ١٤١.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٦١؛ الجويني، ج ١، ص ١٤١؛ صبرة، ص ٢١٢.

غريق"^(١). وقد أيد الجويني قوله عندما عدّ نهر السند هو الشاهد على أكبر قدرٍ من القتل حيث قال: "ذكر الذين شاهدوا مجريات الأحداث أن ماء النهر كان مصبوغاً بالدم من كثرة القتلى بالنبال فيه"^(٢). مما سلف كان عدد القتلى من الضخامة بمكانٍ لون ماء نهر السند باللون الأحمر، ومن لم تقتله سهام المغول، قتلتها المياه فقد قضى غرقاً فيه الكثير ولم ينجُ من الغرق إلاّ من دفعته المياه إلى الضفة الأخرى، وقد بلغ عدد من نجا مع السلطان جلال الدين " أربعة آلاف فارس" أضيف إليهم بعد ثلاثة أيام " ثلاثئة فارس" دفعتهم المياه نحو أراضي الهند وهم لا يملكون شيئاً^(٣). أما من بقي من جنود السلطان والذين كانوا برفقته، أو فارقه بعد نصر بيروان فقد لاحقهم جنكيزخان في الجبال المحيطة بالمنطقة، وفي الشعاب والغابات وتمكن من قتلهم، كما أنه حاصر أعظم ملك في قلعة دروده^(٤)، وتمكن من انزال الهزيمة به وبقواته^(٥)، ولم يكتفِ جنكيزخان بذلك ، بل حاول ملاحقة السلطان وجنوده في أراضي الهند، لذا أرسل بلا نوين^(٦)، ودورباي نوين^(٧) في أثره مع فرقة استكشافية صغيرة تمكنت من العيث فساداً في ناحية المولتان^(٨)، ومن جمع بعض الغنائم ولكن بسبب ارتفاع درجة الحرارة وقسوتها في فصل الصيف واتساع أراضي الهند ووعورتها وكونها من المناطق المجهولة بالنسبة للمغول، فإنهم سرعان ما عادوا وعبروا ضفة السند ولحقوا بجنكيزخان^(٩)، لذا بقيت الهند مجهولةً في تلك المدة إلى المغول، الذين لم يفكروا باقتحامها كما اقتحموا الصين ربما لطبيعتها الجغرافية، أو لارتفاع حرارتها، أو أنهم كانوا مهتمين بالسيطرة على طريق الحرير والذي لم تعدّ الهند مركزه الأساسي على عكس الصين ما يهم في الأمر أن خسارة السلطان جلال الدين تعود إلى سوء تدبيره، فهو لم يسيطر على جنوده المتوزعي الأهواء، ولم يستغل نصره السالف في بيروان بل انشغل بمشاكله الداخلية، كما أنه سارع إلى الانسحاب والعودة إلى ضفاف السند بدلاً من اللجوء إلى مدينة غزنة القريبة فإنه كان بإمكانه بما معه من قواتٍ أن يقتل الشحنة المغولية الموجودة فيها ويعيد تنظيم

(١) النسوي، ص ١٥٨.

(٢) الجويني، ج ٢، ص ٤٧.

(٣) النسوي، ص ١٦٠.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٦.

(٥) النسوي، ص ١٥٩.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٥٧.

(٧) انظر تعاريف ص ٣٥٨.

(٨) انظر تعاريف ص ٣٥٦.

(٩) رشيد الدين لهمداني، ص ٢٦١؛ العزاوي، ج ١، ص ١٢٢.

قواته من جديد فيها، و ما يلاحظ هو إن المؤرخين لم يتوسعوا في الحديث عن مجريات المعركة، فهم لم يحددوا أسماء قادة المغول، فقط اكتفوا بذكر اسم جنكيزخان، ولم يحددوا أعداد القوات الخوارزمية، ولكن يعتقد أنها لم تتجاوز "العشرين ألفاً" وذلك لكون قسم كبير من القوات قد فارقت السلطان، ولكن على الرغم من قلة القوات، فقد تمكنت من تحقيق بعض الانتصارات، وتمكنت من الصمود في المعركة ليوم كامل، كما استمر بعضها بالقتال حتى آخر نفس، أما السلطان جلال الدين فقد فضل أن يدع القدر يقرر مصيره وذلك عندما رمى بنفسه في ماء السند، بدلاً من الوقوع بالأسر، مما يدل على مدى القوة والشجاعة التي اتصفت بها تلك القوات والتي كانت على الرغم من إدراكها لمصيرها تقاتل حتى آخر نفس لها. انتهت الواقعة وانتهت معها أحلام السلطان باستعادة أملاكه، وعاد إلى حياة التشرد والبؤس في الهند، تلك المنطقة التي لا تدخل في نطاق البحث لذا لن يتم الحديث عنها، أما الآن لابد من التطرق للحديث عن اجتياح غزنة من قبل المغول ، وما انتظرها من متاعب وشورر .

د- اجتياح المغول مدينة غزنة:

ارتبط اسم غزنة بحوادث كثيرة تمّ التطرق لذكرها، وأهمها موقعة بيروان، تلتها واقعة نهر السند، أما الآن سيتم تناول اجتياح المغول لمدينة غزنة والذين اجتاحتها قبل موقعة بيروان وبعدها، ولكن تمّ تأخير البحث عنها لكونها ارتبطت بتلك الوقائع التي عدّت أحداثها أهم منها وأوسع، وللرغبة في إفراة فقرة خاصة بها وعدم تجزئة أحداثها إلى فقرات متفرقة، لكي يتم من خلال ذلك توضيح أعمال المغول فيها ، ولمتابعة المنهج ذاته الذي تمّ اتباعه في الحديث عن المناطق المجتاحة على يد المغول.

فقد طرق المغول أبواب غزنة مرتين الأولى كانت قبل واقعة نهر السند فبعد أن هُزم الجيش المغولي وتراجع طالباً النجدة من جنكيزخان الذي سارع بالقدوم للانتقام لهزيمة جنوده، وصل الخان إلى حدود المدينة فترى قليلاً قبل دخولها، إذ وردته أنباء مفادها أن السلطان جلال الدين كان موجوداً بها، ولكنه غادرها منذ خمسة عشر يوماً واتجه نحو نهر السند بغية عبوره، لذا فما كان من جنكيزخان إلا أن دخل المدينة، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً بل غادرها سريعاً في أثر

السلطان وذلك بعد أن رتب شحنه فيها يدعى ماما يلواج^(١)، فهكذا ذكرت المصادر ولكنها لم تطرق لكيفية دخول الخان إلى المدينة، ولكن لكونه وضع شحنه فيها فهو قد دخلها بأمان، وذلك لكون وضع الشحنات في المدن من الإجراءات التي اتخذها المغول تجاه المدن التي سالمتهم، وإنما كانت غزنة مقر السلطان جلال الدين ومركزاً تجمعت فيه قواته، لذا فلم يكن من البديهي أن يلقى فيها المغول مقاومةً، أم ربما أخلاها السلطان من جميع العناصر المسلحة عندما انسحب إلى ضفاف السند، أو أن الجنود غادروها بعد أن اختلفوا فيما بينهم فأثرت كل فرقة الانسحاب مع قائدها تاركين المدينة إلى مصيرها المجهول، لذا أثر السكان الاستسلام بغية النجاة من الإبادة، وذلك بعدما التمسوا ضعف السلطان جلال الدين وتفرق قواته، أو ربما لم يرغب الخان بتدميرها لكونه كان في عجلة من أمره، فأثر ترك تحديد مصيرها إلى حين تبيان مصير حاكمها جلال الدين، وبعدها يقرر مستقبلها، ولكن قبل ختام الحديث عن الدخول الأول للمغول إلى مدينة غزنة، لابد من التطرق هنا إلى رواية ذكرها الجويني مفادها أنه قبل موقعة بيروان كلفت فرقة مغولية قوامها " اثنا عشر ألف جندي " بتعقب السلطان والبحث عنه، فما كان من هذه الفرقة إلا أن وصلت إلى مدينة غزنة، فوجدت المدينة بلا حامٍ ولا جيشٍ يدافع عنها، حتى أن السكان لم يتوقعوا قدوم المغول بل اندهشوا بدخولهم مدينتهم فأقدموا على إحراق قسمٍ من المسجد الجامع، كما أنهم قتلوا كل من عثروا عليه في الطرقات والأزقة وفعلوا كل هذه الأشياء في يومٍ واحدٍ، وبعدها غادروا المدينة بعد أن أخذوا منها دليلاً ليرشدتهم إلى حيث اتجه السلطان حيث تمكنوا من الالتقاء به وقتاله^(٢). ولكن ما مدى صحة تلك الرواية؟ ألم يخلط الجويني بين تلك الحادثة وحادثه أخرى؟ فالفرق المغولية التي كانت موجودة في المنطقة احداها كانت تحاصر قلعة واليان، وبعض القلاع الأخرى، وفرقة أخرى كانت بقيادة شيكي قوتوقو ولم يصل إلى المكان فرق أخرى، وإذا كانت روايته صحيحة فلم تكن الفرقة المكلفة بملاحقة السلطان جلال الدين تمتلك متسعاً من الوقت لنهب غزنة وإحراقها وقتل سكانها، وقد تحدث عن كونها لم تواجه مقاومةً في المدينة وخاصةً أن المدينة في ذلك الوقت تجمعت فيها أعدادٌ من الجنود، كما أن السلطان لم يكن بعيداً عنها، بل كان يقربها بإمكان سكانها إغلاق أبوابهم وانتظار المساعدة من السلطان جلال الدين

(١) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٦١؛ طقوش، تاريخ المغول الإيلخانيين، ص ٦٩؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٣٤؛ اقبال،

تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٣٧٢؛ أما ماما يلواج: انظر تعاريف ص ٣٥٩

(٢) الجويني، ج ٢، ص ٩٦.

والذي كان بحوزته مايقارب" الستين ألفاً من الجنود" فكان بإمكانه إبادة تلك الفرقة التي لم يتجاوز عددها " الاثنا ألفاً" ويكون بعمله ذاك حمى مركزه في غزنة، ذلك المركز الذي لم يرغب بالتخلي عنه فيما بعد إلا بعد أن فارق نصف قواته بعد نصر بيروان وفقد الأمل في مواجهة جيش الخان الذي اتجه نحوه لذا توجه نحو ضفاف السند.

سَلِمَت غزنة من التدمير أول مرة، ولكنها لم تسلم في المرة الثانية حيث طرقتها جيوش المغول في سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م بقيادة أوكتاي إذ كلفه والده بالتوجه نحوها وذلك بعد أن غادر ضفاف نهر السند وتحرك باتجاه ضفاف نهر جيحون، وقد زوده بأوامر كان فحواها التقدم باتجاه المدينة، وبعدها العمل على اخلائها من السكان ووضعهم في الصحراء - أي في فضاء واسع خالٍ من الأبنية-، ثم المحافظة على أرواح أصحاب الحرف وارسالهم إلى منغوليا ، ومن بعد ذلك وجب عليه افناء جميع السكان وتخريب المدينة ^(١) وفعلاً نفذ أوكتاي الأوامر التي زوده بها والده، وأنزل غضبه بالسكان فقتلهم واستأصل شأفتهم، وبعدها دمر المدينة فأحالتها إلى خرابٍ كاملٍ ^(٢). هذا ما ذكرته المصادر الفارسية عن تدمير المدينة، تلك المهمة التي كُلف بها أوكتاي والذي كان قد انتهى من مهمته في خوارزم وبعدها التحق بوالده عند أسوار الطالقان، ومن بعد ذلك سار معه إلى قتال السلطان جلال الدين عند ضفاف السند، ثم كلفه بمهمةٍ أخرى وهي تدمير غزنة، التي حكم جنكيزخان بالموت على سكانها على الرغم من مسالمتهم له، ربما خشي جنكيزخان من عودة السلطان جلال الدين إليها بعد أن يرمم جراحه فيتخذها من جديد قاعدةً له، لكونها قريبة من الهند المكان الذي التجأ إليه السلطان فربما ساعده أهلها وقدموا له العون والدعم، أو من الممكن أن تتجمع فيها فلول الخوارزميين التي انتشرت في المنطقة بعد الهزيمة على ضفاف السند، ومهما كان الأمر فقد دُمرت المدينة بالكامل.

ولقد كان لابن الأثير رواية أخرى فيما يتعلق باجتياح مدينة غزنة، حيث تحدث عن كون المغول دخلوها مرةً واحدةً فقط، وذلك بعد أن انتصروا على السلطان جلال الدين ، فاتجهوا نحو المدينة التي خلت من أيّ مدافعين عنها، فتمكنوا من دخولها وفعلوا فيها ما درجت عليه العادة من قتل أهلها ونهب أموالهم، وسبي حريمهم، وبعد أن قتلوا كلَّ هؤلاء عمّدوا إلى تخريبها واحراقها ولم

(١) الجويني، ج ١، ص ١٤١؛ رشيد الدين الهمذاني، ص ٣٦٣؛ غروسيه، ص ٣٠١

(٢) رشيد الدين الهمذاني، ص ٣٦٣؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٧٥؛ يارتولد، تركستان، ص ٦٢٥.

يكن الدمار نصيبها فقط، بل طال أرباضها وما أحاط بها من مدنٍ صغيرة تعرضت هي الأخرى للدمار والقتل والحرق والنهب، فأضحت خاوية خالية من أي أثرٍ للحياة^(١). وقد عبّر عن ذلك المؤرخ ابن الأثير فقال: "فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغنِ بالأمس"^(٢) وقد عبّر الحميري كذلك الأمر عن حالها فقال: "فتركوها دكاً بعدما قتلوا أهلها وفعلوا ما جرت به عادتهم"^(٣)، ولابد من مناقشة رواية ابن الأثير والعودة إليها للتنبية بأنه لم يذكر القائد الذي كُلف بالتوجه نحو غزنة، كما لم يبين الأوامر التي زود بها، فقط تكلم عن خلو المدينة من حماة لها، وإلى مصيرها الذي آلت إليه، ودمرت غزنة وتحولت إلى أثرٍ بعد عين وقد زارها ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد فتحدث عن خرابها فقال: "وقد خُرب معظم البلد ولم يبقَ فيها إلا اليسير وكانت كبيرة وبردها شديد"^(٤)، ويستخلص من كلماته السالفة بأن الحياة عادت إليها رويداً رويداً، ولكن بقي الخراب مسيطراً على قسمٍ منها، وذلك لكونه قد وصفها بأنها كانت كبيرة، ولم يتحدث عن كونها كانت كبيرة في زمانه، وأشار إلى تخريب معظمها وبقاء قسمٍ يسيرٍ منها، ربما سكنته بقايا سكانها الذين اختفوا في الأحرار والجبال المجاورة، والذين أعادوا الحياة نوعاً ما إلى تلك المدينة التي أفناها المغول فقط لكون السلطان جلال الدين قد التجأ إليها في مرحلةٍ من مراحل حياته، وحاول إعادة بناء مجده الزائل.

ومع غزنة تنتهي سلسلة الاجتياحات التي نفذها المغول بحق الدولة الخوارزمية وقواعدها الأساسية، ولكن قبل نهاية الفصل، لابد من التطرق إلى اجتياح أذربيجان على يد المغول، وذلك لاعتباراتٍ كثيرة، أولها لقرب ذلك الاقليم من الدولة الخوارزمية، ولصلاته الوثيقة به، بل إن بعض مدنه تبعت وانطوت تحت سلطة الخوارزميين، أو تحت سلطة أتباعهم لذا لابد من إفراد فقرة خاصة لتبيان أوضاع مدن أذربيجان وما أصابها على يد المغول.

رابعاً: اجتياح المغول لإقليم أذربيجان:

فرغ المغول من أعمالهم التخريبية في اقليمي بلاد ما وراء النهر، وخراسان، وما تبع لهما من أقاليم مجاورة ودفعهم حب الاستطلاع والتوسع والاتجاه نحو مناطق الغرب والشمال بالتوجه نحو

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٣.

(٣) الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٢٨.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ٦١.

اقليم أذربيجان ، وذلك لقربه من اقليم الجبال الذي مروا به واجتاحوه من قبل حيث تكون لديهم ولو صورة بسيطة عن تلك المناطق التي اندفع إليها جبهه، ولكون بعض مناطقه كانت تتبع لحكم الدولة الخوارزمية أو لحكام تابعين لها.

قبل كل شيء لابد من تبيان موقع الاقليم الجغرافي وذكر بعض من صفاته التي اتصف بها. فهو يقع في الاقليم الخامس^(١)، بين اقليمي الجبال والران وأرمينية^(٢) والعراق^(٣)، عدّه كل من المقدسي والحميري من الكور^(٤)، بينما عدّه القزويني من النواحي ووصفه بسعة الرقعة^(٥). أياً كان فقد عدّ صقعا عظيماً غلبت الجبال عليه، وعُرف بكثرة خيراته وبساتينه وبغزاره أمطاره وعيونه، إضافةً إلى كثرة قلاعه^(٦)، ولم يتمتع الاقليم بمكانةٍ عاليةٍ في الحقبة الإسلامية الأولى، وذلك لكونه يقع بعيداً عن طريق الحرير الذي كان يخترق بلاد ماوراء النهر وخراسان ويعدّ شريان الحياة في المنطقة، لذا بقي منعزلاً مدة طويلة من الزمن، ولكن علا شأنه بعد الغزو المغولي للإقليم حيث اكتشف هؤلاء ثرواته واعتدال مناخه صيفاً مما دفعهم إلى بناء مدينة لهم فيه^(٧). واحتوى الاقليم على العديد من المدن اشتهر منها: تبريز، وأردبيل، ومراغة وغيرها من المدن التي تناوبت زعامة الاقليم خلال مراحلها التاريخية المختلفة، ولكن تعرضت هذه المدن كغيرها للغزو المغولي وهذا الأمر سيتم توضيحه فيما يلي:

١- حصار مدينة تبريز:

انطلق المغول بعد اجتياحهم اقليم الجبال مجتازين الوديان والشعاب الجبلية حتى انتهى بهم المطاف في اقليم أذربيجان، الذي كثرت مدنه، وتشعبت طرق مواصلاته التي ربطته بمناطق أرمينية والعراق، ووجدت فيه مدنٌ كثيرةً مهمةً من أهمها تبريز مركز السلطة الحاكمة في تلك المدة الزمنية، وبكل تأكيد لم تترك تبريز بل توجهت إليها جحافل المغول ، ولكن قبل الحديث عن مصيرها ، لابد من رسم صورةٍ ولو بسيطة عن موقعها الجغرافي وصفاتها التي ميزتها عن غيرها،

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٨.

(٢) أرمينية: انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٣) القزويني، ج ٢، ص ٣٠٤، معروف، عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٤) المقدسي، ص ٢٨٨؛ الحميري، ص ٤٣.

(٥) القزويني، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٦) ياقوت، ج ١، ص ١٢٨؛ غروسيه، ص ٣٢٤؛ لسترنج، ص ١٩٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

فهي تقع على بعد ثلاثين ميلاً شرقي بحيرة أرمية^(١)، على ضفة نهر مهران رود^(٢)، كانت بدايةً عبارة عن قرية صغيرة، ولكن في العصر العباسي الأول نزل فيها بعض الأمراء فشرعوا ببنائها حيث حصنوها بسورٍ وبنى فيها العديد من القصور، مما دفع السكان إلى سكنى فيها فتحولت من قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة، وسوف تكون فيما بعد عاصمة الدولة الأيلخانية^(٣)، و تباين المؤرخون في وصفها والتغني بحاسنها التي امتازت بها عن مدن المنطقة، فهذا المقدسي جاءت كلماته كالتالي: "ومايدريك ماتبريز، هي الذهب الأبريز، والكيمياء العزيز، والبلد الحريز، يُختار على مدينة السلام، وتباهى بها أهل الاسلام، وتجري خلالها الأنهار، وتميدُ في سوادها الأشجار، ولا تسأل عن رخص الأسعار، وكثرة الثمار، الجامع وسط البلد، وطيبها لا يحد"^(٤)، أما ياقوت الحموي فقد وصفها بقوله: "مدينة عامرة حسناء ذات أسوارٍ محكمة بالآجر والجص وفي وسطها عدة أنهارٍ جارية والبساتين محيطة بها"^(٥)، بينما وصفها القزويني بقوله: "مدينة حصينة ذات أسوارٍ محكمة، الآن قصبة بلاد أذربيجان"^(٦). تمتعت المدينة إضافةً لمميزاتها الجغرافية بمميزاتٍ أضافها البشر إليها فقد تمتعت بالحصانة، وحصانتها تلك حمتها من غزوات الشعوب المجاورة لها، كما أنها كانت مدينةً خصبةً كُثرت فيها قنوات الريّ و التي زادت من إنتاجها الزراعي والصناعي ، فغدت مركزاً صناعياً مهماً ولاسيما في عصر المؤرخ ابن فضل الله العمري الذي أشاد بمكانتها الصناعية وتحولها إلى محطٍ للقوافل والتجار الذين قصدوها من أصقاع العالم^(٧)، و ما يهيم في الأمر أن تبريز كانت تحكم في عصر الدولة الخوارزمية وبداية غارات المغول على المنطقة من قبل السلطان مظفر الدين أزيك بن محمد البهلوان بن إلدكز ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م^(٨) والذي أهمل شؤون المملكة، وكان ضعيف الشخصية مما دفعه إلى ترك

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٧

(٣) لسترنج، ص ١٩٠؛ الزهاوي ، ص ٥٤.

(٤) أحسن التقاسيم، ص ٢٩٠

(٥) معجم البلدان، ج ٢، ص ١٣.

(٦) آثار البلاد، ج ٢، ص ٤٠.

(٧) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، ص ١٦١.

(٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٦٠.

مدينته والهروب منها وذلك عندما اقتربت منها جحافل المغول أول مرة، وقد خسر مملكته فيما بعد لصالح السلطان جلال الدين منكبرتي وذلك سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م^(١).

أما الآن بعد ذلك العرض البسيط، لابد من التطرق للحديث عن حال المدينة مع المغول، فلقد اقتربت القوات المغولية من المدينة ثلاث مرات، الأولى كانت خلال المدة التي كان المغول منشغلين فيها بمطاردة السلطان علاء الدين محمد، فبعد أن فقد كل من جبهه وسوبوداي الأمل في العثور عليه دفعهم حب الاستطلاع والمغامرة إلى التقدم نحو الشمال، فوجدا نفسيهما في اقليم أذربيجان وكان ذلك في فصل الخريف، وتابعا مسيرهما فاقتريا من مدينة تبريز والتي كان حاكمها غافلاً عما يجري في الخارج مشغولاً بحفلات شربه ولهوه، لذا فقد ارتعب لقدمهم لكونه لم يكن قادراً على مقاومتهم^(٢)، فسارع إلى مصالحتهم وأرسل لهم الأموال والخيول والثياب ملبياً كل مطالبهم، فغادروا تبريز دون التعرض لها بسوء، وسارعوا باتجاه ساحل البحر حيث قضوا هناك فصل الشتاء وذلك لقسوة شتاء أذربيجان وكثرة ثلوجها^(٣). كان القائدان جبهه وسوبوداي في عجلة من أمرهما، ولم تكن حملتهما مدروسة ومخطط لها، بل كانت عبارة عن فرق مطاردة هدفها الأساسي إضافة إلى ملاحقة السلطان علاء الدين جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن مناطق حوض بحر قزوين وأذربيجان وأرمينية، والتعرف بالتالي على تضاريس المنطقة وملاحمها الجغرافية والسياسية، لذا لم يلجأ هؤلاء إلى تدمير المناطق التي سالتهم، ربما لعدم امتلاكهم الإمكانيات اللازمة، لذا دمروا فقط المدن التي عارضتهم بشدة. هكذا كان حال تبريز عندما مرت بقربها جحافل المغول أول مرة، فقد كانت غافلة عما يجري، وعندما أدركت فداحة ما اقترب منها، وذلك من فلول الناجين الذين ربما زاروا المدينة، أو مروا بقربها، أو اتخذوها ملاذاً آمناً لهم بعد خراب مناطقهم أثرت السلامة فسارعت إلى مسالمة المغول الذين غادروها مسرعين إلى مناطق أخرى. تابع المغول بعد ذلك مسيرهم فرحلوا نحو مناطق أران وبلاد الكرج، حيث جرت حوادث كثيرة وتمكنوا هناك من هزيمة جنود الكرج التي استعدت إلى لقائهم دفاعاً عن

(١) المصدر نفسه، ج ٢٢، ص ١٦٠.

(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٦؛ ابن واصل الحموي، ج ٤، ص ٤٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٣.

(٣) رشيد الدين لهمداني، ص ٢٦٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٩٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٣٦.

بلادهم ضد ذلك الخطر الماحق، ولكن لاسبيل إلى التطرق والحديث عن ذلك الموضوع الآن حرصاً على عدم الإطالة والخروج عن موضوع الفصل^(١).

بعد انتصار المغول ذاك قرروا العودة إلى جنكيزخان، فما كان منهم إلا أن دخلوا إقليم الجبال من جديد وطرقوا أبواب همذان كما ذكر من قبل^(٢)، وبعدها اتجهوا ثانية نحو إقليم أذربيجان ولم يُعرف سبب تحركهم ذاك وذلك لكونهم قرروا العودة إلى خانهم وليس التوجه من جديد، نحو أذربيجان، لم يكن المغول في هذه المرة في عجلةٍ من أمرهم، كما أن الفصل لم يكن بارداً بالشكل الذي يمنعهم من الحركة والانسحاب السريع، وامتلكوا في تلك المرحلة الكثير من الغنائم، لذا كان موقعهم أقوى في هذه المرة. ولقد اتجهوا بدايةً نحو تبريز التي عاد إليها حاكمها ابن البهلوان، والذي سرعان ما أعاد الكرة وهرب إلى مدينة نقجوان^(٣)، بعد أن أرسل أسرته إلى مدينة خوي^(٤). وقد فسّر ابن الأثير تصرفه ذاك بقوله: "كان أميراً متخلفاً، لا يزال منهمكاً بالخمر ليلاً ونهاراً، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وكان له جميع أذربيجان وأران وهو أعجز خلق الله، لما سمع بمسير التتر من همذان فارق تبريز وقصد نقجوان وسيّر أهله ونساءه إلى خوي"^(٥).

أدى ضعف حاكم تبريز إلى عدم الصمود والدفاع عن مدينته، بل الفرار دائماً وتركها تواجه مصيرها المشؤوم، ولكن ما يدفع إلى الاستغراب موقف السكان من ذلك الحاكم فلماذا لم يسارع هؤلاء بالثورة عليه وطرده من المدينة وتولية أحد الأشخاص للدفاع عنهم بدلاً منه ، وذلك لأنه خذلهم أول مرة هذا من جانب ومن جانبٍ آخر، يلاحظ بأن الحاكم اتجه إلى مدينة معينة وسيّر أسرته إلى أخرى، ربما كانت تلك المدينة أبعد، أم أراد المكوث في نقجوان وحده لمتابعة لهوه، ما يلاحظ أيضاً بأنه لم يصلح المغول كما فعل في المرة الأولى، ربما الخوف والارتباك دفعاه إلى ذلك الأمر، وربما لم يأمن جانب المغول ولاسيما بعد أن سمع أخبار تدميرهم لمدينة همذان التي سلف أن وضعوا فيها شحنةً، ولكن أهل همذان - كما سلف القول - ثاروا ضد الشحنة المغولية، أما هو فلا، فلماذا أصابه كل ذلك الخوف ودفعه إلى التحرك وترك تبريز لقدرها؟

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٥٢؛ رشيد الدين لهمذاني، ص ٢٦٧.

(٢) انظر ص ٢٠٦ وما تلاها.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥١؛ ابن واصل، ج ٤، ص ٥١.

(٥) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥١.

لم تترك الأقدار تبريز لوحدها بل هيأت لها شخصية شمس الدين الطغرائي الذي كان من سكانها والذي سارع السكان لاختياره والياً عليهم بعد فرار حاكمهم، فما كان من الأخير إلا أن استعد لمواجهة المغول، ومقاومة حصارهم بأن جمع كلمة السكان من حوله، واتفق معهم على المقاومة ، وحرص على رفع معنوياتهم وحذرهم عاقبة التخاذل، وبعد ان فرغ من رفع الروح المعنوية للسكان، عمد لتحسين البلد وترميم أسوارها وخذقها، وزيادة دفاعاتها وقد أنجز كل ذلك بجهده الخاص وبمساعدة السكان له. اقترب المغول من أسوار تبريز فلاحظوا مقدار حصانتها واستعداداتها، واصرار أهلها على القتال ، لذا فما كان منهم إلا أن راسلوا أهلها طالبين منهم العلوقة من مالٍ، وثيابٍ ودوابٍ وبعد عدة مراسلات اتفقوا مع أهلها على قدرٍ معلومٍ من الثياب والأموال فأخذوه وغادروا المدينة التي نجت من المغول ومن تدميرهم لها^(١)، وهكذا تحدث ابن الأثير عن اقتراب المغول من أسوار تبريز فهو أشار إلى كون المغول قد أذهلهم مقدار حصانة البلد فسارعوا إلى مصالحة السكان، ولكن إذا ماتمت مطالعة رواية رشيد الدين الهمذاني يلاحظ الآتي: بأنه عدّ شمس الدين الطغرائي وأهل تبريز هم الذين بادروا بالصلح وحاولوا إرضاء المغول ببذل الأموال الكثيرة لهم، فما كان منهم إلا أن تركوا تبريز وتوجهوا نحو مراغة^(٢)، و ما يلاحظ في كلا الروايتين بأن كاتبها كانا منحازين إلى فئةٍ معينةٍ، ابن الأثير كان منحازاً بطبعه إلى الشعب الذي تعرض للاجتياح والدمار لذا فقد حرص على اظهاره بمظهر المستميت في الدفاع والراغب في نيل الشهادة في سبيل بلاده، وأظهره دائماً بمظهر القوي، بينما رشيد الدين الهمذاني كان من مؤرخي بلاط المغول في العصر الدولة الايلخانية، فبكل تأكيد ما كان ليتطرق لرواياتٍ تظهر مقدار ضعفهم واستعصاء بعض الأماكن عليهم، كما أنه كان ينقل من دواوينهم الرسمية ومراسلاتهم التي كانت تصاغ بشكلٍ يتناسب مع الميول الشخصية الحاكمة ، و هدأت بعد ذلك الأوضاع في منطقة أذربيجان لبعض الوقت وعاد كل من جبهه وسوبوداي إلى معسكر جنكيزخان وزوداه بمعلوماتٍ مهمةٍ ستساهم فيما بعد على اجتياح المنطقة في عهد خلفاء جنكيزخان، أما فيما يخص أذربيجان في تلك الحقبة فقد عادت إليها الحياة نوعاً ما، ونهض سكانها إلى ترميم ما دمره المغول، ولقد رُفِع الحصار عن تبريز وزال شعور الخوف الذي سيطر على السكان لمدةٍ طويلة واستمر الوضع على ذلك حتى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م فقد عادت المنطقة لتشهد اضطراباً

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٥١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٥١.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٦٧.

جديداً، سببه تقدم المغول نحو المنطقة وعيْثهم فساداً فيها بعد نصرهم على السلطان جلال الدين، وفراره نحو الهند، لذا اتجهت طائفةٌ منهم نحو اقليم الجبال بتكليفٍ من جنكيزخان حيث اجتاحت مدينة الريّ كما ذكر من قبل^(١)، وغدت المنطقة مسرحاً لأعمالهم التخريبية، حيث تمكنوا هناك أيضاً من مهاجمة بعض الجنود الخوارزميين الذين تجمعوا خارج المدينة واستطاعوا هزيمتهم، ولكن المهم في الأمر أن قسماً من هؤلاء الجنود فرّ من اقليم الجبال باتجاه اقليم أذربيجان، ونزل بأطرافه واختبأ في مدنه^(٢). وبنزوله فيها دفع بجحافل المغول نحو المنطقة من جديد، الذين سارعوا الخطا للبحث عن كلّ أثرٍ للخوارزمية، وتمكنوا من القضاء على بعض الجنود الذين انتشروا في المناطق الحدودية بين الاقليمين، ولكن قسماً من هؤلاء الجنود التجأ نحو مدينة تبريز، فكان لابد من القبض عليهم. ولكن بما أن تبريز كانت خاضعةً لهم، هي وحاكمها أوزبك الذي عاد إليها واستقر فيها من جديد بعد زوال الخطر المغولي^(٣)، لذا فإنهم لم يندفعوا نحوها بل راسلوا حاكمها مطالبين إياه بتسليمهم الخوارزميين حيث أخبروه التالي: "إن كنت موافقنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا، ولا في طاعتنا"^(٤). فما كان من أوزبك لخوفه منهم إلا أن سارع إلى ما في المدينة من الخوارزمية فعمد إلى قتل البعض وأسر الآخرين، وسلم الجميع إلى المغول وأرسل معهم أيضاً الأموال والثياب والدواب كعادته، لذا تراجع المغول عن تبريز وانسحبوا إلى أراضي خراسان بعد أن حققوا مبتغاهم بالقضاء على الخوارزمية والحصول على العلوقة اللازمة^(٥). و يستخلص مما سلف بأن أوزبك حاكم تبريز ظلّ على ولائه للمغول، ولم يجرؤ على الثورة ضدهم، ربما لضعفه واستهتاره وانصرافه إلى العبث، أو لخوفه من المغول وإدراكه لنتائج الثورة عليهم، كما أن المغول كذلك الأمر لم يتكروا لاتفاقهم الذي عقده معه، ربما لكون الفرق التي اقتربت منها لم تكن من الضخامة بحيث تتمكن من اجتياح مدينة كبيرة وحصينة مثلاً، أو لكونهم قد لمسوا مقدار استعدادات سكانها، وصعوبة هدم تحصيناتها، والتي يحتاج هدمها لعتادٍ وجنودٍ كثير، ولكن لم

(١) انظر ص ٢٢١.

(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٨٣؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٨٣.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٢٧؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٢٢٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٦.

تبقى تبريز مدةً طويلةً بيد أوزبك بن البهلوان، بل فقدتها لصالح السلطان جلال الدين الذي اندفع إلى المنطقة بعد عودته من الهند وتمكن سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م من الاستيلاء عليها^(١). فأضحت ضمن أملاكه و ضمَّ إليها عدداً من المدن الأخرى، ولكن بمقتله سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م انتقلت من جديد إلى أملاك المغول وأضحت لاحقاً جزءاً من الدولة الإيلخانية.

٢ - توجه المغول نحو أردبيل:

ثاني المدن التي تأثرت باندفاع المغول نحو المنطقة مدينة أردبيل، تلك المدينة التي تقع كذلك ضمن نطاق اقليم أذربيجان، من المهم الاطلاع على بعض المعلومات الجغرافية عنها، ليتم بعد ذلك الحديث عن أحوالها إبان الغزو المغولي للمنطقة، تقع المدينة في الاقليم الربع^(٢)، وتبعد عن بحر قزوين مسيرة يومين، وعن تبريز مسيرة سبعة أيام، بينما تبعد عن مراغة مسافة أربعين فرسخاً^(٣)، و عدت أردبيل قسبة اقليم أذربيجان في المدة التي تقدمت على انتشار الاسلام في الاقليم^(٤)، واستمرت تتمتع بمكانة عالية إلى القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، ولكن تراجع مكانتها بعد ذلك لصالح مدنٍ أخرى، وهذا لم يمنع من استمراريتها بهائها وجمالها وجودة عمرانها وحصانيتها، وقد تطرق المقدسي إلى وصف خطط المدينة التي كانت قائمة في زمانه حيث قال: "عليه حصنٌ منيعٌ وأسواقها مصلبة إلى أربعة دروب، والجامع وسط الصليب على نشزه، خلف الحصن ربضٌ عامرٌ، والغالب على بنيانهم الطين، كثير فرض الماء، والفواكه"^(٥). يفهم مما سلف بأن المدينة بنيت على نسق المدن الرومانية القديمة التي وجدت في المنطقة والتي أسس مخططها على شكل صليبٍ تتوزع خلاله الأسواق، ويتوسطه المسجد الجامع، ويحيط به الحصن، أما خارج الحصن فقد انتشرت أرباض المدينة وبساتينها، ولكن بعد زمن المقدسي حدث تطور في مخطط المدينة، وفيما أحاط بها من بساتين وأرباضٍ كثيرةٍ، وقد برهن على ذلك حديث ياقوت الحموي عنها بعد زيارته لها سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م حيث مرَّ بها في أثناء فراره من المغول، فشاهدها في فضاءٍ فسيحٍ من الأرض، تحوي الكثير من الأنهار والمياه الجوفية ولكن لم

(١) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٩٦.

(٢) ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٥؛ الحميري، ص ٤٩.

(٤) ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٤٥؛ القزويني، ج ١، ص ٣١١.

(٥) المقدسي، ص ٢٩٠.

يوجد فيها بساتين للفاكهة^(١)، وقد أشار إلى الملاحظة نفسها القزويني^(٢)، ربما بسبب انخفاض الحرارة في المدينة وبرودة طقسها لم تنم فيها أشجار الفاكهة، أو ربما اهتم سكانها بزراعات أخرى مهملين الاهتمام بزراعة الأشجار، ومهما يكن فقد تمتعت أردبيل بمكانة مهمة جعلتها من المدن المتميزة في اقليم أذربيجان. ولكن مرّ بها المغول كالعادة وأحالوا كلّ جمالها لخرابٍ وهذا الأمر سيتم شرحه في الأسطر التالية، وفيما يخص المعلومات التي وردت عن المدينة فهي على الرغم من قلّتها وندرتها، متباينة بين مؤرخ وآخر، فقد اختلف هؤلاء في تحديد الوقت الذي توجه فيه المغول نحوها، ولكنهم اتفقوا على أن مصير سكان المدينة كان القتل على يد المغول، بدايةً إذا اطّلع الباحث على ما أورده رشيد الدين الهمذاني عن المدينة في كتابه، فإنه يلاحظ الآتي: فقد عدّ كلاً من جبهه وسوبوداي هما المسؤولان عن اجتياح أردبيل، ولكنهما قبل أن يتوجها إليها، اتجها إلى ناحية أران، وبعد ذلك إلى مدينة سراو^(٣)، ثم اتجها نحو أردبيل حيث مارسا فيها أعمالهم المعتادة من قتلٍ وإغارة، وبعد أن انتهيا توجهها نحو مدينة أخرى^(٤)، أما الجويني فإنه يذكر عن توجه القائدين بدايةً إلى مدينة سجاجس^(٥)، وبعدها نحو أردبيل حيث فرضا الحصار عليها، و قتلًا سكانها ونهبًا المدينة ليغادراها عند حلول فصل الشتاء إلى مدينة أخرى^(٦)، بالتالي أشار كلا المؤرخين إلى أن القائدين كانا يجوبان المنطقة، وعمداً إلى اجتياح العديد من المدن قبل اجتياحهم لها، ربما وجدت إلى شمالها أو جنوبها، ولكنهما عادا وفرضا الحصار عليها، ربما لكون سكانها رفضوا الاستسلام، أو لكونهم رغبوا في الدفاع عن مدينتهم وخدمهم في ذلك الأسوار التي أحاطت بالمدينة، وما يهّم في الأمر أنهم لم يصمدوا طويلاً، بل كان مصيرهم الفناء على يد القائدين، ولكن إذا ما وضعت الروايات الفارسية جانباً، وتم الانتقال لما كتبه المؤرخون العرب فإنه يلاحظ بأنهم اجمعوا على رواية واحدة مفادها أن المغول لما فرغوا من تدمير همذان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م رحلوا عنها باتجاه أردبيل فوصلوا إليها وتمكنوا من دخولها،

(١) معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٥.

(٢) آثار البلاد، ج ١، ص ٣١١.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٤) التاريخ الغازاني، ص ٢٦٨.

(٥) انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٦) تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٨.

وقتل سكانها جميعاً وتخريب المدينة، وبعد ذلك تركوها واتجهوا منها نحو مدينة تبريز^(١)، بالتالي فقد حدد المؤرخون العرب تدميرها بالمدة اللاحقة لتدمير همدان، ولتكتمل الصورة التي رسمها المؤرخون نوعاً ما عن مدينة أربيل لأبد من معاينة ما ذكره ياقوت الحموي في كتابه عنها، فياقوت كان شاهد عيانٍ زار المنطقة قبل تدميرها عندما اجتاز بها في طريقه إلى الموصل، وتطرق بعد ذلك لحالها التي آلت إليه بعد ذلك حيث سمع عنها من أفواه الناجين من ذلك الغزو والذين نجح بعضهم في الوصول إلى الموصل فقال واصفاً الواقعة: "نزل عليها التتر وأبادوهم بعد انفصالي عنها وجرت بينهم وبين أهلها حروبٌ، ومانعوا عن أنفسهم أحسن ممانعة، حتى صرفوهم عنهم مرتين، ثم عادوا إليهم في الثالثة فضعفوا عنهم، فغلبوا أهلها عليها، وفتحوها عنوةً وأوقعوا بالمسلمين، وقتلوهم ولم يتركوا منهم أحداً وقعت عينهم عليه، ولم ينجُ منهم إلا من أخفى نفسه عنهم، وخبئها خراباً فاحشاً، ثم انصرفوا عنها، وهي على صورة قبيحة من الخراب وقلة الأهل، والآن عادت إلى حالتها الأولى وأحسن، وهي في يد التتر، وسموها باذان فيروز"^(٢).

بالتالي بحسب رواية ياقوت الحموي قدم المغول إلى أربيل سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بعد أن غادرها ياقوت الذي مرّ بها في سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، ولكن سكان المدينة لم يستسلموا للمغول بل قاوموهم، وجرت بين الطرفين عدة صدامات حددها ياقوت بثلاث، فتمكنوا من هزيمتهم في أول صدامين، ولكنهم في الصدام الثالث ضعفوا فتمكن المغول من التغلب عليهم، ودخلوا المدينة عنوةً وأوقعوا سكانها بين قتيلٍ وأسير، ولم ينجُ منهم إلا من اختبأ في أحد المخابئ أو في باطن الأرض، وشرعوا بعدها بتخريب المدينة ثم غادروها، وتحولت أربيل إلى حالة يرثى لها، ولكن سرعان ما استعادت عافيتها على يد من تبقى من سكانها، أو على يد السكان الذين سكنوا في أرباضها فانتقلوا إلى السكنى فيها وتعميرها من جديد حيث دخلت ضمن نطاق دولة المغول الذين أطلقوا عليها اسماً جديداً^(٣)، ولكن ما يلاحظ بأن سكان أربيل لم يستسلموا للمغول، بل آثروا القتال حتى كان مصيرهم الفناء، ولقد امتلكوا تجهيزاتٍ وامكانياتٍ مكنتهم من الصمود أمام هجمات المغول، ولكن على الرغم من كل ذلك سرعان ما ضعفوا بعد ذلك، ولم يذكر المؤرخ سبب ضعفهم ذاك، إلا أنه من خلال رواية ياقوت الحموي السالفة يستنتج الآتي: وجود بعض

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٥١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٦؛ ابن واصل، ج ٤، ص ٥١؛ ابن كثير، ج ١٧، ص ٩٢.

(٢) معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٥.

(٣) لسترنج، ص ٢٠٢.

الثغرات، إضافةً لعدم ذكره اسم القائد الذي تحرك نحوها، أو من تولى الدفاع عنها بكل تأكيد كانت قوات محلية، ربما تبعت المدينة لحاكم تبريز وربما حكمتها أسرة محلية أخرى كانت موجودة فيها. هكذا كان مصير أربيل فكيف كان مصير غيرها من المدن.

٣- اجتياح مدينة مراغة:

كانت مراغة آخر المدن الكبرى التي اجتاحتها المغول في إقليم أذربيجان، وتقع المدينة على نهر الصافي^(١)، وتبعد سبعين ميلاً عن جنوب مدينة تبريز في موضعٍ تكثر فيه المراعي، لذا أخذت المدينة اسمها من كثرة مراعيها وحيواناتها التي كانت تتمرغ^(٢) فيها، ولاسيما في زمن آخر الخلفاء الأمويين^(٣) لذا أطلق عليها اسم مراغة، على الرغم من كونها كانت تدعى "أفراز هروذ" ذلك الاسم الذي أطلقه عليها الفرس الذين بنوها ورفعوا أسسها^(٤)، تباين المؤرخون في وصفها ولكنهم أجمعوا على التغني بحسنها وجمالها، فهذا المقدسي وصفها بقوله: "سرية لها حصن وبها قلعة ولها ربح"^(٥)، أما ابن حوقل فقال عنها: "مدينة نزهة كثيرة البساتين والأنهار والمياه والفواكه الحسنة"^(٦)، أما ياقوت الحموي فوصفها بقوله: "بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان"^(٧). بالتالي فقد كانت من أمهات المدن ومن المراكز الإدارية الهامة، إلا أن أهميتها قد تراجعت بعض الأحيان لصالح مدينة أربيل، و نالت المدينة اهتماماً ملحوظاً في العصر العباسي حيث عمد الخليفة هارون الرشيد إلى بناء سورٍ حولها، ورممه فيما بعد ولده المأمون ت ٢١٨هـ/ ^(٨)، واشتهرت المدينة بكثرة بساتينها والتي سقتها القنوات المنقرعة من نهر الصافي، كما كثرت فيها الأسواق ودور السكن والمدارس^(٩)، هذا حالها قبل اجتياح المغول لها، ولكن بعد ذلك انقلبت أوضاعها، وتطرق للحديث عن اجتياح المغول لمراغة مؤرخين أولهما رشيد الدين الهمذاني والذي تحدث عنها في معرض حديثه عن مدينة تبريز حيث اعتنى بعدها بذكر حال مدينة مراغة

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٦.

(٢) مرغ أي معك الشيء بالتراب، أو سيلان لعاب الشاه في أماكن تتناولها للطعام؛ ابن منظور، لسان العرب، ص ٤١٨٤.

(٣) وهو الخليفة الأموي مروان بن محمد : انظر تعاريف ص ٣٥٨

(٤) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٩٣؛ لسترنج، ص ١٩٨.

(٥) أحسن التقاسيم، ص ٢٨٩.

(٦) صورة الأرض، ص ٢٨٨.

(٧) المعجم البلدان، ج ٥، ص ٩٣.

(٨) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٣؛ لسترنج، ص ١٩٨؛ أما الخليفة المأمون انظر الفهارس ص ٣٥٨

(٩) القزويني، آثار البلاد، ج ٢، ص ٢٥٨.

والتي كانت تحكم أبنان موجات المغول على المنطقة من قبل امرأة لم يتطرق رشيد الدين لذكر اسمها، أو لأية أسرة انتمت، بل اكتفى بالحديث عن كونها كانت تسكن في قلعة روبين^(١). بالتالي فقد كانت المدينة خالية من أي مدافع يرد عنها كيد الأعداء، أو أية سلطة محلية أو رسمية تنظم جموع السكان لدفاع عن المدينة، فما كان من المغول إلا أن سارعوا بضرب الحصار عليها مستخدمين في حصارهم أسرى المسلمين الذين جمعوهم من مدن المنطقة التي اجتاحتها، وقد عمدوا إلى تقديمهم على عساكرهم لكي يتلقوا الضربات الأولى. وفعلاً اقترب المغول من المدينة التي أغلق سكانها أبوابها وضربوا حصاراً عليها وانهمكوا بفتح ثغرات في أسوارها، واستمروا يحاربون المدينة من وراء الأسوار لعدة أيام، وبعدها تمكنوا من دخولها عنوة، وشرعوا في قتل كل شخص فيها سواء أكان غنياً أم فقيراً، ضعيفاً، أم قوياً واستولوا على كل شيء وجدوه فيها، وعمدوا بعد ذلك إلى إحراقها ومن ثم غادروها^(٢). يستنتج مما سلف بأن حاكمة المدينة كانت من الضعف بمكان دفعها إلى الفرار وترك مدينتها تواجه مصيرها، ولكن لماذا لم تلجأ إلى مصالحة المغول كما فعل أوزبك حاكم تبريز، بل عمدت إلى التخلي عن مدينتها؟ ألم توجد قيادات محلية فيها قادت عمليات الدفاع عن المدينة؟ أم أن سكانها ظنوا بأن أسوار المدينة من الممكن أن تحميهم وترد عنهم كيد المغول، ألم يكن من الأفضل لهم الاتصال بالمغول وتسليمهم المدينة عوضاً عن اغلاق أسوارهم في وجههم ودفعهم إلى الوقوف أمامها لعدة أيام لكن لم يصرح رشيد الدين الهمذاني بالمدة التي قضاها المغول أمام أسوار المدينة وإنما استنتج ذلك من الرواية التي ذكرها في كتابه "وكان مصير المدينة الفناء"، وبالانتقال إلى رواية ابن الأثير فإنه يلاحظ الآتي: بدايةً حدد تاريخ انطلاق المغول نحو مراغة وذلك في شهر صفر من سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، وتحدث كذلك الأمر عن حصار المدينة من قبل قوات المغول التي لم تجد مقاومة كبيرة من سكانها لكون حاكمة المدينة قد غادرتها إلى قلعة رويندز^(٣)، بالتالي فقد ذكر اسم قلعة مغايرة لما ذكره رشيد الدين الهمذاني في روايته، وفرض المغول الحصار على المدينة، ولقد قاومهم أهلها على الرغم من غياب قائد يجمع كلمتهم وينظم صفوفهم، مما دفع المغول إلى نصب المنجنيق حول أسوارها، وزحفوا عليها دافعين أمامهم في أثناء زحفهم أسرى المسلمين الذين تلقوا

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٢) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٦٧.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٦

الضربات الأولى فقتل الكثير منهم ونجا المغول، واستمروا على هذه الحال لعدة أيام، مما يشير إلى كونهم واجهوا مقاومةً من قبل السكان، ولكن تمكنوا في الرابع من شهر صفر من دخولها عنوةً، حيث قتلوا جميع سكانها^(١). فكان وضع المدينة وسكانها كما وصفه ابن الأثير: "فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما يصلح لهم وما لا يصلح لهم أحرقوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب أن التتر قد رحلوا فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل"^(٢). بالتالي فقد كان مصير سكان المدينة القتل، ومصير المدينة النهب والتدمير، إضافةً إلى الحرق. ويستنتج مما سلف كذلك الأمر بأنهم عمدوا إلى استخدام أسرى المسلمين في وظيفةٍ أخرى غير استخدامهم كصفوفٍ متقدمة، وذلك بدفعهم للمناداة برحيل الجيش المغولي، كي يخرج السكان من مخابئهم، وفعلاً انطلت الحيلة على السكان، الذين قتلهم المغول فور خروجهم من مخابئهم. هكذا كانت رواية رشيد الدين الهمذاني وابن الأثير عن اجتياح مدينة مراغة رواية تشابه مثيلاتها من الروايات التي تطرقت إلى الحديث عن أفعال المغول في المنطقة، ولقد تطرق مؤرخون آخرون إلى الحديث عن مراغة ولكن ذكروها كاسمٍ، وذلك في معرض تعدادهم لأسماء المدن التي اجتاحتها المغول في أذربيجان^(٣). بانتهاء استعراض أوضاع مراغة ينتهي الحديث عن أعمال المغول في إقليم أذربيجان ولكنها لم تكن أعمالاً تخريبية كبيرة شبيهة بأعمالهم في إقليم ماوراء النهر وخراسان، وإنما كانت بوتيرةٍ أخف حيث استعادت المنطقة فيما بعد نشاطها وشغلت مكانةً مهمةً في المرحلة اللاحقة للغزو.

خامساً: مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م:

اجتاح المغول ضمن موجتهم الأولى أركان الدولة الخوارزمية ناجحين فعلاً في تقويضها ودافعين بسلطانها جلال الدين منكبرتي إلى الالتجاء نحو الهند والمكوث فيها حتى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م. ولكن لم يبق السلطان طويلاً في الهند، بل عاد وبعودته جرت مجموعة من الأحداث انتهت بوفاة سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وانهايار بقايا الخوارزميين إلى الأبد واختفائهم إلا من صفحات

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤٨.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٩؛ النسوي، سيرة السلطان، ص ١٩٥؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠٢؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٣٦.

التاريخ التي أشادت، أو قدحت بهم. لذا ستوضح هذه الفقرة الأحداث التي عاصرها السلطان جلال الدين حتى وفاته.

كتب الباحث ادوارد براون في كتابه تاريخ الأدب في إيران بضع كلمات وصف فيها حال السلطان جلال الدين حيث قال: "في هذه الأيام الحالكة التي وقعت فيها غارة جنكيزخان، وفي هذه الأوقات التي تلبدت فيها سماء إيران بالأدخنة المتصاعدة من المدن المحترقة، وتبلل فيها ثراها بالدماء المهركة من قلوب أبنائها، نجد أن جلال الدين خوارزمشاه بما حباه الله من شخصية لامعة يسطع لحظة قصيرة كالشهاب الثاقب، والبرق الخاطف، ثم تخدم ناره، وينطفئ أواره دون أن ينتج أثراً، أو يجدي نفعاً لربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله، امتاز بجرأته وإقدامه"^(١)، و تطرق براون لوصف حالة مدن إيران إبان الغزو المغولي، ولقد كان صادقاً في وصفه ذاك فقد احترقت معظمها وسفك دماء أكثرية سكانها، ولكن في تلك المعمة برز جلال الدين لبرهته، فقد شبه الكاتب بروزه بشهاب السماء الذي يظهر في السماء مضيئاً إيهاا للحظات ولكن سرعان ما يختفي دون أن يترك أي أثر، هكذا كانت عودة السلطان جلال الدين من الهند عودة خاطفة قضاها في أرجاء أذربيجان والمناطق القريبة منها، وبدأ بممارسة نشاطه على نطاق ضيق ليس ضد المغول وإنما ضد الكيانات المحلية المجاورة له، ففي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م تحرك نحو اقليم الجبال واستعاد مدينة أصفهان، واستولى على معظم مناطق عراق العجم، وبعدها تحرك نحو خوزستان التابعة للخلافة العباسية، فحاصر مدينة تستر^(٢)، كما اقترب بقواته من مدينة بعقوبا^(٣) مسبباً الهلع والخوف إلى سكان بغداد ولاسيما أن قواته مارست أبشع أنواع السلب والنهب ضد السكان^(٤). لم يكتف بذلك فحسب بل إنه اتجه نحو أذربيجان وتمكن من الاستيلاء على تبريز سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وانتزعها من يد حاكمها أوزبك^(٥). أما في سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م فإنه وجه نشاطاته ضد الكرج فتمكن من الاستيلاء على مدينة تقليس^(٦) التي

(١) براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٦٩.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٣) انظر تعاريف ص ٣٣٧

(٤) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٨٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٣٢.

(٥) النسوي، ص ٢٠١؛ ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٠٧؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٧١.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٥٤

تعدّ من أحصن المدن لديهم وأمنعها^(١). بعد أن انتهى من الكرج يمّم وجهه شطر أملاك الملك الأشرف موسى بن العادل ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م^(٢) والذي كانت تتبع له مدينة خلاط^(٣) فهاجمها ثلاث مراتٍ، الأولى كانت في سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م حيث تمكن من نهب المناطق المحيطة بها دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها، أما المرة الثانية فكانت سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م حيث هاجمها وقد كانت من القوة والحصانة بمكانٍ لم يمكنه من الاستيلاء عليها لذا تراجع عنها حتى أواخر سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م حيث قاد قواته واتجه إليها للمرة الثالثة وانتزعها من الأشرف موسى هذه المرة وتمكن من نهبها^(٤). لكن أفعاله تلك جرّت عليه عداً من جاوره من الدول. فانتصارات السلطان جلال الدين دفعت بحاكم آمد، وصاحب أرزن الروم^(٥) إلى الدخول في طاعته معادين بذلك الأمر السلطان علاء الدين كيقياذ ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م صاحب بلاد الروم^(٦)، فما كان من السلطان علاء الدين كيقياذ إلا أن خشي على ممتلكاته من ذلك التحالف وطلب المساعدة من الملك الأشرف وغيره من الحكام الأيوبيين الموجودين في المنطقة. استجاب الأشرف موسى لطلب السلطان علاء الدين وجمع عساكر الشام والجزيرة وقد بلغ عددهم خمسة آلاف جندي وسار بهم لالتحاق بقوات السلطان علاء الدين والتي بلغ عددها عشرون ألفاً وقد حدث اللقاء مع قوات السلطان جلال الدين وحلفائه في رمضان من سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م قرب مدينة أرزنكان^(٧). حيث سارع السلطان جلال الدين إلى التحرك بقواته عندما سمع باقتراب هؤلاء من مدينة خلاط، وحدث الصدام بين الطرفين وقد كانت قوات الأشرف موسى من القوة بمكانٍ دفع بالسلطان جلال الدين وقواته إلى الخوف وبعد ذلك إلى الانهزام والفرار من ساحة المعركة، ولقد تفرقت العساكر وتمزقت، وهلك قسمٌ كبيرٌ منها إما قتلاً على يد قوات التحالف الشامي الرومي، وإما تردياً من رؤوس الجبال التي كانت في طريقهم، وساعدت الرياح العاصفة التي هبّت في ذلك الوقت على انهزام القوات الخوارزمية هزيمةً ساحقة لكونها أثارت الغبار، كذلك الأمر في

(١) النسوي، ص ٢٠٥؛ ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٠٨؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٧١؛ ابن واصل، ج ٤، ص ١٨١.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٧

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٥

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ٣٢٠؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٨٠.

(٥) انظر تعاريف ص ٣٥٣

(٦) انظر تعاريف ص ٣٥٩

(٧) انظر تعاريف ص ٣٥٣

وجه الجنود، وكان من نتائج المعركة أن دخل السلطان الأشرف خلاط بينما تراجع السلطان منكبرتي إلى أذربيجان وهو في حالة يرثى لها^(١)، وقويّ كذلك مركز السلطان علاء الدين كيقباز وقفل راجعاً إلى مملكته، ولكن الانتصار السالف الذكر لم يكن خيراً على سلاطين سلاجقة الروم والأيوبيين، بل كان وبالاً عليهم لكونهما أزالا السد الذي حمى مناطق أذربيجان واقليم الجبال والجزيرة من المغول الذين اندفعوا بسهولة بعدها نحو المنطقة وبعد أن تأكدوا من زوال السلطان جلال الدين وجهوا جهودهم باتجاه تلك الدول، و مما سلف يستنتج بأن السلطان منكبرتي الذي نجح في الاستيلاء على بعض المناطق، و أخفق فيما بعد في الاحتفاظ بها لكونه لم يستغل وضعه ذاك، بل عادى معظم القوى الموجودة في المنطقة التي هزمته هزيمة كبرى، وليهزم فيما بعد على يد المغول في موجتهم الثانية نحو تلك المناطق، فقد توفي جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، ولكن لم تكن وفاته ايذاناً بانتهاء موجة الاجتياحات بل على العكس، استمر المغول في أعمالهم ولكن بوتيرة أقل تباينت شدتها بحسب طبيعة الخان الذي تولى العرش، فقد استلم مقاليد السلطة أوكتاي ت ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وباستلامه لها بادر للقيام بمجموعة من الأعمال فقد أدب بعض الفئات المجاورة له في الشمال الصيني، كما نهض ببعض الأعمال الخدمية، فنظّم الضرائب المفروضة على الشعوب الخاضعة للمغول، كما اهتم بتنظيم البريد وأكثر من بناء محطات له حيث حرص على تزويدها بالخيول اللازمة للتنقل وبآبار المياه^(٢). ولكن كلّ تلك الأعمال لم تلهه عن الغرب واكمال ما بدأ به والده ، لذا فإنه حرص على ارسال بعض الفرق بين الفينة والأخرى لتغير على مناطق ماوراء النهر وخراسان، وتابعت في بعض الأحيان مسيرها باتجاه أذربيجان، كما حدث في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م فقد توجهت فرقة مغولية إلى مناطق اقليم الجبال وأذربيجان وعاشت فساداً في المنطقة، كما اصطدمت بشكل مباشر بجلال الدين منكبرتي عند مدينة أصفهان^(٣). لم يركن المغول إلى الهدوء بل استمروا بشكل دائم يرسلون الفرق التي سفكت دماء الأبرياء، ونهبت المدن والرساتيق، ورصدت تحركات السلطان جلال الدين، واستكشفت مناطق جديدة، وتأكدت من سلامة عمالها المعينين في المدن المجتاحة،

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨٢؛ ابن واصل، ج٤، ص٢٩٧-٢٩٩؛ ابن العديم (كمال الدين عمر ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م): زبدة الطلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٣، ص٢٠٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٢١٦؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج٣، ص١٩٨.

(٢) التاريخ السري، ص٤٠٠-٤٠٤؛ رشيد الدين الهمداني، ٣٨٥-٣٥٩.

(٣) ابن الأثير، ج١٠، ص٤٩٠.

إلى أن جاءت سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م والتي انهزم فيها السلطان جلال الدين أمام تحالف قوات الأشرف موسى و السلطان سلاجقة الروم -كما تقدم البيان عن ذلك- حيث وردت بعدها أنباء إلى المغول تفيد بضعف السلطان جلال الدين وفقده لمعظم قواته وسهولة التغلب عليه، وكان مصدرها بكل تأكيد الفئات التي وجدت في المنطقة والتي كان شغلها الشاغل التوسع على حساب الفئات الأخرى، واستغلال الفرص المناسبة للانقضاض على خصومها وتدميرهم إلى الأبد، وقد شجّع السلطان بسياسته العدائية تلك خصومه وقد أكدّ على ذلك كلّ من أبي الفداء وابن كثير حيث قالوا: "عاودت التتر قصد بلاد الإسلام وسفكوا وخربوا وكان ضعف جلال الدين لقبح سيرته وسوء تدبيره، فلم يترك له صديقاً من ملوك الأطراف وعادى الجميع"^(١). ربما كان المؤرخين صادقين في كلماتهما تلك ؟، فعلاً عادى السلطان جلال الدين معظم حكام المناطق بسياسته التوسعية، التي وصفت بقبح السيرة عند البعض، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن النسوي أرجع سبب قدوم المغول إلى المنطقة، لكتاب صدر من اسماعيلية الموت إلى المغول سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل الأول^(٢)، مما دفع السلطان جلال الدين إلى إرسال سفيره النسوي نحوهم محملاً إياه عدة مطالب من بينها الاطلاع على تلك الرسالة^(٣)، وبالتالي فإن الاسماعيلية المتأرجحين في علاقتهم مع السلطان عدّهم النسوي المسؤولين عن اندفاع المغول إلى المنطقة، ولقد صادق على كلامه ذاك ابن الأثير حيث قال مفسراً سبب اندفاع المغول إلى المنطقة سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م: "أرسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة إلى التتار يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثّهم على قصده ويضمن لهم الظفر به.....، فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدين، بادرت طائفة منهم فدخلوا بلاده، واستولوا على الريّ وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصدوا أذربيجان، فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لايقدم على أن يلقاهم ، ولايقدر على منعهم عن البلاد"^(٤). بالتالي فقد نقل هؤلاء صورة الوهن والضعف التي آل إليها السلطان جلال الدين، ذلك الضعف الذي كان من نتائجه هزيمة السلطان أولاً، وبعدها تفرق جنوده وانفضاضهم من حوله لكونه قد بدرت منه تصرفات دفعتهم إلى ذلك الأمر، فقد امتلك السلطان خادماً يدعى

(١) المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨١؛ البداية والنهاية، ج١٧، ص١٨٤

(٢) انظر ص٤٥.

(٣) النسوي، ص٣٤٠.

(٤) الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٩٠-٤٩١.

قلج بالغ في التعلّق به، لدرجة عدم تصديق وفاته والمبالغة في اظهار مظاهر الحزن والجزع عليه، ولاسيما أنه توفي في مكانٍ يبعد عن تبريز عدة فراسخ، فأصر السلطان على حمل تابوته إلى المدينة وأن يسير على قدميه في الجنازة، مما أثار استياء وزرائه الذين أقنعوه بالعدول عن الفكرة، بل أن يركب على جواده بدلاً من المسير راجلاً. وبعدها طلب من أهل تبريز اظهار مظاهر الحزن عند استقبال الجنازة، وغضب بعدها لعدم امتثالهم لأوامره، والأهم من ذلك إنه لم يقدم على دفنه وإنما أبقاه في نعشه، وامتنع عن الطعام والشراب، ليس ذلك فحسب بل حمل الطعام والشراب له، ولم يصدق موته أبداً، لذا فقد انفضت حاشيته وقادة قواته عنه بعد أن سأموا تصرفاته تلك. "لابد من الإشارة بأنه يمكن تحليل الخبر على ضوء اللوطة" وأضحى السلطان في وضعٍ لا يحسد عليه وخاصةً بعد أن سمع باقتراب المغول من موقعه، لذا صحا من سكرته وسارع إلى دفن الغلام، وبدأ بتتّكّر في أمره وفي كيفية التعامل مع موجة المغول الجديدة تلك^(١). وتحرك السلطان جلال الدين بدايةً بأن تراجع نحو خلاط، وبعدها توجه نحو خوي^(٢)، ثم سارع إلى طلب المساعدة من الخلافة العباسية، والسلطان الأشرف موسى، والسلطان علاء الدين كيقباز ولكنه لم يلقَ أذاناً صاغية لكونهم قد لحق بهم من الأذى ما دفعهم إلى عدم تصديقه^(٣)، و تقدمت القوات المغولية نحو أذربيجان بقيادة جرماغون نويان يرافقه القائد نايماس^(٤) مع عددٍ من الجنود تراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً^(٥). تقدمت هذه القوات نحو المنطقة عازمة على تحقيق هدفٍ واحدٍ هو القضاء على السلطان جلال الدين وبقايا الخوارزميين، وتباين المؤرخون في الحديث عن تلك الواقعة فمنهم من أطنب في الحديث عنها، ومنهم من اختصر، وآخر رافق السلطان، لذا فقد دون تلك الأحداث بشيءٍ من التفصيل، أما الآن سيتم تناول الروايات ومقارنتها مع بعضها بعضاً لاستخلاص روايةٍ مقبولة عن المراحل الأخيرة من عمر السلطان جلال الدين.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٩١؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٨٤؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٢.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٥؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٧٩؛ أما خوي: انظر تعاريف ص ٣٤٤

(٣) الجويني، ج ٢، ص ٥٧؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨٢؛ براون، ص ٥٧٢؛ العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١١٩.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٩

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٨؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٣٣٥؛ براون، ص ٥٧٢؛ فهمي، ص ٩٠.

رافق النسوي السلطان في المرحلة الأخيرة من حياته لذا ستتم مناقشة الرواية كما وردت لدى النسوي أولاً، فقد تحدث ذلك المؤرخ عن أن السلطان كان بتبريز، فما كان منه إلا أن أرسل أحد قواده ليستكشف خبر المغول في المنطقة، فصادف القائد المغول عند منطقة مرج شروان^(١)، وكان برفقته أربعة عشر جندي قتلوا جميعهم ولم ينجُ منهم سواه، فتمكن من الوصول إلى السلطان وأخبره باقتراب المغول من أماكن وجوده فما كان من السلطان إلا أن غادر تبريز واتجه نحو موقان، وفي أثناء سيره عند قرية أرمنيان^(٢) وصل إليه رسول من صاحب قلعة بك^(٣) مخبراً إياه بأن المغول الذين صادفهم قائده قد مكثوا في مرج زنجان، لذا دفعته تلك الأخبار إلى إكمال سيره نحو مدينة موقان وكان برفقته ما يقارب الألف فارس وحين توقف لقضاء الليل بقرب قلعة شيركوبوت^(٤) هاجمه المغول فجأة، وكان النسوي مرافقاً له، حيث استطاع السلطان النجاة وتابع المسير نحو نهر أرس^(٥) وهناك أوهم المغول بأنه قطع النهر باتجاه مدينة كنجة، ولكنه عطف باتجاه أنريجان وانتهى به المطاف عند مدينة ماهان^(٦)، لم ينعم السلطان بالراحة وذلك لكون المغول قد اقتربوا من ماهان حيث وردتهم أنباء تفيد بوجود السلطان فيها، لذا كان لزاماً عليه مغادرة المكان فتحرك باتجاه أران وذلك لكونها ذات طبيعة جبلية بوسع العساكر التحصن بجبالها وأجامها، حيث انتهى به المطاف في بلدة حاني^(٧)، وفي تلك المدينة وصلت رسالته من حاكم مدينة آمد دفعته للعدول عن التوجه نحو أصفهان حيث كان يفكر بالالتجاء إليها، وتحرك نحو مناطق آمد وديار بكر وقد فسر النسوي تحركه ذاك بوصول رسالة من حاكم آمد يعهده فيها بمدّه بأربعة آلاف فارس ليساعده ضد المغول، وفعلاً سار السلطان نحوها حتى وصل إلى باشورتها^(٨)، وقضى ليلته هناك بالسكر، وفي أثناء سكرته تلك جاءه أحد الجنود التركمان مخبراً إياه بوجود عساكر مغايرين لعساكره فلم يصدق، بل استمر في نشوته تلك إلى أن اقترب ضوء الفجر وعندها أحاط به عساكر المغول وهو نائم في خيمته، فحاول أورخان قائد قواته تخليصه

(١) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٢) انظر تعاريف ص ٣٥٣

(٣) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٤) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٥) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٦) انظر تعاريف ص ٣٥٦

(٧) انظر تعاريف ص ٣٥٥؛ أما أران : انظر تعاريف ص ٣٥٣.

(٨) الباشورة: طريق منعطف بين بابين من أبواب البلد، يجعل في ذلك المكان لعرقلة السير والهجوم أثناء الحصار والحرب للحيلولة دون دخول البلدة؛ الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص ٦٧.

وفعلاً نجح في ذلك وساعده في امتطاء فرسه، وانطلقا فارين، ولكن لاحظا استمرار المغول في ملاحقتهم عندها أمر السلطان قائده بحمل رايته والافتراق عنه لكي يتبعه المغول ويتمكن هو من النجاة. _ لابد من التنويه بأن المغول عندما كبسوا السلطان في باشورة آمد كان النسوي هناك حيث تمكن من النجاة والهرب ، وتعرف على مصير السلطان فيما بعد من أفواه من كان برفقته _ ولكن النسوي أشار بأن السلطان أخطأ في تصرفه ذاك وكان حرياً به البقاء مع أورخان لكي لا تتقاذفه المدن ويتجرأ عليه سكانها^(١)، وهذا ماحدث فعلاً فقد وقف السلطان أمام أسوار آمد طالباً من سكانها فتح أبواب مدينتهم له كي يلجأ إليها، ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه لظنهم أن الخوارزميين سيغدرون بهم ويعيثون فساداً في مدينتهم، لذا تابع سيره فوصل إلى قرية من قرى ميافارقين، فنزل ببيدرها، وترك خيوله ترعى وتستريح من عناء المطاردة، ولكن لم تطل استراحته تلك فقد كبسه المغول من جديد هناك، وأخبرهم من أسر من جنوده بأنه السلطان جلال الدين، لذا جدوا في طلبه، وتمكن اثنان من اللحاق به ولكنه قتلهم وفقد المغول أثره فما كان منهم إلا أن غادروا المنطقة. بعد أن تخلص السلطان من المغول صعد الجبل حيث سيطرت على طرقاته بعض القبائل الكردية، فما كان منهم إلا أن سلبوه كعاداتهم، ولما همّوا بقتله أخبر كبيرهم سرّاً بأنه السلطان وخيّر إما بمساعدته على الوصول لبلاد السلطان المظفر شهاب الدين غازي، وإما بمساعدته على العودة إلى مناطق أذربيجان وفي كلتا الحالتين سيكون مستفيداً من عمله ذاك، واقتنع ذلك الكردي بكلماته واصطحبه إلى قبيلته، حيث أدخله إلى منزله وطلب منه المكوث فيه لحين احضار فرسه، وفي أثناء غيابه قدم كردي إلى منزله وسأل صاحبة المنزل عن ذلك الخوارزمي فأخبرته بأن زوجها حافظ على حياته، فهو السلطان، فاستاء من كلامها ذاك وأخبرها بأنه قتل له بخلاط أخ خير منه فما كان منه إلا أن طعنه بحريته فأرداه قتيلاً، وعندما وصلت أخبار موت السلطان جلال الدين إلى السلطان المظفر غازي غضب لذلك الفعل، وطلب احضار أغراضه فتعرّف عليها بعض خواصه، فأمر بقتل ذلك الكردي وبعدها أحضر عظام السلطان جلال الدين ودفنها في مكانٍ يليق بسلطان^(٢).

(١) سيرة السلطان، ص ٣٧٩. أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٨٦ ٨٧.

(٢) سيرة السلطان، ص ٣٨١-٣٨٢؛ أبو شامة، نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلائية، ص ٨٨.

وهكذا انتهت حياة السلطان جلال الدين بحسب كاتبه النسوي تلك النهاية المأساوية، فقد تقاذفته الأقدار من منطقة إلى أخرى، إلى أن انتهى المطاف به في مناطق ميافارقين وديار بكر المعروفة بوعورتها وصعوبة مسالكها، وكثرة الأكراد فيها، الذين امتنهم بعضهم قطع الطرقات على المسافرين وممارسة أعمال السلب والنهب كمهنٍ اعتاشوا منها وأمنوا متطلبات حياتهم، ولكن هناك مايستوعي الانتباه في الرواية السالفة وهي لماذا رفض سكان آمد السماح للسلطان جلال الدين بدخول المدينة على الرغم من أن حاكمها هو الذي طلب منه المجيء، هذا من جانب ومن الجانب الآخر لماذا لم يتجه السلطان جلال الدين نحو السلطان المظفر غازي وفضل التشرّد في الجبال، على الرغم من التجاء قسمٍ من أصحابه إلى أراضيه؟ كان حسناً به الالتجاء نحو مناطق معروفة لديه وعدم الافتراق عن جماعته خيراً من المسير وحيداً في مناطق مليئة بقطاع الطرق ولكن حصل ما حصل وانتهت حياته على يد كردي غاضبٍ من أفعال الخوارزميين التي أدّت إلى وفاة أخيه في خلاط التي عاث فيها الخوارزميون فساداً.

أما بالإطلاع على رواية الجويني فإنه يلاحظ الآتي: بدأ الجويني الحديث عن مصير السلطان جلال الدين، وملاحقة جورماغون نويان له من مدينة خلاط حيث غادرها عندما سمع باقتراب المغول منها، متوجهاً إلى مدينة خوي وبعد اخفاقه في تكوين حلفٍ يدفع به أذى المغول، تملكه اليأس، ولاسيما بعد أن وصلته أخباراً مفادها تقدم المغول نحو سراو، فما كان منه إلا أن توجه في اليوم التالي نحو مدينة موغان، فطارده المغول ولكنهم لم يعثروا عليه" وهذا ما يتعارض مع رواية النسوي السالفة التي تشير إلى أن المغول كبسوه في موغان" ،و أمضى السلطان جلال الدين بعدها شتاء سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م في مدينة أشنو^(١)، وبعد أن أوكل أمر حريمه إلى وزيره^(٢)، اتجه نحو ديار بكر ، وهناك عاد الجيش المغولي المكلف بملاحقة السلطان جلال الدين أدراجه مخففاً في المهمة التي أوكلت إليه، وتم ارسال فرقة أخرى بقيادة القائد نايماس، و فيما تعلق بالسلطان فقد تابع مسيره وعندما وصل إلى عراق العجم، أرسل أحد قادته لجمع أخبار عن تحركات المغول في المنطقة، وعاد ذلك القائد مخبراً السلطان بابتعاد المغول عن

(١) تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٧؛ أما مدينة أشنو: انظر تعاريف ص ٣٥٤

(٢) يدعى شرف الملك للمزيد عنه انظر أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٨٣-٥٨.

المنطقة، لذا سارع الأخير مع حاشيته وانغمسوا في اللهو والشرب، وبعد مضي يومين أو ثلاث على مكوثه هناك، وبالتحديد في منتصف الليل عندما كان الكل سكارى أحاط المغول فجأة بقيادة نايماس بخيمة السلطان ، ولكن وصل إليه قائده أورخان قبل وصول المغول فتمكن من إيقافه بصب الماء على رأسه، وركب هو وإياه على خيولهم واستطاع الفرار من قبضة المغول، وفقد المغول أثره بالتالي بمساعد أورخان، ولكنهم قتلوا جميع جنوده^(١). بعد أن انتهى الجويني من ذكر روايته تلك ختمها بالعبارة التالية: "وقد اختلفوا في أمر نهايته ، فبعضهم قال..."^(٢)، و بالتالي لم يكن الجويني واثقاً من النهاية التي آل إليها مصير السلطان جلال الدين حتى أن روايته عن مطاردة المغول للسلطان مختصرة، فهو لم يتحدث عن مهاجمة المغول له في باشورة آمد، وعن حاله أمام أبواب المدينة، كما لم يبين مصير حريمه وباقي أفراد أسرته، كما أن الروايات المتعلقة بموته لم يؤكدوا بل عرض روايات معينة كانت على الشكل التالي : احداها تتحدث عن وصول السلطان إلى جبال آمد وهناك هاجمه ليلاً بعض الأكراد طمعاً في ثيابه ومتاعه، فأصابوه بجراح وهم غير مدركين لحقيقة شخصيته، وبعد ذلك عمدوا إلى قتله، ومن ثم أقدم بعضهم على ارتداء ثيابه ودخلوا بها مدينة آمد، فلما رآها حاكم المدينة وتأكد أنها ثياب السلطان جلال الدين أقدم على قتلهم جزاء فعلتهم النكراء تلك، وبنى له بعد ذلك قبراً يليق بسلطان^(٣)، أما الرواية الثانية فتتحدث عن أن السلطان جلال الدين لم يقتل، بل إن الثياب التي ارتداها بعض أكراد آمد لم تكن ثيابه بل ثياب بعض خواصه، أما السلطان فقد لبس خرقة التصوف وساح في البلاد، بينما كانت الرواية الثالثة مغايرة للروايتين السالفتين فإنها لم تحدد مصير السلطان بل أشارت إلى اختفائه وظهور شخصٍ بين الفينة والأخرى يزعم بأنه السلطان فيبتهج الناس لذلك ويتجمعون حوله لمدة، وبعد أن يتأكدوا من بطلان ادعائه يعمدون إلى قتله وهكذا^(٤).

وأياً كانت رواية الجويني فهو لم يكن متأكداً من مصيره وذلك لكون المغول لم يسجلوا ذلك في وثائقهم لعدم تمكنهم من القبض عليه. لذا بقيت روايته يشوبها الكثير من الغموض، أما رواية

(١) تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٨-٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢-٩٣.

رشيد الدين الهمذاني فقد شابته رواية الجويني مع اختلافات فقط في الألفاظ والصياغة، لذا لن يتم التطرق إليها^(١).

و إذا ما وضعت الروايات الفارسية جانباً، وتم الانتقال لما ورد في كتب المؤرخين العرب عن نهاية السلطان جلال الدين فيلاحظ الآتي: إن أقرب الروايات إلى الزمن الذي كان يعيش فيه السلطان جلال الدين هي رواية ابن الأثير والذي توفي في مدة لاحقة للسلطان ، لذا فلا بد من مطالعة ماكتبه ذلك المؤرخ ضمن أحداث سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م^(٢). فهو عدّ بلاد أذربيجان المنطقة التي تحرك منها السلطان باتجاه خلاط، وكان تحركه ذاك نتيجةً للأعمال المعتادة التي بدرت عن المغول والتي عجز السلطان عن مقاومتها بسبب ضعفه ووهنه، لذا فارق المنطقة ، واتجه نحو خلاط وطلب من حاكمها نائب السلطان الأشرف السماح له بالدخول لكونه لم يأت بغرض الحرب ولا الأذى وإنما خوفه من المغول هو الذي دفعه إلى ذلك. لم يمكث طويلاً في المدينة حيث وردته أنباء مفادها بأن المغول قد اقتربوا منه فتحرك باتجاه آمد، ووزع الحرس على الطرقات خوفاً منهم. ولكن وصلت طائفة منهم وتمكنت من مباغته السلطان ليلاً في ظاهر آمد لكونها سلكت طريقاً خالياً من الجنود الخوارزميين، ولكنه نجا ومضى هارباً وتفرقت عساكره في أنحاء البلاد، وتفرقهم ذاك زاده ضعفاً ووهناً ،ودفع المغول إلى التحرك نحو دياربكر رغبةً في العثور عليه هناك^(٣)، ولكن ما يلاحظ بأن ابن الأثير لم يقف على مصير السلطان، بل ختم إحدى فقرات كتابه بقوله: "وخرجت هذه السنة، ولم نتحقق لجلال الدين خبراً، ولانعلم هل قتل، أو اختفى لم يظهر نفسه خوفاً من التتر ، أو فارق البلاد إلى غيرها ، والله أعلم!"^(٤). وذكر في موضع آخر: "وأما جلال الدين، فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر، وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسعة لم نقف له على حال والله المستعان"^(٥). بالتالي ماميّز رواية ابن الأثير عدم حديثه عن التجاء السلطان إلى موقان، وعدم تطرقه إلى ذكر أورخان قائد قوات السلطان والذي بقي مرافقاً له حتى النهاية، كما لم يذكر كذلك الأمر وزير السلطان وكيفية تعامل السلطان معه، والأهم من ذلك عدم تحديده نهايةً السلطان ، الذي ربما يكون قتل، أو اختفى في إحدى القرى،

(١) التاريخ الغازاني، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٩٢-٤٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٩٤.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٩٦.

أو سافر إلى إحدى البلاد القريبة . وختم كتابه من غير تحديد نهاية واضحة للسلطان جلال الدين، ولكن الم يكن بإمكان ابن الأثير الاطلاع على معلومات دقيقة تمكنه من الحديث بشكلٍ أوسع عن مصير السلطان وذلك لكونه كان قريباً من المنطقة، ولربما التقى بأحد الخوارزميين الفارين من جيش السلطان، أولم يقترب السلطان من الموصل عندما انتهى به المطاف إلى مناطق آمد وميفارقين وديار بكر ،وبالتالي أضحي قاب قوسين أو أدنى من مناطق سُكنى المؤرخ ومن ثم إن أصابه مكروه، أو قتل كان ابن الأثير قد سمع بذلك الأمر وسجله في كتابه، ولا يعرف السبب الذي بنتيجته لم يحدد المؤرخ نهايةً للسلطان لربما ختم كتابه قبل التثبت من حالة السلطان، ولم يرد اضافتها فيما بعد، أو ربما يكون قد اختفى فعلاً وإن قتل، ولربما لم يعثر على جثة له. وعند مطالعة ما كتبه باقي المؤرخين فإنهم نقلوا دون استثناء عن النسوي فيما تعلّق بالمرحلة الأخيرة من حياة السلطان وملاحقة المغول له، ولكنهم مالوا إلى الاختصار، ولم يستعملوا كلمات النسوي نفسها، وإنما صاغوا الرواية بعباراتهم الخاصة التي جاء مضمونها مشابهاً لرواية النسوي^(١). في النهاية حدد معظم المؤرخون تاريخ وفاة السلطان جلال الدين في منتصف شهر شوال من سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م^(٢). وفي نهاية يمكن القول اتصف السلطان جلال الدين بالكثير من الصفات تلك الصفات التي أطنب النسوي في الحديث عنها، حيث تطرّق لذكر صفاته الجسدية فقال: "كان أسمرًا قصيرًا، تركي الشارة والعبارة، كان يتكلم الفارسية"^(٣). بالتالي فقد كان السلطان صاحب أصول تركية، امتاز بسمار البشرة وقصر القامة، إضافةً إلى كونه كان تركياً في شكله ولكنته، ولكنه على الرغم من ذلك كان ملماً باللغة الفارسية. وبعد أن انتهى من الحديث عن صفاته الجسدية انتقل إلى ذكر شيءٍ من صفاته النفسية فقال: "أما شجاعته فحسبك منها ما أوردته من وقائعه، فكان أسداً ضرغاماً أشجع فرسانه إقداماً وكان حليماً لاغضوباً ولاشتاماً، وقوراً لا يضحك إلاّ تبسماً، ولا يكثر كلاماً، وكان يحب العدل، غير أنه صادف أيام

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨١؛ زكار، أخبار المغول لدى مجموعة من المؤرخين، القسم الخاص ابن العميد، ص ١٢٣؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ١٨٤؛ الداوداري، كنز الدرر، ص ٣٠٣؛ اليافعي، ج ٤، ص ٦٧.

(٢) النسوي، سيرة السلطان، ص ٣٨٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٢٩٧؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٢٨٠؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام، ص ٢١٤؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ١٦٢؛ العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ١، ص ١٢٤.

(٣) سيرة السلطان، ص ٣٨٤.

الفتنة فغلب، ويحبّ الترفيه على الرعية... وكانت علامته على تواقعيه النصر من الله وحده" (١). عند قراءة كلمات النسوي السالفة فإنه يلاحظ الآتي بأن السلطان كان شجاعاً فعلاً فقد قاوم المغول وألقى بنفسه في نهر السند تاركاً مصيره للقدر، وكان يندفع في المعارك دون تردد، كما كان وقوراً قليل الضحك فعلاً، ولكن فيما يخص الحلم فهذه صفة مشكوك فيها لكونه قد قتل الكثير من خصومه، وعاث فساداً في مدنٍ كاملةٍ رغبةً فقط في الاستيلاء عليها أو تأديب بعض حكامها، أما محبته للعدل فربما تكون صحيحة، ولكن هل من العدل أن يترك جنوده يعيشون فساداً ونهباً في ممتلكات جيرانه من الحكام الذين تشارك معهم الدين والمصير نفسه، ولكن لم يكن قائداً ذكياً بعيد النظر لكونه لم يستغل بعض الفرص المتاحة أمامه، كما أنه ربما وجد نفسه ضمن ظروفٍ مستعصيةٍ، فالدولة انهارت ولم يبقَ منها إلا الفتات، كما أن المغول انتشروا في كلّ المناطق وحالوا دون امكانية السلطان تجميع بقايا جنوده، كما أن موارده قد زالت ومؤسسات الدولة قد انهارت لذا وجد نفسه عاجزاً عن التفكير والمقاومة، ومقاومته في بعض الأحيان كانت نابعة من بعض الظروف التي كانت تهيأ له والتي لم يحسن استغلالها لطبيعة المنطقة وطبيعة الشخصيات التي حكمها، ولقد تطرق كذلك الأمر باقي المؤرخين للحديث عن بعض صفاته: فإن كلاً من ابن العميد، والياضي مثلاً أشادا بشجاعته وإقدامه (٢)، ولكن زاد الياضي على ذلك بعبارة تحدثت عن ظلمه وسفكه الدماء وعسفه عندما استولى على المدن في أذربيجان، لذا انتهت حياته تلك النهاية المأساوية (٣). أما ابن الأثير فقد تحدث عنه حيث قال: "كان جلال الدين سيء السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلاّ عاداه، وأساء مجاورته" (٤)، إضافةً إلى ذلك فقد وصفه بالجبين (٥)، و تحدث ابن الأثير عن الصفات السيئة للسلطان وأرجع ذلك إلى كونه قد تعلّق بخصيٍّ له وقد جرى الحديث عن ذلك فيما سلف (٦)، و أورد الباحثون المعاصرون في كتاباتهم صفاتٍ عدة للسلطان بعضها كان ايجابياً (٧)، وبعضها سلبياً (٨)، و مهما

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨٤.

(٢) زكار، أخبار المغول لدى مجموعة من المؤرخين القسم الخاص بابن العميد، ص ١٤٣؛ الياضي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٩٠.

(٦) انظر ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٧) اقبال، تاريخ المغول، ص ١٦٤؛ فاميري، تاريخ بخارى، ص ١٧٧؛ العزاوي، تاريخ العراق، ج ١، ص ١٢٤.

يكن فلا يسع في نهاية كل ذلك العرض عما ارتكبه المغول في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإقليم الجبال وأذربيجان، وبعد الحديث عن السلطان جلال الدين وأعماله التي لم يكن من خلالها قادراً على إنجاز شيء، لكونه ورث عن والده فتات دولة، وهو لم يقاتل لاستعادة تلك الدولة التي كان من المحال استعادتها حتى وإن رحل المغول عن المنطقة لكون بنيتها الأساسية ومواردها البشرية والاقتصادية قد زالت وبشكل نهائي، بل قاتل من أجل البقاء والصمود أمام كل من المغول الذين جاهدوا في سبيل القضاء عليه، فبقضائهم عليه يكونوا قد أكملوا انتقامهم من الدولة الخوارزمية، بقضائهم على آخر شخصية حاكمة فيها تمت بصلة للسلطان علاء الدين، أو اكملوا مشروعهم التوسعي الذي شرعوا فيه وذلك للسيطرة ليس فقط على مراعي وأراضي جديدة بل للسيطرة على طرق التجارة وموارد المشرق ككل، وكل من حكام الإمارات المجاورة له والذين طمع بعضهم في أملاكه وبعضهم الآخر أراد تأديبه لأعمال بدرت عن والده وعنه استحققت العقاب، لذا حاك المؤامرات ضده بل راسل بعضهم المغول واستدعواهم إلى المنطقة دون ادراكهم لمغبة ذلك الاستدعاء، وأياً يكن فلا يسع في النهاية إلا ابداء الإعجاب بالسلطان جلال الدين الذي تحدث عنه براون فقال: "كان يعلم من البداية أنه يحارب في موقعة خاسرة لا رجاء فيها، وكان من أجل ذلك حرّاً أن يترفق به القدر، فلا بقضي عليه بأن يموت طريداً على يد جلفٍ من أجلاف الأكراد في سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م" (٢).

(١) إقبال، تاريخ المغول، ص ١٦٤؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج ٧، ص ٦٥؛ فهمي، ص ٨٦؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ١٠٠-١٠١.

(٢) تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٥٩.

الفصل الخامس

الآثار التي ترتبت على الاجتياح المغولي لمشرق العالم الاسلامي:

أولاً: الآثار السياسية والعسكرية.

ثانياً: الآثار الدينية.

ثالثاً: الآثار الاقتصادية (الآثار على الزراعة ولاسيما على أنظمة الري).

رابعاً: الآثار الحضارية.

الآثار التي ترتبت على الاجتياح المغولي لمشرق العالم الاسلامي:

بداية الآثار مفردتها أثر والأثر في اللغة العربية بقية الشيء، أو ما تركه العمل في الشيء من آثار ظاهرة واضحة للعيان^(١)، باندفاع المغول نحو بلدان المشرق الاسلامي في الربع الأول من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد خلفوا صوراً واضحة من الدمار والبؤس الإنساني، تطرق كثر من المؤرخين والباحثين لوصفها مستخدمين تعابير تمايزت من مؤرخٍ إلى آخر، فهذا ابن الأثير بدا في حيرةٍ من أمره أيتطرق لصور الوحشية التي أذهلته؟ أم يُعرض عنها ؟ فعبر بقوله: "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، و (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً)..... هؤلاء لم يبقوا على أحدٍ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة"^(٢). أما ابن واصل فلم يتطرق بدايةً للحديث عن صور الدمار وإنما اكتفى بذكر الكلمات التالية: "الواقعة العظمى، والمصيبة الكبرى"^(٣). بينما تطرق المؤرخ متى باريس - والذي شعر بفداحة الغزو المغولي وتأثيره على البلدان عامة وبشكلٍ خاص عندما اجتاح المغول بعضاً من بلدان أوروبا، مسببين الهلع والخوف ليس لسكانها فحسب، وإنما لحكامها الذين أذهلهم ما حدث وخافوا على بلدانهم- فوصف المؤرخ بكلماتٍ بسيطة حال الشرق فقال: " اجتاحوا المنطقة، حيث غطوا وجه الأرض مثل الجراد، وعاثوا في البلاد الشرقية ودمروها تدميراً مريعاً، ونشروا النار والقتل أينما ذهبوا، وجالوا خلال البلدان الاسلامية، حيث اجتثوا المدن إلى الارض، وأحرقوا الغابات وهدموا القلاع، وقطعوا أشجار العنب، ودمروا الحدائق، وذبحوا السكان والفلاحين وكانوا إذا ما أبقوا بعض الناس أحياء ممن رجوهم الحفاظ على حياتهم أرغموهم كعبيد من أدنى الدرجات على القتال أمامهم ضد أقربائهم"^(٤). أما الباحثون المعاصرون فقد وصفوا اندفاع المغول وآثارهم بصورٍ اختلفت من باحثٍ إلى آخر، فهذا توماس أرنولد حار في ايجاد تعابير تصف أعمال المغول فلم يجد أفضل من العبارات الآتية حيث قال: " انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال،

(١) ابن منظور، لسان العرب، ص ٢٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٩٩، أما الآية من سورة مريم، رقم ٢٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، ج ٤، ص ٣٤.

(٤) مارشال، عاصفة من الشرق، مع ملحق ما كتبه المؤرخ متى باريس، ص ٢٦٣.

واكتسحت في طريقها المراكز الاسلامية، وأتت على ما كان من مدنية وثقافة، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية وأطلالاً دارسة، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء^(١). أما كلمات غروسيه فكانت اقصى نحو الجرائم التي ارتكبت بحق الإنسانية فيلاحظ من خلال كلماته أنه أبدى نوعاً من الاشمئزاز من أعمال المغول والتي نشرت نوعاً من الشعور بالأسى والحزن في نفوس الناس فقال: " ومهما كانت المجاملات التي استعملت في وصف الحقائق الموضوعية التاريخية، إلا أنه لا يسعنا إلا أن نبدي الاشمئزاز ، وروح الرعب للمذابح المريعة التي حدثت بقضها وقضيضها، ونحن نقف إلى جانب الحضارة العربية الفارسية التي سعى البرابرة المغول إلى هدمها والقضاء عليها، وإنما حمداً لله أخفقوا في تدميرها وازالتها من الوجود"^(٢)، بالتالي أثر المغول على المشرق تأثيراتٍ تباينت بين آثارٍ سياسية، وعسكرية، وثالثة دينية، ورابعة اقتصادية، وخامسة حضارية حوّلت مجرى الحياة فيه تحويلاً تناسب مع مقدار الدمار الهائل الذي خلفوه خلفهم، لذا سيتم في هذا الفصل تبيان الآثار التي خلفها الاجتياح المغولي على مناطق ما وراء النهر، وخراسان، وإقليم الجبال وما جاور العراق من أقاليم تأثرت، لأن تلك المناطق كانت تشكل وحدة متماسكة إذا تأذت منطقة تأثرت باقي المناطق الأخرى تأثيرات تتناسب مع مقدار ارتباطها بها.

أولاً: الآثار السياسية والعسكرية:

اجتاح المغول مناطق الحضارة ومراكزها الأساسية في المشرق الاسلامي ، وعقب انتهاء غزواتهم تكشف مجموعة من الآثار والحقائق خلفها ذلك الاجتياح سواء أكانت على الغازي أم على الشعب الذي تعرض للغزو، فالغازي بكل تأكيد حصد غنائم كثيرة سواء أكانت سياسية بقضائه على كيانات وجدت في المنطقة، أم اقتصادية باكتسابه وجمعه لثروات هائلة، أم عسكرية بتعرفه على تقنيات قتالية جديدة ومنح جيشه مستوى أعلى من التدريب ، أم بضمه ممالك جديدة لكيانه السياسي، أما الشعب الذي تعرض للاجتياح فهو الخاسر الأكبر في هذه المعادلة، لكون أرضه قد استبيحت، وأعراضه قد انتهكت، وثرواته قد نهبت، ومدنه قد دُمرت، وحضارته قد أُزيلت، وأرواحه قد أزهقت، وأطفاله ونسائه قد أُسروا، وحكامه قد قتلوا أو فروا، وأضحى تحت

(١) أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ص ٢٤٩.

(٢) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٨٨.

رحمة حكامٍ جددٍ تحكموا به وبمقدراته ، وكمّوا أفواهه وأرهقوه بالضرائب، فعليه تحولت حياته من رغدٍ إلى سقمٍ، ومن ازدهارٍ إلى انحطاطٍ، وبدأت عليه كلّ مظاهر التخلف والانهاك، وذلك لكونه خسر شيئين أساسيين: كيانه السياسي المستقل، وجيشه الذي حماه وردّ عنه غارات الأعداء، لذا لا بد هاهنا من الغوص قليلاً في الأحداث لاستخلاص بعضٍ من الآثار السياسية التي خلفها المغول خلفهم في المشرق الاسلامي سواء أكانت آثاراً تعلقّت بزوال دولٍ كانت موجودة، أو بانهيارها التدريجي، أو المباشر، أو في الفئات التي تولّت الحكم بعد انهيار تلك الدول، أو بحال الفئات الحاكمة التي كانت موجودة والتي إما قتلت، أو أسرت، أو فرت من البلاد، أو بحال الفوضى السياسية التي عمّت المكان. كلها أشياء لا بد من التطرق لها.

حكمت مناطق المشرق الاسلامي وبالتحديد مناطق بلاد ما وراء النهر وخراسان والأقاليم المجاورة لها حتى عراق العجم من قبل كياناتٍ سياسيةٍ مختلفة نجح الخوارزميون في القضاء عليها في الربع الأول من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد وحكموا المنطقة بشكلٍ غير مباشرٍ حيث اتبعوا نظام الاقطاع العسكري، الذي كان موجوداً في المنطقة ومارسه السلاجقة من قبل، وبما أنهم ورثوا معظم أملاك الدولة السلجوقية، فإنهم اتبعوا نسق الحكم نفسه مع اهتمامهم بالعودة إلى السلطان الذي كان يعدّ رأس الدولة ، حيث وقف على رأس الدولة الخوارزمية في ذلك الوقت السلطان علاء الدين محمد وأولاده ولاسيما ولده جلال الدين الذي حاز على ثقته فعينه ولياً لعهد^(١). لذا فإن المغول عند اندفاعهم إلى المنطقة لم يواجهوا مقاومةً تذكر لكون الدولة شاسعة الأرجاء، قضى الخوارزميون على معظم حكامها الذين نهضوا بمهمة الدفاع عنها، وعندما حان الوقت الذي تطلّب منهم الدفاع عن دولتهم أخفقوا وتساقطت مراكزهم الواحد تلو الآخر فزالّت دولتهم من الوجود بزوال آخر رمزٍ لها المتمثل بالسلطان جلال الدين منكبرتي والذي قتل سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م^(٢).

على أثر انهيار الدولة الخوارزمية تفرّق موظفوها في أنحاءٍ شتى، وتباين مصيرهم فمنهم من قتل إبان الزحف المغولي في المدن التي تولوا الدفاع عنها^(٣)، ومنهم من قتلوا في مدنٍ فروا إليها

(١) انظر الفصل الأول ص ٣١.

(٢) الرهاوي المجهول، تاريخ الرهاوي المجهول، عربه عن السريانية ووضع حواشيه: الأب ألبير أبونا، بغداد، مطبعة شفيق، ج ٢، ١٩٨٦م، ص ٢٢٦؛ معلوف (أمين): الحروب الصليبية كما رآها الغرب، ترجمة: عفيف دمشقية، لبنان، دار الفارابي، ط ٢، ١٩٩٨م، ص ٢٩٤؛ ولبر (دونالد): إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد النعيم محمد حسنين، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط ٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٦٦؛ بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ، ص ٢٠٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠؛ رشيد الدين لهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٦٧.

رغبةً منهم في إيجاد أمنٍ فقدوه، ولكن خاب ظنّهم فقد قتلوا على يد المغول في اندفاعهم لاجتياح المدن كلّ^(١). أما الفئة الثالثة فقد تمكنت من الفرار والالتجاء إلى أقاليم مجاورة لمدنهم^(٢)، وفئة رابعة استسلمت للمغول وانضمت إلى الحاشية المغولية متخليّة عن قياداتها الماضية وناجيةً بأرواحها بعملها ذاك^(٣). أما مصير الأسرة الخوارزمية الحاكمة ، فلم يكن بأحسن حالٍ من مصير موظفيها، فقد توزع مصيرهم ما بين القتل والأسر، فيما تعلق بأسرة السلطان علاء الدين محمد فقد انتهت حياة أسرته نهايةً مأساوية فالسلطان مات طريداً في جزيرة آبسكون، أما أولاده الصغار فقد قتلوا جميعهم باستثناء أصغرهم الذي أسر مع جدته تركان خاتون وأخواته اللاتي تحولن إلى خلياتٍ وخادماتٍ للمغول^(٤).

أما أبناء الكبار فغياث الدين قتل على يد بعض الحكام المحليين نتيجةً لصراعه مع أخيه جلال الدين وحلفائه، أما أزلاغ شاه وآق شاه فقد قتلوا على يد المغول في خراسان بعد فرارهم من خوارزم^(٥). أما فيما تعلّق بابنه جلال الدين وأسرته فلم يكن مصيرهم بأفضل من مصير غيرهم، فالسلطان مات طريداً في الجبال المحيطة بآمد و ميافارقين على يد الأكراد^(٦)، أما أسرته فجزء من حرمه ضمّ والدته ، وأم ولده وحريم آخرون أغرقهن في ماء السند قبل صدامه مع جنكيزخان وفراره إلى الهند سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م و ذلك لكونهم فضلوا الموت على الوقوع في أسر المغول^(٧). وبعد عودته من الهند تزوج السلطان من جديد من زوجة ابن البهلوان حاكم تيريز، فأنشأ بالتالي أسرةً جديدةً لم يُعرف عن مصيرها الكثير باستثناء أنه في أثناء فراره من أمام المغول أمر أحد خدمه بتسيير حريمه إلى بعض القلاع الحصينة في منطقة أذربيجان^(٨)، ربما مكثوا في تلك القلاع طيلة حياتهم، أو ربما تزوجت زوجته وبناته إن وجدن من بعض حكام

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٥٨؛ النسوي، سيرة السلطان، ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٦٠.

(٣) النسوي، سيرة السلطان، ص٣٨١؛ ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه ووضع فهرسه: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٣، ص٩٣.

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص٩٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٤٤.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص١٣٠، ٢٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٨٢؛ رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٧١؛ السيد (أديب): أرمينية في التاريخ العربي، حلب، المطبعة الحديثة، ط١، ١٩٧٢م، ص٢٢٦.

(٧) النسوي، سيرة السلطان، ص١٥٩؛ وللمزيد كذلك الأمر انظر الفصل الرابع ص٢٤٨.

(٨) النسوي، سيرة السلطان، ص٣٥١، ٢٠٧، ٣٥٢.

المناطق المجاورة لهم، أو هاجمهم المغول فيما قتلن أو وقعن في الأسر فتحولن إلى خادِماتٍ ، ولربما فررن إلى بغداد أو إلى بلاد الشام فتزوجن من بعض حكامها، أو لم يفصحوا عن نسبهم فعاشوا كباقي الأسر التي عاشت في تلك المناطق، هذا فيما تعلّق بمصير الأسرة الحاكمة وموظفيها.

أما فيما تعلّق بآثار الاجتياح على الوضع السياسي في المشرق الاسلامي فلا بد من التطرّق له، فلقد أثر الغزو على الكيانات السياسية الموجودة في المنطقة ، ومن تلك الكيانات الدولة العباسية والتي تأثرت عظيم التأثير فقد سقط السد الذي كان يحول دون اندفاع المغول نحوها وبدأ هؤلاء بالتسرب رويداً رويداً حتى اقتربوا من حدودها، فهاجموا اربل سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، كما أعادوا الكرة وهاجموها سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م ملحقين أضراراً كبيرة بها وبما جاورها من المدن، وناشرين حالة عارمة من الفوضى^(١)، أما في سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م فقد اقتربوا أكثر من بغداد وهزموا الجيش الذي أعدّه الخليفة للقائهم، كما نهبوا كلّ شيء صادفوه أمامهم ، مما أدى إلى انتشار الفوضى في بغداد وجزع الناس لأجل ذلك، فغلت الأسعار، وقلّت الأقوات وشرع السكان بالمغادرة إلى مناطق تردّ عنهم خطر المغول الذي أضحى قاب قوسين أو أدنى^(٢)، واستمر الحال على ذلك الأمر إلى أن تمكن المغول من توجيه حملة كبيرة انطلقت سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وتمكنت سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م من اجتياح بغداد واسقاط الخلافة العباسية بشكل نهائي في السنة نفسها^(٣). بالتالي فقد انقلب السحر على الساحر فالخلافة العباسية التي استبشرت خيراً بقدوم المغول وقضائهم على عدوهم اللدود، الأسرة الخوارزمية، سرعان ما تحولت سرورها إلى خوفٍ وهلعٍ ، بل سرعان ما ذاقت المصير نفسه الذي لم بتلك الدولة فزالت أسرتها من الوجود ودمّرت عاصمتها شر تدمير ونهبت كنوزها ومراكزها الحضارية.

أدى زوال جلال الدين منكبرتي، وظهور المغول إلى اختلال ميزان القوى في منطقة المشرق الاسلامي ، ففلاّح الاسماعيلية مثلاً في قوهستان، ومناطق قزوين لم تتأثر سلبياً بتلك الأحداث

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص ٢٨١، ٢٢٣.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٩، ٢٥١؛ ابن الفوطي (عبد الرزاق بن أحمد ت ٧٣٢هـ/١٣٢٣م): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤٧، ١٠٠؛ رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧١.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٣٦٣-٣٦٥؛ الديار بكري (حسين بن محمد بن حسن الديار): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مطبعة الفقير عثمان بن عبد الرزاق، ط ١، ١٣٠٢هـ، ج ٢، ص ٣٧٦؛ السيد، ارمينية في التاريخ العربي، ص ٢٢٦.

بل زادت قوتها، ونشطت على نطاقٍ واسعٍ، كما أنها راسلت المغول مقدمةً لهم تقارير عن حال المنطقة، وداعيةً إياهم إلى التخلص من عدوهم جلال الدين ^(١)، كما أن قلاعهم اضحت ملاجئ آمنة لبعض الشخصيات التي لم تتمكن من مغادرة خراسان ^(٢)، ولكن لم تدم سعادة الاسماعيلية طويلاً بل سرعان ما اتجه المغول نحوهم سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م وتمكنوا من تدمير قلاعهم بشكلٍ كاملٍ و إنهاء حكمهم هناك، وبالتالي عانى الاسماعيليون نتيجةً لذلك الكثير فقد قتل معظمهم، وشنت الباقي، وأسر آخرون وعلى الرغم من كل ذلك، فقد نجا المعتقد من الزوال ونقله الاسماعيليون إلى مناطقهم الجديدة التي وصلوا إليها ^(٣). أما فيما تعلّق بالممالك الأيوبية فقد تأثرت بتلك الأحداث، والدليل على خوف حكامهم وتأثرهم أنه عندما قدم حكام المدن مهنيين الأشرف موسى بموت جلال الدين منكبرتي، فما كان منه إلا أن قال: " ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج" ^(٤)، وعانى حكام الإمارات الأيوبية في مناطق الجزيرة وميفارقين وشمال بلاد الشام من هجمات بقايا الجنود الخوارزميين الذين بعد موت قائدهم تفرقوا في المنطقة بحثاً عن أرزاقٍ لهم فعاثوا فساداً فيها، ونهبوا كل ما صادفوه أمامهم ، بل إن غاراتهم طالت ممالك حمص وحماة ^(٥)، أما فيما تعلّق بمملكة سلاجقة الروم التي نشأت في الأناضول ففي البداية لم يعد هناك من منافسٍ لها في المناطق الشرقية من الأناضول، فمدت نفوذها على المنطقة، بل في بعض الأحيان توسعت على حساب الأيوبيين في مناطق الجزيرة ، ولكن سرعان ما عانت ما عاناه غيرها فقد اندفع المغول نحو المنطقة بعد فراغهم من أمر الخوارزميين فهاجموا أرزن الروم ^(٦)، وهزموا سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م سلاجقة الروم وحلفائهم في معركة حامية الوطيس وعاثوا فساداً في الأناضول وفرضوا عليهم دفع مبالغ مالية ضخمة ^(٧) أما الطوائف المسيحية والتي توزعت في المنطقة فقد تأثرت نتيجةً لذلك الاجتياح فاليعاقة ^(٨) تأثروا بذلك الغزو ولاسيما بعد

(١) انظر الفصل الأول ص ٤٥.

(٢) دفتري (فرهاد): اسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم، ترجمة: سيف الدين القصير، دمشق، دار المدى، ط١، ١٩٩٩، ص ٢٣٩.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٢٤٨-٢٧٠؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٦٠-٢٦١؛ دفتري، اسماعيليون في العصر الوسيط، ص ٢٣٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ٦، ص ٢٤٦.

(٥) رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٦٩.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٥٣

(٧) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥١؛ رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٦٩.

(٨) انظر تعاريف ص ٣٥٩

سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عندما تعرضت مناطقهم المنتشرة حول إربل إلى غزوات المغول والذين نهبوا بيعهم وما احتوته من كنوزٍ وصلبانٍ بل أنها نهبت أموالهم وتعرض بعضهم للقتل، وكذلك عانى اليعاقبة الذين أقاموا بمدينة ملطية^(١) بغزوات المغول فانتشرت بينهم حالة من الهلع والخوف وغادر بعضهم مدينتهم باتجاه مدينة حلب ، بينما مكث الباقي رافضاً المغادرة ، ولقد كان والد المؤرخ ابن العبري شاهد عيانٍ على تلك الحادثة وما تطلها من أعمال سلبٍ ونهبٍ لممتلكات المسيحيين في المناطق المحيطة بالمدينة إلا أن هؤلاء اكتفوا بما جمعوه ولم يقتربوا من المدينة بل غادروا المنطقة^(٢). بالتالي كان تأثير اليعاقبة أخف من باقي الطوائف التي وجدت في المنطقة والتي فقدت مساكنها وأموالها واستعبدت، بل وقُتلت في كثيرٍ من الأحيان، أما الأرمن والذين أسسوا دولةً لهم في مناطق أرمنية فقد أثرت عليها الأحوال المضطربة في المنطقة ، بدايةً فقد هاجم ممتلكاتها جلال الدين وسيطر على عددٍ من مدنها، ونهب ممتلكاتها وأساء إلى سكانها الذين إما قتلوا وإما تفرقوا في مدن المنطقة، أما المغول فقد اندفعوا نحو المنطقة مرتين في الأولى عندما كانوا يطاردون السلطان علاء الدين، وفي الثانية بعد وفاة السلطان جلال الدين وفي كلتا المراتين دمروا المدن، ونهبوها، وقتلوا معظم السكان الذين تراجع قسمٌ منهم إلى مناطق بعيدة عن مسير موجات المغول، واستمر الحال على ذلك النحو إلى أن سعى حكام الأرمن جاهدين إلى تقديم فروض الطاعة والولاء لهم ودخل الجزء الأعظم أرمنية تحت السيطرة المغولية^(٣)، كذلك لم يكن السريان النسطوريين بأحسن حال بل تأثروا ،ولكن بصورة أقل، لكون زوجات المغول قد اعتنقن الدين المسيحي على المذهب النسطوري، ولكن كثير من أملاكهم قد نهبت وإنما فيما تعلق بمعتقدات المسيحيين فهذه لم تمس بل ظل هؤلاء محافظين على عقائدهم وممارساتهم الدينية.

ومن التأثيرات الأخرى التي ألمت بالمنطقة وتكوينها السياسي أن هاجرت بعض القبائل التركية من مناطق سكناها الأصلية حول بلخ على أثر تخريب جنكيزخان للمدينة وتدميرها فنجا هؤلاء بأرواحهم وتحركوا باتجاه مناطق أذربيجان حيث عبروها وانتهى بهم المطاف بأن عبروا

(١) ملطية: انظر تعاريف ص ٣٦٠

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٩، ٢٥٢-٢٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٠؛ السيد، أرمنية في التاريخ العربي ، ص ٢٦٦؛ المدور (مروان): الأرمن عبر التاريخ، دمشق، دار نوبل، ط ١، ١٩٧٢م، ص ٢٤٧.

نهر الفرات ودخلوا في خدمة سلاجقة الروم في الأناضول حيث تمكنوا فيما بعد من تأسيس دول آسيا الصغرى، التي سطع نجمها فيما بعد، هكذا كان حال الأتراك العثمانيين الذين اضطر جدهم سليمان شاه مع قبيلته ومجموعة أخرى من القبائل إلى مغادرة موطنهم الأصلي في خراسان والرحيل صوب مناطق أذربيجان وأراضي دولة سلاجقة الروم^(١).

قبل ختام الحديث عن الآثار السياسية لآبد من توضيح أن الإدارة في البلاد المستولى عليها حتى قيام الدولة الأيلخانية لارتباط هذا الموضوع بالنواحي السياسية. وعقب اندفاع المغول نحو مناطق ما وراء النهر عمدوا إلى تعيين حكام على المناطق المسيطر عليها، وقد تباين هؤلاء الحكام في أصولهم فمنهم من كان من الحكام الأصليين للمدن دخل في خدمة المغول ودفع لهم الجزية فأبقوه في منصبه وعينوا له شحنة مغولية^(٢)، ومن الحكام من قاوم المغول فقتلوه وبعد تدميرهم للمدينة عينوا على بقايا سكانها حاكماً إما من طبقة النبلاء، وعين إلى جانبه حاكم مغولي كما حدث في مرو^(٣)، أو عين عليها قائد مغولي كما حدث في نيشابور و بخارى^(٤)، أو عينوا على مدينة ما أحد حكام المدن التي سالت المغول، كما حصل مع مدينة جند فقد عين عليها علي خواجه^(٥) حاكم إحدى المدن والتي تقع بقرب بخارى^(٦)، أو عينوا حكاماً من الخطا، كما جرى في مدينة سمرقند فقد سمي المغول حاكماً لها دُعي يه- لو الخطائي، وصحبه عدد من عساكر المغول وبعض الموظفين المسلمين^(٧)، ومع مدينة خوارزم حيث عين جوجي جنتيمور^(٨)، أو عينوا على المدن حكاماً من طائفة الأويغور تلك الطائفة التي استعان المغول بكثرة بأفرادها لما عُرف عنهم من سعة الثقافة والخبرة في الأمور الادارية وقد كثر حكام الأويغور في المناطق القريبة من حدود الصين حتى أرجاء مدينة سمرقند، وكان هؤلاء دور كبير في إعادة الحياة لتلك المدن المنكوبة ، وفي تنشيط الحياة الزراعية في المنطقة^(٩). وفي مدنٍ أخرى عينوا

(١) القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ج٢، ص٤٩٣؛ مصطفى (أحمد عبد الرحيم): أصول التاريخ العثماني، مصر ، دار الشروق، ط٣، ٢٠٠٣م، ص١٦.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج١، ص١١٥.

(٣) بارتولد، تركستان، ص٦٢٧.

(٤) الجويني تاريخ فاتح العالم، ج١، ص١١٥-١١٦.

(٥) انظر تعاريف ص٣٥٢

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج١، ص١٠٥؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص٢٢٨.

(٧) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص٣٨٧؛ بارتولد، تركستان، ص٦٣٢.

(٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص١١٦؛ بارتولد، تركستان، ص٦٣٩.

(٩) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص٣٧٦، ٣٨٠-٣٨١.

حكاماً مسلمين وثقوا بهم كما حدث في المدن المحيطة بسمرقند^(١)، ليس ذلك فحسب بل إن جنكيزخان ومن بعده ولده أوكتاي عيّنا على حكم بلاد ما وراء النهر حاكماً مسلماً دُعي محمود يلواج^(٢)، ويلواج ذاك تحدث عنه الجويني حيث قال: "سَلَمُوا أمر ما وراء النهر الصاحب الأعظم يلواج ومن بعده مسعود بك أصلحا المفاصد بآرائهما الصائبة، وضربا بيد من حديد على الثائرين وأزالا العواقب من الطرق والمدن"^(٣) و لقب الجويني يلواج الصاحب الأعظم، وإن دلّ هذا على شيء فإنه يشير إلى المكانة العالية التي بلغها ذلك الشخص إلى درجة دفعت مؤرخاً كالجويني لأن يصفه بالصاحب الأعظم ، ليس ذلك فحسب بل نسب إليه مع ولده صحة الرأي، وحسن الإدارة للمناطق التي توليا حكمها. ولقد نهض يلواج بمهمته خير نهوض فقد أحسن إدارة أمور تركستان وبلاد الخطا وبلاد ما وراء النهر وخوارزم وبقي كذلك حتى وفاته سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م^(٤). وخلفه في تولي المنصب ذاك ولده مسعود والذي توفي في بخارى سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، ثم خلفه ولده مسعود الثاني والذي بقي في منصبه حتى وفاته سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، واستمر أولاده من بعده في إدارة مناطق بلاد ما وراء النهر^(٥).

بالتالي فقد بلغت تلك الأسرة مكانةً مكنتها من توارث منصبها لأجيالٍ على الرغم من كونها أسرةً مسلمة، ولا بد من إشارة بأنه لولا كفاءة تلك الأسرة، واكتسابها لثقة المغول لما استطاعت الاستمرار لمدة طويلة في خدمة المغول الذين اشتهروا بتقلب آرائهم وعدم ثقتهم بأشخاصٍ كثير، واقدامهم على التخلص منهم لأتفه الأسباب، مهما بلغت مكانة الشخص لديهم.

إذا ما تركت مناطق بلاد ما وراء النهر جانباً والتي آل قسمٌ منها لأُملاكٍ جوجي والذي منحه والده حكم الأراضي الواقعة غربي سيبيريا حتى بلاد الروس، إضافةً إلى إقليم خوارزم، لذا فقد

(١) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٦٥٤؛ يعتقد أن محمود يلواج هذا هو نفسه محمود بن محمد الخوارزمي والذي ذكر ضمن السفارة التي أرسلها جنكيزخان لسلطان علاء الدين محمد ، وذلك لكون يلواج تعني باللغة التركية السفير، لذا فقد شغل ذلك التاجر مكانةً دفعة الخان للاستعانة به وتوليهِ مناصب هامة في دولته؛ النسوي، سيرة السلطان، ص ٨٣؛ العريني، المغول، ص ١٥٠؛ بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ١٦٣؛ صبري، المغول وعالم الاسلام، ص ٢٣.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١١.

(٤) (ابن الفوطي) (عبد الرزاق بن أحمد ت ٧٣٢هـ/١٣٢٣م): تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: مصطفى جواد، مصر، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، (د،ت)، القسم الثالث من الجزء الثالث، ص ١٩٧؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٠؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٦١؛ حسن، تاريخ الاسلام، ج ٤، ص ١٤٤؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٥٣-١٥٥.

(٥) بارتولد، تركستان، ص ٦٥٤.

تولى الإشراف على تلك المناطق وعلى تعيين حكام لها، ولكن بعد وفاته آلت لولده باتو والذي نجح في تثبيت أقدامه في تلك المناطق، أما باقي المناطق الممتدة شرقاً من اقليم ما وراء النهر حتى القسم الشرقي من تركستان فقد خضع لإشراف أخيه جغتاي^(١)، أما فيما يخص خراسان فإن المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى كونها خضعت إلى تولي الابن الأصغر لجنكيزخان هو الرمزي^(٢) ربما كان صائباً في خبره السالف وربما لا، نظراً لأن معظم المصادر تتحدث عكس ذلك وتشير إلى كون تولي تولي حكم منغوليا لكونه أصغر أبناء الخان، وبحسب أعراف المغول فإنه يمنح حكم أراضي أجداده الأصيلة وهي مناطق منغوليا^(٣). وإذا ما تمّ الانتقال إلى ما أورده الجويني في تاريخه فإنه يلاحظ بأنه أشار إلى إن خراسان خضعت بدايةً لإشراف جوجي ومن بعده أوكتاي، وتطرق بعدها إلى ذكر عددٍ من الحكام الذين تولوا الإشراف عليها، كان من أولهم جنتمور حاكم خوارزم والذي عيّن بوظيفة مساعدٍ لحاكم خراسان^(٤)، وبعدها عينه أوكتاي أميراً على خراسان وعيّن إلى جانبه شحنة مغولية لمساعدته في إدارة شؤون البلاد، ولكنه ظلم الشعب وأساء معاملتهم واستمر على هذه الحال حتى توفي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م^(٥)، ليخلفه شخص دُعي نوسال، ولكنه تولى إدارة خراسان في عمرٍ متأخر، لذا سرعان ما توفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م^(٦)، ليخلفه حاكم ايغوري دُعي كركوز والذي خدم جوجي بدايةً ولكنه بعد ذلك عيّن مساعداً لجنتمور عندما تولى إدارة شؤون خوارزم، وعندما عيّن على حكم خراسان اتخذ من طوس مقراً له فعمد إلى إعمار المدينة التي لم يزد عدد دورها عن الخمسين بعد اجتياح المغول لها، فأصلح أسواقها وطرقها وبنى فيها العديد من الدور واستقدم أسراً للعيش فيها^(٧)، فانتعشت أحوال المنطقة بعض الشيء، و كان كركوز مصيباً في سياسته الإدارية إلا أنه عُرف بالصرامة، ونتيجةً لحسد الحساد انتهت حياته نهايةً مأساوية سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م فقد قتل على يد المغول

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ج ٤، ص ٣٣١؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٣، ص ١١٢؛ الرمزي، تلغيق الأخبار، ج ١، ص ٣٥٨؛ حطيط، حروب المغول، ص ٤٥؛ عمران، المغول و أوروبا، ص ٤٢؛ بارتولد، تاريخ الترك، ص ١٨٣؛ بوزورث، الأسرار الحاكمة في التاريخ، ص ٢٠١؛ الصدفي، تاريخ دول الاسلام، ص ٢٦٩.

(٢) الرمزي، تلغيق الأخبار، ج ١، ص ٣٥٨.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٣١؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٣، ص ١١٢؛ بارتولد، تاريخ الترك، ص ١٨٣.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ١١٦؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢٨.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٢٠.

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢١.

(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٢، ١٣٥.

أنفسهم الذين أعجبوا به وبخدماته ^(١) ولكنهم لسبب ما تخلصوا منه، ربما لحسد بعض المنافسين له من الموظفين، أو لتماميه في بعض سياساته، أو ربما لطمعه في الاستقلال، أو لفعلٍ بدر منه أساء فيه إلى الحكام المغول! .

وهكذا استخدم المغول في حكمهم للبلاد الجديدة أشخاصاً تباينت انتماءاتهم ودياناتهم ، وقد عيّنهم ربما لكونهم أظهروا الطاعة لهم، أو للخدمات التي قدموها للدولة المغولية، سواء أكانت خدماتٍ تعلقَت إما بإرشادهم للجيش في أثناء توغلهم في البلاد، وإما لقتالهم ضمن صفوف المغول، وإما لتقديمهم مساعدات سهلت عملية الاستيلاء على مناطق معينة، وإما لخدماتهم التجارية والتي وفرت الامدادات للجيش المغولي، وإما لكونهم من الفئات المثقفة التي عُرفت بخبرتها في إدارة البلاد وتصريف شؤونها ، وذلك لجهلهم بتلك الأمور ، فلو كانوا ملمين بها لما عمدوا إلى تدمير المدن، بل استفادوا من خيراتهم مكتفين فقط بأخذ جزيةٍ معينةٍ منها. لابد من الإشارة بأن هناك مدناً كثيرة لم ترضخ إلى المغول ، بل ثارت على الحكام المعيّنين وعمد سكانها إلى قتلهم كما حدث في مدينة هُراة^(٢). وفي ختام الحديث عن الآثار السياسية فإنه على الرغم من اعتماد المغول على قوتهم العسكرية بشكلٍ كبير خلال اجتياحهم للمدن، لكنهم لم يعتمدوا على قادتهم العسكريين في تصريف شؤون المناطق المسيطر عليها، بل حكموها حكماً غير مباشر معتمدين على رجال إدارةٍ وسياسة، وفقط اكتفى المغول بتعيين شحنة مغولية إلى جانب الحاكم مهمتها الأساسية حماية المدينة ومنع ثورة سكانها على حكامهم الجدد والذين سببوا هلاك أسرهم وفناء مدنهم، تلك المدن التي لم يهتم المغول بإعادة اعمارها، بل عمد سكانها فيما بعد لإصلاح ما يمكن إصلاحه من منشآتها ومبانيها. و أخيراً لم تنشأ في المناطق المجتاحة أية كياناتٍ سياسية شبيهة بالدولة الخوارزمية، بل خضعت تلك المناطق للمغول والتي أسست كلّ أسرة منهم دولةً مستقلة في المنطقة التي منحه إياها جنكيزخان قبل وفاته.

لم يُخلف الغزو آثاراً سياسية فقط ، بل ترك آثاراً على الناحية العسكرية أيضاً وللارتباط الوثيق بين الجانبين لكون السياسية والجيش يكملان بعضهما بعضاً سيتم التطرق إلى الآثار العسكرية.

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٠١.

تتمحور الآثار العسكرية حول موضوعين اثنين أحدهما يتعلق بالجيش الخوارزمي والقوة العسكرية التي امتلكتها الدولة الخوارزمية، من حيث عدد القوات، والقادة، ومناطق انتشارها ، فماذا حلّ بكل ذلك يا ترى؟ أكان مصير الجيش وحامياته المتفرقة القتل، أم الأسر، أم الفرار والالتجاء إلى البلدان المجاورة؟ ، أما الموضوع الثاني فيتمحور حول الحاميات والتحصينات العسكرية التي وجدت في المدن الخوارزمية ، والتي كانت العنصر الدفاعي الأول الذي استعان به السكان في رد غزوات الأعداء ، أكان مصيرها مشابهاً كذلك لمصير الجيش؟ هذا ما سيتم توضيحه فيما يلي:

اعتمدت الدولة الخوارزمية في تدعيم أركانها على جيشها والذي بدأ قليل العدد، ولكنه سرعان ما كثر عدده مع اتساع أرجاء الدولة، وكثرة الحروب التي خاضها الخوارزميون ضد جيرانهم، تألف الجيش من عناصر تركية، انضمت إليها فيما بعد عناصر فارسية وهندية وبعض القبائل من الخطا، إضافةً إلى أعدادٍ من التاجيك^(١)، لم تكن أعداد الجيش ثابتة بل تباينت من حينٍ إلى آخر، ففي المعارك الكبرى كان ينضم إليه أعداد من الجنود من مختلف المدن نتيجةً إلى إعلان النفير العام، وذلك لأن البلاد تحكم بحسب أعراف الاقطاع العسكري، هذا من جانب ومن الجانب الآخر انضمت إليه قواتٌ من المرتزقة كان هدفها القتال فقط بغية الحصول على الأموال^(٢). ولقد تراوحت أعداد الجيش ما بين "مئة وسبعين ألف جندي" في أيام السلطان تكش^(٣)، وما بين "ثلاثمئة ألف جندي" في عهد السلطان علاء الدين محمد^(٤)، بل إن هذا العدد تضاعف إلى "أربعمئة ألف جندي" في حملة السلطان علاء الدين محمد على بغداد^(٥)، وهذه الأعداد الضخمة من الجنود لم تبقَ كما كانت بل تعرضت إلى الفناء على يد المغول، ومما سهل عملية فنائها أن السلطان علاء الدين محمد عمد إلى توزيع جيشه ضمن حامياتٍ في مراكز مدنه الهامة، وعلى المناطق الحدودية، ولقد تباينت كلّ حاميةٍ في عددها فبلغ عدد حامية أترار "ستين ألف جندي" بقيادة غاير خان حلّ بهم الفناء على يد المغول عندما حاصروا المدينة

(١) التاجيك: انظر تعاريف ص ٣٥٩

(٢) العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ٩٣-١٩٦؛ العربي، المغول، ص ٨٢.

(٣) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ج ٢٦، ص ٥٣٤.

(٤) الديار بكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص ٤٩؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٤٣٥.

واقترحوها عنوة حيث قتلوا الجنود مع قائدهم^(١). أما سمرقند فقد تراوحت أعداد حاميتها ما بين " مئة وعشرة آلاف جندي" نصفهم من الأتراك والنصف الآخر من التاجيك^(٢)، أو من " خمسين ألف جندي" ^(٣) كان مصيرهم القتل كذلك الأمر. أما حامية بخارى التي بلغ عددها " عشرون ألفاً" والتي تحصنت بالقلعة فقد أُبديت عن بكرة أبيها^(٤). باستثناء قائدها اينانج خان والذي تمكن من الفرار والالتحاق بالسلطان علاء الدين^(٥). كذلك أباد المغول جنود الحاميات التي صادفوها في المدن التي اجتاحتها، فأبادوا حامية بناكث^(٦)، كما أبادوا عسكر جند بينما تمكن قائد الحامية تيمور ملك من النجاة بعد عدة صدامات مع المغول، وقتلوا كذلك حامية ترمذ^(٧)، وهزموا عسكر مرو وقتلوا معظمهم وأسروا الباقي^(٨). بالتالي فإن الجيش الخوارزمي تعرّض إلى عملية إبادة منظمة حيث قتل المغول جنود كل حامية مرو بها، أو استخدموهم كأسرى تعرضوا للفناء في المعارك، ومن كان سعيد الحظ تمكن من الفرار والنجاة بروحه، و نتج عن صدام المغول مع القوى العسكرية الخوارزمية أن غنم هؤلاء كميات ضخمة من الأسلحة والعتاد أضافوها إلى أسلحتهم وعتادهم مما زاد في قوتهم وخبرتهم العسكرية والقتالية^(٩). بالتالي فإن سوء السياسة العسكرية للسلطان علاء الدين محمد كانت سبب هلاك جيشه وضياعه، يضاف إليها بعضاً من المشاكل الداخلية والتي تمثلت بالعلاقة السيئة التي ربطته بقيادة جنده والذين كنوا الولاء لوالده تركان خاتون، وارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً، مع انعدام الثقة بين الطرفين كل ذلك أدى إلى زوال السريع لهذه القوة. وأما تلك الأعداد التي كتب لها النجاة فقد عادت وتجمعت من جديد تحت قيادة السلطان جلال الدين منكبرتي، إذ تألف جيشه في معركة بيروان من " ستين ألف جندي"^(١٠) ولكن ذلك التجمع كان مؤقتاً فسرعان ما انفصلت عراه بعد المعركة، وفرار السلطان إلى الهند، وعاد وتجمع حوله عدد من الجنود ولكن بصورة أقل من قبل، وانفض جنوده عنه وهاموا على

(١) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٠-٩١؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠١.

(٢) الجويني، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٨.

(٤) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٣٨.

(٥) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠١؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١١٨؛ الصديقي، تاريخ دول الاسلام، ج ٢، ص ٣٤.

(٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٧؛ عكاشة، اعصار من الشرق، ص ١٨٢.

(٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٠٩، ١٣٦.

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٨.

(٩) النسوي، سيرة السلطان، ص ١٠١.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

وجهم بعد ملاحقة المغول له ،و مقتله سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ، ولم يجدوا ملجأ لهم سوى دول الجوار ، فانتشروا في مناطق الجزيرة وأراضي دولة سلاجقة الروم عارضين خدماتهم على الراغبين بها مقابل الحماية، ومبلغ معين من الأموال^(١)، وفعلاً استعان بهم بعض حكام المنطقة، ولكن قرار الاستعانة السالف كان خاطئاً فقد مارس الخوارزميون أفعالاً شنيعة تمثلت بالإغارة على مدن المنطقة ورساتيقها ، ونهبها وتخريبها، واستمروا على هذه الحال ناشرين الفوضى في مناطق الجزيرة والشام، إلى أن قرر الصالح نجم الدين أيوب ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م^(٢) الاستعانة بهم ضد خصومه ولاسيما أنه في ذلك الزمن كان حاكماً لجزءٍ من أملاك والده في الجزيرة الشمالية^(٣)، ولربما كان الصالح أيوب مصيباً في قراره الاستعانة بهم وربما لا، فهو وقع بين نارين إما ترويض قوتهم وتسخيرها خدمةً لمصالحه الشخصية ولاسيما أن سلاجقة الروم عندما استعانوا بهم توسعوا على حساب ممتلكاته، أو أن يسمح لهم بنهب ممتلكاته ومدنه ويعاني من غزواتهم المتكررة، لذا اختار الاستعانة بهم وكان ذلك في سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م^(٤). وعلى الرغم من استعانة الصالح نجم الدين أيوب بهم إلا أنهم لم يخضعوا له بدايةً بشكلٍ فعلي، بل هاجموا كثيراً من المدن الشامية، التي عانت الكثير منهم، فهم هاجموا في سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م أبواب دمشق^(٥)، كما أنهم اندفعوا في السنة نفسها بجيشٍ قدر عدده باثني عشر ألف جندي بناءً على رغبة الصالح أيوب حيث نهبوا المدن التي صادفوها في طريقهم، إلى أن وصلوا إلى بيت المقدس وكانت وقت ذاك بيد الصليبيين ، ولكن لم تكن فيها أية تحصيناتٍ أو قوى عسكرية قادرة على مجابهتهم فاقترحوا القدس وقتلوا من فيها من الصليبيين، ونهبوا دورها وعاثوا فساداً فيها وتمكنوا من إعادتها إلى صالح أيوب الذي سرّ لذلك العمل وازداد نفوذه في المنطقة على حساب خصومه من الحكام الأيوبيين^(٦). ولكن لم تدم علاقة الودّ والتحالف بين الصالح أيوب و

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٨٦.

(٢) الصالح نجم الدين أيوب : انظر تعاريف ص ٣٥٨

(٣) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٦١؛ ابن العميد (جرجس بن العميد ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م): أخبار الأيوبيين، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د، ت)، ص ٢٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٠-٢٦٣؛ المقريزي: (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م، ج ١، ص ٢٧٠.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٨٤؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٦؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٦؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٠٩؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٣١٦؛ ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٢م): نزهة الأنام في تاريخ الاسلام، تحقيق: سمير طيارة، بيروت، المكتبة العصرية، ص ٣١٦؛ برجوي (سعيد): الحروب الصليبية في المشرق، بيروت، دار الآفاق، ط ١، ١٩٨٤م، ص ٥٣٢.

الخوارزميين الذين اشتهر من قاداتهم بركة خان ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م^(١)، بل انقلبت العلاقة إلى عداً وانحاز الخوارزميون إلى خصوم الصالح أيوب، وذلك لكون الصالح لم يف بوعوده نحوهم وذلك في حال نجاحهم في استرجاع بيت المقدس، وكان أساس تلك الوعود أن يقاسمهم أملاكه في بلاد الشام ، ويسمح لهم بالعبور نحو مصر، ولكنه خيَّب آمالهم فلم يمنحهم أية اقتطاع، ووضع حرساً على الحدود لمنعهم من تجاوزها، واستولى على دمشق^(٢). ولذلك اتجهوا نحو خصومه الأيوبيين وشكلوا معهم تحالفاً واندفعوا محاصرين دمشق راغبين في الاستيلاء عليها، لم يركن الصالح للهدوء بل رغب في تأديبهم لذا جهز جيشاً وطلب من حلفائه في المنطقة مساعدته، وتحرك من مصر نحو الشام لفك الحصار عن مدينة دمشق، عندها فك الخوارزميون الحصار عنها لخوفهم من الوقوع بين نارين: جنود دمشق من داخل، والجيش الأيوبي من الخارج وتحركوا باتجاه حمص وذلك سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وفي موقع بالقرب منها يدعى عيون القصب دارت معركة حامية الوطيس بين الخوارزميين وحلفائهم، والصالح أيوب وحلفائه انتهت بانتصار الصالح أيوب ، لذا تفرقت جموعهم في أنحاء المنطقة بعد مقتل قاداتهم فقسم بقي في الشام، وآخر لجأ إلى مصر، وثالث انضم إلى المغول كجنودٍ مرتزقة^(٣). واستمر الحال على ذلك النحو إلى أن اندفع المغول نحو المنطقة فانشغل حكام الامارات الأيوبية عن صراعاتهم بمواجهة المغول الذين اجتاحت مدنها ودمروها.

هذا فيما تعلق بالجيش الخوارزمي، أما التحصينات العسكرية فلم تكن بأحسن حال، ولكن قبل الحديث عما حلَّ بها ، لابد من اشارة بأن هندسة المدن في مناطق ما وراء النهر وخراسان تميزت بشيءٍ خاص، كان عبارة عن بناء دُعي بالقهنذر، وجد في كلِّ مدينة من مدن المنطقة، والقهنذر ذاك اسم جنسٍ لكلِّ حصنٍ وسط مدينةٍ عظيمةٍ ، ولقد تحدث عنه أبو الفداء فقال: "وقلَّ أن تخلو منه مدن خراسان وبلاد ما وراء النهر، فكلَّ واحدٍ من نيسابور وسمرقند وهراة ومرو

(١) بركة خان : انظر تعاريف ص ٣٥٧

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤٩-٣٥٠؛ ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج ١، ص ٥٣٥؛ نسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٤٩٤.

(٣) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٧٨؛ القرشي (شمس الدين ابراهيم الجزري ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م): المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق: خضير عباس المنشاوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ص ٢٠١-٢٠٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٨.

وبخارى قهندز^(١). لم يكن القهندز هو التحصين الوحيد الذي وجد في مدن المنطقة ، بل أكثر حكام المنطقة والخوارزميين منهم من بناء الأسوار والأبراج الدفاعية والخنادق حول المدن^(٢)، وأقاموا قصورهم داخل القلاع علّها ترد عنهم هجمات الأعداء، ولكن خاب ظنّهم فلم تصمد تلك التحصينات أبداً ، بل زالت أمام زحف المغول الذين تفننوا في استعمال شتى الوسائل لاقتحام المدن، وذلك بإحداث ثغرات في الأسوار، أو بدكها باستعمال العرادات والمنجنيق، أو بارتقائها باستعمال السلالم، فقد تلمّ المغول جدران سور سمرقند^(٣)، وبعدها خربوا القلعة الموجودة فيها^(٤). كما أنهم أحرقوا قلعة بخارى وأحالوا جدرانها إلى تراب^(٥)، تلك القلعة التي أعاد بناءها السلطان ايل أرسلان واهتم بها، ورفع جدرانها بعد ذلك السلطان علاء الدين تكش سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م^(٦). كما هدموا أسوار مرو وخربوا قلعتها^(٧)، ودمروا قلعة نسا^(٨)، وهدموا أسوار مدينة نيسابور كذلك الأمر^(٩)، كما ردمت خنادق جند، ودمرت أسوارها^(١٠)، و بالتالي فإن كلّ التحصينات الدفاعية الموجودة في المدن تعرضت للتدمير على يد المغول، باستثناء بعض القلاع التي صالحت المغول، فلم يدمروها إما لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم، وإما لعدم أهميتها الاستراتيجية، وإما لكونها رضخت للمغول رضوخاً تاماً ولم تقاومهم البتة^(١١). وهكذا زالت كلّ القدرة الدفاعية التي حمّت المدن، وشكلت عائقاً أمام اندفاع الغزاة، ولم يسمح المغول لحكامها ، أو سكانها فيما بعد بترميم تلك الاستحكامات بل بقيت على حالها. فلقد انهارت القوة العسكرية الخوارزمية حيث أثر الاجتياح عليها بشكل مباشر سواء على الناحية البشرية المتمثلة بالجنود، والذين صمد قسم كبير منهم داخل مدنه واستشهد وهو يدافع عنها، وقسم آخر أسر وتحول إلى حياة العبودية، أما القسم الثالث فقد أذهله اندفاع المغول و وحشيتهم فما كان منه إلا أن فرّ من

(١) تقويم البلدان، ص ٤٤٥.

(٢) العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ١٩٨.

(٣) النسوي، ص ٨٩؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٨.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٨.

(٦) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٤٤-٤٥.

(٧) الجويني، ج ١، ص ١٥٨.

(٨) النسوي ، ص ١١٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ١١٨؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٧٠.

(١٠) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٢٨؛ فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ٥٩.

(١١) النسوي، سيرة السلطان، ص ٩٥، ١٠٥، ١١٧.

مدنه إلى أماكن أكثر أمناً. أما القدرات الدفاعية المتمثلة بالآلات الحربية والأسلحة فإما أُحرقت أثناء اقتحام المدن والقلاع، وإما استولى عليها المغول، وهكذا دُمّرت القوة العسكرية للمشرق ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

ثانياً: الآثار الدينية:

ورد في معظم المؤلفات المهمة بالاجتياح المغولي للمشرق المعاصرة منها واللاحقة عبارة تكون واحدة مفادها " لم يُنكَب المسلمون من ابتداء الاسلام بأعظم من هذه النكبة"^(١). نعم كان ذلك الاجتياح نكبة عظيمة تعرضت لها بلاد المسلمين، فهم خلال تاريخهم الطويل منذ ظهور الرسول الكريم ﷺ حتى ذلك العصر لم تتعرض بلادهم المشرقية لمثل ما تعرضت له خلال الاجتياح المغولي.

فقد أثر ذلك على الاسلام كدين، وعلى المسلمين كأشخاص آمنوا بذلك الدين، بدايةً اندفع المغول نحو مناطق بلادما وراء النهر وخراسان، ليس لكون تلك المناطق تُحكم من قبل حكام مسلمين، وإنما لكونها حُكمت من قبل الدولة الخوارزمية والتي أساء حكامها التصرف تجاه رعايا الخان ، وأقدموا على قتلهم كما ذكر من قبل ، فالواجب يحتم عليهم معاقبتهم ، هذا من جانب ومن الجانب الآخر طمع جنكيزخان بثروات البلاد وخيراتها لذا رغب بالتوجه نحوها، وذلك بعد احكامه السيطرة على الصين فكان لزاماً عليه التوجه شطر الغرب لإكمال سيطرته على تلك المناطق وطرقها التجارية، لذا فهو اندفع لتأديب الرموز السياسية للدولة، وليس تأديب الاسلام والمسلمين، ولكن على الرغم من ذلك فقد تأثر المسلمون بشكل كبير وحدّت حرياتهم وممارساتهم الدينية، تلك الآراء السالفة تؤيد ما توصلت إليه دورو يتاكرافولسكي في كتابها العرب وايران حيث قالت: " وما سقط بذلك الاسلام كدين، بل الذي سقط اعتبار الاسلام المبدأ والأصل للسلطة السياسية القائمة، توقف الاسلام عن أن يكون دين الدولة بل صار واحداً من الأديان الموجودة

(١) التاريخ المنسوب خطأ لابن الساعي(علي بن أنجب ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م):، مختصر أخبار الخلفاء، مصر، المطبعة الأميرية، ط١، ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، ص١٠٨؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٥٣؛ ابن واصل، مفرج الكرب، ج٤، ص٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٨٨؛ عبد الحليم(رجب): انتشار الاسلام بين المغول، مصر ، دار النهضة العربية، (د، ت)، ص٥١.

في المنطقة^(١). فعلاً فقد عُرف عن المغول تسامحهم الديني^(٢)، فهم بمنوا بالشامانية كدينٍ ومعتقدٍ لهم، ولم يجبروا أحداً على اعتناق دينهم، بل تركوا لرعاياهم حرية المعتقد، فظهر ضمن بلاطهم من اعتنق الشامانية، ومن اعتنق البوذية، أو النسطورية، أو الاسلام^(٣). حتى جنكيزخان نفسه تزوج بنساءٍ نسطوريات^(٤)، واستقدم إليه شخصياتٍ إداريةٍ أويغورية وهؤلاء آمنوا بالبوذية، بل أنه بذل جهوداً كبيرة لحضّ شخصيّة طاوية^(٥) على زيارته حباً منه في التعرف على مبادئ ذلك الدين وأسراره التي شدّت انتباهه وبشكلٍ خاصٍ ما تعلّق بإطالة عمر الانسان^(٦). ولم يكتفِ بذلك بل إنه عمد فيما بعد إلى إسقاط الضرائب جميعها عن رؤساء تلك الأقلية، وعن رجال الدين والرهبان^(٧). فبعمله ذاك كرّم هؤلاء، وما يلاحظ عند مطالعة ما كتبه القلقشندي وابن فضل الله العمري عن قوانين الياسا وجود بندٍ فحواه: "يعظّم خانهم رؤساء كلّ ملة، وتسقط الكلف عن الفقراء والقراء والفقهاء، والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم والزهاد حتى عن المؤذنين ومغسلي الموتى"^(٨)، ولكن هناك ما يدفع للتساؤل هل كان هذا البند من بنود الياسا فعلاً أم أنه اضافة تمت كتابته بعد اجتياح مناطق بلاد ما وراء النهر ، أو أنه من وضع المؤرخين المسلمين الذين عاصر بعضهم حكم الدولة الايلخانية؟، وذلك لكون القراء والفقهاء لم يكونوا إلا ضمن المجتمع الاسلامي، وكذلك المؤذنين ومغسلي الموتى، فلربما كان ذلك تكريماً من الخان خصّ به المسلمين على سائر الملل، ولكنه اذا خصهم بما ذكر آنفاً ، لماذا أفنى مدنهم، وأبادهم؟، ولكنه

(١) فولسكي، العرب وايران، ص ١٨٦.

(٢) القرماني، أخبار الدول، ج ٢، ص ٤٨٩؛ الخالدي، العالم الاسلامي والغزو المغولي، ص ٣؛ أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ص ٢٥١؛ كدرو، ص ٦١.

(٣) عبد الحليم، انتشار الاسلام بين المغول، ص ٥٢.

(٤) التاريخ السري، ص ٢٦٩.

(٥) نسبةً إلى الديانة الطاوية والتي تنسب لحكيم صيني دُعي لاو تزو والذي عاش ما بين سنتي ٦٠٤-٥١٧ ق.م، وكان أميناً للمكتبة الملكية في مقاطعة هونان، ولكنه هاجر لسببٍ ما لمكانٍ قصي ومنعزل في جنوب الصين، حيث نزع نحو العزلة والتجرد موجداً تعاليم فلسفية أطلق عليها تسمية طاو شياو والتي تدعو إلى الاعتدال والتناغم مع الطبيعة، والتجرد من كلّ المشاعر الشريرة، والارتقاء بالنفس لتكون قادرةً على كبح رغباتها والتعالي عن الشهوات وسرعان ما تحولت هذه المفاهيم لديانةٍ انتشرت بين الناس في أنحاء الصين؛ زكار(سهيل): المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي، دمشق، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٢، ص ٥٦٤؛ سغفان(كامل): معتقدات آسيوية، مصر، دار الندي، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٢٨٨؛ براج(ه. فان): حكمة الصين، ترجمة: موفق المشنوق، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٨؛ ص ٣٨.

(٦) غروسيه، ص ٣٦٢-٣٦٥.

(٧) عبد الحليم، انتشار الاسلام بين المغول، ص ٥٢؛ فامبري، تاريخ بخارى، ص ١٨١-١٨٢؛ براون، تاريخ الأدب في ايران، ص ٥٦١.

(٨) القلقشندي، ج ٤، ٣١٤-٣١٦؛ العمري، ج ٣، ص ١٠٦-١٠٧.

فعلاً كرم أتباع الملل الأخرى، فمثلاً أعفى الزهاد والمريدين من طائفة الطاوية من الضرائب، بل إنه منحهم الأموال لإنشاء معابد خاصة بهم^(١)، وعامل رئيسهم شانغ شن معاملة تليق بالملوك، واستمع بإنصاتٍ شديدٍ له، ولم يسمح لأفراد أسرته مشاركته في الاستماع لتعاليمه، ومنحه كثيراً من الهدايا وأعطاه حق حرية التنقل والاقامة في قصر سمرقند القديم^(٢). وكذلك منح البوذيين حرية إقامة طقوسهم الدينية وإقامة المعابد الخاصة بهم ، بل وأكثر من استخدامهم في بلاطه^(٣). ولقد سُمح للمسلمين فيما بعد بأداء شعائرهم الدينية من صلاةٍ وصومٍ وغير ذلك داخل مملكة جنكيزخان، ولقد أشار لذلك الراهب الطاوي حيث قال: " احتفل الناس هنا في اليوم الرابع من الشهر نفسه (عشرون تشرين الثاني سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م) بحلول سنتهم الجديدة (عيد الفطر) وكانوا يسيرون ويتجولون على شكل جماعاتٍ يحيون بعضهم بعضاً"^(٤). بالتالي فإن شعائر الاحتفال بعيد الفطر ظلت متبعة نفسها بعد الاجتياح المغولي، كما أنه تحدث واصفاً المساجد وطريقة رفع الأذان فيها فقال: " ولديهم أبنية عالية مع بروزٍ في الأعلى يمتد إلى حوالي عشرة أقدام ويدور حول المبنى كله، وتدعم هذه البروزات مقصورة مجردة باستثناء المتدليات ، ويصعد الإمام كل صباح ومساء وينحني نحو الغرب، ويتوجه بالدعاء نحو السماوات، لأنهم لا يصلون إلى المعبودات البوذية أو الطاوية، وينشد هذا الرجل بصوتٍ مرتفع، ويصغي إليه الرجال والنساء ويسرعون لدى سماع صوته إلى ذلك المكان ويسجدون على الأرض، وكل من يهمل هذه الواجبات الدينية يُعدم، ويرتدي الامام ثياباً مثل ثياب الآخرين، ويرتدي هو فقط عمامة بيضاء من الموسلين، واسعة جداً، وهي ملفوفة حول إطارٍ من الخيزران"^(٥)، بالتالي فقد وجد مسجد في سمرقند نجا من التدمير، رُفِع الأذان فيه، ولكن الراهب أشار إلى رفع الأذان فيه صباحاً ومساءً ، ربما هذه العبارة مجازية من قبل الراهب لكون الأذان يرفع خمس مراتٍ في اليوم. ويهرع المصلون فيها إلى المسجد لأداء الصلاة، ولكنه بالغ عندما تحدث عن أن المقصر كان يعاقب

(١) غروسيه، ص ٤٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨٠-٤٠٥؛ كذلك انظر الرحلة باللغة الانكليزية : the Travels of Ghang Ckun to the West, writer by his disciple lichy chang translated by E.Brestschneider, Proudunct by Silk road Seattle, ٢٠٠٣, p١٢١.

(٣) فولسكي، العرب وايران، ص ١٩٧.

(٤) غروسيه، ص ٣٨٥.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٩٥.

بالإعدام وهذا شيءٌ مبالغٌ فيه. إضافةً لذلك تطرق لوصف ملابس إمام المسجد والتي شدد انتباهه. يفهم مما سلف بأن بقايا السكان في سمرقند منحوا حرية ممارسة شعائرهم الدينية.

لكن على الرغم من كل ما ذكر فقد أثر الغزو المغولي على المسلمين في عدة نواحي: فيما تعلق بمراكزهم الدينية فقد دمر المغول معظم المساجد في المدن التي اقتحموها ولقد أشار كثير من المؤرخين إلى ذلك الأمر منهم ابن كثير حيث قال: "وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع"^(١)، فقد خرب المغول مساجد خوارزم، وأحرقوا المصاحف الموجودة فيها^(٢)، وكذلك أحرقوا مسجد قلعة سمرقند^(٣)، وهدموا مسجد قلعة بخارى^(٤)، كما أنهم هدموا نحو الثلث من مسجد بلخ لاعتقادهم بوجود كنزٍ تحت إحدى سواريه^(٥). كذلك أحرقت مقصورة مسجد الحنفية في مرو^(٦)، وبالتالي فإن المسجد الذي لم يدمره المغول عاثوا فساداً فيه كما كان حال الجامع الكبير في بخارى، والذي دهش جنكيزخان من عظمة بنائه، ومقدار اتساعه، فاعتقد بأنه قصرٌ للسلطان ولما أدرك بأنه بيتٌ لله لم يحترم قدسيته بل سمح لجنوده بدخوله مع خيولهم والعيث فساداً فيه، وخرب صناديق مصاحفه والتي تناثرت على الأرض وداستها أقدام المغول وخيولهم^(٧)، هذه كانت أمثلة قليلة عما فعله المغول بدور العبادة، ولكن هناك ما يدفع إلى التساؤل هل دمر المغول ياترى دور العبادة السالفة بقصدٍ أم بغير قصدٍ؟ وكان هدفهم من ذلك الاساءة للإسلام ومراكزه الدينية، والاساءة كذلك الأمر إلى الرموز الدينية للدولة الخوارزمية، وأماكن عبادتها والتي اشتهرت بها وأنفقت عليها الكثير، أم أن التدمير كان جزءاً من عملية الحرق والهدم التي مارسها المغول تجاه المعالم المعمارية للمدن الخوارزمية. لذا فهم لم يقصدوا هدمها، وإنما تضررت كسائر المباني الموجودة، أو هدمت لتحصن بعض الجنود الخوارزميين فيها كما حدث في مسجد بخارى، أو لمعاقبة فئات التجأت إليها، أو ربما امتدت إليها الحرائق من المباني المجاورة لها؟ ربما. ولم يكتفِ المغول بذلك بل هدموا كذلك الأمر المشاهد والمقامات، كمثالٍ على ذلك احراق وتخريب قبر علي بن

(١) ابن كثير، ج١٧، ص٨٨.

(٢) النسوي، ص١٠٩؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٦١.

(٣) بارتولد، تركستان، ص٥٨٨.

(٤) الفقي، الدول المستقلة في المشرق الاسلامي، ص١٧٥.

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٣، ص٤١.

(٦) الجويني، ج١، ص١٥٨.

موسى الرضا وقبر هارون الرشيد في مدينة طوس^(١) كما تم احراق تربة السلطان سنجر السلجوقي، ونبش القبر طلباً للأموال^(٢). وقس على ذلك في سائر المقامات التي وجدت في المدن التي اجتاحتها المغول. وإذا أُريد تحليل سبب اقدام المغول على نبش المقامات والقبور فيعتقد أنهم نبشوها ظناً منهم بأنها تحتوي كنوزاً وأموالاً لكون المغول وغيرهم من الشعوب البدائية كانوا يضعون كنوز حكامهم في مدافنهم رغبةً منهم في الاستفادة منها بالحياة بعد الموت، وليس تشفياً من الاسلام والمسلمين، ربما هدموا البعض عقاباً للسكان الذين قاوموهم ولم يظهروا احترام لهم. اذا ما تم الانتقال الآن إلى تناول حال المسلمين فحالهم لم تكن بأحسن من ذلك ، فامتيازاتهم وحقوقهم فقدوها ، فهم لم يعودوا العنصر الحاكم في المنطقة، وذلك لكون الدولة التي مثلتهم ككيانٍ سياسي قد زالت، وحل مكانها المغول والذين اتبعوا نموذج الحكم غير مباشر عن طريق عددٍ من الموظفين والذين لم يكونوا مسلمين ،بل كانوا معظمهم من الشخصيات غير المسلمة والذين أساءوا التصرف تجاه الرعايا المسلمين^(٣)، ولقد وجد موظفون مسلمون في بعض الأحيان ولكنهم مارسوا أفعالاً وسياساتٍ أقسى من ممارسات المغول أنفسهم^(٤)، وإنما وجدت بعض الاستثناءات كشخصية محمود يلواج وأسرته والتي جرى الحديث عنهم من قبل^(٥)، وكذلك الوزير علاء الملك العلوي والذي انضم لجنكيزخان متخلياً عن سيده القديم السلطان علاء الدين، ولقد مارس ذلك الوزير دوراً في إنقاذ بعض الأسر من القتل في مدينة هراة^(٦). أما باقي الامتيازات التي فقدها المسلمون فمثلاً، لم يحق لهم امتلاك حقولهم ملكية خاصة، بل أرغموا على أن يشاركوها مع الصينيين، وكذلك أرغموا على استخدام الصينيين والخطا ليشاركوهم في أعمالهم الادارية و الزراعية^(٧)، بالتالي فقد هؤلاء الحق في ملكية أرضهم وكذلك حريتهم في اختيار من يرغبون في استخدامهم بأراضيهم^(٨). ولم يحق للمسلمين ممارسة شعائر دينهم المتعلقة بطريقة ذبح الحيوانات، فقد اعتاد المسلمون على الذبح باستخدام سكين حادة تقطع رقبة الحيوان

(١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ ابن واصل، ج ٤، ص ٦٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٥١. هارون الرشيد : انظر تعاريف ص

(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٥٩؛ ابن واصل، ج ٤، ص ٦٠.

(٣) غروسيه، ص ٣٧٦، ٣٨٧، ٣٨٣.

(٤) أرنولد، الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٦.

(٥) انظر ص ٢٨٨.

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٩٣.

(٧) بارنولد، تركستان، ص ٦٣١.

(٨) الجويني ، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٩٢.

بعد أداء البسملة، ولكن أجبروا على ذبح الحيوانات وفق ما نصت عليه الياسا وهذا الأمر يعارض الشرع بشكل كبير، بل إنهم حكموا بالموت على كل مسلم يذبح حيواناته وفقاً للطرق الإسلامية^(١). كذلك حظروا عليهم الاستحمام بالعراء في المياه الجارية، بل كانت عقوبة من يستحم بالأنهار خلال ساعات النهار الإعدام لكون هذا الأمر يتعارض مع طقوسهم^(٢). ليس ذلك فحسب بل سُمح لرجال الدين حق اتخاذ دور عبادة وممارسة طقوسهم الدينية^(٣). ولقد تهادى المسيحيون في طموحاتهم عندما ظنوا أنه بالإمكان عقد تحالفات بينهم وبين المغول بغية توجيه ضربة قاسية لدار الخلافة في بغداد، وللكيانات الأيوبية في بلاد الشام، فأرسلوا العديد من السفارات حمل معظمها الطابع الديني، وكلفت بحمل رسائل من البابوية، أو من قبل ملوك أوربه تدعو المغول فيها لعقد تحالفات مع بعضهم بعضاً، ولكن خابت آمالهم، ولم يجنوا سوى فائدة واحدة تلخصت باطلاعهم على المجتمع المغولي وعلى عاداته وطرق معاشه^(٤). وهكذا اضطهد المغول المسلمين فحرموهم من كثير من حقوقهم الدينية وأجبروهم على ممارسة أشياء لا تتناسب وشريعتهم الإسلامية. ولقد قتل الكثير من رجال الدين المسلمين سواء أكانوا فقهاء أو زهاد أو صوفيّين على يد المغول، ولقد أشار مؤرخين كثر لذلك الأمر فأبو الفداء ذكر في كتابه ما يلي: " قتل العلماء والصلحاء والزهاد والعباد"^(٥)، كما تحدث الحميري عن أمر في أثناء حديثه عن اجتياح هراة فقال: "قتلوا في جامعها المشهور بالخير من العلماء والصلحاء المنقطعين عدداً كثيراً"^(٦). ولا بد من التساؤل هنا هل قتل المغول هؤلاء فقط لكونهم معروفين بزهدهم وورعهم وتقاهم، ولكونهم رجال دين مسلمين، أم لكونهم وجدوا في أماكن تعرضت للقتل والابادة الجماعية كما حصل في مدن نسا، ونيشابور، ومرو، والباميان وغيرها الكثير، وتبعاً لكون هؤلاء من الطبقات المشهورة في المجتمع لذا فقد تطرق المؤرخون للحديث عنهم في مؤلفاتهم أكثر من بقية الفئات الأخرى، أم لكون هؤلاء احتموا في أماكن هدمها المغول، أو قاوموا المغول واشتبكوا معهم في معارك كثيرة وقادوا نضال السكان ضدهم ربما. يعتقد بأن بعضهم قاوم المغول واشتبك

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج١، ص ١٩١.

(٢) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٧.

(٣) عبد الحليم، ص ٥٢؛ الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٣٣؛ أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٢؛ كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص ٢٥٣.

(٤) شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، انظر القسم الخاص برحلات المبشرين الكاثوليك.

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١١٦.

(٦) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٩٤.

معهم دفاعاً عن مدينته كما حدث في خوارزم والتي استشهد فيها الشيخ نجم الدين الكبرا في أثناء قتاله ضد المغول^(١)، أو كما حدث مع ركن الدين إمام زاده وولده اللذين رفضا الخنوع كما خنع غيرهم من الفقهاء في بخارى^(٢)، فقد استشهدا وهما يدافعان عن مبادئهما وعن المسجد الذي حاولا حمايته وقدمتا روحهما فداءً لذلك، ومن رجال الدين الذين استشهدوا في خراسان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م القاسم بن عبد الله بن عمر الصفار^(٣) في نيشابور، وفي هرة أبو روح الهروي البزاز^(٤)، وكذلك عبد الرحيم بن النفيس^(٥)، وغيرهم الكثير والذين قتلوا دفاعاً عن الاسلام والمسلمين ضد المغول الذين لم يحترموا المقدسات، ولا رجال الدين بل قتلوه لكونهم فقط أتباع للدولة الخوارزمية التي أساءت معاملة المغول.

وترك الغزو آثاراً كثيرة على الناحية الدينية للشعوب التي اجتاحتها فهم على الرغم من عدم قصدتهم الاعتداء على الاسلام كدين، بل ككيان سياسي، وعلى الرغم من ذلك اعتدوا فيما بعد على الدين الاسلامي عندما أسقطوا الخلافة في بغداد - لكونهم اتجهوا نحو الغرب لاجتياحه والغرب يحكم من قبل كياناتٍ سياسية مسلمة، ولكن على الرغم من ذلك فقد تأثر الاسلام والمسلمون من ناحية الصلاحيات التي حرّموا منها، أو الشعائر التي حرّموا منها، وتحولوا من شعبٍ حاكمٍ إلى شعبٍ محكوم، وازداد أتباع الديانات الأخرى من بوزية ونسطورية على حساب المسلمين، بالتالي فقد أثر ذلك الأمر على الشعور الديني للمسلمين في مناطق بلاد ما وراء النهر وخراسان.

ثالثاً: الآثار الاقتصادية: (الآثار على الزراعة ولاسيما على أنظمة الري):

انتهت موجة الاجتياح التي نفذها المغول بحق المشرق وتكشفت بعدها آثارٌ كثيرة منها ما بدا للعيان، ومنها ما لم يبدُ بشكلٍ مباشر وإنما ظهر وأثر على المنطقة فيما بعد، ومن أهم الآثار ما كان على الاقتصاد، الذي يعدّ عصب الحياة بالنسبة للسكان وهو شديد التأثير لارتباطه أولاً

(١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٣، ص٩؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، ج١، ص٣٦٩؛ ابيو جمال، الناجون من الغزو المغولي، ص١٤٤.

(٢) ابن الأثير، مصدر سالف، ج١٠، ص٣٤٠.

(٣) انظر تعاريف ص٣٦٢

(٤) انظر تعاريف ص٣٦١

(٥) انظر تعاريف ص٣٦١

بالإنسان وثانياً بالأرض، وثالثاً بالسلم والأمان والاستقرار السياسي. أما حالة الاقتصاد إبان الغزو المغولي فيصورها شبولر حيث قال: " أدت هذه الكارثة إلى تحطيم الازدهار الاقتصادي والثقافي في آسيا الوسطى، فلم تستطيع تلك المدن منذ تلك الكارثة أن تستعيد مكانتها السالفة كمراكز حيوية في صرح الحضارة الإنسانية" ^(١)، و فعلاً فقدت مدن عدّة مكانتها الاقتصادية وانتهى دورها لتحلّ مكانها مدن وعواصم جديدة.

وأثر الاجتياح على الزراعة وعلى شبكات الري كما أثر على الصناعات الموجودة في المنطقة ، ولم تكن التجارة بأحسن حال، لذا سيتم توضيح كل هذه الأشياء فيما يلي:

بدايةً اهتم سكان بلاد ما وراء النهر وخراسان اهتماماً بالغاً بالزراعة، وذلك لتوافر مجموعة من الظروف ساعدت على ذلك، وأهمها توفير اليد العاملة، إضافةً إلى خصوبة التربة ووفرة إنتاجها، يضاف إليها كثرة الأنهار والسدود السطحية والتي عوضت عن نقص الأمطار والتي سقطت في فصولٍ معينةٍ، لذا كان لابد للسكان من إيجاد حلولٍ بديلةٍ، فأكثرُوا من بناء القنوات ^(٢)، والتي برع السكان بشقها فقد حفروا بدايةً قنواتٍ باطنيةٍ تحت الأرض، وفتحوا لها منافذ فوق سطح الأرض لاستخدامها في صيانة القنوات، وكانت الغاية منها تجميع المياه الباطنية في أماكن وجودها في ذيول المرتفعات لتنتقل بعد ذلك إلى أماكن أكثر انخفاضاً عبر دهاليز تحت الأرض حمتها من التبرخ والتلوث لتخرج من جديد إلى سطح الأرض مشكلةً قنواتٍ جاريةٍ تستخدم لأغراضٍ منزلية وزراعية ^(٣). تأثرت تلك القنوات بكل تأكيد من جراء الغزو لذا سيتم الحديث عن تأثيرها فيما يلي:

وجد في بلاد ما وراء النهر وخراسان أنهارٌ كثيرةٌ أهمها سيحون وجيحون وحوض وادي زرفشان ونهر المرغاب ^(٤)، إضافةً إلى العديد من القنوات التي تفرعت عنهم. ولابد للحديث عن تأثير تلك القنوات من التطرق لحالها قبل الغزو لتبيان فداحة ما أصابها، و من أهم شبكات الري التي وجدت في المنطقة شبكة الري في مدينة سمرقند، لكون المدينة تقع في وادي نهر زرفشان مما

(١) شبولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٨٣.

(٢) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٥، ص ٣٣١؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٨٥؛ أما القنوات : فهي مجرى للماء ضيق كان أم واسع؛ المعجم الوسيط، ص ٧٩٤.

(٣) علي، على طريق الحرير، ص ٣٠.

(٤) للمزيد عنهم: انظر مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق: يوسف الهادي، القاهرة، الدار الثقافية للنشر،

ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٣٥-٤١

جعل شبكة الري فيها أغنى وأوسع، وبدأت تلك الشبكة بسد بني على بعد أربعة فراسخ من المدينة تشعبت منه قنوات عديدة أطولها نهر برش^(١)، والذي دخل المدينة، وإلى الجنوب منه وجدت قناتا بارمش، وبشمين ولقد انحصرت مهمة السكان الذين قطنوا في تلك المناطق بصيانة السد فقط^(٢). أما المناطق الشمالية من سمرقند فقد روتها ثلاث قنوات ، أما المدينة فقد دخلت إليها المياه عبر قناة بنيت من الحجر أطلق عليها اسم نهر برش، ولقد أشير إلى ذلك من قبل وبعد أن دخل المدينة تفرع إلى أربع قنوات رئيسية ، تفرعت كل واحدة بدورها إلى فرعين حتى بلغ عدد القنوات ثمان، وأقيمت عليها " ست مئة وسبعين " سكرًا لتسهيل وصول الماء إلى أنحاء المدينة جميعها^(٣).

واخترق المدينة كذلك الأمر قناة اشتهرت بكتب المؤرخين باسم القناة الرصاصية^(٤)، لكون جانبها كُسيا بالرصاص ويرجع تاريخ بنائها إلى العصر السابق للإسلام، أطلق عليها كذلك لفظة جاكرديزة بنيت على شكل سمح لها باختراق الخندق والسور المحيط بالمدينة وبني عليها "تسعة وخمسون" سكرًا روت مساحةً من الأرض قدرّت " بألف وسبع مائة وستين" حبلًا^(٥) ولقد حرص سكان المدينة على صيانتها واستخدم لأجل ذلك غلة الأراضي المحيطة بها^(٦). بالتالي فقد كانت شبكة ريّ سمرقند مهمة إلى درجة دفعت السكان إلى تسخير كامل قدراتهم للعناية بها، ولكن دُمّرت تلك الشبكة بشكلٍ مفتعلٍ في قسمٍ منها، وذلك رغبةً من المغول في تسريع عملية الاستيلاء على قلعة سمرقند عمدوا إلى هدم بعض السكور المبنية على القناة الرصاصية مما أدى إلى احتباس المياه في نقطة معينة ، ومن بعد ذلك اندفاعه السريع باتجاه أسوار القلعة مدمراً القناة ومسبباً انغمار الأراضي المحيطة بالقلعة بالماء، وقطع المياه بالتالي عن داخل القلعة^(٧)، وبعملهم ذاك دُمّرت القناة الرصاصية وبعض القنوات المحيطة بها وتعطل القسم الأعظم من شبكة الري الموجودة في المدينة، أما القسم الآخر فقد خرج من الخدمة نتيجةً لعدم العناية به،

(١) قناة درغم الحالية؛ بارتولد، تركستان، ص ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٩، ١٧٢-١٧٧.

(٤) رشيد الدين الهمداني، ص ٢٤٠؛ الحميري، ص ٣٢٢.

(٥) الحبل وحدة قياس للمساحة وتساوي مئة وعشرون ذراعاً ، وبالأمتار ٩،٤٠ مترًا؛ رمضان، الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، ص ٢٧.

(٦) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٧؛ بارتولد، تركستان، ص ١٧٣.

(٧) رشيد الدين الهمداني، ص ٢٤٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٢٢؛ غروسيه، ص ٢٧٧؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٨.

فالقنوت احتاجت لعنايةٍ دوريةٍ بشكلٍ كاملٍ خوفاً من ردمها أو امتلائها بالأتربة وبمقتل وتهجير معظم السكان لم يعد هناك من يهتم بها^(١). بعد أن هدأت الأحوال عاد بعض سكان سمرقند والذين كتبت لهم النجاة إلى المدينة فقد تحدث عن ذلك الراهب الطاوي فقال: " سمرقند مدينة أفنية بسبب عدم الأمطار فيها في الصيف والخريف حول السكان مجرى نهرين هناك إلى المدينة، ووزعوا المياه إلى جميع الشوارع حتى إنَّ كلَّ بيتٍ لديه وفرة من الامدادات"^(٢). بالتالي شاهد الراهب عودة الحياة إلى بعض قنوت سمرقند، والتي كان إصلاح بعضها ضرورياً لاستمرار الحياة في المدينة. ولكن من الأضرار الكبرى التي ألحقها الغزو المغولي بشبكات الري وأثرت بشكلٍ كبيرٍ ليس على المدينة التي أُقيمت فيها فحسب، وإنما على مجرى نهر جيحون فعمدت إلى تغيير مجراه، ما حصل في مدينة خوارزم " الجرجانية" فتلك المدينة أُقيمت على نهر جيحون وبصورةٍ خاصة عند مجراه الأسفل أي على دلتا النهر، أُقيمت فيها بالتالي شبكة كبيرة من القنوت تفرعت إما من مجرى النهر، وإما من قنوتٍ كبيرة تفرعت من مجرى النهر الأصلي مثل قناة كاواخواره التي شُقت من منطقة تبعد ثلاثة فراسخ عن أسفل خانق نهر جيحون" أمودريا كما أطلق عليه الفرس"^(٣) زودت تلك القناة المنطقة بمياه الشرب والري، يضاف إليها قناة وداك^(٤)، أما أهم منشآت الري فهو السد الذي بني على بعد مسافةٍ قصيرة جداً من مدينة الجرجانية، وقد بني من الخشب فسبب ذلك السد انحراف مجرى النهر نحو الشرق^(٥)، وأمّن ذلك السد مياهاً وافرةً إلى أراضي خوارزم فحولها إلى واحةٍ غناء^(٦). وأمّن مياه الشرب إلى المدينة والتي كانت جميع قنوت الري تنتهي عند أبوابها ولا تخترقها نظراً لضيق مساحتها^(٧). ولكن عند قيام المغول بحصار مدينة خوارزم أقدموا على تهديم السد المقام على النهر^(٨) بعملهم ذاك اندفعت المياه المتجمعة خلف السد بقوةٍ نحو المدينة مدمرةً إياها ومغرقَةً سكانها ومتسببةً بتلف جميع قنوت الري فيها وتدميرها بالكامل، وإغراق كامل الحقول والأراضي المحيطة بخوارزم

(١) الزهاوي، السياسة الداخلية والخارجية للدولة الايلخانية، ص ٧٧.

(٢) غروسيه، ص ٣٨٧.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٠١؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٢٣٠.

(٤) مجرى قناة دريا الحالي؛ بارتولد، تركستان، ص ٢٥٢.

(٥) الاصطخري، ص ٣٤٢؛ بارتولد، تركستان، ص ٢٥٢.

(٦) غروسيه، ص ٢٧٩.

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣٠.

(٨) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٤٩؛ ابن سباط، ج ١، ص ٢٧٥؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٥٩؛ بارتولد، تركستان، ص ٦١٥.

بالمياه وتحويلها إلى مستنقعات، وأهم من ذلك تغيير مجرى نهر جيحون من كونه يتجه نحو الشرق، فاتجه نحو الجنوب الغربي منتهياً إلى بحر قزوين مما سبب ارتفاع المياه وغمرها لقسم من جزيرة آبسكون، إضافةً لهجر النهر مجراه القديم وجفاف كامل للأراضي التي أحاطت به واعتمدت على مياهه، واتخاذها لمجرى جديد مدمراً في طريقه كل ما اعترض طريقه من أشكال للحياة^(١)، وبارتكاب المغول لذلك العمل وجهوا ضربةً قاسيةً إلى الزراعة في اقليم خوارزم فقد دمروا جميع القنوات الموجودة والتي كان القسم الأكبر منها يعتمد على السد الذي حمى المدينة وما جاورها من الفيضان، ليس ذلك فحسب بل إن كثيراً من الأراضي تحول إلى مستنقعات، لم تجف إلا بعد وقتٍ طويلٍ، فخرجت بالتالي تلك الأراضي من حيز الاستثمار الزراعي.

لكن عند قراءة ما كتبه بارتولد عن الموضوع يلاحظ بأنه برأ المغول من تهمة تخريب سد خوارزم وشبكة الريّ الموجودة فيها، وتحدث عن أن ذلك الأمر حدث من غير قصدٍ فقتل المغول لجميع السكان، وتحويل الباقي أسرى حرم المدينة من اليد العاملة التي كانت تهتم بتلك القنوات مما سبب انهدام بعضها وتصدع السد وهذا ما يفسر الفيضان الذي حصل فيها، ربما يكون بارتولد واهماً لكون معظم المؤرخين تحدثوا عن تدمير المغول للسد ، لذلك غرقت المدينة بالمياه، فلو كانت كلماته صحيحة لكان السد دُمر بعد مدةٍ طويلة من الزمن بفعل الإهمال وليس بعد مغادرة المغول للمنطقة مباشرة^(٢).

هكذا كان حال خوارزم ، أما شبكة الري في نيسابور فلم تكن بأحسن حال، أولاً تميزت بكونها أنشأت على وادي نهر سانغاور والذي دخل المدينة وجرى فيها إلى مسافة فرسخٍ ومنه تفرعت قنوات الري والتي كان بعضها باطني والآخر سطحي، أما الباطنية منها فكانت تجري تحت الأرض ويصل عمق بعضها إلى مئة درجة، ثم تعاود الظهور فوق سطح الأرض حيث تجري في البساتين والضياع، أما الأخرى فكانت موجودة في الدور والبساتين، ومن أجل الاهتمام بها تم وضع عمالٍ مهمتهم الرئيسية حفظ تلك القنوات من الانهدام^(٣)، ولقد بلغ عدد تلك القنوات " اثنتي عشرة " قناة زودت نيسابور بكامل احتياجاتها من مياه الشرب^(٤). كما أنه أُقيمت على

(١) لسترنج، ص ٤٩٩؛ غروسيه، ص ٢٨١.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٦١٥.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦١؛ الاصطخري، ص ١٠٣.

(٤) المقدسي، ص ٢٤٦؛ لسترنج، ص ٤٢٦.

نهر سانغاور "سبعين" رعى استعملت قوة دفع المياه لطحن الحبوب^(١). بالتالي فقد شكل النهر عصب الحياة إلى المدينة، ولكن زال كل شيء على يد المغول، وتم استنتاج ذلك من كون المدينة هُدمت بالكامل وتساوت جميع أبنيتها بالتراب على أثر تدمير المغول لها انتقاماً لمقتل صهر الخان تقاجار، وبالتالي إذا كانت الدور قد تساوت مع التراب فبكل تأكيد قد دمرت قنوات الري بشكل كامل سواء أكانت سدود، أم قنوات ظاهرة، أم قني تحت الأرض^(٢)، ومما أكد خبر تدمير قنواتها الباطنية قول النسوي: " ومات أكثر أهلها تحت الأرض إذ كانوا قد اتخذوا بها سراديب ونقوباً ظناً أنها ما نعتهم "^(٣)، وربما تلك السرايب والنقوب لم تكن سوى قنوات الري الباطنية والتي اشتهرت بها نيشابور، وتحدث عنها المؤرخون العرب في مؤلفاتهم، و ربما اختبأ بها السكان نظراً إلى تشعبها وكثرتها، ولكونها امتدت على مساحة واسعة أسفل المدينة. ولكن ردمت بالتراب كما ردم غيرها مسببةً هلاك من اختبأ بها، ولقد دُمرت بشكل كامل بحيث أضحي من غير الممكن إعادة ترميمها والاستفادة منها فيما بعد.

أما شبكة الري في مدينة مرو فقد بلغت من الشهرة حداً دفعت السكان إلى تقسيم المدينة إلى أرباعٍ حيث أطلق على تلك الأرباع اسم القناة التي جرت فيه^(٤)، فقد أنشأت المدينة على نهر المرغاب ذلك النهر الذي عدّ عصب الحياة للمدينة^(٥)، وعلى بعد فرسخٍ من جنوبها أنشأ على النهر سدٌ أشبه بحوضٍ مستدير تولى الاشراف عليه حراسٌ خاصون مهمتهم الأساسية حراسة السد ومنع اقتراب المخربين منه^(٦). وكذلك أقيم عليه لوحٌ لقياس علو الماء وقت الفيضان، ومن ذلك النهر تفرعت القنوات الأربع التي قسّمت مرو إلى أربعة أرباع^(٧)، والتي تفرعت عنها قنواتٌ عدة انتشرت في كافة أرجاء مرو وأرباضها. ولكن عندما اجتاحت المغول المدينة نفذوا عملاً تخريبياً تجلى بتحطيم سد مرو على نهر المرغاب، وكذلك تدمير مقاسم المياه والتي كانت

(١) الحديثي، أرباع خراسان، ص ٢٢٦.

(٢) الجويني، ج ١، ص ١٧١؛ اقبال، تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٣٦٨؛ براون، ص ٥٦٠.

(٣) النسوي، ص ١١٧.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣٧؛ الاضطخري، ص ٢٥٨.

(٥) مؤلف مجهول، حدود العالم، ص ٣٨.

(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٤٦.

(٧) الاضطخري، ص ١٠٤؛ لسترنج، ص ٤٤٠؛ الحديثي، ص ٣٣٢.

وظيفتها الأساسية تنظيم توزيع المياه على دور مرو وبساتينها^(١). و بعملهم ذاك دُمرت القنوات الأربع نتيجةً لتدمير السد، كما ردمت باقي القنوات التي تشعبت عنها داخل المدينة، و من الملاحظ بأن سد المرغاب لم يكن بحجم سد خوارزم، وذلك لكون المؤرخين لم يذكروا إحداثة لأضرارٍ كبيرةٍ كما حصل عند انهدام سد خوارزم، ومن المعتقد بأن ذلك السد ربما كان أصغر، أو كمية تخزينه أقل، أو ربما لم يدمر بشكلٍ كاملٍ بل بشكلٍ جزئي، والذي دُمر شبكات الري المنتشرة داخل المساكن التي دمرها المغول، والدليل على ذلك قيام أحد قادة مرو بعد مغادرة المغول للمدينة بإعادة اصلاح وترميم سد المرغاب رغبةً منه بإعادة النشاط الزراعي لسالف عهده وذلك لدفع بقايا السكان إلى العودة إلى المدينة بعد أن هجروها^(٢). ونجاحه في ترميمه إما يشير إلى عدم هدمه بشكلٍ كاملٍ أو إلى سهولة ترميمه من جديد.

بالتالي فقد تضررت شبكات الري خلال الاجتياح المغولي تضرراً كبيراً وقد تم التطرق إلى ذكر أمثلة معينة عنها، وقد وجدت شبكاتٍ مماثلةً في باقي المدن كان مصيرها التخريب كذلك الأمر، باستثناء بعض المدن والتي سالمت المغول فلم تتأثر بأي شيءٍ كما حصل في تبريز^(٣). في ختام الحديث عن شبكات الري لابد من الإشارة بأن تلك الشبكات اعتمدت على المياه الباطنية ولاسيما في المناطق التي قلّت فيها المجاري السطحية، ولقد وزعت تلك الأقفنية المياه على الدور إما بشكلٍ مباشرٍ وإما بشكلٍ غير مباشرٍ باستخدام وسائل مساعدة على اخراج المياه منها، فعندما كان الراهب الطاوي متوجهاً نحو سمرقند شاهد رجلاً مسلماً يسقي أراضيّه باستخدام أقنيةٍ استخدمت الجرار فيها لسحب المياه وتوزيعها، أما في وادي نهر زرفشان، فقد التقى بعجوزٍ يشرف على ثورٍ يدير دولاباً لإخراج الماء بهدف تأمين مياه الشرب، ونتيجةً لكد العجوز في عمله كافأه جنكيزخان بأن أعفاه من السخرة والضرائب^(٤)، و يلاحظ بأن الخان كان في منتهى الانسانية إلى درجةٍ دفعته للمحافظة على روح رجلٍ عجوزٍ يسقي الناس على طريق وادي زرفشان، وكان من الكرم ما دفعه إلى إعفائه من الضرائب والسخرة، فهل يا ترى تلك الأشياء صحيحة أم أنها اضافات من قبل الراهب الذي رغب في اظهار مضيفه بمظهرٍ إنساني، وليس

(١) الحديثي، ص ٣٣٢؛ لسترنج، ص ٤٤٠؛ غروسيه، ص ٢٩٣.

(٢) غروسيه، ص ٣٠٢؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٣٦٧؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٢٩.

(٣) غروسيه، ص ٣٢٤.

(٤) غروسيه، ص ٣٨٦، ٣٨٣.

كما عُرف عنه فهو لم يفرق بين شيخٍ وطفلٍ أو امرأةٍ بل أباد الجميع، أو اضافات من قبل المرید الذي دون هذه الرحلة.

ما يهتم في الأمر أن العمود الرئيسي والذي كانت تستند عليه الزراعة " شبكات الري " قد زال ودمر، مما أثر على الزراعة التي تأثرت بأشياءٍ أخرى من أهمها، فقدانها لليد العاملة التي اهتمت بتطويرها والعناية بها ، فقد نظر المغول إلى الفلاحين الذين عملوا في الأرض و حرثها نظرةً دونيةً، فهم بالنسبة إليهم كانوا أشبه بالحيوانات، بل إن الحصان أعلى مكانةً منهم ولقد أشار إلى ذلك الأمر مارشال حيث قال: " عدّ الفلاحون الذين عملوا بالأرض وفلحوها بلا إستثناء أن مكانتهم في الحياة ليست أفضل من مكانة قطعان الماشية، فهم نظروا إلى الرجال والنساء الذين عملوا وهم جاثين على ركبهم في التربة، كأحط أشكال الحياة البشرية إلى حدّ أنه حتى الحصان عدّ أكثر قيمةً بكثير من أي واحدٍ منهم"^(١)، وتساوى الإنسان مع الحيوان عند المغول بل عدّ الحصان أرفع مكانة من الفلاحين في الصين ومناطق المشرق الاسلامي، ومرد هذه النظرة إلى كون المغول شعب بدوي، لم يعرف الزراعة فيما ندر وإنما اهتم بالحصان وبالحيوانات بشكلٍ خاصٍ لارتباطها الكبير بحياته ومعاشه.

لم يلقّ الفلاح أيّة رأفة من قبل المغول، وإنما كان مصيره الموت في معظم الأحيان، فإما قتل في أثناء المذابح الجماعية والتي نفذت بحق المدن كما جرى في نيشابور، مرو، سمرقند، بخارى، وخوارزم^(٢)، وإما سيق هؤلاء الفلاحون قسراً وتم استخدامهم كقواتٍ حشوية تقدمت على جيوشهم، لتلقي الضربات الأولى في المعارك، وفي حصار المدن، مخففةً الأذى عن جيشهم الرئيسي^(٣)، وخير مثالٍ على ذلك قيام المغول بجمع الفلاحين من القرى المحيطة ببخارى لاستخدامهم في حصار المدينة^(٤).

ولقد أستخدموا كذلك الأمر في البحث عن الدفائن بين أنقاض المدن المهدامة، ولقد تحدث عن ذلك ياقوت الحموي في معرض حديثه عن تدمير مدينة نيشابور^(٥). كما استعمل هؤلاء في

(١) مارشال ، ص ٦٩.

(٢) انظر الفصل الثالث والرابع.

(٣) حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٤، ص ١٣٧؛ فاميري، ص ١٨٠؛ العريني، المغول، ص ١٢٤.

(٤) بارتولد، تركستان، ص ٥٨٥.

(٥) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٣٣٢.

تأمين الطعام و الإمدادات اللازمة للجيش المغولي، وذلك عن طريق تنقية الأرز وقشره، ولكن بعد انتهاء دورهم في تنقية كل فلاح أسير " لأربعمئة من^(١) "من الأرز عمد الخان إلى قتلهم جميعاً^(٢). وبالتالي لم يرأف المغول بالفلاحين أبداً، فهم إضافة إلى أسرهم استعملوهم في أغراض خاصة، وبعد انتهاء دورهم عمدوا إلى قتلهم دون أية رحمة أو شفقة.

أما الفلاحون الذين اشتهروا بمدى براعتهم في أعمال البستنة، فقد حافظ المغول على حياتهم ونقلوهم إلى العاصمة قراقورم حيث جرى استخدامهم لتزيين حدائقها وبساتينها على نمط حدائق بلاد ما وراء النهر^(٣)، أما الفلاحون الذين سُمح لهم البقاء أحياء في أراضيهم فقد تعرضوا للسلب والنهب باستمرار، كما أن الضرائب أرهقت كاهلهم إضافة إلى تدمير جزء كبير من شبكات الري لذا وجد هؤلاء أنفسهم عاجزين عن الاستمرار في زراعة الأرض والعناية بها^(٤)، وهكذا كان حال الفلاحين ، أما فيما تعلق بالحقول والمزارع فقد تعرض معظمها للحرق والتخريب في أثناء تقدم الجيوش واجتياحها للمدن، فقد أحرق المغول أحياناً الحقول المحيطة بالمدن كما حصل في بلخ فقد أحرقوا الأخضر واليابس^(٥)، بل إنهم كذلك عمدوا إلى قطع أشجار البساتين رغبةً منهم في الاستفادة منها، إما لأجل تحويلها لقذائف كما حصل في خوارزم، أو من أجل استخدامها في صنع السلاالم والشرفات الخشبية لاعتلاء الأسوار كما حصل في مدينة نور^(٦)، و بالتالي فقد كانت الزراعة المتضرر الأكبر من الاجتياح لكون هؤلاء لم يكتفوا فقط بقتل اليد العاملة، بل عمدوا إلى حرق كل شيء ينبض بالحياة فتحوّلت الواحات الخصبة إلى صحارى، وزحفت رمال الصحراء على كثير من المواقع الزراعية ، مما أدى إلى انتشار التصحر بشكل كبير وإخراجه لمساحات واسعة من الأراضي من حيز الاستثمار تلك المناطق التي اشتهرت ببساتين الفواكه ، وإنتاج أنواع جيدة من البطيخ والخضراوات والحبوب جرى تصديرها إلى أماكن كثيرة^(٧).

(١) المنّ وحدة للوزن تقدر برطلين، أي ما يساوي ألف وثمانمائة غرام؛ رمضان، الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) الجويني، ج ١، ص ١٤٢.

(٣) فامبري، ص ١٧٤.

(٤) التاريخ السري، ص ٣٧٢؛ الزهاوي، ص ٧٧.

(٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٣٨.

(٦) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٤٩؛ رشيد الدين الهمذاني، ص ١٤٩؛ أقبال، تاريخ المغول، ص ٨١، ١٣٣.

(٧) غروسليه، مرجع سالف، ص ٢٦٧؛ مارشال، مرجع سالف، ص ٥١.

هكذا كان وضع الزراعة، أما إذا ما أُريدَ التطرق إلى حال الصناعة فبكل تأكيد لم تكن بأحسن حال، وإنما أصابها أضرارٌ كثيرة حالت دون استعادتها لسالف عهدها، وبدايةً اشتهرت مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان بصناعاتها التي اعتمدت في جزءٍ كبيرٍ منها على الزراعة، لذا فإن حياكة المنسوجات القطنية والحريية إضافةً إلى حياكة البسط والسجاد حظيت برواجٍ كبيرٍ فيها، بل إن كثيراً من هذه الصناعات أُطلق عليها أسماء المدن التي أنتجتها. كما أن مدناً كثيرة اشتهرت بصناعة الأدوات النحاسية، وصناعة الأسلحة من السيوف والدروع والقصي، إضافةً إلى صناعة السفن التي اعتمدت على أخشاب المنطقة، يضاف إليها صناعة السيراميك متعدد الألوان والذي صدر إلى أنحاء العالم المعروف آنذاك^(١)، ولكن زالت كل تلك الصناعات ودُمّرت أسواقها وورش صناعاتها، كما أن أرباب الصناعات لم يقتلوا بل على العكس حافظ المغول على أرواحهم لكونهم رغبوا في انشاء أسواقٍ للحرف والصناعات في مدنها، لأن هؤلاء كانوا يزودون الأسرة الحاكمة باحتياجاتها من المنسوجات، والجواهر، والأواني الزجاجية وغيرها من الأشياء اللازمة ليعيش المغول حياةً ملؤها الرفاهية والراحة، تلك الرفاهية التي تلمسوها عند اجتياحهم لمدن بلاد ما وراء النهر، فأرادوا نقل كل تلك الصناعات إلى مدنها وعاصمتهم رغبةً في تزيينها وتلبية احتياجات سكانها، لذا نقلوا أعداداً كبيرة من الحرفيين، بلغ عددهم حوالي "مئة ألف" من كل من خوارزم وسمرقند، وكذلك "أربعمائة" حرفي من مرو، والعدد نفسه من مدينة نيشابور، كما فصلوا حرفي أترار، وبناكث، وجند عن باقي السكان وأرسلوهم إلى العاصمة حيث جرى توزيعهم على أفراد الأسرة الحاكمة^(٢). ولم يبق حرفي واحد في المدن المجتاحة وإنما سيّق الجميع جماعاتٍ إلى منغوليا، ولم يكتفِ المغول بحرمان تلك المدن من حرفيها والذين زودوها بكامل احتياجاتها لاستمرار حياتها اليومية، وإنما عمدوا كذلك الأمر إلى تدمير أسواقها الحرفية، فدمروا أسواق خوارزم، وأحياء الحرفيين في مرو، وأحرقوا أسواق بخارى، ونيشابور، ونهبوا بازار مدينة الري^(٣). كذلك دمروا المواد الخام التي اعتمدت عليها الصناعات كما حصل عند قطعهم لأشجار التوت، والتي كانت الأساس في صناعة الحرير، أو إحراقهم لحقول القطن^(٤). بالتالي فقد وجه

(١) غروسيه، مرجع سالف، ص ٢٧٣-٢٨٥؛ لسترنج، مرجع سالف، ص ٤٧١-٤٧٢، ٥٠٢، ٥١٤.

(٢) النسوي، ص ١٧٢؛ الجويني، ج ١، ص ١٠٣، ١٠٧، ١٣٤، ١٥١؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٨، ٦١٤، ٦٢٧؛ فامبري، تاريخ

بخارى، ص ١٧٤؛ شبولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٨٣؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ١٢٥.

(٣) رشيد الدين الهمداني، ص ٢٣٦؛ ابن بطوطة، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٤) النسوي، ص ١٧١؛ رشيد الدين الهمداني، ص ٢٤٩.

المغول ضربةً قويةً إلى الصناعة في المنطقة، تلك الضربة التي أثرت عليها بشكل كبير ، لذا لم تستعد سالف عهدها، وإنما عادت بعض الصناعات تدريجياً الصغيرة منها، وبشكلٍ يمكّن السكان من الاستمرار في الحياة، وتأمين متطلباتهم اليومية. وقد تحدث عن تلك الصناعات البسيطة الراهب الطاوي في أثناء رحلته إلى سمرقند، فأشار إلى عودة الصناعات النسيجية الضرورية لتأمين ملابس السكان، سواء أكانت القطنية منها أو الحريرية، إضافةً لمشاهدته لصناعة الأدوات الزراعية، والتي صنعت من معدن الفولاذ ، والأدوات المنزلية والتي تم صناعتها من معدن النحاس، يضاف إليها صناعة الخزف والزجاج^(١). وصناعة العربات والقوارب وصناعة الفحم^(٢)، وكلها ضرورية لحياة السكان اليومية، ولكن أشار الراهب إلى ظاهرة غريبة وهي أن المغول عمدوا إلى نقل بعض الحرفيين الصينيين البارعين في حياكة الحرير والصوف إلى مناطق بلاد ما وراء النهر، وأسكنوهم في مستعمراتٍ خاصةٍ. شاهدها الراهب ومر بها حيث التقى بالعمال هناك^(٣)، وربما كان هدف المغول من ذلك التصرف تعويض النقص الحاصل في حرفيي المنطقة والذين نقلوا إلى منغوليا، أو أنهم اتبعوا مع الصينيين السياسية نفسها القائمة على نقل حرفي المنطقة من مكانٍ استقرارهم الأصلي إلى مكانٍ آخر، أو رغبوا بتأمين احتياجات المنطقة واحتياجات الجيش المغولي والذي ترك بعض أفرادهِ شحنةً في المدن التي خلّت من حرقها، أو عند تقدمه للقيام بعملياتٍ عسكريةٍ جديدة، لذا من أجل تسهيل توفير احتياجاتهم عمدوا إلى هذا التصرف، هكذا كان حال الصناعة في بلاد ما وراء النهر وخراسان أبان الغزو المغولي، فقد فقدت مقوماتها الأساسية من موادٍ أوليةٍ، وأيدي عاملةٍ، وأسواقٍ للتصريف، لكون معظم السكان قد هلك، والأسواق قد دمرت، ولم تعد الطرق آمنةً للتصريف، بالتالي فلم تكن التجارة بأحسن حالٍ من سابقتها، على الرغم من كون جنكيزخان دفع جنوده إلى المنطقة لأسبابٍ من بينها الانتقام لمقتل قافلته في أترار، لذا فإن كثيراً من المؤرخين أشاروا بأن الخان اجتاح المنطقة وفي نيته السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، لما كانت تدره من ثرواتٍ كثيرة، كما أن مناطق سكنى المغول كانت تندر فيها المنتجات الزراعية والصناعات التي اعتمد عليها التجار في تجارتهم وذلك لكونهم شعباً بدوياً اعتمد على الرعي والصيد، فلما اتصل بمراكز الحضارة

(١) غروسييه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٣٨٤، ٣٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨٠، ٣٩٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٦.

رغب في السيطرة على كل ذلك^(١). كما أن بلاط الخان حوى العديد من التجار المسلمين من سكان بلاد ما وراء النهر، وهذا ما يؤكد بالطبع أطماعه التجارية، ومن المفروض أن يكون المغول حافظوا على طرق التجارة ولم يعمدوا إلى تدميرها^(٢). وأصيب طريق الحرير والذي ربط بين الصين وخراسان من جهة، والعالم الاسلامي و أوريه من جهة ثانية بأضرار كبيرة، ولم يعد آمناً كفاية، ولقد بدأ ذلك الطريق من بغداد ودخل بعدها خراسان عند مدينة بسطام، وبعدها انحدر باتجاه نيشابور ليتفرع لفرعين أحدهما جنوبي شرقي نحو هراة، والثاني شمالي شرقي إلى طوس، ثم يتجه نحو سرخس، ليمر بمرور، وليصل إلى ضفة نهر جيحون عند مدينة آمل، ثم يتجاوز جيحون إلى بخارى وسمرقند، ويمر بمدن نهر زرفشان على ضفته اليسرى، ليصل إلى كاشغر، وبعدها يغادر المنطقة باتجاه الصين^(٣)، ولكن اذا ما تمت العودة والبحث عن أحوال مراكز طريق الحرير الرئيسية بعد الغزو المغولي يلاحظ بأنها في معظمها إما دُمرت بالكامل، وإما هجرها سكانها، أو تمت إبادتهم، مما أثر على ذلك الطريق عظيم التأثير، ففقدت بعض مراكز أهميتها على حساب مراكز جديدة برزت على السطح كمدن أذربيجان والتي تحول طريق التجارة إليها لكونها لم تشهد التدمير الذي شهدته غيرها من المدن^(٤). كما لم تعد معظم الطرق صالحة لمسير القوافل لكون بعضها تحول لساحات معارك شرسة، كما أن بعضها الآخر انتشرت فيه أعمال اللصوصية وقطاع الطرق، ولم تعد بعض الجسور والقناطر صالحة للعبور فقد جرى تهديم قسم كبير منها مما أثر على خط سير القوافل وتنقلها من مكان لآخر^(٥).

يضاف إلى ذلك أن أعداداً كبيرة من التجار تمت إبادتهم سواء أكانوا تجار أترار، أو بخارى، أو سمرقند فخلت بالتالي البلاد من تجارها^(٦)، و يفهم مما سلف أن المقومات التي اعتمدت عليها التجارة قد زالت، وهي التاجر الذي قتل، والمواد التجارية التي أُحرقت، أو نهبت، أو زالت بسبب نقل الحرفيين إلى منغوليا، يضاف إليها الطرق والتي فقد الأمان فيها ودمر جزء منها. لكن بعد أن هدأت الموجة الأولى من الاجتياح استعادت التجارة قليلاً من نشاطها، وإن على مستوى ضيق

(١) انظر الفصل الثالث ص ٩٩ وما تلاها.

(٢) الصياد، المغول في التاريخ، ص ٩٩.

(٣) غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٢٤٧؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٧٢، ٤٧٤-٤٧٥، ٥١٥؛ علي، على طريق الحرير، ص ٤١.

(٤) الزهاوي، ص ٧٩-٨٠؛ لسترنج، ص ٣٣٣.

(٥) غروسيه، ص ٣٨٧؛ الزهاوي، ص ٧١.

(٦) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٣٧، ٢٤٨.

والدليل الحي على ذلك الراهب الطاوي، والذي كان شاهد عيانٍ زار المنطقة بعد انتهاء العمليات العسكرية فيها، فهو التقى خلال سفره بقافلةٍ واحدةٍ كانت محملةً بالمرجان فاشترى مرافقه منها عدة قطع مقابل قطعتين من الفضة^(١). كما تحدث عن تجارة الملح الأبيض والأحمر والذي راجت في المنطقة بشكلٍ كبير^(٢). يضاف إليها تجارة الطحين والذي تم احضاره بواسطة القوافل إلى المنطقة وأشار إلى غلاته الشديد^(٣). وفي نهاية الحديث عن التجارة يلاحظ بأن معظم الباحثين تحدثوا عن كون المغول حرصوا على الاهتمام بالتجارة وإبقائها مفتوحة بين الشرق والغرب، كما أنهم شجعوا التجار إلى القدوم لبلادهم، وعمدوا إلى اصلاح الطرق وزراعة الأشجار على أطرافها، واهتموا كذلك الأمر بتسيير دورياتٍ لحراسة القوافل التجارية، كما أن كثيراً من تجار أوربه زاروا المنطقة ووصلوا في تجارتهم حتى منغوليا والصين^(٤)، واهتم المغول بذلك الأمر فعلاً ولكن خلال مدة حكم خلفاء أوكتاي، ولم تكن في المدة المحددة للدراسة في هذا البحث والتي تنتهي بسنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، حتى ولو وجدت بعض الاصلاحات فإن بعضها قد تم في عهد أوكتاي وعلى نطاقٍ ضيق، والذي اعتنى بتطوير نظام البريد والعناية بالطرق وتأمين مياه الشرب للمسافرين^(٥). وفي هذا الموضوع يذكر بارتولد بأن المغول أثناء زحفهم واجتياحهم للمدن اصلحوا الطرق التي غدت في حالٍ أفضل مما هي عليه قبل الغزو، بل إنهم بنوا جسوراً خشبيةً على الأنهار^(٦). فعلاً بنوا جسوراً خشبية على الأنهار، ولكن ليس لغرض التجارة وتسهيل مسيرة القوافل، وإنما لتسهيل سير الجيوش وعبورها للأنهار باتجاه المدن المراد اجتياحها^(٧). فيمكن أن يكون المغول ساهموا بدون قصدٍ في تسهيل حركة القوافل. ولو اهتموا بالتجارة فعلاً لكانوا على الأقل حافظوا على مراكز التجارة وهي مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان، واهتموا كذلك بصك عملةٍ لاجل التبادل التجاري، فلم يُعرف عن المغول في ذلك الوقت استعمالهم لعملةٍ ذهبيةٍ معينةٍ باستثناء وجود دينار وحيد تم اكتشافه يعود إلى جنكيزخان، ولم يكن واسع الانتشار، لذا استمروا باستعمال النقود ذاتها الموجودة في المنطقة، ومثال على ذلك عملةٌ نقديةٌ تم العثور عليها في

(١) غروسيه، ص ٣٩٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٩٤؛ الزهاوي، ص ٧٨؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٣١؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٥٤٨، ٥٥٠.

(٥) التاريخ السري، ص ٤٠٣.

(٦) بارتولد، تركستان، ص ٦٣١.

(٧) رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٣٢، ٢٥٣؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص ٤٠٣.

سمرقند ويعود تاريخها لسنتي ٦١٧-٦١٨ هـ/ ١٢٢٠-١٢٢١ م وهذه العملة في شكلها شبيهة بالنموذج المستعمل في المنطقة في عصر الدولة الخوارزمية، فقد رسم على الوجه دائرتين مزدوجتين أحاطتا بالهامش وفي منتصف الدائرة نقشت الكلمات التالية " لا إله إلا الله محمد رسول الله" وكتبت بخط مائل من الأعلى إلى الأسفل، ووجدت كذلك الأمر على الهوامش نقوش دينية أخرى، أما على الوجه المعاكس فقد نقشت الكلمات الآتية "الإمام الأعظم الناصر لدين الله، أمير المؤمنين" وعلى الهوامش نقشت الكلمات التالية: " بسم الله، هذا الدرهم سك في المدينة سمرقند، في سنة ٦١٧ هـ"^(١)، ولكن فيما بعد تم ادخال تعديلات على النقود، ليس في أشكالها ، وإنما في قيمتها ونوعية المعدن المستعمل فيها، فلو رغب هؤلاء بإيجاد تجارة قوية لكانوا رفعوا من قيمة العملة الموجودة في بلدانهم التي سيطروا عليها^(٢)، وهكذا كانت الآثار التي خلفها الاجتياح على الاقتصاد، أما الآن سيتم تبيان الآثار التي خلفت على الناحية الحضارية.

رابعاً: الآثار الحضارية:

لخص الباحث فامبري صورة الآثار الحضارية التي خلفها الاجتياح المغولي للمشرق بعبارات قليلة ولكنها تصف حال المنطقة أصدق وصف حيث قال: " هناك مثلٌ عربيّ يقول إن العلم شجرة جذورها بمكة، ولكن ثمارها تؤتى بخراسان، لكن للأسف قضى الغزو المغولي بكلّ أسفٍ على الحياة الثقافية في آسيا الوسطى، وبرغم أن بلاد ايران والغرب استطاعت بالتدريج أن تفيق مما نزل بها من مصائب، بل وأن تعاود كذلك نهضتها الثقافية من جديد في ظل جنكيزخان، إلا أن سمرقند وبخارى لم يتسنّ لهما أبداً أن تستعيدا سابق نشاطهما العقلي، وصارت الحياة الفكرية فيهما وفقاً على الاشتغال بالفقه والتصوف والبدع، ومرد ذلك بالدرجة الأولى إلى أن المغول كانوا قد قضوا على السكان الإيرانيين الأصليين في هذه البلدان، فكان في صنيعهم هذا القضاء على رواد الحضارة والتجارة والصناعة"^(٣). من كلمات فامبري السالفة يمكن استخلاص مقدار المكانة التي بلغت بلدان المشرق الاسلامي ، ولكن زالت تلك المكانة، لزوال رواد الحضارة فيها والذين ساهموا في نهضتها السالفة. استفاقت بعض مدن خراسان والغرب أسرع من مدن ما وراء النهر ربما لكون مقدار الدمار فيها كان أقل، ولكن بقيت آثار الخراب واضحة للعيان.

(١) Kolbas(Judith): The Mongols in Iran, Routledge Madison Ave NewYork, ٢٠٠٦, p٣٥-٣٦.

(٢) Kolbas, The Mongols in Iran, P ٣٦

(٣) تاريخ بخارى، ص ١٨٠.

سيتم هنا التعرف على حيثيات النكسة الحضارية التي أُصيبت بها المنطقة، ومعرفة على أي الجوانب أثرت أكثر، أعلى قطاع الثقافة، أم المنشآت الحضارية، أم على المدن وطبقات المجتمع، وهذا ما سيتم توضيحه فيما يلي:

أُصيبت المنشآت التعليمية والتي اشتهرت بها مدن المشرق الاسلامي بنكسة كبيرة، فقد أُحرق معظمها، وتعرض القسم الآخر للتدمير والهدم^(١)، ولكن هل كانت الأضرار خاصةً بالمباني فقط، أم تعدتها إلى الكتب والمؤلفات، أم تأذى "الكادر" التعليمي، هذا ما سيتم مناقشته من خلال تقديم دراسة لبعض المدارس، ودور الكتب التي وجدت في المنطقة وأشار المؤرخون إلى دمارها فيما بعد. وجد في خوارزم عدد كبير من المدارس تطرق المؤرخون للحديث عنها، ومما ذكره المؤرخون خمس مدارس درّس فيها شهاب الدين الخيوقي، وقد دمرت هذه المدارس عند اجتياح المدينة^(٢). كما وجدت فيها مدرسة أبو عمر النسوي ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م^(٣) وكانت هذه المدرسة من المدارس القديمة، بناها النسوي وأشرف على التدريس فيها ولكنها دُمرت^(٤). كما وجدت في المدينة مدارس خاصة بالمذهبي الشافعي والحنفي، ومن مدارس الشافعية مدرسة أنشأها نظام الملك مسعود بن علي ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م وزير السلطان تكش حيث بنى مدرسة هناك وصفت بعظمتها^(٥)، أما مدرسة الحنفية فقد أنشأها السلطان تكش رغبةً منه في منافسة سلاطين السلاجقة وتحولت المدرسة إلى مرقدٍ للسلطان حيث دفن في ضريحٍ بناه لنفسه فيها^(٦)، وغيرها الكثير من المدارس التي خربت وشاهد دمارها ابن بطوطة عند زيارته للمنطقة^(٧). أما مدارس نيشابور فلم تكن بأحسن حال فقد تمت الإشارة من قبل بأن المدينة سويت بالأرض لدرجةٍ مكنت من حرثها وزراعتها، بالتالي فقد دُمرت مدارسها بالكامل ومن أشهرها المدارس النظامية نسبةً للوزير نظام الملك السلجوقي والذي أنشأها واعتنى بها وحرص على اختيار مدرسيها^(٨). ولقد خرّجت تلك

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٠٥، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ج ٣، ص ١٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٨٠؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٣٣٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣٣؛ ولبر، إيران ماضيها وحاضرها، ص ٦١.

(٢) النسوي، ص ١١٠؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٧.

(٣) انظر تعاريف ص ٣٦١.

(٤) السبكي، ج ٤، ص ١٧٥.

(٥) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٦٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٥، ص ٢٧٠.

(٦) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٦٦؛ معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي، ص ١٠٤.

(٧) رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص ١٧.

(٨) ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ج ٦، ص ٢٠؛ ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج ٣، ص ٤٤٢.

النظامية عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء الذين ساهموا في النهوض بالحياة الفكرية في خراسان. ومن مدارسها أيضاً المدرسة الشرفية والتي كانت موجودة قبل سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م ونهض بمهمة التدريس فيها أبو سعد عبد الله بن عمر الصفار ت ٦٠٠هـ/١٢٠٣م^(١)، وغيرها الكثير ولكن حرصاً لعدم الإطالة تم التطرق لتلك الأسماء فقط والتي بقيت موجودة في نيسابور بعد فتنة سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م والتي أتت على الكثير من منشآت نيسابور العلمية ولقد أشار لذلك ابن الأثير بقوله: " خُربت نيسابور بالكلية، ومن جملة ما خرب مسجد عقيل، وكان مجمعاً لأهل العلم، وفيه خزائن الكتب الموقوفة، وكان من أعظم منافع نيسابور، وخُرب أيضاً من مدارس الحنفية ثمان مدارس، ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة، وأحرق خمس خزائن للكتب، ونُهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الأثمان، هذا ما أمكن إحصاؤه سوى ما لم يذكر"^(٢) مما سلف يلاحظ بأنه كان في نيسابور قبل فتنة سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م ما يقارب من " خمس وعشرين مدرسة" إضافةً لبعض المساجد التي نهضت بمهمة التدريس، يضاف إليها " اثنتا عشرة" خزانة كتب إما أُحرقَت وإما دُمرت ونُهبت محتوياتها، و بالتالي فإن معظم منشآتها التعليمية تعرضت للأذى، ومن الممكن أن أهل نيسابور أصلحوا ما أمكن إصلاحه، وربما هجر بعضها، وحل مكانها منشآت جديدة، لذا لم يتم التطرق من قبل سوى للمدرسة النظامية والتي استمرت موجودة في المنطقة، والمدرسة الشرفية والتي وجدت بعد الفتنة ولكن دُمرت على يد المغول.

أما مدارس مرو فلم تكن أفضل بل أصابها كذلك الدمار على يد المغول، وقد أُحرقَت أو هُدمت^(٣)، وحزن ياقوت الحموي على دورها ومدارسها وما حلَّ بهم من خرابٍ فتحدث عن تركه إياها بحزنٍ وحسرةٍ حيث قال: "ولولا ما عرا من ورود النتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات"^(٤). ومن مدارسها والتي أشار إليها ياقوت وغيره من المؤرخين المدرسة العميدية والتي تنسب إلى محمد بن منصور النسوي ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م المعروف بعميد خراسان والذي ورد بغداد في زمن السلطان طغرل بك السلجوقي، وبعدها رحل إلى مرو وبنى فيها مدرسة عُرفت بالمدرسة العميدية ووقفها لأهل مرو^(٥)، ومن مدارسها كذلك المدرسة الخاقانية والتي وجدت قبل

(١) انظر تعاريف ص ٣٦١

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٤٤٨.

(٣) الحميري، مصدر سالف، ص ٥٣٣.

(٤) معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٤.

(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ٥١.

سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، ونهض بمهمة التدريس فيها علي بن موجود بن الحسين الكشاني والذي ولد سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وعُرف بكونه إماماً فاضلاً، حسن السيرة، كثير التلاوة، تولى مهمة التدريس بالمدرسة الخاقانية واستمر مدرساً فيها حتى وفاته سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م^(١). ومن المدارس أيضاً المدرسة النظامية^(٢)، ولقد ذكرها ياقوت في كتابه^(٣)، ومن المدارس أيضاً المدرسة الخازنية نسبةً إلى شرف الملك المستوفي محمد بن منصور ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م^(٤) وغيرهم الكثير، ولكن كل تلك المدارس زالت بسبب المغول، ومن المدارس أيضاً مدارس الري والتي تعرضت بدورها للإحراق والتخريب وفقدت وظيفتها العلمية، ومنها مدرسة الوزير نظام الملك بن مسعود، والذي بناها واهتم بها وحرص على تزويدها بكامل احتياجاتها^(٥). يضاف إليها مدرسة المشاط الرازي ت ٥٤٦هـ/١١٥١م^(٦) وقد بنى مدرسةً في المدينة نهض بمهمة التدريس فيها بنفسه وبعد وفاته دفن فيها^(٧). أما مدارس أصفهان فإن المغول لم يرحموها، بل لقيت مصيراً مشابهاً لأخواتها ومنها مدرسة السميرمي والتي بنيت قبل سنة ٥١٦هـ/١٢٢م وتنسب إلى الوزير السلجوقي علي بن أحمد المعروف بالسميرمي الذي بناها واهتم بها^(٨).

ومنها مدرسة أنشأها السلطان جلال الدين منكبرتي في أصفهان سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وفوض أمرها إلى مقرب الدين محمد ابن إبراهيم البهلوان الخوارزمي والذي كان من المقربين من السلطان الخوارزمي، ولثقت به فوض إليه أمر مدرسته التي أمر ببنائها بأصفهان سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وزوده بثلاثين ألف دينار لينفق عليها، وبقي مقرب الدين يهتم بالمدرسة إلى أن توفي بأصفهان سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م^(٩)، ومن الملاحظ أن عمر تلك المدرسة قصير فقد اقتحم المغول أصفهان ودمروا أجزاءً كبيرة منها سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، فلم تستمر تلك المدرسة لمدة طويلة، وربما تعرضت للتخريب، وبعد رحيل المغول عمد السكان إلى إصلاحها وعادت تمارس دورها التعليمي

(١) السمعاني، الأنساب، ج ١٠، ص ٤٣٣.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٦٢.

(٣) معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤؛ العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ٩٧.

(٥) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٦٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٥، ص ٢٧٠.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٦٢

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ١١٢.

(٨) كان وزراً ظالماً لقي مصرعه على يد الباطنية في همدان سنة ٥١٦هـ/١٢٢م؛ الذهبي، العبر، ج ٢، ص ٤٠٧؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٢١٥.

(٩) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج ٥، ص ٤٦٠.

من جديد. ومن مدارس المنطقة كذلك مدارس مراغة، ومنها مدرسة القاضي بمراغة وهي مدرسة خصصت للشافعية، وأنشأت للقاضي كمال الدين محمد بن عبد الحميد القزويني والذي عُرف بكونه من بيت علمٍ وحكمةٍ وقضاءٍ ورئاسةٍ ، ولي قضاء مراغة، كما نهض بمهمة التدريس في المدرسة الأتابكية والتي نُسبت إليه فيما بعد، فأطلق عليها اسم مدرسة القاضي، لذا لُقّب بالمدرس وبلغ مكانةً عاليةً دفعت السلطان جلال الدين إلى إكرامه غاية الإكرام، وبعد أن اجتاح المغول مراغة غادر القاضي مراغة متوجهاً نحو أربل، وبقي فيها مهتماً بالعلم والتدريس لحين وفاته سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م^(١). ومن مدارسها أيضاً المدرسة المحيية نسبةً إلى القاضي محيي الدين يحيى بن محمد بن عبد الله والذي عُرف بكونه من القضاة المهمين في مراغة، تولى مهمة التدريس بمدرسة سوق مراغة لذا نسبت إليه^(٢)، وبكل تأكيد لم يكن مصير هاتين المدرستين أفضل من مصير غيرهما ، ولقد خُربت كذلك الأمر مدارس كثيرة فقد وجدت في غزنة على حدّ قول الحميري "مئة واثننا عشرة ألف" مدرسة تعرضت للتدمير، ربما يمكن أن يكون العدد مبالغ فيه، وإن يكن فإنه يشير لكون المدينة حوت فعلاً أعداداً ضخمةً من المدارس تعرض للدمار والتخريب على يد المغول^(٣)، كذلك كان حال مدارس بخارى والتي أُحرقت بالكامل^(٤)، و بالتالي فإن المدارس و المنشآت التعليمية المهمة التي وجدت في المنطقة منذ القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد واتسعت مناطق انتشارها وكثر عددها نتيجةً لجهود الوزير نظام الملك السلجوقي تضررت بفعل الغزو. ولم يكن حال دور الكتب بأفضل من ذلك، بل دمرت لكون الورق مادة سريعة الاشتعال والتلف ، أما التي لم تحترق ، خُربت ونُهبت على يد العوام. ومن دور الكتب التي زالت وأُحرقت دار الكتب المبنية بالجامع الشافعي بخوارزم والتي بناها شهاب الدين الخيوقي حيث وصفها النسوي بقوله: "لم يرَ قبلها ولا بعدها مثلها"^(٥)، ولكن لما اقترب المغول من خوارزم واضطر الخيوقي إلى الرحيل حمل معه نفائس دار كتبه السالفة وترك باقي الكتب التي وقعت طعمةً لنيران المغول، وانتقل الخيوقي إلى نسا ولما استشهد وقعت مكتبته التي أنشأها في نسا بيد العوام والسفلة على حدّ تعبير النسوي الذي حاول إنقاذ بعض كتبها، ونجح

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٣٤.

(٢) ابن القوطي، مجمع الأداب، ج ٥، ص ١١٨.

(٣) الحميري، ص ٤٢٨.

(٤) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ ابن كثير، ج ١٧، ص ٨٠.

(٥) سيرة السلطان، ص ١١٠.

فعلاً في إنقاذ البعض واصطحبهم معه إلى قلعة خرنذر، ولكن عندما فر النسوي من المنطقة والتجأ إلى مناطق تعصمه من المغول ترك كتبه في قلعته، وأسف إلى تركها لمصيرها المجهول حيث قال: " ولم أتحسر مما خلفت بها إلا على الكتب" ^(١)، بالتالي فإن دار كتب الخيوقى حاول منشئها مع المؤرخ النسوي انقاذها أكثر من مرة، ولكن كان القدر أقوى منهما فقد زالت تلك الدار وتفرقت كتبها إما بيعت، أو احترقت. ومن خزائن الكتب التي وجدت في خوارزم كذلك الخزانة التي بناها نظام الملك مسعود بن علي في مدرسته بخوارزم، وكذلك دار الكتب التي ألحقها السلطان تكش بمدرسته كذلك الأمر ^(٢)، ولقد زالت هذه الدور وخربت بالتأكيد نتيجةً لاحتراق المدارس التي ألحقت بها، يضاف إلى ما سبق دار كتبٍ تحدث عن شهرتها ومحتوياتها كل من ياقوت الحموي، والقزويني وهذه الدار كانت موجودة في مدينة ساوة، ولقد تحدث عنها ياقوت الحموي فقال: "كان بها دار كتب عظيمة أحرقوها" ^(٣)، أما القزويني فأشار إليها بقوله: "مدينة طيبة بها رباطات ومدارس ومارستان في وسط الجامع خزانة كتب" ^(٤). بالتالي تحدث القزويني عن المدينة وما احتوته من منشآت تعليمية وخدمية، ولكنه حدد مكان دار الكتب في وسط الجامع ، و كان لهذه الدار أهمية كبيرة إلى درجةٍ دفعت مؤرخين للحديث عنها وعن مكانتها وعن مصيرها المشؤوم الذي لاقتته على يد المغول ^(٥). أما أهم دور الكتب التي وجدت في المنطقة فهي دور الكتب في مدينة مرو، والتي أطنب ياقوت الحموي في الحديث عنها، وعن محتوياتها من الكتب وأسفله الشديد لمغادرته المدينة وعن المصير المشؤوم الذي انتظر تلك الدور على يد المغول، فقد أحرقت ودمر معظمها ، أما الأماكن التي لم تدمر فقد نهبت على يد فئاتٍ لا تدرك قيمة الكتب، ولقد تحدث ياقوت الحموي عن تلك الدور في أثناء حديثه عن مدينة مرو فقال: " فيها عشرة خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرةً وجودةً" ^(٦)، و بعد ذلك لجأ إلى تعداد تلك الدور وهي خزانتان في الجامع إحداها يقال لها "العزيزية" ^(٧) وقد احتوت اثني عشر ألف" مجلد، ولكن لم يذكر المؤرخ في أي جامعٍ وجدنا ، في جامع مرو الكبير ،أم في أحد المساجد التي

(١) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ معروف، علماء النظاميات، ص ٨٢، ١٠٤.

(٣) معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠١.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد، ج ٢، ص ٨٣.

(٥) لسترنج، ص ٢٤٦.

(٦) معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٤.

(٧) نسبةً إلى عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني وكان يعمل في خدمة السلطان سنجر؛ المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤.

وجدت في المدينة، ولم يذكر اسم الخزانة الثانية فقط تحدث عن الأولى ربما لكونها الأشهر والأضخم. ووجد الخزانة الكمالية ولكن المؤرخ لم ينسبها إلى أحد، وخزانة شرف الملك المستوفي ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م في مدرسته الخازنية، وخزانة في المدرسة النظامية بمرور وخزانتان لأسرة آل السمعاني، وخزانة وجدت في المدرسة العميدية، وخزانة كانت ملكاً خاصاً لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين في مروج، ولكن لم يحدد اسمه الكامل، أو تاريخ وفاته، أو في أي مدة وجد، وخزانة كتب في المدرسة الخاتونية، وأخرى في المدرسة الضميرية التي لم ينسبها إلى أي شخص، فقط اكتفى بذكر اسمها^(١)، وجميع هذه الخزائن كانت وفقاً لمن أراد الاطلاع عليها ولكن أضحت طعمةً للنيران^(٢)، يضاف إلى تلك المنشآت المساجد والجوامع والتي كان لها دور مهم في الحياة العلمية في المشرق لكثرة ما كان يقام فيها من حلقات العلم، ولاحقاً على خزائن الكتب الهامة، ولقد دمرت كذلك وتمت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الآثار الدينية^(٣)، ولم تسلم بالتالي المنشآت التعليمية من أثر الغزو فبكل تأكيد تأثر الكادر التعليمي بذلك وهذا ما سيتم توضيحه، وتأثرت طبقة العلماء بالزحف المغولي ولم يكن تأثيرها إيجابياً، بل على العكس سلبياً، فقد قتل معظم العلماء، ومن لم يقتل فر، ومن لم يفر اضطر إلى العيش في ظروف معيشية صعبة. ولكن عند مطالعة ما كتبه المؤرخون يلاحظ بأن معظم العلماء كان مصيرهم القتل، ولقد وصف حالهم أبو الفداء فقال: " قتل العلماء والصلحاء والزهاد"^(٤)، أما ابن العميد فقد قال: " قتلوا من القضاة والفقهاء والعلماء ما ينيف عن مائة ألف نفس"^(٥)، كما أن الباحث بارتولد في كتابه أشار إلى أن المغول هدموا مدرسة في مروج على رؤوس الموجودين فيها^(٦)، و بالتالي لقي معظم هؤلاء مصيراً واحداً وهو الموت، مصيرهم ذاك كان مرده إلى كونهم علماء وفقهاء، أو صالحين؟ أو إلى كونهم جزء من السكان الذين تعرضوا للإبادة في المدن، و ذلك لكون المغول لم يفرقوا بين صغير، وكبير، ورجل وامرأة بل قتلوا الجميع على حد سواء. و من العلماء الذين استشهدوا على يد المغول، ابن مندة العبيدي الأصبهاني^(٧) والذي استشهد بأصبهان سنة

(١) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١١٤.

(٢) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٤.

(٣) انظر ص ٢٩٩ وما تلاها.

(٤) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٥٩.

(٥) زكار، أخبار المغول لدى مجموعة من المؤرخين، ص ١٢٣.

(٦) بارتولد، تركستان، ص ٦٣٠.

(٧) انظر تعاريف ص ٣٦٢.

٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(١). ومنهم كذلك أبو عبد الله مسند العجم قتل في السنة نفسها بأصبهان^(٢)، وكذلك أبو الفتوح الوثابي محمد ابن محمد بن أبو المعالي قتل عن عمر يناهز الثامنة والسبعين في أصبهان كذلك^(٣)، ومن شهداء واقعة أصبهان عبد الأعلى بن محمد بن أبي القاسم بن القطان والذي والذي عُرف بشغفه بعلوم الترك، وله معجم في ذلك الخصوص^(٤) ومن العلماء الذين استشهدوا في واقعة هراة سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م النجيب السمرقندي محمد بن علي بن عمر والذي عُرف باهتمامه بعلم الطب ومن كتبه "النجيبات في الطب" و"الأسباب والعلاقات"، والأغذية والأشربة للأصحاء^(٥). وفخر الدين السمعاني^(٦)، ومن الذين استشهدوا بهذان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م ابن الحمامي^(٧)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد، واسماعيل بن عثمان القارئ الصوفي^(٨)، والخيوي الذي استشهد مع ولده بنسا^(٩)، تم التطرق لذكر بعض الأسماء المشهورة وهناك قائمة طويلة وردت في كتب التراجم ولكن حرصاً على عدم الإطالة تم التطرق لذكر بعض الأسماء فقط. وكان علماء بلاد ما وراء النهر وخراسان كثر، لذا فقد قتل منهم الكثير ومن لم يقتل تمكن من الفرار وكتبت له النجاة، ولقد فر ربما قبل وصول المغول إلى مدينته، أو نجا من المذابح بلجؤه لمناطق آمنة، وبعد مغادرة المغول أثر ترك المدينة والتوجه إما للولايات الأيوبية المجاورة للمنطقة في الجزيرة والشام، أو التوجه نحو دولة سلاجقة الروم، والتي كانت تعيش نوعاً من الرخاء والاستقرار، وإما رحل أبعد من ذلك نحو مصر مساهماً في النهضة العلمية فيها، ومن هؤلاء أبو الخير التبريزي ت ٦٣٦هـ/١٢٣٨م^(١٠)، وكذلك أحمد بن الحسين الإربلي الضرير والذي عاش في إربل وله العديد من التصانيف الأدبية الكثيرة، ولكنه غادر إربل بعد اجتياح المغول لها، ورحل للموصل حيث توفي فيها سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م^(١١)، وكذلك عبد المحسن بن أبي العميد الأبهري، والذي ولد

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٨٢-٣٨٣؛ العبر، ج ٣، ص ٢١٤.

(٢) انظر تعاريف ص ٣٦٢.

(٣) الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢١٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٧٥.

(٤) الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢١٥.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٨٠.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٦٢.

(٧) انظر تعاريف ص ٣٦٠.

(٨) ابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٣.

(٩) النسوي، ص ١١١.

(١٠) انظر تعاريف ص ٣٦٠.

(١١) الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٣٤.

سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م ، واهتم بعلوم الفقه حيث تلقى تعليمه في همدان ، كما أنه أكثر من السماع بأصبهان وبغداد ودمشق، عُرف بكونه كثير الترحال، جاور مكة مدةً من الزمن وتوفي فيها سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م^(١). ومنهم كذلك الخويّ ولد أحمد بن خليل بن سعادة الخويّ في مدينة خوي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، دخل خراسان وقرأ الأصول فيها، وكان أستاذاً في الطب والحكمة ، عند زحف المغول على المنطقة فر منها والتجأ إلى دمشق حيث مكث يدرس في إحدى مدارسها لحين وفاته سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م^(٢)، أما الأوهي الحسن بن أحمد بن يوسف، فهو من العلماء الذين عُرفوا بتقاهم وصلاحهم ، اهتم بعلم الفقه والأصول، ولكن عند سماعه باقتراب المغول من مدينته آثر الرحيل والتجأ إلى بيت المقدس ومكث فيها إلى حين وفاته سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م^(٣)، ومن العلماء من لم تمكنه الظروف من الفرار إلى أماكن بعيدة بل انتهى به المطاف إلى أماكن قريبة كالقرويني^(٤) ت ٦٢٢هـ/١٢٢٦ والذي فر للموصل، ومنهم من التجأ لحمص كالبخاري ت ٦٢٣هـ/١٢٢٧م وهو أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي من مواليد مدينة بخارى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، ارتحل لنيشابور وحمدان طلباً للعلم، ولكنه عاد لبخارى حيث مكث فيها مدة ، عُرف باهتمامه بالعلوم واشتغاله بها، إضافة لحبه للمناظرة، عندما اقترب المغول من مدينته فر منها وانتهى به المطاف في بلاد الشام حيث مكث مدرساً في مدينة حمص لحين وفاته سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٧م^(٥). أما من أشهر العلماء الذين فروا من بلاد ما وراء النهر وخراسان مسطراً قصة فراره في كتابه ياقوت الحموي^(٦) نزيل خراسان والذي قضى مدةً لابأس بها في مرو، وعند خروج المغول انسحب من المنطقة ووصل بصعوبة إلى الموصل، حيث توجه منها إلى حلب حيث مكث فيها إلى حين وفاته سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م^(٧)، ويعود الفضل إلى ياقوت الحموي في تزويد الباحث المهتم بالغزو المغولي بمعلوماتٍ مهمةٍ عن تحركات المغول، فقد وصف مدن المنطقة وحالها قبل الاجتياح وبعده متحدثاً عن دمارها، وواصفاً طرق المغول الوحشية والتي مارسوها بحق السكان. ومن المؤرخين الفارين كذلك والذي يعود الفضل إليهم في تسطير سيرة

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ٢٠١.

(٢) ابن العماد، ج٧، ص ٣٢٠؛ القزويني، ج٢، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص ٢٣٨.

(٤) انظر تعاريف ص ٣٦٢

(٥) الذهبي، سير أعلام، ج٢٢، ص ٢٥٥؛ ابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٦٦.

(٦) انظر ص ١٥.

(٧) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ٢١٢.

السلطان علاء الدين محمد وولده جلال الدين منكبرتي وما صادفهما من مشاق "النسوي"، وهو محمد بن أحمد والذي ولد ونشأ في قلعة خرنندز، إحدى قلاع خراسان القريبة من مدينة نسا والتي تُنسب إليها، التحق بخدمة السلطان جلال الدين بعد عودته من الهند، ثم عهد إليه بوظيفة كاتب انشاء، ومنصب الوزارة في مدينة نسا، كما أنه أرسله رسولا من قبله إلى عددٍ من الحكام^(١)، وبعد أن ساءت أوضاع السلطان جلال الدين انفصل عنه فاراً من المنطقة وقد تحدث عن فراره ذاك قائلاً: "رمتني الجفلة إلى آمد بعد اختفائي ببعض المغاير ثلاثة أيام، ثم إلى إربل بعد تعويقي بآمد شهرين ممنوعاً من الخروج، ثم إلى أذربيجان بعد مصائب شتى ونوائب تترى، ثم إلى ميفارقين بعد مشقة وبؤس، وفراغ كيس وعري لقطع أصابني عن الملبوس"^(٢). من خلال الكلمات السالفة يمكن استخلاص مقدار المشاق التي واجهها النسوي حتى تمكن من النجاة نهائياً والتوجه إلى مدن الجزيرة حيث سطر سيرة السلطان سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م فيما عُرف باسم سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي. هؤلاء جزء من الكثير من المؤرخين الفارين، ولكن سيتم الاكتفاء بهذا القدر، وذلك للتعرف على بعض العلماء الذين فضلوا البقاء متحدين كل شيء، ومصممين على استمرار في تأدية واجبهم العلمي، أو ربما غادروا المنطقة بشكل مؤقت وبعد أن هدأت الأحوال عادوا إلى المنطقة من جديد محاولين ترميم ما يمكن ترميمه، ولجمع بقايا مؤلفاتهم وإعادة فتح أبواب المدارس والمساجد لبقايا طلاب العلم الذين كُتب لهم النجاة ومن هؤلاء: أبو رشيد الغزالي ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(٣)، وممن مكث في بخارى كذلك وتوفي فيها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م عبيد الله بن ابراهيم العبادي المحبوبي، كان شيخ الحنفية بما وراء النهر، وأحد من انتهى إليه علم المذاهب، توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م^(٤)، ومن العلماء أيضاً المستوفي المبارك بن أحمد^(٥) والذي مكث في إربل على الرغم من غارات المغول المتكررة عليها إلى أن توفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م^(٦)، وأيضاً السكاكي^(٧) الذي مكث في خوارزم واستمر فيها على الرغم من تدميرها على يد المغول فقد توفي

(١) الزركلي(خير الدين): الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٩٩/١٤٢٠هـ، ج٥، ص٣٢١؛ براون، ص٦٠١؛ النسوي، مقدمة التحقيق، ص٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨١.

(٣) انظر تعاريف ص٣٦١

(٤) ابن العماد، ج٧، ص٢٣٨.

(٥) انظر تعاريف ص٣٦٢

(٦) الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٣١.

(٧) انظر تعاريف ص٣٦١

سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، ربما لم تكن وفاته في مدينة كركانج ذاتها، يمكن في إحدى المدن والبلدات التابعة لها، أو ربما اختبأ في مكانٍ معين وبعد مغادرة المغول عاد ودخل المدينة. ومن العلماء أبو بكر الخجندي ثابت بن محمد والذي مكث في مدينة شيراز ولم يغادرها، واستمر يمارس مهمته في التدريس والكتابة إلى حين وفاته سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م^(١). ومنهم كذلك الرافعي^(٢) الذي مكث في قزوین ولم يغادرها وتوفي فيها سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م^(٣). ومكث في قزوین كذلك عبد الكريم بن محمد والذي اشتهر بإلمامه بالمذاهب، وبصلاحه ومن كتبه "الشروح على المحرر"، "الوجيز" توفي سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م^(٤). ومنهم من قاوم الغزو وبقي بالمنطقة، مقبل بن تاج الدين زيرك بن عزيز خواجه الكاشغري، وكان ملماً بطرائق الموسيقى، محباً للعلومها، متقرباً من العلماء وأهل الفضل، توفي في تبريز سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م^(٥). وغيرهم الكثير من العلماء والمدرسين والزهاد الذين تحدوا الظروف محاولين الاستمرار في تأدية واجبهم على الرغم من الظروف الصعبة التي ألمت بهم، والتي تجلّت بمرافق مهذمة، وكتبٍ محروقة، ونفوسٍ ضعيفة خائفة أذهلتها كثرة الدماء والأشلاء، فحاولت ترميم النفوس بدايةً وبعدها النهوض بترميم المرافق والتي تساعد على استمرارية الحياة. نتيجةً لإفناء المغول لزهرة شباب المسلمين وخيرة عقولهم^(٦)، فقد ضعفت العلوم العقلية، والأدبية وزال قسمٌ كبيرٌ منها، بينما أصاب ما تبقى الركود، وأضحت الحياة الفكرية وقفاً على الاشتغال بالفقه والتصوف، فالفقه ازدهر نتيجةً لعودة السكان إلى التمسك بالعلوم الدينية^(٧)، أما التصوف فيلاحظ بأنه انتشر بشكلٍ كبيرٍ وتغلغل في المجتمع الفارسي لكونه يدعو للزهد والتقشف والهروب من الواقع والالتجاء إلى عالمٍ بسيطٍ خالٍ من القتل والموت، ولكثرة ما أصاب سكان المنطقة من نكباتٍ خارت قواهم وفقدوا متعة الاحساس بالدنيا وملذاتها وفضائلها واتجهوا نحو التصوف لكونهم عدّوه ملجأً لهم مما أدى لانتشار الحركات الصوفية بشكلٍ كبيرٍ، وانتشار شعراء التصوف والذين بلغت شهرتهم الآفاق^(٨).

(١) ابن العماد، ج٧، ص٣٢٢؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٢٩؛ ابن تغري بردي، ج٦، ص٣١٦.

(٢) انظر تعاريف ص٣٦١

(٣) ابن تغري بردي، ج٦، ص٢٢٦؛ الذهبي، العبر، ج٢، ص٢٥٢.

(٤) ابن العماد، ج٧، ص١٨٩.

(٥) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٣، ص٤٤٤.

(٦) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٦٥.

(٧) فامبري، ص١٨٠؛ الزهاوي، ص٩٦.

(٨) ابيو جمال، الناجون من الغزو المغولي، ص١٤١؛ براون، ص٦٢٣؛ اقبال، تاريخ المغول، ص٥١٩.

أما البديع^(١) فقد غلب على معظم الكتابات النثرية التي ألفها كتاب تلك الحقبة الزمانية لكون معظم علماء الفرس إما هاجروا من مدنها، أو قتلوا لذا حاول بعضهم التأليف في مدنها الجديدة التي انتقل إليها ولكن باللغة العربية ولعدم قدرته على الإلمام بأصولها بشكل كبير أغرق نفسه في المحسنات اللفظية، وخير مثال على ذلك كتاب النسوي^(٢). وهناك فائدة وحيدة للغزو المغولي هي تمازج الثقافات وانفتاحها نتيجةً إلى انتقال العلماء من مكانٍ إلى آخر، وحركتهم هذه ساهمت في نقل علومهم إلى بلدان جديدة، واكتسابهم لعلوم تلك البلاد وثقافتها ذلك الأمر ساهم فيما بعد في إنتاج ثقافةٍ من نوعٍ آخر^(٣). ذلك الركود العلمي كان مؤقتاً في بعض المدن فقد استعاد بعضها نشاطه الثقافي، وعادت لتمارس دورها السابق الذي حرّمها منه المغول بتدميرهم لمدارسها ودور كتبها التي حوت مؤلفاتٍ لا تقدر بثمن زالت للأبد.

تم التطرق من قبل إلى نتائج الحضارة في مدن المشرق الإسلامي في مجال الثقافة والتعليم ومقدار الأذى الذي تعرضت له على يد المغول، لكن الآن لابد من مناقشة جانبٍ آخر من جوانب الحضارة وهي الحياة الحضرية، ويقصد بذلك مقدار التطور العمراني الذي وصلت إليه مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان وما حلّ بكلّ ذلك من جراء الزحف المغولي، فهل دُمّرت المدن و القرى والقلاع أم بقيت على حالها؟ وهل أصاب الركود الحياة المعمارية في المنطقة؟.

كان الجانب الأكبر والذي تأثر بالاجتياح المغولي هو العمارة، فقد دُمّرت مدنٌ وقرى كثيرة تدميراً جزئياً أو بشكلٍ كامل، بل إن بعض المدن زالت عن الخارطة إلى الأبد، ونتيجةً لمقدار الدمار الهائل الذي تعرضت له المنطقة تحدث ابن العماد بكلماتٍ قليلةٍ، ولكنها تصور الواقع الذي آلت إليه البلاد فقال: " فلا يقال كم أباد هؤلاء من بلدٍ، وإنما يقال كم بقي"^(٤). بالتالي فإن المؤرخ يطلب من الناس عدم التساؤل عن مقدار الدمار وإنما عن مقدار ما بقي من دون تدمير بعد انسحاب المغول، ولقد نهب المغول وهدموا كل مدينةٍ أو قريةٍ صادفوها في طريقهم وعمّدت إلى مقاومتهم، حتى إن الرحالة الذين زاروا المنطقة بعد حوالي نصف قرنٍ شاهدوا بقايا المدن

(١) البديع شكل من أشكال المحسنات اللفظية والذي يظهر في الشعر والنثر ويقسم إلى محسنات لفظية ترجع للفظ، وأخرى معنوية ترجع للمعنى؛ خفاجي (محمد عبد المنعم): البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ١٦٠.

(٢) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٦٧؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ١٢٤.

(٣) الزهاوي، ص ٩٦.

(٤) ابن العماد، ج ٧، ص ١٣٠.

المهدمة التي مرّ بها المغول^(١). ولكن هل دمر المغول المدن بقصدٍ منهم أم بغير قصدٍ؟ وما هو هدفهم من ذلك التدمير؟.

هناك بعض المدن قاومت المغول، لذا من أجل التسريع بعملية اقتحامها لجأوا لرميها بالمنجنيق، أو بالنفوط الحارقة وذلك لإنهاء مقاومة سكانها، ومنها من قتل على أبوابه بعض أفراد الأسرة الحاكمة المغولية فانتقاماً منها دمروها بالكامل، وبعضها الآخر دُمر نتيجة لانهدام سدودٍ قريبةٍ منها، و رابعة كان الهدف من تدميرها حرمان سكانها إما من موقعها الاستراتيجي، وإما من تحصيناتها، وإما خوفاً من عودة السكان إليها، بالتالي فإن معظمها هدم لأسبابٍ عسكرية، أو سياسية لأن معظمها كان مراكز أساسية في الدولة الخوارزمية. أما باقي المدن التي سالمت فلم تدمر بالكامل، فقط اكتفى المغول بهدم أسوارها ولم يتعرضوا لها بأذى، ولكن بشكلٍ عام أصاب الدمار معظم مدن المنطقة، وكأن زلزالاً عظيماً أصاب المنطقة ولم يبق على أي أثرٍ للحياة^(٢)، وسيتم مناقشة مصير بعض المدن والقرى والقلاع التي أشار إليها كلٌّ من ياقوت الحموي والقزويني وتحدثا عن حالها أبان الغزو المغولي. فقد هُدمت مدينة سراو واجتاحها المغول حيث لم يتركوا على أي أثرٍ للحياة فيها^(٣)، أما مدينة الشاذياخ والتي بنيت بعد تدمير نيسابور وتخريبها على يد الغزّ فهي كذلك دمرت من قبل المغول^(٤)، وقد تحدث عنها القزويني حيث قال: "عمروها حتى صارت أحسن بلاد الله، كثر الخلق إلى سنة ٦١٨ هـ حيث استولى عليها التتر وخرّبوها"^(٥)، أما مدينة غوشفنج والتي تبعد عن الجرجانية عشرين فرسخاً فلم تكن بأحسن حال بل دُمرت كذلك على يد المغول وخرّبت أبنيتها بالكامل^(٦)، ومن المدن المدمرة كذلك قاسان، إحدى مدن بلاد ما وراء النهر القريبة من حدود بلاد الترك فلم يترك فيها المغول شيئاً قائماً على حاله^(٧)، أما مدينة ترمذ والتي اشتهرت بحسن عمارتها واتساع أسواقها، فقد خربها المغول ونتيجةً لتخريبها هجرها سكانها إلى الأبد وبنيت مدينة أخرى على بعد ميلين من نهر جيحون^(٨)، وأشار المؤرخون كذلك

(١) زكار، أخبار المغول، ص ٢٢٢

(٢) معروف، علماء النظاميات، ص ٢٣٣؛ براون، تاريخ الأدب، ص ٥٦٠-٥٦٧.

(٣) ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٦.

(٥) القزويني، ج ٢، ص ٩٣.

(٦) ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٢١٩.

(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٩٥.

(٨) ابن بطوطة، ج ٣، ص ٣٨.

إلى مدينة تدعى بنج هير" والتي تعني خمسة جبال" ولقد كانت مدينة حسنة كثيرة العمارة مبنية على نهر ينحدر من جبال بدخشان ولكن دمرها المغول ولم تعمر بعد ذلك ^(١)، أما غزنة فإنه خرب معظمها ولم يبقَ منها إلا اليسير ولقد سكنها بعض السكان محاولين فيما بعد ترميم أجزاء منها ^(٢). وكذلك كان حال همذان والتي أُحرقت ودُمرت بعض أحيائها ولكن عادت الحياة إليها تدريجياً ^(٣). أما نيشابور فقد دمرها المغول بالكامل، وتركوها مأوى للغريان ^(٤)، وغيرها الكثير من المدن التي وردت أسماؤها في كتب المؤرخين ، ولكن سيتم الاكتفاء بهذا القدر لأنه تم التطرق إلى أسماء كثيرة في الفصلين الثالث والرابع. أما القرى فلم تكن بأحسن حال بل أصابها نوائب الزمان وحلت عليها لعنة المغول وأصدق كلماتٍ على حالها ما ذكره ابن فضل الله العمري في كتابه حيث قال: " حكى لي من جال في رساتيق تركستان، وجاز في قراها أنه لم يبقَ من نعالها إلا رسوم دائرة وأطلالٌ بالية ترى على البعد قرية مشيدة البناء ولكنها خالية من السكان" ^(٥) ، فمن لم يدمر من القرى هجره سكانه والذين إما هجروا قسراً حيث استعملهم المغول كقواتٍ حشوية، وإما قتلوا في عمليات الإبادة الجماعية، وإما فروا نتيجةً لحالة الرعب التي أصابتهم على يد المغول. فقد خُربت قرى منطقة كنجكان والتي تقع في الجانب الشمالي من مرو ^(٦)، وكذلك دمرت قرية ميهنة ^(٧) بالكامل على يد المغول ^(٨). كذلك دُمرت منطقة قوهذ ^(٩)، وكذلك خُربت طروز، ولم يبقَ منها شيء يذكر ^(١٠). أما قرى بنج ديه ^(١١) فقد دمرت بالكامل ولم يبقَ منها إلا النذر اليسير. كما لجأوا إلى تدمير بعض القلاع إما لكون بعض أفراد الأسرة الخوارزمية قد تحصن فيها كما هو حال قلعة أستوناوند ^(١٢)، كما حصل كذلك في قلاع الطالقان ومازندران والتي دُمرت بالكامل ^(١٣).

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦١.

(٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤١٤.

(٤) الحميري، ص ٥٨٨.

(٥) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، مصدر سالف، السفر الثالث، ص ١٧.

(٦) ياقوت الحموي، مصدر سالف، ج ٤، ص ٤٨٢.

(٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣١٧.

(٨) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣١٧.

(٩) انظر تعاريف ص ٣٦٠.

(١٠) نظر تعاريف ص ٣٦٠.

(١١) انظر تعاريف ص ٣٥٩.

(١٢) انظر تعاريف ص ٣٦٠.

(١٣) انظر الفصل الرابع ص ١٧٥.

يضاف إلى ذلك القلاع الموجودة داخل المدن والتي هُدمت بالكامل. تعدّ هذه القلاع خسارة كبيرة ليس لمناعتها وحصانتها، ولكونها تعدّ مراكز الدفاع الأساسية التي ردت من خلالها غارات الأعداء، والتجأ إليها السكان أوقات الأخطار، يضاف إلى ذلك أن بعضها يعدّ تراثاً إنسانياً لكونها بنيت في مراحل سابقة للإسلام، أو في القرون الهجرية الأولى واستمرت صامدة تؤدي دورها العسكري لذا اعتنى بها السكان والأسر الحاكمة، وحرصوا على ترميمها باستمرار، أما المغول فلم يحترموا أي شيء بل دمروا كل ما يمت إلى تراث الإنسانية بصلّة، وهكذا لم تسلم المراكز الحضارية من أيدي المغول، الذين دمروا كل شيء سواء أكانت منشآت خدمية أم قصوراً، أم مدافن لشخصيات دينية وسياسية^(١)، كما دمروا أكبر مركزين للصناعات الخزفية و الزجاج الملون في المنطقة وذلك بتدميرهما لمدينتي: الريّ، وقاشان، وخربوا مراكز الصناعات المعدنية والخشبية^(٢) و التي اهتم بها سكان المنطقة اهتماماً كبيراً، يضاف إلى ذلك بأنه وجدت تأثيرات وتغييرات كثيرة طالت فني العمارة والرسم والذين تأثروا تأثراً كبيراً بالفن الصيني، إضافة إلى تأثيرات أخرى دخلت المنطقة نتيجة لاحتكاك الشعوب وتمازجها مع بعضها بعضاً والتي تظهر عادةً عقب موجات الغزو الكبرى^(٣)، وإذا ما تم التوجه والقاء نظرة على حال سكان المنطقة فلم يكونوا بأحسن حال، وأصدق تعبير على ما أصابهم قول الجويني: " ومن الآن إلى يوم الحشر إذا توالد الناس، فلن يصل عددهم إلى عشر ما كانوا عليه قبل الهجوم المغولي، ويمكن للمرء أن يدرك حقيقة المجريات من الأطلال الماثلة، والآثار الدارسة، ليعلم ما فعلت بهم الأقدار"^(٤). لقد أفنى المغول ثلاثة أرباع سكان المنطقة وفق طريقة ممنهجة، ولإدراك حجم الكارثة ما على الفرد إلا الإطلاع على بقايا المدن والتي تعبر عن حجم الكارثة التي ألّمت بالبشرية، فقد قتلت أعداد كبيرة من السكان من جميع الطبقات دون استثناء، فالطبقة الحاكمة زالت بالكامل، أما طبقة رجال الدين فتوزع مصيرها ما بين قتلٍ وأسرٍ وفرارٍ من المنطقة إلى مناطق أكثر أمناً، أما فيما تعلق بالتجار والحرفيين فمعظم تجار المدن غُذّبوا في سبيل الحصول على أموالهم المخبئة، والقسم الآخر قتل في اثناء اقتحام المدن، وما تبقى افتدى نفسه بمبالغ مالية كبيرة. أما طبقة الحرفيين والصناع فقد حافظ المغول على حياتهم وتم نقلهم بالكامل إلى منغوليا، وأما الطبقة العامة " ما

(١) انظر الفصل الرابع ص ١٩٩.

(٢) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٨؛ اقبال، تاريخ المغول، ص ٥٣٨.

(٤) الجويني، ج ١، ص ١١٧.

تبقى من السكان من عمال وصغار كسبة وفلاحين" فقد أسر قسمٌ منها، والقسم الأعظم تعرض إلى مذابح جماعية، لدرجة أن مدينة كسمرقند كانت تعج بالحياة، مرّ بها الراهب الطاوي وشاهدها خاوية لا حياة فيها، فقد قتل ثلاثة أرباع سكانها^(١)، أما مدينة بلخ فانعدمت فيها أوجه الحياة البشرية ولم يُسمع بها سوى عواء الكلاب^(٢)، ونتيجةً لضخامة المجازر التي نفذت بحق البشرية فقد أضحت تربة المدن لزجةً وتحول لونها إلى الأحمر الغامق من كثرة الدماء التي نزلت فوقها، أو تحولت إلى حقولٍ بيضاء من كثرة العظام البشرية^(٣). بالتالي فقد مُحيت مدنٌ كثيرةٌ مع سكانها إلى الأبد عن سطح المعمورة^(٤)، وظهرت طبقات جديدة من السكان تمثلت بطبقة العمال الصينيين، والأويغور ، إضافةً إلى وجود أعداد كبيرة من المغول والذين أشرفوا على حكم بعض المدن، ووجد عدد من الجنود المغول وهؤلاء بكل تأكيد أحدثوا تغييراتٍ في بنية المجتمع في مدن المشرق الاسلامي^(٥)، وذلك لكون سكان بعض المناطق هُجّروا بشكلٍ تعسفي من مناطق سكانهم الأصلية إلى مناطق جديدة كما حصل في مدينة موغان^(٦) فقد أجلى المغول سكانها منها واتخذوها مشى لهم^(٧)، و بالتالي أحدث الاجتياح المغولي تغييراتٍ في بنية المجتمع وفي بعض عاداته، وأحواله المعاشية والحضارية، بعضها كان بصورة دائمة ، وبعضها كان مؤقتاً فقد حاول بعض السكان ترميم ما تبقى والعودة إلى نسق حياتهم السابقة وقد تم ذلك بوتيرة بطيئة ولكنها تعكس رغبة السكان باستمرار بالحياة.

وارتكب المغول مذابح تقشعر لها الأبدان ، لم ترتكب من قبل بحق جنسٍ من البشر ، ربما طبيعة هؤلاء البدوية الهمجية، والتي كانت تدفعهم لعدم احترام الإنسان كانت المحرض لهم على القتل والتمتع بذلك العمل، لأنه كان لديهم اعتقادٌ معينٌ بأنه كلما قتل الإنسان أكثر في حياة الدنيا، كانت حياته بعد الموت أفضل، وربما رؤية الدماء وتعااسة الآخرين ونحبهم كانت من الأشياء التي تدخل البهجة لنفوسهم ، فيقال بأن جنكيزخان سأل قادته عن ما يعتبرونه أفضل شيءٍ يدخل السعادة إلى نفوسهم، فأجابه كلٌّ قائدٍ إجابةً مغايرةً، أما هو فأجاب بقوله: " لا، فإن

(١) غروسيه، ص ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٤، ٣٧١.

(٤) شبولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٨٣.

(٥) اقبال، تاريخ المغول، ص ١١١.

(٦) انظر تعاريف ص ٣٦٠.

(٧) القزويني، آثار البلاد، ج ٢، ص ٢٥٨.

غاية متعة المرء لهي أن يهزم أعداءه، وأن يسوقهم أمامه أسرى، وأن يستحوذ منهم على كل شيء يمتلكونه، وأن يرى أولئك الذين يدللونهم وهم يذرفون الدموع، وأن يمتطي صهوات جيادهم، وأن يضم بين ذراعيه زوجاتهم وبناتهم"^(١). ربما كانت الكلمات السالفة صحيحة، وربما كان القتل والتدمير من متطلبات الاجتياح وذلك لتلقين الحكومات دروساً قاسية ولنشر حالة من الهلع والخوف لدفع المدن عن الامتناع عن مقاومتها والاسراع في الاستسلام لهم.

ومهما يكن فإن الغزو خلف تأثيراتٍ كثيرةً على مختلف الأصعدة، استمرت متسببةً في ولادة كياناتٍ سياسيةٍ جديدة، وفي ظهور مدن لم تكن موجودة من قبل، وانشاء طرق تجارة لم تطرق من قبل، وبروز صناعات ذات طابعٍ خاصٍ، والأهم انفتاح الشرق على الغرب ، وظهور نهضة فكرية في بعض المناطق ساهم بها العلماء الفارون من المنطقة، كما ساهمت في فتح أبواب أوربه على المشرق الإسلامي مما دفع الكثير من المبشرين والتجار إلى ارتياد المنطقة رغبةً منهم في اكتشافها بدايةً، وفي محاولةٍ منهم لعقد تحالفاتٍ بين المغول وحكام أوربه ضد المسلمين، و كان مصير تلك الأحلام والمشاريع الاخفاق، واستيقظت فيما بعد بعض الكيانات السياسية في المنطقة في محاولة منها لتوجيه ضربةٍ إلى المغول ولقد تمكنت من ذلك بالفعل فانكفاً هؤلاء مؤسسين كياناتٍ خاصةٍ لهم في مناطق المشرق الاسلامي كتب لبعضها الاستمرار وتحولت إلى دولٍ ما تزال قائمةً حتى الوقت الحاضر، وبعضها زال ولم يبقَ من ذكرها غير الآثار التي تشير إلى أنها كانت موجودة في يومٍ من الأيام.

(١) فلاديمير، حياة جنكيزخان، ص ٢٢٣.

خاتمة:

بيئة فقيرة بالمواد الأولية اللازمة لاستمرار الحياة، والمراعي الضرورية لحياة الحيوانات، يضاف لذلك مناخ قاسٍ شديد البرودة شتاءً، والحرارة صيفاً، مع ما رافق ذلك من تضخمٍ سكاني كلَّ هذا الأمر دفع بسكان مناطق جبال ألتاي وصحراء غوبي وأحواض أنهار التاريم إلى التحرك من مناطق سكناهم الأصلية رغبة في العثور ، إما على مراعي جديدة لقطعانهم، أو على ما يسد رمقهم بدايةً، وبعد ذلك على بعض المواد اللازمة لمنح حياتهم شيئاً من الرفاهية. لذا تحركوا ولكن كان تحركهم فجائياً، وعاصفاً فقد اندفعوا بأعدادٍ هائلة نحو مناطق الخصب والحضارة رغبة في جمع أكبر قدر من الغنائم، وفي السيطرة على مساحاتٍ جديدةٍ من الأراضي. هكذا كان حال المغول الذين عاشوا حياةً صعبة شبة بدوية حيث أثرت خشونة حياتهم على سحناتهم وطباعهم التي وصفت بالقسوة والشدة وعدم الرحمة، بل الإقدام على قتل الأخ لأخيه إذا كان الأمر يتعلق بغنائم الصيد والمراعي. وظهر جنكيزخان وتمكن من تهذيب طباع المغول ولكن بالشكل الذي يخدم طموحاته الكبيرة، فأطاعه هؤلاء طاعةً عمياء، أسس الجيوش الضخمة وحشد طاقاته البسيطة بدايةً وتمكن من السيطرة على محيطه الصغير وبعد ذلك، لفتت أنظاره مراكز الحضارة في الصين فرغب بدايةً ، في السيطرة على مواقع طريق الحرير والقضاء على الدولة التي كان يتبع لها، فعلاً نجح في ذلك وبعدها يمم وجهه نحو الجزء الآخر من طريق الحرير الأهم، والغني بالثروات والمواد الأولية و غيرها من الأشياء التي تدفع كلَّ غازٍ للتفكير بغزوه والحصول على بعض ثرواته، وهكذا توجه جنكيزخان نحو الغرب وبالتحديد نحو مشرق العالم الإسلامي، الذي كان لسوء الحظ يعاني من فوضى سياسية: كيانات حاكمة ضعيفة، وقوى عسكرية متفرقة، وقادة وحكام محليين طامعين في الاستقلال، وسكان لا تجمعهم بالأسر الحاكمة سوى روابط المصالح فقط، وخلافاتٍ مذهبيةً ، إضافةً إلى خلافاتٍ سياسية. كل هذه الأمور هيأت الظروف للانهيال السريع على يد أفواج المغول، و اندفع جنكيزخان نحو المنطقة وفي نيته تأديب السلطان علاء الدين الخوارزمي والذي سيطرت دولته على مساحةٍ واسعة امتدت من أطراف تركستان حتى حدود عراق العجم، ولكن أنهلك ذلك السلطان في قضائه على الكيانات السياسية الموجودة في المنطقة وربطته علاقاتٌ سيئة بمعظم حكام المنطقة، لذا فقد كان في موقعٍ ضعيفٍ لم يمكنه من مواجهة ذلك الخطر الماحق، امتلك موارد بشرية واقتصادية كبيرة، ولكن كانت قواته متفرقة وبطانته يعوزها الوحدة، وتحكمت أمه بموارد البلاد وبصنع القرار السياسي، لذا فلم يكن يملك زمام اتخاذ القرار السياسي أو على الأقل لم يسيطر على قادة جيشه وحكامه الذين حكم كل واحدٍ منهم بشكلٍ مستقل مكتفين بإرسال ما عليهم من التزامات إلى السلطان الذي بإزالته لدولة الخطأ أزال أول حاجزٍ من أمام قوات جنكيزخان. تحرك جنكيزخان نحو المنطقة واضعاً خطة سيرٍ أولى

أساسها أولاً السيطرة على المناطق الحدودية التي بسيطرته عليها يؤمن خطوط امداداته، ويحمي مؤخرة جيشه، وبعدها الاندفاع والتفرق داخل المنطقة واجتياح مدنها بدءاً بالأهم من حيث الموقع، الثراء الاقتصادي، الأهمية العسكرية، لذا احتل مدن حوض نهر سيحون، ثم مدن بخارى وسمرقند، وبعدها تحرك نحو مدينة الجرجانية. لكن لابد من الإشارة بأن الذي نهض بهذه المهمة أولاده جوجي، أكتاي، وتولوي، والعديد من قادته الذين توسم فيهم الشجاعة، أما هو فساهم فقط في حصار أترار، وبخارى، ثم اتجه نحو خوارزم وشارك في إسقاط مدنها، ولكن بعض هذه المدن كانت تسقط قبل غيرها بحسب مقاومة الفرق الخوارزمية التي ارتأى السلطان الخوارزمي توزيعها فيها بدلاً من تجميعها وملاقاة المغول في معركة مصيرية واحدة، يضاف إليها قوات السكان المحليين الذين دافعوا عن المدن أكثر من القوى الخوارزمية التي انسحب الكثير منها مفضلاً الهرب، و سقطت مدن ما وراء النهر أولاً وبقيت فيها بعض المواقع المقاومة والتي ترك عندها جنكيزخان بعض الفرق ومضى عابراً نهر جيحون نحو مناطق خراسان التي لم يحاصر بنفسه منها سوى مدينة بلخ، بينما كلف ولده تولوي بإسقاط باقي مدن الإقليم مع صهره تقاجار، وتحرك هو نحو مناطق إقليم الغور ومناطق طبرستان حيث حاصر مواقعها الحصينة التي استعصت على غزاة قبله.

ويلاحظ من خلال دراسة مجريات الاجتياح بأن جنكيزخان عمد إلى توزيع قواته فكلف ولده تولوي مع فرقة مؤلفة من تومانات عدة باجتياح خراسان، ولم ينتظر اجتياحها بل سير فرقة أخرى بقيادة قائديه جبه وسوبوداي لملاحقة السلطان علاء الدين الذي أصابته موجة من الذعر والخوف فقد فيها التركيز ودفعته إلى مغادرة بلاده والفرار من منطقة لأخرى، وخلال ملاحقته اجتاحوا مناطق إقليم الجبال وبعض مناطق مازندران ووصلت قواتهما إلى مناطق أذربيجان التي تم اجتياحها حتى قبل سقوط الجرجانية في ما وراء النهر مما يؤكد الاستنتاج الآتي بأنه عمّد على بث جنوده في أنحاء المملكة الخوارزمية ودفعها للتحرك على جبهات عدة وليس على جبهة واحدة وذلك لبث الرعب في أنحاء الإقليم كلل، ودفع حكامه لفقد تركيزهم وقدرتهم على التفاعل مع مجريات الحدث. وهذا ما حدث فعلاً فقد فرّ العديد من قادة المدن الذين تولوا أمور البلاد قبل الاجتياح تاركين مصير البلاد بيد بعض الشرفاء والسكان المحليين الذين قاوم بعضهم المغول رافضاً الاستسلام، وفئة أخرى فضلت الاستسلام والخنوع للمغول. وما يلاحظ أيضاً بأن مناطق إقليم الجبال والغور وطبرستان ومناطق أذربيجان تعرضت للاجتياح أكثر من مرة، في المرة الأولى على يد فرق مغولية رغبت في تأدية مهام معينة، وفي المرة الثانية على يد فرق المغول التي كلفت بقمع التمرد في المدن التي أعلنت العصيان، وفي المرة الثالثة ربما على يد بعض الفرق التي مرت مجتازة في المنطقة وكانت بحاجة للمؤن اللازمة لها. ولكن كان وقع الاجتياح

على مدن ما وراء النهر وخراسان أقصى منه على الاقاليم الأخرى، وهذا الأمر يدفع إلى التساؤل ربما لكون المنطقة تعدّ مقر الأسرة الحاكمة، ومركز القيادات العسكرية، والقوى والثروات الاقتصادية، أو لكون المغول اجتاحتها بدايةً فرغبوا في تأديبها بشكل يدفع المدن الأخرى إلى أخذ العبرة والعظة منها وعدم التفكير بمقاومة المغول، وهذا ما حدث فعلاً فقد انتشرت أخبار المغول وتغلّلت داخل المنطقة وكانت كالوباء القاتل، فما أن تحلّ بمنطقة حتى يصاب سكانها بموجة دُعرٍ عارمة ويشرعون بالفرار من مناطقهم بحثاً عن مناطق آمنة تعصمهم من الموت المحتم.

دمر المغول كلّ شيءٍ وأصابته غزواتهم البلاد بالبلاء، وتركت آثاراً كثيرة، فقد دُمرت البنى التحتية في البلاد وخاصةً فيما تعلق بالاقتصاد أولاً دُمرت شبكات الريّ الباطنية والسطحية التي وجدت في المنطقة منذ ما قبل الاسلام وحرص السكان على العناية بها وتطويرها واقامة سدودٍ سطحية كثيرة وخزانات مياه، فتحوّلت أراضيهم إلى واحاتٍ غناء، كما أدخلوا مياه الشرب لكل مكانٍ في مدنهم، ولكن بتدمير المنازل وهدم المدن انهارت تلك القنوات، كما انهار الكثير منها بسبب الإهمال الحاصل من مغادرة سكان المنطقة لها، أو من موتهم وشبكات الري احتاجت باستمرار للعناية . ليس ذلك فحسب بل تضرر القطاع الزراعي وانهار بشكلٍ دائم نتيجةً لتحرك الجيوش وأعمال القتال والحرق والهدم، وقتل الفلاحين واستغلالهم في أعمال السخرة والحشر، مما يشير إلى عدم أهمية حياة سكان تلك المدن بل استخدموا كسواتر دفاعية وأدوات لإنجاز الكثير من المهام وكان يتم التخلص منهم عندما تنتهي مهامهم - لم تكن لحياة البشر أي أهمية بنظرهم-. كما دمر القطاع الصناعي والذي حُرّم من الأيدي العاملة والتي حافظ المغول على حياتها ونقلوها لتزيين عاصمتهم قراقورم ولمدّ مدنهم وأسرتهم الحاكمة باحتياجاتهم مما يؤكد على ضحالة ذلك الشعب الذي لم يلمّ حتى بصناعاتٍ تساعده على الحياة الكريمة وتمنح حياته نوعاً من الرفاهية، وعدم قدرته على التعلم واكتساب بل كان شعباً مفضلاً حياة القتال والتنقل على الاهتمام وتعلم مختلف أنواع الصناعات والحرف التي أبدع بها سكان مشرق العالم الاسلامي.

فيما يخص التجارة والتي ربما اجتاحت جنكيزخان المنطقة رغبةً في السيطرة على مراكزها فقد تعرضت للأذى، فالتجار نهبت أموالهم وقتل الكثير منهم، وكذلك تضررت الطرقات والجسور، وانخفضت قيمة العملة، ويمكن أن يكون جنكيزخان غير راغبٍ في تدمير التجارة ، ولكن تحرك الجيوش واندفاعها أضر بكل تأكيد بالطرقات وبالمحاصيل والأسواق، وذلك لكون الجنود لا يهتمهم سوى البحث عن وسائل إطالة أعمارهم والحصول على طعامهم على الرغم من كون تأمين تلك الأشياء سيسبب الضرر للآخرين.

ما أصاب السكان دفع أعدادهم للتراجع للربع فيقال بأن ثلاثة أرباع سكان المنطقة قد قتل في المجازر الوحشية على يد المغول أو استخدم في الجيوش. يعتقد من خلال حساب عدد القتلى بشكلٍ تقريبي بأنه قضى على ما يقارب الثلاثة ملايين نسمة على يد المغول فقط في المناطق المجتاحة السالفة الذكر، هذا من جانب ومن جانبٍ آخر تضررت مختلف القطاعات الأخرى، فقطاع التعليم فقد كادته التدريسي من علمائه ومدرسيه وشيوخه الذين فضل بعضهم الهرب، والقسم الأخرى قضى قتلاً على يد المغول، أو بين أنقاض المباني المهدامة. أما دور العلم من مدارس وكتاتيب التي كان لخراسان قصب السبق في وجودها فقد دمرت بالكامل والتي لم تدمر لم تعد صالحة للاستعمال لكون محتوياتها خربت ودمرت، و احترقت أعداداً لا تحصى من الكتب النادرة والمهمة التي ألقت في تلك الحقبة الزمنية وما قبلها وتناقلت أيدي العلماء فأصبحت الحياة العلمية بنكسة كبيرة، ولكن فإن العلماء الذين فروا من المنطقة واتجهوا نحو دول الجوار ساهموا في ظهور مؤلفاتٍ ضخمة ونتاجٍ علميٍ غزيرٍ ومهمٍ أغنى حركة التأليف في العصر المملوكي وميزه عن غيره من العصور.

ولكن في المقابل لم تصحُ الحياة العلمية في تلك البلدان سريعاً بل احتاجت لمدّةٍ طويلةٍ، وتميّز النتاج العلمي بالركاكة، وكثرة المحسنات اللفظية، والبعد عن المعنى والاغراق في التفاصيل، مع الميل للتأليف في الجوانب الدينية. تطورت الحركة الصوفية وظهرت بأشكالٍ وتياراتٍ مختلفةٍ، فما أصاب السكان من تأثير الغزو المغولي دفعهم للزهد ورفض العودة إلى الحياة، والالتجاء نحو التصوف حيث وجدوا فيه نوعاً من السكينة والطمأنينة، فكثر الحركات الصوفية وتتنوعت ممارساتها ومسمياتها مما ساهم فيما بعد في ظهور تيارات دينية وأدبية لم تكن موجودة من قبل، تميزت بطابعٍ خاصٍ بها.

لم يكن قطاع التعليم هو الوحيد الذي أصيب بنكساتٍ كثيرةٍ، فقد انهارت طبقات المجتمع: أولاً زالت الطبقة الحاكمة من الوجود فالخوارزميين زال ذكرهم من بلاد ما وراء النهر، فقد شكلوا طبقة منفصلة، لم تراعي حقوق الرعية، اعتنقت الاسلام بالشكل الذي يخدم مصالحها ويقربها من الخلافة العباسية ويساعدها على الحصول على امتيازات تمتعت بها دولٌ قبلها، ولكن خاب أملها، ولم ترحم سكان المناطق التي حكمتها بل إن هؤلاء ارتكبوا أعمال نهبٍ وإبادة بحق الفئات التي حكموها وخاصةً في المناطق الحدودية في كاشغر والختن، بل إنهم هدموا مدناً بأكملها، لذا لم يكن هؤلاء محبوبين من قبل الرعية التي تضررت من سوء سياستهم، و واجهت الغزو المغولي بعد ذلك فلم تصمد أمامه، لغياب القائد القوي الذي كان من أولى واجباته الدفاع عنهم وليس الفرار متنقلاً، وخائفاً من مكانٍ إلى آخر، كما كان حال السلطان علاء الدين محمد، أو حال ولده جلال الدين الذي شغل بصراعاته مع من جاوزه من الدويلات الأيوبية والأرمنية، بدلاً من

النهوض بواجباته ولو قليلاً مع ضعف موارده التي خلّفها له والده، ولكن فرّ الاثنان أمام المغول الأب وابنه، وكلاهما اتجها نحو مناطق الجبال واقتربا من حدود الدولة العباسية، ولم يطلبوا المساعدة من الكيانات المجاورة لهم، بل أنفأ ذلك وفضلاً حياة التشرد، ربما صراعاتهما مع تلك الكيانات منعهم من ذلك، أو خوفهم وارتباكهم دفعهم لعدم التركيز في الخطط التي رسموها لمواجهة المغول وللتحرك، أو بسبب عدم اخلاص بطانتهم لهم، أو لكثرة المصائب التي ألمت بهم. مهما يكن فقد زال ذكرهم من الوجود، ونشأت طبقات حاكمة ودويلات جديدة في المنطقة، شغلت فيها فئات جديدة من أيغورية، وصينية ومغولية، وتركية دوراً كبيراً.

غير الاجتياح المغولي الخارطة الجغرافية، فقد اتخذ نهر جيحون مجرى مخالفاً لمجراه الطبيعي، كما أن كثيراً من المدن والقرى والمناطق زالت نهائياً ولم يبق لها أثر باستثناء بعض الآثار التي تشير إلى كون تلك المناطق كانت تنبض بالحياة في يومٍ من الأيام، ربما زالت لفداحة الكارثة التي ألمت بها، أو لإبادة جميع سكانها، أو لعدم صلاحية تربتها للزراعة من جديد، أو لدمار شبكات الريّ فيها التي شكلت شريان الحياة الأساسي للسكان.

كما أنه غير الخارطة السياسية، فلم يجد بقايا الجنود الخوارزميين المرتزقة أبداً لاستمرار حياتهم سوى التوجه إلى الكيانات المجاورة وعرض خدماتهم على من يرغب فيها، لحاجتهم للأموال اللازمة لاستمرارية حياتهم، وهذا ما يفسر الانهيار السريع للقوة العسكرية الخوارزمية التي قامت على أساس مجموعة مرتزقة همهم الوحيد الحصول على الولاء، وليس التضحية في سبيل قضية معينة، أو الولاء لقائد واحد، بل الولاء لمن يمنحهم الأموال، تحركهم ذاك سبب تزعزع الاستقرار السياسي، انتشار حالة من الفوضى، نشوء طبقة جديدة من الجنود دخلت في خدمة بعض الكيانات الأيوبية مساهمةً في تحقيق بعض الانتصارات لها، ولكن على نطاق ضيق، ومساهمةً فيما بعد في توجه بعض الضربات لبقايا الكيانات الصليبية في بلاد الشام.

حالة الوهن التي ألمت بالمسلمين من جراء الاجتياح المغولي، حفّزت المسيحية في أوربة على البحث عن حليفٍ يحقق غاية أمانها وذلك بالقضاء على الاسلام والمسلمين في بلاد الشام، أرسلت العديد من السفارات التي حمل بعضها الطابع الديني التبشيري والبعض الآخر الطابع التجاري إلى بلاط المغول، ولكن منيت بالإخفاق، وذلك لعدم رغبة المغول الذين كانوا يجنون ثمار انتصاراتهم بالتحالف مع قوى جديدة، ولكن ساهمت تلك السفارات في إزالة اللبس المتعلق بالمغول وحياتهم وأماكن سكنهم، وساهم فيما بعد بالتمهيد للحملات الاستكشافية الكبيرة التي نهض بها بعض حكام أوربة، كما مكنت من الاتصال أكثر بدول الشرق الأقصى والاطلاع على

حضارات الصين. بالتالي ساهمت في انفتاح الشرق على الغرب، وتمازج الشعوب ونشوء حضارات وثقافاتٍ من نوعٍ جديدٍ، مختلف عما كان موجوداً من قبل.

بالتالي لم تكن موجة الاجتياح المغولي مجرد حملة سطو هدفها جمع الثروات فقط، بل كانت إحدى موجات التدمير الهائلة التي عجزت البشرية عن تفسير أسبابها الأساسية والتي أرجعها البعض إلى النواحي الاقتصادية، والبعض الآخر لأسبابٍ متعلقة بطبيعة المغول، وآخرين عدّوها قضاءً أنزله الله على تلك الشعوب، كما عجزوا عن إدراك حجم ما أنزلته من دمار، وكأن نصف البشرية قد أُبيد في تلك الموجة، فقد اطفأت شعلة الحضارة، وقُضي على جميع أوجه النشاطات البشرية، بل أن هؤلاء ساهموا في ولادة طبقة أذهلها ما أصابها من نكبات فانطوت على نفسها لمدة، ولم تعاود نشاطها في بعض مناطق ما وراء النهر ، ولكن عاودت نشاطها في مناطق أخرى تلقت حجماً أقل من الصدمات. وذلك لكون إرادة الإنسان هي الأقوى والدافعة له إلى الاستمرار في الحياة ومحاولة تغيير واقعه ومصابه الأليم، لذا استفاقت بعض المناطق ، ولكن سرعان ما داهمتها موجاتٌ ثانية من قبل تلك الشعوب البدوية، ومازالت هذه الموجات تجتاح المنطقة ، ولكن من قبل شعوبٍ ودولٍ حملت مسمياتٍ جديدة وقدمت بهدفٍ واحد وهو الاستيلاء على خيرات البلاد ومقدرات الشعوب.

تعريف:

الفصل الأول:

الجماعات:

الدولة البويهية: من الدول التي حكم أفرادها بغداد، ظهرت في أوائل القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وتنسب إلى أبي شجاع بويه فناخسرو، ويعدّ أبنائه الثلاثة علي، الحسن، وأحمد مؤسسي هذه الدولة التي مرت بثلاث مراحل من النشأة، والقوة، والضعف، لنتهار على يد السلاجقة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م؛ مسكويه (أحمد بن محمد ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م): تجارب الأمم، تحقيق: أمدروز، مصر، شركة التمدن الصناعية، ١٩١٦م، ص ١٢٠ - ١٤٥.

الدولة السامانية: دولة نشأت في بلاد ما وراء النهر بين سنتي ٢٠٤-٣٨٩هـ/ ٨١٩-٩٩٨م، مؤسسها رجل يدعى سامان، كان دهقاناً في منطقة بلخ، اعتنق الاسلام والتحق أحفاده الأربعة بخدمة الخلافة العباسية في خراسان، وقد أخلصوا في خدمتهم له، فكافأهم بتولييتهم على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة، تمكنوا فيما بعد من السيطرة على زمام الأمور في بلاد ما وراء النهر، أصاب دولتهم الضعف وقضى عليها القراخانيون والغزنويين سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م؛ ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٣٦؛ ابن كثير، ج ١٥، ص ٢٤٢.

الأماكن:

أسد أباد: مدينة بينها وبين مدينة همذان مرحلة واحدة باتجاه العراق؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٧٦.

أمويه: مدينة في الاقليم الرابع، يُطلق عليها اسم أمل الشط، طولها خمسة وثمانون درجة ونصف، وعرضها سبع وثلاثون درجة ونصف؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٥٥.

بحر آرال: وهو الاسم الحديث لبحيرة خوارزم والتي تقع في اقليم ما وراء النهر وينتهي إليها نهري سيحون وجيحون؛ لسترنج، ص ٤٨٧.

بعقوبا: قرية كبيرة كالمدينة، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من أعمال طريق خراسان، كثيرة الأنهار والبساتين، وهي راكبة على نهر ديال من جانبه الغربي؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٥٣.

بكين: مدينة في شمال الصين، اتخذها الخطا عاصمةً لهم سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م بعد أن اندفعوا داخل الصين، وبقيت بأيديهم إلى أن تمكنت قبائل الكن التتارية من احتلالها وانتزاعها من أيديهم؛ ٢٢٢، P١٩٩٧، London، Eberhard(Wolfram):Ahistory of China

بلاساغون: بلد عظيم في ثغور الترك، وراء نهر سيحون قريب من مدينة كاشغر؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٧٦.

بیشبالیغ: لم يعثر على تعريف لها.

جرجان: مدينة مشهورة في الاقليم الرابع بين طبرستان وخراسان، وهي أقل ندى ومطراً من طبرستان، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ١١٩.

الختن: بلد دون كاشغر ، ووراء يوزكند، وهي معدودة من بلاد تركستان في وادي بين الجبال وسط بلاد الترك؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٤٧.

خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز، ليس فيها جبال ولا رمال، وتشتمل على مناطق الأهواز بين فارس والبصرة، وواسط، وجبال اللور المجاورة لأصبهان؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٠٤.

دقوقا: مدينة معروفة بين إربل وبغداد ؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٥٩.

ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل، وحدّها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٩٤.

الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ، يُنسب إليها خلق كثير ، وتبعد عن همذان نيف وعشرين فرسخاً، وتبلغ مساحتها ثلثي مدينة همذان؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٥٤٥.

زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال، يقع بين اقليم أذربيجان واطليم الجبال، وهي أقرب إلى أبهر وقزوین؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٥٢.

سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، وهي كبيرة وواسعة، تقع بين نيشابور ومرو في منتصف الطريق بينهما؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٢٠٨.

غرستان: بلاد الغور على لسان أهل خراسان ، وهي ولاية بين غزنة وكابل وهراة وبلخ؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٥٨٥.

قطوان: قرية كبيرة من قرى سمرقند تبعد عنها خمسة فراسخ؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٥.

قلعة أرسلان كشاه: تسمى القلعة القاهرة، تقع قرب قزوين على حدود نهر ألموت؛ معروفة بحصانتها وارتفاعها وكثرة جبالها؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٢٨٨-٢٨٩.

قلعة ألموت: تقع في جبال ألبرز شمال غربي قزوين، ومعنى اسمها بالفارسية عش العقاب، ومنهم من فسر الاسم على أنه إله الموت وذلك لصعوبة مسالكها؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٨؛ الجويني، ج ٢، ص ٣١٣؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٢١٤.

قلعة طبرك: قلعة تقع على رأس جبيل بالقرب من مدينة الري على يمين القاصد إلى خراسان، وعن يساره جبل الري الأعظم، خربها السلطان طغرل بن أرسلان سنة ٥٨٨هـ/١١٩١م؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٦.

هزاراسب: معناها بالفارسية ألف فارس، وهي قلعة حصينة ومدينة جيدة الماء محيط بها كالجزيرة، وليس إليها إلا طريق واحد على ممر قد صنع من نواحي خوارزم بينهما ثلاثة أيام، وهي في فضاء، فيها أسواق كثيرة وأهلها أهل ثروة؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٤٠٤.

كاشغر: ولاية تتألف من مدن وقرى ورساتيق، يصل إليها المسافر من سمرقند، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤٣٠.

كرمان: ولاية في الاقليم الرابع، وهي ناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن، تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥٤.

كنجة: مدينة عظيمة، قصبة بلاد أَران، وأهلها أهل أدب؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤٨٢.

مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، ولها سوران وخندق وفي وسطها حصن؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٠٧.

مكران: ولاية واسعة الغالب عليها المغاوير، تشتمل على مدن وقرى وتحدها كرمان في الغرب وسجستان في الشمال والبحر في الجنوب والهند في الشرق؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨٠.

منقشلاغ:قلعة حصينة في آخر حدود خوارزم، وهي بين خوارزم ومقسين ونواحي الروس، قريبة من بحر طبرستان الذي يصب فيه جيحون؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢١٥.

نور بخارا: لفظة تعني ضد الظلمة، من قرى بخارى عند الجبل بها زيارات ومشاهد للصالحين؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٣١٠.

الأعلام:

اسماعيل بن جعفر: مؤسس الفرقة الاسماعيلية، كان أكبر أولاد أبيه، عرف بكونه كان ذا علم ومعرفة، توفي في حياة والده ودفن سنة ١٣٣هـ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٣٩.

الأنوري: شاعر السلطان سنجر السلجوقي، ومرافقه في حملته ضد خوارزم سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، وقد أنشأ أبيات عدة يهجو فيها أئمة؛ براون، تاريخ الأدب، ص ٤٢٢.

بركياروق: بركياروق بن السلطان ملكشاه، أحد حكام السلاجقة، تولى الحكم بعد وفاة والده سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، حدثت في عهده اضطرابات شديدة واختلفت أحوال البلاد في عهده ما بين رخاء وشدة، لكن لا بد من الإشارة بأنه لم يهزم في حروبه غير مرة واحدة، كما أنه خطب له في بغداد، توفي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧.

الحسن بن الصباح: الحسن بن علي بن محمد بن الصباح، كان عالماً بالهندسة والحساب والجبر، طاف البلاد ودخل في خدمة السلطان ملكشاه لمدة من الزمن، التقى بأحد دعاة الاسماعيلية، وكان له دور كبير في نقل الدعوة إلى خراسان استولى على العديد من القلاع التي اتخذها مقراً للدعوة، توفي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م؛ خواندمير، دستور الوزراء، مصدر سالف، ص ٣٠٦؛ الجويني، ج ٢، ص ٣٠٣.

ال خليفة الراشد: الراشد بالله منصور بن المسترشد بالله، تولى الخلافة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، ودخل في صراعات مع السلاجقة، قتل في أصبهان حيث وثب عليه جماعة من الباطنية سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٦، ص ١٦٥.

ال خليفة الظاهر بأمر الله: ولد محمد بن الناصر لدين الله سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، وعينه والده ولياً لعهد في حياته، استخلف بعد وفاة والده وله من العمر اثنتان وخمسون سنة، أظهر العدل والإحسان، وكانت خلافته تسعة أشهر وأياماً؛ السيوطي، ص ٤٢٣.

ال خليفة المسترشد بالله: ولد الفضل بن الخليفة المستظهر بالله سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، كانت مدة حكمه قصيرة فقد قتله الباطنية بظاهر مراغة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، وخلفه ولده الراشد بالله ت ٥٣٢هـ/١١٣٧م؛ السيوطي، ص ٣٩٨؛ ابن العماد، ج ٦، ص ١٤٣.

ال خليفة المستنصر بالله: ولد منصور بن الظاهر بأمر الله في صفر سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، من أم تركية، كان مهتماً بنشر العدل، وتقريب أهل العلم والدين، وكذلك اهتم ببناء المساجد والمدارس توفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وخلفه ابنه المستعصم ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م؛ السيوطي، ص ٤٢٥.

ال خليفة الناصر لدين الله: ولد الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، ببيع له بالخلافة سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، كان أبيض، معتدل القامة، لم يل الخلافة أحد أطول دولة منه، توفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، وخلفه ابنه الظاهر محمد وكان كهلاً؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، مصدر سالف، ج ٢٢، ص ١٩٢؛ الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، مصدر سالف، ص ٣٧٥؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٩٢.

سنجر: ولد السلطان السلجوقي سنجر بن ملكشاه في مدينة سنجار سنة ٤٧٩هـ/١٠٦٠م، كان قمحي البشرة، مجدر الوجه، فارغ الطول، حدثت في عهده صراعات كثيرة حول الحكم، لكن استقر حكمه فيما بعد، حكم احدى وستين سنة منها عشرون سنة في خراسان وحدها، ثم احدى وأربعين سنة في حكم الأماكن الأخرى، توفي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م؛ الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٢٥٦-٢٧٨.

شهاب الدين السهروردي: ولد عمر بن محمد بن عبد الله سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م في مدينة سهرورد، قدم إلى بغداد، وكانت له طريقة معينة في التصوف، واشتهر بإمامه بالفقه وعلوم الدين، نتيجة للمكانة الدينية التي بلغها أنفذه الخليفة رسولاً إلى الشام عدة مرات، وإلى السلطان علاء الدين محمد ، توفي سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م؛ ابن خلكان (محمد بن أحمد ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د، ت)، ج ٣، ص ٤٤٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٧٣-٣٧٥.

شهاب الدين محمد بن سام: صاحب غزنة و سلطان الدولة الغورية شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام ، كان سلطاناً شجاعاً مهيباً جيد السيرة، يحكم بالشرع، قتل بعد عودته من حملة على الهند في مخيمه بمدينة لهاور، على يد نفرٍ من الكفار وذلك سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٢٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٦٩.

صدر الدين محمد بن الوزان: من الشخصيات التي نالت الحظوة في بلاط السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش، وفي مدينة الريّ كذلك الأمر، تولى رئاسة الشافعية في الريّ، توفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م حيث قتل على يد الاسماعيلية؛ ابن الاثير ، ج ١٠، ص ٢٦٢.

طغرل بك: طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق، كان عاقلاً، حليماً، يعدّ مؤسس الدولة السلجوقية وأول ملوكها، لقبه الخليفة العباسي القائم ت ٤٦٧هـ/١٠٧٤م بملك المشرق والمغرب، قضى على الدولة البويهية وعلى ثورة البساسيري، توفي سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، خلفه بالحكم ابن أخيه ألب أرسلان؛ الفارقي (أحمد بن يوسف ت بعد سنة ٥٧٢هـ/١١٧٢م): التاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ص ١٨٦.

طغرل بن أرسلان: حاكم سلجوقي كان طويل القدّ، رطب الصدر، رفيع القامة، وصل إليه الملك فجأة، كانت أيام حكمه مضطربة، قتل على يد الخوارزميين بطلب من الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م، لتنتهي بموته الأسرة السلجوقية في العراق؛ الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٤٦٢-٤٦٣.

غياث الدين محمد بن سام: أبو الفتح محمد بن سام بن حسين الغوري، أخو السلطان شهاب الدين الغوري، كان ملكاً عادلاً، قرّب العلماء، وأحبّ أهل الفضل، كان مظفراً في حروبه استولى على العديد من أقاليم الهند، توفي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٢٠-٣٢١.

غياث الدين محمود بن سام: غياث الدين محمود بن السلطان غياث الدين محمد بن سام الغوري، كان من كبار ملوك الاسلام، آخر حكام الدولة الغورية، قتله السلطان علاء الدين محمد سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م منهياً بقتله حكم الدولة الغورية؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٥٠٦.

قتلغ اينانج بن محمد بن إلكز: وهو ابن شمس الدين محمد بهلوان بن إلكز ت ٥٨١هـ/١١٨٥م ، أما والدته فهي اينانج خاتون، من الشخصيات التي خدمت سلاجقة ايران في المدة الأخيرة من عمر دولتهم، عُرف عن أسرته تحكمها بالسلطنة السلجوقية، اتخذت أسرته من تبريز مركزاً لها، استغل حالة الفوضى التي عاشتها الدولة السلجوقية وطلب مساعدة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش، الذي استجاب لطلبه وقضى نهائياً على الدولة السلجوقية، توفي سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٢.

المستعلي: المستعلي بالله أحمد بن المستنصر صاحب مصر الاسماعيلي، ولي الأمر بعد وفاة أبيه لثماني سنوات، وقد توفي في عمر مبكر سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م؛ ابن العماد، ج ٥، ص ٤١٠.

مسعود بن محمد: السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه، كان أسمر البشرة، قوياً، طويل القامة، حكم ثماني عشرة سنة، واستمر في الحكم حتى توفي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، حيث دفن في مدرسة سربرزه بهمدان؛ الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ٣٥٠-٣٥٤.

المعظم عيسى بن العادل: ولد عيسى بن العادل أبو بكر بن أيوب سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، ملك دمشق والشام، كان شجاعاً، عاقلاً، فاضلاً، محباً للعلماء، ومكرماً لهم، توفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، مصدر سالف، ج ٣، ص ١٧٣؛ ابن العماد، ج ٧، ص ٢٠١؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٦١.

ملكشاه: ابن السلطان ألب أرسلان ت ٤٦٥هـ/١٠٧٤م، خُطب له على منابر بغداد، كان كوالده من الحكام العظام الذين شغلوا بأعمال الفتوحات، فقد تمكن من السيطرة على بلاد الشام، حدثت في عهده اصلاحات عديدة في الدولة السلجوقية توفي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، مصدر سالف، ص ٦٧؛ ريس (تامارا تالبوت): السلاجقة تأريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفي الخوري، ابراهيم الداغوي، بغداد، مطبعة الارشاد، ١٩٦٨م، ص ١٤٥-١٤٦.

موسى الكاظم: موسى الكاظم بن جعفر الصادق، ولد سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، وهو أحد الأئمة الاثني عشر المعصومين على اعتقاد الإمامية، سكن بالمدينة وقد سجنه الخليفة المهدي في بغداد مدة من الزمن توفي سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م؛ ابن العماد، ج ٢، ص ٣٧٧.

نزار بن المستنصر بالله: تنسب إليه الدعوة النزارية بعد وفاة والده رفض مبايعة أخيه، ودخل الاسكندرية فبايعه أهلها، وساعده قاضيه، ومتوليها، فنازلهم الأفضل، وقد تمكن من قتل متولي الاسكندرية، وبني حائط على نزار فهلك سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م؛ ابن العماد، ج ٥، ص ٤١٠؛ الصفدي، ج ١٥، ص ٢٨٣.

نظام الملك مسعود بن علي: وزير السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش، كان من أحسن وزرائه، صالحاً، كثير الخير، حسن السيرة، شافعي المذهب، قتله الاسماعيلية أمام منزله سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٦٧؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص ٣٠٩.

الوطواط: رشيد الدين محمد بن عبد الجليل العمري الوطواط، اشتغل بالكتابة، لذا لُقّب بالكاتب، ولُقّب بالوطواط لضالة جسمه وهزالة بنيته، وكان شاعراً لأتسز، وقد بقي مقيماً في خوارزم حتى توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م؛ براون ، ص٤١٨.

الفصل الثاني

جماعات:

الأولقونوأوت: قبيلة والددة جنكيزخان أوالون؛ مؤلف مجهول، التاريخ السري ، ص١٤١.

الأونغيرات: قبيلة زوجة جنكيزخان الأولى بورته؛ مؤلف مجهول، التاريخ السري، ص١٣٦.

التتار: فئة من الشعوب البدوية التي سكنت المنطقة الممتدة من نهر أرغون ولسنجا شمالاً، والصين الشمالية شرقاً، ومملكة الأويغور من الغرب، ومن الجنوب اقليم التبت، اعتنق بعضهم الشامانية، كما أن المسيحية انتشرت بين ربوعهم، عادت هذه القبيلة جنكيزخان والذي قضى عليها سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م؛ التاريخ السري ، ص٢٢٨؛ غروسيه، ص٤٠.

الجلاتر: احدى القبائل التي عاشت قرب جنكيزخان، وكنت العداء له؛ التاريخ السري، مصدر سالف، ص١٨٩؛ رشيد الدين الهمذاني، ص٥٢.

الدوربين: من القبائل المغولية التي عادت جنكيزخان واعتدت عليه؛ التاريخ السري، ص٢٠٠.

الأماكن:

أنطاكية: في الاقليم الرابع، قصبة العواصم من الثغور الشامية، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه، وسعة الخير؛ ياقوت الحموي، ج١، ص٢٦٦.

بحر قزوين: اسم آخر يطلق على بحر طبرستان؛ ياقوت الحموي، ج١، ص٣٤٢.

التبت: تقع في غرب وجنوب غرب الصين وأطراف الهند، تعدّ من أعلى هضاب العالم، وتُعرف باسم سقف العالم؛ فوانغ (شيوي): جغرافية الصين، ترجمة: محمد أبو جواد، بكين، دار النشر باللغات الأجنبية، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٢.

جبل بورقان قالدون: سلسلة جبال كنتي الحالية في مغوليا؛ غروسيه، جنكيزخان قاهر العالم، ص٣٥٥.

جبل دولون بولداق: اقليم يقع في الاتحاد السوفيتي المنهار على خط طول مئة وخمسة وعشرين شرقي غرينتش؛ دائرة المعارف الاسلامية، ج٧، ص١٢٦.

الأعلام:

جاموقا: أحد أفراد قبيلة الجاجيرات القاطنة في وادي قورقوناق، ولقد تأخى مع تيموجين عندما كان يبلغ الحادية عشر من عمره، وارتبطا برباط الأنداء، ولكن ساءت العلاقات بينهما وقضى عليه بعد ذلك؛ التاريخ السري، ص١٧٣-١٨٦.

جوانفيل: يدعى كذلك القديس جوان ، سليل أسرة اقطاعية فرنسية، ترهبين ودخل في خدمة لويس التاسع ملك فرنسا، فأرخ لحياته كما أرخ للحملة الصليبية السابعة؛ زكار، أخبار المغول ، ص٨.

جون دي بلانو كاريني: من سكان ايطاليا، ومن تلاميذ القديس فرانسيس كان راهباً تجاوز الستين من عمره، عُرف بخبرته في مجال الدبلوماسية وبعلاقته بالعديد من ملوك أوربه الشرقية، أرسل في رحلته سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م بطلب من البابا أنوسنت الرابع سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م باتجاه المغول، ولكنه أخفق في مهمته كباقي المبشرين؛ شبولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٢٦١ وما تلاها.

ساجابيكى: ابن سورقان جوركي من الجوركين؛ التاريخ السري، ص١٩٢.

سيغي قوتوقو: أخ جنكيزخان بالتبني عُثر عليه في معسكر التتار، وعاش بين سنتي ٥٧٦-٦٥٩هـ/١١٨٠-١٢٦٠م، وتولى الإشراف على الشؤون التشريعية؛ التاريخ السري، ص٢٠٣، ٢٠٥

غريغور أوف أكانك: مؤرخ أرمني واضع كتاب أطلق عليه تاريخ أمة الرماة أوقفه على الشعب المغولي حتى عهد أباقا خان ، ويعتقد أنه كان كاهناً والمعلومات عنه قليلة ؛ زكار، أخبار المغول، ص١٢.

الفارس الصوري: هكذ كان لقبه أما اسمه ومكان ولادته فقد كانا مجهولين، عُرف عنه أنه كان في قبرص سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م حيث خدم مرغريت لوزينان، التي تزوجت من حاكم صور، لذا عاش في صور مدة ربما امتدت حتى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، لكنه في سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م انتقل إلى خدمة وليم بيجو مقدم الداوية في عكا، لذا فقد نقل معلومات مهمة عن الكيانات الصليبية التي وجدت في تلك المدة، لم يعرف تاريخ وفاته؛ زكار، أخبار المغول، ص١٠.

قبلاي خان: قبلاي بن تولوي، أصبح امبراطوراً للصين سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وبقي فيها حتى وفاته سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م مؤسساً بالتالي لأسرة حاكمة فيها عُرفت بأسرة يوان؛ غروسيه، ص ٣٢٢؛ Ebrehard, A history of China, P٢٣٠-٢٣٢

قوجار: ابن نيكسون تايي من الجوركين؛ التاريخ السري، ص ١٩٢.

ماركو بولو: ولد في البندقية سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م لأسرة عريقة، اشتهر والده بحملاته التجارية إلى بخارى، رافق والده في رحلته إلى بلاط قبلاي خان سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، ومكث في بلاطه مدة ليعود سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م إلى البندقية، حيث وقع بعدها في أسر جنود مدينة جنوى، وأطلق سراحه سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، تزوج بعدها واختفى أثره، ولا بد من الإشارة بأنه كان من الرحالة المشهورين؛ شولر، العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ٣٧٠.

متى باريس: انظر تعريف بأهم المصادر والمراجع ص ١٢.

الفصل الثالث

جماعات :

بياووت: فرع من قبائل كانكالي، ويرجع أصلها إلى السهوب الواقعة شمال خوارزم، وفي الشمال الشرقي من بحر قزوين؛ النسوي، ص ٩٩.

التانغأوت: مملكة وجدت في الصين، وسيطرت على محطة تجارية مهمة وهي ننج هسيا على النهر الأصفر؛ غروسيه، ص ٢٢٥.

الماليغ: هي إحدى القبائل التركية التي سكنت في المناطق الحدودية في تركستان؛ غروسيه، ص ٢٣٠.

الأماكن:

استوا: كورة من نواحي نيشابور تشتمل على قرى كثيرة؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٢٢٥.

أستوناوند: اسم آخر للاستنداد: وهي قلعة بين الري وبينها عشرة فراسخ من قلاع طبرستان؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٧٥.

أسفرايين: بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق القادم من جرجان، أصلها أسبراين وهي كلمة فارسية تعني حمل الترس؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٧٧.

أشناس: مدينة تقع بقاياها على بعد عشرين ميلاً من بيرقازان؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٤٢.

أمل: قصبة طبرستان، تقع على بحر الديلم، مشتبكة العمارة، عُرفت بكونها أكبر وأعمر مدن طبرستان؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٣٥.

أوزكند: مدينة في بلاد ما وراء النهر من نواحي فرغانة، وهي آخر مدن فرغانة، تعدّ متّجر للأتراك، لها سور، وقهندز، ولسورها عدة أبواب، ولها بساتين وفيها مياه جارية؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٢٨٠.

برادكان: لم يعثر على تعريف لها.

بحر طبرستان: يطلق عليه كذلك الأمر بحر الخزر، أو بحر جرجان، أو بحر آبسكون، وهو بحر واسع عظيم لا اتصال له بغيره من جهة الشرق، تحدّه جبال موقان، وطبرستان، وجبل جرجان، ويمتد على قبالة دهستان وفيه جزيرة آبسكون؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٣٤٢.

بسظام: بلدة كبيرة بقومس، تقع على بعد مرحلتين من الدامغان على الطريق المؤدي إلى نيسابور؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٢١.

بنج آب: معبر مشهور يقع قرب مصب نهر وخش عند مدينة ميله، ويبعد عن مدينة بلخ ثلاث مراحل وعن ترمذ فرسخين؛ بارتولد، تركستان، ص ١٥٥.

بوابة نمازگاه: باب مصلى العيد، والذي يقع في القسم الشمالي الغربي من مدينة سمرقند؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٨٧.

ترمذ: مدينة تقع على شط نهر جيحون من جانبه الشرقي، وهي تعدّ أولى المدائن التي تقع في أعالي النهر، وتبعد عن بلخ اثنتي عشر فرسخاً، ولها قهندز وربض ويحيط بها سور؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٩١؛ الحديثي، أرباع خراسان، ص ٤٣٠.

جام: لم يعثر على تعريف لها.

جبل شیران كوه: لم يعثر على تعريف له.

جوين: اسم كورة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ١٩٢.

جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وهي قرى في المروج بين الجبال؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٢٠١.

خبوشان: قسبة استوا بنواحي نيسابور، تقع بالقرب من المستنقعات التي يخرج منها نهر اترك حيث مجراه إلى الغرب، ويخرج منها نهر مشهد أيضاً؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٨٧.

دامغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور وهي قسبة قومس؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٣٣.

الدبوسية: بلدية من أعمال الصغد بما وراء النهر؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٣٧.

دولت آباد: موقع بالقرب من شرق مدينة همذان؛ بارتولد، تركستان، مرجع سالف، ص ٥٩٩.

زاوة: مدينة من رساتيق نيسابور، وتعدّ كورة من كورها؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٢٨.

سريل: لم يعثر على تعريف لها.

سمنان: من مدن قومس، أصغر من الدامغان وأكبر من بسطام، وهي بلد مشهور يقع بالقرب من ناحية قومس؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٢٧.

الشاش: بلدة بما وراء النهر، تقع في ما وراء نهر سيحون، أهلها شافعية المذهب، تمتد في أرض سهلة، لا تحتوي على أي مرتفع أو جبل، وهي أكبر ثغر في وجه الترك؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٣٠٨.

شهركنت: مدينة في طرف تركستان، قريبة من جند، وتبعد عن خوارزم نحواً من عشرة أيام؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٣٧٨.

عراق العجم: هو الاسم الذي أطلق في العصر السلجوقي على إقليم الجبال الممتد من سهول العراق والجزيرة في الغرب إلى مفازة فارس في الشرق، تمييزاً له عن عراق العرب، وهو ما يعرف به القسم الأسفل من ما بين النهرين؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٢٠.

قلعة أردهن: قلعة من أعمال الري تقع على مسيرة ثلاثة أيام منها؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٨٩.

قلعة الاستداد: لعلها استناباذ، وهي قلعة تبعد عن الري عشرة فراسخ، وتقع في ناحية طبرستان؛
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٥.

قلعة ايلال: من قلاع مازندران، المشهورة بمناعتها وحصانتها؛ النسوي، سيرة السلطان جلال
الدين منكبرتي، ص ٩٥.

قلعة سرجاهان: قلعة حصينة على طرف جبال الديلم، و تشرف على قاع قزوین وزنجان وأبهر،
عُرفت بحصانتها ومناعتها؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٢٠٧.

قلعة فرزين: قلعة على باب الكرج بين همذان وأصبهان؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني،
ص ٢٤٢.

قلعة قارون: لم يعثر على تعريف لها.

اللور: كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان معدودة من عمل خوزستان، ولكن عاد الجغرافيون
وألحقوها ببلاد الجبل لاتصالها بها؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٥.

نخشب: من مدن بلاد ما وراء النهر تقع بين جيحون وسمرقند، وتبعد عن سمرقند مسافة ثلاث
مراحل؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٧٦.

نهر جرجان: ينبع من وادي شهرناو، ويشق سهل السلطان درين، فيصل إلى مدينة جرجان فإذا
جاوزها وقع في بحر قزوین قرب بحر جزيرة آبسكون؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٧.

نهر جمكنت: رافد من روافد نهر سيحون اليمنى؛ لسترنج، المرجع نفسه، ص ٥٢٧.

نهر زرفشان: ينبع من جبال البتم الوسطى عند ناحية بُرغر قريباً من حدود الصغانيان ويجري
لمساحة لأبأس بها ويسقي العديد من المدن والقرى؛ بارتولد، تركستان، ص ١٦٨.

نوقان: يعتقد أنها موقان وهي ولاية فيها قرى ومروج لذا تكثر فيها مراعي الحيوانات، وتقع في
أذربيجان؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٢٥.

وخش: بلدة من نواحي بلخ، وهي كورة متصلة بالختل حتى لتعد منها، تقع على نهر جيحون،
واسعة كثيرة الخيرات؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٣٦٤.

الأعلام:

أحمد الخجندي: نسبة إلى مدينة خجندة، وهي بلدة مشهورة في بلاد ما وراء النهر، تقع على شاطئ نهر سيحون، إلى شرق مدينة سمرقند على بعد عشرة أيام منه؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٤٧.

أرسلان خان: حاكم القالوق الذين سكنوا منطقة سميرجي جنوب بحيرة بلخش؛ غروسيه، ص ٢٣٠.

آلاق نويان: قائد من قبيلة البآرين، خدم جنكيزخان وأخلص له؛ باتولد، تركستان، ص ٥٩٢.

ايدي قوت: دعي كذلك الأمر بارشوق، أحد حكام الأويغور الذي حكم واحة تورفان، وكذلك قراشهر وكوشه؛ غروسيه، ص ٢٣٠.

اينانج خان: من كبار الأمراء الذين خدموا السلطان علاء الدين محمد، تولى حكم بخارى وعندما حاصرها المغول تمكن من النجاة بنفسه؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٤٣.

بهاء الدين الرازي: لم يعثر على تعريف له.

تركان سلطان: شقيقة أزلاغ شاه وابنة السلطان علاء الدين محمد، وقعت في أسر المغول؛ النسوي، ص ٩٧.

توخي بهلوان: الملقب بقتلغ خان كان حاكماً لمدينة شهركنت ثم قدم خوارزم واستقر بها؛ رشيد الدين الهمذاني، التاريخ الغازاني، ص ٢٤٨.

جنتيمور: أحد الرعايا الأويغور الذين التحقوا بالمغول، فقد خدم جوجي بن جنكيزخان وساعده في عملياته الحربية، ثم خدم أوكتاي، ولقد عيّن فيما بعد حاكماً على خراسان واستمر على هذه الحال إلى أن توفي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م؛ الجويني، ج ٢، ص ١١٦.

الجوزجاني: ولد عثمان بن سراج الدين محمد الجوزجاني سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، خدم أمراء الغور وعاش في بلاطهم، هاجر إلى الهند، وعاش فيها مدة من الزمن، حيث شغل هناك منصب قاضي القضاة، وفيها دون مصنفه طبقات ناصري سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، توفي في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد؛ بارتولد، تركستان، ص ٩٩.

حسن حاجي: تاجر مسلم انضم لجنكيزخان، ثم أصبح من حاشيته المقربين؛ الجويني، ج ١، ص ١٠٤.

خان سلطان: ابنة علاء الدين محمد، وكانت زوجة السلطان عثمان خان حاكم سمرقند؛ النسوي، ص ٩٧.

ال خليفة المستعصم بالله: ولد عبد الله بن الخليفة المستعصم بالله منصور سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، وأمه أم ولد تدعى هاجر، بويع بالخلافة بعد وفاة والده سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، وعمره ثلاثون سنة، كان أسمر البشرة مسترسل اللحية، ربعة ليس بالطويل، توفي مقتولاً على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م؛ السيوطي، ص ٤٢٨.

خمارتكين: من أقرباء ترکان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد، كان مايزال على قيد الحياة حتى اندفاع المغول نحو مدينة خوارزم، وبعدها أضحى مصيره مجهولاً، فلم يعرف هل قتل أو نجا؛ رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٤٨.

دانشمند الحاجب: من الشخصيات التي عملت في خدمة جنكيزخان، كان رسول المغول إلى مدن بلاد ما وراء النهر، سلمها رسائل جنكيزخان التي تنص إما على الاستسلام، أو في حال الرفض مواجهة قوات المغول؛ النسوي، ص ٩٧.

رستم: بطل من أبطال الفرس في حقبة ما قبل الاسلام، وهو الذي انتصر على سهراب؛ الجويني، ج ١، ص ١٠٧.

سكتو جربي: انتمى لقبيلة كنگ ختن، وكان قائداً لألف جندي في الجناح الأيمن للجيش المغولي؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٢.

شهاب الدين الخيوقى: أبو سعد بن عمران الخيوقى، إمام فاضل وفقه معروف، عُرف بفضلِهِ وسعة علمه، فقد كان ملماً بعلوم الفقه واللغة والطب والخلاف والفصاحة، وعُرف كذلك الأمر بحسن تدبيره لذا كان مقرباً من السلطان علاء الدين محمد قتل على يد المغول في مدينة نسا سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م؛ النسوي، ص ١٠٩.

صاحب قندز: وهو علاء الدين أحد قادة السلطان علاء الدين الشجاع، أما قندز: فهي قسبة طخارستان وقد حظيت بمكانة مهمة في العصر المغولي؛ بارتولد، تركستان، ص ٥٩٦.

الصاحب يلواج: يقصد به محمود يلواج التاجر المسلم الذي خدم جنكيزخان، وقد أرسله الخان في سفارة من قبله للسلطان علاء الدين محمد، ثم عينه فيما بعد حاكماً على بعض ممالكه؛ الجويني، مصدر سالف، ج ١، ص ١١٩.

عالي الدين الخياطي: محتسب المدينة ومتولي شؤونها المالية تمتع بمكانة عالية وكان محترماً بين السكان داخل خوارزم؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٥٤.

ابن العلقمي: محمد بن محمد بن علي مؤيد الدين وزير الخليفة المستعصم بالله ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، عُرف بحبه للشعر والأدب وأهل العلم، اتهمه المؤرخون بالاتصال بالمغول وتشجيعهم على قصد العراق لتحقيق أهدافه الشخصية، عاش بعد مقتل الخليفة بثلاثة أشهر حيث توفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٦١.

علي كوه دروغان: كان عياراً كثير الكذب من سكان خوارزم، سنحت له الفرصة فتمكن من حكم خوارزم لمدة من الزمن؛ النسوي، ص ٩٣.

علي خواجه البخاري: أحد أعيان مدينة فردوان والتي تقع بقرب بخارى، انضم لخدمة جنكيزخان وأُرسل رسولاً من قبله للخوارزميين أكثر من مرة؛ الجويني، ج ١، ص ١٠٥.

عمرخان: الملقب بصبور خان صاحب مدينة يازر، وهي من مدن خراسان، عُرف بكونه من أتباع ترکان خاتون المخلصين، شغل دوراً مهماً في إرشاد ترکان خاتون على الطريق التي عبرت بها المفازة بين خوارزم وخراسان، ولكن بعد أن انتهى دوره أقدمت على قتله سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠؛ النسوي، مصدر سالف، ص ٩٥؛ أبو شامة، نزهة المقلتين، ص ٢٥.

قولان قاتون: زوجة جنكيزخان ، ابنة داير أوسون من قبيلة القوأس إحدى قبائل المراكيت، ولقد تمتعت بالجمال والذكاء ونالت حظوة لدى جنكيزخان؛ التاريخ السري، ص ٢٨٩.

ابن كفرج بغرا: كان والده من خدم السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش، انضم فيما بعد لخدمة المغول، وأُرسل من قبل جنكيزخان رسولاً إلى السلطان علاء الدين محمد، كان من الشخصيات الرفيعة التي نالت الحظوة لدى المغول، النسوي، ص ٨٧.

مجد الدين البغدادي: شرف بن مؤيد بن أبو الفتح البغدادي قدم خوارزم ، وكان من الاطباء الذين خدموا السلطان علاء الدين محمد، ثم التحق بخدمة الشيخ نجم الدين الكبرا، وكان من أحب تلامذته واقربهم إلى قلبه، ولكن تازمت العلاقة بين الأستاذ وتلميذه لكون الأخير رأى نفسه في موقع أعلى منه ، فدعا الأستاذ على تلميذه بالموت غرقاً، وفعلاً قضى الأخير غرقاً بأمر السلطان علاء الدين محمد سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م؛ براون، تاريخ الأدب في ايران، ص ٦٣٠.

نظام الملك: نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح، عُرف بشهره للأموال، وكان قليل المعرفة بأمور الوزارة، عُرف بكونه غلاماً لوالدة السلطان ترکان خاتون، ولقد انتهت حياته قتلاً على يد جنكيزخان سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م؛ النسوي، ص ٧٦.

ييسوي قاتون: الابنة الكبرى لزعيم التتار ييكي حيرين، كانت فائقة الجمال متفوقة على أختها ييسوغين قاتون، والتي تخلت عن مكانتها كزوجة لجنكيزخان لصالح أختها ييسوي، ولقد تمتعت بمكانة عالية حيث اصطحبها جنكيزخان في العديد من حملاته واستمع لآرائها؛ مؤلف مجهول، التاريخ السري، ص ٢٣١، ٣٦١.

الفصل الرابع

الجماعات:

الخلج: صنف من الأتراك قدموا في قديم الزمان إلى أرض كابل التي بين الهند ونواحي سبستان في ظهر الغور، وهم أصحاب نعم، شبيهيون بالأتراك في زيهم ولسانهم؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤٢٦.

الأماكن:

أبهر: مدينة بين قزوین وزنجان وهمذان، من نواحي الجبل، والعجم يطلقون عليها اسم أُوهر وهو اسم مركب من آب، وهو الماء، وهر وهي الرحا، وكأنه ماء الرحا؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٨٢.

أران: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، وهي من أصقاع أرمينية؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٣٦.

أرزن الروم: مدينة مشهورة قرب مدينة خلاط، لها قلعة حصينة، وكانت من أعمر مدن أرمينية؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٥٠.

أرزنكان: بلدة مشهورة من بلاد أرمينية تقع بين مدينة خلاط وأرزن الروم، وهي قريبة من أرزن الروم أكثر؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٥٠.

أرمنيان: لم يعثر على تعريف لها.

أرمينية: اسم لصقع واسع من جهة الشمال، تألفت من العديد من المدن، منها أرمينية الصغرى، والكبرى وبيلقان؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٦٠.

أشنو: بلدة في طرف أذربيجان من جهة إربل بينها وبين أرمية يومان وبينها وبين إربل خمسة أيام، ذات بساتين حسنة؛ المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠١.

بازغيس: ناحية بين هراة و مرو الروز وقصبتها بامبين وبون، السمعاني، الأنساب، ج ٢، ص ٢١.

بحيرة أرمية: بحيرة تقع في أرمينية، ننتة الرائحة لا تعيش فيها حيوانات، وفي وسطها جبل يقال له كبودان، فيه قلعة حصينة؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٣٥١.

بشاوَر: لم يعثر على تعريف لها.

بلاد الديلم: بلاد على حدود بلاد الترك، سكنها قوم عُرفوا بالديلم نسبة إلى أرضهم التي سكنوها، وليس باسم أب لهم، تقع في الاقليم الرابع طولها ٧٥ درجة، وعرضها ٣٦ درجة؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٨٩.

بلق: ناحية بغزنة من أرض زابلستان؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٨٩.

بوشنج: بليدة نزهة خصيبة في وادٍ مشجر من نواحي هراة، تبعد عن هراة عشرة فراسخ؛ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٥٠٨.

تُسْتُر: أعظم مدينة بخوزستان، وهي تعريب شوشتر، تقع على مكان مرتفع من الأرض، وفيها الشاذوران من عجائب الدنيا، موصوف بإحكام البناء ورصانته؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٢٩.

تَقْلِس: بلد بأرمينية الأولى، والبعض يقول بأزان، قرب باب الأبواب، وهي من المدن القديمة البناء، يجري في وسطها نهر الكر ويصب في البحر؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٥.

جبال أَلبرز: سلسلة الجبال العظمى الفاصلة بين هضبة فارس والأراضي الخفيضة على ساحل بحر قزوين؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٩.

جبل طبرك: جبل صغير يقع قرب مدينة الري على يمين القاصد لخراسان؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ١٦.

جردين: بلد قرب كابلستان بين غزنة وكابل به يصيف أهل ألبان؛ ياقوت الحموي ، ج ٢ ، ص ١٢٤.

حاني: اسم مدينة معروفة بدياربكر، فيها معدن الحديد ومنها يُجلب إلى سائر البلاد؛ ياقوت الحموي ، ج ٢ ، ص ٢٠٨.

خلاط: بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة، تقع في الاقليم الخامس، وهي قصبة أرمينية الوسطى، فيها بحيرة مشهورة ، وبردها شديد يُضرب به المثل؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٨٠.

خوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان، معروف بحصانته وكثرة خيراته وفواكهه؛ ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٠٨.

زوزن: كورة واسعة بين نيشابور وهراة، ويحسبونها من أعمال نيشابور؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٨.

ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في الوسط ، بينها وبين كل واحدة ثلاثون فرسخاً؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٧٩.

سبزوار: مدينة تقع على بعد اثنتين وستين ميل من مدينة نيشابور؛ الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ١، ص ١٦٨.

سجاس: بلد بين همذان وأبهر؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٨٩.

سجستان: اسم للبلاد و السهلية حول بحيرة زره، ويدخل ضمنها دلتا نهر هلمند، تقع جنوب خراسان وتشتهر بالخصب وكثرة الغلال؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣١٠.

سراو: مدينة بأذربيجان ، بينها وبين أردبيل ثلاثة ايام ، وتقع بين أردبيل وتبريز، وقد اجتاحتها المغول سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٢٤٠.

سيستان: بلدة من نواحي أَران بينها وبين مدينة بيلقان أربعة أيام، وهي تعدّ من مدن أذربيجان؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٢٩٧.

فيروزكوه: الجبل الأزرق، وهي قلعة حصينة في جبال غرستان بين هراة وغزنة وهي دار مملكة من يملك بتلك البلاد؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٢٨٤.

قلعة بلك: لم يعثر على تعريفٍ لها.

قلعة دروذة: لم يعثر على تعريفٍ لها.

قلعة روبين: لم يعثر على تعريفٍ لها.

قلعة روبنذر: قلعة حصينة من أعمال أنريجان قرب تبريز؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١٠٥.

قلعة شيركبوت: لم يعثر على تعريفٍ لها.

قلعة صعلوك: موضع قرب مدينة أصفهان؛ الجويني، ج ١، ص ١٦١.

قلعة كرنب: قلعة قريبة من ناحية اللر؛ رشيد الدين الهمداني، ص ٢٦٧.

قلعة واليان: لم يعثر على تعريفٍ لها.

قلعة ولج: لم يعثر على تعريفٍ لها.

قومس: مدينة بين خراسان وبلاد الجبل، واسعة جليلة القدر؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٣٢.

كابل: اسم لناحية تقع بين الهند وغزنة، ومدينتها العظمى أوهند؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤٢٦.

ماهان: اسم فارسي لمدينة بكرمان بينها وبين مدينة السيرجان مرحلتان؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٤٨.

مرج شروان: مرج من نواحي مدينة باب الأبواب؛ ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٣٣٩.

المولتان: مدينة في بلاد الهند، كان فيها بيت صنم كبير يحجّ إليه أهل الهند، وهي قريبة من نهر السند؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٢٧.

نهر أرس: يخرج من مشرق جبل أرمينية من المكان المتصل ببلاد الروم، متجهاً إلى المشرق، فيمضي حتى يمر بورثان وبالحد الفاصل بين أنريجان وأرمينية وبين أران؛ مؤلف مجهول، حدود العالم، ص ٤٤.

نهر الصافي: نهر يخرج من حدود الغور ويستفاد منه في الزراعة؛ مؤلف مجهول، حدود العالم، ص ٤٠.

نهر مهران رود: ينبع من جبل سهند جنوب تبريز، ويشق أرباض تبريز ويلتقي بنهر سراو على بعد مسافة قليلة شمال المدينة ليصبا في بحيرة أرمية؛ لسترنج، ص ١٩٧.

نقجوان: مدينة في أذربيجان، وهي أقرب إلى منطقة أزان؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٩٨.

نوشجان: مدينة على نهر سيحون، وهي الحد الصين وأهلها أتراك ومنهم مجوس؛ ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٣١١.

الأعلام:

الأشرف موسى بن العادل: ولد مظفر الدين أبو الفتح موسى شاه بن العادل في القاهرة سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، تملك القدس أولاً، ثم منحه والده حكم حران والرها وغيرها من مدن الجزيرة وبعدها تملك خلاط، ودمشق كان سمحاً جواداً استولى على أرمينية وتوفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٢٢.

أمير مولغار: لم يعثر على تعريف له.

أورخان: أحد قادة السلطان جلال الدين منكبرتي والذي تولى حكم مدينة كنجة، قتل على يد الاسماعيلية سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م؛ النسوي، ص ٢٢٨.

بركة خان: أحد خانات الخوارزميين الأربع والذين اندفعوا نحو بلاد الشام بعد وفاة السلطان جلال الدين، كان صهر الملك الصالح نجم الدين أيوب، قتل بالقرب من حلب في معركة نشبت بين الخوارزميين وصاحبي حلب وحمص سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٦.

بركانوين: قائد من قواد جنكيزخان وهو ينتسب إلى قبيلة الجلائر؛ بارتولد، تركستان، ص ٦٠٠.

بلا نوين: أحد قادة جيش جنكيزخان والذي شارك معه في موقعة نهر السند، وهو ينتسب إلى قوم الجلائر؛ النسوي، ص ١٥٩.

تكاكجك: لم يعثر على تعريف له.

ال خليفة سليمان بن عبد الملك: خليفة أموي ولد سنة ٦٠هـ/٦٧٩م، وتولى الحكم حتى سنة ٩٦هـ/٧١٤م، كان مؤثراً للعدل محباً للغزو، فتحت في أيامه جرجان وطبرستان، وتوفي سنة

٩٩هـ، ولي بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ت ١٠١هـ/٧١٩م؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٠.

ال خليفة المأمون: ولد عبد الله بن هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وهي الليلة التي استخلف والده فيها، أمه أم ولد تدعى مراحل، قرأ العلم في صغره، كان أفضل رجال بني العباس حزماً ، وعزماً، وعلماً ، ورأياً وله محاسن كثيرة، توفي سنة ٢١٨هـ/٨٣٤م؛ السيوطي، ص ٢٩٠-٢٩٢.

ال خليفة مروان بن محمد: ولد مروان بن محمد سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م ، كان آخر خليفة أموي، بويع بالحكم سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ، وصف بكونه كان صابراً على مكاره الحروب، فتحت في عهده قونية، خرج عليه بنو العباس وقتلوه سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ؛ السيوطي، ص ٢٤٦.

ال خليفة محمد المهدي: الخليفة العباسي الثالث، ولد محمد بن المنصور في آيذج سنة ١٢٧هـ، كان جواداً، مليح الشكل، محبباً إلى الرعية، تتبع الزندقة وأفنى منهم خلقاً كثيراً، توفي سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م وخلفه ولده الهادي؛ السيوطي، ص ٢٦١.

ال خليفة هارون الرشيد: هارون بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله ، خليفة عباسي ، استخلف بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م عرف بعدله وورعه وحبه للجهاد في سبيل الله ، بلغت الدولة العباسية أوج ازدهارها في عهده، اهتم بمناطق خراسان، وغيرها من مناطق الدولة العباسية توفي سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م وخلفه ولده الأمين؛ السيوطي ، ص ٢٧١-٢٧٦.

دورباي نوين : لم يعثر على تعريف له.

الصالح نجم الدين أيوب: ولد أيوب بن الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م في القاهرة ، كان نائباً عن أبيه في حكم المشرق واقليم ديار بكر خلع أخاه عن الحكم وتولى الحكم بدلاً عنه سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، هو الذي أنشأ طائفة المماليك التي حكمت مصر فيما بعد، توفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م في المنصورة وخفي أمر وفاته، وخلفته زوجته شجر الدر؛ ابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٨٢-٢٨٥.

عبد الله بن طاهر: ابن الحسين الخزاعي، من أشهر ولاة الدولة العباسية ، ولد سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م، عُرف بشجاعته وكرمه وتعقله وحسن ادارته، تولى العديد من الولايات ومن بعد ذلك استقل في خراسان مؤسساً دولة عُرفت بالدولة الطاهرية ولكنه حافظ على علاقته الحسنة بالدولة العباسية، توفي سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج ١، ص ٣١٩

علاء الدين كيقباز: السلطان علاء الدين كيقباز بن السلطان كيخسرو بن السلطان قلع أرسلان ابن مسعود، أحد حكام دولة سلاجقة الروم، كان شجاعاً مهاب الجانب وقوراً، هزم خوارزم شاه واستولى على العديد من المدن ، توفي في شوال من سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م؛ المصدر نفسه، ج٢٣، ص٢٤.

علاء الدين محمد جمال الدين آييه: لم يعثر على تعريف له.

علي خواجه: يعتقد بأنه هو علي خواجه البخاري.

ماما يلواج: لم يعثر على تعريف له.

محمد بن عمر بن حمزة النسوي: لم يعثر على تعريف له.

مجير الملك شرف الدين: وزير السلطان علاء الدين محمد، ولكنه عزله لجرم ارتكبه عمه؛ الجويني، ج١، ص١٦١.

ناجن نوين: لم يعثر على تعريف له.

نايماس: لم يعثر على تعريف له.

الفصل الخامس

جماعات:

التاجيك: لقب أطلقه الفرس على الأتراك وفيما بعد على العرب ، ويعني اللصوص المغيرين؛ الجويني، ج١، ص١٢٦.

اليعاقبة: وهم طائفة من المسيحيين الشرقيين أتباع يعقوب، ولقد آمنوا بوجود طبيعة واحدة للسيد المسيح وهذه الطبيعة إلهية؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص٢٥٣.

الأماكن:

بنج ديه: وهي عبارة عن خمس قرى متقاربة من نواحي مرو الروذ عُمرت حتى اتصلت العمارة بالخمس قرى وصارت كالمحال بعد أن كانت مفردة ويقع بالقرب منها نهر المُرغاب؛ ياقوت الحموي، ج١، ص٣٤٣.

طروز: قرية كبيرة من قرى قزوين دمرها المغول؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج ٢، ص ١٠٨.

قلعة أستوناوند: قلعة مشهورة بدنباوند من أعمال الري يقال لها جرهد، بنيت منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ونيف؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٦.

قناة داك: مجرى قناة دريا الحالي؛ بارتولد، تركستان، ص ٢٥٢.

قوهذ: وهما قريتين تبعدان عن الري مرحلة واحدة، وتنقسمان بفعل مياه نهرٍ يخترقهما إلى قوهذ العليا، والسفلى ولقد وجد فيهما سوقٌ حسنٌ، ورياط وخانفاه، اجتاز بها ياقوت الحموي ولكنها دُمرت بعد ذلك على يد المغول؛ ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤١٦.

المدرسة العزيزية: نسبةً إلى عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني، ومن عمال السلطان سنجر السلجوقي؛ المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤.

ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم بلاد الشام وهي للمسلمين؛ المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٢.

موغان: ولاية واسعة بأذربيجان بها قرى ومروج على يمين القاصد من أردبيل إلى تبريز؛ القزويني، ج ٢، ص ٢٥٨.

نهر برش: وهو قناة درغم الحالية؛ بارتولد، تركستان، ص ١٦٩.

الأعلام:

ابن الحمامي: ولد محمد بن محمود سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، سمع بأصبهان وبغداد، وعُرف بكونه محدثٌ وقته في همدان، اتصف بصفاتٍ كثيرة منها حلاوة العبارة، والسماحة، استشهد مع ولده عبد الله على يد المغول سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سالف، ج ٢٢، ص ١٦١؛ ابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٣.

أبو الخير التبريزي: ولد بدل بن ابو المعمر بن اسماعيل في تبريز سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، اهتم بعلم الصيدلة والكيمياء، اضافةً لاهتمامه بعلم الفقه والحديث، تنقل بين المدن، ولما دخل المغول مدينته، توجه نحو مدينة حلب، وعاش فيها حتى وفاته سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، مصدر سالف، ج ٣، ص ٢٢٧؛ ابن العماد، ج ٧، ص ٣١٤.

الرافعي: ولد عبد الكريم بن محمد بن الفضل سنة ٥٥٥هـ/١١٥٩م في مدينة قزوين، عُرف بكونه من العلماء المهتمين بنشر علومهم، كان فريد عصره في تفسير القرآن والمذاهب، اشتهر بتعبده ونسكه وبكتابه التدوين في أخبار قزوين، توفي سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٢٨١.

أبو رشيد الغزال: محمد بن عبد الله أحد محدثي بلاد ما وراء النهر، عُرف بكونه من العلماء الثقة، توفي في بخارى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، مصدر سالف، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن العماد، ج ٧، ص ٢٥٦ ح ابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٤.

أبو روح الهروي البزاز: ولد عبد المعز بن محمد بن أحمد في هراة سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، اشتهر بصلاحه وتقواه وتفقهه على يد عدد كبير من رجال العلم، استشهد في واقعة هراة سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سالف، ج ٢٢، ص ١١٤-١١٥؛ ابن العماد، ج ٧، ص ١٤٤.

أبو سعد عبد الله بن عمر الصفار: ولد عبد الله بن عمر سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م في مدينة نيشابور، تتلمذ على يد عدد من علماء المنطقة فبرع في الفقه والأصول، ودرّس في المدرسة الشرفية، وبقي مدرساً فيها حتى وفاته سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ١٢٩؛ ابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٨٦.

السكاكي: ولد يوسف بن محمد بن علي السكاكي سنة ٥٥٥هـ/١١٥٩م في خوارزم، اهتم بعلوم العربية والأدب وبرع فيهما، توفي في خوارزم سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م؛ ابن العماد، مصدر سالف، ج ٧، ص ٢١٥؛ الزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ٢٢٢.

عبد الرحيم بن النفيس: هو عبد الله بن النفيس بن هبة الله، ارتحل بطلب العلم نحو الشام، والجزيرة، والعراق، وخراسان، وعُرف بكونه كان حافظاً ومتقناً وثقة توفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م في خراسان؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سالف، ج ٢، ص ٢٦٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٤٨؛ العبر في خبر من غير، ج ٣، ص ٢٦٤-٢٦٩.

أبو عمر النسوي: ولد محمد بن عبد الرحمن النسوي سنة ٣٨٧هـ/٩٨٨م في مدينة نسا، لكنه ارتحل لمدن عدة طلباً للعلم، وانتهى به المطاف في مدينة خوارزم حيث تولى منصب قاضي القضاة فيها، عُرف بكونه لغوياً ومفسراً ومدرساً وتوفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م؛ السبكي، طبقات

الشافعية الكبرى، مصدر سالف، ج ٤، ص ١٧٥ استراباد: مدينة تقع على حدّ طبرستان، تبعد عن أمل تسعة وثلاثين فرسخاً؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٣٩.

أبو عبد الله مسند العجم: ولد محمد بن عبد الواحد سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م في أصبهان، ومكث فيها وتلمذ على يد مجموعة من الفقهاء وعُرف بتقاه وصلاحه، استشهد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م؛ الذهبي، العبر في خبر من خبر، ج ٣، ص ٢١٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٩٢.

فخر الدين السمعاني: ولد عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمد بن منصور المشهور بلقب تاج الاسلام سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، حصل الكثير من العلوم، حجّ سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، وحديث ببغداد وغيرها من المدن، ولكنه عاد إلى خراسان واستشهد فيها سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سالف، ج ١، ص ١٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سالف، ج ٢٢، ص ١٠٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٧، ص ١٣٥.

القاسم بن عبد الله بن عمر الصفار: ولد القاسم بن عمر سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م في مدينة نيشابور، اشتغل بالفقه وعلوم اللغة، لم يهرب على أثر اجتياح المغول لخراسان، بل فضل البقاء فيها، واستشهد على يد المغول سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م؛ ابن العماد، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٥.

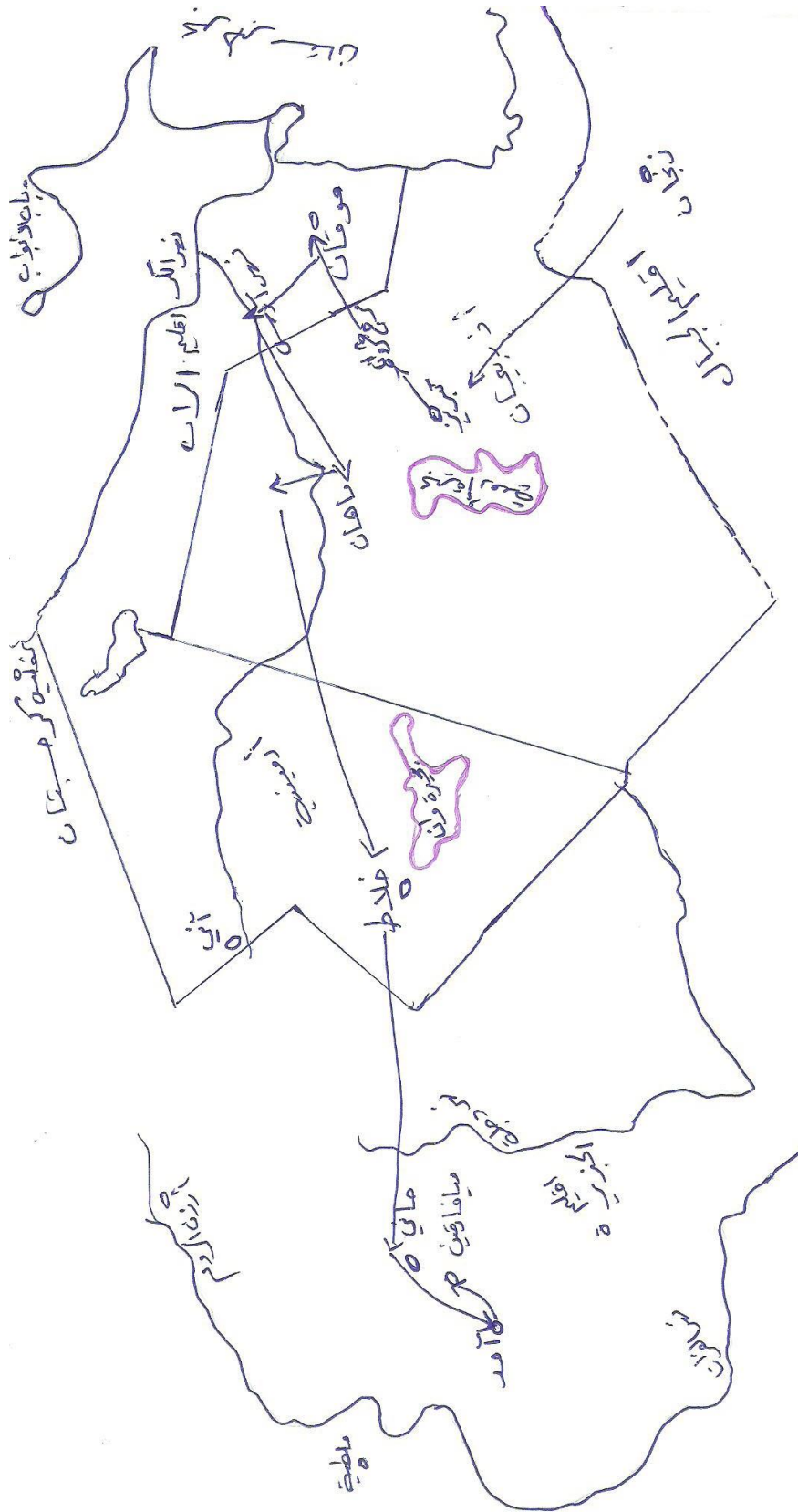
القزويني: ولد محمد بن الحسين في مدينة قزوین سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، حدث بالعراق، والشام، والحجاز، ومصر، ولكن عاد إلى مدينته قزوین، ولما اقترب المغول منها غادرها للموصل وبقي فيها لحين وفاته سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٦م؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٧٩.

المستوفي المبارك بن أحمد: ولد المستوفي في مدينة إربل سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، تولى منصب القضاء والوزارة فيها، عُرف باهتمامه بالتاريخ، مكث في قلعة إربل وبعد أن غادر المغول المدينة غادرها ليعود للسكن في داره، توفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م؛ الذهبي، العبر في خبر من خبر، ج ٣، ص ٢٣١.

المشاط الرازي: ولد سعد بن محمد بن محمود المعروف بالمشاط الرازي سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م في مدينة الري، ولقد توفي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ١١٢.

ابن مندة العبيدي الأصبهاني: حمود بن ابراهيم من العلماء المعروفين في أصبهان، اشتهر بإلمامه بعلم الفقه واللغة، قتله المغول سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م؛ ابن العماد، ج ٧، ص ٢٧٢.

الملاحق:

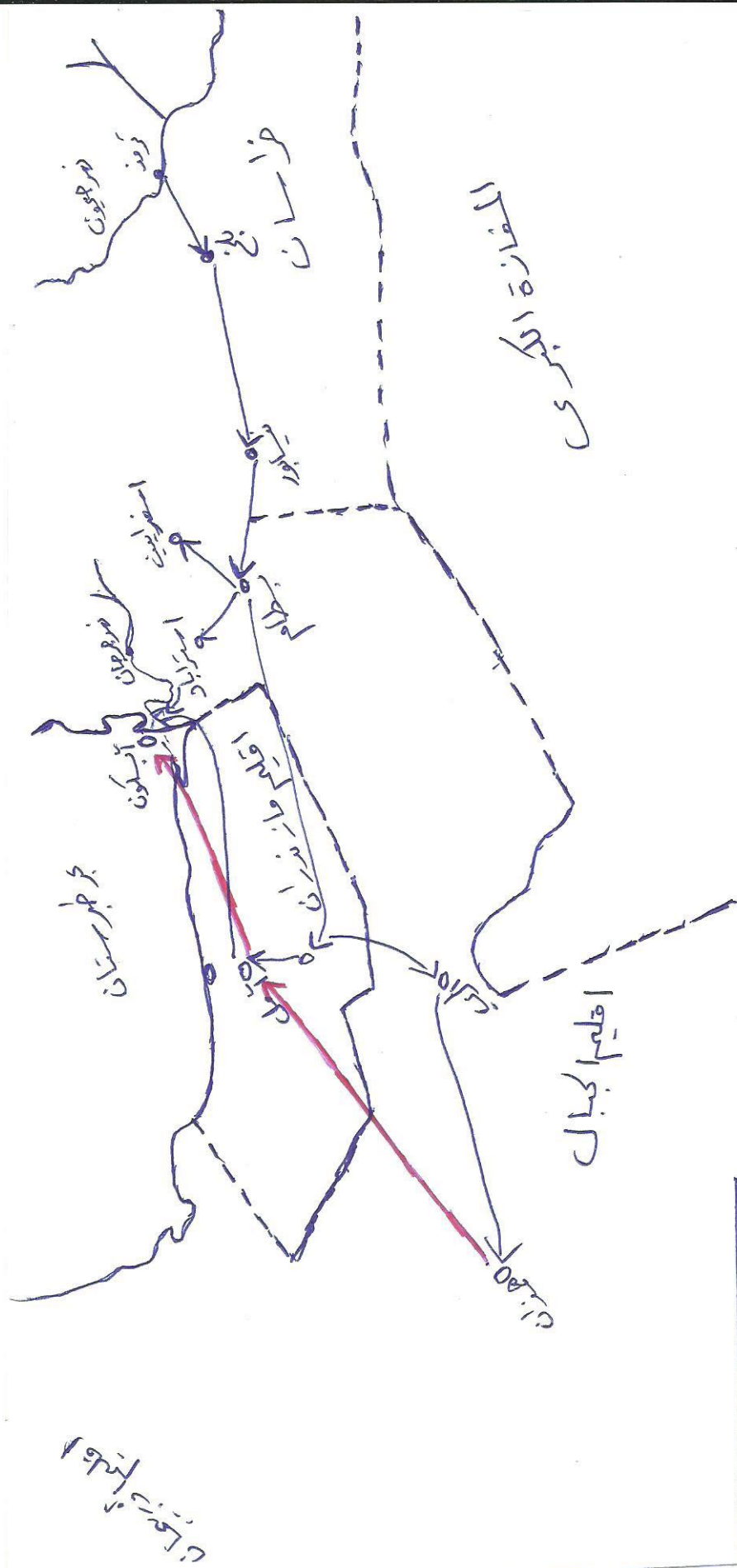


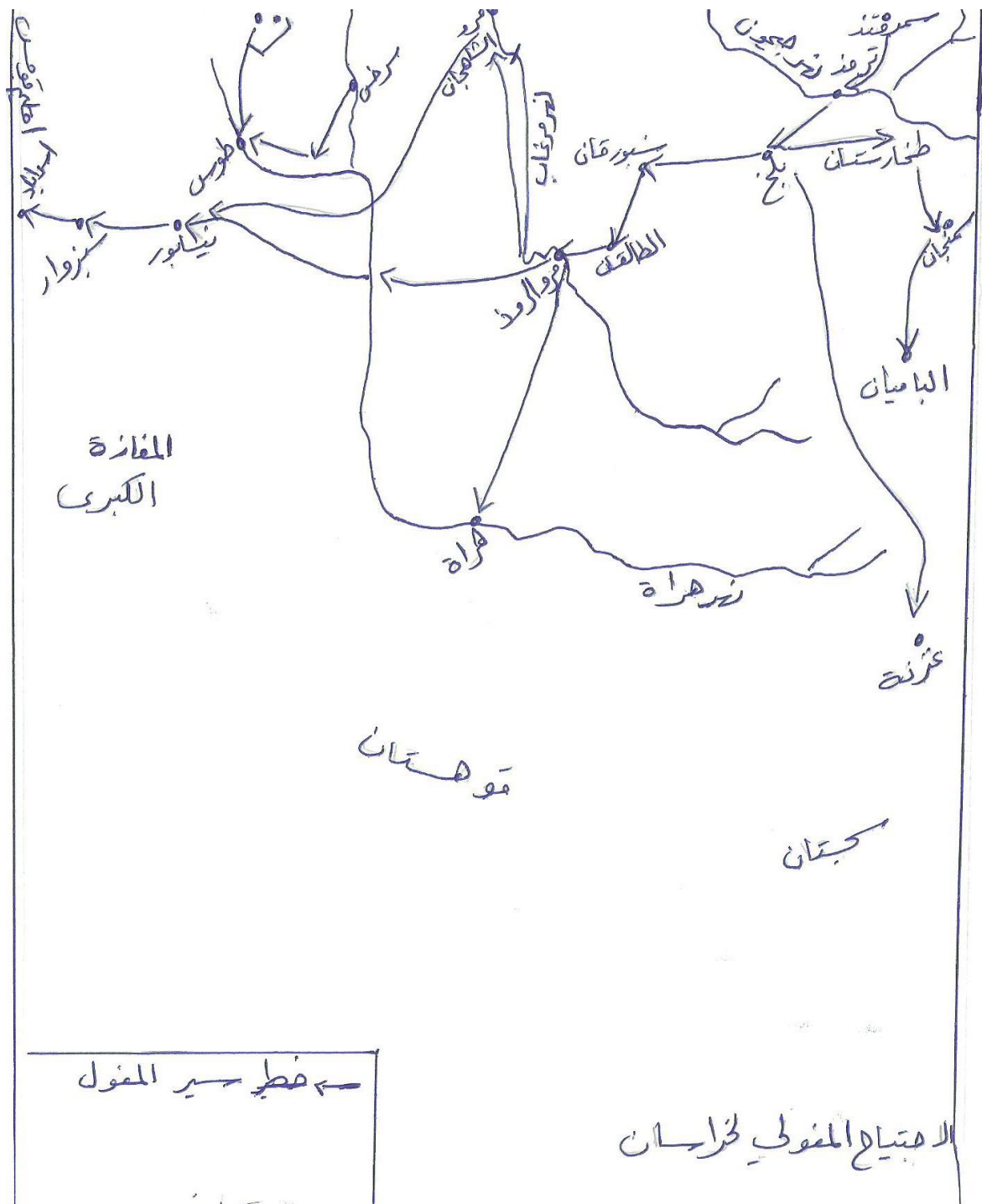
مطابقة المخطط للمخطط جلال الدين منكري

مطابق المخطط جلال الدين منكري

خط هـ راجع إلى السلطان علاء الدين محمد

وظائف العقل لا تطان على الدين في







صورة متخيلة لجنكيز خان

جريدة المصادر و المراجع:

أولاً- المصادر.

ثانياً- المراجع:

- ١- المراجع العربية.
- ٢- المراجع المعربة.
- ٣- الأبحاث والدوريات والمقالات.
- ٤- المراجع الأجنبية.

أولاً- المصادر:

- ١- القرآن الكريم.
- ابن الأثير (علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .
- ٢- الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام التدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط٤ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م .
- الاصطخري (ابراهيم بن محمد ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .
- ٣- المسالك والممالك ، تحقيق: محمد صابر عبد العال الحيني ، الجمهورية العربية المتحدة ، دار القلم ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م) .
- ٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه : محمد باسل عيون السود ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .
- ٥- رحلة ابن بطوطة ، بيروت، دار التراث ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٧٩ هـ / ١٣٣٨ م) .
- ٦- مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٩٥٤ م / ١٣٧٤ هـ
- البنديراي (الفتح بن علي ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .
- ٧- تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ط٣ ، ١٩٨٠ م / ١٤٠١ هـ
- ابن تغري بردي (يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .
- ٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٨ م / ١٤٢٩ هـ .
- الثعالبي (عبد الملك بن محمد ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) .
- ٩- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .
- الجوالقي(موهوب بن أحمد ت ٥٥٠ هـ / ١١٤٤ م).
- ١٠- المعرب على الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ابن الجوزي(عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م).

- ١١-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العربية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الجويني(عطا الملك ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).
- ١٢-تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي)، ترجمة: محمد ألتونجي، دمشق، دار الملاح، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ابن أبي الحديد(عبد الحميدبن هبة الله ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م).
- ١٣-شرح نهج البلاغة، بيروت، دار مكتبة الحياة،(د،ت).
- الحسيني (علي بن ناصر ت في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد) .
- ١٤- أخبار الدولة السلجوقية ، تحقيق : محمد إقبال لاهور ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م
- الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ت في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد).
- ١٥-الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه : إحسان عباس ، بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م
- ابن حوقل (محمد بن علي ت نح ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) .
- ١٦- صورة الأرض ، ليدن ، مطبعة بريل ، ط٢ ، ١٩٣٨ م / ١٣٥٧ هـ
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .
- ١٧-تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .
- ابن خلكان (محمد بن أحمد ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
- ١٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر، (د.ت)
- خواندمير(٩٤٢هـ / ١٥٣٣م).
- ١٩- دستور الوزراء ، تعليق وترجمة : حربي أمين سليمان ، تقديم : فؤاد عبد المعطي الصياد ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠ م
- الخوارزمي (محمد بن أحمد ت ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م) .
- ٢٠- مفاتيح العلوم ، تحقيق : ابراهيم الأبياري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، ١٩٨٩ م .
- ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٢ م) .
- ٢١- نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، تحقيق : سمير طيارة ، بيروت ، المكتبة العصرية .
- الدوادري (أبو بكر بن عبد الله بن أبيك ت٧١٣هـ/١٣١٣م).
- ٢٢- كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م.

- الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن الديار) .
- ٢٣- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، مطبعة الفقير عثمان بن عبد الرزاق ، ط ١ ، ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م
- الذهبي (محمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .
- ٢٤- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : بشار عواد معروف وآخرون ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ٢٥- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ٩ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- ٢٦- العبر في خبر من غبر ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٨٤ م .
- الراوندي (محمد بن علي ت ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م) .
- ٢٧- راحة الصدر وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة : ابراهيم الشواري وآخرون ، القاهرة ، عين شمس ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م
- ابن رسته (أحمد بن عمر ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) .
- ٢٨-الأعلاق النفسية ، ليدن ، المكتبة الجغرافية ، ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م .
- رشيد الدين الهمذاني (فضل الله بن أبو الخير ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) .
- ٢٩-التاريخ الغازاني من جامع التواريخ ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، كتاب قيد النشر .
- الرمزي (محمد مراد بن عبد الله ت في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد) .
- ٣٠- تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، أورنبورغ ، مطابع الكريمة والحسينية ، ط ١ ، (د ، ت)
- الرهاوي المجهول .
- ٣١- تاريخ الرهاوي المجهول ، عربه عن السريانية ووضع حواشيه : الأب ألبير أبونا ، بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٨٦ م / ١٤٠٧ هـ .
- التاريخ المنسوب خطأ لابن الساعي (علي بن أنجب ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) .
- ٣٢- مختصر أخبار الخلفاء ، مصر ، المطبعة الأميرية ، ط ٩ ، ١٣٠٩ م / ١٨٩١ م .
- ابن سباط (حمزة بن أحمد ت ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م) .
- ٣٣- صدق الأخبار في تاريخ ابن سباط ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، طرابلس ، جروس برس ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م
- السبكي (عبد الوهاب بن علي ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) .
- ٣٤- طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : انطوان صالحاني اليسوعي ، بيروت ، دار الرائد اللبناني ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨١ م .

- ابن الاسفنديار (محمد بن حسن ت بعد سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م).
- ٣٥- تاريخ طبرستان، ترجمة: أحمد محمد نادي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- السمعاني (عبد الكريم بن محمد ت ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م) .
- ٣٦- الأنساب ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- السيوطي (عبد الرحمن بن الكمال ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .
- ٣٧- تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد بن نصر أبي جبل ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٨ م .
- أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) .
- ٣٨- نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلانية والجلالية ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، دار التكوين ، ط١ ، ٢٠٠٨ م / ١٤٣٠ هـ .
- ٣٩- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، بيروت ، دار الجيل ، ط٢ ، ١٩٧٤ م / ١٣٩٤ هـ .
- الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) .
- ٤٠- الملل والنحل : تحقيق : أمير مهنا ، بيروت ، دار المعرفة ، (د.ت) .
- شيخ الربوة (محمد بن أبو طالب ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) .
- ٤١- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- الصفدي (خليل بن أبيك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٥٢ م) .
- ٤٢- الوافي بالوفيات ، تحقيق محمد الحجيري ، بيروت ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- الطرسوسي (مرضي بن علي ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) .
- ٤٣- موسوعة الأسلحة القديمة، تحقيق : كارين صادر ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٩٨ م / ١٤١٩ هـ).
- ابن الطقطقي (محمد بن علي ت ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م) .
- ٤٤- الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت ، دار صادر، ١٩٦٦م / ١٣٨٦ هـ .
- ابن العبري (غريغوري أبو الفرج هارون الملطي ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) .
- ٤٥- تاريخ مختصر الدول ، تحقيق : أنطوان صالحاني اليسوعي ، بيروت ، دار الرائد اللبناني، ١٩٨٣ م / ١٤٠٤ هـ .

- ابن العديم (كمال الدين عمر ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م).
- ٤٦- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: أ.د. سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ابن عرب شاه (أحمد بن محمد) .
- ٤٧- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، دمشق ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ م / ١٤٠٤ هـ
- ابن العماد (عبد الحي بن أحمد ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) .
- ٤٨- شذرات الذهب في أخبار من الذهب ، بيروت ، دار الفكر ، (د،ت)
- العمرى (أحمد بن فضل الله ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) .
- ٤٩- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : حمزة أحمد عباس ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- ابن العميد (جرجس بن العميد ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) .
- ٥٠- أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، (د.ت)
- الفارقي (أحمد بن يوسف ت بعد سنة ٥٧٢هـ/١١٧٢م).
- ٥١- التاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
- أبو الفداء (اسماعيل بن علي ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .
- ٥٢- تقويم البلدان ، تحقيق : رينورد والبارون جاك كوكين ديسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ، ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م .
- ٥٣ - المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة (د. ت) .
- ابن فضلان (أحمد بن فضلان ت في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد) .
- ٥٤- رسالة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان، بيروت، دار صادر، (د،ت).
- ابن الفوطي (عبد الرزاق بن أحمد ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٣ م) .
- ٥٥- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق : مصطفى جواد ، مصر ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، (د.ت)
- ٥٦- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ابن قدامة (قدامة بن جعفر ت ٣٢٠ هـ / ١٩٣٢ م) .
- ٥٧- الخراج وصناعة الكتابة ، دي غوية ، بريل ، ليدن ، ١٣٠٧هـ/١٩٩٨م.
- القرشي (شمس الدين ابراهيم الجزري ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) .

- ٥٨- المختار من تاريخ ابن الجزري ، تحقيق : خضير عباس المنشداوي ، بيروت ، دار الكتاب العربي، (د.ت)
القرماني (أحمد بن يوسف ت ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م) .
- ٥٩- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، تحقيق : أحمد حطيط ، فهمي سعد ، بيروت ، عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م
القزويني (زكريا بن محمد ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .
- ٦٠- آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت، دار صادر ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
القشيري (عبد الكريم بن هوازن ت ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م) .
- ٦١- الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق : معروف مصطفى زريق ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .
القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) .
- ٦٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ت).
- ابن كثير (اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م).
- ٦٣- البداية والنهاية، تحقيق : عماد زكي البارودي ، القاهرة ، المكتبة الوقفية ، (د،ت).
- مسكويه(أحمد بن محمد ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) .
- ٦٤- تجارب الأمم ، تحقيق : آمدروز ، مصر ، ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .
المقدسي (محمد بن أبو بكر النبات ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) .
- ٦٥- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الأردن ، دار الفارس للنشر ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م
المقريزي (أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) .
- ٦٦- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ م / ١٣٥٣ هـ
ابن منظور (محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) .
- ٦٧- لسان العرب ، بيروت ، دار الفكر ، (د.ت)
مؤلف مجهول.
- ٦٨- التاريخ السري ، ترجمة وتعليق : سهيل زكار ، كتاب قيد النشر ،
مؤلف مجهول .

- ٦٩- حدود العالم من المشرق إلى المغرب ، تحقيق : يوسف الهادي ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .
- النرشخي (محمد بن جعفر ت ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م) .
- ٧٠- تاريخ بخارى ، ترجمة : أمين بدوي ، نصر الله الطرازي ، القاهرة ، دار المعارف ، (د.ت)
- النسفي (عمر بن محمد ت ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م) .
- ٧١- القند في ذكر علماء سمرقند ، تحقيق : يوسف الهادي ، تهران ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م .
- النسوي (محمد بن أحمد ت ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) .
- ٧٢- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق : حافظ أحمد حمدي ، مصر ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣ م .
- النظامي العروضي السمرقندي .
- ٧٣- جهاز مقالة ، علّق عليه : محمد بن عبد الوهاب القزويني ، ترجمة : عبد الوهاب عزام ، ويحيى خشاب ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- النويري (أحمد بن الوهاب ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) .
- ٧٤- نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
- ابن واصل (محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) .
- ٧٥- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : حسنين محمد ربيع ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢ م / ١٣٩٢ هـ .
- ابن الوردي (عمر بن مظفر ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .
- ٧٦- تاريخ ابن الوردي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
- اليافعي (عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ هـ) .
- ٧٧- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، تحقيق : خليل منصور ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
- ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .
- ٧٨- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن واضح ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) .

٧٩- البلدان ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

ثانياً- المراجع:

١- المراجع العربية :

الأعظمي : محمد ضياء الرحمن

١- فصول في أديان الهند ، المدينة المنورة ، دار البخاري ، ط١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

الأمين : حسن

٢- جنكيز وهولاكو الغزو المغولي للبلاد الإسلامية من بغداد إلى عين جالوت ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ط٢ ، ١٩٨٣ م / ١٤٠٤ هـ .

أمين : حسين

٣- تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م
أمين : محمد فتحي

٤- الغزو المغولي لديار الإسلام ، دمشق ، دار الأوائل ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
بدر : فاروق

٥- تاريخ أفغانستان ، مصر ، المطبعة النموذجية ، (د.ت)
بدر : مصطفى طه

٦- محنة الإسلام الكبرى ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
برجاوي : سعيد

٧- الحروب الصليبية في المشرق ، بيروت ، دار الآفاق ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.
جمال الدين : محمود السعيد

٨- دولة الإسماعيلية في إيران ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر ، ط١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .
حبلي: مختار

٩- حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها العلامة ابن أبي الحديد المدائني ت
٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، باريس، دار لارماتون، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.

الحديثي : قحطان عبد الستار

١٠- أرباع خراسان ، البصرة ، جامعة البصرة ، (د.ت) .

حسن : ابراهيم حسن

١١- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، بيروت ، دار الجيل ، ط١٥ ،

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

حسين : محمد كامل

١٢- طائفة الإسماعيلية ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٥٩ م / ١٣٧٩ هـ .

حطيط : أحمد

١٣- حروب المغول ، بيروت ، دار الفكر اللبناني ، ط ١ ، ١٩٩٤ م

حلمي : أحمد كمال الدين

١٤- السلاجقة في التاريخ والحضارة ، الكويت ، ذات السلاسل ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

حمدي : حافظ أحمد

١٥- الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م .

الخالدي : اسماعيل

١٦- العالم الإسلامي والغزو المغولي ، الكويت ، مكتبة الفلاح ، (د.ت)

الخطيب : مصطفى عبد الكريم

١٧- معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

خفاجي : محمد عبد المنعم

١٨- البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ، بيروت ، دار الجيل ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٤ م .

رستم : سعد

١٩- الفرق والمذاهب الإسلامية ، دمشق ، دار الأوائل ، ط ٧ ، ١٤٣١ هـ / ٢٠٠٩ م .

٢٠- الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، دمشق ، دار الأوائل ، ط ٢ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

رمضان : أحمد السيد

٢١- الأوزان والمقاييس والمكايل عند العرب والمسلمين ، دمشق ، دار الملاح ، ط ١ ،

١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

الزركلي : خير الدين

٢٢- الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ١٤ ، ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ .

زكار : سهيل

٢٣- أخبار المغول (لدى معاصريهم من المؤرخين العرب والصليبيين والأرمن) ، كتاب

قيد النشر .

زكي : عبد الرحمن

٢٤- السلاح في الإسلام ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٤م / ١٣٩٤ هـ .

الزهاوي :عباس

٢٥- السياسة الداخلية والخارجية للدولة الإيلخانية ، بغداد (دت)

سعفان : كامل

٢٦- معتقدات آسيوية ، مصر ، دار الندى ، ط١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م

سليم : صبري عبد اللطيف

٢٧- الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات

المغول في إيران ، القاهرة ، كلية دار العلوم ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

٢٨- المغول وعالم الاسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

السيد : أديب

٢٩- أرمينية في التاريخ العربي ، حلب ، المطبعة الحديثة ، ط١ ،

١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

السيد : محمود

٣٠- التتار والمغول ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

شبارو : عصام محمد

٣١- السلاطين في المشرق العربي ، بيروت ، دار النهضة العربية ،

١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

ثلبي : أحمد

٣٢- أديان الهند الكبرى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .

صبرة : عفاف

٣٣- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ط١ ،

١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

الصدفي : رزق الله

٣٤- تاريخ دول الإسلام ، مصر ، مطبعة الهلال ، ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م

الصياد : فؤاد عبد المعطي

٣٥- المغول في التاريخ ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ط١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م .

طقوش : محمد سهيل

٣٦- تاريخ المغول العظام والإيلخانيين ، بيروت ، دار النفائس ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ /

٢٠٠٧ م .

عاشور : فايد حماد

٣٧- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي ، مصر ، ط ١ ،
١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

عبد الحكيم : منصور

٣٨- جنكيز خان ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

عبد الحليم : رجب

٣٩- انتشار الإسلام بين المغول ، مصر ، دار النهضة العربية ، (د ، ت).

العبود : نافع

٤٠- الدولة الخوارزمية ، بغداد ، مطبعة جامعة الآداب ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م.

العريني : السيد الباز

٤١- المغول ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.

العزاوي : عباس

٤٢- تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ، مطبعة بغداد الحديثة ، ١٣٥٤ هـ /

١٩٣٦ م

عطا : زبيدة

٤٣- الترك في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الفكر العربي ، (د. ت)

عكاشة : ثروت

٤٤- إحصار من الشرق ، مصر ، دار الشروق ، ط ٥ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

عمران : محمود سعيد

٤٥- المغول وأوربه ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، (د. ت).

الغتيت : محمد علي

٤٦- الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، مصر ، مطابع الدار

القومية (د. ت).

غنيمات : قاسم محمد مزعل

٤٧- الجيش المغولي في الفترة ما بين (٦١٥ - ٧٣٦ هـ / ١٢١٨ - ١٣٣٥ م) ،

الأردن ، دار اليازوري ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

الفقي : عصام

٤٨- الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو

المغولي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٩٩ م

فهمي : عبد السلام عبد العزيز

٤٩- تاريخ الدولة المغولية في إيران ، مصر ، دار المعارف ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.

المدور مروان

٥٠- الأرمن عبر التاريخ ، دمشق ، دار نوبل ، ط١ ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

مصطفى :أحمد بن الرحيم

٥١- أصول التاريخ العثماني ، مصر ، دار الشرق ، ط٣ ، ١٢٤هـ/٢٠٠٣م.

مجمع اللغة العربية

٥٢- المعجم الوسيط ، أشرف على إخراجه : مجمع اللغة العربية ، مصر ،

مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م

معروف : ناجي

٥٣- عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ،

(د.ت).

٥٤- علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ،

١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

مقديش : محمود

٥٥- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق : علي الزواري محمد

محفوظ ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

هلال : عادل

٥٦- العلاقات بين المغول وأوربه وأثرها على العالم الإسلامي ، مصر ، عين

الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

يوسف : جوزيف نسيم

٥٧- العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ،

الاسكندرية ، دار الكتب العلمية ، ط٣ ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٢- المراجع المعربة :

أرنولد :سير توماس .و

١- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ،

١٣٦٧هـ/١٩٤٧م.

إقبال :عباس

٢- تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية ، ترجمة : عبد الوهاب

علوب ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

٣- تاريخ ايران بعد الاسلام ، تحقيق وترجمة : محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ايبو جمال : ناديا

٤- الناجون من الغزو المغولي نزاری قوهستانی واستمرارية التقليد الاسماعيلي في إيران ، ترجمة : سيف الدين القصير ، بيروت ، دار السامي ، ط١ ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

بارتولد : فاسيلي ، فلاديمير وفتش

٥- تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، قسم التراث العربي ، ط١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١ م .

٦- تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

بارانسكي

٧- جغرافية الاتحاد السوفيتي الاقتصادية، ترجمة: الياس شاهين، موسكو، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

باركر : ارنست

٨- الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ط٢ ، (د.ت) ،

براج : ه . فان

٩- حكمة الصين ، ترجمة : موقف المشنوق ، دمشق ، الأهالي للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

براون : ادوارد جرانفيل

١٠- تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة : ابراهيم أمين الشواربي ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

بوزورث : كليفورد

١١- الأسرار الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة : حسين البودي ، الكويت ، مؤسسة الشراع العربي ، ط٢ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥.

دفترى : فرهاد

١٢- إسماعيلون في العصر الوسيط ، تاريخهم وفكرهم ، ترجمة : سيف الدين القصير ، دمشق ، دار المدى ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

رنسميان :ستيفن

١٣- تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، بيروت ، دار الثقافة ، ط ٢ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م .

سوريال : عزيز

١٤- تاريخ المسيحية الشرقية : ترجمة : اسحاق عبيد ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

شبولر : بارتولد

١٥- العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية ، ترجمة وقدم له : سهيل زكار ، كتاب قيد النشر .

غروسية : رينية

١٦- جنكيز خان قاهر العالم مع ملحق يوميات رحلة الراهب الطاوي شانغ شن من بكين إلى معسكر جنكيز خان في هندوكوش ، ترجمة وتعليق : أ. د. سهيل زكار ، كتاب قيد النشر .

فامبري : ارينوس

١٧- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة: أحمد محمد الساداتي ، القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق ، (د. ت)

فلاديمير ستوف : ب . يا

١٨- حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية ، ترجمة : سعد بن محمد بن حذيفة الغامدي ، الرياض ، جامعة الملك سعود ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

فوانغ : شيوبي

١٩- جغرافيا الصين ، ترجمة : محمد أبو جواد ، بكين ، دار النشر باللغات الأجنبية ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

فولسكي : دورويتاكر

٢٠- العرب وإيران دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الايديولوجي ، بيروت ، دار المنتخب العربي ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

كاهن : كلود

٢١- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : أحمد الشيخ ، مصر ، سيناء للنشر ، ط ١ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

لسترنج كي

٢٢- بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس ، كوركيس عواد ، بغداد ، مطبعة الرابطة ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م

لويس : برنارد

٢٣- الحشيشية : الاغتيال الطقوسي عند الاسماعيلية النزارية ، ترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، دار قتيبة ، ط٢ ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

مارشال : روبرت

٢٤- من جنكيز خان إلى قبلاي (عاصفة من الشرق) ، ترجمة : سهيل زكار ، كتاب قيد النشر .

متز : آدم

٢٥- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

معلوف : أمين

٢٦- الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ترجمة : عفيف دمشقية ، لبنان ، دار الفارابي . ط٢ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

نومكين : فيتالي

٢٧- سمر قند ، ترجمة : صلاح صلاح ، أبو ظبي ، منشورات المجمع الثقافي ، ط١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

هارفي : بطرس

٢٨- البوذية التعليم والتاريخ والممارسات ، ترجمة وتعليق : سهيل زكار ، دمشق ، كتاب قيد النشر .

ولبر : دونالد

٢٩- إيران ماضيها وحاضرها ، ترجمة : عبد النعيم محمد حسنين ، القاهرة دار الكتاب لمصري ، ط٢ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٣- الأبحاث والدوريات والمقالات :

إلياس : سليم

١- الموسوعة الكبرى للمذاهب والفرق والأديان ، بيروت ، مركز الشرق الأوسط الثقافي ، (د،ت) .

باعمر : محمد سالم بكر

٢- الصراع بين الإسلام والوثنية في إيلخانية مغول إيران على عهدي تكودارخان وأرغون خان ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز الآداب وعلوم الإنسانية ، جدة ، جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية ، مجلد ١٥ ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

حسن : محمد خليفة

٣- المعتقدات الدينية عند المغول في عصر جنكيزخان ، مجلة رسالة المشرق ، القاهرة ،
مركز الدراسات الشرقية ، مجلد خامس ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

حسن : نزار

٤- مدى تطبيق القوانين المغولية في السلطة المملوكية ، مجلة دراسات تاريخية ، دمشق ،
جامعة دمشق ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦هـ.

كدرو : نرجس أسعد

٥- موقف المغول الايلخانيين من العقائد والمذاهب الدينية من وفاة هولاكو إلى نهاية حكم
أبي سعيد بهادرخان ، بحث لنيل درجة الماجستير ، إشراف : فتحي أبو سيف ، أحمد
أحمد ، القاهرة ، جامعة عين شمس ، ١٤٣١هـ / ٢٠٠٩م.

٤- المراجع الأجنبية :

ARusanovsky(Valentin) :Fandamental Prnciples of mongol law .Indiana
.Indiana university publication, ١٩٦٥

١- Eberhard (Wolf ram) A history of China , London , ١٩٦٨ .

٢- Kolbas (Judith) The mongols in Iran, Rout ledge madison,Aue , new
york. ٢٠٠٦

٣- Reynold (Wayne) :Mongol Warrior .Osprey Publishing ,Great Britain
٢٠٠٨

٤- The travels of Chang Ckun to the west , writer by his disciple Lichi
chang , transtated by E.B rest chneider, prouduct by silk road seattle
. ٢٠٠٣.

٥- شبرين (بياني) دين ودولت درايران عهد مغول ، أرتشليل حكومت منطقي أي مغولان ، ب
تشكيل حكومت إيلخان ، جابه دوم ، تهران ١٣٧ هـ . ش .